تاريخ
مسلمي صقلية

كتبه: ميكيلي أماري

إعداد

د. محب سعد إبراهيم



المجلد الثاني



فلورنسا
لي مونيبه
٢٠٠٣

المجلد الثانى

الكتاب الثالث

ترجمة

أ. د. سوزان بديع إسكندر

أ. د. محب سعد إبراهيم

د. عبد المحسن عبد الباسط

مراجعة

أ. د. سوزان بديع إسكندر

أ. د. محب سعد إبراهيم

الكتاب الرابع

ترجمة

أ. د. محب سعد إبراهيم

أ. د. ربيع محمد سلامة

د. عبد المحسن عبد الباسط

د. نرمين وجيه حكيم

مراجعة

أ. د. سوزان بديع إسكندر

أ. د. محب سعد إبراهيم

الكتاب الثالث

الفصل الأول

على النقيض من مجتمع الروم قبل خروجهم من صقلية وقد دبت فى أوصالهم عوامل الإنهاك والإعياء، كان المسلمون الذين - حلوا محلهم - يحملون بين جوانحهم إمارات القوة والتقدم وأيضاً الفتنة والشقاق. لقد تحدثنا فى الكتاب الأول عن النظم العامة عند المسلمين وكيف تشيعوا فى أفريقية. وفى هذا المقام سنتناول تفصيلاً وتحديداً بعض فصول فقههم العام وتطبيقه فى صقلية.

ونبدأ بالحديث عن النظام السياسى. إن الدولة الإسلامية - منذ عهد الأمويين - غلب عليها الطابع الاستبدادى الذى ازداد حدةً وسوءاً فى عهد العباسيين. ومع هذا، لم يكف رجال الدين ووجهاء الناس عن المشاركة حسب سلطتهم فى الحياة العامة بإحدى هاتين الطريقتين: إما بالتفسير االفقهى للشريعة الإسلامية، واما بتقطيع أوصال الدولة الإسلامية. ولقد أشرنا إلى هذا الموضوع عند الحديث عن المسلمين فى أفريقية(1). فطبقاً للنظريات التى استخلصها الفقهاء(2) مما ورد فى الشريعة الإســـلامية من عناصر متنوعة، كانت الدولة الإسلامية - فى حقيقة الأمر - مكونة من دويلات يطلق عليها ولايات جمع بينها اتحاد ضعيف . وفى كتاب المــاوردى، وهو فقيه ومؤلف ذائع الصيت من فقهاء القرن العاشر الميــلادى، نقرأ أن الوالى كـان يُكـلف بأمر الولاية ممثلاً للدولة الإســلامية، وليس للخليفة، ويمــارس فى ولايته

---

(1) انظر الكتاب الأول، الفصلين الثالث والسادس.

(2) بالإضافة إلى القرآن والسنّة، أى التعاليم الإلهية والقدوة النبوية، فإن الشريعة الإسلامية تقوم أيضاً على الاجتهاد، وهى كلمة تعنى حرفياً «جهد» المفسرين والقائمين على أمر تطبيق الشريعة فى الحالات التى لم يرد فيها نص صريح.

كل سلطات الخليفة(1)، ما عدا تفسير العقائد وتأويلها(2). فكان من اختصاص الوالى:

- تنظيم الجيوش، وتوزيع القوات فى الثغور المهمة، وتحديد رواتب الجند، فى حالة عدم قيام الخليفة بذلك.
- رعاية ديوان القضاء واختيار القضاة والحكماء، وهم قضاة يُعينون فى الحواضر الصغيرة.
- جمع الخراج، واعطاء منْ له حق فيه، واختيار القائمين عليه؛
- الذود عن حمى الدين والدولة.
- القصاص على الجرائم فى الحدود التى سنذكرها فيما بعد؛
- إمامة المسلمين فى الصلوات الجامعة، بشخصه أو بمن ينوب عنه؛
- تسيير الحجيج إلى مكة ورفادتهم.
- وإذا كانت الولاية على الحدود، فعليه أن يحارب جيرانه الكفار، وتقسيم الغنائم على المحاربين والاحتفاظ بالخُمس لأهله(3).

---

(1) الماوردى، **الأحكام السلطانية**، الكتاب الثالث، طبعة انجر، ص ٥١.

(2) الماوردى، المصدر نفسه، الكتاب الأول، ص ٢٥،يذكر واجبات الإمام، أو بالأحرى الخليفة الذى هو إمام وحاكم، وهى: أولاً: الحفاظ علي الدين حسب العقائد الأصلية والتفسيرات التى اتفق عليها الأئمة السابقون، ورد أهل البدع إلى الشريعة الغراء، بالحكمة أو بالقوة؛ ثانياً: تنفيذ الأحكام سواء ما يتعلق منها بالحقوق المدنية أم بالقصاص؛ ثالثاً: المحافظة على الأمن الداخلى؛ رابعاً: فرض التمسك بالتعاليم الدينية وممارستها؛ خامساً: الذود عن أرض المسلمين؛ سادساً: شن الحرب على الكفار؛ سابعاً: جمع الزكاه والجزية؛ ثامناً: إجراء الرواتب والنفقات العامة؛ تاسعاً: استعمال وزراء ذوى كفاءة وأمانة وأهل للثقة؛ عاشراً: القيام بنفسه بالأمور العظيمة. وإذا تم إسقاط النقطتين الأخيرتين اللتين تضمان نصائح سلوكية، وليس تنظيماً للحقوق العامة، فإن واجبات الإمام الأخرى لا تختلف عن واجبات الوالى، إلا فى سلطته فى تفسير العقائد.

(3) الماوردى، المصدر نفسه، الكتاب الثالث، ص ٤٧ ـ ٤٨. ويضيف المؤلف أن مهمة الأمير كانت عامة وكذلك خاصة؛ فمن المعروف عُرفاً أن الأمير كان يتولى أمور الحرب والشرطة، كما نقول نحن اليوم، وهناك أمير آخر يقوم على أمر القضاء والأمور العامة؛ المصدر نفســه ص ٥١. ولكن هذا نادراً ما كان يحــدث. والمــاوردى نفسه فى ص ٥٤ يذكر أنه فى الولايات التى تم فتحها حديثاً كـانت سلطة الأمير عامــة؛ ولا يمكن التقليل من أرضه أو من سلطانه عليها. والأسباب التى يسوقها الماوردى تقوم على المسلمة القائلة بأن خير الدين والأمة الإسلامية مُقدم على رغبة الخليفة وهواه.

ولذا كان الناس الذين يعيشون فى ولاية يتولى أمرها والٍ، لا يعترفون بالخليفة مشرعاً ولا قائماً على تنفيذ الشريعة؛ فلا يرون إلا سلطات الوالى؛ وهذا، بدوره، لا يحرص إلا على الإذعان للشرع والاحتكام لضميره؛ ولا يخضع لأوامر الخليفة، إلا فى حالة رواتب الجند المقررة سلفاً من قبله. وكان الخليفة يولى الأمير ويخلعه من الإماره، ويفعل الشئ نفسه مع القاضى، دون إملاء قراراته على الأول، ولا الأحكام على الثانى؛ حتى إن الإدارة المدنية، والعسكرية، والدينية، والقضائية كان يتم تسييرها كما يحدث اليوم فى دول أوربا بالنسبة للقضاء وحده والتى تستعمل قضاة لا يمكن نقلهم بشكل تعسفى. وسواء كان ذلك خيراً أم شراً، فإنه كان نتيجة حتمية لحكم رجال الدين. وإذا حدث أن أكره الخليفةُ الأمير على القيام بعمل من الأعمال، ملوحاً بخلعه، فإن ذلك لا يُعد قاعدة عامة من قواعد الحكم، بل يُعد إساءة لاستعمال السلطة من قبل مَنْ يحكم وجبناً من قبل مَنْ يطيع. وهذا الجبن أيضاً كان يلازم الخليفة الذى يخفى، كما لو كان خطيئة، إشرافه على واليه، عاهداً بذلك إلى صاحب ديوان البريد(1). وكانت السلطة الحقيقية للوالى تتفق مع مظاهرها، وبخاصة الاحتفال بالبيعة له وكذلك للخليفة(2). كما كانت العملة، فى القرنين الأولين للإسلام، تُضرب باسم الوالى فقط، فعلى سبيل المثال باسم الحجاج بن يوسف فى العراق، وموسى بن نصير فى إفريقيــة وأسبانيا وإبراهيم بن الأغلب فى إفريقية(3). ولذا اتسعت

---

(1) ديوان البريد كان يطلق عليه العرب بريد، وهى نقل عن كلمة لاتينية *Veredus*. ويبدو أن الساسانيين كانوا يتبعون التقليد نفسه فى مسائل الشرطة العليا؛ كما أشرت إلى ذلك فى ترجمة **كتاب السلوان** لابن ظفر، الملحوظة ٢٤ فى الفصل الخامس ص ٣١٣، ٣١٤.

(2) **البيان**، المجلد الأول، ص ٧٥، والنويرى، **تاريخ افريقية**، النسخة الفرنسية لـ م. دى سلان، فى حاشيته عن ابن خلدون، *Histoire des Berbères*، المجلد الأول، ص ٣٨٨، يتحدثان عن البيعة لأمير إفريقية الجديد نصر بن حبيب (٧٩١).

(3) من المؤكد ان إبراهيم لـم يكن مسـتقلاً أكثـر من غيـره من ولاة الأمصـار. ولا يجب التنويـه عن العمـلات التى نُقش اسـم الحجـاج عليهـا. أمـا بالنسبة للعمـلات التى ضُرب اسـم موسى عليها. فيقال إن كتاباتها كانت أحياناً لاتينية، ونفهم هذا من خطابات م. دى ساسى، فى *Journal Asiatique*،

سلطة الوالى الشرعية لدرجة كان من الصعب إضعافها فى البلدان البعيدة عن حاضرة الخلافة، ولما أقامت فى تلك البلدان طبقة من قواد الجيش، فإنه يتضح كيف كان من الممكن لكل ولاية من الولايات الانفصال عن الدولة الإسلامية، ولكن بشرط أن يناصر الجند الوالى ويتشيعون له؛ ومن ثم أصبح اعطاء الجزية للخليفة أمر لا قيمة ولا أثر له. وهكذا نشأت الدولة الطاهرية فى فارس، ودولة الأغالبة فى إفريقية، والدولة الطولونية فى مصر وغيرها كثير. ونجد أن هؤلاء الولاة الجدد، بدورهم، إذا قاموا بإرسال أمراء فى الولايات التى فتحوها، كانوا يجدون أنفسهم أمامهم فى المواقف نفسها، بل وأسوأ من تلك التى وجد الخلفاء أنفسهم فيها أمام الولاة؛ ولم يكن لهم هيبة الخلافة الدينية، ولا حتى التمييز فى اللقب عن حكام أقاليمهم.

وكانت تُطبق فى صقلية قواعد القانون العام حتى الطاغية إبراهيم بن أحمد، وإذا كان قد خالفها أحد فكان المستوطنون هم الذين يخرجون عليها أكثر من الأمير. وكان أمراء الجزيرة هم الذين يقومون بأنفسهم بعقد السلم والمعاهدات وتقسيم الغنائم، وهذا ما وصل إلى علمنا من الحوليات الإسلامية القليلة؛ ولا يوجد أثر لممارسة القيادة فى صقلية من جانب أمراء إفريقية. لذا نقرأ أن حاكم الجزيرة مرة كان يُطلق عليه أمير ومرة أخرى والى، وفى بداية الفتح كان يحمل لقب صاحب؛ وهذا اللقب الأخير ـ على ما يبدو ـ يشير إلى سلطته غير العادية والمستقلة، كما أوضحنا هذا فى الكتاب الثانى(1). إلا أن العملات تحمل علامات أقل تحديداً عن هذا الموضوع. فمن بين العملات القليلة التى بقت بين أيدينا من الأغالبة هناك عملتان فضيتان تحملان اسم أمير صقلية مع اسم أمير الأغالبـة، ويرجع تاريخهمـا إلى عام مائتين وأربع عشرة وعام

المجموعة الثالثة، المجلد السابع، ص ٥٠٠، ٥٤٠ (١٨٣٩)، والمجلد العاشر، ص ٣٨٩ وما يليها من صفحات (١٨٤٠).

(1) الفصل الخامس، ص ٣٦٢،

مائتين وعشرين. وهناك أيضاً عملة فضية يرجع تاريخها إلى عام مائتين وثلاثين، نُقشت عليها رموز دينية، وشعار الأغالبة وتاريخ بالرمو، وليس عليها اسم الأمير أو أمير الأغالبة. كما توجد عملة ذهبية يرجع تاريخها إلى عام مائتين وثلاثة وثلاثين، ولا تحمل اسم صقلية ولا اسم الأمير الأغلبى، ولكن عليها عبارة دينية واسم أمير صقلية وشعار الأغالبة. ومنذ ذلك التاريخ وحتى نهاية أسرة الأغالبة، نجد بعض العملات التى نعتقد أنها صقلية من طريقة صنعها، دون أن نقرأ عليها اسم صقلية أو بالرمو، وهذه العملات نُقش عليها فقط اسم أمير إفريقية(1).

نستخلص من هذا أن الأمراء الأوائل قاموا بسك العملة، وكذلك الذين أتوا من بعدهم. ومزاولة هذا الحق لها مغزى كبير فى الممالك المسيحية، وليس كذلك فى البلدان الإسلامية فى القرون الخمس الأولى للهجرة. ولهذا ترك الخلفاء ولاة الأقاليم ينقشون اسماءهم على العملات وترك الأمراء الحقيقيون، الذين حلوا محل الخليفة، أمراء الأقاليم ينقشون أسماءهم؛ حتى إنه كان هناك مثل يقول: «للخليفة الخطبة واسمه على العملة» ومعنى هذا السيادة الاسمية فقط للخليفة(2).

(1) إن العملات العربية الصقلية القديمة لا تقدم العون الكافى لفهم التاريخ، حيث إنه تم نشر القليل منها حتى الآن. كما لم تتم دراسة مجموعة العملات المهمة التى لدى آيرولدى. يُضاف إلى هذا، أن الآمال قليلة فى العثور على عملات حقبة الأغالبة، لأن كمية كبيرة منها قام الفاطميون بصهرها بسبب غيرتهم وتقتيرهم وحذقهم الإدارى. وقد قام تيشسن ، وآدلر ، وكاستيليونى بنشر بعض العملات التى يرجع تاريخها إلى عصر الأغالبة، كما نشر بعضاً منها مورتيللارو الذى كتب قائمة مفيدة بكل العملات العربية ـ الصقلية التى وصلت إلى علمه. والعملات الأربعة التى أشرت إليها فى النص، توجد العملتان الأولتان منهما فى تلك القائمة (مورتيللارو، **الأعمال الكاملة**، المجلد الثالث، ص ٣٤٣ وما يليها من صفحات)؛ وربما قد قدمت معلومات أدق عنها فى الكتاب الثانى من «تاريخ مسلمى صقلية» هذا، الفصل الثالث، ص ٣٥٠، والفصل الخامس، ص٣٦٢، والفصل السادس ص ٣٨٤ من المجلد الأول. أما عملات الأغالبة الصقلية الأخرى فهى مدونة فى قائمة مورتيللارو ابتداءً من رقم ٥ وحتى رقم ١٢.

(2) فخر الدين، فى كتاب ساسى *Chrestomathie Arabe*، المجلد الأول، ص ٨٤. ولست فى حاجة لأن أنوه على أن الخطبة تكون فى الصلاه الجامعة، وفيها يُذكر اسم الوالى والخليفة.

وعلاوة على سلطة أمراء صقلية الحقيقية، فمن الجدير بالملاحظة أن مسلمى صقلية غالباً ما كانوا لا ينتظرون الإذن من إفريقية لتولية أمير آخر فى حالة وفاة الأمير، وغالباً ما كانوا يقومون بطرد مَنْ يختاره أو يوليه الأمير عليهم(1)؛ الشئ نفسه كان قد حدث فى أسبانيا قبل خلافة قرطبة، وفى إفريقية قبل بنى الأغلب. وهذا الجور على حق الخليفة دفعهم للتسليم بأن الأمير يمثل الرعية المسلمة، وليس الخليفة؛ وعليه فإن سيادة بنى الأغلب كانت اسمية، فاعتياد مزاولة حق مقرر قبل الإسلام لم يتوقف بعده: أى أن كل جماعة من العرب، صغيرة كانت أم كبيرة، قبيلة أم عشيرة، كانت تختار دوماً رئيسها وزعيمها.

وليس من الضرورى أن نصف تفصيلاً أجزاء التنظيم المدنى الأخرى؛ فهى واضحة تمام الوضوح، ولا تختلف اختلافاً كبيراً من بلد لآخر. فمع الوالى كان هناك عدد قليل من القضاة يقومون بتنفيذ أحكام الشرع. وبداية من ديوان القضاء نجد أن العدالة كانت معقدة ومتعسفة غالباً. إذ يصدر الحكم قاض واحد فقط، مسترشداً بالرأى الشرعى للمفتيين، أى المستشارين كما نطلق عليهم اليوم. وكانت هناك درجة واحدة للمحاكمة؛ وأربعة قضاة لكل منهم اختصاصات غير محددة بشكل جيد. فالأمير(2) هو قاضى الأمور الجنائية، وهو الذى يطبق حرفياً القصاص المنصوص عليه فى القرآن ولا شئ غير ذلك؛ وعلى النقيض، فإنه أثناء المحاكمة، كان يجوز له التدخل الذى كان منكراً على القاضى. والأمير هو الذى يقرر بنفسه فى الكبائر المقررة فى القرآن(3) أو يوكل غيره فى ذلك. أما فى الجرائم المدنية(4)، فكان هو أو القاضى الذى يقرر أمام مَنْ

---

(1) انظر الكتاب الثانى، الفصل الثالث، والخامس، والسادس، والسابع، والتاسع، والعاشر.

(2) الماوردى، المصدر نفسه، الكتاب الثالث، ص ٥١، ٥٢، ٥٣؛ الكتاب التاسع عشر، ص ٣٧٥ وما يليها من صفحات.

(3) مثل الشرك بالله، والفساد فى الأرض، والزنا، وشرب الخمر ... إلخ.

(4) مثل القتل والإصابة، والسرقة، والإفك.

سيُقاضى المتظلمون(1). وكان للأمير الحق فى انشاء هيئة قضائية استثنائية للنظر فى المظالم، حيث يجلس بنفسه مع القضاة، والحكماء، والفقهاء، والكتبة، والشهود والحراس؛ ويقضى فى المظالم مهما كان نوعها جنائية، أم إدارية وأيضاً مدنية، عندما لا ينصف القضاة المتظلمين بالطرق العادية(2). وكان القاضى مستقلاً عن الأمير فى الحواضر الكبرى وكذلك الحكيم فى الحواضر الأخرى الصغرى، ويقوم بحماية الضعفاء والمستضعفين والأعمال الخيرية، وهذا ما يقوم به عندنا النائب العام؛ وكذلك يقضى فى كل الأمور المدنية والجنائية التى تتطلب تأويلاً للشرع أو التى يعهد الأمير بها إليه، ماعدا القضاء فى الأمور المدنية والجنائية الأقل شأناً، إذ يُعهد بها إلى المحتسب(3). أما أفراد البيت النبوى فكان لهم قضاء خاص(4). وكان المحتسب يختص فقط بتنفيذ الشرع فى الأمور المدنية أما فى الأمورالجنائية(5) فكان يختص بما نطلق عليه الأمور التأديبية والتنظيمية، إذا توافق هذا مع التعريف الموجود فى قوانيننا؛ وكان فى الوقت نفسه من موظفى الشرطة المدنية والدينية؛

---

(1) الماوردى، المصدر نفسه، الكتاب الثالث، ص ٤٨، ٥١، ٥٢، ٥٣؛ الكتاب التاسع عشر، ص ٣٧٥ وما يليها من صفحات.

(2) الماوردى، المصدر نفسه، الكتاب السابع، ص ١٢٨ وما يليها من صفحات. انظر أيضاً *Sacy*، فى *Chrestomathie Arabe*، المجلد الأول، ص ١٣٢ وما يليها من صفحات. كان الأمير فى بعض الأحايين يفوض مَنْ ينوب عنه فى هذا القضاء العالى. لذا نذكر والى المظاليم فى أفريقية أثناء فترة حكم الأغالبة، والذى أصبح فيما بعد قاضياً فى بالرمو.

(3) الماوردى، المصدر نفسه، الكتاب الثالث، ص ٤٨، ٥١، ٥٢، ٥٣؛ الكتاب السادس، ص ١٠٧ وما يليها من صفحات؛ والكتاب العشرون، ص ٤٠٥ حتى ٤٠٨. نلاحظ أن القضاء لم يُفصل فى كل البلدان وفى كل الأزمات بالطريقة التى أوردها الماوردى. وأردت أن أتابع على وجه الخصوص هذا الكاتب لأنه كان معاصراً لحكم المسلمين فى صقلية، ويوضح لنا التنظيم الطبيعى لتلك الفترة بشكل أكثر دقة مما ذُكر فى الكتابات الخاصة بالإمبراطورية العثمانية وإفريقية ... إلخ، حتى يومنا هذا.

(4) الماوردى، المصدر نفسه، الكتاب الثامن، ص ١٦٤ وما يليها من صفحات.

(5) الماوردى، المصدر نفسه، الكتاب العشرون، ص ٤٠٤ وما يليها من صفحات. انظر أيضاً *Sacy*، فى *Chrestomathie Arabe*، المجلد الأول، ص ٤٦٨ حتى ٤٧٠، ومقدمة ابن خلدون، الذى نقل نقلاً حرفياً عن الماوردى فى أجزاء من مقدمته، وفى أجزاء أخرى أتى بأمور جديدة.

فيشرف على نظام الأسواق، ويكشف على صحة الموازين والمكاييل، وعلى الحرف الحرة أو الصناعية أو التجارية، حتى لا يكون لها تأثير ضار على الناس.

وبعد هذا، لا يتبقى لنا إلا القليل لنقوله عن الإدارة المدنية: التى كان يتولى أمرها فى البداية المحتسب؛ ولكن هذه الإدارة تم تقسيمها فى بعض البلدان وأخذت مسميات عديدة؛ وظل للمحتسب مهمة الإشراف على نظام الأسواق(1). أما مهمة الأمن العام، أو تأمين الحاكم المستبد، فكان يُعهد بها فى الحواضر الكبرى إلى رجل يُطلق عليه اسم صاحب الشرطة(2)، وهـذا الاسم مذكور فى حوليات صقلية أثناء الحكم الإسلامى(3)، كما ظل مستخدماً حتى القرن الثالث عشر على الأقل، لذا كانت بعض الأماكن فى مملكة صقلية تطلق على دوريات البوليس كلمة شرطة *Surta* (4). وكان المحتسب، كما كان يُطلق عليه، يشترك فى الإشراف على المبانى مع أحد قضاة البلدية، كما يحدث اليوم.

وقليلة هى التنويهات التى تقدم لنا هذا الجزء من النظام المدنى

(1) المقرى، فى كتاب جيانجوس *The Mohammedan Dynasties in Spain*، المجلد الأول، ص ١٠٥، وفى كتاب لان، *Modern Egyptians*، المجلد الأول، ص ١٦٦.

(2) ابن خلدون، **المقدمة**، فى كتاب جيانجوس، المصدر المذكور، المجلد الأول، ص ٣٢ وفى نفس المجلد، المقرى، ص ١٠٤، هناك ملحوظة فى ص ٣٩٨؛ و *Sacy*، فى *Chrestomathie Arabe*، المجلد الثانى، ص ١٨٤. وفى القاهرة كان يُطلق عليه اسم والى البلد؛ وفى أسبانيا كان يُسمى صاحب المدينة، وصاحب الليل، وصاحب الشرطة. وكان الأمويون يقسمون الشرطة إلى كبيرة وصغيرة، كما نقول نحن اليوم كبار رجال الشرطة ومعاونوهم.

(3) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، حياة أبى محمد يحيى بن أكثم، ذكر صاحب شرطة بالرمو فى عهد أمير الكلبيين ثقة الدولة؛ مخطوطة باريس، الملحقات العربية، ٥٠٢، والورقة ٣٢٦ الوجه الثانى؛ و٥٠٤، والورقة ٢٣٤ الوجه الأول.

(4) الفصل السادس والخمسون فى چاكومو، والسابع عشر فى فيدريجو دى آريجونا؛ وثيقة لكارلو دانجوه بتاريخ ٢٤ أكتوبر عام ١٢٦٩، موجودة فى مكتبة بالرمو البلدية، مخطوط *Q. 9. G. 2*، بعنوان *pei Magistri sorterii di Palermo*. ومن ملاحظات وتعليقات المونسنيور تستا على الأماكن المذكورة فى *Capitoli del Regno*، نجد أن كلمة شرطة كانت مستخدمة فى اللهجة الدارجة فى مدينة بالرمو حتى بدايات القرن الثامن عشر. وكانت تُكتب بحروف لاتينية على هذا النحو *Xurta, Surta, Sorta,* ... إلخ.

فى البلدان الإسلامية فى العصور الوسطى، ومع هذا لا يتسرب إلينا الريب فى وجود الهيئات البلدية، التى كان يُطلق عليها بشكل عام اسم جماعة التى تعنى اجتماع؛ كما تناهى إلى علمنا عن القيروان أثناء حكم الأغالبة(1)؛ وعن كل مدن أفريقية فى بدايات الدولة الفاطمية(2) وعن الخلافة العباسية فى القرن العاشر(3)، وحتى أيامنا هذه عن المدن والقبائل بشمال إفريقية(4). وهذا النظام، غير المقرر بالقانون المكتوب، هو فى حقيقة الأمر شكل جديد من أشكال المجلس الكبير للقبيلة والحلقة، الذى تناولته عند الحديث عن الهيئات الأصيلة عند العرب: وفى الحقيقة لا يمكن أن نفهم أن أهل الوبر (الرحل)، عندما اضطرتهم حياتهم الجديدة، فأصبحوا أهل حضر، كفوا عن اتباع هذا النظام، لمعالجة الأمور السياسية، وللتصدى للاحتياجات التى تتطلبها الحواضر، بأساليب ورغبة مشتركة. وعلى ما يبدو كانت الجماعة عند العرب تتكون من رؤساء الأسر العريقة، وأهل العلم، وذوى السعة، ورؤساء الحرف والصناعات، الذين يندمجون فيما بينهم فى عائلات، ويشكلون جمعية تأمين متبادل فى الأحوال العقابية فى النوائب: ولذا فإن هذه الهيئة البلدية تشبه فى جانب منها المجلس الرومانى(5). ولا ندرى إذا كانت الشورى، التى جاء ذكرها فى حوليات أسبانيا أثناء

(1) انظر الكتاب الأول، الفصل السادس، ص ٢٠٧ وما يليها من صفحات، وص ٢٢١؛ والكتاب الثانى، الفصل الثانى، ص ٣٢٧.

(2) كان المهدى معتادا على قراءة كتاباته وإعلاناته على جماعة كل مدينة من المدن. البيان، النص، المجلد الأول، من سنة ٢٩٦ إلى سنة ٣٠٠.

(3) انظر الماوردى، **الأحكام السلطانية**، الكتاب العشرون، ص ٤١١ حتى ٤١٤.

(4) دومـــــــاس، *Le Sahara Algérie*، الصـــــفحات ٧٢، ٢٩٠، ٢٩٣؛ المؤلف نفسه، *Mœurs et Coutumes de l'Algérie*، ص ١٠.

(5) وجهاء، وشيوخ، وفقهاء القيروان ورد ذكرهم فى الكتاب الأول، الفصل الرابع، ص ١٤٨. والماوردى، المرجع المذكور، استخدم كلمة عامة ذوو المكانة، وهى تعنى «الأعيان أو القادرون»؛ ولا يقصد بهم وحدهم الملاك (ذوو المكانة) يقول إنهم القادرون على المساهمة فى المشروعات العامة سواء بالمال أم بالعمل. ويلاحظ أنه ليس واجب فرد بل الجمـاعة: جماعة المواطنين ذوى الشأن. والمؤلف نفسه يستخدم كلمة ذوى المكانة ليشير إلى تلك الطبقة من الناس الذين أقطعهم الخليفة عثمان أراضى السواد، الكتاب السابع عشر، ص ٣٣٥.

الحكم الإسلامى(1)، هى الجمـاعة تحت اسم آخـر، أو أنها تمثل الجماعة، كما نقول نحن اليوم مجلس تنفيذى، فتقوم فى الأوقات العادية بتسيير أعمال البلدية وأمورها التى تقررها الجماعة، وتضطلع بكل تأكيد فى أوقات الاضطرابات والقلاقل بالأمور السياسية. وكانت الجماعة فى الأوقات العادية مطالبة بأن تتولى، فى حالة وجود عجز فى حصيلة الدولة، وذلك من خلال الإسهام الطوعى بالمال والعمل، ببناء أو ترميم مجارى المياه، والأسوار، والمساجد الجامعة وإعانة عابرى السـبيل الفقراء بالزاد والمـال. وكان المحتسب يطلب ذلك منهـا؛ وللأمير فقط الحـق فى إلزامهـا بذلك. فإذا ما كانت المدينة حصناً متاخماً لحدود، ووقعت أسوارها وتهدمت أو تشتت أهلها وتبعثروا، أطـل الخطر على جميع المملكة. وفى هذه الحالة يكون القسر دائماً جماعياً، وليس فردياً: وعليه ينظر كل امرئ إلى الجماعة على أنها جسد معنوى، ووحده عضوية واحدة. وتقوم على تعمير المساجد الصغيرة الدوائر أو الأحياء التى تقع بها، فإذا غفلت عن

(1) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، فى حياة ابن ظُهر (ابن ظُهار) المتوفى بقرطبة عام ١١٣٠، ذكر أن الجد الأكبر لابن ظُهر كان له مرتبة عالية فى الشورى. انظر نسخة م. دى سلان الانجليزية، المجلد الثالث، ص ١٣٩، وصفحة ١٤٠ الملحوظة ١٢، حيث يوضح هذا المستشرق العلاَّمة أن كل مدينة، فى أسبانيا وأفريقيا الشمالية، كان لها مجلس أو لجنة *Counsel or Committee* تعين الحاكم (وهذا لا يبدو لى تعبيراً دقيقاً) فى إدارة مهامه، وكانت تتألف من رؤساء الأحياء المختلفـة، والقاضى، ومن الأسر العريقة وذات النفوذ فى المكان. وفى المجلد الثانى، ص ٥٠١ من النسخة نفسها، يتحدث عن مجلس يشبه *Murcia*.

وفى طرابلس بعد منتصف القـرن الثانى عشر كان بها «مجلس العشـرة» الذى توقف بعد فتح الموحدين؛ ويؤكد هذا التيجـانى فى كتابة، **رحلة**، ترجمة *M Rousseau* الفرنسية ص ١٨٦ ـ ١٨٧. فى *(Journal Asiatique)* فبراير ـ مارس ١٨٥٣، ص ١٣٥، ١٣٦.

وفى الولايات والأمصار التى انتشر بها الاستبداد بشكل أكبر كان يوجد بدلاً من الجماعة موظف واحد فقط، يُطلق عليه اسم شيخ البلد، وهى طريقة وسط بين الاختيار والوراثة؛ وهـذا ما نسـتخلصه أيضـاً بالنسـبة لأفريقيـا الشـمالية من *M. Worms*، فـى كتـابه *Recherches sur la propriété territoriale dans les pays musulmans*، ص ٣٧٣، ٤٢٧؛ وبالنسبة لمصر تحدث عنها *Lane*، فى كتابه *Modern Egyptians*، المجلد الأول، ص ١٧١.

ذلك الواجب، كان على المحتسب أن يذكرها به(1). وهذا يؤكد أنه فضلاً عن قاضى المدينة كان يوجد كذلك قضاة للأحياء والشوارع(2)؛ وهو أمر ضرورى فى المدن الإسلامية المقسمة إلى أحياء تقطنها فى الغالب أجناس أو حرف مختلفة، كما كان الحال فى المدن المسيحية فى العصور الوسطى.

وهذه النظم كانت موجودة فى إفريقية وانتقلت بكل تأكيد إلى صقلية؛ حيث كان هناك ذكر لجمـاعة بالرمو، تكونت كغيرها حسـب النظـام الارستقـراطى؛ ومتحفزه للاستـحواذ على السلـطة السياسية(3). ومكانة الفقهاء المرموقة التى ذكرتها عند الحديث عن إفريقية، انتقلت بالضرورة إلى بالرمو، حيث ازدهرت فى بداية القرن العاشر الدراسات الفقهية على مذهب الإمام مالك(4). ومع هذا لم تظهر فى صقلية الميول القبلية والعشائرية والعسكرية لدى سكانها، التى كانت تموج بها إفريقية فى بداية القرن التاسع. واستمر الوئام طالما كان الفتح فى شدته وعنفوانه؛ وطالما كان الوجهاء والعامة من ذوى الأصول الشرقية يقيمون فى بالرمو، وتربطهم مصالح مشتركة، وتجمعهم الغيرة من حكومة إفريقية، وتوحدهم الرغبة العارمة فى القضاء على البربر رفقائهم فى الجزيرة.

وقبل تناول المؤسسة بالحديث فلابد من مناقشة نظامين اقتصاديين فى صقلية اعتمد عليهما بشكل أساسى الدخل والإنفاق العام؛ وأولهما، نظام ملكيـة الأراضى؛ وثانيهمـا، قوائم الجند. وكثيراً مادار جدل بين علماء أوربا حول حق الملكية فى البلدان الإسلامية؛ ويعوزنا عرض حقيقى وجلى لهذا الأمر؛ ولذا سأحاول بكل ما أوتيت من قوة أن أضع هذا الموضوع فى نصابه. وأعتقد أنه

(1) الماوردى، المصدر نفسه، الكتاب العشرون، ص ٤١١ حتى ٤١٤.
(2) لان ، *Modern Egyptians*، المجلد الأول، ص ١٧٠.
(3) ابن الأثير، وقائع عام ٣٣٦، المخطوطة *B*، ص ٢٦١؛ والمخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٣٥٠ الوجه الثانى، يقول عن بنى الطبرى إنهم كانوا من الأعيان، أو رؤساء أحياء فى جماعة بالرمو.
(4) **رياض النفوس**، المخطوطة، الورقة ٧٩ الوجه الأول، فى حياة لقمان بن يوسف.

من الخطأ التعميم الذى تكرر كثيراً، والذى يجعل أى بحث وتمحيص للموضوع لاطائل منه؛ أى أن الأرض كلها ملك لله، ومن ثم للخليفة(1). وأغفل المثقفون الذين وجدوا هذا الأمر عجيباً فى مقابل إعلان هذا الحق، الآيات الإلهية، المتكرر ورودها فى القرآن: أن لله ملك السموات والأرض، وأنه رب العالمين وإلى آخر ذلك. ويقر المسلمون بكل تأكيد بوجود خالق، ولذا فهو مالك لكل مخلوقاته؛ ولكنهم كانوا يعتقدون أنه ترك الأرض وكذلك الماء، والهواء، والنار، والضياء من أجل خير جميع المخلوقات؛ ولم يهبها خصيصاً لمحمد، أو للخلفاء الذين أتوا من بعده. ومن الصحيح أن النبى لم يدّع مطلقاً مثل هذا الحق، فحسب ماورد فى الأثر النبوى أن الكلأ، وهو المنتج الوحيد الذى يخرج من الأرض فى معظم أجزاء الجزيرة العربية، كان يُعد مثل الماء والنار ملكيـة عامـة لجمـيع البشر(2). كذلك كان الحال بالنسبـة لبعض الأملاح السهل الحصول عليها مثل الملح، والأنتيمون، والنفـط، والفحم الحجرى(3).

وإذا ما انتقلنا من قانون البدو الرُحل إلى ذلك القانون الذى يحكم

---

(1) منذ حوالى أربعين سنة، أكد هذه المسلّمة البارون *De Hammer*، الذى يعمل اليوم مستشاراً ببلاط الإمبراطورية النمساوية. ولخص ذلك *M. De Sacy*، أولاً فى *Journal des Savants* الصادر فى عام ١٨١٨، وبعد ذلك فى الطبعة الثالثة لمذكراته حول الملكية فى مصر، *Mémoires de L'Académie des Inscriptions*، المجلد السابع، ص ٥٥، ٥٦. ومارتورانا، فى **اخبار تاريخية عن مسلمى صقلية**، المجلد الثانى ص ١٢٩ و٢٤٨، مال إلى رأى مستشار البلاط، أكثر من اتباع رأى الأستاذ االعالم الفرنسى. والسيد بنيدتتو كاستيليا، فى مقال بإحدى الصحف. أتيحت لى الفرصة لتقريظه، وهى صحيفة *La Ruota*، بالرمو، فى ٣٠ أغسطس ١٨٤٢، أمسك بهذا الأمر الغريب، فكتب على عجل ونسبه إلى *M. De Sacy*. وتوجد الآن قلة قليلة تؤيد هذه النظرية التى يرفضها صراحة *M. Worms* فى كتابه الشهير، *Recherches sur la Constitution de la propriété territoriale dans les pays musulmans* ولا أدرى كيف يكرر *Du Caurroi* الحديث عن الله مالك الكون، فى *Journal Asiatique*، المجموعة الرابعة، المجلد الثانى عشر، ص ١٣ (١٨٤٨)، دون أن يربط به سلطات جديدة.

(2) الماوردى، **الأحكام السلطانية**، الكتاب السادس عشر، ص ٣٢٥؛ **الهداية**، الكتاب الخامس والستون، المجلد الرابع، ص ١٤٠.

(3) الماوردى، المصدر نفسه، الكتاب السابع عشر، ص ٣٤١. أترجم «الفحم الحجرى» عن لفظة القار، التى تعنى «القطران السائل» حسب المعاجم.

السكان المستقرين، يظهر لنا واضحاً جلياً اعتراف القرآن والسنة بالملكية الكاملة للأرض المزروعة، بنفس اعترافهما بالملكية المنقولة. وهذه الملكية تخضع لضريبة موحدة: عشرة فى المائة على غلة الأرض، واثنان ونصف فى المائة على عدد القطعان، والنقود والمنقولات الأخرى؛ والضريبة كانت تُقرر على الدخل فى الحالة الأولى وعلى رأس المال فى الحالة الثانية، ويتم موازنتها بدقة، أو تخفف على الأرض أكثر من تخفيفها على رؤوس الأموال الأخرى(1). وهكذا أقر محمد (عليه السلام) العشور عند اليهود، وعدّل استثمارها؛ وبفكرة سامية أطلق على هذه الضريبة اسم صدقات أو نود أن نقول تقدمات عن نفس راضية، وزكاة(2)، التى تعنى التزكية والتطهر: أى التطهر من الاثم الذى يشعر به الغنى بتركه الفقراء يموتون جوعاً وبمنعه دخولاً للدولة: ففى الحقيقة هذه ضريبة مخصصة للفقراء، وليست سوى إسهام عام، وتُقسم حسب الشرع بين بيت المال، وأقرباء الرسـول والمحتاجين، سواء كانوا اليتـامى أم عابرى السبيل أم غيرهم(3). وملكية الأرض التى يحترمها الإسلام ويحيطها بسياج من

---

(1) العشره فى المائة على المحصول السنوى من الحبوب، والفاكهة، والعسل ... إلخ، تعادل ٢,٥٪ من الضريبة المفروضة على القطعان، والأموال، والبضائع، والأثاث ... إلخ، بافتراض أن هذه الطرق المفروضة على رؤوس الأموال تغل ٢٥ ٪. وبما أن الأموال المنقولة لا تغل هذا المعدل الكبير، فإنها تدفع أكثر من رؤوس الأموال الثابتة الخاصة بالأراضى.
ضع فى الاعتبـار أن العشـرة فى المـائة تعتمد على منتجـات الأرض التى تُروى بالأمطـار الموسـمية أو بالميـاه المتدفقـة من باطن الأرض. أما الأرض التى تُروى بالآلات وتتطلب مصـروفات أكثـر لزراعتهـا فضريبتها ٥٪. وعلى النقيض من ذلك، فالأرض التى تُروى بمـاء القنوات والترع التى تصـونها الدولة، تدفع ٢٠٪؛ وفى هذه الحـالة فإن مضاعفة الضريبة يكون بسبب الضريبة المفروضة على الماء.

(2) اتبعُ الاستخدام العام فى نقل هذا اللفظ حسب الطريقة المتبعة فى بقية عملى هذا تُكتب زكاة *Zeka*.

(3) تجب الزكاة فقط على المسلمين البالغين، العاقلين، الأحرار الذين يملكون أكثر من

القدسية، كانت تنتقل بالبيع، أو الهبة، أو الميراث، مثلها فى ذلك مثل المنقولات.

وبالنسبة للأراضى الجديدة، فلم يتحدث محمد إلا عن الشرع المقرر: فأقر أن كل امرئ يُحيى أرضاً مواتاً، هكذا عبر عن استزراع أرض بور أو عمل مشروع عليها، يصبح صاحباً لها بلا منازع؛ حتى أن الأمير أو أى شخص آخر لا يكون من حقه انتزاعها منه، طالما أنه يقوم بفلاحتها(2).

الحد المقرر شرعاً. ويُطلق عليها أيضاً عُشر. وخرجت الزكاة غالباً عن وجهتها الشرعية؛ إذ كانت الحكومات تستولى عليها، ولذا كانت تريح ضمائرها بأعمال البر والإحسان. حول هذا الموضوع انظر: الماوردى، **الأحكام السلطانية**، الكتاب الحادى عشر، ص ١٩٥ وما يليها من صفحات، والكتاب الثامن عشر، ص ٣٦٦ وما يليها من صفحات: فهذا الفقيه الشافعى يتحدث عن الشرع كما جاء فى مذهبه، ويذكر آراء المذاهب الأخرى وما حدث حتى عصره، أى ما بين القرنين العاشر والحادى عشر، وبلده فى بغداد؛ **الهداية**، الكتاب الأول، النسخة الإنجليزية، المجلد الأول، ص ١ وما يليها من صفحات، وتبين الحق المتبع والمراعى فى الهند فى القرن الثامن عشر حسب مذهب أبى حنيفة؛ دوسون، *Tableau général de L'Empire Ottoman*، المجلد الثانى، ص ٤٠٣، والمجلد الخامس، ص ١٥ وما يليها من صفحات، الذى ينقل الشرع على المذهب الحنفى، المتبع فى تلك الفترة فى تركيا؛ خليل بن اسحاق، *Précis de Jurisprudence musulmane*، ترجمة *M. Perron*، الفصل الثالث، المجلد الأول، ص ٣٢٨ وما يليها من صفحات. عاش هذا المؤلف فى القرن الخامس عشر، وهو من مدرسة الإمام مالك. وكتابه الموجز للغاية والمبهم جداً هو كتاب القانون المعمول به فى أفريقيا. انظر أيضاً بركهردت، *Voyage en Arabie,* (النسخة الفرنسية)، المجلد الثانى، ص ٢٩٤، الذى يصف شعائر الوهابيين، وهم مسلمون متزمتون فى عصرنا الحالى. وتوجد اختلافات طفيفة بالنسبة للمذاهب الأخرى فى مختلف العصور فى تطبيق النصوص المفروضة على الزكاة.

(2) **مشكاه المصابيح**، الكتاب الثانى عشر، الفصل الحادى عشر، المجلد الثانى، ص ٤٣ وما يليها من صفحات. فحسب ما ورد فى الأثر النبوى، اتجاوز عن ذكر محررى العقود، فبعضهم، على حد قول الماوردى، فى المصدر السابق، الكتاب السابع عشر، ص ٣٣٠، اعتقد بضرورة الحصول على صك من الأمير لإقرار حق واضع اليد الأول. وكل واحد يرى أن هذا ليس مرده استعمال حق الملكية الأعلى، ولكن إلى ضرورة من ضرورات النظام العام، لتحاشى النزاع بين شخصين أو أكثر على قطعة أرض. وعلى هذا الأساس يقوم المنطق نفسه فى منع وضع اليد على أرض الكلأ العام، والطرق، والأسواق ... إلخ، والتى عالجها الماوردى فى الكتاب السادس عشر، ص ٣٢٢ وما يليها من صفحات.

وفى الأزمنة التالية ظل الشك - حسب المذاهب المختلفة، حول الحدود التى يمكن للأمير وضعها لحق واضع اليد الأول؛ ولكن لم تكن هناك أبداً منازعة فى روح الحق وجوهره؛ بل اتُفق على إعطاء الأرض التى حول البئر، لمَنْ حفره أولاً فى أرض صحراوية(1).

وحول الملكية الثابتة التى انتزعت من المهزومين، فإن محمداً لم يحدد لها إجراءاً عاماً، لأنه نادراً ما حدث ذلك فى عهده، ولم يكن يمكنه التحدث عنها كثيراً، إذ كان مهتماً بالتوفيق بين الأمة ودمجها فى بعضها بعضاً. وعندما بدأت الفتوحات خارج الجزيرة العربية، طبق عمر على هذه الحالة بعضاً من سُنة النبى وأحكام القرآن الخاصة بتقسيم الغنائم؛ حيث إن أربعة أخماسها كانت تقسم على الجند وخُمس يُحتفظ به للمصلحة العامة، ومساعدة مختلف طبقات الناس(2). وبهذه الطريقة تم تقسيم بعض الأراضى على الجند(3). ولكن، فى هذه الحقبة البطولية، كان العرب يأنفون وينزعجون من ثروة كهذه. فبين حبهم ركوب الخيل، للقتال، وجمع الغنائم وهم يصيحون ويرددون الله أكبر؛ وبين إنكارهم لذاتهم

---

(1) **الهداية**، الكتاب الخامس والأربعون، المجلد الرابع، ص ١٣٢.

(2) فى السورة رقم ٨، الآية ٤٢ قيل أن خُمسهُ لله، وللرسول، ولذوى القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل. وأدى موت محمد إلى الاجتهاد فى هذا النص الشرعى. فقال بعض الأئمة بضرورة استثمار الخُمس كله فى المنفعة العامة؛ وقال آخرون بجواز تصرف الأمير فيه؛ وفريق ثالث قال بحفظه تماماً لذوى قربى الرسول، واليتامى ... إلخ. انظر البيضاوى، تعليق على الآية القرآنية المذكورة، طبعة فليشر *M.Fleischer*، المجلد الأول، ص ٣٦٧ وص ٣٦٨؛ الماوردى، المصدر السابق، الكتاب الثانى عشر، ص ٢٣٩ حتى ص ٢٤٢. والقدّورى يرى ضرورة تقسيم الخُمس إلى ثلاثة أجزاء متساوية على اليتامى، والمساكين، وابن السبيل؛ مؤكداً أن نصيب النبى انتفى بموته؛ انظر روزن ميللر فى *Analecta Arabica*، §٣٤ .

(3) وهذا الأمر الهام نقله الماوردى، المصدر السابق، الكتاب السابع عشر، ص ٣٣٤ وما يليها من صفحات. وقبل طبعة انجر الصادرة عام ١٨٥٣، التى نستشهد بها، فإن هذه الملحوظة قد نشرها ورمس فى النسخة الفرنسية، *Recherches sur la Constitution de la propiété*، إلخ، ص ١٨٨، ١٨٩، و٢٠٢ وما يليها من صفحات. ولكن *M. Worms* لم يكن تحت يديه إلا مخطوط واحد عن الماوردى؛ ولم يستفد من بدائله التى توجد فى مكتبة باريس؛ وكذلك لم يصب الهدف باستمرار فى ترجمته.

ترك بعض الجند نصيبهم فى الأرض للدولة؛ لدرجة أن أرض السواد الخصبة، وكل إقطاعيات الأسرة المالكة الفارسية، وكذلك أرض الأشخاص الذين ماتوا أو هربوا(1) جعلها عمر للدولة. واستقر هذا العُرف الجديد وترسخ؛ وإن لم يرده الجند، الذين فى سريرتهم كانت مشاعرهم الحماسية والبطولية تجنح دائماً نحو الحياة الدنيا. ففضلاً عن نصيبهم من الغنائم، كان للجند رواتب من الدخول العامة؛ وكانت الفتوحات تُنسب إلى قوة المسلمين العامة؛ بدلاً من نسبتها إلى أسلحة هذا أو ذاك الجيش، ولذا بدا صحيحاً أن ثمار النصر المبين يجب أن تستثمرها الدولة وتحظى بنفعها: ومن ثم فنادراً ما تم تقسيم أربع أخماس الأرض(2).

أدى إلى هذا أن البلدان لم تؤخذ دائماً بالسيف؛ ولكن بخضوع سكانها خضوعاً مطلقاً أو بمعاهدات: وحدث أنه فى بعض الفتوحات، كانت أمصار بأكملها تخضع لطريقة من هاتين الطريقتين؛ أو أن يعتنق سكان البلاد الأصليون الإسلام قبل الفتح. وحسب ما ذُكر فى القرآن، فإن للأمير حرية التصرف فى الأشخاص والأشياء التى استولى عليها من الكفار الذين استسلموا وذلك حسب تقديره(3)؛ وفى حالة الاتفاق تصبح المعاهدات قانونـاً؛ أما فى حالة التحول إلى الإسلام فإن الأرض، فى رأى بعـض الفقهاء، تظـل فى حـوزة مالكـيها؛ وفى رأى آخرين، فإن الأمير هو الذى يختار

---

(1) الماوردى، المرجع المذكور.

(2) الحق، فى رأى الإمام الشافعى، هو أن الأرض التى تؤخذ بالسلاح تُقسم كما تُقسم الغنائم، اللهم إلا حدث تنازل طوعى من الجند. أما الإمام مالك فيرى أنها ملكية أبدية للدولة. والإمام أبو حنيفة ألقى على الأمير مهمة تقسيمها بين الجند، أو تركها لغير المؤمنين مع الالتزام بدفع الخراج أو يعتبرها ملكاً للدولة كما يتراءى له. وهكذا قال الماوردى فى الكتاب الثانى عشر، ص ٢٣٧ وما يليها من صفحات؛ والكتاب الثالث عشر، ص ٢٥٤ وما يليها من صفحات (وعند *Worms*، المصدر السابق، ص ١٠٠ وما يليها من صفحات: ص ١٠٣ وما يليها من صفحات؛ ص ١٠٧ وما يليها من صفحات). ولكن الفقهاء عاشوا فى الفترة التى توقفت فيها الفتوحات؛ ولذا لم تفلح آراؤهم إلا فى تقريظ أو تقريع الأعمال التى تم عملها.

(3) السورة التاسعة والخمسون، الآيات ٦، ٧، ٨.

بين هذا القرار وبين إخضاعها للجزية(1). وهناك أسس، على سبيل المثال أرساها عمر، تنص أو تشترط ثلاث طرق مختلفة، بخصوص ملكية أرض الكفار المهزومين. فالأملاك العامة للحكومة المهزومة والاقطاعيات التى آلت إلى بيت المال بسبب الوفاة، تصبح كلها ملكية دائمة للدولة الإسلامية وغير قابلة للبيع أو الانتقال إلى مالك آخر؛ وكانت تُستغل اقتصادياً، أو تؤجر مقابل خراج سنوى، كما يقول العرب بشكل مبهم، أى ما يخرج، وما يُحصد من الأرض(2). وتُترك باقى الأراضى لأصحابها الكفار، حيث يتمتعون بالملكية الكاملة، وبحق البيع أو التنازل عنها، أو رهنها والتصرف فيها بالوصية؛ وحيث يقررون توريثها إذا كانت فى حوزتهم، وفى كلتا الحالتين شريطة أن يدفعوا جزية، يُطلق عليها أيضاً الخراج، وهذا الأمر، يخص الأراضى المملوكة ملكية تامة، وتسرى عليها ضريبة الأطيان، ويتوقف بسبب دخول المالك الإسلام، أو انتقال الأرض إلى أيدى المسلمين؛ وبالنسبة للأراضى المملوكة فعلاً فكان عليها خراج، ويستمر هذا الأمر للأبد(3). فالشرع يعترف إذن: بالملكية الحرة للمسلمين للحيازة السابقة على دخولهم فى الإسلام، بسبب

---

(1) الماوردى، المصدر المذكور، الكتاب الثالث عشر، ص ٢٥٤، وعند *Worms*، المصـدر المذكور، الصـفحات ١٠٧ و١١٠. الرأى الأول هو رأى الشافعى؛ والرأى الثانى لأبى حنيفة. و**الهداية**، بالرغم من كونهـا حنفية، تتمسك فى هذه الحـالة برأى الشـافعية، الكتاب التاسع، الفصـل السابع، المجلد الثانى، ص ٢٠٥. قدورى، وهو مؤلف من مؤلفى القرن العـاشر، يؤكد الرأى الأول ويميـل إليه، عند روزن ميللر، فى *Analecta Arabica* § ١٢.

(2) الماوردى، المصدر المذكور، الكتاب السابع عشر، ص ٣٣٤، ٣٣٥؛ وعند *Worms*، المصـدر االمذكـور، ص ١٨٩، وص ٢٠٤. انظـر أيضـاً قـدورى، عند *Sacy*، فى *Mémoires de l'Académie des Inscriptions*، المجـلد الخـامس، ص ١٠.

(3) الماوردى، المصدر االمذكور، الكتاب الثانى عشر، ص ٢٣٧؛ الكتاب الثالث عشر، ص ٢٥٣؛ والكتاب الرابع عشر، ص ٢٩٩؛ وهذه الملحوظات نراها أيضاً عند *Worms*، فى المصدر المذكور، ص ١٠٠، ١٠٣، ١٠٨، ١١١؛ قدورى، عند *Sacy*، فى *Mémoires de l'Académie des Inscriptions*، المجلد الخامس، ص ١١. قارنه بالكتاب الثانى، الفصل الثانى عشر من هذا المؤلَّف نفسه.

إصلاحها أو بناء شئ عليها، وبسبب مساندة الفتح؛ وبالملكية الكاملة للكفار، وتخضع للخراج المحتمل، وبالملكية المشروطة للمسلمين ولغير المؤمنين، وتخضع للخراج الأبدى؛ وأخيراً إستئجار الأراضى المملوكة للدولة. ولم يكن هناك أصل آخر لملكية الأراضى. ويمكن للأمير أن يقسم الأرض على الجند أو يختار من يشاء لفلاحتها؛ ولكن لا يتنازل أبداً عنها مقابل لا شئ؛ إذ لم تكن من أملاكه، بل أملاك للدولة أو للجيش المنتصر(1).

وكان هذا هو الشرع العام المعمول به حتى القرن العاشر من العصر المسيحى. وفى الواقع، ظهرت تجاوزات كثيرة فى العديد من الولايات: ففى مكان نجد استغلال أملاك تابعة للدولة من جانب الأفراد، وفى مكان آخر، على النقيض من ذلك، يبدو أن الحكومات حاولت بكل ما أوتيت من قوة وجهد دمج الخراج المحتمل بالخراج الدائم؛ كما كانت ترهق الأراضى التى تخضع للجزية كما لو كانت أملاكاً عامة، وهى الأراضى الخاضعة للجزية من المجموعة الأولى أو الثانية المذكورة آنفاً: وما من شك فى ازدياد المساوئ واستفحالها بمرور الوقت؛ وبخاصة منذ بداية القرن الحادى عشر فصاعداً، عندما سيطرت السلالة التركية بعد ذلك على الجزء الأكبر من الدول الإسلامية، وأقامت فيها مزايا عسكرية حقيقية. وبعد اثنى عشر قرناً، فإن الفوضى التى سببتها هذه الأحداث فى الملكية، كان من الصعب التغلغل إليها؛ وكان هناك خطر إحلال الظلم والإجحاف محل الحق، والاستثناء محل القاعدة، وحق بلد محل حق بلد آخر: وخاصة أن كلمة خراج لها معان كثيرة أشرنا إليها، وكذلك الجزية المفروضة

(1) الماوردى، المصدر المذكور، الكتاب السابع عشر، ص ٣٣٠ وما يليها من صفحات؛ وعند *Worms*، المصدر المذكور، ص ١٨٤ وما يليها من صفحات، وص ١٩٦ وما يليها من صفحات؛ وعلى نسخته يجب إجراء تصويبات كثيرة. أخطأ مارتورانا فى، **اخبار تاريخية عن مسلمى صقلية**، المجلد الثانى، الملحوظة ٢٤٧، ص ٢٤٨، عندما أكد أن كل الملكيات عند المسلمين كانت تأتى عن طريق الهبة من الأمير.

(2) الماوردى، المصدر المذكور، الكتاب السابع عشر، ص ٣٣٥؛ وعند *Worms*، المصدر المذكور، ص ١٨٩، وص ٢٠٣.

على مياه القنوات التى تصونها الدولة، التى تُروى بها أراض تدفع عشوراً، أو أراض مملوكة ملكية حرة للمسلمين(1). ومن ثم فإن الأبحاث التى صدرت حتى الآن حول هذا الموضوع غير كافية(2). وبالنسبة لنا، يكفينا معرفة الآراء التى أقرها الماوردى وأخذ بها، منذ قرن أو أكثر قليلاً، بعد فتح صقلية: ونكون بذلك قد قمنا بواجبنا بإثبات اتباعها وتطبيقها بالفعل، إن لم يكن فى صقلية، فعلى الأقل فى أزمنة قريبة وبلدان مشابهة.

(1) هذا الأمر الأخير نستخلصه من **الهداية**، الكتاب التاسع، الفصل السابع، المجلد الثانى، ص ٢٠٥.

(2) قبل أن أشرع فى كتابة هذه الكلمات، قمت بدراسة المباحث التى تناولها م. دى ساسى فى كتابه، *Mémoires de l'Académie des Inscriptions*، المجلد الأول، والخامس، والسابع؛ والعمل المذكور لـ *M. Worms*، والمؤلفات الفقهية عند المسلمين مثل، **الهداية**، دوسو، خليل بن اسحاق. ومن مؤلَّف دى هامر *M. De Hammer*، عرفت منه ما يقوله *M. Worms* و*M. Sacy*.

وخلاصة آراء *M. Sacy* أن أراضى مصر لأصحابها القدماء من أهل البلد الأصليين، وأنها اغتصبت من جانب الأمراء وجنودهم بطرق مختلفة، وهى صحيحة فى اعتقادى، ولكن لم تثبت بشكل كاف، ولا يمكن تطبيقها على سائر البلدان الإسلامية. وبالنسبة لـ *M. Worms* فمنَ الجدير بالثناء منهجه، وفطنته، وعلمه الغزير؛ وليست حياديته. وفَرّق *M. Worms* بين الأراضى المزروعة والحدائق، أو على حد قوله، *terre di grande culture e di petite culture*. قال إن الأراضى المزروعة هى دائماً ملك للدولة فى جميع البلدان الإسلامية، ماعدا الجزيرة العربية. وأعتقد أنه قد تكهن بالحق، عندما تحدث عن جزء بل عن الجزء الأكبر من الأراضى الزراعية الشاسعة، ولكن جانبه الصواب عندما أكد أن هذا هو الوضع على كل الأراضى المنتجة للغلال، وأنها يجب أن تظل هكذا بالإقرار الشرعى، دونما حاجة إلى أدلة أخرى. وهكذا وصل به الحال إلى إنكار الحقوق الثابتة والمؤكدة مثل: أولاً، حق الفلاحة، ثانياً، التقسيم بين الجند؛ ثالثاً، ملكية مُعتنقى الإسلام قبل الفتح؛ رابعاً، أراضى تُركت لغير المؤمنين يمتلكونها ملكية كاملة، ثم انتقلت بعد ذلك إلى حوزة المسلمين. وإن لم يكن هناك شئ أخر، فإن عدد الأوقاف، الهبات المتروكة لأعمال البر والتقوى، التى كان عددها كبيراً فى كل البلدان الإسلامية، كان يجب أن يُنبه *M. Worms* بوجود أراضى حرة كثيرة للغاية حيث إنه لا يمكن للمسلمين وقف أراض إلا تلك التى يمتلكونها ملكية حرة؛ وإنه لا يمكن لنا كأوروبيين افتراض أن كل الملكيات الخاصة أصبحت وقفاً موقوفاً لأعمال الخير. وأنا أتحدث فى هذا المقام عن الأوقاف الخاصة بالمساجد أو بالأعمال الأخرى؛ ولست أتحدث عن تلك الأعمال المتعلقة بصالح الدولة الإسلامية التى تشكل المنفعة العامة.

وفى هذا المبحث يجب أن نعرف أن النظام الجديد الذى طُبق فى إفريقية (٦٩٨) قد أجبر على دفع الخراج كل من البربر غير المسلمين، والسكان المسيحيين من أصول فينيقية، أو تيرانية، أو جرمانية(1)، وأعفى منه البربر المسلمين: الذين حصلوا على هذا الإعفاء بحمل السلاح (٧٢٠ حتى ٧٤٠) فى وجه ولاة غلاة فى جباية الجزية(2). ومن ناحية أخرى نعرف أن حكومة الخلفاء، بعد أن فرغت من تنظيم أمور أسبانيا فى بدايات الفتح (٧٢٠)، قامت بتقسيم جزء من الأراضى على الجند، واحتفظت بجزء آخر لبيت المال؛ وتركت جزءاً ثالثاً للسكان الأصليين، بشرط دفع الجزية(3). ولم يكن من الممكن القيام بشئ آخر فى إفريقية ذاتها، التى انطلق منها فاتحو أسبانيا، التى كان المستوطنون العرب لا يتحملون فيها قيادة الخلفاء وظلمهم. وما يُبين لنا وجود ملكية حرة فى إفريقية ما قام به إبراهيم ابن الأغلب، والى إفريقية، بشرائه من بنى طالوت (٨٠١) قطعة أرض لبناء قلعة العباسة عليها(4). وليس من الضرورى الإتيان بالأدلة

(1) قارن بين: ابن عبد الحكم، الذى ذكره م. دى سلان، فى كتاب ابن خلدون، *Histoire des Berbères*، المجلد الأول، ص ٣١٢، الهامش رقم ١؛ وابن خلدون نفسه، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ترجمة، م. دى فرجيه، ص ٢٧؛ و**البيان**، المجلد الأول، ص ٢٣. ولقد أشرت إلى هذا فى الكتاب الأول، الفصل الخامس، ص ١٩٦ من المجلد الأول.

(2) قارن بين: ابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ترجمة، *M. Des Vergers*، ص ٣١، ٣٤؛ و**البيان**، المجلد الثانى، ص ٣٨؛ والنويرى، **تاريخ إفريقية**، على هامش ابن خلدون، *Histoire des Berbères*، ترجمة *M.De Slane*، المجلد الأول، ص ١٥٩. ورأيى الثابت هو أن *M.De Slane* قد جانبه الصواب، عندما قال فى هذا الموضوع أن لفظة خمَّاسة تعنى «جعل خُمس أفراد الشعب أرقاء». ولكن ينبغى علينا أن نفهم منها أنها تعنى « أخذ خُمس محصول الأرض» أى فرض الخراج؛ كما بين هذا بضرب أمثلة عديدة الأستاذ دوزى فى كتابه، *Glossaire al Baian*، المجلد الثانى، ص ١٦.

(3) ايزيدورو دى بيا، الفصل الثامن والأربعون، وقد استند إليه فى تسجيل هذا الأمر كل من: رينو *M. Reinaud*، فى كتابه، *Invasion des Sarrazins en France*، ص ١٦؛ والأستاذ دوزى، فى كتابه، *Glossaire al Baian*، المجلد الثانى، ص ١٦.

(4) **البيان**، المجلد الأول، ص ٨٤. لهذا المثل يمكن اضافة مثال الأراضى التى تدفع العشور، إذ أمر (٨١٢) عبد الله بن إبراهيم، وهو ثانى أمراء بنى الأغلب، بجمع الخراج سنوياً حسب مساحة الأرض، وليس على أساس ما تغله من محاصيل. وأوقف إبراهيم ابن أحمد هذا الأمر بعد أن كان قد استمر فيه أو شرع فيه، أوقفه عام ٩٠٢. **البيان**،

بالنسبة للأراضى الخاضعة للخراج. أما بالنسبة للأراضى المملوكة للدولة، أى الضياع، كما كانوا يطلقون عليها هذا الاسم، فقد ورد ذكرها مرات عديدة فى حوليات إفريقية(1).

وإذا ما وضعنا فى الاعتبار الوسائل والفترة الزمنية الطويلة التى استغرقها المسلمون لفتح صقلية، فلن يخالجنا شك فى أنه قد ظهرت ونشأت بها كل طرق الملكية المختلفة التى تحدثنا عنها آنفاً. ولذا قد لا يكون هناك طائل من الحديث عن الأملاك الأميرية(2)، وعن تلك التى أُبقيت فى أيدى المسيحيين(3). أما بخصوص أملاك المسلمين، فبما أننا نعرف كثيراً منها بعد الغزو النورمانى(4)، فليس من الضرورى إثبات وجودها قبل ذلك؛ ولكن

المجلد الأول، ص ٨٧ و١٢٥. النويرى، فى حواشيه على ابن خلدون، *Histoire des Berbères*، ترجمة *M. De Slane*، المجلد الأول، ص ٤٠٢. والعُشر على الدخل يعنى بشكل عام زكاة، وهكذا فالأراضى التى تدفعه قد يُعتقد أنها مملوكة ملكية حرة للمسلمين. وليس هذا فحسب بل يمكن القول أن المؤرخين كانوا يقصدون العُشر المزدوج، أى الخراج، المفروض على الأراضى التى تدفع الجزية، وأن البدعة المجحفة كانت تكمن فى طريقة جبايتها نقوداً، وحسب مساحة الأراضى. وقد أدى بى إلى هذا الاعتقاد والافتراض تحول الزكاة إلى ضريبة مفروضة على الأراضى؛ وأكدت لى ذلك آراء بعض الفقهاء، التى ذكرها الماوردى، فى المصدر المذكور، الكتاب السابع عشر، ص ٣٣٥، أن الخراج على الأراضى الزراعية يجب ألا يتجاوز العشرة فى المائة من المحصول.

(1) **البيان**، المجلد الأول، ص ١٢٥، ١٧٥، ١٨٤، ٢٧٣، أعوام ٢٨٩ (٩٠٢)، ٣٠٣ (٩١٥)، ٣٠٥ (٩١٧)، ٤٠٥ (١٠١٤).

(2) مارتورانا، **اخبار تاريخية عن مسلمى صقلية**، المجلد الثانى، ص ١٣٩، والهامش ٢٥٤، فى ص ٢٥٢، يؤكد إمكانية إثبات وجود مثل هذه الأراضى عن طريق أسماء المدن والحصون التى تتوافق مع أسماء أمراء صقلية. ولكن الأمثلة التى أتى بها غير صحيحة كلها، وكذلك الفرضية القائلة بأن أراضى الدولة كانت تحمل اسم الأمراء. ولا تفيد الموضوع الأملاك الأميرية النورمانية. ولكن الشرع ومصلحة ولاة الأمر، والعرف السائد فى الدول الإسلامية كل هذا يقدم مثل هذا الافتراض الذى له قيمة أكبر من أى دليل وإثبات.

(3) انظر الكتاب الثانى، الفصل الثانى عشر، ص ٥٢٨ - ٥٢٩ من المجلد الأول.

(4) إذا ما نحينا جانباً وثائق القرن الثانى عشر الكثيرة التى تثبت هذا، فيكفى ذكر كتاب، **عادات بالرمو**، الفصل السادس والثلاثون، ولوائح كتانيا الموجوده فى وثيقة يرجع تاريخها إلى عام ١٦٦٨ عند دى جروسيس *De Grossis* فى كتاب **كتانيا المقدسة**، ص ٨٨ ـ ٨٩، المذكور عند دى جريجوريو، فى **اعتبارات**، الهامش ٢١، الفصل الرابع من الكتاب الأول.

يجب التقصى عن وجود أراض تخضع للعشور وللجزية أثناء فترة حكم المسلمين؛ أى مملوكة ملكية حرة أو مقيدة. وحول هذا الأمر لم نجد شهادات إيجابية. ولكن من المحتمل وجود أراض تدفع العشور، تم الحصول عليها سواء لفلاحتها أو لتقسيمها. والأراضى التى تمت فلاحتها كانت قليلة وصغيرة المساحة. أما الأراضى المقسمة والموزعة فكانت على جانب عظيم من الأهمية. وعلى الرغم من أنه فى القرن التاسع بدأ فى إفريقية إتباع مذهب الإمام مالك الذى يُخول للدولة الحق فى الأراضى المأخوذة بقوة السلاح(1). فإن هذه الآراء الفقهية لم تكن مُلزمة، كما أن هذا المذهب لم يعتنقه كل الفقهاء؛ كما أن أمراء بنى الأغلب حتى إبراهيم بن أحمد، كان سلطانهم على الجند فى صقلية قليلاً أو معدوماً، وكان هؤلاء الجند يميلون كل الميل للتقسيم ويحبذونه. ولذا نستخلص أن الأمراء جعلوا الأراضى ملكاً للدولة عندما كان فى مقدورهم ذلك، وفى حالة عدم استطاعتهم، قسموا أربع أخماسها. وبناءً عليه، أعتقد أنهم طبقوا ذلك عند استسلام بالرمو؛ التى انتُزعت أرضها، وجزء كبير من هذه الولاية من أصحابها الأصليين، لهربهم أو لوقوعهم أسرى(2). وصاحب التقسيم حدوث خلافات أخمدها بالكاد بنو الأغلب(3). وتجدد الاستسلام الاختيارى أو الاستيلاء بقوة السلاح فى أماكن مختلفة، حيث أنه أدى إلى إحداث الأثر نفسه. وكان يمكن أن تتحول الأراضى التى تركت ملكيتها للمسيحيين ملكية تامة إلى أراض يفرض عليها خراج متى اعتنق أبناؤهم الإسلام بعد ذلك؛ إذ إن كثيرين منهم اعتنقوا الإسلام فى القرن التاسع فى وادى مازارا، وفى القرن التالى فى وادى نوتو، وفى جزء من وادى ديمونى. ومع هذا فإنه إذ لم يكن عقد الملكية الكاملة مؤكداً، ولأن مصلحة الدولة والمسلمين الأقدمين كانت

(1) انظر فى هذا الفصل الهامش ٢ ص ٢٠.

(2) *Ad postremum,capientes panormitanam provinciam, cunctos ejus habitatores captivitati dederunt. Johannes Diaconus, Chronicon Episcoporum Neapolitanæ Ecclesioe,* عند موراتورى، فى كتابه، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص ٣١٣.

(3) انظر الكتاب الثانى، الفصل الخامس من **تاريخ مسلمى صقلية** هذا، المجلد الأول، ص ٣٦٠.

تعارض تمتع حديثى العهد بالإسلام بالإعفاء من الدفع، فإنه لا يمكننا الجزم بشيوع مثل هذه الحالة. وهناك إشارة تشير إليها الأخبار فى بدايات القرن الحادى عشر، ونشير إليها فى موضعها، تؤكد أن مسلمى صقلية كانوا من ذرية السكان الأصليين، وأن الخراج الذى فُرض عليهم لم يُفرض فى ذلك الوقت لأول مرة: ولكن هذا الأمر لايوفر الدليل على طبيعة الملكية، حرةً كانت أم مقيدةً(1).

على أية حال فإن الفتح الإسلامى أدى إلى تحول جذرى فى هيكل ملكية الأراضى وتوزيعها فى صقلية. ولابد أن أراضى المسلمين، التى حصلوا عليها لفلاحتها أو من التقسيم، كانت كثيرة ولم تكن شاسعة؛ وقد أدى قانون المواريث إلى تفتيتها، الذى يسمح بذلك للأصول، حتى الدرجة الثالثة من الأصل الذى يستحق الميراث، وينص على أجزاء متساوية للأولاد ونصف هذه الأجزاء للبنات، ويدعو لتوريث أسلافهم، وكذلك أحفادهم، وفى حالة عدم وجود هؤلاء وأولئك يقر الميراث للفروع(2). بالطريقة نفسها كانت تتفتت الأراضى الأميرية، المؤجرة أو الخاضعة للخراج حسب مواقعها(3). وتؤكد عمليات التقسيم التى جرت على الأراضى الأسماءُ العربيةُ الكثيرة للغاية التى ظلت تحملها الضياع فى القرن الثانى عشر، وعلى وجه الخصوص فى وادى مازارا، ومازالت أسماء منها باقية، وهذه الأسماء ظهرت بالتأكيد من المزج والخلط المذكور؛ وبما أن أسماء المواقع الطوبوغرافية يصعب تغييرها، فالتسميات القديمة نادراً ما تُهمل وتُغفل بسبب تغيير المالك، لذا فالتسميات الجديدة ظهرت فى معظمها من عمليات تقسيم الأراضى وضمها. وهكذا عالج الفتح

(1) انظر الكتاب الرابع، الفصل الثامن حول وطأة الخراج فى عام ١٠١٩، والفصل التاسع حول أملاك المسلمين ذوى الأصول الصقلية والأفريقية.

(2) **الهداية**، الكتاب التاسع والثلاثون، والكتاب الثانى والخمسون، المجلد الرابع، ص ١ وما بعدها؛ ص ٤٦٦ وما بعدها؛ دوسون، *Tableau général de l'Empire Ottoman*، المجلد الخامس، الكتاب الرابع، والخامس، ص ٢٧٥، وما يليها.

(3) كان يُطلق عليها بوجه عام ضياع، كما أشرنا إلى ذلك بعاليه، وفى صقلية وإفريقية يسمونها أيضاً رباع.

الإسلامى معضلة الأراضى والاقطاعيات، وهى معضلة أنهكت صقلية حتى القرن التاسع، وأطلت برأسها مرة أخرى مع الحكم المسيحى للجزيرة فى القرن الثانى عشر.

وكان من أعظم ثمار النصر، وأكثرها انتشاراً، وأوفقها للكثرة الكثيرة من مسلمى صقلية الأوائل، هو إجراء رواتب للجند. وكان يحظى به الجند فى كل البلدان الإسلامية، وهو نظام عسكرى بحق، سنتحدث عنه، غـافلين فئات المحاربين الأخرى؛ أى العبيد والعُتقاء الذين كانوا يُستخدمون فى بعض الأحايين كمحاربين مرابطين، وعبيد الأرض الذين كانوا يخرجون طواعية للجهاد، ويشاركون فى الغُنم، وبمجرد انتهاء الحرب، يعودون للعيش على التسول أو الشقاء. وقد انضم إلى الجند فى أول الأمر كل المسلمين، ولكن مع اتساع رقعة الدولة الإسلامية بعد ذلك، تقلصت كوادر الجند، كما أشرنا إلى هذا فى الكتاب الأول. وفيه أشرنا كذلك إلى قواعد الدواوين التى أنشأها عمر؛ والتى استمرت وجرت عليها بعض التعديلات مثل كثير من المؤسسات الأولية الأخرى فى الإسلام. ففي القرن التاسع، كان للعرب السبق فى كوادر الجند على الأجناس الأجنبية؛ وهذه الأجناس فيما بينها كانت تُقسم وتُرتب حسب أسبقية اعتناقها الإسلام: وكان العرب يُقسمون، مثلهم فى ذلك مثل العجم، حسب قبائلهم وأنسابهم؛ ويحظون بالدرجات العلا حسب قرابتهم للأمير؛ والأفراد حسب أعمارهم. ولكن لم يعد يدخل فى نظام الجند كل مَنْ يطلب ذلك، ولكن أبناء الجند فقط، عندما يبلغون رشدهم، وأجسامهم سليمة، وصالحون لحمل السلاح ولا أى شئ آخر؛ ويقرر ذلك الأمير، كما كان يمكنه قبول إدخال أناس جدد. ويتغير راتب الجند حســـبما يرى الأمير أو الوالى، وحسبما تقضى الظروف وفقاً لعدد الأبناء والعبيد، والخيل المرابطة وأثمان المؤن فى كل بلد من البلدان؛ ولكن فى كلتا الحالتين المذكورتين كان الإجحاف محدوداً بسبب العرف السائد، وسطوة الأسر التى يتكون منها الجانب الأعظم من الجند. إذ كان ينحدر جزء منهم من أشراف العرب القدماء؛ الذين

يعتزون بتقاليدهم، ويفـــاخرون بأتباعهم، وبسرعة تلبيتهم لداعى الحرب(1). ومن ثم نجد أن الجند، كما قلت فى الكتاب الأول، كان من الأشراف المسلحين، وكان نظاماً قائماً على طبقة الأشراف ينظمه ويحدد معالمه بطريقة أو بأخرى النظام الملكى.

وكان الفئ يُخصص دائماً لصرف عطايا الجند؛ والفئ هو التزام دائم يلتزم بأدائه ودفعه غير المؤمنين، سواء كان جزية جماعية مفروضة على أهل الذمة لقاء الحماية التى كفلها لهم الإسلام، أم خراجاً معلوماً على أفراد الشعوب التى فتحها المسلمون؛ والفئ يشمل الجزية والخراج والمكوس، وتحت تسمية الخراج تتحدد حصيلة الأملاك الأميرية(2). وفى القرن الأول الهجرى، وهو عصر الفتوحات والإعفاءات، كان العرب يراعون أيما مراعاة استثمار الفئ، حتى إن الخليفة لم يكن ليضع فى بيت المال إلا ما يتبقى منه؛ وكان يُحظر على عمال دواوين الخـراج جباية المال، إلا إذا أقر أشراف الجند والأعيان الذين يأتون به من الولايات وأقسموا بأنهم قد أرضوا أولاً مَنْ له حق فى هذا المال، وبخاصة الجند(3).

---

(1) الماوردى، المصدر المذكور، الكتاب الثامن عشر، ص ٣٥١ وما يليها، وص ٣٥٥، حيث يُقال فيها إنه دون رفض القتال أو دون أى سبب شرعى آخر لا يمكن منع العطايا ووقفها، «حيث أن الجند جيش المسلمين». قارنه مع الكتاب الثالث، ص ٥٠، حيث نلاحظ أن والى الولاية يمكنه، بدون الحصول على إذن من الخليفة، إجراء العطايا على أولاد الجند الذين بلغوا سن حمل السلاح.

(2) الماوردى، المصدر نفسه، الكتاب الثانى عشر، ص ٢١٨ وما يليها.

(3) أخبار مجموعة فى فتح الأندلس، مخطوط محفوظ فى المكتبة الإمبراطورية بباريس، *Ancien Fonds*، ٧٠٦، الورقة رقم ٩٩ الوجه الأول. وفى هذه الأخبار المهمة التى يرجع تاريخها إلى القرن العاشر نقرأ: «عندما تُرسل إلى الخلفاء الإيرادات وهى: - (جبايات) تُجبى من الحواضر والولايات، فإن كل مبلغ كان يقوم عليه عشر أفراد من أعيان البلد ووجهاء الجند؛ ولا يُوضع فى الخزانة (بيت المال) أية سكة ذهبية أو فضية، إن لم يقسم هؤلاء بالله الواحد، بأنهم جمعوا المال حسب الشرع، وبأن هذا زائد عن عطايا الجند وأسرهم فى الولاية، وإن كل منهم تم إرضاؤه حسب نصيبه وما يخصه فى هذا المال. وحيث أن آل للخليفة خراج إفريقية، التى لم تكن فى ذلك العهد ولاية حدودية؛ والمال بالفعـل كان زائداً، إذ تم أولاً الوفاء بأعطيات الجند وبالالتزامات المفروضة لأناس آخرين ويصل مع هذا المبلغ ثمانيةُ أشخاص إلى حضرة الخليفة، الذى كان

وعندما ازدادت فى الإمارة القوة والأهواء، وقلت أعداد الجند لإنشاء القوات المرابطة، تبقى كثير من النهج القديم فلم يتم تقليل رواتب الجند أو تقليصها(1). وكان الجند يحصلون على رواتبهم فى كثير من الولايات، وليس فى جميعها، عن طريق الخراج المفروض على أراض معينة، وذلك حسب المبلغ المسجل فى سجل تسجيل الأراضى، والذى يتفق مع الراتب المسجل فى كشوف الجند. وفضلاً عن الخراج، كان الوفد يحمل معه دخلاً آخر غير الفئ، وكان يُطلق عليه اسم اقطاع، أى قطعة، كما نقول نحن فى لغتنا(2). وكان يوفر على الحكومة مبلغاً من النفقات وعناء الجباية؛ ولكنه كان يثقل كاهل دافعى الخراج، ويُفسد الجند أنفسهم، الذين تحولوا إلى طغمة من الجباة المميزين؛ وأدى فى نهاية المطاف إلى تدهورالدولة وفسادها، بسبب ضعف القوات الحكومية، والإيرادات التى خُصصت لغير مواضعها، والشعب الذى فت عضده، وتفكُك العلاقات بين الجند والسلطة العامة. إذ جرت العادة على منح الاقطاعيات للجند مدى الحياة، وأحياناً بإحلال أولادهم فيها؛ وذلك بالرغم من أن

فى ذلك الوقت سليمان (٧١٥ ـ ٧١٧) وطلب منهم القسم؛ وفى الحقيقة أقسموا ... إلخ». وهذا الأمر الذى حدث فى القرن الثامن يتوافق تماماً مع المبدأ الذى قال به الماوردى، المصدر المذكور، الكتاب الثالث، ص ٥٠، من أنه على والى الولاية إرسال ما تبقى من الفئ للإمام، «عندما يتبقى لديه هذا الفئ، بعد قيامه بدفع رواتب الجند».

(1) حسب الماوردى، الكتاب المذكور، فى حالة نقص أموال الفئ فى ولاية من الولايات، كان يلزم تعويض الفرق من أموال الخليفة. وفى حوليات القرن الثالث حتى القرن الخامس الهجرى أعتقد أنه لا يوجد أى مثل من أمثال تقلص الرواتب أو منعها.

(2) الماوردى، المصدر المذكور، الكتاب السابع عشر، ص ٣٣٧ حتى ص ٣٤١، يذكر الحالات المختلفة وآراء الفقهاء المتنوعة بخصوص الإقطاع. فلم يكن جائزاً شرعاً إذ إنه خراج مؤقت، أى خراج مفروض على غير المؤمنين الذين كانوا يمتلكونها ملكية شرعية كاملة، وقد تم اعفاؤهم من الخراج والجزية لاعتناقهم الإسلام. أما الخراج الدائم، إذا كان يجب دفعه بالمال ولا يتغير بتغير المحصول، كان يمكن التسامح فيه. ويبدو إن الإقطاعيات تم فرضها أيضاً على العُشور الشرعية، أى الزكاة؛ نظراً لأن الفقهاء حاولوا إثبات عدم مشروعيتها وبطلانها. وهذا هو نص الماوردى ترجمة *M.Worms*، فى كتابه *Recherches sur la propriété etc.*، ص ٢٠٦ وما يليها؛ ولا يبدو لى على الدوام أن ترجمته صحيحة وسليمة.

الفقهاء أعلنوا بطلان هذه الطريقة وعدم مشروعيتها(1). ولهذا يساورنى الشك فى أن الاقطاعيات كانت تمنح فى العادة، لجماعة الجند ولصالحها: فهذا علاج عفوى سيئ للغاية. ومهما كان الأمر، فإن المميزات العسكرية، التى ظهرت أثناء الانهيار المبكر للمجتمع العربى وانحلاله، ساعدت، مع وجود مساوئ أخرى فى المجتمع، على النيل من سيطرتها. وكانت طبقة الأمراء، كما قلنا، من الأسباب الأولى، التى أدت إلى تفتيت الدولة الإسلامية إلى ممالك صغيرة؛ وساعدت الاقطاعيات على بزوغ الطبقة الارستقراطية الساقطة من جديد والدفع بها إلى الهمجية الاقطاعية؛ وأصبح الجند قوة خاصة تقوم بحراسة رؤسائها؛ ومن ثم حدث أن احتل البعض الإمارة، أو أسوأ من ذلك، تنازع الكثير منهم عليها. وهذا ما حدث فى أسبانيا؛ وفى صقلية فى القرن الحادى عشر.

وبهذه الطريقة التى جرى عليها النظام خُصص الدخل الرئيسى لسد الاحتياجات المهمة للدولة، وبقى القليل للنفقات الأخرى، التى كانت تزداد بزيادة التحضر وبمحاولات الأمراء الطامحين فى الاستيلاء على السلطة المطلقة. ولذا ظهر فى هذه المؤسسة بعينها، أكثر من أى جهة من الجهات الحكومية، العيب المتأصل فى التيوقراطية الإسلامية. وقد هيأ القرآن موازنة، كما نقول نحن اليوم، لحكم قبلى بسيط. ولسد نفقات الدولة واحتياجاتها، فكان من الضرورى إذن البحث عن إيرادات غير شرعية؛ كالخراج بعينه الذى سَنّهُ عمر؛ وإذا لم يكف ويف بالغرض، كان المحتم قسراً تجاوز الشرع والعرف. ولذا حاول الفقهاء الذين كانوا فى ذلك الحين

---

(1) الماوردى، الكتاب المذكور، طبعة انجر، ص ٢٠٧ وما يليها من صفحات، وتذكر نسخة *Worms*، الأعمال التى تخصص لها اقطاعية، والشروط الواجب توافرها فى الحالات المختلفة. والقاعدة العامة التى استخلصها من هذا، بعد تنحية اختلاف آراء الفقهاء حول النقاط غير الرئيسة جانباً، هى: أولاً، استبعاد استمرار منح الاقطاعية بعد حياة الانسان؛ ثانياً، منح الاقطاعيات مدى الحياة للجند فقط؛ ثالثاً، منح تفويض وامتياز لعدة سنوات للموظفين الدائمين، مثل مؤذنى المساجد وأئمتها؛ رابعاً، قصره على عام واحد بالنسبة للموظفين غير الدائمين، مثل القاضى، والحكيم، وكتبة الهيئة الحكومية وموظفيها.

يسيطرون على السلطة التشريعية عن طريق التفسير والتأويل، حاولوا جهد إيمانهم انتزاع فقرة من القرآن والسنّة لمواءمتها مع الاحتياجات الحالية، وأكدوا أنه لا سبيل إلى ذلك. وقام الأمراء بفرض ضرائب رغماً عن الشرع والمفسرين؛ وأخذوا الأموال من هنا وهناك، من خُمس الغنائم، ومن الزكاة، والفئ: وكانت هذه الإيرادات حقاً أكيداً من حقوق الدولة، والجند، وذوى قربى الرسول والمساكين، ولكن كانت الأنصبة غير محددة. وانتزع الأمراء من الخراج رواتب العاملين المدنيين، بالإضافة إلى رواتب الجند؛ وأخذوا لأنفسهم ما كان يروق لهم من الأملاك الأميرية أو منحوه لأهل حظوتهم؛ وأحياناً كانوا يستخدمون قوت الفقراء، أى الزكاة والخُمس، فى أعمال ذات نفع عام وفى المظاهر العامة ومظاهر الأبهة الملكية. من هنا ظهرت خلافات مستمرة بين الأمراء والفقهاء؛ وهى خلافات لم تجد لها مخرجاً شرعياً، وكانت ضارة أيما ضرر. ولم يحكم وينظم مطلقاً بيت المال وإيراداته فكرٌ موحدٌ وشامل، ولم يتلاءم مع الزمن، ولم يترسخ بالقانون والشرع(1). وفى صقلية يبدو أن الضرائب المجحفة قد بدأت فى القرن العاشر، وربما قبل ذلك بقليل، فى فترة حكم إبراهيم ابن أحمد. وحتى ذلك الحين كان الخُمس والفئ، الوافر بسبب الحرب، والعُشر، يكفى لسد حاجة الجند، الذين لم يكونوا مضطرين لإرسال المال إلى إفريقية(2).

وبعد الحديث عن هذه القواعد والتنظيمات، فإنه يجب البحث عن ماهية أجيال البشر الذين أتوا للرباط فى صقلية لتكون مستقراً لهم، تحت اسم المسلمين. ونظراً لقلة الأخبار المتوافرة عنهم لدى المؤرخين، فمن الضرورى النظر فى الأسماء الطبوغرافية الخاصة

(1) بخصوص الإيرادات الشرعية الأخرى وآراء الفقهاء، سأستشهد بوجه عام بالماوردى، **الأحكام السلطانية**، الكتاب الحادى عشر، والثانى عشر، والثالث عشر، والرابع عشر، والسابع عشر، والثامن عشر. والأمور العامة التى أذكرها مأخوذة من تاريخ الإسلام فى عصوره الخمس الأولى.

(2) يعج الكتاب الثانى بأخبار العرب فى صقلية حتى الفترة التى نتناولها بالبحث، ونقرأ فيه عن قيام أمير صقلية بإهداء جزء من غنائم وأسرى كاستروجوڤانى لأمير الأغالبة، الذى قام بإرسالها للخليفة.

بالسلالات أو التى تتشابه مع نظيراتها فى بلدان إسلامية أخرى. وهذه الطريقة لا تسلم من النقد الصحيح؛ لأن الشعوب الإسلامية، مثلها فى ذلك مثل سائر الشعوب، اعتادت استخدام أسماء مواطنها الأصلية فى البلدان التى فتحتها؛ ولذا قاموا بصياغة وتصنيف معجم خصيصاً لما تشابه من الأسماء الجغرافية(1). ومع ذلك نلاحظ أن تشابه الاسم قد ينشأ أحياناً من تشابه الظروف المحلية، فعلى سبيل المثال اسم «قلعة الحمام»، موجود فى صقلية، وإفريقية وفى أماكن أخرى؛ وقد يرجع إلى عصور سحيقة، أو إلى تشابه عابر فى الألفاظ، أو إلى أى سبب آخر نجهله: فعلى سبيل المثال، نجد فى صقلية ذاتها اسم سجستا ومازارا، وهذان الاسمان يتوافقان مع اسم ساچستان، وهى ولاية فى بلاد فارس، واسم مازارا وهى قرية من قرى لوريستان فى بلاد فارس أيضاً(2). وبما أن هاتين المدينتين الصقليتين كانتا معروفتين فى الماضى، فإن تطابق هذه الأسماء وتماثلها قد يؤدى صدفة لتأكيد أصول أهالى صقلية الشرقية، وقد لا يكون سبباً من أسباب الوقوع فى الخطأ والزلل ازاء العصور الإسلامية. ولكن هذا المثل ينبهنا كثيراً لأن نكون على حرص وحذر، فلا نأخذ بالقرائن من هذا القبيل التى لا صدى لها أو نظير فى الأحداث التاريخية.

وقد كتب عن تنوع الأجناس فى صقلية واختلافاتها الراهب ثيودوسيوس، وهو راهب يتميز بكلماته الحماسية ولكنها حقيقية، إذ يتعجب من وجود السراسنة وتجمعهم فى بالرمو من الجهات الأصلية

(1) اسم المعجم **المشترك**، قام بتصنيفه ياقوت، وهو جغرافى من القرن الثالث عشر. وقد قام العلاَّمة الذى لا يعرف الكلل وهو الدكتور *Wistenfeld* بنشر النص العربى فى جوتينجا.

(2) انظر معجم **المشترك**، فى لفظه مازار. ومن المعروف للجميع أن الأقدمين ظنوا أن اسم سجستا، هو تحريف وتغيير فى اسم إچستا؛ ولكن قدرة الأقدمين فى مسائل اشتقاق الكلمات كانت ضعيفة.

الأربعة فى العــالم(1): فقد أذهل أســير ســيراكوزا، الانتقــال من رتابة إحدى عواصــم اقليــم بيزنطى إلى صخب الحــاضرة المتنامية: وكانوا مستوطنين وتجــار رحــل؛ اختلطوا بالصــقليين، واليونانيين، واللومبــارد، واليهـــود، والعرب، والبربر، والفُرس، والتتار، والزنوج؛ بعضهم يرتدى العباءة والعمامة، وبعضهم يلبس الفرو وبعضهم أنصاف عراة، وثمة وجوه بيضاوية أو مربعة أو مستديرة من كل سحنة وهيئة؛ ولحى وشعر متباين الألوان والأشكال؛ اجتمعت معاً الملامح، والأزياء، واللغات، والسلوكيات، والعادات الخاصة بالعديد من الشعوب القاطنة فى الدولة الإسلامية. وأسماء القبائل التى ذكرتها فى الكتاب السابق تُظهر بين المستوطنين كلتا السلالتين المنحدرتين من قحطان وعدنان وبخاصة السلالة الثانية(2). وإذا ما تــاولنا موضوع الانقســـامات التى ظهــرت بعد الإســلام، فإننا نستنتج أنه، فضلاً عن عرب إفريقية، كان يوجد كذلك عرب من أسبانيا(3)؛ وربما من سورية، ومصر وبلاد ما بين

(1) انظر الكتاب الثانى، الفصل التاسع، ص ٤٦٨ من المجلد الأول.

(2) ينتمى إلى السلالة الأولى ابن غوث (الكتاب الثانى، الفصل الثالث، ص ٢٨٥ من المجلد الأول)، من قبيلة همدان (الكتــاب الثــانى، الفصل السادس، ص ٣١٤ من المجلد الأول)، والكلبيون الذين أصــبحوا أمراء صــقلية فى القــرن العاشر، وفى نهاية القرن الثانى عشر تأمر عليها واحد من قبيلة كنده، الذى اشترى داراً فى بالرمو من أحد البربر المنتمين إلى قبيلــة لواتة. أما الســلالة الثــانية فينتمى إليهـــا الأغــالبة، الذين أرســلوا الكثير من الأمراء لحــكم صقلية: وتوجد أيضاً أسماء قبائل كنعـــان وفزارة وغيرها من نفس الأصـــل: ومن بين الشعراء العرب فى صقلية الذين ازدهر بهم جزء كبير من القرنين الحادى عشر والثانى عشر، نرى ثلاث فروع فقط من قبيلة قحطان والكثره الكثيره منهم من قبيلة عدنان، وذلك بالرغم من سيادة الكلبيين.

(3) بالنسبة للأسبان انظر الكتاب الثانى، الفصل الثالث، ص ٣٣٢، والفصل الرابع، ص ٢٨٦، وص ٢٨٨ من المجلد الأول. ومن الممكن أيضاً أن ننسّب إلى الأسبان اسم كالتا بللوتا، أى «قلعة البلوط»، وهو اسم مطابق «لقلعة البلوط» فى قرطبة. ولكن الكل يرى أن هذا الاسم قد نشأ من ظروف المكان.

النهرين(1). ومن المؤكد أنه كانت توجد سلالة من الخراسانيين وفرس آخرين انتقلوا إلى إفريقيــة فى القـــرن الثامن؛ وفى أكثر من مرة، برز بين مســلمى بالرمو، فى حــروب الاستقلال التى وقعت فى القرن العاشر، اســم ركمويه، وهو اســم فارسى، وأسرة بنى الطبرى ذات النفوذ الكبير، وهى أسرة نزحت من طبرستان؛ وفضلاً عن هذا فعلى أرض بالرمو كانت توجد أسماء

(1) يسمونها قصر سعد حسبما ورد عند ابن جبير فى *Voyage en Sicile de Mohammed-Ibn-Djobair, Journal Asiatique,* المجموعة الرابعة، المجلد السادس، الصادر فى عام ١٨٤٦، ص ٧٥، والهامش ٢٤) وهى قلعة بالقرب من بالرمو، شُيدت منذ بواكير الفتح الإسلامى لصقلية. وكان اسماً لقبيلة عربية من قبائل عدنان، استقرت فى سورية ومصر، كما نستخلص ذلك من المقريزى فى كتابه، **البيان والإعراب**، طبعة وستنفيلد، ص ١١ حتى ص ١٤؛ ومن هذه القبيلة أُخذت أسماء أربع أماكن مختلفة فى المشرق، ورد ذكرها فى معجم **المشترك** لياقوت، ص ٤٤٧، واسم قرية بالقرب من المهدية فى إفريقية، ورد ذكره فى معجم السير للصفدى، مخطوطة باريس، الملحقات العربية رقم ٧٠٦، مقال عن خزرون؛ ومن الإدريسى فى كتابه، *Géographie*، النسخة الفرنسية، المجلد الأول، ص ٢٧٧.

ويرى الإدريسى أن بلچا هو اسم قلعة كانت تطل على النهر، يُطلق عليها الأن اسم بيليتشى، وأن هذا النهر كانت مياهه تنساب بين چيبيلينا وسانتا مارجريتا، وتصب فى سيلينونتى، وهذا الاسم يُطلق مرة على القلعة وأخرى على النهر، وفى الوثائق اللاتينية التى يرجع تاريخها إلى القرن الحادى عشر وحتى الخامس عشر نجد هذا الاسم مكتوباً بهذه الطريقة *Belich, Belichi, Belice, Belix, Bilichi*. وفى منطقة أخرى، تقع بين بوليتسا وكوليزانو، ورد ذكر اسم قلعة بيليتشى فى القرن الرابع عشر. انظر الوثائق، عند بيرو فى كتـــابه، *Sicilia Sacra*، ص ٦٩٥، ٧٣٦، ٨٤٢، ٨٤٣؛ وعند دى جريجوريو فى كتـــابه، **المكتبة الآرجونية**، المجـــلد الثانى، ص ٤٦٩، ٤٨٩، ٤٩٢؛ وعند دل چوديتشى فى كتابه، **وصف معبد مورياڵى**، الحاشية، ص ٨ وما يليها من صــفحات، وثيقة يرجـــع تاريخهـــا لعام ١١٨٢. ويذكر نفس الأســـماء كلُ من: أميكو فى كتـــابه، *Lexicon Topographicum*، حيث ورد اســـم وادى مازارا ووادى ديمونى؛ وڤيللا بيانــكا فى كتـــابه، **صقلية النبيلة**، المجـــلد الأول، الجــزء الثانى، ص ٢٣.

والاسم نفسه، تحت شكل بلچى وبلچان، نجده فى البصره وفى مرو بخراسان، وذلك حسبما جاء فى **مراصد الإطلاع**. كما أن هناك نهرا صغيرا يصب فى نهر الفرات عند الرقة، قديماً أُطلق عليه اسم بيليكا، أما اليوم فيحمل اسم بليش، أو بليچش، حسب النطق الإنجليزى، كما نلاحظ هذا فى *Journal of the Royal Géographical Society*، سنة ١٨٣٣، المجلد الثالث، ص ٢٣٣.

طبوغرافية مثل عين شندى(1)، وبلهرا(2)، وساجانا(3)؛ وعلى بعد قليل منها، نجد أسماء منزل سندى وجبل سندى(4)، التى تُنسب جميعها

---

(1) على مستوى العامة وبين الناس كانت تُعرف باسم دينى سينى، وهى نبع بالقرب من بالرمو، يقع بين قصرى كوبا *Cuba* وزيزا *Zisa*. وفى وثيقة لاتينية ترجع لعام ١٢١٣، عند مورتيللارو فى كتابه، **فهرس وثائق كاتدرائية بالرمو**، ص ٥٥، فإن هذا الاسم مكتوب عين شندى؛ وعين شندى فى كتاب *Anonymi Chronicon Siculum*، وهو كتاب يرجع تاريخه للقرن الرابع عشر، عند دى جريجوريو، **المكتبة الآرجونية**، المجلد الثانى، ص ١٢٩. وابن حوقل، فى القرن العاشر، أطلق على هذا النبع اسم عين أبى سعيد فى، *Journal Asiatique*؛ المجموعة الرابعة، المجلد الخامس، ص ٩٠ وص ٩٩ (ص ٢٠ و٢٩ من المستلة).

(2) قرية بلهرا ذكرها ابن حوقل، المرجع المذكور. والمكان يتوافق بلا شك مع مكان موريالى؛ والاسم على ما يبدو ظل يُطلق على سوق من أسواق بالرمو، الذى من المحتمل أن سكان بلهارا كانوا يترددون عليه، والذى أُطلق عليه فى العصور الوسطى كما يشهد بهذا فاتزيللو، اسم سيجا بلهارت، واليوم عندما أسقطت كلمة سوق أو سوج، أصبح يُطلق عليه اسم بالارو. ولقد نوهت إلى هذا فى الهامش رقم ٣٣ فى ترجمتى لابن حوقل. والآن يوجد فى الهند جبل أُطلق عليه فى العصور الوسطى بالهارا، وكان العرب يكتبون هذا الاسم بنفس الحروف تماماً التى وردت فى نص ابن حوقل. وأشار إلى هذا المؤلف نفسه، واتبع نهجه ابن سعيد فى، **مختصر الجغرافيا**، مخطوطة باريس، الورقة رقم ٥٣؛ ويُذكر أن بالهارا كان أيضاً لقباً لأحد أمراء الهند، على حد قول المسعودى فى كتابه، **مروج الذهب**، نص ترجمة سبرنجر الإنجليزية، المجلد الأول، ص ١٩٣، ورينو *Mémoire sur L'Inde*، ص ١٢٩.

(3) ساجانا ضيعة واسعة، كانت اقطاعية كبيرة، تقع بين الجبال الواقعة غرب بالرمو. وقد ظل هذا الاسم على أية حال، وجاء ذكره فى وثيقة لجوليلمو الثانى، يرجع تاريخها لعام ١١٧٦، ويوجد منها نسخة بالعربية فى أرشيف دير موريالى، ومعها نسخة لاتينية معاصره لها، نشرها دل چوديتشى، **وصف معبد موريالى**، الحاشية، ص ١٨. وساغانيان اسم يُطلق على إحدى مدن بلاد التتار المستقلة، التى تقع جنوب شرق مدينة سمرقند؛ وتُكتب بنفس الأحرف الأصلية التى وردت فى وثيقة موريالى، إلا إن فى هذه الوثيقة النبرة والحرف الأخير مختلفين فبدلاً من ساجانيان، نجد ساجونو. ومن نافلة القول أن نذكر أن الإمبراطورية العربية فى القرن التاسع كانت تمتد فى بلاد التتار حتى فرجانه؛ وأن مدينة بخارى وسمرقند وغيرهما من مدن تلك الأصقاع كانت موطناً لأشهر الكُتاب العرب.

(4) منزل سندى، ذكره الإدريسى، ويقع فى كورليونى؛ وجبل سندى، عبارة عن ضيعة شاسعة تقع فى چيرچنتى، ورد ذكرها فى وثيقة يرجع تاريخها لعام ١٤٠٨، عند دى جريجوريو، **المكتبة الآرجونية**، المجلد الثانى، ص ٤٩ وهما يعنيان: الأول بمعنى «موضع أو قرية»، والثانى يعنى «جبل» سندى، أو يقصد رجل من السند. واسم سندس،

لسلالات من الشرق الأقصى. وتظهر أسماء الأماكن، كما تُبين ذلك الأحداث التاريخية، أن العرب، وشعوباً أخرى من شعوب المشرق سيطروا على الأجزاء الشمالية من وادى مازارا، الذى، كما قلنا، كانت الجماعات الإسلامية فى القرن التاسع محدودة فيه. وعندما أصبحت بالرمو عاصمة الجزيرة، وصارت مقراً ومستقراً لهم؛ يبدو أن تلك الشعوب قد انتشرت على طول الساحل واتجهت صوب الغرب، ووصلت إلى مدينة ترابانى.

وكما هو معلوم ومعروف فإن البربر قد رافقوا العرب فى فتح صقلية؛ فقد جاءت إليها بعض قبائل البربر فى جيش أسد بن الفرات، ومع البربرى الأسبانى الأصبغ بن وكيل، وأتت إليها قبائل أخرى من البربر فى مختلف الحملات التى تلت ذلك، كما جاءت إليها جماعات صغيرة من البربر. وكانت السلالة البربرية تشكل جزءاً ليس باليسير فى الجماعة؛ حتى إنها استطاعت أن تخوض حرباً أهلية طويلة ضد العرب. واحتلت المناطق الجنوبية من وادى مازارا. وبالفعل فمن بين اثنتى عشر اسماً بربرياً، لا يوجد شك حول أصولها، فإن الجانب الأكبر منها يوجد فى تلك المنطقة، التى تقع بين مازارا وليكاتا(1). ولذا نجد مدينة چيرچنتى التى كانت غالباً فى حالة حرب مع بالرمو ودائماً معادية لها، وكانت هذه المدينة من أهم المدن بلاشك بالنسبة للبربر وحاضرة لهم.

فى شرق كورليونى، جاء بشكل أكثر فى وثيقة عند بيرّو فى كتابه، *Sicilia Sacra*، ص ٧٦٤. ومحمد بن سندى هو قائد الأسطول الذى خرج من بالرمو لمحاربة البيزنطيين فى عام ٨٣٥. انظر الكتاب الثانى، الفصل الخامس، ص ٣٦٨ من المجلد الأول.

(1) ومن الأسماء التى تعطى ذلك التأكيد واليقين، نجد منها ستة أسماء قريبة جداً لاسم چيرچنتى؛ اثنان بينها وبالرمو؛ واثنان بالقرب من بالرمو؛ وواحد فى ضواحى مسينا؛ وواحد فى ضواحى سيراكوزا. وها هى تلك الأسماء:

أ - آندرانى، وهو نجع يقع بين شاكّا وچيرچنتى، ورد ذكره فى وثيقة يرجع تاريخها لعام ١٢٣٩، *Constitutiones Regni Siciliæ*، طبعة كاركانى، ص ٢٦٨. آندرانى أو آنداراني هو الصفة الخاصة بسلالة آندره، وهى قبيلة من قبائل البربر، ذكرها ابن خلدون فى، **تاريخ البربر**، النص العربى، المجلد الأول، ص ١٠٨ وص ١٧٨، فى الترجمة الفرنسية لـ *M. De Slane*، المجلد الأول، ص ١٧٠، ص ٢٧٥.

إن تعدد السلالات أدى بكل تأكيد إلى زيادة حدة الكثير من الصراعات الشخصية؛ وربما امتزجت باسباب الحنق الأخرى فى عملية استبدال الأمراء؛ ولكن لم تسطع إفراز طوائف كثيرة بقدر إفرازها أمم وشـعوب. وعـلاوة على ذلك، يبدو لى أن سـلالة قحطان

ب ـ قرقود، اسم بلده من بلدان صقلية وذلك حسبما جاء فى **مراصد الأطلاع** و**معجم ياقوت**، مخطوطة محفوظة فى المتحف البريطانى، رقم ١٦٦٤٩ و١٦٦٥٠، وفى المقالة كيركنت (چيرچنتى): وربما كاركس كما جاء فى وثيقة يرجع تاريخها لعام ١١٧٧، لصالح أسقف چيرچنتى فى **جامع مؤلفى صقلية** *Opuscoli di autori siciliani*، المجلد الثامن، ص ٣٣٤. وكركوده هى قبيلة من قبائل البربر، حسبما قال ابن خلدون، المرجع المذكور، النص، المجلد الأول، ص ١٧٧؛ الترجمة، المجلد الأول، ص ٢٧٤.

جـ ـ مزيزينو، اسم هضبة تقع فى مقاطعة بيليتشى القديمة عند كاستلڤيترانو، حسبما ذكر ڤيللابيانكا فى، *Sicilia Nobile*، المجلد الثانى، ص ٣٤٥.

وميزه هى قبيلة من البربر، كما ذكر ذلك ابن خلدون، المرجع المذكور، النص، المجلد الأول، ص ١٥٣؛ والترجمة، المجلد الأول، ص ٢٤١. وتغيير حرف Z إلى حرف S لا يضع هذه الكلمة وأصلها موضع شك.

د ـ ميكينيزى، نجع قديم قامت مكانه اليوم أكواڤيڤا، حسبما ذكر ذلك آميكو فى كتابه، *Lexicon Topographicum*، أو مكناسه وهو اسم شهير لاحدى قبائل البربر.

هـ ـ منْشار، وهى قلعة، حسبما ورد عند الإدريسى، تقع بالقرب من موقع راكالموتو الحالىَ؛ وموكسارو (سانت أنچلودى) تبعد حالياً ١٤ ميلاً عن چيرچنتى، وكلا الاسمين مثبتان بحروف مختلفة فى وثائق العصور الوسطى. ومنْشار كان اسماً لجبل بإفريقية، ينتمى إلى قبيلة وزداچا البربرية، كما جاء ذلك عند ابن خلدون فى كتابه، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ترجمة *M. Des Verges*، النص العربى، ص ٥٦، والترجمة، ص ١٢٨. انظر أيضا الإدريسى، ترجمة م چوبير، المجلد الأول، ص ٢٧٥. ويذكر **مراصد** ياقوت، طبعة ليدن، المجلد الثالث، ص ١٥٩، يذكر حصن منشار عند نهر الفرات.

و ـ موديونى يُطلق اليوم هذا الاسم على النهر الذى كان يُسمى قديماً سيلينوس الواقع عند سيلينونتى. وماديونه هو اسم إحدى قبائل البربر، كما قال ذلك ابن خلدون فى كتابه، **تاريخ البربر**، النص العربى، المجلد الأول، ص ١٠٩، والترجمة، المجلد الأول، ص ١٧٢.

ز ـ ساناچى أو رسناجا، هو اسم أُطلق على نبع نهر مازرو، وعلى ضيعة تقع فى أرض ساليمى، طبقاً لما ورد فى إحدى الوثائق التى يرجع تاريخها لعام ١٤٠٨، عند دى جريجوريو فى كتابه، **المكتبة الآرجونية**، *Biblioteca Aragonese*، المجلد الثانى، ص ٤٨٩، ولما ورد عند ڤيللابيانكا فى كتابه، *Sicilia Nobile*، المجلد الثانى، ص ٣٩٦. وكما يعلم كلُ واحد منا فإن سنهاجة أو صنهاجة، هى إحدى القبائل الرئيسية البربرية.

حـ ـ ومعروفة أيضاً قبيلة زناتا. وكلمة حجر الزناتى ورحل الزناتى تعنى «صخره» و«قرية» زناتا، وهى أسماء أماكن نجدها بالقرب من كورليونى، وذكرت فى وثائق يرجع تاريخها

كانت فى صقلية أقل عددا من الكلبيين، الذين أتوا إليها فى القرن العاشر. وعلى ما يبدو نسى الفارسيون صراعاتهم ضد العرب، وهذه الصراعات خفف الزمن من وطأتها فى إفريقية. وحدث الشىء نفسه بالنسبة للسلالات الشرقية المبعثرة والقليلة، والضعيفة للغاية عن أن تشكل وحدة واحدة قائمة بذاتها، وكانت هذه السلالات

إلى أعوام: ١٠٩٣، عند بيرّو فى كتابه، *Sicilia Sacra*، ص ٦٩٥ وص ٨٤٢؛ ووثائق ترجع لأعوام ١١٥٠، ١١٥٥، ١٣٠١، عند مونچتورى فى كتابه، ...*Sacrœ Domus Mansionis* *Panormi, Monumenta historica*، الفصل الثالث عشر؛ ووثيقة عام ١١٨٢، عند دل چوديتشى فى كتابه، *Descrizione del tempio di Monreale*، الحاشية، ص ١١. ومن هذه الوثيقة الأخيرة توجد نسخة بالعربية محفوظة فى أرشيف دير موريالى. وفى الوثائق الأخرى، وهى جميعها مكتوبة باللاتينية، نقرأ أحياناً كلمة حجر الزناتى مكتوبة على هذا النحو *Petra de Zineth, Raalginet, Ragalzinet* ... إلخ.

ط ـ ماجاچى باللاتينية ومغاجى بالعربية، كما ورد ذلك فى وثيقة يرجع تاريخها لعام ١١٨٢، عند دل چوديتشى، الكتاب المذكور، وهى قرية تقع فى أراضى چاتو القديمة، لا تبعد عن بلدية سان چوزيبى لى مورتللى الحالية. وماجاچا هو اسم قبيلة بربرية، طبقاً لما قاله ابن خلدون فى كتابه، **تاريخ البربر**، النص العربى، المجلد الأول، ص ١٠٨؛ الترجمة، المجلد الأول، ص ١٧١.

ى ـ كُتيمى، وكُتيما، وجوديمى هى أسماء لأرض بالقرب من ڤيكارى، تقع على الحدود المتاخمة لأبروشيتى بالرمو وچيرچنتى، ورد ذكرها فى إحدى الوثائق التى يرجع تاريخها لعام ١٢٤٤، عند بيرو فى كتابه، *Sicilia Sacra*، ص ١٤٧. وهذا الاسم مشتق من كُتَامَة أو كتَامة، وهى قبيلة بربرية، وسينبغى علينا الحديث عنها. ضع فى الاعتبار أن قبيلة كتامَة ربما لم تأت إلى صقلية قبل القرن العاشر، وأن قبيلة سانهاجا لم تأت إليها قبل القرن الحادى عشر.

ك ـ كوميا هو اسم قريتين تقعان بالقرب من مسينا، وكذلك هو اسم إحدى القبائل البربرية، حسبما ذكر ذلك ابن خلدون، المرجع المذكور، النص العربى، ص ١٠٩ ... إلخ، والترجمة، المجلد الأول، ص ١٧٢ ... إلخ.

ل ـ ميليللى، هو اسم مدينة تبعد اثنتى عشر ميلاً عن سيراكوزا. ميليلا وميليلى هما مدينتان من مدن إفريقية، أحدهما تقع على ساحل الريف المغربى، والأخرى فى الزاب، وميليلا هى قبيلة بربرية، ذكرها ابن خلدون فى، المرجع المذكور، النص العربى، المجلد الأول، ص ١٠٧ ... إلخ، الترجمة، ص ١٧٠ ... إلخ. وقد يكون لهذا الاسم أصل لاتينى.

م ـ مزيزينـــو، فى إقطـــاعية لاندرو (وادى مازارا) وأشـــار ڤيللابيانكا إليهـــا فى *Sicilia nobile*، المجلد الثانى، ص ٣٤٥. ومزيزا كان اسم قبيلة بربرية، حسب قول ابن خـــلدون، *Histoire des Berbères*، المجلد الأول، ص ٢٤١ من الترجمة، والجزء الأول ص ١٥٣ من النص الأصلى.

تهتم جميعها بأن تلتف حول عرب عدنان لقهر البربر والتغلب عليهم. عرب وبربر إذن: كانوا يشكلون الصدع الذى لا يمكن رأبه لجماعة المستوطنين فى صقلية. ولم يكن يوجد بين هؤلاء وأولئك أى فاصل من الفواصل الشرعية. بينما فى إفريقية كان العديد من قبائل البربر لا يزالون يدفعون الخراج وكانوا محرومين من إجراء رواتب الجند لهم، لأنه تم إخضاعهم بالقوة. ولأن العرب والبربر أتوا معاً إلى صقلية لخوض غمار الجهاد فقد تمتعوا بالحقوق نفسها فى الغنائم عند النصر. إلا أن أمراء جيش صقلية كانوا ينحدرون من أصول عربية، مثل أمراء الأغالبة؛ أما العلماء، والأشراف، وغالبية فرسان الجند فكانوا ينحدرون من أصول عربية أو فارسية؛ ولم يمكنهم فى صقلية التخلص من كبرياء الوجهاء وحرصهم؛ ولا نسيان غالبية بنى جلدتهم فى إفريقية. ولم يكن البربر يعدون أنفسهم أقل منهم: إذ كانوا يدركون كثرة عددهم، وشجاعتهم، وعلى وعى بحقوقهم التى كفلها لهم الإسلام والتى اختصتهم بها الطبيعة. وعندما لاحظ الچنرال دوماس، وهو مراقب ثاقب الفكر ومن المحدثين، الخلاف الذى يوجد بين المؤسسات الاجتماعية العربية والبربرية، وقام ببحث تلك المؤسسات على وجه الخصوص المتعلقة بالبربر الموجودين فى منطقة القبائل الكبرى، كما يطلقون ذلك على المنطقة الواقعة بين ديليس، وأومالى، وسطيف وبوچيا، أطلق على هذه الأمة لقب «سويسرا البدائية». وتشكل الكونتونات والقرى، على حد قوله، وحدات سياسية؛ تجمعها فيما بينها روابط ووشائج دائمة لحد ما مثل: جمهوريات ديمقراطية صغيرة، ولكل واحد منهم صوت فى

ولقد ذكرت هذه القائمة على سبيل الذكر؛ ولكن لم يتم حصر الأسماء الطبوغرافية الفرعية الخاصة بصقلية، وجبالها، وضياعها، وينابيع مياهها ... إلخ. وأنا لا أعرفها كلها. وفى ناحية أخرى تقل الأخبار الخاصة بأسماء الأعراق بالطبوغرافيا الخاصة ببربر إفريقية، وقد بدأ الأوربيون مؤخراً فى دراسة لغة البربر؛ ومن المحتمل أن تكون الكثير من الأسماء الطبوغرافية الحالية فى صقلية أو تلك التى ذكرت فى الخرائط ابتداءً من القرن الثانى عشر وحتى القرن الخامس عشر أسماء بربرية لأن أصول هذه الأسماء لا تبدو عربية، ولا اغريقية، ولا لاتينية، ولا فرنسية. وأنا على يقين من أنه مع الوقت سيمكننا التوصل لاكتشاف أسماء أخرى منها. وأخيراً أنوه إلى أن الكثير جداً من الأسماء المأخوذة من السلالة البربرية لن تُعرف أبداً؛ لأن رجال هذه السلالة كانت تطلق عليهم غالباً أسماء أو ألقاب عربية. ومن ناحية أخرى يوجد العديد من الأسماء البربرية، بين شعراء صقلية

مجلسها؛ ويوجد بها قضاة منتخبون، يعملون لفترة قصيرة، ولهم سلطة محدودة؛ وبيوت الوجهاء جاهزة غالباً لعقد الاجتماعات فيها، وذلك لاتساعها أو من أجل الشهرة؛ وكانت تأتمر بأمر المرابطين أكثر من القضاة والأشراف، وهم جماعة تشبه كثيراً جماعة الرهبان فى العصور الوسطى: وكانت الجماعة تفصل فى الجرائم، ليس حسب القرآن ولكن حسب الأعراف القديمة المتوارثة فى البلد: فالقاتل خارج على القانون؛ أما بالنسبة للجرائم الأخرى، فيتم معالجتها بفرض غرامات مالية، وليس أبداً بعقوبة الجلد كما يحدث عند العرب. ويعتقد هذا المؤلف الكريم أنه توجد نظم مماثلة لدى شعوب بربرية أخرى فى الجزائر(1)؛ وقد أضيف أنا أنه تستثنى من هذا قبائل البدو الرُّحل وبعض الفترات التى حُكمت فيها حكماً ملكياً القبائل الزراعية المستقرة، أو الجماعات، واحتفظت فيه بعاداتها فى المساواة المدنية التى رعتها سلالة البربر منذ العصور السحيقة(2).

فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر. والتاريخ يذكر، فى القرن الحادى عشر، ابن مقلاتى، وهو أحد الملوك الذين اقتسموا الجزيرة، وهو رجل من قبيلة مكلاتة، التى ورد ذكرها عند ابن خلدون فى كتابه، المرجع المذكور، النص العربى، المجلد الأول، ص ١٠٨ ... إلخ؛ الترجمة، المجلد الأول، ص ١٧٢ ... إلخ. وعقد بيع أحد البيوت فى بالرمو، يرجع تاريخه لعام ١١٣٢، يحمل اسم البائع وهو عبد الرحمن بن عمر بن .... اللواتى، أى من قبيلة لواتة، وهى قبيلة بربرية مشهورة؛ النص العربى عند دى جريجوريو، *De Supputandis apund Arabos Siculos temporibus*، ص ٤٤.

(1) الچنرال دوماس، *Mœurs et Coutumes de l'Algerie*، باريس ١٨٥٣، ص ١٤٨، وص ١٦٦ وما بعدها؛ وص ١٩١ وما بعدها.

(2) ابن خلدون، العالم فى تاريخ الفلسفة والمؤلف الحصيف فى حوليات البربر، يفرق ويميز بين البربر الرُّحل والمزارعين، فيرى أن البربر الرُّحل كانوا يفرضون الضرائب على البربر المزارعين وكانوا يعدون أنفسهم أنبل منهم، **تاريخ البربر**، الترجمة الفرنسية لـ *M. De Slane*، المجلد الأول، ص ١٦٧ وما بعدها. ويبدو أن بربر الوبر لم يمارسوا فقط هذه السلطة، بصفتهم أكثر قوة، على البربر المدر، ولكن كانوا يميلون إلى النظام الطبقى داخل نظامهم الداخلى الذى يحكم قبيلتهم. أما بالنسبة للديمقراطية عندهم، ومع أن ابن خلدون لم يتحدث عنها، إلا أنها ستظهر من الأحداث والأمور التى سأشير إليها؛ وربما أدرك المؤرخ اختلاف نظامهم السياسى، عندما لاحظ أن البربر الذين كانوا بعيدين عن الحواضر الكبرى ولم يخضعوا للهيمنة الرومانية، أو الچرمانية، أو البيزنطية، «كان لهم قواتهم، وأنظمتهم، وأتباعهم، وملوكهم، ورؤساؤهم، وحكامهم وقادتهم الذين يروقون لهم»؛ ولأن اختلاف هؤلاء الحكام، كما كتب المؤلف بالعربية وليس بالبربرية، يظهر اختلافاً ليس فقط

وبعد الفتح الإسلامى أظهرت هذه القبائل ميلاً عاماً لجماعات الخوارج؛ ولروح الاستقلال التى كانت لدى قبيلة كتامة إزاء الخلفاء الفاطميين(1)؛ وقضاة هذه القبيلة وقبيلة زناتا فى القرن الحادى عشر يشبهون القضاة الذين يتحدث عنهم الجنرال دوماس فى أيامنا هذه(2): وإذا كان قد ظهر أحياناً فى ذلك الشعب أمراء أو طغاة، فلنذكر أن مثل هذا يحدث بكل سهولة ويسر فى الدول الديمقراطية وكذلك تحت حكم الصفوة والوجهاء. من هذا نستخلص أن القبائل البربرية عندما انتقلت إلى صقلية ولم تذعن لأمرائها، لأنها كانت تدين بالطاعة للأغالبة، كانت لديها روح المساواة وعلى وعى بها، وهذه الروح قد أبعدتهم بشكل كبير عن العرب ونفرتهم منهم، وجعلتهم غير متسامحين إزاء ظلم صفوتهم وإجحافهم. وكانت الاتجاهات الاقتصادية تحدث انقسامات بين العرب والبربر: فالعرب يميلون إلى السكون والدعة، أما البربر فهم مفعمون بالحيوية والحركة؛ والعرب رعاة لدى سادتهم، وقد وقعت فى أيديهم الإقطاعات بدلاً من الإبل والغنم، أما البربر فهم مزارعون دوماً. ولذا فإن العرب كانوا يرغبون فى ترك الأراضى للصقليين المدحورين؛ أما البربر فكانوا يميلون لإقتسامها فيما بينهم. وكان هذا السبب كافياً، فى حالة انتفاء أى سبب آخر، لإثارة الحرب الأهلية!.

فى مجرد اللقب، بل أيضاً فى سلطة صاحب المنصب وطبيعتها. انظر النص العربى، المجلد الأول، ص ١٣٢؛ والترجمة، المجلد الأول، ص ٢٠٧، وهى ترجمة غير حرفية.

(1) الخليفة الفاطمى المعز لدين الله، فى حوالى عام ٩٦٨ عندما شرع فى فتح مصر، أراد تولية حكام تابعين له فى المكان الذى تقطنه قبيلة كتامة وتحصيل العشور الشرعية منها، فرفضوا ذلك. وعندما استدعى المعز لبلاطه بعضاً من شيوخ هذه القبيلة، لم يستطع إرهابهم وتخويفهم، بل قال لهم إنه فعل ذلك على سبيل التجربة، وإنه سعيد بأن يكون فى خدمته أناس بهذه الإنفة وهذه الروح العالية. انظر المقريزى، الذى استشهد به كاترمير فى كتابه، *Vie du Khalife Fatimite Moezz Li-din-Allah*، ص ٣٠ ـ ٣١.

(2) هاتان القبيلتان كانتا فى حرب ضد أمير إفريقية الزيرى، المعز بن باديس، ولذا أرسلوا إليه فى عام ١٠٢٦ شيوخهم لعقد وإبرام صلح معه: ابن الأثير، المخطوطة C، المجلد الخامس، الورقة ٥٩ الوجه الأول، عام ٤١٧. إن جيوش كتامة التى كانت متمركزة فى القاهرة فى بداية حكم الحاكم بأمر الله (٩٦٦) لم ترد أن يتدخل فى أمورها وشئونها إلا شيخ من شيوخها. انظر يحيى بن سعيد، تتمة حوليات أوتيكيو، مخطوطة باريس، *Ancien Fonds*، ١٣١ *A*، ص ٦٢.

ومما قيل حتى الآن يمكن فهم سبب هذين الاتجاهين المتباينين، اللذين أديا إلى إثارة المستوطنين فى صقلية وتحريكهم، فى خلال نصف قرن منذ فتحها. فالاتجاه الأول كان بمثابة محاولة من جانب المستوطنين لحكم أنفسهم بأنفسهم، وانتهى هذا الأمر بمنازعات وصراعات حدثت بين وجوه بالرمو وأمراء الأغالبة، بسبب اختيار الأمير. وكانت السلطة كلها كما قلنا فى يد الأمير، لأنه لم يخطر ببال الأمير، أو المستوطنين، أو أى مسلم، إدخال وإجراء تعديل على الشرع؛ فإن كل واحد من الفريقين كان يسعى للاستحواذ على السلطة؛ من أجل تسيير عمل الأمير ومهمته عن طريق رجل من رجاله، وكما يحلو ويروق له. وقد شملت هذه الفتن أيضاً النزاع على المسائل المالية: إذا كان يجب أم لا على المستوطنين دفع الجزية؛ لأن الخليفة لم يكن له حق إلا من الفوائض المالية وكان على الأمير أن يجد هذه الفوائض أو لا يجدها. ولذا كان الخليفة يولى الوالى، وكان المستوطنون يقومون بطرده؛ أو يتذرعون بالذرائع لتوليته، والخليفة يقوم بعزله ونقله؛ ومن هنا لم يكن بالامكان استمرار حالة الهدوء والسكينة.

أما الاتجاه الآخر فهو الصراع بين العرب والبربر. ففضلاً عن تقسيم الأراضى التى أشرنا إليها، وعمليات الثأر والانتقام التى ساءت وتدنت لتصبح بين القبائل، فقد ظهر فى أواخر القرن التاسع سبب آخر من أسباب النزاع الدائم. فعندما تم فتح الجزيرة واستوى الأمر، انعدمت وتلاشت الغنائم بينما ازداد ونما الفئ، أو نود أن نقول عوائد الجند. ومن تصريف الأقدار حدث فى الوقت نفسه أن جيوش المملكة المقدونية حاولت بكل ما أوتيت من قوة طرد المسلمين، وأغلبهم من البربر، من كلابريا، كما تظهر لنا هذا أسماء زعمائهم. إذن فالبربر الذين ينتمون إلى القبائل الأكثر تمرداً، والبربر الذين لم يكونوا يطيقون الإخلاد إلى حياة الزراعة كان عليهم أخذ الفئ أجراً لهم. ولكن الفئ لم يكن يُقسم كالغُنم بين جميع المحاربين، حسب الشرع المحدد الذى لا يتغير؛ بل كان يترجح بين الأمير والخليفة؛ وكان العرب ينادون باستبعاد العجم منه، واختصاصهم هم فقط

بالصدارة فى الكشوف والسجلات. ولم يشر أى كاتب أخبار بإشارة إلى هذا الخلاف؛ الذى لا يمكن إلا أن يحدث؛ ويؤكد لنا هذا أن صقلية أصبحت حماماً للدم لأول مرة فى حرب أهلية بعد بضعة شهور، من عودة بعض الأسر التى طردها نيتشفورو فوكا من كلابريا(1).

وغالباً ما كان هذان الاتجاهان فى صدام وصراع، وكان الاتجاه الثانى مناسباً لأمير الأغالبة الذى أراد فى حقيقة الأمر إخضاع أهالى الجزيرة لسلطته. وبتلخيص الأحداث التى رويناها فى الكتاب الثانى، نلاحظ الصراع من أجل الاستقلال الذى بدأ بالفعل مع قيام مستوطنة بالرمو وتأسيسها؛ والذى أخمده أمراء ينحدرون من أصول الأغالبة يتسمون بالحكمة؛ واشتعل من جديد فى حوالى ٨٦١ والدليل على هذا إحلال الأمراء وتغييرهم المستمر. ويبدو أن ذلك القائد المقدام الرفيع الأخلاق خفاجة الذى قُتل غيلة على يد أحد البربر، قد سقط ضحية الخلاف الآخر؛ رغم أن العرب والبربر لم يتحدوا لفترة وجيزة لمواجهة عمليات السيطرة من جانب السلطة المركزية. وهكذا استمرت المقاومة فى أوائل حكم إبراهيم بن أحمد، كما يثبت ذلك عملية تغيير الأمراء فى حوالى ٨٧١. وفى الوقت نفسه اشتعلت الفتن والفُرقة والانقسامات بين الفريقين. ففى الفترة بين خريف ٨٨٦ وربيع ٨٨٧، تقاتل الجند العرب والبربر وتناحروا: واشتعلت العداوة والبغضاء بينهما لمدة عشر سنوات وإن لم تكن الحرب الأهلية العلنية، إلا أنها أدت إلى توقيع معاهدة مهينة تقضى بتسليم الأسرى من جانب الفريقين المتصارعين للمسيحيين (٨٩٤ ـ ٨٩٥). وفى العِقد نفسه

(1) انظر الكتاب الثانى، الفصل العاشر، ص ٤٨٤؛ والفصل الحادى عشر، ص ٤٩٨ من المجلد الأول. ويرى ابن الأثير، **والبيان**، أن طرد المسلمين من آمانتيا ومن سانتا سفيرينا تلى عام ٢٧٢ هـ (من ١٧ يونيه ٨٨٥ حتى ٦ يونيه ٨٨٦)، وهذا التاريخ يتوافق مع ما جاء فى الحوليات البيزنطية. وأول حرب أهلية بين العرب والبربر فى صقلية أشتعلت فيما بين خريف ٨٨٦ وربيع ٨٨٧، وذلك حسب ماورد فى *Cronica di Cambridge*، التى تتوافق مع ما جاء فى **البيان**.

وصل الخلاف بين الجماعة والأمير إلى ذروته: حيث حدث عصيان مسلح من جانب؛ وقمع بقوة السلاح من جانب آخر وربما وصل إلى حد خرق الشريعة التى تخول للأمير حكم الجماعة. ولكن بينما كان شعب بالرمو يخوض الجولة الأولى من حربه ضد البربر (٨٨٦ ـ ٨٨٧)، ضيق الخناق على الأمير سواده وطرده إلى إفريقية وعزله؛ وبعدها بثلاث سنوات (٨٩٠) خاض الصقليون حرباً ضد الإفريقيين، أو بالأحرى ضد القوات التى أرسلها الأمير؛ وبعد سنتين دخل أحد الأمراء عنوة إلى بالرمو؛ وبعد أشهر قليلة، وفى عام ٢٨٠ هـ (٨٩٣ ـ ٨٩٤)، تولى إمارة صقلية كبير حجاب إبراهيم، أى أنه تم قمع الجماعة وتجريدها من حريتها، وحاولت التخلص من هذا النير؛ ومن المؤكد على ما يبدو أنها حاولت ذلك فى الفترة من (٨٩٥ ـ ٨٩٦) عندما تم توقيع اتفاق سلام مع المسيحيين(1). ونلمح من هذه الاضطرابات التأثير المزدوج للوضع السياسى للشعوب وأهواء رجل من الرجال. فوضع البربر بالنسبة للعرب، ووضع المستوطنين بالنسبة لوطنهم الأصلى، أعطى شرارة بدء الخلاف والنزاع بينهم. وهذه النزاعات حركها إبراهيم بن أحمد تحريكاً كبيراً حتى أواخر القرن التاسع. ولكى يسيطر على أهالى بالرمو ويخضعهم تماماً، ألب عليهم البربر المقيمين فى چيرچنتى. وأراد السيطرة على المستوطنين، لأن طبيعته الشرسة والمتعسفة جعلته يفعل ذلك؛ من أجل اغتراف الأموال لاستخدامها فى مقصد آخر، وهو محاربة وجهاء العرب فى إفريقية وسحق هامتهم؛ وقد أجاد هذا حتى إنه دمر قاعدة أسرة الأغالبة ومركزها، مما أدى إلى سقوطها بعد بضع سنين.

(1) انظر الكتاب الثانى، الفصل العاشر، ص ٤٨٨ وما بعدها من المجلد الأول.

الفصل الثانى

ولم يكتف إبراهيم بن أحمد بأن يعقد بهذه الطريقة الوضع السياسى للجماعة، بل حل المعضلة بارتكابه فضائح وأهوال، فلم ترو ظمأه دماء المسلمين، لذا أتى بنفسه إلى صقلية للقضاء على البقية الباقية من المسيحيين وسحقها؛ وواصل انتصاراته فى كلابريا؛ وهدد بذلك شبه جزيرة إيطاليا كلها، عندما مات مثل ألاريكو تحت أسوار كوزنسا. ومن ثم ينبغى علىَّ الحديث عنه بشكل أكثر تفصيلاً مما فعلته مع أمراء إفريقية الآخرين. وأود عمل ذلك لأن طبيعة إبراهيم وميوله تبدو أنها ظاهرة فريدة من نوعها فى تاريخ الانسانية الأخلاقى، ولا يمكن وصفها بالكلمات، ولا تحديد كنهها بأسلوب من الأساليب. فقد بدا ظاهرة فريدة لأولئك الذين رأوه عن كثب، وحاولوا جهد أنفسهم شرح شخصية فلم يجدوا وسيلة تعينهم باستخدام الأساليب النفسية القرآنية، لذا لجأوا إلى نظريات الماديين التى تغلغلت وانتشرت عند العرب، وهى نظريات اختلطت بالفلسفة الإغريقية؛ وافترضوا أن ذلك الرجل كان به مس من الحدة والهياج: أو الاكتئاب، كما يطلق عليها بشكل علمى ابن رقيق(1).

«ما مِنْ أحد يجوز له أن يخطئ إلا الأمير. وسبب ذلك أن الناس لا تأمن من تسلط وشرور الوجهاء والأثرياء الذين يشعرون أنهم أقوياء، وقادرون بثرواتهم وبما ينعمون به من النعم. وإذا ما كف الملك عن أن يطأهم بقدميه، لامتلأوا ثقة بأنفسهم ولقاوموه؛ وحاكوا ضده

(1) استشهد به ابن خلدون فى كتابه، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ترجمة م. دى فرجيه ص ١٣٩. وفى النص تقرأ بحروف عربية كلمة منخوليا، وبحروف يونانية (Μελαγχολία). وربما استقى من المصدر نفسه مؤلف **البيان**، المجلد الأول، ص ١٢٦، والذى بدلاً من نقل اسم المرض نقلاً حرفياً قام بترجمته إلى: «السوداوية»

المكائد؛ والحقيقة أن رحيق حياة الإمارة يكمن فى الرعية(1). والحاكم الذى يترك رعيته تُقهر، يفقد الخير الذى يجنيه منها؛ ويستفيد منه آخرون، ويبقى له الخسارة والخسران فقط»(2). هكذا كان يتحدث إبراهيم بن أحمد، متباهياً بسحق وجهاء العرب فى إفريقية: وهى كلمات وأقوال فى غاية الوضوح تبين دائماً وتظهر المستبد الحاذق. وفى حقيقة الأمر كان إبراهيم حاذقاً وماهراً أيما حذق ومهارة فى أمور الدولة؛ فهو رجل يتمتع برجاحة العقل والحكمة، عندما لا يُغيِّب عقله ظمأه للدم، وذو عبقرية وأريحية مناهضة للعلوم، والأدب والشعر، التى كانت تحظى بالشرف والمكانة لدى سابقيه؛ وقد نظم بعضاً من الأبيات الشعرية الركيكة، إذ انه نشأ وترعرع فى بلاط عربى، وهى تشبه كثيراً تلك التى نظمها كارلو أنجو، من حيث سطحية المعانى ونبرة التعالى(3). وفى الدين ظهر مراعياً للشعائر والطقوس، أكثر من مراعاته التقوى والورع، فكان يسخر من الأخلاق عندما لا تكون فى خدمته، ولكنه كان على وجه الخصوص

(1) حرفياً «المادة التى ينمو ويقوى بها الملك هى الرعية». وهذه اللفظة العربية، كما يعلم الجميع، تعنى القطيع؛ ثم تحولت من الناحية الفنية لتصف طبقات الشعب الدنيا فى المدن والريف.

(2) النويرى، **تاريخ إفريقية**، مخطوطات باريس، *Ancien Fonds*، رقم ٧٠٢، ورقم ٧٠٢ *A*، ورقة ٢٣ الوجه الأول من المخطوط الأول، ورقة ٥٤ من المخطوط الثانى. وأبتعد بى لحد ما عن الترجمة غير المحددة التى قام بها فى هذا الصدد م. دى سلان وم. دى فرجيه، الأول فى ملحوظة على ابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٣٩، والثانى فى حاشيته على ابن خلدون نفسه، *Histoire des Berbères*، المجلد الأول، ص ٤٣٥.

(3) ابن الأبار، مخطوطة الجمعية الأسيوية بباريس، ورقة رقم ٣٢ الوجه الثانى. ويرفق المؤلف على سبيل المثال بعضاً من أشعار إبراهيم:
«نجوم نحن، وأبناء نجوم؛ جدنا القمر فى السماء، أبو ـ النجوم ـ تميم؛ جدتنا الشمس. إذن مَنْ يضارعنا نحن، ذرية هاتين السلالتين النبيلتين؟». ولمن لا يعرف العربية فإنه يجب التنويه على أنه فى تلك اللغة كلمة قمر مذكرة الجنس، أما كلمة شمس فمؤنثة، وأبو النجوم تعنى «والد النجوم». ويشير كوندى فى كتابه، *Dominacion de los Arabes en España*، الجزء الثانى، الفصل الخامس والسبعون، يشير دون أن يذكر مصادره، إلى نادرة من النوادر فى شعر بسيط، ربما وقعت لإبراهيم فى فترة صباه الأولى. فقد طلب منه أحد الشعراء معروفاً، فكتب له بيتين من الشعر فى قصاصه من

عسوفاً متجبراً مع الآخرين. وكان يحيا حياة خالية من الحب، والأصدقاء. ففى فترة صباه الأولى اتبع أهواءه، ولكن سرعان ماضجر منها؛ ومنذ ذلك الحين زادت حدته وعنفه مع النساء على حدته مع الرجال؛ إذ كان يبغضهن بغضاً غريباً يثير الشكوك. وينتهك بكل وسيلة نواميس الطبيعة والكون.

وفى الخامسة والعشرين من عمره اعتلى العرش بعد نقضه وحنثه بالعهد. فعندما وافت المنيةُ أخاه محمد، ترك الملك لابنه الطفل، وعهد لإبراهيم برعايته، وجعله يقسم بألا يعتدى ويجور أبداً على حق ابن أخيه، وبألا تطأ قدماه القلعة القديمة، لأن ذلك الصغير يجب أن يكون فيها مع الحاشية. وفى المسجد الجامع بالقيروان، وأمام شيوخ الأسر المجتمعين المنحدرين من بنى الأغلب وأمام القضاة وأعيان العاصمة، أقسم بأغلظ الإيمان، وكرر قسمة خمسين مرة مقسماً على الإبرار بقسمة، كما جرت العادة فى القضايا والمسائل الجنائية. وبعد دفن أخيه (فى فبراير ٨٧٥)، بدأ يحكم الدولة، بشكل مغاير لأخيه، أى بقوة كبيرة وعدل. ولذا رجاه أهالى القيروان بأن تكون له المملكة؛ الأمر الذى رفضه، متعللاً بالإبرار بقسمة خمسين مرة؛ وبعد ذلك بقليل ونعلم كيف يتصرف الناس، إذ عاد البسطاء الطيبون يرجونه ويلحون فى الرجاء، ولم يجد إبراهيم بدأ من القبول. فخرج من القيروان على رأس شعب مسلح، واحتل القلعة القديمة؛ وجعلهم ينادونه أميراً، وطلب البيعة لنفسه من وجهاء إفريقية ومن عدد غير قليل من بنى الأغلب. ومع بشاعة الحنث باليمين وبهذه التمثيلية التى استخدمها لتغطية فعلته، إلا أن إبراهيم لم يُطلق عليه مغتصب للعرش. إذ إن حق الابن الأكبر لم يكن متأصلاً مطلقاً عند العرب؛ كما أن تزكية الأمير السابق كانت استغلالاً للسلطة؛ ولأن تنصيب الخليفة

الورق وأخفاها، كما نفعل نحن فى قطعة من الحلوى، داخل ورده من الورود، وقدمها لإبراهيم وهو جالس مع نسائه فى إحدى الحدائق. فقرأت إحداهن وتغنت بالأبيات؛ فمنح إبراهيم مائة قطعة ذهبية للشاعر.

للأمير كان احتفالاً لا طائل منه؛ لأن الشعب، صاحب الحق فى الخلع والتعيين، قد شارك فى ارتقائه العرش، ذلك الارتقاء الملئ بالاضطراب، وهو غير مجبر ولا مضطر، ربما خُدع نصفه أما النصف الآخر فلم يُخدع، كما أن ردود أفعال المدن تجاه وجهاء الجند، تجعلنا على قناعة من أن جموع الناس قد تحزبت وانحازت لإبراهيم.

صارمة، ولكنها صرامة صحية، كانت هى بدايات حكمه. ولأن إبراهيم كان يقوم بنفسه على الأمور العامة، فإنه أوقف الظلم الذى كان يمارسه الجند وولاة الأمصار: وكان يقضى بين الناس كل يوم اثنين وجمعة بالمسجد الجامع بالقيروان ويستمع بصبر وأناة إلى الشكاوى، ويرد المظالم فى الحال؛ وضرب بنفسه المثل فى التعفف والرحمة، وأصلح من حال الشرطة الدينية؛ وأخلى الطرقات من اللصوص الذين كانوا يجتاحونها؛ وأمَّنَ التجارة، وقضى على المجرمين والصعاليك. ويروى عنه أنه أجبر أمه على الوفاء بدين عليها، مهدداً إياها بإرسالها للمثول أمام القاضى(1): وكانت أمه هى المخلوق الوحيد فى الكون الذى يكن له هذا الوحش احتراماً. وكثيراً ما أشرف على الأعمال العامة. ومن أجل راحة الناس، شيد صهريجاً كبيراً للمياه بالقيروان.

وإظهاراً لجوده وتقواه شيد مسجداً جامعاً بتونس؛ وأجرى توسعة لجامع القيروان؛ إذ أضاف إليه قبة ترتكز على اثنتى وثلاثين عموداً من المرمر. وأحاط مدينة سوسة بالأسوار. وأقام، على طول ساحل المملكة، سلسلة من الأبراج ومواقع الحراسة التى تطلق إشارات نارية، حتى إنه فى إحدى الليالى كان بالإمكان نقل الإنذار من مدينة

(1) قارن بين: ابن الأثير، المخطوطة A، المجلد الثانى، ورقة ٩٢ الوجه الأول، والمخطوطة C، المجلد الرابع، ورقة ٢٤٦ الوجه الثانى، عام ٢٦١؛ **والبيان**، المجلد الأول، ص١١٠ وما بعدها؛ وابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ترجمة م. دى فرجيه، ص ١٢٦ وما بعدها؛ والنويرى، فى حاشية على ابن خلدون، *Histoire des Berbères*، ترجمة م. دى سلان، المجلد الأول، ص ٤٢٤ وما بعدها.

سوتا بتونس إلى مدينة الإسكندرية بمصر(1). وهذا الإجراء القديم جداً انتقل مع تقاليد الإمبراطورية حتى وصل إلى البيزنطيين؛ الذين استخدموه فى منتصف القرن التاسع للإشارة إلى المصائب التى تقع فى حروبهم، من مدينة طرسوس إلى مدينة القسطنطينية(2). وثمة أسباب للاعتقاد بأنهم استخدموا ذلك أيضاً فى صقلية، وأن عرب إفريقية قد تعلموه منها(3).

وقبل البدء فى أى عمل من الأعمال العامة، قام إبراهيم بتشييد

---

(1) انظر الأعمال المذكورة فى الهامش السابق، يُضاف إليها: بكرى، **وصف إفريقية**، فى *Notices et extraits des Mss* ، المجلد الثانى عشر، ص ٤٧٠؛ والتيجانى، **رحلة**، فى *Journal Asiatique*، المجموعة الرابعة، المجلد العشرون، (أغسطس ١٨٥٢)، ص ٩٩؛ والمجلد الحادى والعشرون، (فبراير ١٨٥٣)، ص ١٣٣؛ وابن وردان، المخطوطة العربية، § ٦؛ وترجمة *M.Cherbonneau*، فى، *Revue de L'Orient*، ديسمبر ١٨٥٣، ص ٤٢٨. والأول يتحدث فقط عن مسجد القيروان، والأخير عن مسجد تونس، وعن صهريج الماء.

(2) **تتمة تيوفان** ، الكتاب الرابع، الفصل الخامس والثلاثون، ص ١٩٧؛ وقسطنطينوس بورفيروچينوس، *De Cerimoniis aulœ Byzantinœ*، حاشية على الكتاب الأول، ص ٤٩٢؛ وسيمون ماچستير، *De Michaele et Theodora*، الفصل السادس والأربعون، ص ٦٨١. والأماكن المذكورة فى مجموعها تسع، بما فى ذلك مدينة القسطنطينية. وكان اختلاف عدد النيران يدل على تنوع الحالات، مثل: هجوم المسلمين، الحرب، الحريق ... إلخ. وكان ليونى، وهو رئيس أساقفة مدينة تسالونيكا وأستاذ بمانيا أورا، على حد قول سيمون ماچستير، كان قد طوَّر نظام التلغراف والبرق هذا، إذ وضع فى مدينة تارسو والقسطنطينية ساعتين تعملان بانتظام ومتساويتين فى دورتهما الزمنية (ἐξ ἴσου κάμνοντα). وقد أزال الإمبراطور ميشيل الملقب بالسكير الإشارات والعلامات الموجودة بالعاصمة حتى لا تثيره نذر الشؤم أثناء لهوه فى السباقات.

(3) وهذا الافتراض يقوم على الدلائل التالية. أولاً، أن الإشارات النارية كانت تستخدم فى صقلية، حتى السنوات الأخيرة من القرن الماضى للتنبيه على وجود قراصنة من البربر لرصدهم، وكانت هذه الإشارات النارية يُطلق عليها اسم فانى *Fani*، وهى نفس اللفظة بالضبط، φάνος التى نجدها عند الكتاب البيزنطيين المذكورين. ولذا يبدو أن هذه العادة يرجع تاريخها إلى عصر كانت اللغة الرسمية فى صقلية هى اليونانية. ثانياً، أن الجبل الذى تقع عليه مدينة سولونتو القديمة، على الطرف الشرقى لخليج بالرمو، يحمل اسم كاتالفانو، وهى اختصار لاسم كالاتالفانو ومكونة من لفظة عربية تعنى قلعة، وأخرى أغريقيا؛ φάνος وهذا يثبت أنه كان بها برج للإشارات فى عصر الحكم الإسلامى، وربما أيضاً قبل ذلك العصر. ثالثاً، أن الإشارات بالنيران تمت محاولة استخدامها فى عام ٨٤٧ أثناء حصار لينتينى، كما روينا ذلك فى الكتاب الثانى، الفصل السادس، ص ٣١٧ من المجلد الأول.

قلعة، أصبحت مركز جذب الحكم المستبد الذى كان يخطط له: وهى قلعة وضع فيها حاشيته وعيّن قضاته الجدد للتخلص من الجند القدماء، من عُتقاء بنى الأغلب، الذين تمركزوا فى القلعة القديمة، وكانوا حتى ذلك الحين سادة الشعب والأمير. وبدأ تشييد قلعته فى عام ٢٦٣هـ (٢٣ سبتمبر ٨٧٦ حتى ١١ سبتمبر ٨٧٧)؛ فى مكان يبعد عن القيروان بأربعة أميال يُدعى الرقادة، أى «الناعسة»(1). وفى خلال عام تم بناء الأسوار، وتشييد أبراج سموها أبو الفتح، وافتتحها إبراهيم بخيانة دموية. فقد حدث أن عُتقاء القلعة القديمة ثاروا ضده لأنه أمر بقتل واحد منهم: وحينئذ تألّب الناس عليهم بأمر من إبراهيم. وعندما رأى العتقاء أنهم مغلوبون على أمرهم، طلبوا العفو منه فعفا عنهم. ولكن فى اليوم الذى يتقاضون فيه مرتباتهم، استدعاهم إبراهيم إلى برج أبى الفتح؛ وأدخلهم الواحد تلو الآخر؛ ونزع سلاحهم؛ وأحكم وثاقهم، وأمر بتعذيبهم؛ فمات بعضهم ضرباً بالعصى، وحُكم على آخرين منهم بالسجن المؤبد فى القيروان، ونُفى البعض الآخر إلى صقلية(2). وبدلاً من العُتقاء الذين قضى عليهم، قام بشراء العبيد بأعداد كبيرة للغاية؛ فى بداية الأمر اشترى عبيداً من الزنوج، وبعد ذلك اشترى كذلك عبيداً من الأجناس السلافية؛ وعينهم؛ ودربهم على حمل السلاح؛ وجعل منهم جيشاً من المرابطين، البواسل، الذين

---

(1) قارن بين: **البيان**، المجلد الأول، ص ٢١٥؛ والنويرى، فى الحاشية على *Histoire des Berbéres* لابن خلدون، ترجمة م. دى سلان، المجلد الأول، ص ٤٢٤؛ والبكرى، **وصف إفريقية**، فى *Notices et extraits des Mss*، المجلد الثانى عشر، ص ٤٧٦، وص ٤٧٧؛ وابن وردان، المخطوطة العربية، § السادس. ويرجع الكتابان الأخيران تأسيس رقاده إلى عامى ٢٧٣ و٢٧٤ هـ ويرى البعض أن هذا الاسم قد نشأ من سحر المكان وجاذبيته التى تبعث على النشوة والنعاس؛ ويرى آخرون أن هذا الاسم أطلق بسبب وجود كمية كبيرة من الجثث التى وجدت به نائمة نومها الأخير.

(2) م. دى سلان، المرجع المذكور، ص ٤٢٥، ترجم كلمات النويرى على هذا النحو: *"Un Certain nombre d'entr'eux parvint à se refugier en Sicile"*. ولكن النص يقول بوضوح «وضع». وهكذا ترجمها وفسرها م. دى ڤرجيه فى هامش على ابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٢٧.

يتحملون الصعاب(1)؛ وكانوا جماعة من غليظى الأكباد، الأجلاف أتوا من المناطق الحارة ومن الشمال نزعت العبودية وما تعرضوا له أثناءها منهم الانسانية والنظام. وهكذا مضت ومرت السنوات الست الأولى من حكمه؛ وكانت سنوات محمودة على حد قول جميع المؤرخين، الذين اعتقدوا بأن مذبحة أبى الفتح، كانت ضرورية. وبعد ذلك أطلق العنان للنهب والقتل؛ وساءت الأحوال من عام لآخر، كما أشار إلى ذلك مؤلف **البيان**(2).

ونظراً لأن الموارد العادية للدولة لم تكف للإنفاق على المرابطين، والصنائع والحرب التى وقعت فى عامى (٨٨٠ ـ ٨٨١) ضد أحد أمراء مصر من أسرة بنى طولون المغتصبة للعرش، اضطر إبراهيم للسلب والنهب. وفى عام ٢٧٥هـ (٨٨٨ ـ ٨٨٩) سك عملة فضية جديدة، وعندما رفض تجار القيروان التعامل بها، حدث اضطراب وتمرد، وسُجن الكثيرون. وكالعادة ظل إبراهيم غير متأثر بما يحدث. ثم أمر بضرب دراهم أخرى ودنانير عشرية، كما أطلق عليها هذا الاسم، لأن الدراهم الفضية والدنانير الذهبية كانت تعادل واحداً إلى عشرة؛ وسحب من الأسواق العملات القديمة الخاصة بالدولة العباسية(3).

---

(1) وهذا ما لحظه النويرى، المرجع المذكور، ص ٤٢٥، وص ٤٢٧. انظر فى هذه الأحداث: النويرى، الكتاب المذكور؛ و**البيان**، المجلد الأول، ص ١١٠.

(2) المجلد الأول، ص ٢٠٠ – ٢٠١.

(3) **البيان**، المجلد الأول، ص ١١٤. وفيه جاء ذكر إصدارين مختلفين للعملة. الأولى كانت درهم صحاح، أى «الخوالص» كما كان يسميها الأمير. وهكذا فقد ألغى قطع الذهب التى لم تُضرب، والتى كانوا يدفعون بها أجزاء قيمة كما جرت العادات، بسبب وجود الوازع الدينى الذى يقضى بعدم مبادلة معدن بمعدن؛ ولذا كان مذموماً. على سبيل المثال ثمن بضاعة قيمتها نصف دينار، بإعطاء البائع ديناراً واسترداد نصف دينار عملة. ولهذا السبب كان مغيرو العملة، الصيارفة، كما يسميهم الناس، فى البلدان الإسلامية، معظمهم من اليهود. ولسنا ندرى إذا كان ذلك الوازع قد أحدث استياءً، أم أحدثه سوء سبيكة الدراهم. ويضيف **البيان** أنه بإخماد الفتنة، أُلغيت للأبد من إفريقية، ليس فقط القطع الذهبية، ولكن أيضاً النقود، التى تعنى بوجه عام عملة حسنة؛ وهنا يبدو لى أن المقصود بها عملة الخلفاء، التى كانت متداولة فى جميع البلدان الإسلامية. وبعد ذلك جاء ضرب الدراهم والدنانير التى كانت تُعرف باسم «العشارى». ويتيح لنا علم المسكوكات القديمة القول بأن إبراهيم ضرب كذلك أرباع دنانير من الذهب، وأنه نشر العديد منها، ورأيت واحدة منها فى قاعة الميداليات

وبالاضافة إلى هذه النواحى المالية، فرض مكوساً جديدة(1)؛ وزاد الضرائب على الغنائم وحصلها بالمال، وليس محصولاً وغلة كما كان يحدث(2)؛ وطالب الناس بإعداد عبيدهم وخيلهم وتجهيزها فى خدمة الدولة؛ وسلبهم بكل طريقة ممكنة من أجل زيادة أمواله(3).

ونتيجة لإثقال كاهل الناس بالضرائب انطلقت الانتفاضات؛ ولذا إزداد إبراهيم حدة وشراسة. وسأذكر الأحداث والأمور الهامة. ففى عام ٢٦٨هـ (٨٨١ ـ ٨٨٢) تمردت ورفضت دفع الضرائب، قبائل وزداجا، وهواره، ولواته البربرية: وكانت قد خضعت: فالقبيلة الأولى قمعها محمد بن كُرهب، الحاجب، أما القبيلتين الأخرتين فقمعهما عبد الله بن إبراهيم، الذى أُرسل إليهما ومعه كثير من الجند، والعُتقاء، وجمع غفير من الشباب المجندين. ومعاونين أمدته بهم على التحقيق قبائل بربرية أخرى: ومن المؤكد أن إبراهيم قاد جميع الخيل الحربية، إذ إنه أمسك بيديه تلك الطغمة القوية من العبيد المرابطين(4).

Gabinet des Medailles بباريس، وربما قد خرجت من دار سك النقود فى صقلية فى عام ٢٦٨هـ، وتزن جراماً وخمسة أجزاء من الجرام، وكانت تساوى ثلاث ليرات وستين سنتاً قبل الإضطراب الحالى فى سعر الذهب.

(1) **البيان**، المجلد الأول، ص ١٢٥. وهنا استخدمت كلمة قبالات ومفردها قبالة أو جبالة، إذ إن الحرف الأول يشترك فى الصوت مع حرف الجيم. ومن ثم فمن اليسير أن نرى ونتحقق من أن هذه الكلمة هى فى لغتنا *gabelle* وتعنى مكوس. ومن الناحية الأشتقاقية فإن الكلمة تعنى وعد، عرض، أداء.

(2) **البيان**، الكتاب المذكور. ويقول النص بأنه فى عام ٢٨٩هـ، عندما أخذ إبراهيم فى إصلاح الكثير من أشكال الاستقلال فى حكمه «أخذ العشور حنطةً وأعفى أصحاب الضياع والاقطاعات من الخراج لمدة عام». والمغزى من هذه الأقوال التى تحدثنا عنها فى الفصل السابق، تثير الشك إذا كانت العشور هى الزكاة، أم ضريبة على الأراضى المنتجة للحبوب، والإعفاء من الخراج، وهى نفس هذه الضريبة، أم المكوس؛ وأخيراً هناك شكوك فى أن الأمر يتعلق بالضياع والإقطاعات الأميرية، أو بامتيازات الجند.

(3) **البيان**، المجلد الأول، ص ١١٧، عام ٢٨٠هـ (٨٩٣ ـ ٨٩٤ م).

(4) النويرى، فى حاشيته على *Histoire des Berbères* لابن خلدون، ترجمة م. دى سلان، المجلد الأول، ص ٤٢٦؛ وابن خلدون نفسه، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ترجمة م. دى فرجيه، ص ١٢٨. ويرى ابن خلدون أنه كان لديه حوالى ٣٠٠٠ عبد من العبيد المرابطين، أما **البيان**، فيقول بأنه كان عنده ما يقرب من ٥٠٠٠، ويقول النويرى بأنهم كانوا ١٠٠٠٠٠، وربما هذا هو العدد الإجمالى للجيش.

وبعد ذلك ثار مستوطنو بلزما وشهروا أسلحتهم، وهم عرب ينحدرون من قبيلة قيس، التى أتى معظمها فى بدايات الفتح، واستقرت منذ أجيال عديدة فى تلك المدينة، الواقعة على الحد الجنوبى لمدينة قسطنطينة الحالية، وسط سلسلة جبال الأوراس، ومنها كانت تراقب قبيلة كتامة. وثار الثائرون العرب فى بلزما بقوة ضد إبراهيم، الذى ذهب بشخصه لمحاربتهم: ثم عفا عنهم؛ ودعاهم إلى رقادة، فى البداية دعا بعض قادتهم بحجة مناقشة بعض الأمور، وبعد ذلك، دعا أناساً آخرين بذرائع مختلفة؛ وأعطاهم ثياباً رائعة، وأضفى عليهم من الشرف بقدر ما تمنوا وأسكنهم فى مكان تحيطه الأسوار من كل جانب وبه باب واحد، وتم استقبال ستمائة أو ألف فارس فى هذا المكان، على الرغم ممّا كان يدور فى خلدهم بشأن ما حدث للعُتقاء فى القلعة القديمة، إلا أنهم وثقوا بالتأكيد فى قدرتهم على مواجهة ما يمكن أن يكون. وهكذا فإن كل حادثة من حوادث التاريخ تؤكد صحة مقولة مكيافيللى، وهى أن المُخادع، يجد دائماً من يخدعه(1). وفى اليوم الذى تقاضى فيه الجنود رواتبهم، غمرتهم نشوة المال، وربما أيضاً الخمر، فدفع بهم إبراهيم إلى مذبحة حيث كان مقاتلو بلزما محاصرين؛ وهؤلاء المقاتلون (٨٩٣ ـ ٨٩٤) استبسلوا فى الدفاع عن أنفسهم؛ وماتوا جميعاً(2). وجريرة هذه الفعلة الشنعاء، كما يحدث غالباً، دفعت ثمنها أسرة بنى الأغلب، وليس إبراهيم، لأنه بسقوط بلزما، تجاسرت قبيلة كتامة وثارت، وساعدت الفاطميين للاستيلاء على العرش(3). والعقاب السريع أتى من التمرد العام الذى قام به الجند العرب، الذين ثاروا لتوهم، وتجدد هذا التمرد ووقـع أكثر من مـرة؛ ولكن إبراهيم انتصر عليهـم جميعاً، والفضل فى ذلك يرجـع لأسـوار رقاده، والكفاءة العسكرية التى تميز بها ابنه عبد الله، والعبيد المسلحون؛ الذين أزاد عددهم؛ وعهد إليهم بحماية

(1) كتاب **الأمير**، الفصل الثامن عشر.
(2) **البيان**، المجلد الأول، ص ١١٦؛ والنويرى، فى عمله المذكور، ص ٤٢٧، يسجل وقوع هذه الواقعة قبل ما جاء فى **البيان** بسنتين،أى فى عام ٢٧٨هـ.
(3) هذه الفكرة نقرؤها فى **البيان**، الموضع المذكور.

البلاط؛ وأمَّرَ عليهم اثنين من عبيده وهما ميمون ورشيد. وفى الوقت نفسه وضع سلطات كبيرة فى يد حسان بن ناقد، حاجبه الجديد، وقائد جنده، وأميره على صقلية، وقلده مناصب أخرى، كما تذكر ذلك أخبار التاريخ(1)، فربما تقلد إدارة ديوان المال، ومحكمة المظالم فى المناطق التى أطلت منها الفتنة برأسها.

ومن بين الأمور التى أعقبت هذه الثورة فظائع لم يُسمع بها من قبل، ارتكبها جند الأمير، الذين بعد أن استولوا على تونس بعد قتال، أسروا المسلمين وسبوا واغتصبوا النساء وأراقوا دماء كثيرة (٨٩٣ ـ ٨٩٤). وما أن علم بالنصر فى رقاده عن طريق رسائل مربوطة فى أعناق الحمام، حتى أمر إبراهيم بوضع الجثث على عربات؛ وإرسالها إلى القيروان؛ والطوف بها فى الطرقات. وبعد ذلك بقليل (٨٩٤ ـ ٨٩٥)، أمر بقتل وجهاء قبيلة تميم، التى تنحدر منها أسرته، وتعليق جثثهم على أبواب تونس. وكان القائم بهذه المذابح والأعمال الانتقامية هو ميمون الذى عُين من قبل، لأنه كان يمقت الأهالى ويكرههم إيما مقت ولكن ما أن علم إبراهيم بهذا، حتى أرسل إليه، كما نقول نحن، أعلى أوسمة الفروسية؛ والذى كان فى ذلك العهد عبارة عن: قلادة ذهبية وحُلّة حريرية مزدانة بالذهب، وبالرسومات والألوان المتنوعة؛ وفى كامل الأبهة دخل الجلاد تونس منتصراًعلى صهوة جواده وبعدها بعام، شيد بها قلاع جديدة، وذهب للإقامة فيها الطاغية نفسه(2)؛ إذ أخذ يفكر فى عملية غزو صقلية، أو كانت تبدو له رقاده غير آمنة بدون مهرب ومنفذ من جهة البحر: أو أراد إطلاق العنان لكبريائه الذى يعتمل فى نفسه تجاه المدينة الثائرة، بإذلالها وجعلها تركع تحت قدميه جثة هامدة.

(1) النويرى، المرجع المذكور، ص ٤٩٨. انظر ما لاحظته فى هذا الصدد فى الكتاب الثانى، الفصل العاشر، ص ٤٨٨ وص ٤٨٩ من المجلد الأول.
(2) قارن بين: **البيان**، المجلد الأول، ص ١١٧، وص ١٢٣؛ والنويرى، المرجع المذكور، ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩؛ وابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ترجمة م. دى ڤرچيـــه، من ص ١٣٠ حتى ص ١٣٢. وكتاب **البيان** الذى اســتقينا منه حــكاية

وفى نفس عام الفتنة، غمر إبراهيم بلاطه بالدم لأنه إرتاب فى وجود مؤامرة يدبرها الخصيان والعبيد المرابطون على حياته وحياة أمه(1): ومنذ ذلك الحين فصاعداً، كان يتوقع أن واحداً من أولئك الكثيرين المرتعدين منه سيجد طريقة ما لقتله. ولذا فمن أجل المحافظة على حياته بشكل أفضل، كان يستشير المنجمين والعَّرافين، الذين كان يثق بهم ثقة كبيرة. وقالوا له إنه سيموت بالتأكيد على يد أحد الصغار؛ ولم يحدد الماكرون جيداً بفنونهم هيئته البدنية إن كان صغيراً بدنياً أم عمراً: ولذا عاش يرتاب فى الوصفاء العبيد الشباب؛ وإذا وقع طرفه على أحدهم يتسم بالشجاعة ويرتسم على محياه الفخار، ويستخدم سيفه بمهارة، كان يقول فى نفسه: ها هو ذا القاتل؛ فيأمر بقتله. وعندما قتل الكثير منهم، خشى على نفسه من انتقام البقية الباقية منهم: ولذا قتلهم جميعاً(2)؛ واتخذ لنفسه وصفاء زنوج بدلاً من البيض، ولم يتوان فى التخلص كذلك منهم، فى عام ٢٨٨هـ (٩٠٠م)(3). ولكن فى سنوات حكمه الطويلة تجدد وقوع المذابح داخل بلده قبل بدء الطغيان خارج البلاد؛ كان يكفى الغضب لإثارته بقدر ما كان يثيره الشك، وبقدر ما كانت تثيره كذلك الغيرة مثلها فى ذلك مثل الغضب والريبة. وقد حرم بفرض عقوبات صارمة بيع الخمر فى القيروان، الذى كان يُبيحه فى رقاده(4) ربما من أجل عبيده وجنده؛ وكان هو نفسه يعبُّ من الخمر عباً فى مخادع الحريم. وذات مرة حدث أن

الأوسمة التى منحت لميمون، يقول إنه مُنح ثلاث حلل حريرية، الأولى، خرز أو كما نسميها نحن فيلوسيللا، وهى الحرير الخشن من الشرانق التى يثقبها دود القز؛ والثانية، تسمى ويشمى، وأعتقد أنها قماش منسوج من الذهب؛ والثالثة، الديباج، وهو قماش مصنوع ومتعدد الألوان. وهذه الكلمة هى نقل من اللغة الفارسية ديباج، المأخوذة بدورها من اللغة اليونانية δίβαφος..

(1) النويرى، المرجع المذكور، ص ٤٢٧.

(2) **البيان**، المجلد الأول، ص ١١٦.

(3) قارن بين: **البيان**، الموضع المذكور؛ والنويرى، المرجع المذكور، ص ٤٢٧.

(4) ابن الأبار، مخطوطة، الجمعية الآسيوية بباريس، ورقة ٣٣ الوجه الأول.

صبت له الخمر امرأة، كما أظن فى بداية حكمه، وأعطته منديلاً حريرياً ليجفف به شفتيه، وتركته المرأة يسقط من بين يديها، فالتقطه أحد الخصيان واختفى. ولم يدر إبراهيم مَنْ يكون ذلك الخصىَّ، فقتل جميع الخصيان الذين كانوا فى حوزته وعددهم ثلاثمائة(1)، ربما ليدفن معهم أسرار ما يحدث فى القصر من لهو وعربدة. وهناك سبب آخر لقتل ستين شاباً مسكيناً كان يحتفظ بهم فى قصره، وانتهك أكثر من تعليم من تعاليم دينه، إذ كان فى كل ليلة يشربهم الخمر وبعد ذلك لم يرد أن يحيوا حياة تسودها الألفة فيما بينهم. فقد بث بينهم جاسوساً منهم، ثم استدعاهم للمثول بين يديه؛ ويسألهم، واعترف بعضهم بما اقترف من ذنب، ومن بين الذين أنكروا ذلك بشجاعة شاب كان يحبه إبراهيم حباً جماً، فقام إبراهيم بتهشيم رأسه بمطرقة حديدية: وقتل الآخرين خمسة أو ستة يومياً، فقتل بعضهم خنقاً فى المدفأة، وحرق البعض الآخر فى فرن الحمام(2).

ولم يكن أقل غيرة فى المسائل الدينية، إذ زاد من الخزى الذى يعانيه أهل الذمة، كما لو لم تكن تكفى لغيرته وحميته تلك العلامات الخارجية الدالة على خضوعهم وخنوعهم التى أعتادوا وضعها من قبل(3). فأمر إبراهيم بأن يضعوا على أكتافهم قطعة من القماش الأبيض، مرسوم عليها شكل قرد، بالنسبة لليهود، وشكل خنزير، بالنسبة للمسيحيين؛ وأن ترسم هذه الحيوانات نفسها على ألواح خشبية تُعلق على أبواب دورهم(4). واستشهد على يديه أربعة من أهالى سيراكوزا وقد تحدثنا عن ذلك آنفاً، فى سير المسيحيين وتراجمهم(5). ولسنا ندرى إذا كان من بين شهداء سيراكوزا سواده

(1) قارن بين: **البيان**، المجلد الأول، ص ١١٦؛ والنويرى، المرجع المذكور، ص ٤٣٦؛ وابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ترجمة م. دى ڤرچيه، ص ١٣٩.

(2) **البيان**، المجلد الأول، ص ١٢٧؛ والنويرى، المرجع المذكور، ص ٤٣٧.

(3) انظر الكتاب الثانى، الفصل الثانى عشر، ص ٥٣٠.

(4) **رياض النفوس**، المخطوطة، الورقة ٥٥ الوجه الثانى.

(5) الكتاب الثانى، الفصل الثانى عشر، ص ٥٦١.

الذى ذكرته أخبار المسلمين وقالت إنه عندما عُرض عليه منصب رئيس العشاريين، رفض ذلك، وقال بأنه لا يقايض على دينه وإيمانه، فشطره إبراهيم إلى شطرين وعلق نصف جثته على عامود، والنصف الآخر على عامود ثان، وذلك فى عام ٢٧٨هـ (٨٩١ ـ ٨٩٢م)(1).

وعلى أية حال فإن زنادقة الإسلام كانوا يحسدون المسيحيين على وضعهم. وبعد المذابح التى وقعت فى إحدى الحروب التى انتصر فيها على قبيلة نفوسة البربرية، فى عام ٢٨٤هـ (٨٩٧ ـ ٨٩٨م)، سأل إبراهيم أحد الفقهاء الذين كانوا بين الأسرى: «ما رأيك فى علىّ؟». «كان كافراً وهو فى النار؛ ومَنْ لا يقول هذا، سيلحق به فى النار»، هكذا أجاب الأسير؛ واتضح من كلامه أنه من الخوارج. وعندئذ سأله الطاغية إذا كانت كل قبيلة نفوسة تؤمن بهذا، وحينما علم بأنهم كذلك، حمد الله على أنه أعمل فيهم القتل. وكان عدد الأسرى خمسمائة أسير، ووضعهم أمامه الواحد تلو الآخر: وكان جالساً فى مكان مرتفع، وممسكاً فى يده رمحه، ويبحث بطرفه المدبب تحت الإبط حيث يوجد فراغ بين ضلع وآخر من ضلوع الرجل(2)، ثم يدفعه ليذهب صوب القلب، ويجعل رجلاً آخر يمر أمامه، حتى طعنهم جميعاً. وهذا ما رواه النويرى(3). أما صاحب **البيان** فيقول بأن الأسرى كان عددهم ثلاثمائة، وبأنه شج واحداً منهم وأخرج قلبه بيديه، وأمر بنزع قلوب باقى الأسرى الثلاثمائة،

---

(1) **البيان**، المجلد الأول، ص ١١٦. وبالنسبة لهذه الطريقة من طرق القتل التى كانت مستخدمة فى البلدان الإسلامية حتى القرن السادس عشر على الأقل، انظر كل من: ساسى، *Chrestomathie arabe*، المجلد الأول، ص ٤٦٨؛ وكاترمير، ترجمة كتاب المقريزى، *Histoire des Sultans Mamlouks*، المجلد الأول، ص ٧٢ وص ١٨٢؛ ودى فريميرى فى *Journal Asiatique*، المجموعة الرابعة، المجلد الثالث (يناير ١٨٤٤)، ص ١٢٤.

(2) فى هذا الصدد أبتعد عن ترجمة م. دى سلان.

(3) المرجع المذكور، ص ٤٣٠.

وجعل حبلاً واحداً يمر بها، وعلقها مزيناً بها باب تونس(1). وكلتا الروايتان صحيحتان بالنسبة لإبراهيم بن أحمد ويمكن قبولهما معاً.

وبهذا الإجرام المغلف بالتقوى ذهب إبراهيم إلى طرابلس (٨٩٦ ـ ٨٩٧)، التى كان يحكمها نيابة عنه أحد أبناء عمومته، وهو محمد بن زيادة الله، وكان رجلاً فاضل الأخلاق، متبحراً فى العلوم، وشاعراً، وكاتباً لسيرة بنى الأغلب: ولذا كان الطاغية الجاهل حاقداً عليه منذ الصبا، ولكنه استعمله لحاجته إليه. وتفجر الحقد والكره الدفين، عندما علم الخليفة العباسى المعتضد بأحداث تونس الخطيرة، فهدد بالكلمات، ويرى آخرون أنه كتب مباشرة لإبراهيم، مهدداً إياه بخلعه، وتعيين بدلاً منه ابن عمه، الذى يمثل الفضائل والأخلاق. ومن ثم لم يكتف إبراهيم بقتله، بل علق جثته على عامود مثل المجرمين(2). وشكوك من هذا القبيل دفعت إبراهيم، عاجلاً أم آجلاً، لقتل الحُجَّاب، والوزراء، ورجال البلاط، وحاجبا مسكيناً، وضع حياً فى تابوت. وذُبح كذلك ثمان أخوه له أمامه؛ أحدهم، كان مريضاً بداء السمنة لدرجة أنه لا يقوى على الوقوف على قدميه، توسل إليه أن يتركه يعيش الأيام القليلة المتبقية فى عمره؛ فأجابه إبراهيم بقوله: «لا استثنى أحداً»، وأشار للسَّياف أن يضرب رأسه. وحتى ابنه أبو الأغلب حُزت رأسه أمامه. ويُقال بسبب مؤامرات ارتكبها فى حق الدولة. وعبد الله، ابنه الأكبر، وولى عهده المحتمل، ويده اليمنى فى الحرب التى فى حومة الوغى تعالج الأخطاء التى يخلقها طغيان أبيه، عبد الله هذا المطيع للغاية للأوامر، والمتحلى بالفضائل، وبالعلم، وبالتواضع، بالرغم من كل ذلك كان يشعر فى كل

---

(1) **البيان**، المجلد الأول، ص ١٢٤. اتبعت الترتيب الزمنى لهذا الكتاب بدلاً من النويرى، الذى يُرجع الحدث لعام ٢٨١هـ (٨٩٤ ـ ٨٩٥م).

(2) قارن بين: ابن الأبار، مخطوطة الجمعية الآسيوية بباريس، الورقة ٣٥ الوجه الأول؛ و**البيان**، المجلد الأول، ص ٢٨١؛ والنويرى، المرجع المذكور، ص ٤٣٠.

لحظة من لحظات حياته بأن سيف السَّياف على عنقه(1).

وفى كل يوم أكثر من ذى قبل كان إبراهيم يزداد غضباً وحنقاً؛ فكل جريرة يقعُ فيها تجرُه لارتكاب المزيد من الجرائم؛ وتتبلور كل رذيلة باقترافها وبمرور الزمن؛ وتزداد فى نفسه حدة هوس السلطة الذى كان متسلطاً عليه، وهى المبرر الذى يدفعه لسفك الدماء؛ ومَنْ يحاول التوصل لمعرفة هذا الدافع فلن يستطيع أبداً التغلغل فى أسرار هذه النفس الانسانية. ومَنْ يجمع ما قام به من أعمال وحشية، يلاحظ علامتين فظيعتين للغاية. أولهما، أنه مع ضحاياه الذين تميَّزوا برباطة جأشهم، كان يبحث بسرعة عن قلوبهم وينقبها، لأن القلب فى رأى العرب هو محل الفكر والتفكير؛ كما لو كان هذا الطاغية يريد انتزاع الدوافع المادية لتمردهم واجتثاثها. وقد قال هذا بنفسه للقديس بروكوبيو، أسقف تاورمينا، الذى استشهد على يديه (٩٠٢)(2). وقبل ذلك ببضع سنين قام بتقطيع قلب رجل آخر يتسم بالشجاعة، ألا وهو ابن الصمصام، حاجبه الأول، الذى جُلد خمسمائة جلدة، ولم يصدر منه أى تأوه، أو حراك؛ وعندما أمر إبراهيم بقتله تباهى بفتح يديه وغلقها ثلاث مرات بعد حز رأسه، وصدق فيما قال(3).

وفظائعه الأخرى تبدو لى أنها تكمن فى البغض، والكره، والحقد

---

(1) قارن بين: **البيان**، المجلد الأول، ص ١١٥ حتى ص ١٢٧؛ وابن الأبار، الموضع المذكور؛ والنويرى، المرجع المذكور، ص ٤٢٨، ٤٣٦، ٤٣٧؛ وابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ورقة ١٣٩، الذى يشير إشارة عابرة إلى الفظائع التى ارتكبها الطاغية.

وابن الأثير، فى اصراره على إطرائه بأنه كان أميراً قوياً وعماداً للإسلام، يغفل كل جرائمه، ويذكر فقط بدايات حكم إبراهيم وموته؛ وبالرغم من هذا يذكر ان البطل أبو العباس كان يعيش فى فزع دائم من جراء «طبيعة أبيه الشريرة». المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ٩٢ والورقة ١٧٢؛ والمخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٢٤٦ الوجه الثانى، و٢٧٩الوجه الأول،أعوام ٢٦١ و٢٨٩.

(2) انظر فى نفس هذا الكتاب الفصل الرابع.

(3) **البيان**، المجلد الأول، ص ١١٥. ويقول المؤرخ إن إبراهيم تعجب حينما وجد القلب (أقرأ فى النص كلمة فانياً) مختلطاً بالكبد، وبه شعر كثيف. وفى صقلية يُقال عن الرجل الذى قلبه ملئ بالشر وبالانتقام أن قلبه كثيف الشعر. وهذا القول وهذه العبارة ربما قد جاءت من عند العرب. أما بخصوص الحركات الانقباضية التى تُروى عن ابن الصمصام،

الذى كان يشعر به ويختلج بين جنباته على استمرار الجنس البشرى. ولن أتحدث عن زوجاته ومحظياته اللاتى كان يقتلهن شنقاً، واللائى يبنى عليهن الأسوار وهن أحياء، واللاتى بقر بطونهن، وإن كن حوامل وحبلاوات: وكل هذا فعله معهن دونما ذنب اقترفنه، وليس غيرة عليهن. وهكذا عاش ردحاً من الزمن، دون أن يتحدث مع النساء إلا مع أمه، التى كانوا يدعونها فى البلاط «بالسيدة». وحاولت أمه أن تغرس فى نفسه بعضاً من المشاعر الانسانية، ولذا ففى ذات يوم رأته أقل حزناً وسوداوية فقدمت له فتاتين جميلتين، وجعلتهما يتلوان القرآن ويتغنيان ببعض الأبيات الشعرية على نغمات القيثارة والعود. وبدا أن الطاغية قد طابت نفسه وصفت، وانتشى أيضاً من الخمر، فوهبت له أمه الأمتين؛ فقبلهما وتبعتاه وسارتا وراءه. وبعد ذلك بساعة جاء إلى السيدة مولى إبراهيم الأمين ومعه سلة مغطاه بقماش غالى الثمن. فوجدت بداخلها رأسى الفتاتين؛ فصرخت، وسقطت مغشياً عليها؛ وعندما أفاقت، كانت أول كلمات تتفوه بها هى لعنات صبتها على ابنها. ومع ذلك ظلت على قيد الحياة لترى الكثير من أعماله الوحشية. فقد أمر إبراهيم بقتل أى بنت تُولد له؛ وفى بعض الأحايين لم يكن ينتظر حتى يولدن. وقد استطاعت السيدة إخفاء بناته الأطفال وإطعامهن سراً. وبتقدم العمر بابنها، انتهزت السيدة بارقة رحمة وشفقة بدت عليه فشرعت تطلعه على بناته اللاتى كبرن وأصبحن آيات فى الجمال، كما تقول أخبار التاريخ؛ وأعتقدت أنها انتصرت وظفرت بما تريد عندما سمعته يقرظهن ويطريهن. وحينئذ تشجعت وتمالكت أمرها؛ فكشفت له عن أنهن بناته من صلبه؛ وعرضت عليه أسماءهن وأسماء أمهاتهن. فإذا بالطاغية يخرج من القاعة وينادى على عبده «ميمون» قائلاً له «آتنى برؤوس الفتيات اللاتى عند السيدة». فلم يبد السَّياف حراكاً. فقال له إبراهيم «اصدع للأمر، أيها العبد اللعين» «وإلا قطعت عنقك

فإنها لا تبدو لىَّ أكثر عجباً من تلك الحركات التى يذكرها التاريخ عن الكثيرين ممَنْ حُزت أعناقهم؛ ولا يبدو لى غريباً أن يكون من بينها مقصد فى عقل أى انسان لحظة تنفيذ حكم الاعدام فيه.

قبلهن، وهن من بعدك». وما هى إلا لحظات حتى عاد ميمون وهو يمسك فى يديه الست عشرة رأساً من خصلهن وهى تقطر دماً، وألقى بها فى مكان واحد وكومها على الأرض(1). ولا يمكن التشكيك فى هذه الفظائع والشنائع. وبالرغم من حصولنا عليها من مصادر ليست بالأولى، إلا أنه من الجلى صحة ما كتبه الكُتاب الأولون، من مواطنى القيروان أو إفريقية على التحقيق، والمتفقون فيما بينهم، وغير المناهضين لبنى الأغلب، والذين عاشوا فى أزمنة متقاربة للغاية وعايشوا ثقافة أدبية واحدة. بالإضافة إلى هذا فإن الفظائع التى رويت تتلاءم فيما بينها ويوافق بعضها البعض؛ فالكثير من الدقائق والتفاصيل التى توضح غرائز ذلك الرجل المتمر، ذكرها بنفس الكلمات تقريباً المسلمون والمسيحيون، ومن بينهم أحد المعاصرين الدؤوبين فى عملهم وهو يوحنا، شماس نابولى(2).

---

(1) قارن بين: **البيان**، المجلد الأول، ص ١٢٦ وص ١٢٧؛ والنويرى، المرجع المذكور، ص ٤٣٦ وما بعدها. وكلاهما يستشهد بابن رقيق، من كتاب الأخبار الأفريقيين فى القرن العاشر، ويضيف **البيان** بأنه وجد هذه الأعمال أيضاً عند كتاب آخرين: ابن الأبار، مخطوطة الجمعية الآسيوية بباريس، ورقة ٣٣ الوجه الأول، وهو يروى فقط ما وقع للنسوه اللاتى بُقرت بطونهن لانتزاع الأجنة منها، ويقول إن ذلك حدث فى عام ٢٨٣هـ (٨٩٦ - ٨٩٧م) ويختتم حديثه بتعجب: «ياله من ذنب عظيم اقترفه فى حق الله سبحانه وتعالى». وبعدها مباشرة يتندر ابن رقيق بنادرة خلع إبراهيم. وعموماً فبالنسبة لحياة هذا الطاغية المستبد انظر فى الكُتاب الثلاثة المذكورين وابن الأثير وابن خلدون وآخرين من المصنفين الذين يذكرون بطريقة أو بأخرى أفعاله ذاتها. والجزء الأكبر من حكاية النويرى ترجمها قبل م. دى سلان، دى ڤيرچيه، فى ملاحظاته على ابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٣٨ وما بعدها.

(2) استشهاد القديس بروكوبيو أسقف تاورمينا، المأخوذ من انتقال جسد القديس سيڤيرينو إلى مدينة نابولى، فى كتاب جايتانى، *Vitæ Sanctorum Siculorum*، المجلد الثانى، ص ٦٠ وما بعدها؛ وفى كتاب موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص ٢٦٩. والمؤلف نفسه هو مؤرخ أخبار أساقفة نابولى، كما يثبت ذلك موراتورى فى المجلد المذكور من كتاب، *Rerum Italicarum*، ص ٢٨٧ وما بعدها. والحكاية الأخرى التى أشير إليها هى حكاية استشهاد إخوة سيراكوزا، عند جايتانى، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٥٩.

الفصل الثالث

وثار مستوطنو صقلية من العرب والبربر على السواء ضد الوالى الظالم الشرير؛ واستمروا على حالهم هذا لمدة أربع سنوات، وفى هذه الأثناء وقعت الفتن والقلاقل فى أفريقية، وعاد البربر فى عام ٨٩٨ لمهاجمة الجند. ولست أدرى لأى سبب كانت ثورتهم أو لعلها كانت بسبب فساد اقترفه إبراهيم، وعندما رأى إبراهيم كثرة عدد المستوطنين الثائرين الذين يريدون تحقيق مقصد صعب المنال وهو التخلص من النير الذى يثقل كاهلهم، دون أن يكفوا عن التناحر فيما بينهم، هزأ بفعلتهم وتدخل فى الأمر: فكتب إلى كلا الفريقين بأنه قد يعفو عنهما، إذا عادا إلى الطاعة وصدعا للأمر وبأنه سيكتفى بمعاقبة زعماء الفتنة فقط، وهم من البربر، شخص يُدعى أبو حسين بن يزيد، وأولاده؛ ومن الجند الحضرمى، وهو نازح من جنوب الجزيرة العربية، كما يظهر من اسمه. فسارع الثائرون بتسليمهم للجند الأفريقيين؛ المرابطين فى إحدى الحاميات العسكرية بمازارا حسب ما أعتقد؛ فسجنوهم، ومنها أرسلوهم إلى أفريقية؛ حيث خضعوا للتعذيب. ولكى يفلت البربرى من التعذيب، شرب السم ومات فى الحال؛ وعندئذ لم يتبق أمام إبراهيم إلا أن يعلق جثته على المشنقة وقام بذبح أبناء المنتحر. وفرَّج عن نفسه بابتكار وسيلة جديدة من وسائل التعذيب تجاه الحضرمى. إذ جعله يمثل بين يديه، وأمر أحد الجلادين الذين يتسمون بالفكاهة، مثل كثير من الجلادين الذين عنده، بأن يداعب المحكوم عليه بدعابات ساخرة وماجنة: وعندما بدأ المسكين يأمل فى النجاة والخلاص، وتهللت أساريره، قال

إبراهيم بحدة: «كفى»، «هذا ليس وقت المرح والمزاح»، وأشار إلى الجلاد؛ الذى قام بقتله ضرباً بالعصا(1).

ثم أرسل إبراهيم من قبله والياً على صقلية وهو رجل من بنى الأغلب، وكان أميراً بها، فيما يبدو لمدة عشرين عاماً تقريباً، اسمه أبو مالك أحمد بن عمر بن عبد الله(2). وكان الطاغية يأمل ـ بما كان يتمتع به بنو الأغلب من سمعة ومكانة ـ فى خداع الشعب وحمله على الخضوع؛ وبسذاجة كان يثق فى أن يحكم المستوطنين كما يطيب له من أفريقية. ولكن الخلافات القديمة التى أشرنا إليها آنفاً، لم يكن من اليسير تجاوزها بسهولة ويسر؛ وفضلاً عن هذا فإن مشاعر الغضب والاستياء، والحقد، والتقريع التى تقع بعد إخماد أية ثورة، أدت إلى ظهور خلافات وانقسامات جديدة. لذا ففى عام ٨٩٩، تقاتلت وتناحرت الكثير من الطوائف

(1) قارن بين: **البيان**، المجلد الأول، ص ١٢٤، عام ٢٨٥ (٢٧ يناير ٨٩٨ حتى ١٥ يناير ٨٩٩)، و *Chronicon Cantabrigiense*، فى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٤٣، عام ٦٤٠٦ (الأول من سبتمبر ٨٩٧ حتى ٣١ أغسطس ٨٩٨). وبافتراض صحة هذين التاريخين، فإن الواقعة تتقلص حول السبعة أشهر التى تبدأ من نهاية شهر يناير وحتى أواخر شهر أغسطس ٨٩٨. ونلاحظ أن **البيان** لم يقل مَنْ هو زعيم البربر، ولا من هو زعيم العرب. ولكن يضيف اسم الحضرمى؛ نسبة إلى حضرموت وهى منطقة تقع شرق اليمن. وعلى أية حال فإذا كان هناك شك، فإن *Cronica di Cambridge* يزيله عندما يقول إن البربر، بعد مهاجمة الجند، سلموا للإفريقيين أبا الحسين وأولاده. إذن فإن أبا الحسين كان زعيمهم. ولقد قمت حسبما جاء فى أخبار كامبردج بتصحيح لقبه، الذى ورد فى كتاب **البيان**: أبو الحسن.

(2) انظر الكتاب الثانى، الفصل التاسع، ص٤٥٢ من المجلد الأول، الملحوظة رقم ٤. ولقد كتبت الاسم كما ورد عند ابن الأثير، عام ٢٨٧، المخطوطة A، المجلد الثانى، ورقة ١٦٧ الوجه الأول؛ ومخطوطة بيبرس، ورقة ١٢٣ الوجه الأول. والنويرى، **تاريخ صقلية**، فى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ١١، يقول إن اسمه هو أبو مالك أحمد بن يعقوب بن عمر بن عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب. وهذا المصنَّف الذى فى كل شئ لا يستحق ثقة كبرى، يقول إن أحمد حكم صقلية ست وعشرين عاماً (وصحتها ٢٨)، من عام ٢٣٩ حتى عام ٢٨٧هـ (٨٧٢ حتى ٩٠٠م)؛ وغفل أنه فى كتاب **تاريخ افريقية** حدد بنفسه فى تلك الفترة الزمنية أميرين آخرين لصقلية. ولذا أرى أن أحمد تم خلعه فى المرة الأولى، ثم أعيد اختياره، بعد سنوات طويلة؛ فى حوالى عام ٢٨٧.

الصغيرة، وغاصت صقلية فى الدم(1). ولمواجهة ضعف أحمد ولينه، كما تقول الأخبار، أو بالأحرى من أجل قمع صقلية وترويضها بطريقة الوحيدة الممكنة، أرسل إبراهيم جيشاً كبير العدد قوى البأس، تحت قيادة ابنه أبو عباس عبد الله، الذى انتصر على متمردى أفريقية(2).

وأبحر فى مائة وعشرين مركب نقل وأربعين سفينة حربية، فى

(1) *Chronicon Cantabrigiense*، فى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٤٣. والرواية المطبوعة بها: عام ٦٤٠٧ *commissum est prœlium in Franco Foth*. والكلمتان اللتان وردتا فى النص واللتان يظهر فيهما هذا الاسم الجغرافى، غير صحيحتين فى طبعتى كاروزو ودى جريجوريو؛ وحسب الترتيب الذى أطلعنى عليه السيد المحترم باور، أمين مكتبة جامعة كامبردج، نقرأ بوضوح فى المخطوطة الأصلية اللفظة الثانية مفارقة؛ أما اللفظة الأولى، فإنها تخلو من حركات الإعراب، وتتألف من الحروف التالية: الأول ى، أو ق؛ والثانى ر؛ والثالث ث، ت، ب، ن، ى؛ والرابع جـ، حـ أو خـ؛ والخامس أ. وبالاهتمام بالحروف الأصلية فقط، فإننى لا أتردد فى القول بأنها ف، ر، ج التى بها يُكتب فرج الذى يعنى «فصل، شق»؛ وإننى على يقين من أن هذه الكلمة التى نسخت بشكل خاطئ أو كتبت خطأً بالعربية من جانب المؤلف، وهو يونانى من صقلية، جمع تكسير من لفظة تعنى «انشقاق»؛ وأنها باليونانية **σχῖσμα**. ولا تدع مجالاً لتفسيرها بطريقة أخرى كلمة مفارقة، التى تتوافق من الناحية النحوية مع تلك اللفظة، وأنها الصفة المؤنثة المشتقة من «صفة فاعَل» لفعل فرَّق الذى يعنى «فصل، ميَّز». إذن صحح الرواية بقولك: «فى عام ٦٤٠٧ تحاربت طوائف مختلفة».

ويجب اضافة أن اسم فرانكو فورتى أو أى اسم آخر مشابه له لم يظهر فى صقلية قبل احتلال النورمان للجزيرة، وأنه لا توجد بها اليوم، ولم توجد بها مطلقاً. بلدية فرانكو فونتى الحالية، وليس فرانكو فورتى، وتم تأسيسها فى القرن الرابع عشر.

(2) ابن الأثير، عام ٢٨٧، المخطوطة A، المجلد الثانى، ورقة ١٦٧؛ ومخطوطة بيبرس، الورقة ١٢٣ الوجه الأول، والنويرى، **تاريخ صقلية** فى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ١١، دون أن يشير إلى الحروب التى تلت ذلك، يقول إن عبد الله أُختير أميراً لصقلية فى عام ٢٨٧؛ وفى **تاريخ افريقية** يذكر م. دى سلان فى حاشيته على ابن خلدون، *Histoire des Berbères*، ص ٤٣١، إنه ذهب إلى صقلية فى عام ٢٨٤، ووصل إليها فى شهر جمادى الأولى (يونيه ٨٩٧)، واستولى على بالرمو بعد قتال مرير، ثم كتب عهد أمان. من هذا تتأكد عدم صحة ما صنفه وكتبه.

٢٤ يوليه عام ٩٠٠؛ ووصل إلى مازارا فى غرة شهر أغسطس(1)؛ واتجه مباشرة لمحاصرة ترابانى. وعقب ذلك انسحب على الفور جيش بالرمو، الذى كان قد خرج لملاقاة الجرجنتيين ومحاربتهم، وتوجه إلى العاصمة؛ وأرسل إلى المعسكر الأفريقى القاضى والعديد من الشيوخ، وأعلن طاعتة للأمير، واعتذر، صدقاً أو بهتاناً، عن مهاجمة جرجنتى. وفى الوقت نفسه وصلت من هذه المدينة رسائل تقطر ألماً من حدة أهل بالرمو: وتهمس فى أذن عبد الله بألا يثق فى أولئك القوم المتمردين، الذين لا يراعون عهداً ولا إيماناً، وبألا يثق فى تظاهرهم بالخضوع والولاء له؛ وبأنه إذا أراد معرفة رذائلهم واصطيادها من أعماقهم، فليستدع من بالرمو فلان وفلان، وسيتضح له الأمر.

وبالفعل قام باستدعائهما؛ ولكنهما رفضا؛ وإذا بالمدينة كلها تعلن عن عدم ذهابهما. عندئذ احتجز عبد الله رسل بالرمو، وأطلق سراح القاضى فقط؛ وبعدها بقليل أرسل إليها ثمانية شيوخ أفريقيين؛ ربما يحملون إليها أوامر صارمة. فقام عرب بالرمو بدورهم باحتجازهم؛ وقرروا خوض تجربة حمل السلاح. وكان زعيم الثورة فى هذا الوقت رجل يدعى راكمويه، وهو رجل اسمه فارسى. وكان أميراً على الأغبياء، هكذا يقول بمرارة ابن الأثير الذى عاش بعده بثلاثة قرون: وكان معاصراً لصلاح الدين العظيم، وكاتباً غير تابع لأحد، ومغرماً بإبراهيم بن أحمد، لقسوته وشراسته. ومن ثم كان ابن الأثير يرى الفطنة فى أولئك الذين تركوا أنفسهم بهدوء ووداعة يلتهمهم النمر؛ ولذا فإن كاتب الحوليات هذا لا يُعير اهتماماً لحقوق المسلمين، ولا للامتيازات المقدسة التى داسها إبراهيم بقدميه، والتى دافع عنها ببسالة أهل بالرمو!

(1) تقول **اخبار كامبردج** إن عبد الله «انتقل» من أفريقية إلى مازارا فى ٢٤ يوليو؛ وابن الأثير يقول إنه «وصل» إلى صقلية فى غرة شهر شعبان التى تتوافق مع أول أغسطس.

ونظراً لوجود خطأ فى التصنيف والكتابة على ما يبدو، سأنحى جانباً الحكاية التى رواها مؤرخ آخر(1): الذى يرى أن الجرجنتيين، بعد قيامهم بتحريض عبد الله، تحالفوا مع أهل بالرمو ضده. فتحرك فى يوم الخامس عشر من شهر أغسطس متوجهاً إلى تريانى، جيشُ تحت إمرة رجل يُدعى مسعود باجى(2). وخرج الأسطول الذى كان يضم حوالى ثلاثين مركباً بعد ذلك بقليل: وواجه عاصفة هوجاء أثناء إبحاره القصير والوعر فى المسافة من بالرمو إلى تريانى، لذا غرقت فى البحر معظم المراكب؛ أما التى كُتبت لها النجاة، فلم تهاجم العدو، بل عادت أدراجها. وفى هذه الأثناء قام الجيش بمهاجمة معسكر الأفريقيين الواقع أسفل ترابانى: ودارت بين الجيشين المتحاربين معركة حامية الوطيس سالت فيها دماء كثيرة، ولم يُحسم النصرُ لأى من الفريقين. ولكن فى اليوم الثانى والعشرين من شهر أغسطس كرَّ أهل بالرمو كرّة أخرى، واستمرت الأمور على النحو السابق حتى وقت العصر(3)، وفى النهاية تغلبت حنكة عبد الله وخبرته بفنون القتال، أو عدد الإفريقيين الذى بلغ على وجه اليقين أربعة عشر أو

(1) وهو ابن خلدون، فى *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ٥٧ من النص، وص ١٣٤ من ترجمة م. دى ڤرچيه. ولا أعرف من أين استقى المؤلف هذه المعلومة، وهو الذى يعرض بقية النص مختصراً إياه من ابن الأثير.

(2) فى مخطوطتى ابن الأثير نجد الاسم الثانى بدون حركات إعرابية. وأعتقد أنه يجب قراءة باچى. وهذا، حسبما جاء فى كتاب **لب اللباب** للسيوطى، طبعة دل ڤيت،قد يكون لقب عائلة فارسية، أو اسماً عرقياً مشتقاً من باجه، التى تُسمى بها مدينة فى شبه الجزيرة الأسبانية (وهى باجه فى البرتغال)؛ أو اسم لقرية فى أفريقية (وهى بيدچا فى مملكة تونس الحالية، وهى مدينة تقع داخل اليابسة على مسافة قصيرة من مدينة طبرق)؛ أو اسم قرية تقع بالقرب من أصفهان فى بلاد فارس.

(3) ترجمت كلمة العصر بلفظة *vespro* التى تشير إلى ميقات من مواقيت الصلاة، وتتوافق مع الساعة الحادية والعشرين، حسب التوقيت الإيطالى القديم، أى فى أوائل شهر سبتمبر، وفى بالرمو تتوافق مع الساعة الثالثة والنصف بعد منتصف النهار. انظر قواعد مواقيت الصلاة عند المسلمين حسب خطوط عرض مدينة القاهرة، عند لان فى كتابه، *Modern Egyptians* المجلد الأول، ص ٣٠٢.

خمسة عشر ألف رجل، هذا إذا ما وضعنا فى الاعتبار المائة وعشرين مركباً التى أقلتهم. وبعد النصر المؤزر، سار عبد الله إلى بالرمو متعقباً العدو، فأرسل إليها الأسطول الذى كان البحر خالياً أمامه، وكان قادراً على مهاجمة المدينة وإلحاق الأذى والضرر بالجيش المنسحب. وكانت قوات بالرمو أثناء انسحابها تسير سيراً بطيئاً وتنشر الرعب والفزع أينما سارت، مثلها فى ذلك مثل أولئك الذين يعرفون الدفاع عن أوطانهم وحرياتهم حتى أنهم جعلوا المنتصر يسير قرابة ستين ميلاً فى أربعة عشر يوماً؛ وفى اليوم الخامس عشر، الذى وافق الثامن من شهر سبتمبر، برزوا له فى معركة ثالثة. وتقاتلوا لمدة عشر ساعات متصلة من بزوغ الفجر حتى العصر، فى وادى من الواديين اللذين، أعتقد، أنهما يؤديان إلى ريف بالرمو فى طريق مستقيم على يسار بايدا(1). وفى نهاية المطاف تشتت جموعهم وتمزقت فلاذوا بالفرار إلى المدينة القديمة، ومن العصر إلى الليل قام الأفريقيون بوضع السيف فيهم وقتلهم؛ واحتلوا أرباض المدينة؛ وانتهبوها(2)، غير مبالين بشرع الله الذى يحرم

(1) يقول **البيان** إن المعركة دارت طيلة النهار «عند أبواب المدينة»؛ وهذا يجعلنا نفهم أنها كانت خارج أرباض المدينة، لأن ابن الأثير يقول بأن أرباض المدينة احتلت بعد إحراز النصر. ومن الجدير بالذكر أن الطريق من ترابانى إلى بالرمو حتى منتصف القرن الثانى عشر، وربما بعد ذلك بكثير، كان يمر بكارينى، كما توضح هذا **مسالك الإدريسى**. ولكنه كان يمر بأحد الواديين اللذين يحاذيان جبل كوتشو، ويخرج إلى السهل المنبسط، الموجود سواء بين بوكا دى فالكو وبايدا، أو بين بوكا دى فالكو وجبل بينزاتسى، على طول خط طريق توريتّا الجديد والممهد.

(2) قارن بين: ابن الأثير، عام ٢٨٧، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ١٦٧ وما بعدها؛ ومخطوطة بيبرس، الورقة ١٢٣ الوجه الأول، وما بعدها؛ والبيان، المجلد الأول، ص ١٢٥؛ وابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٣٢ وما بعدها؛ و*Chronicon Cantabrigiense*، ص ٤٣؛ ويوحنا دياكونو دى نابولى، انتقال جسد القديس سيڤيرينو، فى كتاب جايتانى، *Vitæ Sanctorum Siculorum*، المجلد الثانى، ص ٦٠، الذى أعاد طبعة موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص ٢٦٩. ومن المثير للعجب والغرابة توافق ما جاء به يوحنا الشماس مع ما ذكره المؤرخون المسلمون حول أهمية هذه الوقائع؛

الاستيلاء على ممتلكات المسلمين الثائرين واستباحة دمائهم. ومع هذا لا يوجد ذكر للفظائع والشنائع التى وقعت فى هذه المعركة مثل تلك التى حدثت فى تونس، والتى هرب منها عبد الله ذو النفس السامية والحس المرهف. وقد زادت من حزنه وألمه تلك المعركة، التى خاضها فى صقلية، ربما فى ذات اليوم، وهذا إذا ما نظرنا إلى مشاعره فى ثلاث أبيات شعرية؛ فعندما عانت نفسه وتقززت من المذابح، والحرائق والدمار والتخريب، تنهد ذلك البطل الشجاع وتذكر يوماً من الأيام الهادئة الناعمة، التى عاشها فى حدائق رقادة ومتنزهاتها، مع نسائه وأولاده(1).

وكثرت أرباض مدينة بالرمو التى امتدت فى ذلك الزمان من جهة الجنوب الشرقى حتى وصلت إلى شاطئ أوريتو، ومن جهة الغرب كانت ترتفع سلسلة من الدور لمسافة ميلين وأكثر حتى قرية بايدا، أى حتى سفوح الجبال: وهى أرباض لها أهميتها إذ كانت تضم أكثر من مائتى مسجد وقيل إنه كان بها خُمسا سكان بالرمو(2). وحول

واتفاق **أخبار كامبردج**، المستقاه من أصول يونانية، مع ابن الأثير، حول تاريخ موقعة بالرمو، إذ يقول أحدهما إنها دارت فى يوم ١٠ رمضان، ويقول الآخر فى يوم ٨ سبتمبر، وهذا التاريخ متوافق تماماً بين التقويم المسيحى والتقويم الإسلامى.

(1) وهذه الأبيات نقلها ابن الأثير فى سيرة عبد الله، وقائع عام ٢٨٩، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ١٧٢ الوجه الأول؛ والمخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٢٧٩ الوجه الأول؛ ومخطوطة بيبرس، الورقة ١٢٩ الوجه الثانى؛ ونقلها كذلك مع وجود بعض الاختلافات ابن الأبار، المخطوطة المحفوظة بالجمعية الآسيوية بباريس، الورقة ٣٣ الوجه الثانى. وقد وضعت فى البيت الأخير نقطة تحت حرف الحاء من لفظة بحار وقرأتها بجار، التى تعنى بجوار، وبالقرب من، وترجمت الأبيات على النحو التالى: «أشرب الشراب الصحى، فى أرض غريبة، بعيداً عن أهلى وعن دارى».

آه! كان معتاداً فى مرات أخرى أن يُدنيها من شفتيه، ومن حولى كل شئ يفوح بعبق المسك ورائحة الصبَّار؛ والآن ها أنذا فى وسط الدماء، بين دوامات من الدخان و«الغبار». ترجمت لفظة دواء التى تعنى عقار «بالشراب الصحى».

(2) ينقل ياقوت فى **معجم البلدان**، مخطوطة أكسفورد، مقال بالرمو، فقرة من وصف ابن حوقل يذكر فيها عدد المساجد هذا ويكرر أن باقى المدينة كان بها ٣٠٠ مسجد حسب الوصف الذى قمت أنا بنشره. وينبغى الآن تصحيح هذه الفقرة طبقاً لما ذكره ياقوت الذى باضافته يمكن استكمال الصورة.

ذلك التجمع الهائل من القصور الفخمة والدور الحقيرة البائسة التى يقطنها العمال، كانت المدينة القديمة تقف سامقة شامخة، تزيدها منعة وقوة القلاعُ والبحيرات، وكان العرب يطلقون عليها اسم كاسّارو، وهى قلعة كبيرة المساحة وبيضاوية الشكل وتشغل تقريباً نصف مساحة المدينة الحالية(1). وعندما احتل العدو الأرباض استبسل الناس فى الدفاع عن أنفسهم فى كاسّارو لمدة عشرة أيام وانتهى الأمر بإبرام اتفاق؛ وفى اليوم الثامن عشر من شهر سبتمبر انفتحت أبواب المدينة أمام عبد الله. وطبقاً للاتفاق أو قبل توقيعه، قام جمع غفير من الأهالى باصطحاب زوجاتهم وأولادهم والفرار إلى تاورمينا؛ أما راكمويه وأنصاره من المتورطين فى ثورته فقد أبحر بعضهم إلى القسطنطينية، والبعض الآخر إلى مختلف الدول المسيحية، حيث لا يمكن أبداً أن تصل إليهم يدُ إبراهيم. وبعد اخلاء المدينة، بقى فيها جماعة من وجوه القوم،

(1) علاوة على ما قلته حول طبوغرافية بالرمو فى الفصول السابقة، انظر ابن حوقل، *Description de Palerme*، الذى نشرته فى، *Journal Asiatique*، السلسلة الرابعة، المجلد الخامس، ص ٩٤ و٩٥؛ وفى، *Archivio Storico Italiano* ، الحاشية السادسة عشر، ص ٢٢. وأسماء أبواب المدينة القديمة التى نجدها عند ابن حوقل، تتيح لنا تحديد أبعادها. فانطلاقاً من أبروشية القديس أنطونيو الحالية كانت المدينة ترتفع تجاه الجنوب الغربى لتصل إلى الربوه التى يوجد عليها دير ديللى ڤيرچينى، وتستمر على امتداد طريق تشيلسو حتى سانتا آجاتا لاجويللا، وتتجه نحو الجنوب الشرقى بمحاذاة خط يمتد الآن من الكاتدرائية إلى المستشفى الكبير، ثم ينكسر عند الشمال الشرقى، ويلامس ديرى بينيفراتللى وسانتا كيارا الحاليين، وجامعة الدراسات، ومكتب البريد، ودير سانتا كاترينا، ومنها يعود لكنيسة القديس أنطونيو. وهو شكل بيضاوى، يتقاطع محوره الأكبر مع طريق كاسّارو الذى تقع فيه اليوم كاتدرائية القديس أنطونيو. وحول هذا المحور كان يسير بشكل متوازٍ أو يكاد، على جانبيه، طريقان، يمكن التعرف عليهما الآن بسهولة، وهما طريقان ضيقان ومتعرجان مثل كل طرق العصور الوسطى؛ أحدهما ينطلق من دير ديللى ڤرچينى ويصل إلى المجزر القديم (المعروف باسم أوتشيديتورى)؛ والآخر من قصر البلدية إلى دير سانتا كيارا. ولا ينبغى الرجوع إلى خريطة مورسو الواردة فى كتاب، **بالرمو القديمة**، إذ تخص العهد النورمانى، وهى إلى جانب هذا ليست بالصحيحة مطلقاً.

وكان هناك شك فى أن عبد الله سيرسلهم إلى أبيه فى أفريقية؛ وربما كانوا جماعة من أولئك الذين لا يوجد سبب لقتلهم، ولذا لا تُحدثنا الأخبار عن تعذيبهم. وهكذا تتجلى فى كل موقف من المواقف إنسانية المنتصر(1).

ولم يكن فى مقدور المسيحيين أن يغضوا الطرف عن الفتن الكثيرة والطويلة التى وقعت وأن يتجاهلوها، فقد استخدمها مسيحيو ڤال ديمونى فى الهدنة التى تم توقيعها فى عام ٨٩٥، والتى دخل فيها، على ما يبدو فى ذلك الوقت أو فيما بعد، قائد كلابريا الأعلى؛ إذا ما أخذنا فى الاعتبار قول چوڤانى شماس نابولى إن هذا الاتفاق قد أدى إلى اشتعال حرب قادها عبد الله فى تلك الولاية(2). وفى الوقت نفسه أسرع القديس إيليا دا كاستروچوڤانى، بالرغم من تقدم عمره ومرضه، بالذهاب إلى صقلية، تحدوه الآمال، أو ربما كان الإمبراطور ليونى الحكيم قد طلب قدومه: إذ كان إيليا دا كاستروچوڤانى مساعداً لباسيليوس المقدونى فى محاولة استعادة الجزيرة التى وقعت قبل ذلك بعشرين عاماً؛ وسنراه بعد قليل يشجع، بطريقته الخاصة، أهل تاورمينا على الاستبسال فى الدفاع عن بلدهم(3). وسنرى أيضاً محاولات جديدة يقوم بها البيزنطيون: مثل إرسالهم أحد النبلاء ومعه حامية عسكرية إلى تاورمينا؛ وجيش كبير رابط فى ريچو، وأسطول وصل من القسطنطينية إلى مسينا. وأعمال من هذا القبيل تبين بجلاء ووضوح أن الإمبراطورية البيزنطية كان لها مخططها فى الحروب

(1) قارن بين: ابن الأثير؛ **والبيان**؛ وابن خلدون بالنسبة للأماكن المذكورة فى الملحوظة ٢ من صفحة ٦٨ من هذا المجلد. ويقول **البيان** صراحة إن عبد الله دخل المدينة يوم ٢٠ رمضان بعد أن أعطاها الأمان.

(2) چوهانس دياكونى نابوليتانى، استشهاد القديس بروكوبيو فى جايتانى، *Vitæ Sanctorum Siculorum*، المجلد الثانى، ص ٦٠؛ وفى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص ٢٦٩.

(3) حياة القديس إيليا، فى جايتانى، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٧٣.

الأهلية التى وقعت بين المسلمين وفى احتياج المستوطنين الثائرين إليها. ولهذا فبعد الاستيلاء على بالرمو، قامت الإمبراطورية بتسليحها وتجهيزها تجهيزاً يسيراً؛ وأثارت السكان المسيحيين بالجزيرة، وحفزت سكان كلابريا لخوض الحرب؛ وقد جر الإمبراطورية إلى هذا المسلمون الذين فروا إلى تاورمينا، والقسطنطينية، وكلابريا، والذين كانوا يأملون فى تحقيق عظائم الأمور بكل تأكيد وقد أفصحوا عن كثير منها.

ولذا كان لزاماً على عبد الله، سواء كان على علم بتلك الأمور أم يجهلها، أن يخوض الجهاد، لكى ينفس عن نفوس المسلمين الثائرة بصقلية، ويرضى ذاته، والرأى العام، وأباه. ومن ثم لم يتوان فى الخروج من بالرمو؛ واتخذ طريق تاورمينا؛ وقطع الكروم؛ وهاجم الحامية العسكرية فى مناوشات خاطفة، ومع تقدم فصل الشتاء، أمّل فى اخضاع كتانيا بكل سهولة ويسر، لأنها مدينة منبسطة وذات سهول فسيحة، ولذا ضرب عليها حصاراً؛ ولكن هذا لم يؤت أكله. فعاد أدراجه إلى بالرمو لقضاء فصل الشتاء بها، وجهز عدداً من المراكب أشد بأساً وقوة، وعندما تحسنت الأحوال الجوية، أبحرت سفنه فى يوم الخامس والعشرين من شهر مارس عام ٩٠١. وذهب على رأس جيش عسكر فى ديمونه؛ وصوب المنجانيق صوب أسوارها؛ وضربها لمدة سبعة عشر يوماً؛ ولكن عندما أدرك شدة بأس وجلد الأهالى الذين أتى بهم البيزنطيون إلى كلابريا، ترك حامية ديمونه وشأنها لعلمه بأنها قادرة على الدفاع عن نفسها وعاجزة عن الهجوم؛ وطار بجيشه إلى مسينا. ويبدو أن الأسطول وصل إليها قبله، وأن المدينة خضعت له تماماً. فعبر عبد الله فى الحال مضيق مسينا. وعندما وجد المسلمون الجيش مرابطاً تحت أسوار ريجو، وكان مكوناً من جماعات من الحاميات البيزنطية من جنوب إيطاليا ومن أهالى كلابريا، شتت المسلمون جمعهم بإفزاعهم وإجفالهم فقط، هكذا يقول چوڤانى دياكونو. وبينما كان

الفارّون يجرون فى كل اتجاه عبر الحقول، اقتحم عبد الله المدينة يوم العاشر من شهر يونيه دون أن يلقى مقاومة تذكر. فأعمل أتباعه غلاظ القلوب السيف فى الناس دون تمييز فذبحوا منهم خلقاً كثيرين: ثم رأى من الحكمة أسرهم وسبيهم؛ وقد وصل عددهم إلى سبعة عشر ألفاً، من بينهم الاسقف المبجل الذى اقتيد إلى السجن والذى يشتعل رأسه شيباً كما يكتب چوڤانى دياكونو ويتلألأ وجه نوراً، موحياً بالرقة والعذوبة. وكانت الغنائم والأسلاب هائلة وكثيرة إذ كانت تشتمل على ذهب، وفضة، ومتاع؛ وكان المنتصرون يقومون على حراستها حراسة شديدة وصارمة، هكذا يستمر المؤلف نفسه فى السرد، وهذا يتوافق ويتلاءم مع الشريعة الإسلامية التى تحرم اقتسام الغنائم وتقسيمها فى أرض العدو. وإلى هذا الغُنم تُضاف الجزية والهدايا التى قدمتها المدن القريبة والتى سارعت إلى إرسال رسلها إليه تطلب منه الأمان؛ وذلك لأن عبد الله قد أذاع بين الناس اعتزامه البقاء فى ريجو. ولكنه عبر فجأة المضيق، عندما تناهى إلى علمه تحرك أسطول يونانى من القسطنطينية للوصول إلى مسينا؛ وباغته فى الميناء؛ واستولى على ثلاثين سفينة من سفنه؛ وهدم أسوار المدينة، عقاباً لها وانتقاماً منها أو توخياً للحيطة والحذر. وفى هذه الأثناء كانت تمر بشكل مستمر ومنتظم من ريجو إلى مسينا سفن النقل محملة بالغنائم والعبيد. ومرة أخرى قام عبد الله بقيادة الأسطول إلى سواحل البر الإيطالى؛ وقاتل أعداء آخرين، ربما كانوا أناساً من أتباع دوقات إسبوليتو وكاميرينو من الفرنجة، جنّدهم إمبراطور القسطنطينية بأمواله. وفى هذه العملية احتل الأمير الأغلبى فى يوم عشرين من شهر يوليه، إحدى المدن التى نقرأ اسمها بوضوح، ربما تكون هى مدينة ناردو(1)؛ وفى نهاية المطاف قفل برجاله عائداً إلى بالرمو،

(1) توجد فقط عند ابن الأثير، فى فقرة تحت أيدينا منها ثلاث مخطوطات. ولها ثلاث قراءات مختلفة وهى: بارتيبوا، وبارتينوا، وفى المخطوطة الأكثر صحة نجد

حيث بعث رسلاً من قبله إلى أبيه يبشرونه بالنصر وبالغنم العظيم. وظل عبد الله فى حاضرة صقلية حتى ربيع عام ٩٠٢ (تسعمائة واثنين)، حينما ذهب بنفسه لمقابلة أبيه فى أفريقية، وكان يحكم بين الناس بالحلم والإنصاف(1).

وقد سارت بين الناس فى إيطاليا شائعة تقول إن إبراهيم، عندما علم من رســائل ابنه أخبــار غزوة ريجــو، تملكه الغضب واندفع موبخاً: «هذه ليست أصولنا وعاداتنا، كلا، إنه أخذ من أمه هذه

اسمها بارتانوبوا. وبتجريد اللفظة من حروف العلة غير المنبورة، نجد أن الاسم يؤول إلى سبعة حروف، يتغير بعضها بتغير الحركات الإعرابية. وهذه الحروف هى: أولاً، الباء، الياء، النون، التاء، الثاء وهى تقابل حروف لغتنا وهى (*p,v*)؛ ثانياً؛ الراء، الزاى؛ ثالثاً، التاء؛ رابعاً وخامساً نفس حروف أولاً؛ سادساً، الواو المشددة؛ سابعاً، الألف، التى قد تكون ساكنة، ومن هنا فإن الحرف الأخير يتأرجح بين الواو الممدودة والواو ألف. وبإدغام الحروف الساكنة مع مختلف حروف العلة، فإن القراءة الأكثر صحة ستكون نيرتينو، التى تتوافق مع الاسم الذى أطلقة الجغرافيون القدماء على شعوب نيريتو فى أراضى اوترانتو. ومدينة نيوتيوم التى تسمى اليوم ناردو، هى مدينة تبعد قليلاً عن البحر، وكانت لها أهمية كبيرة فى العصور الوسطى، ولذا أصبحت مقراً أسقفياً فى القرن الخامس عشر. وبقدر عدم يقينية تصورى هذا، بقدر معرفتنا المبهمة للغاية للمنطقة المعنية، كما سنقول هذا فى الملحوظة التالية.

(1) قــارن بين ابن الأثير، ســنة ٢٨٧، المخطــوطة *A*، المجــلد الثانى، الورقة ١٦٧ الوجه الثانى؛ ومخطوطة بيبرس، الورقة ١٢٣ الوجه الأول وما بعدها؛ وسنة ٢٦١ فى المخطــوطة *A*، المجــلد الثــانى، الورقة ٩٢؛ والمخطــوطة C، المجــلد الرابع، الورقة ٢٣٦ الوجه الثــانى؛ ومخطــوطة بيبرس، الورقة؛ وچوهــانس دياكونس، *Translatio Corporis Sancti Severini*، فى جايتــانى، *Vitæ Sanctorum Siculorum* المجلد الثانى، ص ٦٠؛ وفى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص ٢٦٩ وما بعدها؛ **والبيان**، المجلد الأول، ص ١٢٣، عام ٢٨٨؛ و*Chronicon Cantabrigiense*، فى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٤٤؛ وابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ترجمة م. دى ڤرچيه، ص ١٣٧، ١٣٨؛ والملحوظة التى أشار إليها النويرى، مع وجود خطأ فى التاريخ فى كتاب، تاريخ أفريقية، فى حاشية *Histoire des Berbères*، لابن خلدون، ترجمة م. دى سلان، المجــلد الأول، ص ٤٣١؛ و*Chronicon Vulturnense*، فى مــوراتــورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجــلد الأول، الجــزء الثانى، ص ٤١٥. ويجب الاهتمام بابن الأثير، وچوڤانى دياكونو أكثر من أى كاتب آخر. ففى المخطوطة

الطراوة، فهذا الانسان الرقيق الجانب اللين العريكة رق مع المسيحيين وانسحب، بمجرد أن لاحت له علامات النصر! فليأت إذن إلى أفريقية ليركن إلى الراحة والدعة، وليذهب إبراهيم بن أحمد بنفسه ليظهر لأعداء الله والناس أجمعين سجايا بنى الأغلب

A ومخطوطة بيبرس نقرأ أن سفن المسلمين كانت تعود من ريجو إلى مسينا محملة بالبضائع والدقيق، ولكنى أعتقد وجوب تصحيح لفظة دقيق إلى رقيق أى عبيد. ويقول ابن الأثير إن معركة ريجو وقعت فى شهر رجب (من ٢١ يونيه إلى ٢٠ يوليه عام ٩٠١)، وتقول أخبار كامبردج أنها نشبت بالتحديد فى يوم ١٠ يونيه؛ ولقد اتبعت هذا التاريخ؛ ولكن من المرجح أنه غير مطابق للواقع، ويجب تصحيحة بيوم ١٠ يولية، وذلك بتغيير حرف واحد فى النص العربى، وهكذا نقرؤها يولية بدلاً من يونية. **والبيان** مكان لفظة ريوه (*Reggio*) ذكرحرف ز، التى قد تعنى *Scilla* شيلاً، ولكنها إعلال وتبديل للاسم الأول من هذه الأسماء. وأعتقد أن ابن خلدون، عندما قام بتلخيص هذه الحوليات على عجل من الأمر، وقع فى زلل، فكتب أن عبد الله خرج من تاورمينا متوجهاً إلى كتانيا، فوجدها منيعة ومتحصنة، فعاد أدراجه خشية إراقة دماء المسلمين. وهذا ما نقرؤه عند ابن الأثير؛ ومن غير المحتمل أن تكون كتانيا فى ذلك الوقت قد أصبحت مستوطنة إسلامية، بل إن عملية الاستيلاء على قلعة آشى القريبة فى عام ٩٠٢، والتى كانت فى قبضة المسيحيين، تجعلنا نفترض أنهم كانوا أيضاً أعيان كتانيا وسادتها.

ويجب علىَّ أن آتى بشهادات على تلك الغزوة التى غزاها عبد الله، بعد تدميره لأسوار مسينا. فابن الأثير يكتب تحت عام ٢٦١، ترجمة إبراهيم بن أحمد يقول إنه عقد العزم على الحج والجهاد، فذهب إلى مدينة سوسة فى عام ٢٨٩هـ (٩٠٢م) «ومنها مرَّ على متن سفنه بصقلية، وعسكر فى ديمونه. وبعد حصارها لمدة سبعة عشر يوماً، انطلق إلى مسينا، وعبر إلى ريجو، حيث تجمع بها خلق كثير من الروم. فقاتلهم عند أبواب المدينة؛ وشتت جموعهم؛ واستولى على ريجو، وهو ممسك بسيف بيده، وذلك فى شهر رجب. وبعد أن خربها واغتنمها، عاد إلى مسينا التى «حطم أسوارها؛ وعندما وجد فى الميناء السفن التى وصلت من القسطنطينية، استولى على ثلاثين منها. وبعد ذلك توجه إلى نيرتينو (بارليبو.. إلخ)، وتسيّد عليها فى أواخر شهر رجب. وضرب المثل فى العدل وحسن السيرة تجاه الرعية. وبعد ذلك توجه إلى تاورمينا .. إلخ». ويستمر فى سرد عملية الاستيلاء على هذه المدينة التى سقطت فى عام ٩٠٢. والفقرة التى ذكرتها بين «...» هى تلخيص دقيق ونقل فى بعض المواضع ضم أعمال عبد الله التى قام بها فى عام ٩٠١، والموجودة تحت عام ٢٨٧؛ إلا أن تحت هذا التاريخ لا يوجد ذكر لعملية نيريتنو. الواضح إذن إن ابن الأثير، أو الناسخ، كرر فى الحرب التى خاضها إبراهيم العديد من الوقائع التى حدثت فى الحــرب التى خــاضها عبد الله فى الســنة الســابقة.

الحقيقية. وعلاوة على هذه الكلمات التى تنم عن الغضب نجد أقوالاً متضاربة ومتباينة مثل: أن عبد الله هرع سراً وخفية إلى البلاط بسبب ذيوع خبر كاذب حول وفاة أبيه؛ وإن إبراهيم، عندما رآه بجواره، فبدلاً من أن يقسو عليه ويعنفه، تنازل له عن الحكم ووضع فى أصبعه خاتمه(1).

وهكذا فمن الحكايات الخيالية نتبين الحقيقة ونعرفها. فالحقيقة، كما جاءت فى أحد الأخبار العربية، هى أن مسلمى تونس استنجدوا بالخليفة العباسى المعتضد بالله ليخلصهم من الفظائع التى يتعرضون لها، وأظهروا له أن بعض السبايا اللاتى أرسلهن إبراهيم هدية له، ماهنَّ إلا زوجاتهم وبناتهم، فارتعد المعتضد فرقاً وتذكر أنه الخليفة الدينى والحاكم الدنيوى لهذه الأمة. ومن ثم جعل، لأول مرة منذ قرن من الزمان، إرادة الخليفة وأوامره مسموعة فى أفريقية. فقد أعرب عنها بإرسال رسول من قبله، إلى إبراهيم الذى أراد مقابلته مقابلة فيها حفاوة وتكرمة،

وأقول إن هذا واضح فى حصار ديمونه، والنصر على ريچو، والاستيلاء على السفن اليونانية فى مسينا، ودكٌ أسوار هذه المدينة وتدميرها. وقد يكون ممكناً بالنسبة لاحتلال نيرتينو.

وهذا لأن ابن خلدون، الذى قام بتلخيص حوليات ابن الأثير، وأخبار أخرى أقدم، بعد كل العمليات التى قام بها عبد الله كما رويناها، وصولاً إلى تدمير أسوار مسينا، يستمر قائلاً: «ثم عبر إلى المكان القريب فى إيطاليا (هكذا جاءت التسمية عدوة الروم)؛ وتقاتل مع شعوب الفرنجة الآتين من وراء البحار، وعاد إلى صقلية». إذن المدينة التى نقرأ اسمها بشكل خاطئ عند ابن الأثير، يبدو أنها كانت تقع فى المنطقة التى يُطلق عليها بشكل مُبهم عدوة الروم، والتى لا يمكن أن يكون المقصود بها الواقعة فى مضيق مسينا فقط، ولكن على طول الساحل الذى يشرف على صقلية، هذا إذا ما تذكرنا قيمة التسمية المماثلة وهى بر العدوة فى أفريقية. والفرنجة الذين هزمهم عبد الله لا يمكن إلا أن يكونوا أتباع دوقات اسبوليتو وكاميرينو استعملهم ليونى السابينتى بماله. وفى واقع الأمر نستنتج من ذلك أنه فى عام ٩٠٤ قد أرسل الأموال للفرنجة لمؤازرة الجيش المتوجه إلى صقلية لمحاربتهم. انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب، ص ٩٠ وص ٩٢.

(1) چوهانس دياكونس نابوليتانوس، الموضع المذكور.

وكان يكبح ما فى نفسه من غطرسة وتجبر بجهد جهيد، لدرجة أنه أصيب بداء المرارة، فاضطر للتوقف عند السبخة، وهى بركة ماؤها أجاج بتونس. وعندما تقابل خفية مع الرسول، وعد بطاعة أوامر الخليفة، الذى أمره، على لسان رسوله ودون أمر مكتوب منه، بترك الحكم لابنه عبد الله وبالمثول بشخصه أمامه فى بغداد(1). وسوف نفهم بشكل أفضل كثيراً من الاتضاع الذى تحلى به إبراهيم، إذا ما وضعنا فى الاعتبار أنه كان يشعر بزعزعة عرش الأغالبة وقرب انهياره. إذ ثمة فرق سياسية كثيرة كانت تتخفى تحت التيوقراطية الإسلامية، وتعلقت فرقة منها بقبيلة كتامة البربرية قوية الشكيمة وانضمت إليها، وثارت وأعلنت عصيانها علناً، مهددة بذلك إمارة أفريقية والخلافة على حد سواء. ففى أفريقية كان يوجد العرب والبربر، المهتدون والمنشقون، الوجهاء الذين أهانهم التعذيب وعامة الناس الذين انتزعت أموالهم بذريعة إقامة العدل لهم ضد وجوه البلد، وكانوا جميعاً وبصوت واحد يلعنون الفاسق، كما كانوا ينعتونه بهذا النعت الذى اشتهر به(2). وكان الخطر الأكبر يأتيه من مصر، من أسرة بنى طولون، ذوى الحول والطول بثروتهم وجسارتهم، وبمصاهرتهم

---

(1) النويرى، **تاريخ افريقية**، مخطوطة باريس *A* ٧٠٢، الورقة ٥٣ الوجه الثانى؛ وترجمة م. دى سلان، فى حاشيته على ابن خلدون *Histoire des Berbères*، المجلد الأول، ص ٤٣١؛ وابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ترجمة دى ڤرچيه، ص ١٣٨ وص ١٣٩. لاحظ أن م. دى سلان. قد أغفل الفقرة التى ذكر فيها النويرى المرض الذى أصاب إبراهيم فى تلك الفترة. وفيما ورد فى الأثر، يبدو أن النويرى قد استقى هذه الفقرة من ابن رقيق؛ وكذلك من ابن خلدون الذى يشهد بذلك صراحة. ومن الصحيح أن ابن الأبار، فى مخطوطة الجمعية الآسيوية بباريس، الورقة ٣٣ الوجه الأول، يقول إنه قرأ فى **تاريخ** ابن رقيق، أن المعتضد هدد بعزل إبراهيم واستبداله، ليس بابنه، بل بابن عمه محمد، ولكن هذا يجب أن يُفهم على أنه حدث مختلف وقع بالفعل عام ٨٩٦، قبل مقتل محمد المذكور، والذى تحدثنا عنه فى الفصل السابق، ص ٥٩.

ويجب أن أنبه إلى أن الأستاذ فلايشر يشير إلى بديل فى نص النويرى فبدلا من «داء المرارة» يرى ضرورة ترجمتها إلى «تقدم نحوه برداء أسود». **المكتبة العربية الصقلية**، النص، ص ٤٥١، والمقدمة، ص ٦٣. ولكن هذا العالم المستشرق غير متيقن من هذا، وكذلك أنا.

(2) الفاسق. ونقرأ هذا اللقب عند ابن الأثير، المصدر نفسه، ورقة ٣٢ الوجه الثانى.

للخليفة، وهم مغتصبون للعرش، ولكى يحصلوا على مزيد من المغانم جعلوا من أنفسهم حماة للشريعة. ومن ثم فعندما داهمته حرب أهلية جديدة، شديدة التعقيد، ورهيبة للغاية، حيث لا أمل له فى الخروج منها منتصراً، قام باصلاح الحكومة وتنازل عن العرش، متظاهراً بالطاعة للخليفة. ومن الجدير بالملاحظة أن مؤرخاً آخر، قام كتاب **البيان** بالنقل عنه أو باختصاره، دون أن يذكر بكلمة واحدة الرسالة التى بعث بها للمعتضد، ينسب مباشرة الاصلاحات التى قام بها إبراهيم للقلاقل والاضطرابات التى وقعت من قبيلة كتامة، ويقول إنه حينئذ أراد أن يستحوذ على رضا الجميع، وأن يكسب من جديد نفوس أنصاره القدامى المناصرين لبنى الأغلب(1).

وأطلق اسم عام العدل على سنة تسع وثمانين ومائتين للهجرة (١٦ ديسمبر ٩٠١ إلى ٤ ديسمبر ٩٠٢)، والذى ابتدأ بهذه الاصلاحات؛ فألغى المكوس؛ وألغى المستحدثات فى تحصيل العشور(2)؛ وأعفى المزارعين من ضريبة الأطيان لمدة عام؛ وأطلق سراح السجناء؛ وعتق عبيده؛ وأخذ من بيت المال أموالاً ضخمة وأعطاها لفقهاء وأعيان القيروان لتوزيعها على المحتاجين؛ ويضيف أحد المؤرخين أنه ما أن حصل عليها أولئك الذين لا يستحقونها تماماً، حتى تبددت الأموال وذهبت سدى(3). وبهذا وبكل مروءة وشهامة كتب إلى عبد الله بالمجئ إلى أفريقية؛ فترك الجيش فى بالرمو لابنيه أبى مُضر وأبى معد، وسافر على وجه السرعة فى خمس سفن فقط(4). وما أن وصل فى شهر ربيع الأول (١٣ فبراير إلى ١٤ مارس ٩٠٢)، حتى

---

(1) **البيان**، المجلد الأول، ص ١٢٥ وص ١٢٦.

(2) انظر الفصل الثانى من هذا الكتاب الملحوظة رقم ٢ ص ٥٤.

(3) قارن بين: **البيان**، الكتاب المذكور؛ والنويرى، **تاريخ افريقية**، فى المصدر نفسه، ص ٤٣٢.

(4) ابن الأثير، عام ٢٨٧، المخطوطة A، المجلد الثانى، الورقة ١٦٧ الوجه الثانى؛ ومخطوط بيبرس، الورقة ١٢٣ الوجه الأول وما بعدها

قام إبراهيم بتسليمه الإمارة. وبما أنه لم يستطع البقاء فى أفريقية ولم يرد الذهاب إلى بغداد، فقد كتب إلى الخليفة قائلاً إنه اعتزم الحج إلى مكة. ثم ادعى أنه من الضرورى المرور بمصر، وأنه لا يمكنه ذلك دونما التشاجر مع بنى طولون؛ ولذا أرسل إلى بغداد رسالة أخرى يقول فيها: إنه لتجنب إراقة دماء المسلمين يرى أنه نادم على ما اقترف، ولذا فلكى يقوم بفريضة الحج والجهاد، فإنه سيسلك طريق صقلية(1). ومن المرجح أنه كان يعتمل فى نفسه هدف يتسم بالجنون، وهو الذهاب إلى مكة ماراً بأراضى المسيحيين، والبوسفور وآسيا الصغرى، إذ أنه لم يتنازل لابنه عن إمارة صقلية، ومن المؤكد أنه فكر فى فتح إيطاليا والاستيلاء عليها؛ وفى إيطاليا تحدث عن فتح القسطنطينية(2). أيا كان إبراهيم هذا، فبعد نزوله عن العرش، بدا أنه أصبح انساناً آخر. فعندما ظهرت إلى حيز النور كنوزه وأسلحته، ارتدى على غرار الزهاد والنساك ثوباً مُرتقا؛ وذهب إلى سوسة ليعلن الجهاد، ومنها فى يوم ١٦ ربيع الثانى (٣٠ مارس) ارتحل إلى النوبا، وهى قلعة تقع على ساحل البحر بين سوسة وإكليبيا (كليبيا)؛ حيث استعرض المتطوعين وتفقدهم؛ وزودهم بالسلاح والخيل؛ وأعطى كل فارس عشرين ديناراً وكل رجل عشرة دنانير؛ وأبحر معهم إلى صقلية(3).

---

(1) قارن بين: النويرى، الموضع المذكور؛ وابن الأثير، عام ٢٦١، المخطوطة A، المجلد الثانى، الورقة ٩٢ الوجه الأول؛ والمخطوطةC، المجلد الرابع، الورقة ٢٤٦ الوجه الثانى؛ **والبيان**، المجلد الأول، ص ١٢٦.

(2) چوهانس دياكونس، *Translatio Corporis Sancti Severini*، فى جايتانى، *Vitæ Sanctorum Siculorum* ، المجلد الثانى، ص ٦٢، وفى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص ٢٦٩ وما بعدها.

(3) ابن الأثير والنويرى، الموضعان المذكوران. وفى ترجمة م. دى سلان نجد أن تاريخ السفر إلى نوبا قد كُتب بسبب خطأ مطبعى بدلاً من يوم ١٦ وضع يوم ٢٢ ربيع الآخر، الذى قد يوافق يوم ٥ إبريل.

الفصل الرابع

ووجد الطاغية التائب العفو وكذلك الأتباع والأنصار فى صقلية. وما أن وصل إلى ترابانى(1) فى أواخر شهر مايو(2)، حتى شرع فى جمع الناس من حوله: وبعد ذلك سار متوجهاً إلى بالرمو؛ ووصل إليها فى الثامن من شهر يولية، ولكن فيما يبدو أنه لم يدخل المدينة(3). وعلى أية حال كان يأمر وينهى كملك بالرغم من تنازله عن العرش، وقد أقام إبراهيم فى بالرمو محكمة المظالم؛ وعين آخرين لتولى رئاستها؛ وبما أنه كان، بكل جوانحه وجسده عاقداً العزم على خوض الجهاد، قام بتجنيد البحارة المرتزقة، وإجزال العطاء للفرسان؛ حتى إنه كون من بين الإفريقيين الذين كانوا يرافقونه ومسلمى صقلية الذين جندهم جيشاً شديد البأس والمراس. وفى يوم السابع عشر من شهر يولية تحرك بهذا الجيش مهاجماً تاورمينا(4).

---

(1) ترابانى بالتأكيد، كما كتب ابن خلدون، وذلك على الرغم من أننا نقرؤها فى نص النويرى طرابلس. وفى الكتب العربية فإن هذين الاسمين غالباً ما يحدث بينهما خلط. ولكن فى هذا المقام فإن نص النويرى لا يدع مجالاً للشك، إذ يؤكد أن إبراهيم أبحر من نوبا إلى تلك المدينة، ومنها سار قاصداً بالرمو.

(2) فى شهر مايو، وذلك حسب أخبار كامبردج الدقيقة للغاية. وطبقاً لحسابات النويرى فإن الوصول ربما قد تم فى النصف الثانى من شهر يونية، حيث إن إبراهيم توقف سبعة عشر يوماً فى ترابانى؛ ولكن هذا الرقم قد يكون غير صحيح، كما أن الرقم الخاص بفترة إقامته فى بالرمو غير صحيح أيضاً.

(3) چوڤانى دياكونو النابوليتانو يقول صراحة إن إبراهيم استنكف وازدرى دخول بالرمو، داراً لإقامته. وعلى العكس من هذا يأتى النويرى بكثير من التفصيلات حتى إنه لا يمكن التشكيك فى ذهابه إليها. والقول بأن إبراهيم لم يمسك بأمور محكمة المظالم، بل أمسكها لآخرين، يجعلنى أفترض أنه ظل خارج المدينة القديمة.

(4) قارن بين: النويرى، **تاريخ افريقية**، مخطوطة باريس ٧٠٢ *A*، ورقة ٥٣ الوجه

ونظراً لموقعها الحصين، وعدد سكانها، وعاداتهم وتقاليدهم، وآثارهم كانت هذه هى حاضرة صقلية البيزنطية، ذات الأماكن الوعرة، أى الواقعة بين إتنا وبيلوريادى، وكان بها فئة قليلة من الرجال يدافعون عن راية الصليب. وبما أن ليونى السابينتى لم يكن فى مقدوره التخلى عنهم دونما خزى وعار يلحق به، فإنه كان يمد لهم يد العون والمساعدة قدر استطاعته؛ أو كما يمكن القول، كان يساعدهم مساعدة قليلة وغريبة ومتأخرة. وما تناهى إلى علمنا على وجه اليقين هو أنه بعد اجتيازه الخطر الكامن فى التجهيزات المعروفة التى أعدها إبراهيم، فإن ليونى وضع جنود أسطوله فى القسطنطينية ليعملوا فى بناء كنيستين وأحد الأديرة الملئ بالخصيان؛ وأرسل إلى تاورمينا حامية عسكرية تحت إمرة قسطنطينو كارامالو(1) وميشيل كاراكتو: قام أولهما بمحاولة فاشلة، أما الثانى، وهو الأقل رتبة، فلم يكن فى مقدوره درء الضرر

الثـــانى؛ وترجمـــة م. دى ســـلان، فى حاشـــيته على ابن خـــلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ترجمة دى ڤرچيه، ص ١٤٢؛ وچوهانس دياكونس نابوليتانوس، *Translatio Corporis Sancti Severini*، فى جايتانى، *Vitæ Sanctorum Siculorum*، المجلد الثانى، ص ٦١. ولا أذكر ابن الأثير لأن النص به تشويه، كما قلت فى الفصل السابق، بهامش ص ٧٤. ويجب أن نضع فى الاعتبار أن ترجمة م. دى سلان فى هذا الشأن للنويرى تبدو أقل صحة وبها بعض الأخطاء المطبعية فى التواريخ، علاوة على خطأ النويرى الذى قال إن إبراهيم وصل إلى بالرمو فى يوم ٢٨ رجب (٨ يوليو) وأقام بها لمدة ١٤ يوم، وغادرها يوم ٧ شعبان (١٧ يوليو). ولم يذكر م. دى سلان هذا التاريخ الأخير، لإدراكه أنه غير صحيح.

(1) اسم قسطنطينو نقرؤه فى حياة القديس إيليا دا كاستروچوڤانى، ونسب إليه لقب النبيل. ويكتب المؤرخون البيزنطيون أنه كان فى تاورمينا، وقت اقتحامها، وكان كارامالو، على مايبدو، رئيساً للحامية العسكرية، على الرغم من أنهم لم يطلقوا عليه لقب نبيل، ولا أى لقب آخر. ولذا أرى أن الأمر يتعلق بشخص واحد اسمه قسطنطينو، ومن عائلة كارامالو. ولا يذكر البيزنطيون رتبة ميشيل كاراكتو، وإنما يقولون إنه اتهم كارامالو بالخسة والخيانة، عندما لاذا كلاهما بالفرار إلى القسطنطينية. ومن هذا فمن المفترض أن كاراكتو كان الثانى فى الرتبة أو كان يتولى قيادة إحدى الفرق المساعدة التى من المفترض أنها قاتلت إبراهيم. ويرى چورچو موناكو أن أوستازيو، قائد الأسطول، قد أرسل إلى تاورمينا أو كُلف بإرسال المدد والعون لها؛ وهذا ما لم

الذى لحق بهما، أو على الأقل أشاع هذا(1). ويحدثنا كاتب تراجم القديسين، فيقول إنه فى الوقت نفسه طلب ليونى من إيليا دا كاستروچوڤانى الصلاة حتى يحفظ الله الإمبراطورية ويسلمها من كل مكروه وسوء، وأن يذهب إلى تاورمينا، لأنه صقلى الأصل، وقداسته ملء الأسماع، وبيانه وفصاحته يتسمان بالتلقائية والعفوية، كما أنه مهيب الهيئة، ومن ثم يصطاد عصفورين بحجر واحد، وهذا ما بدا للبلاط البيزنطى: أى أن يقوم بتشجيع المحاربين؛ وتطهيرهم من الآثام، التى بسببها ساد بين الناس اعتقاد راسـخ ويقينى مؤداه أنها وراء كل هزيمة حلت بالبيزنطيين وجيوشهم. وكان إيليا، البالغ من العمر ثمانين عاماً، مريضاً، يقف بالكاد على قدميه بقوة عزيمته ونفسه، ولذا سار على التو مع دانييلى الأمين المخلص، ووصل من كلابريا إلى صقلية، متظاهراً بالمجئ لتقبيل رفات القديس بانكراتسيو، وهو أول أسقف من أسـاقفة مدينـة تاورمينا. وهنـاك شرع فى القيام بعمله الموكل إليه بكل همة وحماس؛ فواجه المدينة البائسة باقترافها لكل الخطايا والذنوب، وقرَّع قسـطنطينو ووبخه لعدم قدرته على إبعاد جنوده عن ارتكاب جـرائم القتل والاعتداءات، والتجاوزات، والتحلل والتفسخ الأخلاقى الذى أصابهم. ولذا ذكر له إبامينوندا وشبيونى، وهما رجلان اتسـما بدماثة الأخلاق بشكل واضح وجلى، فخجل مسيحيو ذلك الزمان المنحل، كما حدثه عن الزهد والطهر، كفضيلتين أساسيتين يجب أن يتحلى بهما مَنْ يستعد لخوض معامع

يفعله، ولذا عُوقب على ذلك. ولكن يبدو أن المؤرخ افترض وقوع هذا الخطأ من جانب أوستازيو، وخلطه مع جرم آخر اقترفه بكل تأكيد، عندما أرسل لمواجهة أسطول ليونى من طرابلس الشام.

(1) قـارن بين: چورچـوس موناكـوس، *De Leone Basilii filio*، § ٢٥، ص ٨٦١؛ وتتمـة تيوفانس، الكتـاب السـادس، § ١٨، ص ٣٦٥؛ وسـيمون ماچسـتير، *De Leone Basilii filio*، § ٩، ص ٧٠٤؛ وليونس جرامـاتشى، *Chronographia*، ص ٢٧٤.

القتال. وواصل، بطريقته المعتادة المألوفة، نصائحه الحكيمة بكل الطرق والوسائل الحماسية. وتنبأ، ولم يكن هذا رجماً بالغيب، بقرب وصول إبراهيم الأفريقى الباسل المقدام؛ وبالأضرار التى ستلحق بتاورمينا من مذابح، وحرائق. وكان إيليا يرقد طريح الفراش بسبب مرضه فى دار المواطن كريزيونى، فقال لمضيفة: «انظر، هنا على هذا الفراش سيرقد إبراهيم الظافر المنتصر. وكم من المجازر ستلطخ بالدماء هذه الأسوار!». وفى مرة أخرى، بينما كان يسير فى الميدان الكبير، رفع ثيابه إلى ركبتيه، وعندما سُئل عن سبب ذلك أجاب بقوله: «إنى أرى أنهاراً تفيض بالدماء». وبعد ذلك طفق يجوب الطرقات، مرتدياً سرواله(1)، ومتلفحاً بالأغلال بشكل غريب؛ وواضعاً نيراً خشبياً على عنقه: ولم يبق لديه إلا أن يبهر بمنظره هذا الجنود والمواطنين، إذا كانوا يؤمنون حقاً بالمتنبئين الأحياء. وهكذا كانت الديانة البيزنطية تخطئ دائماً فى هدفها ومرماها، فقد أصبح إيليا أضحوكة الناس، وفى آخر احتفال دينى حضره لم يتوان من نفض نعليه من التراب، وخرج من المدينة؛ وبما أن وصول إبراهيم قد أصبح وشيكاً، أبحر متوجهاً إلى أمالفى.

وما أن ظهر العدو، لم يبق المدافعون عن تاورمينا متحصنين داخل أسوار مدينتهم، بل نزلوا، على ما يبدو، إلى ساحل چاردينى، وبرزوا فى معركة حامية الوطيس ضد إبراهيم وجنده؛ ومن المرجح أنهم خاضوا غمارها وأريقت دماء كثيرة من كلا الفريقين؛ وكانت جيوش المسلمين تظهر بغتة، ولكن فكرة الفرار كانت تدور بخلدهم؛ وكانت الرياح تنقل صوت مَنْ كان يقوى من عزيمتهم ويحثهـم على القتال

(1) النص اللاتينى يقـــول: *Quippe lumbare lineum supra lumbos suos ponere*. إذن فالعجوز الطيب، ما أن خلع عباءته حتى ظهر بسرواله فقط لكى يحاكى، على ما أعتقد، هيئة العبيد وشكلهم. *Vitæ Sancti Eliœ Junioris*، فى كتاب جايتانى، *Vitæ Sanctorum Siculorum*، المجلد الثانى، ص ٧٣ وص ٧٤؛ وفى مجموعة كتب بوللانديستى، ٧ أغسطس، ص ٤٧٩ وما بعدها.

بتلاوة آيات من كتابهم الكريم: «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً»(1)، فعندما قذف إبراهيم بنفسه فى أتون المعركة ولهيبها، وتوجه بنظره إلى ذلك المحارب التقى، واستصرخه قائلاً: «لماذا لا تتلو هذه الآيات؟» «هذان خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قُطِّعت لهم ثيابٌ من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم. يُصهر به ما فى بطونهم والجلود»(2). وعندما تلى ذلك الرجل الورع هذه الآيات، صاح إبراهيم قائلاً: «الله أكبر، بك نختصم اليوم أنا والذين كفروا»، وعاود الكر على الأعداء، شاحذاً بذلك حمية الرجال البواسل الشجعان ذوى العزيمة والهمة العالية، فاندفعوا بقوة مزقت شمل العدو وجمعه. وحينئذ لاذ المسيحيون بالفرار اشتاتاً مبعثرين؛ والمسلمون يطاردونهم فوق قمم الجبال الشاهقة، كما تقول أخبار التاريخ، وفى أعماق الأودية السحيقة. وهرب آخرون على متن السفن؛ وقد يكون من بين هؤلاء القائدان البيزنطيان. فى حين لجأ آخرون منهم إلى المدينة: وفى هذا الاضطراب تسلق المنتصرون معهم الجبل ودخلوا المدينة، وتعقبوهم حتى قلعة مولا، كما يُطلق عليها اليوم، وهى قلعة تشرف على سفح تاورمينا من مكان شديد الوعورة والارتفاع، على بعد ميل واحد. وحاول إبراهيم مهاجمتها، فقد كان تواقا لاحداث مذبحة بين الذين نجوا من المعركة واحتموا بداخل القلعة، بينما كانت الفرق الأخرى تتحصن بها وتقاتل قتالاً مستميتاً. فشرع إبراهيم بالدوران حول الساحل، وأخذ ينشر رجاله وجنده فى كل مكان، واكتشف مكاناً بدا له أن رجاله يمكنهم تسلقه بأيديهم وأرجلهم، وفى نشوة الوعود أخرج عبر تلك السفوح والمنحدرات فرقة من جنده الزنوج، الذين تسلقوا القلعة، وباغتوا المحاربين المسيحيين صائحين

(1) **القرآن الكريم**، سورة ٤٨، الآية رقم ١.
(2) **القرآن الكريم**، سورة ٢٢، الآيتان ١٩ ـ ٢٠.

كالرعد فى آذانهم: «الله أكبر». وكان أولئك قد استووا لتناول القليل من الطعام، وكلهم ثقة فى منعة المكان، وكان التعب والاعياء قد حل بهم من جراء ذلك اليوم الدامى؛ وقاموا بنشر الحراس فى الأماكن الأقل منعة والتى لا يمكن الإيلاج منها، أما الأماكن الأخرى الحصينة فتركوها بلا حراس، عندما سمعوا ضجة الحرب من قبل أعدائهم، اضطربوا وتفرقوا ولم يسارعوا بإلقاء الحفنة القليلة من العبيد أسفل الجرف، ولا بالدفاع عن الطريق المؤدى للقلعة. وما أن سمع إبراهيم إشارة جنده، صعد دون أن يلقى مقاومة تذكر ومعه باقى الفرق الأخرى، فحطم أبواب القلعة، وأمر بقتل مَنْ فيها. وكان ذلك يوم الأحد الموافق غرة شهر أغسطس عام اثنين وتسعمائة(1).

وقد استغل إبراهيم هذا النصر المؤزر استغلالاً قاسياً. إذ أمر

(1) قارن بين: ابن الأثير وقائع، عام ٢٦١، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، ورقة ٩٢؛ والمخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٢٤٦ الوجه الثانى؛ ومخطوط بيبرس؛ والنويرى، تاريخ أفريقية، النص فى مخطوطة باريس ٧٠٢، الورقة ٥٣ الوجه الثانى، وترجمة دى سلان، المرجع المذكور، ص ٤٣٢، ص ٤٣٣؛ وابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٤٢؛ *Chronicon*، *Cantabrigiense* فى كتاب دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٤٤؛ ويوهانس دياكونوس فى كتاب جايتانى، *Vitæ Sanctorum Siculorum*، المجلد الثانى، ص ٦١. ولم استشهد بالبيزنطيين لأنهم لم يذكروا تفصيلات هذه الأحداث، ولا تواريخها. وفى أخبار كامبردج فإن الناسخ قد أخطأ فى العام، فبدلاً من أن يكتب سنة كتب ستة، وهذه اللفظة تختلف عن اللفظة الأولى فقط فى نقطة. ومن ثم نجد فيها عام ٦٤١٦ بدلاً من ٦٤١٠، أى ٩٠٨ بدلاً من ٩٠٢. ولكن الشهادات التاريخية الأخرى لم تدع مجالاً للشك حول القراءة الصحيحة؛ ولمعرفتها قد يكفى التقويم فقط، وذلك لأن أخبار كامبردج تذكر صراحة أن تاورمينا تم الاستيلاء عليها يوم الأحد الموافق الأول من شهر أغسطس، وذلك اليوم يوافق يوم الأحد عام ٩٠٢، وليس عام ٩٠٨. واليوم الذى أخذ به ابن الأثير هو يوم ٢٢ من شهر شعبان عام ٢٨٩هـ، الذى يوافق تماماً غرة شهر أغسطس عام ٩٠٢. أما أخبار دير ڤولتورنو فى كتاب موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص ٤١٥، فتشير إلى الاستيلاء على تاورمينا دونما تنويه إلى تاريخ ذلك.

بقتل الرجال القادرين على حمل السلاح، وكذلك النساء، والأطفال، ورجال الدين الذين تحرم الشريعة الإسلامية قتلهم؛ وأضرم النار فى المدينة؛ وتعقب فلول الفارين فى غابات تلك الجبال، وفى داخل الكهوف، وجمع الأسرى إليه، لكى لا يفلت من قبضتة أى إنسان قد يحكم عليه بالموت والإعدام لدواع إنسانية أو لضنى آخرين عليه وهكذا ما أن مثل بين يديه جمع غفير من الأسرى كان من بينهم بروكوبيو، أسقف المدينة، أمر إبراهيم باحضاره إليه وقال له: « إن شعرك الذى اشتعل شيباً يجعلنى أخاطبك بوداعة ودعة. وإذا أضفى عليك هذا الشعر الأبيض حكمة، فلعلك تنكر إيمانك المسيحى؛ وبذلك تنجو بحياتك وحياة هؤلاء الأسرى؛ وسأمنحك هذه الرتبة فستكون الرجل الثانى بعدى أنا وحدى فى صقلية». فتبسم بروكوبيو دون أن ينبس ببنت شفة؛ فلاحقه إبراهيم قائلاً: «ألا تعرف مَنْ يخاطبك؟» فأجاب الأسقف: «بلى، إنه الشيطان يتحدث بلسانك، ولذا ابتسم». فعندئذ اتجه إبراهيم إلى جنوده وأمرهم صائحاً: «شجوا صدره، وأخرجوا قلبه، لأننى أود أن أبحث فيه عن أسرار هذه العقلية المتغطرسة». وهذه الكلمات هى اللغة التى اصطبغ بها إبراهيم. وسيق القديس الكهل للتعذيب، فكان يلعن الطاغية العسوف، كما كان فى مقدوره التلفظ بكلمات، محفزاً رفقائه على الاستشهاد ومشجعاً لهم على ذلك. ويضيف جوڤانى دياكونو، كاتب ومؤرخ هذه الأحداث، أن إبراهيم استشاط غضباً من هذا الثبات والرسوخ على العقيدة، فكشر عن أنيابه، ووصل به الأمر أن طلب من جنوده إعطاءه قلب ذلك القديس ليأكله؛ وإذا لم يكن قد نفذ هذه الفظاعة، فقد قتل باقى الأسرى ووضعهم فوق جثة الأسقف وأحرقهم جميعاً. وفى النهاية نهض واقفاً وهو يتمتم ويغمغم بهذه الكلمات: «هكذا يكون مصير مَنْ يقاومنى ويتصدى لى»(1).

(1) جوهانس دياكونس، الموضع المذكور. وهذا مقارب للحقيقة والواقع ولذا لم أنح

وبسقوط تاورمينا كانت عملية إخضاع باقى وادى ديمونى سهلة يسيرة. وبعد أن باع إبراهيم الأسرى والأسلاب وقسم أثمانها على أتباعه وجنوده، أرسل أربع فرق قوية؛ واحدة منها تحت إمرة حفيده زيادة الله إلى ميكو أو ڤيكو، وهى قلعة حصينة تقع داخل اليابسة، ولا تبعد، على ما أعتقد، عن كابوا سكاليتّا(1)؛ والأخرى بقيادة ابنه أبو الأغلب لمهاجمة ديمونا(2)؛ والثالثة بقيادة ابنه الآخر أبو حُجر(3) للاستيلاء على راميتا؛ والأخيرة بقيادة رجل

جانباً تلك المفاخرة بأكل لحوم البشر التى من المرجح أن إبراهيم لم تكن لديه النية لتناولها. وفى كتاب **البيان**، المجلد الأول، ص ١٢٣، نقرأ إنه فى عام ٢٨٣هـ (٨٩٦م) قام بقتل خمسة عشر شخصاً فى تورجا الواقعة فى ولاية طرابلس الحالية، وطهى رءوسهم، كما لو كان يريد تقديمها فى وليمة من الولائم، مما كان سبباً فى افتراق جانب كبير من جيشه. وفى مخطوطة محفوظة فى مكتبة بامبرج، يرجع تاريخها إلى القرن الحادى عشر، استشهد بها بيرتز فى كتابه، *Scriptores*، المجلد الثالث، ص ٥٤٨، فى هامش *Cronica Salernitana*، يشير المخطوط إلى استشهاد القديس بروكوبيو، ومن الواضح ايجازه للرواية التى سردها يوحنا الشماس وتغييره لها.

(1) فى مختلف مخطوطات ابن الأثير، وابن خلدون، والنويرى يُقرأ هذا الاسم هكذا بيكيسك، وبينفيسك، وتيفيسك، ومينيسك، وميليس، وأحياناً يُكتب بدون نقاط تحت أو فوق الحروف. ويضع الإدريسى بين ميسينا وتاورمينا، فى مكان وعر وجبلى على بعد ١٥ ميلاً تجاه الجنوب من مونفورت، أرضاً تسمى ميكوسك، ميكوس، مينيس، وذلك حسب مختلف المخطوطات. ولم أجد اليوم أسماءً مشابهه لذلك؛ ولكن المكان يقع بين كابو دى اسكاليتَّا وجبل اسكوديرى: سواء ارتاليا، أو بوتسولو العليا، أو چامبليرى.. إلخ. ويبدو أن القلعة لم يتبق منها شئ حتى فى زمن الإدريسى. ويبدو لى أن الاسم لاتينى أو إغريقى الأصل وهو ڤيكوس *Vicus*، Μῦχος Μηχὰς أو أيضاً نيكوس، Νῖκος. وكلمة ماندانيتشى التى من المرجح إطلاقها على هذا الاسم الأخير المضاف إلى كلمة Μάνδρα، لم تتوافق على ما يبدو مع المسافة المذكورة من مونفورتى، والتى قد تكون غير صحيحة وخاطئة فى مخطوط الإدريسى.

(2) انظر الهامش رقم ٤ ص٥٢٣ من المجلد الأول، الكتاب الثانى، الفصل الثانى عشر، بخصوص مكان قلعة ديمونا.

(3) يُنطق حُدچر بالفرنسية، وحُچر بالإنجليزية. ولم أكتبة حجر لأنه قد يعطى صوتاً ومعنى مختلفاً.

يُدعى سعدون الحلوى لمهاجمة قلعة آتشى(1). ومن هذه المواقع الأربعة، فإن الموقعين الأولين قد أخلاهما سكانهما إذ رحلوا عن ديارهم بمجرد سماع أخبار سقوط تاورمينا، وجلبا فقط للمسلمين تلك الأشياء القليلة التى تبقت بعد رحيل قاطنيها. وعرض قاطنو راميتّا دفع الجزية؛ ولكن لم يوافق أبو حُجر على ذلك وطلب منهم ترك الحصن والرحيل عنه؛ وبمجرد الاستيلاء عليـــه، عاث فيه خراباً بكل ما أوتى من قوة. وحدث الشئ نفســـه لقاطنى آتشى وساكنى القلاع والحصون الواقعة فى أرباض المدينة، الذين اتفقوا على طلب الأمان والصلح، فلم يحصــلوا إلا على النجـــاة والفوز بحيـــاتهم، أو ربمـــا عدم وقوعهم فى الأســـــر والرق؛ وما أن خرجوا من خلف أســـوار معاقلهم التى دافعوا عنهـا امداً طويلاً وبكل عزة واعتزاز، حتى رأوا أعداءهم يخربونها ويحطمونها ويقذفون بأحجارها فى اليم(2). وحول المذبحة التى وقعت فى تاورمينا كتب

---

(1) بالتأكيد الياچى، بالرغم من أن بعض المخطوطات تحمل الباچى، والتاچى، وبتغيير بعض نقاط الحروف، ومخطوط آخر يقدم الحروف بدون تنقيط. ويكتبها الإدريسى لياچى، كما نقرأ هنا فى أفضل المخطوطات، ولذا يجب علينا فى المخطوطات الأخرى إضافة نقطة أخرى لحرف (الباء) وتعديله إلى حرف (الياء)، لتصبح لياج أو لياچ بدلاً من لباج التى نُقلت نقلاً حرفياً. والاختلاف فى كتابة الحروف بين الإدريسى والمذكرات السابقة عليه بالتأكيد، والتى صنف عنها ومنها ابن الأثير، تجعلنا نفطن إلى ملاحظة فيلولوچية (خاصة بفقه اللغة). ففى القرن العاشر، الذى تنسب إليه هذه المذكرات، فإن اسم اكسيس Αχις، وآتشيس *Acis*، كان الناس ينطقونه كما ينطقة الصقليون اليوم باتشى، حيث يبدأ بحرف حركة مخفف مثلما نبَّهت بالنسبة ل إنّا بحيث كان يكتبة العرب بأداة التعريف الخاصة بهم أل (الألف واللام)؛ ومن المرجح أن الإغريق كانوا ينطقونة مستخدمين أيضاً أداة التعريف. وفى النصف الأول من القرن الثانى عشر، الذى عاش فيه الإدريسى، كان الناس ينطقونه لي آتشى، باستخدام أداة التعريف الإيطالية، ولهذا يمكن إضافة هذا إلى الأدلة الأخرى على أن لغتنا الإيطالية كان الناس يتحدثون بها فى صقلية آنذاك.

(2) قارن بين: ابن الأثير، وابن خلدون، والنويرى، فى المواضع المذكورة. والحكاية التى يسردها النويرى، والتى يفصلها فى هذا الموضع أكثر من غيره، تقول بأنه بعد الحديث عن بيكو، وديمينا وراميتّا: «أرسلت لمهاجمة آتشى، فرقة أخرى، تحت إمرة سعدون

بيترو دياكونو، وهو راهب من كاسّينو، عاش فى القرن الثانى عشر الميلادى، رواية ملفقة اختلقها اختلاقاً وقد أشرنا إليها فى الكتاب الأول؛ وفى هذه الرواية يؤكد الراهب أن مدينة چرچنتى، وكتانيا، وترابانى، وبارتينيكو، وإيكّارا، والمدن التى دُمرت قبل ميلاد المسيح بعدة قرون وهى تيندارو، وسيچستا، كانت جميعها مدناً وأملاكاً تابعة لدير مونتى كاسينو، وذلك عندما نزلت من بابل وأفريقية أعداد عديدة من السراشين تحت إمرة إبراهيم لنهب تلك الضياع الثرية وقتل الآلاف من الرهبان الذين كانت فى حوزتهم(1).

وعندما وصلت إلى القسطنطينية أنباء تاورمينا المشئومة، حزن

الجلوى. وتوجه جميع السكان معاً إليه، وعرضوا دفع الجزية؛ ولكنه لم يقبل بذلك، ولم يرد إلا خروجهم من معاقلهم. حينئذ خرجوا: فدمر كل حصونهم وقلاعهم، وقذف بأحجارها فى اليم».

وهذه الفقرة تثبت أن آتشى، فى بداية القرن العاشر، كانت تضم العديد من القلاع؛ أو أن آتشى كانت حاضرة لتلك الحصون المتناثرة على الجانب الشرقى لجبل إتنا. وبين هذين الطرحين، أميل للطرح الأول: لأنه فى زمن الإدريسى، يبدو أن اسم آتشى كان يُذكر فى الجمع، كما قلت ذلك فى الهامش السابق؛ وحالياً توجد حوالى سبع بلديات تحمل نفس الاسم وتبعد قليلاً الواحدة عن الأخرى. ولست أدرى أيها كان الحصن الرئيسى فى عام ٩٠٢ . فربما كانت قلعة آتشى هى القلعة الرئيسة وهى فوق الصخور البازلتية، الممتدة فى البحر، قبالة صخور شيكلوبى البحرية أو فاراليونى، كما يُطلق عليها الآن: وجزر آتشى التى ذكرها الإدريسى وقلعة آتشى ذائعة الصيت فى حروب الأنجونيين ضدالأراجونيين. ومن المحتمل أن موضع القلعة الرئيسية كان بالقرب من «رأس الطواحين» «كابو دىى مولينى» حيث توجد فى هذا المكان آثار قديمة للغاية؛ أو فى مكان آتشى ريالى الحالية، التى يُطلق عليها باتانة، والذى به بقايا بناية رومانية أو بيزنطية، وعثر فى هذا المكان أثناء إجراء الحفريات الأثرية على حجر ضخم من الأحجار البركانية، مكتوب عليه بأحرف متشابكة الشعار المعروف «النصر ليسوع المسيح». وهذا الشعار كان من المعتاد وضعه على الحصون وفوق الرايات البيزنطية. انظر فى الآثار التى ذكرناها ليوناردو ڤيجو فى مبحثه العلمى، أخبار عن آتشى ريالى التاريخية، *Notizie storiche d'Aci Reale*، الفصل الثانى.

(1) انظر الكتاب الأول، الفصل الرابع، ص ١٧٦ وما بعدها، والملحوظة رقم ١ بالصفحة ١٧٩وهذه الحكاية عن إبراهيم قالها فقط بيترو دياكونو. وتوجد مخطوطة بمكتبة مونتى كاســينو؛ كمـــا نستخلص هذا من القـــائمة الموجودة والملحقة بمبحث بيترو دياكونو، *De Viris illustribus Cassin*؛ وفى كتاب موراتورى،

الإمبراطور ليونى وتألم لذلك أيما حزن وألم، هذا ما تقوله أخبار المسلمين. ورفض أن يضع التاج على رأسه لمدة سبعة أيام، قائلاً إنه لا يليق برجل حزين ومكتئب مثله. وتستمر أخبار المسلمين فى السرد وتضيف أنه ظهرت فكرة كريمة بين جموع الناس لمد يد العون والمساعدة لمسيحيى صقلية؛ ولكن تراجعت هذه الفكرة بسبب إشاعة مؤداها أن إبراهيم يعد العدة لمهاجمة القسطنطينية ذاتها؛ ولذا قام ليونى بتقوية حاضرة دولته بجيش رابط فيها وذلك بالإضافة إلى تجهيزه فرقاً قوية لإرسالها إلى صقلية(1). والحقيقة هى أنه أراد إرسال الأموال إلى كلابريا لتجنيد الناس وتجنيد الاقطاعيين من اللونجوبارد والفرنجة حتى ينتقلوا إلى صقلية. ونستخلص هذا ونستنتجه من المذكرات البيزنطية التى تتوافق مع مثيلاتها الإسلامية فى عرض مشاعر الناس، وإن لم يكن فى عرض الأحداث. وقد حكم ليونى على القائد كارمالو بالإعدام بتهمة الجبن أو لخيانته فى تاورمينا، وإزاء توسلات بطريرك القسطنطينية، أمر بوقف تنفيذ عقوبة الإعدام واستبدالها بدخوله الرهبنة، التى تنطوى على تدرج غريب فى العقوبات فى عصر كانت حياة الرهبنة فيه، تشبه بحياة الملائكة، وكانت تُعد ذروة الكمال المسيحى(2)! وفى حقيقة الأمر إن الناس فى

Rerum Italicarum Scriptores، المجلد السادس. وقد قام جايتانى بنشره فى كتاب، *Vitæ Sanctorum Siculorum*، المجلد الأول، ص ١٨١ وما بعدها، وبه ملحوظات تدين بعض الاختلاقات والتلفيقات وتبين بجلاء التناقضات المعيبة الموجودة فى سرد الواقعة التى صنفها، كما يقول بيترو دياكونو، حول العلوم الكونية لتيوفانى، و«التسلسل الزمنى للباباوات الرومانيين».

(1) ابن الأثير وقائع عام ٢٦١، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ٩٢ وما بعدها؛ والمخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٢٤٦ الوجه الثانى.

(2) چورچوس موناكوس فى كتابه، *De Leone Basilii Filio*، § ٢٥، ص٨٦٠ – ٨٦١؛ وليو جراماتيكوس فى كتابه، *Chronographia*، ص ٢٧٤، يقولان صراحة ودون مواربة بالحكم بالإعدام، بسبب واقعة تاورمينا، على كارامالو واوستازيو، قائد

القسطنطينية كانوا يخشون مهاجمتها وغزوها، سواء من جانب إبراهيم ذاته الذى كان يهدد بذلك(1)، أم من جانب ليونى المارق من طرابلس الشام، والذى أعد أربع وخمسين سفينة، وجهزها وزودها بالسلاح فى سورية نفسها وفى مصر، وأمدها بالسلافيين، وكان ذلك فى بداية صيف عام ٩٠٤، وأعطى إشارة البدء لمهاجمة حاضرة البيزنطيين، وجعل اثنين من قواده يغيرون وجهتها، وهاجم هو تسالونيكى، ودخلها بعد ثلاثة أيام من حصارها فى ٣١ من شهر يولية(2). وباحتلال هذة المدينة تروى واقعة تشهد على حرص ليونى

الأسطول، ويذكران اسم الديرين المختلفين اللذين أرسلا إليهما بعد تعديل العقوبة. وبالرغم من ذلك فإن چورچو موناكو فى § ، ٢٩ يحكى الغزوة التى قام بها ليونى الطرابلسى والتى وقعت بعد عامين، ويقول بأن اوستازيو أُرسل إليها ومعه كل القوى البحرية، وعاد ليقول إنه لم يجد العدو. ويبدو إذن أن العقوبة قد لحقت به بعد هذا الحدث الثانى، ولكن ليس غريباً، إذ أن الأمر يتعلق بالبلاط البيزنطى، أن يكون قد أخرج اوستازيو بعد التجربة الأولى من الدير ليسند إليه ويكلفه مرة أخرى بمهمة قيادة الأسطول ومصير الإمبراطورية.

(1) چوهانيس، دياكون نابولي ، .*Tronsaltio etc* في كتاب جايتاني، *Vitæ Sanctorum* المجلد الثاني ص ٦٢.

(2) چوهانس كاميناتا فى كتابه، *De Exidio Thessolonicìensi*، يحكى بالضبط كل الدقائق والتفاصيل التى كان شاهد عيان عليها؛ ويذكر من بين ما يذكر فى § ١٨، ص ٥١٢، أصول الجند الذين كانوا تحت قيادة ليونى المارق. ومن ثم فإن رامبولدى أخطأ خطأً فادحاً فى **حوليات المسلمين**، عندما كتب فى عام ٩٠٢ أن «المسلمين الأغالبة، جهزوا أسطولاً فى أفريقية وفى صقلية، واستولوا على لينّو، وهددوا القسطنطينية، وكانوا تحت قيادة ليونى الطرابلسى». وقد وقع فى الخطأ نفسه ماراتوانا فى كتابه، *Notizie dei Saraceni Siciliani*، المجلد الأول، الفصل الثانى، ص ٦٩؛ والهامش ٨٨، ص ٢٠؛ وأعتبر الأحداث التى وقعت فى لينّو وتسالونيكى من بين جلائل الأعمال التى قام بها سراسنة صقلية، وخدعه إيجاز تشيدرينو، الذى أعتقد أن تارومينا وجزيرة لينّو تم الاستيلاء عليهما فى العملية نفسها. والحقيقة أن لينّو تم فتحها من جانب مسلمى تشيليشا، الذين كانوا تحت إمرة مارق آخر يُدعى داميانو، وحدث ذلك فى عام ٩٠٣؛ كما يستشف من المصادر المؤكدة التى استشهد بها *Le Beau* وذكرها فى كتابه، *Histoire du Bas Empire*، الكتاب ٧٢، § ٣١؛ وعلى وجه الخصوص سيمون ماچستير فى كتابه، *De Leone Basilii Filio*، § ٩ و١٠، ص ٧٠٤، والذى يذكر أن عمليتى غزو تاورمينا ولينّو وقعتا فى عامين مختلفين. وبالإضافة إلى چوڤانى كاميناتا انظر بخصوص الاستيلاء على تسالونيكى، *Theophanes Continuatus*، الكتاب السادس، الفصل العشرين، ص ٣٦٦ وما بعدها؛ وسيمون ماچستير، § ١٣ و١٤، ص ٧٠٥؛ وليو جراماتيكوس، ص ٢٧٧؛ وچورچوس موناكوس، § ٢٠، ص ٨٦٢.

السابينتى على صالح الصقليين، وعلى الطريقة البلهاء التى اقتفيت لتحقيق هذا المأرب. فقد سافر رودوفيلو، وهو خصى الإمبراطور وخادمه الأمين، ومعه مائة رطل ذهباً لتسليمها للجيش الذى كان يجب إرساله إلى صقلية(1)، فتوقف بتسالونيكى لقضاء بعض الأمور والمهام، أو كما كتب آخرون، بسبب داء ألم به فرض عليه التداوى بالحمامات؛ وفى هذه الأثناء انقض على المدينة المسلمون القادمون من سورية ومصر. فقام عندئذ بوضع الكنز فى مكان آمن، وذلك بإرساله واخفائه فى ولاية قريبة؛ ولكنه وقع هو نفسه فى الأسر. عندما دخل ليونى الطرابلسى المدينة، وكان قد بلغه أمر الذهب، طلب منه أن يفضى إليه بمكان الكنز وحكايته، وبما أنه لم يصدق الذرائع التى ساقها، أمر بقتله ضرباً بالعصى. وبعد ذلك حصل على المال بعد أن هدد بإحراق تسالونيكى(2).

---

(1) مائة رطل ذهباً حسبما ذكر چورچو موناكو فى كتابه، تتمة تيوفانى؛ وسيمون ماچستير، الموضعان المذكوران. ويشير چوڤانى كافياتا بشكل مبهم فى البداية إلى مبلغ كبير من المـــال، وبعد ذلك يقول وزنتا ذهب (٥٢،٢/١ كجم)، المصدر نفسه، §، ص ٥٦٩. ويضيف المؤلف الثـــانى أن المال كان لصـــرف رواتب الجند وسد نفقات الجيش بصقلية (τοῦ κατὰ Σικελίαν στρατοῦ), ، ولكن لابد أن نفهم من ذلك أن ثمة فكرة كانت هنـــاك للمـــرور من كلابـــريا إلى صـــقلية. ويقـــول سـيمون ماچســـتير إن المـــائة رطل ذهباً كانت موضـــوعة فى ســـلة صـــغيرة (κανίσκιος) لتوصـــيلها للفـــرنجة. ومما لا شـــك فيه أنهم الفرنجة نفسهم الذين يشير إليهم ابن خلدون، فى عام ٩٠١؛ ومن الجائز أنهم كانوا دوقات مدينة اسبوليتو ومدينة كاميرينو، والذين كانوا فى القرنين التاسع والعاشر قواداً للجند المرتزقة. انظر بعالية ص ٧٣، وص ٧٦.

(2) چوهانس كامنياتا، المرجع المذكور، § ٣٩ و٦٤، ص ٥٦٩ وص ٥٧٦؛ وتيوفانس كونتنواتوس، الكتاب السادس، الفصلين العشرين والحادى والعشرين، ص ٣٦٦ وما بعدها؛ وسيمون ماچســـتير فى كتـــابه، *De Leone Basilii Filio*، § ١٣ و١٤، ص ٧٠٥ وما بعدها؛ وچـــورچوس موناكوس فى كتـــابه، *De Leone Basilii Filio* § ٢٩ و٣٠، ص ٨٦٢ وما بعدها؛ وليو جراماتكوس، ص ٢٧٧. انظـــر أيضـــاً *Le Beau* فى كتـــابه، *Histoire du Bas Empire*، الكتـــاب الثـــــانى والسبعون، § ٣٢ وما بعدها.

ولم تطل فترة إقامة إبراهيم بن أحمد بين أطلال مدينة تاورمينا. فإذا به يجمع جيوشة التى أرسلها لمحاربة الفرق السابق ذكرها، وخرج لمهاجمة ميسينا؛ ومكث مدة يومين فقط؛ ففى يوم السادس والعشرين من شهر رمضان (الموافق الثالث من سبتمبر)، وبين الصلاة، والصوم، والقناديل المضاءة فى الشهر الفضيل، والحماس الدينى المتنامى ولهذا كله، عبر الفنار ومعه كل جيوشه. واجتاز آخر تخوم كلابريا دون أن يلاقى أعداءه؛ فتوقف فى مكان غير بعيد عن مدينة كوزنسا(1)؛ حيث قدمت إلى معسكره وفود المدن الخائنة لطلب الأمان فأمهلهم إبراهيم بضعة أيام؛ ثم قال لهم بغطرسة المنتصر: «ارجعوا إلى ذويكم وقولوا لهم إننى أنا الذى سأهتم بإيطاليا وأدبر أمرها وبأننى سأفعل بسكانها ما يروق لى! أراودهم الأمل فى أن يقاومنى ملك الإغريق أو ملك الفرنجة؟ إذن فلينتظروننى هنا بكل جيوشهم! انتظروا قدومى إلى مدنكم؛ فلتنتظر قدومى روما، وهى مدينة العجوز الهزيل بييرو بجنوده الجرمانيين؛ وبعد ذلك ستحين ساعة القسطنطينية وعليها تدور الدوائر!».

ولذا عاد الرسل مسرعين من حيث أتوا، وشرعوا فى تحصين مدنهم واعدادها لمجابهة الخطر المحدق: فقاموا بترميم أسوارها، وتعلية حصونها، وتخزين المؤن، ووضعوا فى أماكن محصنة ما استطاعوا من أثاث ثمين أو مـــواد غذائيـــة موجـــودة فى الريف. وســـرت حمى الرعب والفـــزع حتى وصـــلت إلى نـــابولى. ومن بين الإجراءات والتدابير، نجد جريجوريو القنصل، وستيفانو الأسقف

---

(1) ابن الأثير، الموضع المذكور؛ والنويرى، **تاريخ افريقية**، مخطوطة باريس، ٧٠٢، *A*، الورقة ٥٣ الوجه الثانى: وترجمة دى سلان الفرنسية، المصدر نفسه، ص ٤٣٣؛ وابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٤٣، يقول إن إبراهيم عاد إلى صقلية، ومات أثناء حصار كوزنسا ولم يكن يعلم أنها موجودة فى كلابريا. والقول بالعودة هو قول خاطئ وقد نشأ ذلك من الخلط بين هذه الغزوة التى غزاها إبراهيم وتلك التى قام بها ابنه فى العام السابق.

ووجوه المدينة وأعيانها يقررون هدم قلعة لوكوللانو وهكذا كانت تسمى هذه القلعة الواقعة فى كابو ميزينو: وهى بناية شيدها ماريو، واشتراها لوكوللو وغمرها بلذائذ الحياة ومسراتها؛ وقد أضحت مرتعاً للمجون والمآثم لأباطرة روما؛ ومعتقلاً مزرياً لأوجو مستلو الذى عاش فيها على معاش أودواكرى (٤٧٩)؛ ثم تحولت إلى دير وضريح للقديس سيڤيرنو (٤٩٦)؛ وقد تم تدعيم أسوارها وتحصينها واستولى عليها المسلمون (فى عام ٨٤٦): وهى تُعد مؤشراً للتتابع الزمنى الحقيقى لثورات المجتمع الإيطالى لمدة تسعة قرون من الزمان. وكان أهالى نابولى - ولهم الحق فى ذلك - يخشون قيام سفن صقلية باحتلال تلك القلاع ومن ثم السيطرة على الملاحة فى الخليج. ولذا عملوا بشكل جماعى لمدة خمسة أيام لهدمها والبحث فى المقابر عن عظام القديس سيڤيرينو التى كانوا يريدون الاحتفاظ بها ووضعها مع باقى كنوز المدينة؛ وسألوا رئيس الدير الذى يحمل اسم القديس سيڤيرينو عنها. وما إن وجدوها، أو هكذا اعتقدوا، حتى أجهش الجميع ببكاء الفرح والبهجة: وفى اليوم التالى الذى وافق الثالث عشر من شهر أكتوبر تم حمل الرفات المقدسة فى موكب دينى مهيب بالمدينة؛ وخرج لحضور هذا الموكب رجال القضاء وأصحاب المناصب العليا، وعامة الناس، ورجال الإكليروس الذين كانوا يترنمون بالمزامير، وكان بعضهم ينشد ويترنم باللغة اليونانية، والبعض الآخر باللغة اللاتينية، إذ كان الناس يتحدثون لغتين فى نابولى. وطيلة أسبوع بكامله كانت النفوس هائجة ومائجة بين هذه الفورة الدينية والأخبار السيئة التى تصل من كلابريا، وغطى عليها الخوف والرهبة، فلم ير أحد من قبل عدداً كبيراً من الشهب الهاوية المتساقطة من السماء مثلما حدث فى ليلة الثامن عشر من أكتوبر كما يقول چوڤانى دياكونو، وفى ليلة

السابع والعشرين من الشهر ذاته كما يقول **البيان**، وحدث هذا أكثر من مرة فى ذلك الفصل من فصول السنة، كما يقول ابن الأبار، الذى يضيف أنها كانت تتساقط يميناً ويساراً مثل قطرات الغيث. وهذه الكويكبات البريئة، أو الشهب المتلألئة، أو مهما يكن كنهها، والتى لم يتوصل العلم لمعرفتها حتى الآن، تحولت فى الحال إلى فأل حسن، لأن القديس سيڤيرينو ظهر فى الحلم، كما هى العادة، لطفل أرسله ليقول لأهالى نابولى بألا يخشوا شيئاً وبأن يثقوا فى أنه يدافع عنهم عند الرب وفى ملكوت السموات(1). وعندما علم الناس بموت إبراهيم، لم يكن أحد فى إيطاليا إلا وآمن إيماناً راسخاً بأن الشهب المتساقطة كانت علامة وإشارة على موته. وقال ألمانى، أكثر خبثاً ودهاءً، بأن هذه الظاهرة، إذ لم تُشاهد

---

(1) يقول چوڤانى دياكونو، وهو شاهد عيان ومصنف هذه الرواية، إن هدم قلعة لوكوللو حدث فى يوم ١٢ *(IV idus)* من شهر أكتوبر؛ وأن رفات القديس سيڤيرينو قد تم نقلها إلى نابولى فى يوم ١٩. أما كتاب **البيان**، المجلد الأول، ص ١٢٦ - ١٢٧، فيعزو هذا الحدث ليوم ٢٢ من شهر ذى القعدة، أى من غروب شمس يوم ٢٧ إلى غروب شمس يوم ٢٨ من شهر أكتوبر؛ وهذا الكلام جدير بالاعتبار والثقة، ليس فقط للدقة المعتادة فى هذا المصنف، ولكن أيضاً لاعتياد العرب على كتابة الأعداد بالحروف بدلاً من كتابتها بالأرقام. وعلاوة على ذلك فقد يكون الناسخ چوڤانى دياكونو قد كتب السادس بدلاً من السادس عشر أو الخامس عشر وهى الأيام الفاصلة بين العثور على عظام القديس سيڤيرنيو والنجوم المتساقطة. وابن الأبار، مخطوطة الجمعية الأسيوية بباريس، الورقة ٣٣ الوجه الثانى، يجعلنا نقبل ونأخذ بكلا التاريخين، حيث أنه تصور تكرار وقوع هذه الظاهرة لمدة ليال عديدة، ولذا يقول: «فى شهر ذى القعدة من هذا العام توفى إبراهيم بن أحمد؛ ومنذ ذلكً الحين شـوهدت نجوم متسـاقطة تهطل كمـاء الغيث يميناً ويساراً؛ ولذا أطلق على هذا العام عام النجوم». وقد ترجم كوندى هذه الفقرة بشكل غير سليم فى كتابه، *Dominacion de los Arabes en España*، الجـزء الثـانى، الفصل ٧٥.
وقد عكفت طويلاً على دراسة وتمحيص هذا التاريخ، نظراً لأن العلماء يلاحظون هذه الظاهرة فى فترة معينة من كل عام، ولأنها تحدث بشكل مكثف نحو يوم العاشر من شهر أغسطس وفى شهر نوڤمبر. ولنفس الغرض جمع البارون دى هامّر فى، *Journal Asiatique*، المجموعة الثالثة، المجلد الثالث (١٨٣٧)، ص ٣٩١، بعض المقتطفات لمؤلفين عرب حول مسألة النجوم المتساقطة؛ وقد قام البارون دى سلان بتصحيح بعضها فى المجلد الرابع من المجموعة نفسها، ص ٢٩١.

فقط فى إيطاليا، فإنها تخص بالضرورة كل الشعوب، ومن المرجح أنها حدثت لتحقق نبوءة ذُكرت فى إنجيل القديس لوقا(1): وهذا مرجعه إلى نبوءة قيام الساعة التى انتظرتها المسيحية مرات عديدة. أما عرب أفريقية، كما لو كانوا أقل إيماناً بالغيبيات، فقد اكتفوا بتسمية ذلك العام بعام النجوم: وعلى هذا فقد أطلقت على هذا العام ثلاثة أسماء، كما يذكر ذلك المؤرخون؛ فإبراهيم كان يريد إطلاق اسم عام العدل على تلك السنة بينما سماها آخرون عام الظلم والطغيان.

وبالرغم من تهديداته لرسل المدن ووفودها، إلا أن إبراهيم قد أرجأ مهاجمة مدينة كوزنسا. فهو الذى قد أفلح فى إدارة أمور ذلك الجيش كبير العدد وغيـر المتجــانس(2)، والذى تعتلج فيه أحقاد جمة، أضطر للبقاء فى المؤخرة حينما أصابه مرض الدوسنتاريا الفتاك؛ وعبثا حاول اخفاء خطورة مرضة بعناد الطغاة وصلابتهم. ومع ذلك قام بمحاصرة المدينة فى غرة شهر أكتوبر، وعسكر الجند على ضفاف نهر كراتى(3)؛ وهاجم أبناؤه أو رجاله المخلصون، ومعهم فرق شديدة البأس، كل أبواب مدينة كوزنسا؛ ووجه مجانيقه على أسوارها؛ ولكن يبدو أنه لم يستطع حينئذ مزاولة أعمال القيادة ولم يشأ تكليف أحد بها، كما لم يجرؤ أحد على الإمساك بها. ولمدة أكثر من عشرين يوماً جرت مناوشات باءت بفشل المحاصرين، الذين هبطت روحهم المعنوية، لأنهم لم يشعروا بأن إدارة قائدهم الصلبة تحكمهم وتساندهم. وعندما

(1) إنجيل لوقا (*Evangelium Secundum*)، الأصحاح الحادى والعشرون، العدد ٢٥. وهذا التأمل يرجع لمجهول صاحب مخطوط يرجع تاريخه للقرن الحادى عشر، وهذا المخطوط موجود فى مكتبة بامبرج، وذكره بيرتز فى كتابه، *Scriptores*، المجلد الثالث، ص ٥٤٨، فى الملحوظة الخاصة بأخبار سالرنو. ومن الواضح أن المؤلف المجهول كانت تحت يديه رواية چوڤانى دياكونو، وأنه لخصها بشكل أفقدها مغزاها وفحواها.

(2) هكذا يصفه چوڤانى دياكونو.

(3) النويرى يقول النهر. ومن المرجح أنهما نهران، لأن نهر بوزنتو يصب فى نهر كراتى عند مدينة كوزنسا.

اشتد المرض عليه، وطار النوم من عينيه، لجأ بمفرده إلى إحدى الكنائس الصغيرة للاحتماء بها(1)؛ وفيها فاضت روحه يوم السبت الثالث والعشرين من شهر أكتوبر، عن عمر يناهز الثلاثة والخمسين عاماً، بعد أن قضى سبعة وعشرين عاماً فى حكمه المستبد العسوف، وسبعة أشهر فى التوبة والإنابة؛ وانتقل إلى جوار ربه كالأبرار الأطهار، وهو يخوض غمار الجهاد، وينفق الأموال على الصدقات، ويخصص البنايات لأعمال البر والإحسان. وما أن تناهى إلى علم قادة الجيش أنه يحتضر وأنه فى النزع الأخير، حتى اجتمعوا سراً، وذهبوا إلى خيمة زيادة الله، ابن ابنه عبد الله، وطلبوا منه وألحوا فى طلبهم بأن يكون هو على رأس الجيش لنقله إلى أفريقية. وإزاء هذه العلامة الدالة على شقهم عصا الطاعة، فإن الأمير الشاب، الفاتر الهمة، المنغمس فى اللهو والملذات، الغارق فى المآثم، الذى لم يرث قوة جده وشدة بأسه، انتابه التردد وتملكته الحيرة: فقد كان يريد إلقاء تبعة القيادة العليا على عمه أبى الأغلب، ولكن أبا الأغلب فر منها. فتولى حينئذ مرغماً وكارهاً عملية التقهقر، وانتظر زيادة الله عودة فرسانه المنتشرين فى الأنحاء من حوله للحصول على الغنائم والأسلاب. وأبرم عهود الأمان والصلح مع أهالى مدينة كوزنسا الذين طلبوا هذا مرة أخرى، وهم يجهلون موت إبراهيم. وبعد ذلك سار متوجهاً إلى صقلية بجيشه كله وبالثروات المسلوبة والدواب: وكان يحمل معه جثمان جده فى تابوت. ويقول أحد الكتاب المسيحيين إنه أثناء الأوبة هلك عدد كبير من الناس غرقاً. وعندما

(1) توجد تفاصيل أخرى عن المرض الذى أصاب إبراهيم فى كتابات المؤرخين المسلمين. ويقول چوڤانى دياكونو إن إبراهيم وافته المنية فى كنيسة القديس ميشيل. أما أخبار مدينة بارى فى كتاب موراتورى *Antiquitates Italicæ Medii Æevi,* ، المجلد الأول، ص ٣١، فتقول بأنه مات فى كنيسة القديس بانكراتسيو؛ وأراد موراتورى تصحيح هذا بقوله كنيسة القديس بيرتاريو.

وصل زيادة الله إلى بالرمو، وذلك حسبما جاء به النويرى والبيان، دُفن بها إبراهيم بعد ثلاثة وأربعين يوماً من وفاته، وشيد نصب تذكارى على قبره. ويرى آخرون أنه نُقل إلى القيروان؛ ولهذا فمن غير المعروف فى أى من الأرضين دفنت عظامه(1).

وبموت إبراهيم تحررت إيطاليا الجنوبية دونما جهد من سكانها، الذين عدُّوا ذلك عملاً من أعمال السماء. وكتب چوڤانى دياكونو أنه بينما كان أهالى نابولى يترددون بين مصدق ومكذب لمغزى النجوم المتساقطة، جاء أحد الأسرى فرّ لتوه من مدينة كوزنسا ليؤكد رؤيا القديس سيڤيرينو ووحيه وحكى هذا الأسير

---

(1) قارن بين: ابن الأثير، عام ٢٦١، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، صفحة ٩٢ وما بعدها؛ والمخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٢٤٦ الوجه الثانى؛ ومخطوط بيبرس؛ **والبيان**، المجلد الأول، ص ١٢٦؛ وابن الأبار، مخطوطة الجمعية الأسيوية بباريس، ورقة ٣٣ الوجه الثانى؛ والنويرى، **تاريخ افريقية**، مخطوطة باريس، *A* ٧٠٢، الورقة ٥٣ الوجه الثانى و٥٤ الوجه الأول؛ والترجمة الفرنسية لدى دى سلان، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤؛ وابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٤٣ ـ ١٤٤؛ وابن ودران، § ٦؛ وترجمة شيربونو *M.Cherbonneau* فى، *La Revue de l'Otrient*، ديسمبر ١٨٥٣، ص ٤٢٩؛ وابن أبى دينار (القيروانى)، مخطوطة باريس، ورقة ٢١ الوجه الأول؛ والترجمة الفرنسية، ص ٨٦؛ وأبو الفدا، *Annales Moslemici*، عام ٢٦١؛ وچوهانس دياكونس، *Translatio etc*، فى كتاب جايتانى، *Vitæ Sanctorum Siculorum*، المجلد الثانى، ص ٦٢؛ *Chronicon Barense*، عام ٩٠٢، فى كتاب موراتورى، *Antiquitates Italicæ Medii Ævi.* ، المجلد الأول، ص ٣١، وفى كتاب بيرتز، *Scriptores*، المجلد الخامس، ص ٥٢؛ ومخطوطة بامبرج المذكورة فى نفس كتاب بيرتز، *Scriptores*، المجلد الثالث، ص ٥٤٨ فى الهامش.

وتاريخ وفاة إبراهيم الذى لم يكتبه على وجه التحديد چوڤانى دياكونو المعاصر لهذه الأحداث والممحص والمدقق فى عمله، نأخذه عن المسلمين. وكلهم يذكرونه فى شهرذى القعدة عام ٢٨٩، ولكن يوجد اختلاف فى تحديد اليوم: فيرى البيان أن الوفاة حدثت يوم الاثنين الموافق ١٧؛ أما النويرى فيرى أنها وقعت يوم السبت الموافق ١٨؛ بينما يرى ابن الأثير، وابن ودران، وأبو الفدا أنها حدثت فى يوم السبت الموافق التاسع عشر: وهذه الأيام تتوافق مع أيام ٢٣، ٢٤، و٢٥ من شهر أكتوبر عام ٩٠٢. وبما أن أيام الأسبوع تتزامن فى تقويمنا مع

لجريجوريو قنصل نابولى، إن إبراهيم أثناء نومه فى كنيسة القديس ميشيل، خُيل إليه رؤية شيخ مهيب الطلعة، فهدده الطاغية بالموت والثبور، لتجرؤه على الدخول فى حجرته، فألقى إليه الشيخ بعصا كان يمسكها بيديه واختفى. فاستيقظ إبراهيم من سباته بالرغم من شعوره بجرح فى جنبه، وطلب مثول أحد الأسرى اللاتين، فحملوا إليه الراوى؛ فسأله إذا كان يعرف بطرس العجوز، صاحب روما، أو أنه رأى صورته؛ وما أن علم أنهم يرسمونه طويل القامة، حليق شعر الرأس والذقن، حتى تحقق من الطيف الذى رآه فى المنام، وفى خلال فترة قصيرة أُصيب جرحه بالغرغرينة(1). ولا ينسب كاتب سيرة القديس إيليا دا كاستروچوڤانى هذه العملية للقديس بطرس لكى يُبجل بطله؛ الذى اختبأ فى أمالفى، وأكثر من الصلوات وهو يذرف الدمع السخين، ومن الصوم ومن تعذيب جسده، حتى داهم الموت إبراهيم المتغطرس، بينما كان يضرب حصاراً على مدينة كوزنسا ويفكر فى مهاجمة القسطنطينية(2)، بعدما أصابه الكرب والغم ولا يدرى أحد كيف حدث ذلك من جراء تضرع هذا الرجل التقى الورع.

التقويم الإسلامى، وأن يوم ١٧ من ذى القعدة عام ٢٨٩ هـ يبدأ مع غروب شمس يوم ٢٢ وينتهى مع غروب شمس يوم ٢٣ أكتوبر، وهو يوم سبت، فمن الواضح وجود خطأ طفيف فى كل هذه التواريخ. ومهما كان سبب هذا الزلل، فقد بدا لى الأخذ بتاريخ يوم السبت ٢٣ أكتوبر.

وفى رواية النويرى، قال دى سلان: *quand la maladie interne dont Ibrahim souffrait, etc;*، ولكن بمقارنة ما قاله مع ما جاء عند ابن الأثير وابن أبى دينار تأكدت من ضرورة تغيير الكلمة إلى «مرض معوى».

(1) چوهانس دياكونس، المرجع المذكور، فى كتاب جايتانى، *Vitæ Sanctorum Siculorum*، المجلد الثانى، ص ٦٢؛ وفى كتاب موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص ٢٧٣.

(2) *Vita Sancti Eliæ Junioris*، فى كتاب جايتانى، *Vitæ Sanctorum Siculorum*، المجلد الثانى، ص ٧٤.

وقد ورد فى المأثورات الإيطالية حكاية تناقلها العديد من المؤرخين، فدون تدخل آلهة صغرى، قالوا على طريقتهم المعهودة فى السرد، إن صاعقة هبطت من السماء وقتلته(1).

(1) *Chronicon Barense*، عام ٩٠٢، فى كتاب موراتورى، *Antiquitates Italicæ Medii Ævi*، المجلد الأول، ص ٣١؛ حياة القديس برتاريو المذكورة هنا فى هامش كتاب موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الخامس، وفى كتاب براتيللى، *Historia princ. Langob.*، المجلد الرابع، ص ٢٠؛ وفى بيرتز، *Scriptores*، المجلد الخامس، ص ٥٣؛ ورومو الدى سالرنيتانى، *Chronicon*، عام ٩٠٢، فى كتاب موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الخامس.

ولا أستشهد بأخبار ديللاكافا، وأخبار كلابريا المنشورة فى كتاب براتيللى نفسه، المجلد الثالث والمجلد الرابع، لأن الأولى محرفة، أما الثانية فمشكوك فى صحة نسبتها إلى أصحابها.

ويرى مارتورانا فى كتابه، *Notizie Storiche*، المجلد الأول، الفصل الثانى، ص ٦٠، ضرورة مزج كل الروايات التى وردت فى الأخبار التاريخية فى رواية واحدة. وكتب أن «الليل قد سجى والأمير إبراهيم يضرب حصاراً، فهبت عاصفة صاحبتها قرقعات وفرقعات، فأصابته صاعقة كهربية اصابة شديدة، فاضطر للتحول عن الحصار فى الحال؛ ثم مات من شدة الآلام داخل قصرة، فى مدينة بالرمو».

الفصل الخامس

لم يعد التاريخ فى الوقت الحاضر يكتفى برسم الصورة القديمة للأحداث وأهواء ونوازع البشر، إن لم تعرض عرضاً دقيقاً للمذاهب والآراء التى نشأت منذ القدم، وهذا يضطرنى لأن أقطع حديثى مرة أخرى عن أخبار صقلية، وأعود للوراء بضعة قرون، لكى أتتبع فى آسيا الدوافع التى أدت إلى تغيير الأسرة الحاكمة التى كانت تتأهب لسماع نبأ وفاة إبراهيم بن أحمد، وقد تأهبت لهذا الحدث طائفة الإسماعيلية، التى أشرع فى عرض أصولها، وطبيعتها، وتطورها.

من المعروف أن سلطة الدولة الإسلامية التى كانت تحمل فى طياتها طبيعتها المختلفة وغير المتجانسة، قد حاربها أعداؤها بثلاث طرق وهى: الفرق السياسية، والانشقاقات الدينية، والطوائف المشاركة فى هذا أو ذاك. وأنا أطلق اسم فرق على تلك الفرق التى كانت تطمح إلى تغيير الأمير وليس لتغيير الشرع؛ ولذا لم تطعن أثناء صراعها، ولم تمس بعد انتصارها، تلك المسلمات والحقائق الدينية والمدنية التى تشكل جوهر الإسلام الحنيف؛ أى الإيمان الذى هو الدين القويم للأكثرية الكثيرة. وفى حقيقة الأمر ظلت كثير من الدويلات الإسلامية تحترم الخليفة وتبجله راعياً للدين، وخلعت ربقة الطاعة له أميراً وحاكماً. ومن ثم نجد أن الأمويين فى الأندلس، بالرغم من ادعائهم بحقهم الشرعى فى الخلافة، ترددوا طيلة قرن ونصف قرن من الزمان فى التلقب مرة أخرى بلقب أمير المؤمنين، الذى اغتصبه، كما كان يزعم، بنو العباس، وذلك على الرغم من قبول أغلبية المسلمين لذلك.

وعلى النقيض من هذا نجد أن فرقاً دينية كثيرة من الخوارج قد نشأت ولم يتقدم أتباعها والمناصرون لها للهيمنة السياسية، ولم

يهبوا للدفاع عن آرائهم ومعتقداتهم بقوة السلاح؛ ولكن قوة حجتهم أو ضعفها، وركونهم إلى اعمال الضمير أو تغليب العقل والمنطق دفعهم لنشر مذاهب فقهية تختلف عن السنّة وللترويج لها؛ وكثيراً ما واجهوا قسوة الأمراء، وغضب العامة وحنقها عليهم، والتعذيب والاضطهاد، وصعوبة الاستمرار فى المقاومة وعسرها، والتقريع الشديد لهم من الجموع الغفيرة. وقد نشأت هذه الحركة وتطورت ما بين منتصف القرن الأول ومنتصف القرن الثالث للهجرة، فى بلاد ما بين النهرين وبعض أقاليم بلاد فارس؛ وفى تلك الأصقاع، وفى ذلك الزمان، عندما اختلط الجنس العربى بأناس أكثر تحضراً وتمدناً، تعلم منهم الأفكار والتأملات التى هى نتاج العقل البشرى المتراكم طيلة ستين قرناً من الزمان مثل آراء الحُلُوليين، والمشركين، والثّنويين، والموحدين، والعقلانيين. وقد كانت هذه الآراء سبباً من أسباب الانقسامات التى حدثت بين المسلمين. والتف البعض حولها فوجدوا أنفسهم إزاء مسائل يدق على العقل إدراكها مثل: ماهية الله، وتأثير الله فى أعمال البشر، والقدر المكتوب والمقرر سلفاً، وحرية الإرادة والاختيار، والنعمة الإلهية؛ وفضل الإيمان والأعمال؛ والعقاب المنتظر لمن يقترف الذنوب فى هذا أو تلك؛ وهلم جرا. وحول هذه الموضوعات والأفكار كثيراً ما أخذت مصادر السُّنّة الجانب المناهض للعقل والمنطق. ويكفى للتدليل على ذلك الرأى السُّنّى القائل بأزلية القرآن، والذى أنكره المعتزلة؛ ولذا تعرضوا للاضطهاد والتعذيب؛ إلى أن اعتنقه بعض الخلفاء العباسيين، فأصبحوا بدورهم مُضطهِدين لمن يخالفهم الرأى. ومن الملاحظ أن هذه المزالق، والفتن، والدماء التى أريقت بسبب هذا الرأى وغيره من الآراء الدينية الخلافية، لم تؤد إلى إحداث تغييرات فى النظم السياسية. فمن بين اثنتين وسبعين فرقة يُحصيها تاريخ المسلمين الدينى، نجد حوالى عشرين رأياً قد ظلت فى حدود ما يسمى بالموضوعات الجدلية الخلافية؛ مثل القدريين القائلين بحرية

الإرادة والاختيار؛ والجبريين الذين يرون أن الانسان مجبر على أفعاله وغير مخير؛ والمعتزلة الذين يؤمنون بأزلية جوهر الألوهية فقط؛ والأشاعرة الذين يضيفون إلى ذلك عوارضه أو صفاته؛ والمرجئة المتواكلون إيماناً؛ والنظامية الذين ينكرون حرية المشيئة الإلهية، وهم بذلك يقتربون من الفلاسفة الماديين، وهناك فرق أخرى قد يكون من غير الضرورى تكرار أسمائها وآرائها(1).

وعندما شرع المفكرون المسلمون فى التفكير والتحليل الحر لم يستطيعوا كبح جماح عقولهم فانتقلوا من تحليل آراء الخوارج إلى العقلانية. وقد قادهم إلى هذا نور العلم الإغريقى، الذى بدأت أضواؤه تتلألأ فى سماء دولة الخلفاء بأسرع مما يُظن ويُعتقد. فقد تم نقل وترجمة بعض كتب الفلسفة إلى اللغة العربية من اللغتين اليونانية والقبطية فى نهايات القرن السابع الميلادى، أى فى القرن الأول للهجرة، على يد خالد بن يزيد بن معاوية، وهو أمير من أصل أموى، تلقب بفيلسوف بيت مروان(2). ولكن عملية التحضر والتمدن قد اسرعت الخطى بفضل الفرس الذين ناصروا البيت العباسى وتشيعوا له(3)، إذ قاموا بنقل وتبسيط الكتب القليلة التى كانت متبقية فى بلاد فارس من الأدب الهندى والفارسى والتى يرجع تاريخها إلى عهد الساسانيين؛ وأعطى المسلمون أهمية كبيرة لنقل كتب الإغريق العلمية: وهو إسهام ونفع

(1) فى مثل هذه المسائل المعروفة للغاية ليس من الضرورى إيراد استشهادات. أما الدقائق والتفاصيل فيمكن الرجوع فى شأنها إلى الشهرستانى وإلى الأعمال الأخرى التى سأضطر لذكرها بإيجاز.

(2) هذه المعلومة وجدتها لأول مرة فى كتاب **الفهرست**، مخطوطة باريس، المجلد الثانى، الورقة ٧٥ الوجه الثانى. وكثير من هذه الكتب خاصة بالطب البيطرى؛ وربما كان ولع العرب بالخيل هو الدافع الأول لدفعهم إلى محراب العلوم الإغريقية.

(3) انظر الكتاب الأول، الفصل السادس، ص٢١٥ ، ٢١٦ من المجلد الأول.

عظيم تعترف به الحضارة للخليفة المنصور (٧٥٤ ـ ٧٧٥) والخليفة المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣)، ولوزرائه البرامكة المنحدرين من أصل فارسى. ولقد تغلغلت حينئذ العلوم الإغريقية فى المجتمع الإسلامى بثلاث طرق: عن طريق سوريا، وبلاد فارس، والإمبراطورية البيزنطية؛ لأنه فى تلك الولايتين احتفظ الخلفاء بالتراث وبعض الكتب؛ ومن الأمصار البيزنطية تم الحصول على الكثير من الكتب بناءً على طلب المأمون من أباطرة القسطنطينية.

وهكذا ازدهرت فى حاضرة العباسيين، ومن ثم فى حواضر أخرى من حواضر الإمبراطورية الإسلامية، الدراسات فى الطب، والفلك، والجغرافيا، والرياضيات، والتاريخ الطبيعى، والمنطق، والميتافيزيقيا؛ وتداول العلماء أعمال الفلاسفة الأقدمين، وخاصة أرسطو(1). وأود أن أشير إشارة عابرة إلى أن مبادئ امبدوكليس الجرجنتى وكتبه أو تلك الخاصة ببعض تلاميذه وأتباعه كانت تُدرس أيضاً فى المشرق؛ وفى بدايات القرن العاشر الميلادى حاول أحد مسلمى أسبانيا تأسيس مدرسة تقوم على هذه المبادئ وترتكز عليها؛ ولكن هذه المدرسة لم تتحمل الاضطهادات التى تعرضت لها(2). ومن ناحية نجد أن الفلسفة الإغريقية قد سلحت زنادقة

---

(1) انظر بوجه عام حاجى خليفة فى مقدمته؛ وبوكوك فى كتابه، *Specimen historiæ Arabum*؛ وونريش فى كتابه، ...*De auctorum versionibus*؛ وكتاب **الفهرست**، مخطوطة باريس، المجلد الثانى، الورقة ٦٧ الوجه الثانى وما بعدها، وبه معلومات مهمة لمن يريد الاستزادة فى معرفة هذه الفترة من فترات الفكر الانسانى.

(2) **تاريخ الحكماء**، مخطوطة باريس، الملحق رقم ٦٧٢، ص ١٣. ومؤلف الكتاب، الذى عاش فى القرن الثانى عشر الميلادى، يؤكد أنه رأى فى إحدى المكتبات بالقدس، من بين الكتب التى وهبها الشيخ ابو الفتح نصر بن إبراهيم من القدس نفسها، رأى مبحثاً عن امبدوكليس يعارض خلود النفوس، ولم يذكر عنوان المبحث، ولاحظ فقط أن أرسطو قد دحضه، وأن آخر أراد التماس العذر لامبدوكليس قائلاً بمجازية لغتة؛ ولكن المؤلف يضيف بأنه لم ير فيه أى مجاز. أما حاجى خليفة، طبعة فلوجل، المجلد الخامس، ص ١٤٤، وص ١٥٢، الهامش رقم ١٠، ص ٤٤٨، والهامش رقم ١٠، ص ٥٠٠، فينسب إلى امبدوكليس ما يلى: أولاً كتاب فى الميتافيزيقيا، وهذا عنوانه على

المسلمين الذين تحدثنا عنهم آنفاً؛ ومن ناحية أخرى أدت إلى نشأة العديد من المدارس ينتمى إليها المفكرون المتحررون الذين كانوا يدافعون علانية بشكل أو بآخر عن المبادئ فى كل دين وملة. ومن هؤلاء نجد الباطنية الذين أخذوا هذا الاسم من المعنى الباطنى أى الخفى، أو نقصد المجازى، والذى افترضوا وجوده فى الكتب المقدسة؛ ولكن بعضهم وصل إلى درجة من الإلحاد الكامل؛ نذكر منهم، على سبيل المثال، أبا العلاء المعرى من سورية، والذى تبدو بعض أبياته الشعرية وكأنها أشعار لوكريتسيو، وهجا فيها هجاءً لاذعاً اليهود، والمجوس، والنصارى، والمسلمين جميعاً؛ وأختتم أبياته

غرار كتاب أرسطو الشهير، وثانياً كتاب عن بعث الروح وعبثيته بعث (تجدد) النفوس والأجساد. أما ونريش فى كتابه، ...*De autorum græcorum versionibus*، ص ٩٠، فيرى أن الكتابين منتحلين، ولم يجدهما عند ديوچينى لايرسيو *Diogene Laerzio*.

ومهما يكن من أمر هذا الموضوع السلبى، إلا أن كتب الفيلسوف الجرچنتى، تُنسب إلى امبدوكليس، أو على أقل افتراض لأحد تلاميذه، ولدى العرب نسخ من ترجمتها. وقد دار هذا بخلدى لأن الآراء الأساسية المنسوبة إلى امبدوكليس فى **كتاب الحكماء**، وبالتحديد التى نسبها إليه الشهرستانى، النص العربى، ص ٦٠ وما بعدها، تتفق تماماً مع مذهب الحلولية الذى نستخلصه من مقتطفات هذا الفيلسوف ومن الأخبار التى نقلها إلينا الكتاب الأقدمين. وعلى حد قول اثنين من العلماء العرب، فإن الإلوهية بالنسبةلامبدوكليس تكمن فى تجرد العلم، والإرادة، والخير، والقدرة، والعدل، والحق .. إلخ؛ وليست هى حقيقى يتمتع بهذه الصفات ويسمى بتلك الأسماء المختلفة. ومذهب امبدوكليس المعروف عن الحب والبغض، أو عن الانجذاب والتنافر، نراه أيضاً بوضوح فى نظرية نشأة الكون التى ينسبها إليه الشهرستانى.

والفيلسوف الأسبانى الذى حسب قول **كتاب الحكماء** أخذ مباده من امبدوكليس، اسمه محمد بن عبد الله بن مسره بن ناجية، وهو من مواليد قرطبة عام ٨٨٣ وتوفى عام ٩٣١. وهذا الفيلسوف، بعد دراسته فى مدرسة أبيه وعلى يد اثنين آخرين من العلماء الأسبان، اضطهد بتهمة الزندقة، لحماسة الشديد فى نشر آراء ومذهب امبدوكليس؛ ولذا فر هارباً إلى المشرق. وبعد سنوات طويلة، عاد إلى أسبانيا، بدأ فى تدريس نفس الفلسفة بشكل أكثر سرية فوقع مرة أخرى موقع الشك وأتهم بالإفساد فى الأرض. وملخص هذا المقال الموجود فى كتاب **تاريخ الحكماء** نقرأه عند ابن أبى أصيبعه، مخطوطة باريس، الملحق رقم ٦٧٣، ورقة ٢٢ الوجه الأول، والملحق رقم ٦٧٤، الورقة ٤٠ الوجه الثانى.

بنتيجة مؤداها أن الناس ينقسمون إلى فريقين: مفكرين لا دين لهم، وأتقياء متدينين لا عقل لهم(1). وكانت أسماء المدارس العقلانية وتسميتها دائماً محل التباس لدى المسلمين، إما حرصاً من أصحابها، الذين اضطروا للاختفاء والتخفى تحت أسرار وغوامض فرق أقل تطرفاً وأصولية، وأما بسبب جهل العوام، وسرعة اتهام المتدينين لهم. وأطلق هؤلاء بخبث ودهاء على كل المفكرين المتحررين تسمية زنادقة، المرادفة لكلمة كفار، كما يُقال الآن، وهى تسمية كانت تطلق على الشيوعيين الفارسيين. وعندما ذاعت فى المشرق الأسماء المثيرة للهلع والفزع كالإسماعليين، والقرامطة والدروز والحساسنة، وهى فرق جديدة ومختلفة كانت تتآزر فيما بينها بشروحها الرمزية، انتهز المتدينون الأصوليون الفرصة وصاحوا ينادونهم بالباطنيين، ووضعوا معهم الفلاسفة فى سلة واحدة. وهكذا وصل تاريخهم إلى المثقفين الأوروبيين فى عصرنا الحاضر - الذين لكثرة مشاغلهم السياسية والدينية، لم يدركوا تلك الأخطاء، أو لم يسارعوا لتوضيحها. ومن ثم حدث تزيد فى دور الفلسفة الإغريقية فى الفرق الأكثر بغضاً. ومن ثم شاع الظن بوجود تشابه فى الوسائل والغايات بين مختلف الفرق وهو ما لم يكن كذلك بكل تأكيد(2). ولذا فمن الواجب علىّ تناول هذا الموضوع بكل دقة وتفصيل فهو موضوع لا يناسبه وضع اطار عام له، ولكن من بين خيارين كلاهما صعب يبدو لى أن الاستطراد أقل ضرراً من الخطأ فى تناوله.

وقبل الاختلافات حول المعانى بوقت طويل ظهرت فى الإسلام الفرق

(1) أبو الفدا، *Annales Moslemici*، عام ٤٤٩ (١٠٥٧)، عند ذكره لموت هذا الشاعر الكبير، يضع دون تمحيص وتدقيق الأبيات التى أستشهد بها.

(2) الشهرستانى، كتاب **الملل والنحل**، النص العربى، ص ١٤٧ وما بعدها. وقد بيّن الأختلاف الموجود بين الباطنية القدماء، أو الفلاسفة العقلانيين، والباطنية المحدثين، وهى فرق مختلطة أُطلقت عليها أسماء عدة فى مختلف البلدان.

الموسومة بالزندقة والتشيع؛ والفرقتان الرئيستان اللتان انبثقت منهما فرق أخرى حسب آرائهما الفرعية، هما الخوارج والشيعة. وظهر اسم الخوارج عندما حاد الخليفة عثمان عن مبدأ الشورى الإسلامية. وكان الخوارج من المدافعين عن الشورى، وهم من أصول عربية، وكان من بينهم عدد غير قليل معروفون بفضائلهم ومعرفتهم وورعهم(1). فانضموا لذلك إلى رجال الدين البارزين وإلى أنصار على والمتشيعين له. واشتركوا جميعاً فى مقتل عثمان. إلا أن الاتفاق الذى حدث بين هذه الفرق الثلاثة المختلفة مآربها ومشاربها، قد انفضّ بتولية على، قبل هزيمة العدو المشترك اللدود، وهى طبقة الأعيان وعليه القوم القديمة التى كان على رأسها معاوية بن أبى سفيان. وثارت فى وجه على الفرقة الأكثر شقاقاً من رجال الدين البارزين، فهزمهم فى موقعة عُرفت باسم موقعة الجمل؛ أما الخوارج فقد ساروا معه إلى موقعة صفين حيث واجه معاوية، ولكن ما أن ألقى بالسلاح للتحكيم المشهور، حتى انشق الخوارج عن على، لأنهم رأوا أن أنصاره يدفعونه دفعاً إلى الملكية المطلقة المصبوغة بصبغة الحق الإلهى. ولدحض هذه المبادئ الخطيرة المتعلقة باغتصاب السلطة، أعلن الخوارج عدم ضرورة الخليفة للدولة الإسلامية، وإذا رأى الشعب مرة أنه من المناسب أن يختار خليفة فيمكن عندئذ أن يختاره من أى جنس ومن أى حال، سواء كان قرشياً أم لا، حراً أم عبداً؛ ويلتزم الخليفة بأن يحكم مراعياً بعض القواعد الأساسية؛ فإن حاد عن الحق والعدل، فيكون للأمة الحق فى عزله، ومقاتلته، وقتله. أما بالنسبة لعلى، رد الخوارج على التمجيد الذى نسجه حوله المتشيعون له، باتهامه

(1) المقريزى، فى كتاب ساسى، *Exposé de la religion des Druses*، المجلد الأول، الصفحة الثالثة عشر، يشهد على هذا الحدث. والأصل العربى للخوارج نعرفه أيضاً من أسماء رؤساء بعض الفرق التى ذكرها الشهرستانى.

(2) انظر الكتاب الأول، الفصل الثالث، ص ١٤٦- ١٤٧من المجلد الأول.

مباشرة باقترافه الإثم لقبوله التحكيم. وبعد فترة وجيزة، نادوا بتكفيره، من جراء هذا أو بسبب أشياء أخرى تختص بالحكم، وفى نهاية المطاف صبوا عليه اللعنات على الملأ، لأنه قاتلهم، وقتل منهم الرجال الذين حملوا السلاح فى وجهه، وغنم متاعهم وأملاكهم، وأسر نساءهم وأطفالهم. وهى قسوة شديدة تحدث فى الحروب، وجائزة فقط مع الكفار، ولم يستعملها على مع أعدائه الآخرين من المسلمين. وهذا الأمر الأخير يثبت أن علياً اعتبر الخوارج ليسوا فقط ثائرين متمردين، بل فاسقين خارجين. وفى الواقع فإن مبادئهم الصريحة فى مسألة سيادة الأمة إنما ترجع إلى خروجهم عن جماعة المسلمين وذلك حسب المبادئ والأفكار الإسلامية؛ وهو خروج عن جماعة المسلمين حسب آراء كل الشعوب أن يوصم الخليفة بأنه كافر ومخطئ، وتأكيدهم على أن الكبائر تؤدى إلى الكفر(1). وفى رأيى أن كل انسان يعلم أن هذه البدعة المتولدة عن الجنس العربى بسيطة أو عملية أو تكاد إذا ما قورنت بالأفكار المركبة التى تولدت وانتشرت على يد العجم. لقد ظهرت بعد ذلك فرق من الخوارج أكثر شراسة وتشدداً فى آرائها الثورية والدينية وتتسم بالشجاعة فى مسألة التكفير، لأنها من ناحية كانت تحمل فى نفسها سخطاً وموجدة على الاضطهاد الذى تعرضت له وإدراكاً لضعفها ووهنها، ومن ناحية أخرى تحمل تمازجاً وتداخلاً مع العجم. ويعلم الجميع أن علياً قد قُتل بطعنة من خنجر الخوارج وأن اثنين آخرين من الطغاة فى بدايتهما الأولى قد عاشا بصعوبة بالغة من جراء ذلك. فقد أثارت الأزارقة، وهى فرقة من فرق الخوارج، فتناً كثيرة فى المشرق، وقالت بتكفير مَنْ يرائى فى القول

(1) الشهرستانى، **كتاب الملل والنحل**، النص العربى، ص ٨٥ وما بعدها. وقد لاحظ المؤلف أنه من بين المبادئ المشتركة لفرق الخوارج أن الكبيرة من الكبائر تؤدى إلى الكفر، ولكن هذا المبدأ لم يتردد بين الآراء الخاصة بالخوارج الأوائل فى عهد على.

أو فى العمل عندما يتعرض لخطر ما فيضطر للمداهنة، وكذلك مَنْ لم يسارع لخوض غمار الحرب المقدسة، ألا وهى الحرب التى تخوضها فرقتهم ضد باقى الفرق؛ ولذا أجازوا أيضاً قتل نساء وأطفال الخارجين عليهم، ولكن كانت هناك فرق أخرى من الخوارج لم تصل إلى هذا الحد من التطرف. وفيما يختص بالأحكام التى لا تدخل فى إطار الفتن السياسية، نجد أن الأزارقة قد ألغوا عقوبة الرجم حتى الموت المتعلقة بالزنا؛ وآخرين منهم استباحوا الزواج من ابنة الابنه، ومن ابنة الأخ أو الأخت، وكذلك زواج المسلمة من رجل كافر؛ وفى هذه المسائل الخلافية يظهر بجلاء التأثر بالمذاهب الفارسية. وأخذوا كذلك أحكاماً دينية وأخلاقية أخرى تارة من المعتزلة وتارة من أهل البدع(1). ولقد عُرف عن الخوارج جسارتهم الفائقة وأنهم لا تلين لهم قناة ضد التعسف والاستبداد سواء فى الميدان أو فى مواجهة التعذيب. فقد أوقدوا طيلة قرنين من الزمان نيران الحروب الضروس فى الولايات الشرقية وفى أفريقية، وكثيراً ما زلزلوا أركان الدولة الإسلامية زلزلة شديدة. ولكن فى نهاية الأمر تغلبت عليهم وقهرتهم جيوش الخلفاء. وكم كانت عسيرة ومضنية هى عملية إعادة ديمقراطية الإسلام أو إقرار مبدأ الشورى الذى اتبعه أبو بكر وعمر بين جموع من الناس تغلبت عليهم سمة عدم التجانس، والجهل، والإيمان بالخرافات والخزعبلات؛ وكم ألحقت تلك الوسائل التى اتبعها الخوارج الضرر الجسيم بمأربهم. فهى وسائل كانت تتسم بالوحشية والموجدة والترهيب، ولذا أفقدتهم بكل تأكيد مصداقيتهم وأضعفت من شأنهم بدلاً من أن تقوى من شوكتهم.

وفى نفس الوقت ظهر مع هؤلاء الأبطال المنادين بالحرية أصحاب الفرق الأكثر شراسة وحنقاً، فلم يتحزبوا مطلقاً للسلطة الحاكمة

(1) الشهرستانى، المرجع نفسه، ص ٨٧ حتى ص ١٠٢.

ويناصروها، وهى الفرق الشيعية أو الشيعة، كما ينبغى كتابتها على هذا النحو، وهذه الكلمة تعنى المتشيعين والمناصرين. وكان الشيعة يرون أن الإمامة والخلافة لا تنبثق من جماعة المسلمين، ولا يمكن للناس منحها، إذ إنها تقوم على مبدأ الحق الإلهى، حتى أن الرسول ذاته لم يكن فى استطاعته إلغاؤه أو تعديله، وإن الإمامة تورث وتنتقل بالوراثة وبتزكية من الإمام السابق، وأن الإمامة فى على وفى ذريته من بعده. وتتفق على هذا المبدأ لحد كبير جميع فرق الشيعة، ولكنها تختلف على نظام الوراثة فى ذرية على. هذا ونجد أن الكيسانية، وهى فرقة من فرق الشيعة، ترى بشكل يدعو للغرابة أن الدين يكمن فى طاعة الإمام طاعة مطلقة(1). أما الغُلاة، ومنهم فرقة شيعيةأخرى(2)، فقد قالوا بتناسخ النور الإلهى فى الأئمة العلويين، وبانتقال روح الإمام منهم إلى آخر، ومنهم مَنْ أكد بأن علياً بعد موته صعد إلى السماء وسيعود فيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً، وبأنه ينتظر ويمر فوق السحب، وبأنهم يسمعون صوته مع الرعد، ويرون من بين الصواعق سوط الفارس الخالد. وهذه كلها مبادئ فلسفية، وأساطير، وأفكار، وصور دخيلة على الجنس العربى وغريبة عليه؛ ففيها تصوير للحلم الهندى بالتجسد والحلول، وهالة من الخرافات التى ينسجها أهالى التبت لرجل الدين الإله، وبتناسخ الأرواح، وبانتظار المهدى المُخلص المنتظر، ولاسطورة بطولية ذات طابع هندأوربى واضح المعالم والسمات. وقد دخلت هذه الأفكار الغـريبة وتغلغلت فى الدولة الإسـلامية على يد الموالى الذين كانوا يعتنقون فى بداية أمرهم المجوسية، والصابئية، واليهـودية، والنصـرانية، أو بعض مذاهب هذه الديانات. والواقع أن أحد موالى على يُدعى كيسـان هـو الذى أسس الكيسـانية، وهى

(1) الشهرستانى، المصدر نفسه، ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

(2) هى جمع لفظة غالى، التى تعنى «متجاوز الحد، وغير معتدل».

فرقة شيعية تُنسب إليه كما ذكرنا ذلك آنفاً. وكان أحد اليهود الفاسقين ويُدعى عبد الله بن سبأ هو أول الغُلاة، فأثناء حياة على، تجرأ وقال له: «أنت أنت». وكان يقصد بقوله هذا «أنت الله»(1). وقد وجد الضعفاء الذين يبحثون عن قائد لفرقتهم، والعوام الذين يلهثون وراء كل غريب ومبتدع موضوع هذه الأسطورة جميلاً وجاهزاً؛ فعلى هو ابن عم الرسول، وأخوه المصطفى، وزوج ابنته، ورفيقه، وحاميه الجسور؛ وهو المحارب صاحب الحسام ذى النصلين، الذى لم يقاتل أبداً رجلاً إلا صرعه وانتصر عليه؛ وهو شمشون الجديد الذى عند غزوة خيبر فصد الباب من مزلاجيه ودعاماته واتخذه درعاً له؛ وعلاوة على كل هذا فعلى كان من وجوه القوم، وكان رقيق القلب، لين الجانب، جواداً كريماً، عالى الهمة طموحاً، عطوفاً. من هنا جاءت الإشادة به وتمجيده وتأليهه سريعة. وفى بداية الأمر ترك على الناس يتقولون ويفعلون ما يشاءون، ثم أدرك ما فى ذلك من بغى وإفساد يجرونه إليه، فقام بنبذ اليهودى ابن سبأ وطرده(2). وتعقب آخرين ممن عبدوه، فأضرم فيهم النار وهو يرتعد فرقاً ودعا كانبار، كما كان يقول ناظماً الشعر بنفسه، وكان يقصد بها أنه قتل هؤلاء وأحرق جثثهم بيد ذلك العبد المعتوق(3). ولكن هذه الأسطورة المليئة بالخرافات لم تقف وتتبدد عند هذا الحد، ولم تنته بموت على شبه الإله، بل إن تعرض سلالة على للاضطهاد، قد غذى الأسطورة بصفحات أخرى مأساوية مثيرة للشفقة: فالحسن، قُتل بالسم بتحريض من

(1) الشهرستانى، المصدر نفسه، ص ١٠٩، ص ١٣٢، ص ١٣٣؛ تتبع سيرة هذه الآراء، ولم يذكر مصدرها الهندى الخاص بالتجسد (الحلول)، فنسبها للمسيحيين. انظر أيضاً المقريزى، فى كتاب ساسى، *Exposé de la religion des Druses*، المجلد الأول، الصفحتين الثالثة عشر والرابعة عشر.

(2) هذا الأمر الأخير ذكره الشهرستانى، المرجع نفسه، ص ١٣٢.

(3) المقريزى، فى كتاب ساسى، *Exposé de la religion des Druses*، المجلد الأول، الصفحة الثالثة عشر.

الأمويين وعلى يد زوجته، فعفا عنها وصفح وهو على فراش الموت؛ أما الحسين فكان على رأس نفر قليل من الرجال كون منهم جيشاً وسقط صريعاً، وهو آخر المحاربين بين جثث آله، ومعه ابنه الصبى وقد قتل وهو بين ذراعيه؛ وقد اشتهر بعض العلويين بمذاهبهم أو بمكانتهم، وبعضهم الآخر بتقواه وورعه وصبره على البلاء، وفى الأغلب الأعم كانوا هم أنفسهم ضحية لتشكك الدولة فيهم وفى نواياهم. ولمدة ستين عاماً كان اسم على يُلعن ويُسب من المنابر فى الصلاة الجامعة التى تُقام فى جميع أرجاء الإمبراطورية الإسلامية. وبالرغم من ذلك ازداد تعاطف الناس وأشتعلت جذوه الحماس فى نفوس المتشيعين لهذه السلالة الكريمة، فنسبوا إليها معجزات وكرامات جديدة، وسارعوا للاستشهاد وبذل النفس حتى تصل هذه إلى سدة الحكم. ولكن جيوش الخلفاء كانت لهم بالمرصاد تتغلب عليهم وتقهرهم دائماً. ولذا نظم العلويون أنفسهم فى جماعة سرية. وخارج تلك الجماعة السرية استمرت الجموع الغفيرة من الناس فى تعصبها لهم والإشادة بأبطال البيت العلوى. وقد أدى هذا التعصب إلى صدامات عنيفة مع السُّنة، وحتى أيامنا هذه يظهر بجلاء هذا التعصب المتقد الشديد فى بلاد فارس وبين المسلمين فى الهند.

وهذه الجماعة السرية التى ضمت قوى الأمة واستخدمتها للإشادة بذرية على الحقيقية أو المعتقدة فى أفريقية وتمجيدها، ترجع أصولها إلى أواصر بعيده القدم. وبدراسة هذين العنصرين اللذين تتكون منهما بالضرورة أى جماعة، وهما العقائد والنظم، نجدهما كلاهما فى السلالة الفارسية. فالعقائد قد نشأت، أو بالأحرى، قد اتخذت قالباً حقيقياً وجديداً فى بدايات العصر المسيحى وفى بلاد فارس، حيث كانت المجوسية قد بدأت بالفعل ترهف السمع لنظريات البوذية وآرائها المنتشرة فى آسيا الوسطى، ثم نقلتها ممتزجة بمعتقداتها فى آسيا الصغرى، التى بدورها

أعادتها وردتها بعد أن أدخلت المسيحية عليهما ما أدخلت من تعديل. وفى الحقيقة فإن الذى أصلح فرقة الشيعة ونظم أمرها فى جماعة سرية، كان يسير على درب مهرطق عاش فى القرن الثانى، وكان متأرجحاً ومذبذباً بين المجوسية والنصرانية، وهو ابن ديصان، أو بارديسان، كما يُدعى فى اللهجة السريانية: وكان كاهناً ناسكاً، ثنوياً تصور أن الانسان شفيع ووسيط بين إلهى النور والظلمة(1). وغالباً ما حدث مزج وخلط بين الديصانية والمانوية. والمانوية فرقة مشابهة للديصانية إلا أنها أثارت خلافاً كبيراً. فمانى، كما يعلم الجميع، لم يرض أن يكون مجرد نبى جاء بكتاب سماوى، فتجاسر مؤكداً بفكرة بوذية ولغة مسيحية أنه يحمل فى صدره وبين جوانحه قبساً من الروح القدس أو أنه الروح المعزى المذكور فى الإنجيل؛ وأخذ ينشر دعوته فى بلاد فارس، وبلاد الهند والتتار ويبشر بدين جديد هو مزج بين ديانات أخرى وعلى وجه الخصوص من المجوسية والنصرانية؛ وفى دعوته كثير من المتناقضات الدينية والمبادئ الأخلاقية الرائعة، فأخذ يعلم بأن جميع البشر متساوون فى حق الاستمتاع بخيرات ومتاع الحياة الدنيا(2). وعندما قام

(1) عن المذاهب المجوسية ونحلها يلقى مزيداً من الضوء عليها ويوضحها لنا محمد بن اسحاق، صاحب كتاب **الفهرست**، والشهرستانى المذكور بعاليه؛ فقد عاش أحدهما فى القرن العاشر، أما الآخر فقد عاش فى القرن الحادى عشر، كانت تحت أيديهما نصوص فارسية عديدة، وكلاهما يستطيع أن يستخرج منها المفيد والنافع. وبالرغم من هذا كان ينقصهما المعلومات والمعارف التى تزودنا وتمدنا بها دراسة البوذية، والتى كان لها تأثير كبير على مختلف باقى الفرق المجوسية. وعن فرقة ابن ديصان انظر كتاب **الفهرست**، مخطوطة باريس، الملحقات العربية رقم ١٤٠٠، المجلد الثانى، الورقة ١٩٤ الوجه الأول والورقة ٢١١ الوجهين الأول والثانى؛ والشهرستانى، المرجع المذكور، ص ١٩٤، ص ١٩٦. ويذكر كتاب **الفهرست** بداية هرطقة ابن ديصان بعد ثلاثين عاماً من هرطقة المَرقيين التى تزامنت مع العام الأول من حكم الإمبراطور أنطونينو (١٣٨) وتزامنت هرطقة المانويين مع العام الثانى من إمبراطور الغال (٢٥٢).

(2) وتنسب هذه النظرية الاجتماعية إلى مانى فى التصنيف التركى **لأخبار الطبرى**، وترجم أحد مقتطفاتها إلى الإنجليزية وخرج إلى النور على صفحات، *Journal of the American oriental Society*، المجلد الأول، ص ٤٤٣، نيو هافن، ١٨٤٩.

الملوك الساسانيون بقتله عام (٢٧٢)، اضطر اتباعه للجوء إلى إقليم ما وراء النهر (ترانسوكسيانا) والاختفاء فيه، ثم ما لبثوا أن عادوا إلى الظهور بعد الفتح الإسلامى فى خراسان وفى أمصار أخرى من أمصار الدولة الإسلامية، وحتى فى بغداد، حيث وصل عددهم بها إلى ثلثمائة فى النصف الثانى من القرن العاشر. وأحياناً كان يتم غض الطرف عنهم، وأحياناً أخرى يتم اضطهادهم. وفى إحدى المرات (٩٠٨ ـ ٩٣٢) حدث تساهل معهم نتيجة تدخل أمراء آسيا الوسطى(1)، فنظم المانويون المنتشرون فى أرجاء الدولة الإسلامية حركة سرية، كان مقرها على الأرجح فى مدينة بابل وفى الأوقات العصيبة عندما يتعرضون للخطر كانوا ينقلونها حيثما استطاعوا(2).

وظهر أيضاً فى عصر الساسانيين مَزْدك(3)، وهو كاهن ولاهوتى يتبع المدرسة المانوية، وقد أتى بجديد فى نظرية أساتذة

وتوجد أيضاً فى المصنفات الشرقية التى تلخص **اخبار الطبرى** وهى مصنفات منقولة من بعضها. وأنا أثق فى هذا وأؤمن به بسبب الظروف السياسية التى حدثت فى بلاد فارس فى عصر مانى، ولأن مزدك، وهو الداعى للشيوعية فى بلاد فارس، كان يتبع مدرسته ويسير على نهجه وفكره. ليس هذا فحسب بل يجب علىّ التنويه إلى أنه لم يتم ذكرهما فى كتاب **الفهرست**، المجلد الثانى، الورقة ١٩٢ الوجه الثانى حتى ٢١٢ الوجه الثانى، ولا الشهرستانى، المرجع المذكور، ص ١٧٩ حتى ص ١٩٦، فى تحليلهما العلمى الدقيق للديانة المانوية.

(1) قارن بين كتاب **الفهرست** والشهرستانى، الموضعان المذكوران. فهذه الفقرة من كتاب **الفهرست** قد قام بترجمتها رينو فى كتابه، *Geographie d'Aboulfeda,*، *Introduction* ص ٣٦١.

(2) كتاب **الفهرست**، المجلد الثانى، الورقة ٢٠٣ الوجه الثانى والورقة ٢٠٩ الوجه الأول، حيث يتحدث عن الرئيس والرئاسة، أى الاتجاه الرئيس للمانويين بمدينة بابل، فى عصر الوليد الأول (٧٠٥ ـ ٧١٥).

(3) طبقاً لماورد فى كتاب **الفهرست**، المجلد الثانى، الورقة ٢١٦ الوجه الثانى، والورقة ٢١٧ الوجه الأول، كان هناك شخصان باسم مَزْدك. أولهما لم يذكر عصره، ولكن فقط أنه كان له أتباع فى الجبال، وأذربيچان، وأرمينيا، والديلم، وهمذان وبلاد فارس. وكان يُطلق على أتباعه اسم الخرميون. أما مَزْدك الثانى فهو ذلك الشخص المعروف تاريخه وأتباعه يعرفون باسم المزدكيون.

الإشتراكية، لدرجة أنه وسع فيها، حتى وصل به الأمر إلى أن أحلّ النساء وأباح الأموال وجعلهما شركة للناس وأجاز إشباع كل رغبة شريطة عدم الإضرار بالغير. وحض كذلك أتباعه ومريديه على عمل الخير، وحسن الرفادة، والكف عن قتل البشر وتعذيبهم جسدياً هم والحيوانات أيضاً. وظل مَزْدك طيلة ثلاثين عاماً (٤٩٨ ـ ٥٣١) يثير الاضطراب فى النظام القائم فى بلاد فارس، حتى استطاع الاستحواذ على السلطة العامة فوضع بعض معتقداته موضع التنفيذ. ولكن عندما وحد الأمراء والنبلاء كلمتهم معاً قتلوه ومَنْ معه من أتباعه فى مذبحة بشعة(1). أما نظرياته التى قدر لها البقاء، فقد انتشرت مرة أخرى بعد قرنين من الزمان فى نفس الأصقاع والمناطق التى سيطر عليها المسلمون.

ونظراً لأن الفرق المعتنقة لديانة الفرس القديمة كان يشجعها ويشد من أزرها العداء القومى ضد الفاتحين المنتصرين، لذا فقد حاولت القيام بسلسلة من الحركات الدينية وهى فى الوقت ذاته حركات سياسية واجتماعية، وغالباً ما كان للجمعيات السرية يد فيها، ودائماً كانت تتصدرها خرافة الحلول والتجسد الهندية. وفى منتصف القرن الثامن، حاول فى البداية رجل يُدعى الخواف اللقاح بين المانوية والإسلام، والظاهر أن أمره قد أفتضح على يد إحدى

---

(1) قارن بين: بروكوبيو فى كتابه، *De Bello Persico*، الكتاب الأول، الفصل الخامس؛ **والطبرى، المصنف التركى**، نسخة البارون دى هامر فى، *Journal Asiatique*، أكتوبر ١٨٥٠، ص ٣٤٤؛ وكتاب **الفهرست**، الكتاب المذكور؛ والشهرستانى، المرجع المذكور، ص ١٩٢ وما بعدها؛ وميركوند فى كتاب ساسى، *Antiquités de la Perse* ، ص ٣٥٣ وما بعدها؛ **ومجمل التواريخ**، ترجمة م. مول فى *Journal Asiatique*، الصادر فى شهر يوليو ١٨٥٢، ص ١١٧، والصادر فى شهر مايو ١٨٥٣، ص ٣٩٨. وفى مقدمتى لكتاب **السلوان** لابن ظفر، تناولت هذه النقطة التاريخية وشككت فى روايات المؤرخين حول شيوعية مَزْدك. وعلى أية حال فإننى أعتقد أنه لم ينفذ كل آرائه ونظرياته عندما كان يمسك بيديه دفة أمور الدولة. ولكن إباحية هذه النظريات لا يمكن إنكارها بعد الشهادة القيمة التى وردت فى كتاب **الفهرست**، والذى يستشهد فيه ببحث لتيلچى حول هذا الموضوع.

الفرق المناوئة له، فقام والى نيسابور المسلم بقتله. ولكن أتباعه ادعوا رؤيته وهو يصعد إلى السماء على ظهر جواد أدهم جميل الهيئة ذى عرف ذهبى اللون، وانتظروا ملياً أوبته إلى الأرض للانتقام والثأر(1). وفى العام نفسه أو قبله بقليل، قام أبو مسلم(2)، وهو أيضاً من خراسان، بمساعدة العباسيين للوصول للحكم بتدبير مؤامرة تم إحكام خيوطها من خلال الجماعات السرية. وبعد ذلك قتل العباسيون أبا مسلم غدراً (٧٥٤)، فاعتقد كثيرٌ من الخراسانيين بأنه لم يمت وأنه أزلى، وكونوا فرعاً جديداً من فرقة المزدكية، التى أطلق عليها اسم المُسْلمية(3)، وفرعاً آخر كان يسمى باسم الراوندية، الذين ألهوا الخليفة العباسى المنصور (٧٥٨) وعبدوه إلها، فزج بكثير منهم فى غياهب السجون. فثار آخرون منهم علانية على إلههم الجديد(4). ولم يثر بعدها إلا المقنَّع، هكذا أطلق عليه العرب هذا الاسم لأنه أتخذ قناعاً من معدن، وكان يروج فى خراسان بأن روح الله وقد انتقل من نبى إلى نبى، قد انتقل إلى ذات أبى مسلم قبل قليل ثم استقر فيه هو فى النهاية. وقد أضل أتباعه واستغواهم بحركات بهلوانية، وأشعل فيهم جذوة التعصب، وثبت فى مقاومته لجيوش الخليفة، ولما ضيق عليه الخناق فى إحدى القلاع (٧٧٦)، قتل نفسه ورفقاءه(5). ولم توقف عمليات القمع الدعاية

---

(1) الشهرستانى، المرجع المذكور، ص ١٨٧.

(2) انظر الكتاب الأول، الفصل السادس، ص ١٤٠ ـ ١٤١ من المجلد الأول.

(3) قارن بين: كتاب **الفهرست**، المجلد الثانى، ورقة ٢٢٠ الوجه الأول، والشهرستانى، المرجع المذكور، ص ١٩٤. وكلاهما يعد فرقة أبى مسلم من بين الفرق التى انبثقت من المزدكية.

(4) ابن الأثير، عام ١٤١، المخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ١٢٥ الوجه الثانى؛ وأبو الفدا الذى نسخه ونقله فى، *Annales Moslemici*، عام ١٤١.

(5) ابن الأثير، عامى ١٥٩ و١٦١، المخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ١٤٨ الوجه الثانى والورقة ١٥٠ الوجه الثانى؛ وأبو الفدا، المرجع المذكور، عام ١٦٣. ولكننى أتبع الترتيب الزمنى الذى جاء عند ابن الأثير.

السرية لكل هذه الفرق المجوسية، والزنادقة، وقد أطلق عليهم هذا الاسم باستخدام كلمة عامة يُعتقد أنها مشتقة من اسم زند الشهير. وكان الخليفة العباسى المهدى يضطهدهم اضطهاداً لا هوادة فيه ولا لين (٧٨٤ ـ ٧٨٥)، ولذا أنشأ ديواناً خاصاً لتعقبهم أطلق عليه اسم ديوان الزنادقة(1)، وعندما كان يُحكم على أحدهم بالتعذيب، كان المهدى يحث ابنه الهادى على الاستمرار فى نفيهم وتشريدهم، عندما يتولى الهادى الخلافة من بعده لأنه كان يرى أن الزنادقة هم المانويون، الملاحدة الفجار الذين حَّرموا أكل اللحوم، وكانوا يعيشون فى زهد فاسد كاذب، ويؤمنون بإلهى النور والظلمة، ويتوضأون بشكل مثير للتقزز والإشمئزاز، ويستبيحون الزواج بالبنات والأخوات، ويسرقون أطفال الآخرين لتنشئتهم وتربيتهم على عبادة إله النور(2). وكان الشاعر بشار بن برد ضريراً، وشيخاً طاعناً فى السن إذ كان يبلغ من العمر تسعين عاماً عندما حكم المهدى عليه بالموت (٧٨٢)، أثناء اضطهاده للزنادقة، وهو ظلم وقع عليه لشك الدولة فيه، أكثر من تعصبها الدينى(3). وبعد ذلك ظهر رجل يُدعى جندوان(4) يطمح فى جلال الألوهية، فاستولى على قلعة بيدس(5) فى آذربيجان، وكان له فيها جنود ومتعبدون، وقد مهد بذلك الطريق أمام بابك الوافد من المدائن، وبابك هذا كان دجالاً كل الدجل ومداهناً كل المداهنة. فعند موت جندوان، أكدت زوجته لانصاره بأنها رأت بابك الشاب وهو

---

(1) ابن الأثير، عام ١٦٨، المخطوطة *A*، المجلد الأول، الورقة ٢٩ الوجه الثانى.

(2) ابن الأثير، عام ١٧٠، المخطوطة *A*، المجلد الأول، الورقة ٣٩ الوجه الثانى.

(3) أبو الفدا، *Annales Moslemici*، عام ١٦٦.

(4) وهذه الكنية، كما جاء عند ابن الأثير، تعنى «الخالد». أما اسمه الموروث فهو ابن سهل.

(5) هكذا جاء اسمها فى كتاب **مراصد الإطلاع**. ويكتبها المؤرخون باستخدام أداة تعريف، فيعطون للحرف *dsal* قيمة حرف *d* البسيط وقد ينطقونها بد، أو البد.

يلتقط النفحة الإلهية التى زفرها المحتضر، وبما أنهم كانوا فى مسيس الحاجة لزعيم لهم، فقد آمنوا بهذه الخرافات وبكثير غيرها. وأتبع بابك بالضرورة عقيدة تناسخ الأرواح وتأليه المضللين الغاوين السابقين عليه؛ واتبع مذاهب مَزْدك الشيوعية، حتى آل به الحال إلى إتيان المحارم وسفاح القربى؛ ولكنه أضاف إلى هذه الأبيقورية المخجلة انفعالات الخوارج وحنقهم، وضرورة خوض الحرب، واجازة الفساد فى الأرض، والسلب والنهب، والقتل وسفك دماء أتباع المعتقدات الأخرى. وقد أطلق العرب على دين هؤلاء اسم دين المجون وعقيدة المُجان، وأطلقوا على أتباع هذا المذهب اسم الخُرَّمية، أو كما نقول نحن المتحررون من القيود والأخلاق. وتجمع حول بابك وراياته رجال يميلون كل الميل إلى الخلاعة والعربدة، ولمدة عشرين عاماً (٨١٦ ـ ٨٣٦) واقع الجيوش العباسية ونكّل بها مراراً فى المناطق الشمالية من بلاد فارس، وكما يُقال أوقع بهم مذابح نكراء. وفى نهاية المطاف استولت الجيوش العباسية على قلعة بيدس، وتعقبته إلى أرمينيا، ثم سيق إلى بغداد مقيداً مغلولاً، وعُذب عذاباً أليماً حتى الموت وهو يتحمل ذلك بقوة وصلابة الأبطال(1).

وبعد وقت قصير من هذه الأعمال الخطيرة التى وقعت من الجنس الفارسى نشاهد بدء الحركة متخذة أشكالاً أخرى، ولكن هذه المرة من جانب الجنس العربى. وكان الذى نظمها ووضع مبادئها عبد الله بن ميمون، المعروف بالقداح أو الإمام المستودع، وهو من بلدة كوزه(2) القريبة من الأهواز فى بلاد كوزيستان، وهو رجل من فرقة

(1) قارن بين: كتاب **الفهرست**، مخطوطة باريس، المجلد الثانى، الورقة ٢١٧ الوجه الأول وما بعدها؛ وابن الأثير، أعوام ٢٠١ و٢٢٠ و٢٢١، المخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ١٩١ الوجه الأول والورقة ٢٠٣ الوجه الثانى، والورقة ٢٠٥ الوجه الأول وما بعدها؛ وأبو الفدا، *Annales Moslemici*، عام ٢٢٦.

(2) وهذا الاسم مذكور فقط فى كتاب **الفهرست**، ولست متأكداً مما جاء به ذلك المخطوط الردئ.

الديصانية مثل أبيه كما أشرنا إلى ذلك آنفاً(1). وقد أسس ميمون فرقة جديدة أخذت اسمها منه، وذاع صيت ابنه وطبقت شهرته الآفاق لقدرته الفائقة فى أعمال السحر والشعوذة وخفة اليد(2)، وأوعز إلى الناس أنه بالإرادة والنية يمكنه الانتقال فى طرفة عين من أقصى الدنيا إلى أقصاها. وتعلم ودرب نفسه على يد المنجمين والدسَّاسين وبعض تلاميذ بابك المتـأخرين والبقية المتبقية من الفرق المجوسية(3). ويبدو أنه قرأ مذكرات كاليوسترو، ومبادئ العلوم الطبيعية، وفنون الدجل بأشكاله المختلفة وحيله وفتنه، وكذلك قرأ عن ذلك المأرب السياسى البعيد المتراكم بصبر وأناه والملقى على عاتق أبناء الأبناء. ويبدو أن بغية عبد الله كانت تكمن فى أن يجعل الجنس المنتصر، إن لم يُطعه فعلى الأقل أن يدين بالطاعة لسلالته وعقيدته. وهذا الجنس المنتصر قد حاربه بلا طائل المقنع وبابك مستخدمين جيوشاً فارسية. ولذا أراد

(1) هكذا يزيل كتاب **الفهرست** أى شك. أما المقريزى فقد أعتقد أن اسم ديصان هو اسم الأب، ولذا كتب ميمون بن ديصان؛ وقد شك دى ساسى فى وجود بعض الأخطاء فى اسم بارديسان المعروف، ولكنه لم يوضح ذلك. انظر كتابه، *Chrestomathie Arabe*، المجلد الثانى، ص ٨٨ وص ٩٤. ولقد تحدثت عن فرقة الديصانية فى ص ١١٣.

(2) فى كتاب الفهرست نقرأ كلمة شعوذة التى تعنى «خفة اليد» أو *prestidigitation* كما يقول الفرنسيون. ويبدو لى أن اللفظة فى هذا المقام تؤخذ بمعناها العام.

(3) الروايات المختلفة حول أصول فرقة الإسماعيلية نقرؤها بكل تفصيل ودقة أكثر من أى مكان آخر فى كتاب **الفهرست**، مخطوطة باريس، المجلد الثانى، الورقة ٥ الوجه الثانى حتى الورقة ٩ الوجه الثانى، حيث يستشهد المؤلف ببحث خاص عن هذه الفرقة، كتبه ليحاربها به أبو عبد الله بن زورام أو (رزام). وبالرغم من اختلاف الروايات الموجودة فى كتاب **الفهرست** والتى يعتبرها مشكوك فيها، فإنه يبدو لى أنها مترابطة فيما بينها جميعاً أيما ترابط وأنه يمكن قبولها كلها. أنظر أيضاً المقريزى، فى كتاب ساسى، *Chrestomathie Arabe*، المجلد الثانى، ص ٨٨؛ وساسى نفسه فى كتابه، *Exposé de la religion des Druses* ، المجلد الأول، الصفحة الثالثة والستون والصفحة السبعون وما بعدها. ويؤكد المقريزى، ويردد م. دى ساسى ببساطة فريدة من نوعها، أن عبد الله بن ميمون هو الذى قام بعمل هذه الحبكة والمؤامرة، ليس إلا لبلوغ غرض واحد وهو الدعوة للإلحاد والمجون.

الاستحواذ والاستئثار بفرقة الشيعة، فهى فرقة كبيرة للغاية ومفعمة بالحماس، وكانت حتى ذلك الحين متفرقة ومبعثرة، فأراد أن يضع على ذلك الأصل القوى المتين المبادئ والمعتقدات الخفية التى يعتنقها الفارسيون. ومن ثم كان من المحتمل أن يكون زعماء الفرقة جُلهم من الجماعة العربية، الذين قد يقبلون الإمبراطورية الإسلامية ويغيرون الأسرة الحاكمة. وكانت توجد بين الشيعة، كما أشرنا إلى ذلك، العديد من الفروع، كل فرع منها يعتقد بأحقية وشرعية إمامه، أو نقصد خلفاءه، الذين ينحدرون من نسل على؛ فمنهم مَنْ كان يرى أن الإمامة فى نسل محمد بن على وابن الحنفية؛ ومنهم مَنْ يرى أنها فى أبناء الحسن، ومنهم من يراها فى الحسين وهما من أبناء على وفاطمة؛ وكان هناك اتفاق فى ذرية الحسين حتى نصل إلى جعفر، الملقب بالصادق (٧٦٥)، وكان بعض الشيعة يعترفون بموسى ابنه الرابع، وآخرون بأبناء إسماعيل، ابنه الثانى الذى توفى قبل جعفر، ولذا سُمى أنصار هذه الفرقة بالإسماعيليين(1). والظاهر أن هؤلاء لم يكن لديهم مَنْ ينصبوه بالإمامة، ومن هنا إما أنهم أشاعوا بين الناس بأن محمد بن إسماعيل لازال حياً، وإما أنهم نسجوا فى نسله سلسلة من الأساطير الخاصة بالأئمة المستورين، أو كما نقول نحن بالأئمة الخفيين، الذين لا تعرفهم العامة ولا تعرف حتى أسماءهم. ولهذا أو لسبب آخر أياً كان، فإن الأعجمى ابن قداح قد أختار لتحقيق مآربة هذه الفرقة من فرق الشيعة.

وانتقل ابن قداح من جنوب بلاد فارس إلى البصرة، وأخذ يبث دعوته فيها، فلما أُكتشف أمره اضطر للهرب وأختفى فى السَلَمْية بالقرب من حمص؛ وهناك أشترى ضياعاً متظاهراً بالاهتمام بالفلاحة، ومن هناك أخذ يرسل إلى كل مكان دعاته، أو المبشرين

(1) دون الأكثار من الاستشهادات سأقتصر على الإشارة إلى الشهرستانى، المرجع المذكور، النص العربى، ص ١٥، ١٦، ١٢٧.

بدعوته، فأرسل إلى الكوفة حمدان بن أشعث، الملقب بلقب قرمط، وهو رجل من سلالة العرب، ويبدو أن عبد الله قد وجد فيه طلبته وبغيته. ولكن العربى، ما أن اجتذب إليه الناس، حتى كوّن فرقة جديدة دُعيت باسم القرامطة، أو كما نقول القرمطيين(1) وصار زعيماً لها وبعد عشرين سنة (٨٩٩) ثار القرامطة فى البحرين، وهى منطقة بالجزيرة العربية، حيث انتشرت فرقته فيها بكل سهولة ويسر بين أناس أحرار يتسمون بالعزة والإنفة ولا يأبهون من بطش الخلافة البعيدة عنهم. وفى مذاهبهم نتبين خلط ومزج الأساطير والمعتقدات الفارسية مع طبيعة الجنس العربى المستقلة: فمن ناحية نجد تأليه الإمام، وممارسة شعائر دينية جديدة مانوية أكثر منها إسلامية؛ ومن ناحية أخرى نجد تجاوزاً فى الشيوعية المزدكية وكل مناقب ومثالب مبدأ الشورى الذى نادى به الخوارج. ويبدو لى أن المثقفين قد اقترفوا خطأً بيناً بوضع القرامطة من بين الإسماعيلية، إذ لم يكن القاسم المشترك بينهم إلا الشعائر والطقوس التى يؤدونها، وبعد ذلك انقسمت بين قرمط وابن قداح؛ ولم يكن التشابه بينهم إلا فى بعض الأشكال والأسرار. وفيما عدا ذلك فكانوا يسيرون فى اتجاهين متضادين مثل قطبى العالم. فالإسماعيلية تمسكوا بنظام الجماعة السرية عندما لم تكن هناك ضرورة لذلك، أى بعد ظهور الأسرة الفاطمية (٩١٠) وارتقائها مقاليد الحكم، وبعد فتنة وثورة الحسن بن صباح بعلاموت (١٠٩٠)؛ ولم يتنكروا مطلقاً للإسلام؛ وإذا كانوا قد أقروا الاستبداد

(1) كتاب **الفهرست**، المجلد المذكور، الورقة ٦ الوجهين الأول والثانى. واسم حمدان ذكره ابن الأثير. ونطق كلمة قرمط حددها الصفدى فى، **معجم الأعلام**، مخطوطة باريس، الملحقات العربية ٧٠٦، مقالة عن سليمان بن حسن. وهناك أصول أخرى لهذا اللقب الذى فى قول كتاب **الفهرست** يرجع إلى اسم قلعة من القلاع. وبالنسبة للأحداث التى وقعت انظر أيضاً المقريزى، فى كتاب ساسى، *Chrestomathie Arabe*، المجلد الثانى، ص ٨٩.

والخرافة فى مذهبهم فقد أظهر ذلك أتباعهم من دروز وحساسنة. أما القرامطة فعلى النقيض من ذلك، فبالرغم من عدم رضائهم مس الإسلام بسوء، فإنهم كانوا يستهزئون بكل عقيدة وشعيرة، ويتضجرون من البقاء فى ظلمة الجماعة السرية؛ ولذا أسسوا لأنفسهم دولة حرة بل إباحية، ولم يكن لهم أمير متأله، بل رئيس سياسى، يُدعى فقط بلقب كبير، وأحياناً بدلاً من اظهارهم الطاعة لكبير واحد، فقد كانوا يدينون بالطاعة لستة أئمة يُلقب كل واحد منهم بلقب سيد، ومن ثم فكلمة أئمة عندهم تعنى سادة، مثل سادة مكة قبل ظهور النبى محمد وسادة جمهورياتنا فى العصور الوسطى(1). وكلنا يعلم أن القرامطة، طيلة القرن العاشر كله، قد قاتلوا قتالاً شديداً من الجزيرة العربية وحتى مصر الخلافة العباسية وكذلك الخلافة الفاطمية، وأنهم سفكوا أنهاراً من الدماء، واستولوا على مكة، وأخذوا الحجر الأسود المقدس من الكعبة، ليبيعوه بثمن باهظ للمسلمين الأتقياء، وأنهم من أحد أسباب انهيار الدولة الإسلامية وسقوطها.

(1) ابن الأثير، عام ٢٧٨، المخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٢٦٩ الوجه الثانى، يذكر أخباراً دقيقة مفصلة عن أصول القرامطة، وتعاليمهم، وطقوسهم: من هذا الفصل نجد أن الجزء الأقل أهمية قد قام بنقله النويرى وبترجمته ساسى، المجلد C، ص ٩٧. انظر أيضاً ساسى، ص ١٢٦ من نفس المجلد. ورأيى فى أن القرامطة والإسماعيلية لهما اتجاهان مختلفان، يتأكد من التفاصيل التى ذكرها ابن الأثير. وقد لاحظ أيضاً تيلور ذلك الاختلاف فى كتابه، *The history of Mohammedism and its sects*، ص ١٧٢، وإن لم تكن تحت يديه كل الوقائع حتى يمكنه اثبات هذا. والتطابق بين القرامطة والإسماعيلية قد أثبته ساسى فى كتابه *Exposé de la religion des Druses*، الصفحة الثالثة والستون وما بعدها، وكذلك أكده دى هامر فى كتابه، *Histoire de l'ordre des Assassins*، ص ٤٧ ـ ٤٨، وذلك بناءً على تصديق ما ذكره المصنفون المسلمون الذين استشهد بهم. وكتاب **البيان**، الذى لم يُعرف حينئذ، يضم فى ص ٢٩٢ وما بعدها، من المجلد الأول، حكاية عن الإسماعيلية والقرامطة؛ وفيه تعاد بمزيد من التفاصيل والأحداث المعروفة، ومنها فضيحة ليلة عيدهم، المعروفة باسم الإمامية، وهو اسم له مغزى كبير، فهو اسم أبناء الإخاء، ويُطلق على الأبناء الذين يولدون من تلك العريدات.

وظلت حركة الإسماعيلية السرية لمدة زهاء ثلاثين عاماً تسير بتؤدة، بزعامة العديد من أئمة سلالة عبد الله بن القداح، الذين خلف الواحد منهم الآخر حتى سعيد بن الحسين (٨٧٤ ـ ٨٨٣) الذى أخذ يبث دعوته فى بلاد فارس، وفى سورية(1)، واستطاع إتمام مذهبه، الذى كان عبارة عن نظام مراتب يتكون من: داعية أكبر، أو كما نقول نحن المعلم الأكبر؛ وتحته يوجد دعاة للأمصار وآخرون للسواد، والحواضر، والقرى، وكل واحد منهم يختار تابعاً له لا يعرف سواه ورئيسه المباشر. وكان الدعاة منخرطين فى هذه الحركة، وكانت اشتراكات الجماعة تمدها بالمال لسد احتياجاتها أو طلبات رؤسائها. وبعد أن كشفوا النقاب عن حقيقة أمرهم، كانوا قد أعدوا لأنفسهم قلعة أطلقوا عليها فى لغتهم «دار الهجرة»؛ ولما حكموا، عقدوا اجتماعات عامة فى «دار الحكمة»، وفيها كان الداعية يلقى الخطب الدينية التى تدور حول الأسرار والأخلاق. وكثير منها يُستخلص باليقين التاريخى. والظاهر أنهم كانوا يقسمون إلى مراتب مختلفة؛ من المرجح أنها كانت تسعا، من أول مدخلها وصولاً إلى أعماق وخبايا آخر سر من أسرارها، أو بالأحرى حتى معرفة ذلك السر؛ وهو كشف وإظهار الأئمة والدين والأخلاق، كل هذا ما هو إلا وهم وخداع. وكان الداعية يغرر ويغوى المعتنقين الجدد لمذهب هذه الحركة وعقيدتها وذلك بإثارة الريبة فى أنفسهم حول بعض المسائل فى الإسلام. ثم يجعله يُقسم على السرية والطاعة؛ وبعد ذلك يضعه فى المرتبة التى يراها تتناسب مع قدراته؛ ثم ينتقل من التأكيد على العقائد والمفاهيم الإسلامية، إلى أحقية العلويين ونسل إسماعيل فى وراثة الإمامة، إلى مذهب الإمام المستور، المعروف فقط للداعية الأكبر، إلى التأويل الباطنى للقرآن: وكانت المعانى الباطنية المجازية فى القرآن تدق بالتدريج حتى تتبدد

(1) **كتاب الفهرست**، مخطوطة باريس، المجلد الثانى، ص ٦ الوجه الثانى.

وتتلاشى فى نهاية الأمر فى عدم التصديق والظاهر أن هذه المرحلة الأخيرة يختص بها المعلم الأكبر، الذى يزعم أنه يحفظ بين جنبيه المهدى المنتظر ولهذا لا يمكن حقاً الإيمان بالإسلام ولا بأى دين فى العالم. وتُظهر المراتب الأخرى لهذه الحركة اظهاراً حقيقياً النظام الهرمى الذى أرادوا تأسيسه: فجمع المسلمين فى قاعدة الهرم؛ وفوقهم الشيعة؛ وبعد الشيعة المتشيعون لإسماعيل؛ ثم يليهم الدعاة بمعتقداتهم المانوية؛ وعلى قمة الهرم أسرة ابن قداح الفارسية(1).

وكان سعيد بن الحسين، يمسك بزمام هذه الحركة فى السلمية، عندما فكر ابن حوشب، وهو داعية اليمن فى أن يرسل إلى أفريقية الشمالية مَنْ يقوم باستتبات الأرض، كما كان يُقال فى لهجة هذه الفرقة. وعمل فيها رجل يُدعى ابن سفيان فى البداية، ثم الحلوانى. وبعد وفاته، وضع ابن حوشب مكانه رجلاً أقوى شكيمة، سُمى الشيعى تيمناً. وكان اسم هذا الرجل هو أبا عبد الله الحسين بن أحمد، من صنعاء باليمن، وكان مناصراً متحمساً للعلويين، وكان يعمل من قبل محتسباً، أى صاحب الشرطة، لدى العباسيين فى بغداد؛ وكان يتسم بالجسارة، وسعة المعرفة، وبالخبرة بكل فنون المراوغة والتمويه. وقد توجه (٨٩٣) من اليمن إلى مكة وهو يحمل معه أموال الفرقة، ليجذب إليه الأنصار والأتباع من بين الأفريقيين الذين يؤدون فريضة الحج. ووضع نصب عينيه أحد شيوخ قبيلة كتامة وجماعته الكبيرة التى تتبعه وتحيط به. فاندس أبو عبد الله

(1) عن جماعة الإسماعيلية انظر كتاب ساسى، *Exposé de la religion des Druses*، المقدمة؛ وكاترمير فى كتابه، *Memoires historiques sur les Fatimites*، فى، *Journal Asiatique*، أغسطس ١٨٣٥، والجوانب الإسلامية التى استشهدا بها.

ورواية المقريزى عن نظام المذهب المنتصر أثناء حكم الفاطميين جديرة بالنظر والاهتمام، وهى فى كتاب ساسى، *Chrestomathie Arabe*، المجلد الثانى، ص ١٤٠ وما بعدها.

بينهم، متظاهراً بأنه وجد نفسه بالمصادفة فى هذا الموضع، وجذبهم إليه وأغواهم، وبدأ فى تبادل الزيارات معهم. وعرف أنهم من الإباضية، وهى فرقة من فرق الخوارج، كما أشرنا إلى ذلك، وبالتدريج كشف لهم أنه هو أيضاً يناصب الخلفاء العداء، حيث أنه ترك خدمتهم لأنها ليس بها من الخير أى نصيب، ويود أن يحيا الآن مفسراً القرآن للنشئ. وقد يروق له عمل هذا فى الغرب، إذ أنه كان يرى أن مصائر الأمة الإسلامية هناك مبشرة وواعدة. وبالخداع وحسن البيان واظهار التقوى والنسك، استرق نفوس هؤلاء العجم وفتنها، لدرجة أنهم ترجوه أن يأتى معهم إلى أفريقية وأن يفتح فيها مدرسة له، ولكنه لم يرد على طلبهم لا بالإيجاب ولا بالنفى، تاركاً نفسه تنساق، رغماً عنه أو متظاهراً بذلك، للتوجه إلى حواضر مصر وأفريقية، التى بحث فيها بحثاً متعمقاً أحوال القبائل البربرية وظروفها. فوجد فى قبيلة كتامة بغيته. ولذا تظاهر بأنه استجاب لطلب الكتاميين وتوسلاتهم، فقبل رفادتهم والقيام بأعمال الإمامة فى أحد مساجدهم وبالتدريس للعامة، ولكنه رفض أن يتقاضى على ذلك أجراً، وأطلع أقربهم إليه على مبلغ يبلغ مقداره خمسة آلاف ديناراً، وأشار إلى مصدر هذا الذهب وهو مصدر خفى لا ينفذ، وأشار إلى سلالة على المقدسة، وإلى الألوف المؤلفة من الرجال الذين يناصرونها ويزمعون الفتنة من أجلها فى جميع أرجاء العالم الإسلامى، وإلى الجزاء العظيم الذى ينتظر فى الحياة الدنيا والآخرة مَنْ يساعد ويمد يد العون لنصرة الإمام المستور ولم تكن مباشراته تنال اعجاب جميع هؤلاء الإباضيين، الذين كانوا يضمرون العداء لأوتوقراطية على ولسطانه المطلق، ولكن الكثرة الكثيرة منهم كانت تمقت ألف مرة إبراهيم بن أحمد الذى كان على قيد الحياة، أكثر من كراهيتها ومقتها لعلى الذى قُبر منذ قرون، وتعادى الهيمنة والسيطرة الأجنبية أكثر من معاداتها للاستبداد. وكان

الاستبداد ذاته يبدو لهم ثقيلاً إذا ما حملوه على أعناقهم، وهينا متى وضعوه على أعناق غيرهم. واستطاع أبو عبد الله أن يكون لنفسه الكثير من الأتباع الذين قدموا له أنفسهم وأموالهم. وبقدر إنغلاق الأسرار الخاصة بهذه الفرقة وغموضها، بقدر ما كانت تشعل جذوة الحماس العنيف فى نفوس أتباعها، لدرجة أن أحد أئمتها قتل بيد أخيه عندما جاهر بأن عبد الله دجال كاذب. وبعد سبع سنوات، أى فى عام تسعمائة من العصر المسيحى، شرع أبو عبد الله ينشر دعوته جهراً(1) فى منطقة سطيف، الواقعة بين جبال إكچان التى كانت مقراً لإحدى قبائل كتامة(2).

وكان الكتاميون يقيمون فى الجزء الأكبر من إقليم قسطنطينة الحالية، وهى منطقة مربعة الشكل، تمتد من بوچا وبونا الواقعتين على الساحل، حتى بلزاما وبجاية فى سلسلة جبل أوراس: وهى منطقة جبلية قامت القبائل المستقرة باستنباتها وفلاحتها، بينما كانت القبائل الرُّحل تستغلها فى الرعى والكلأ. وكان الرُّحل منهم يتميزون عن باقى البربر ويختلفون عنهم، من حيث العادات، والتقاليد، واللهجة؛ حتى أن العلماء والباحثين عللوا هذا بقرابة الدم مع الجنس العربى. ومهما يكن من أمرهم، فإن الكتاميين لم يتآخوا مطلقاً مع الفاتحين، ولم يذعنوا لهم إلا بالطاعة الاسمية، ولم يخضعوا لدفع الجزية، كذلك لم يتخلوا عن عاداتهم الأصلية التى نشأوا عليها. ومثلهم مثل كل الأمم البربرية، يبدو أن الكتاميين كانوا يعيشون فى اتحاد بدائى يؤلف بينهم، يقوم على رابطة الجنس، أكثر من قيامه على رابطة القانون، وإذا كانت هذه الصلة

(1) قارن بين: وراق، مصنف آسبانى عاش فى القرن العاشر، جاء ذكره فى كتاب البيان، المجلد الأول، ص ١١٧ ـ ١١٨؛ والمقريزى، فى كتاب ساسى، *Chrestomathie Arabe*، المجلد الثانى، ص ١١١ وما بعدها.

(2) فى هذا الموضع انظر مذكرة شيربونو فى، *Journal Asiatique*، ديسمبر ١٨٥٢، ص ٥٠٩.

لا تكفى هذه القبائل لتحيا بمنأى عن الحرب الأهلية وعن الهيمنة الأجنبية، فإنها كانت كافية لجعلها تتآزر وتهب فى الحال ببسالة وإقدام وبأقل مجهود إذا ألمت بها ملمة. وفى بداية القرن العاشر، كانت قبيلة كتامة قوية للغاية من حيث عدد رجالها أو جنودها. ولذا ورد فى الأثر أن ثلاثمائة ألف كتامى قد هاجموا مدينة القيروان؛ ومن المذكرات الأكيدة والكثيرة نعرف كم من جيوش سارت فى ذلك القرن حتى وصلت إلى المحيط الأطلنطى وما وراء النيل تحت رايات الفاطميين وشاراتهم، وفى حروبهم التى استنزفت الكتاميين وراح ضحيتها الكثير منهم؛ ولذا وجدوا أنفسهم قد أصابهم الضرر وآل بهم المآل إلى أربعة آلاف رجل فى منتصف القرن الثانى عشر؛ وفى القرن الرابع عشر كانت بعض القبائل التى تبقت منها تعانى نير مدينة تونس وظلمها، والآن اختفى اسمها وتلاشى(1). وفى ذلك الاتحاد القبلى لم تكن القبيلة التى استقرت فى إكچان لها السبق والغلبة فيه على وجه اليقين. ولكن فطنة أبى عبد الله، وتجمع طائفة الإسماعيلية من حوله وحماسها له، قد منحتها تلك القوة لاخضاع بعض القبائل المناوئة له والتغلب عليها، واجتذاب القبائل الأخرى لتمشى فى ركابها، وتوحيد الكتاميين، بل جزء كبير من البربر، للوقوف ضد الفاتحين العرب. ومن جانبه فإن إبراهيم بن أحمد كان قد مهد تلك الأرض وحرثها أكثر من المزارعين الإسماعيليين النساك. حتى أنه خلَّص الكتاميين من الضيق والشقاء الذى كان المحاربون العرب يسومونهم إياه فى بلزاما.

وهو نفسه الذى أطلق الشرارة الأولى. فلما علم من والى ميلا أن معلم إكچان السرى قد تجرأ واتهم أبا بكر وعمر بالكفر، أرسل إليه

(1) قارن بين: الإدريسى فى كتابه، **الجغرافيا**، ترجمة م. چوبير الفرنسية، المجلد الأول، ص ٢٤٦؛ وابن خلدون، **تاريخ البربر**، ترجمة م. دى سلان الفرنسية، المجلد الأول، ص ٢٩١؛ وأخبار جوته، فى كتاب نيكلسون، *An account of the establishment of the Fatemite Dynasty*، ص ٨٨.

يحذره وأن يكف عن هذا الكلام ويمسك لسانه، وإلا سيرى ما يحل به.
ولكن أبا عبد الله، بدلاً من الرد عليه، جرد له (٩٠١) جيشاً جراراً، به رموز لم تر من قبل، مكتوبة على الأعلام، وفى أختام الرسائل، وعلى علامات الخيل؛ ونظم مهام إدارة الجيش؛ وحصّن «دار الهجرة» فى إكجان؛ وأطلق نداء الحرب وهو يقول: «إلى الجهاد، يافرسان الله»، معلناً صراحة وعلى الملأ قيام الثورة السياسية والدينية. وهكذا فإن حركة الإسماعيلية، ما أن استكملت استعداداتها فى هدوء بين أناس محاربين وفى أماكن يصعب على جند الولاة اجتيازها لمراقبتها، حتى خرجت فجأة من الظلمة والسرية متخذة شكل دولة قديمة تحارب، ولم تخرج فى جموع كثيرة مضطربة وهائجة. اضطرب إبراهيم من هذا الأمر الخطير، وأدرك أن طاقته التى بددها سدى، لم تعد تكفى للوقوف فى وجه فتنة الشيعة، ومع ذلك حاول بث الفرقة وإشعال نار الحرب الأهلية بين الكتاميين، وتهدئة الشعوب الأخرى واسترضائها بالاصلاحات التى قام بها؛ وسارع بالتنازل عن الحكم. وعندما نزل عن العرش أوصى ابنه بألا يكون هو البادئ أبداً فى مهاجمة الشيعة، وبأن يدافع عن نفسه ثم سار قاصداً صقلية بعدما أدار له القدر ظهره(1).

(1) قارن بين: **البيان**، المجلد الأول، ص ١١٨؛ وابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ترجمة م. دى فرچيه، ص ١٤٥ حتى ص ١٤٧؛ والمقريزى، فى كتاب م. ساسى، *Chrestomathie Arabe*، ورقة ١ الوجه الثانى.

الفصل السادس

وإذا كان فى مقدور رجل أن يرفع الضرر الذى لحق بأسرة الأغالبة، فذاك الرجل هو عبد الله، خليفة الطاغية المستبد. وعبد الله هذا هو النموذج الرائع للأمير المسلم فى العصور الوسطى: إذ كان شجاعاً، فارساً، مجيداً للمبارزة، قائداً حكيماً، عبقرياً، شاعراً، منطقى الفكر، واسع المعرفة، ممسكاً بجوامع الكلم، والأهم من هذا كله أنه كان عادلاً، كريم الأخلاق، محباً لعمل الخير، معتدلاً فى ممارسة شئون الحكم، متمسكاً بتعاليم دينه. وحينما تولى مقاليد السلطة فى البلاد بعد تنازل والده عن العرش(1)، أرسل رسائل دورية لكى تُقرأ على السواد المجتمع، وفى هذه الرسائل قطع على نفسه عهداً بمضاء عزيمته وحميتها فى الجهاد فى سبيل الله، واتباع اللين والعدل فى حكمهم، ومراعاة المصلحة العامة، وبألا تُكتب أقوال عن الأمير الجديد إلا مقترنة بالأفعال، ولذا جمع من حوله مجلساً يضم العديد من أهل العلم والدين (وهذا كلام ابن الأثير)، الذين كانوا يعينونه على تسيير الأمور بالعدل. ويضعون القواعد والقوانين التى تمليها ظروف الرعية وأحوالها. وقد حذا الأمير حذو مَنْ سبقه من الأمراء، إذ كان يجلس فى ديوان المظالم، ويطلب من القضاة القضاء بالعدل فى حق الموظفين العموميين، ورجال حاشيته وبطانته، وأقربائه أو أولاده، وفى حقه هو نفسه،

(1) أعتقد فى يوم ٢٢ من شهر ربيع الأول، عام ٢٨٩هـ (الموافق ٥ مارس ٩٠٢م) وليس فى منتصف شهر يونية من العام نفسه. وهذا وذاك التاريخ نقرؤهما عند نفس المصنفين. وربما لم يكن هذا من قبيل الخطأ، لأن التاريخ الأول يجب فهمه وأخذه من بدء ممارسة السلطة العليا. أما التاريخ الثانى فمن بدء الاحتفال المهيب انتظاراً لوصول كتاب الخليفة العباسى بتوليته الحكم. انظر المصادر المذكورة هنا ص ٧٩، وابن الأبار، مخطوطة الجمعية الآسيوية بباريس، الورقة ٣٣ الوجه الثانى، والتى تذكر بالضبط تاريخ ٢٢ من شهر ربيع الأول.

دون أن يضعوا فى الاعتبار مكانة الشخص. وعندما عين قاضياً جديداً للقيروان، عهد إليه الأمير بالفصل بكل حزم فى المظالم التى يقترفها جباة الضرائب وبحماية المظلومين. وفى ذات الوقت قام الأمير بإجراء إصلاحات فى بلاطه وحاشيته: وارتدى الصوف كما كان يفعل الخلفاء الأوائل؛ وسرَّح رجال حرسه الخاص؛ ولاذ مسرعاً بالفرار من قلاع والده التى نزفت الدماء من أطرافها، حتى أنه أقام فى بداية الأمر فى إحدى الدور الضيقة المبنية بالآجر، وبعد ذلك ابتنى لنفسه داراً أخرى أكثر رحابة، وقد اشتراها من ماله الخاص. وبإقدامه وسجاياه القوية أنفذ عبد الله جيشاً تحت إمرة ابنه، وقال آخرون تحت إمرة أخيه، الملقب بالأحول، لمحاربة الشيعة، غير عابئ بنصائح أبيه التى تدعو لمهادنتهم وملاينتهم. وبالفعل تحقق النصر كما توقع ذلك الأمير المغوار، وكانت فرحة الناس وابتهاجهم تبشر بأن الفتنة، التى انحصر شرها فى قبيلة واحدة، سيتم وأدها سريعاً.

وعندئذ قام جبان خسيس بقطع كل آمال العرب بإفريقية ورجائهم بقتل أبيه. كان زيادة الله، ابن عبد الله، يحكم صقلية بعد وفاة إبراهيم، منغمساً فى لذائذ الحياة وغارقاً فى اللهو والمجون ترافقه فى هذا حاشية دنيئة كانت تحرضه على والده لأنها ضاقت ذرعاً بإصلاحاته الصارمة. وحينما تناهت إلى علم عبد الله تلك الفضائح، عزل ابنه من الإمارة، وأمره بالمجيئ إلى تونس؛ فوصل إليها فى شهر مايو عام ثلاث وتسعمائة، فعامله والده معاملة شاب منحرف مستهتر، فجرده من الأموال والمتاع وحبسه فى مكان بالقصر، وزج بخاصته فى غياهب السجون. ولكن الأسوار لم تقف حائلاً ضد تدبير مؤامرة بالبلاط، وبعلم زيادة الله. ففى يوم الأربعاء الموافق السابع والعشرين من شهر يوليو(1)،

(1) يوم الأربعاء الأخير، حسبما جاء عند ابن الأثير، واليوم قبل الأخير، حسبما ورد فى **البيان**، من شهر شعبان سنة ٢٩٠. ومن ثم نجد أن أحدهما يتبع التقويم الفلكى،

عندما خرج عبد الله من الحمام واستلقى لينال قسطاً من النوم على أريكة من الحصير فى مكان منعزل بالقصر، دنا منه ثلاثة من غلمانه السلافيين الذين كانوا محل ثقته الكبيرة؛ فسحب أحدهم بهدوء وخفية الحسام من تحت مخدعه؛ وضربه ضربة قاصمة حزت بكل دقة وحزم عنقه ولحيته وشجت الحصيرة من تحته. وعندئذ هرول أحدهم إلى محبس زيادة الله؛ وتسلق السور؛ وقدم له التحية ملكاً؛ وطلب منه الظهور أمام البلاط؛ ولكنه خشى المراء والخيانة المزدوجة، فلذا رد عليه إذا كان ما يقوله الحق والحقيقة، فليحضر إليه رأس أبيه؛ لذلك ذهب الخصى وعاد مسرعاً وألقى إليه الرأس من فوق السور. فأمسكها بيديه وتعرَّف عليها، وإذا بقاتل أبيه يقفز فرحاً؛ وأمر بفصد أبواب السجن وتحطيمها؛ وجمع كبار بنى الأغلب، الذين ساورتهم، أو لم تخالجهم، الريبة فى حقيقة ما حدث خشية من المستوطنين، أو لأن مناقب عبد الله وشمائلة كانت لا تزال مصدر قلق وإزعاج لهم، فأقسموا الولاء لخليفته وبايعوه. ولكى يمحو آثار فعلته، قام فى الحال وعلى التو بذبح القتلة الثلاثة وتعليق جثثهم على القصبة.

وقبل ذيوع فعلته الشنعاء وانتشار خبرها، كتب زيادة الله رسالة عليها خاتم أبيه إلى الأحول يطلب منه فيها المجئ تواً إلى تونس. ولم تساوره الريبة فى فحواها، فترك الجيش، وفى الطريق قُبض عليه ولقى حتفه. وقُتل كذلك حوالى ثلاثين شخصاً من إخوة، وأعمام، وأبناء عمومة الطاغية الجديد، فى جزيرة(1) سيَّرهم

وأن الآخر يتبع التقويم الهجرى. وقد تحدثت عن هذا فى الفصل الثالث من الكتاب الأول، ص ١٣٦ من المجلد الأول.

(1) يُقال اسمها جزيرة الكُرات. وقد أطلق العرب هذا الاسم على جزيرة صغيرة تقع فى كابو باسّارو بصقلية. ومن المعتقد أن الاسم قد انتقل حالياً إلى الإيطالية. ولكننى أرى هنا فى هذا المقام أن هذا الاسم يختص بجزيرة الكُرات الموجودة فى أفريقية، والتى تقع على بعد ١٢ ميلاً من تونس.

إليها بزعم إيفادهم هناك؛ وبدَّل القضاة، وأسبغ العطايا الجزيلة على الموظفين العموميين. هذا، ولم يكترث زيادة الله بأحوال الدولة خيراً كانت أم شراً، فانتقل مرة أخرى من سفك الدماء إلى التمرغ فى الأوحال. إذ كانت إمارته سبع سنوات قضاها مع القتلة المأجورين السفاحين، والمجَّان والمغنيين، والندماء، والمحظيات، والخُلعاء، والمستهترين؛ وقد آل به المآل إلى ضرب عملة تحمل اسم حاجبه خطاب. وعندما كانت تصله أخبار سيئة عن حربه مع الشيعة، كان يقول لساقيه: «ألا فاسقنى خمراً، ولننس الهموم فى هذا القدح»(1).

وفى هذه الأثناء كان أبو عبد الله يفتح أفريقية. وأثناء حكم إبراهيم بن أحمد كان قد تغلب على بعض السكان المزارعين وأخضعهم بالقوة (٩٠١) وحارب إحدى القبائل صعبة المراس من أمة الكتاميين نفسها. وعندما تقاتل مع جيوش الأغالبة فى عهد عبد الله، فإن ذلك العاصى المتمرد انتصر مرة عليهم، وفى مرة أخرى انهزم أمامهم؛ ودُحر عندما احتال عليه زيادة الله بقتل أبيه وأخيه (٩٠٣). وفى أعقاب ذلك، وبين زمازم الحرب وأهوالها، صعد حزب الشيعة صعوداً مستمراً. ولم يتبعه كل الكتاميين فقط، بل أيضاً شعوب أخرى من البربر، تبعته طواعيه زعيماً يبشرها ويعدها

(1) قارن بين: ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ١٧٢ الوجه الأول وما يليها، عام ٢٨٩، والمخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٢٧٩، ونفس العام، الورقة ٢٨٦ الوجه الأول وما يليها، عام ٢٩٦؛ ومخطوطة بيبرس، عام ٢٨٩، الورقة ٢٩ الوجه الثانى؛ ابن الأبار، مخطـــوطة الجمعيـــة الآســـيوية بباريس، الورقـــة ٣٣ الوجه الأول و٣٤ الوجـــه الثـــانى؛ **والبيـــان**، المجـــلد الأول، ص ١٢٨، وص ١٣٨، وص ١٣٩؛ والنويرى فى كتـــابه، **تاريخ افريقيـــة**، فى حاشـــيته على كتـــاب ابن خـــلدون، *Histoire des Berbères*، ترجمـــة م. دى سلان، المجلد الأول، ص ٤٣٨ وحتى ص ٤٤٠؛ وابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ترجمة م. دى فرچيه، من ص ١٤٦ حتى ص ١٤٩؛ وابن أبى دينار، النص المخطوط، الورقة ٢١ الوجه الثانى، والترجمة، ص ٨٧؛ وابن ودران فى، *Revue de l'Orient* ، ديسمبر ١٨٥٣، ص ٤٢٩ وما بعدها؛ **واخبار جوته**، ترجمة نيكلسون، ص ٥١، وص ٧٤ وص ٧٥.

بأوبة المهدى المنتظر، وبأن تخضع عندئذ كل أمم الأرض، وبأنه سيجعل الشمس تشرق من المغرب؛ وبأنه سيُظهر بعضاً من معجزاته وآياته. ومن علاماته إحراز النصر، وتوزيع الغنائم، وزهده، وتقشفه، وإثارة الآخرين، وإلغاء الخراج، أو كما نقول ضريبة الأطيان، وهى عسف وظلم قديم للغاية فرضه العرب على البربر وألزموهم به. وما أن دخل هذا المتمرد طُبنة، ووضع المال العام بين يديه، حتى رد الخراج إلى أصحاب الأرض المسلمين؛ وألغى الضرائب غير المنصوص عليها فى القرآن أو فى السُّنة، وأعلن للناس أنهم لن يراعوا من القواعد والقوانين إلا النصوص المقدسة. وفى المقابل دفع أتباع زيادة الله المخلصون غالباً ثمن الرذائل والمآثم المخزية التى اقترفها. والجيوش التى كانت تتشكل من الأرباض وما تبقى من الجند، أى بالمُعَذِبين والمُعَذَّبين (الجلادين والمجلودين)، كانت تسير بلا رغبة ومن غير عزيمة وحمية؛ ولذا كانت تتفرق فى بعض الأحايين أشتاتاً وتتبعثر قبل الاشتباك والالتحام بالأيدى، وذلك على الرغم من كثافة أسلحتها وآلتها الحربية؛ فأى قادة أمرَّهم ذلك الأمير عليهم؟ ففى خلال سنوات قلائل، هدد أبو عبد الله حاضرة أفريقية (٩٠٧). وعندئذ طفق الطاغية يعد عدة ضخمة للحرب وامتطى صهوة جواده بنفسه، ولكنه قفل عائداً وهو يرتعد فرقاً إلى رقادة، التى أضحت مقراً لبلاط وأسرة الأغالبة؛ وحصَّنها بأسوار من الآجر والرَّدْغَة(1)؛ وعهد، بعد فوات الأوان، بإمرة الجيش لرجل على علم بالحروب ومكائدها، ينحدر من أسرة الأغالبة، ويُدعى إبراهيم بن أبى الأغلب، ولكن قدرة هذا الرجل ومناقبه لم تفلح إلا فى تأخير إحراز العدو للنصر. وفى شهر مـارس سنة تسع وتسعمـــائة، عندما علم زيادة الله بهزيمـــة

(1) أنقل هكذا اللفظة العربية طابية *Tābia*، واللفظ الأسبانى *Tapia*، وأعتقد أيضاً أن اللفظ الصقلى *Taju* . وفى هذه اللفظة الأخيرة فإن حرف الباء *b* يبدو قد قُلب فى أول الأمر، على الطريقة الإغريقية إلى (ڤ) *V*، وتحول بعد ذلك إلى (چ) *J*.

إبراهيم الأخيرة. تملكه اليأس والقنوط وشعر بالخيانة والخذلان من جانبه، ومن كبير الحجاب، ومن جنده، ورعيته، ففقد العزم على الفرار تواً ودونما إبطاء. ولكنه أشاع أنه ظفر بالنصر؛ وحز رءوس البائسين اليائسين الذين كان قد وضعهم فى غياهب السجون وطاف بها فى طرقات القيروان، على أنها رءوس الأعداء المقتولين فى ساحة القتال؛ وفى هذه الأثناء، وفى رقادة، التى تبعد أربعة أميال عن القيروان، وداخل قصره، قام بتحميل ثلاثين جملاً برفيع المتاع وأفخمه، وبالذهب والحلى؛ ووقف ألف رجل من مواليه السلافيين على أهبة الاستعداد، فأمرهم بأن يحمل كل واحد منهم ألف دينار؛ وركبت نساؤه ومحظياته الأكثر حظوة عنده فى الهوادج. وعندما حل المساء امتطى رجال البلاط والحاشية صهوات جيادهم مسرعين متوجهين إلى طرابلس، للوصول بعد ذلك إلى مصر.

وعندما ذاع خبر هروب الأمير، ترك كل قطّان رقادة مدينتهم، التى كانت موئلاً للكتبة، وخدم القصر: وعلى ضوء المشاعل المألوفة للغاية، وهم يحملون فخيم أمتعتهم، جروا جرياً حثيثاً فى الحقول لاقتفاء آثار أميرهم. ولكن رعاع القيروان، الحاقدين الهائجين، الذين يملأ الحقد والغل صدورهم، انقضوا فى الصباح على المدينة التى كانت مقراً للأمير؛ وظلوا ستة أيام مستمرة وبلا توقف ينقبون فى الدور بحثاً عن كنوز مطمورة، وانتهبوا ما وجدوه من متاع؛ إلى أن بدت طلائع الكتاميين، التى ردتهم إلى العاصمة. وتبددَّ الاضطراب المقيت الناجم عن الذعر والهلع، فى هذا الخضم الجائع، وذلك النذر اليسير من القوة والجلد الذى تبقى فى نفس الجنس العربى. ولكن إبراهيم بن أبى الأغلب اغتنم فرصة مناصرة العامة له، فجمع الفقهاء، وسادة الأسر الكريمة بالمدينة، وكبار التجار، وقال لهم إنه إذا كان زيادة الله قد مضى هارباً، فقد أحسن صنيعاً؛ لأن الشؤم والنحس قد تبددا وزالا بزوال ذلك الفسل، لما فيه من وهن وميل إلى السكون والدعة؛ وأنهم يمكنهم الآن خوض

غمار الحرب؛ وعليهم إمداده بالمال فهو فى مقدوره لمَّ شتات الجيش وجمعه، وإنقاذ شرفهم وعرضهم وسيادة العرب؛ واستعاذ بالله أن يستسلموا لتلك الشرذمة من المغلوبين المتمردين، من البربر المناصرين لأحد الزنادقة، والمنتهكين لكل شريعة. ولكن وجوه القوم ردوا، كما اعتادوا، بحدة على مَنْ كان يتحدث عن الشرف والمخاطر المحدقة؛ وقالوا له بحزم إنهم فى حاجة إلى مالهم لافتداء أنفسهم وأسرهم من ربق العبودية والأسر؛ فرد عليهم إبراهيم أنهم يمكنهم اقتطاع المال من أموال الوقف، فصاح المجتمعون مرددين: هذا انتهاك للحرمات وحرام. فخرج إبراهيم ساخطاً حانقاً من البهو؛ وأثناء سيره فى الساحة تعرَّض لمكابدة سماع سباب السُّوقية له والتى كانت تردد بطريقتها حُجج أهل العلم والرأى، حتى أنها رمته بالحصى والحجارة؛ إلا أن ذلك الرجل الأغلبى ومعه عدد كبير من الخيل قد أفسح لنفسه الطريق حتى أدرك أبواب المدينة. وبجسارة، بل غير آبة بالمخاطر التى قد يتعرض لها، وصل إلى طرابلس، يحدوه الأمل فى تحريك نفس زيادة الله وإذكاء قريحته؛ وبالكاد لم يلق مصير كبير الحجاب؛ الذى ركب البحر قاصداً صقلية، ولكن الرياح دفعته وألقت به إلى طرابلس، فى براثن الطاغية العسوف، الذى كان يستحثه ويستنهضه على الدفاع ويحضه عليه حضاً، والآن حق عليه الموت. أما زيادة الله، فبعد أن طلب الاذن من الخليفة العباسى، أقام حيناً فى مصر وحيناً آخر فى سورية، ودائماً كان يداعبه الأمل والرجاء فى أن يستعيد الخليفة فتح أفريقية ويؤمره عليها؛ وبينما كان ينتظر تحقق أمله، قام عبيده ومواليه بسرقته ونهبه، وزجره القضاة لخلاعته وأعماله الشائنة، وازدراه الأمراء وحقروا من أمره، فأصابته الفاقة والكبر خلال سنــوات قلائل، ومات عام (٩١٦) مريضــاً أو مسموماً(1). وبذلك

(1) قارن بين: ابن الأثير، المخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٢٨٦ الوجه الأول وما يليها، عام ٢٩٦؛ وابن خلكان فى كتابه، **وفيات الأعيان**، ترجمة م. دى سلان.

زال سلطان بنى الأغلب بعد حكم دام قرناً من الزمان.

وانتهت سيادة العرب فى أفريقية بخزى وخذلان كبير. ولكن مناقب إبراهيم بن أبى الأغلب المزعجة استنهضت مجلس القيروان، فأرسل المجلس على وجه السرعة رسلاً لداعى الشيعة الذى كان القضاة قد طردوه منذ فترة ليست بالطويلة من جماعة المسلمين سخطاً وحنقاً عليه؛ وكان الشيعى قد دخل رقادة (٢٦ مارس ٩٠٩) ومعه أعداد عديدة من البربر فأعطاها الظافر المنتصر عهد أمان، ومنع بصعوبة بالغة وبعد لأى رؤساء قبيلة كتامة عن نهب القيروان وسلبها الذى كانوا قد وعدوا به. ولم يؤمن فقط الأهلين بالقيروان والآخرين الذين خضعوا لسلطانه على حياتهم وأموالهم ومتاعهم، بل أعطى عهد الأمان كذلك لأقرباء بنى الأغلب وقادة الجند. ولم يلبث أن قَسَّمَ أعمال دولته على الكثير من رؤساء كتامة وبعض الفقهاء الشيعة العرب؛ وأدخل تعديلات جديدة على شكل العملة، والبيارق، وأعمال الدولة، دون أن يضع عليها اسم أمير؛ وغَيَّر كلمتين فى الأذان للصلاة(1)؛ وعلاوة على ذلك لم يرهق أهل السُّنة ولم يكلفهم عنتاً؛ ولم يسفك دماءً أخرى، ولم يُرق إلا دماء الجند العبيد السود أتباع بنى الأغلب. وفى جميع أرجاء أفريقية ذاتها، أصبح العرب يدينون بالطاعة لحاكم متحضر يمسك فى قبضته ثلاثمائة ألف رجل من البربر، كما كان القطَّان وسادة الجند يحنون جبينهم له؛ إذ لم يستشعروا قدرتهم على إنقاذ أنفسهم

الإنجليزية، المجلد الأول، ص ٤٦٥؛ **والبيان**، المجلد الأول، من ص ١٣٣ حتى ص ١٤٧، **واخبار جوته**. فى كتاب نيكلسون من ص ٨٣ حتى ص ٩١؛ وابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ترجمة م. دى فرچيه من ص ١٥٠ حتى ص ١٥٦؛ والنويرى، **تاريخ افريقية**، فى حاشيته على كتاب، *Histoire des Berbères*، لابن خلدون، ترجمة م. دى سلان، المجلد الأول، من ص ٤٤١ حتى ص ٤٤٧؛ والمقريزى، فى كتاب ساسى، *Chrestomathie Arabe*، المجلد الأول، من ص ١١٣ حتى ص ١١٥.

(1) حسب أهل السُّنة: «حى على الصلاة، الصلاة خير من النوم». أما الشيعة فيقولون: «حى على الصلاة، الصلاة أفضل الأعمال».

وأولادهم من ربق العبودية والأسر(1)؛ لذلك رأوا الخروج من هذا المأزق بصلح يحفظ ماء وجوههم وإن كبدهم فقدان هيمنتهم وسيادتهم. وكما هى العادة حدث أن نير العبودية أضحى أكثر خطورة وأشد وطأة حينما أصلحوا من وضعه على أعناقهم.

وبما أن الشيعى تولى بعد قليل القيادة لذا يبدو أن رؤساء كتامة الذين كانوا فى إكچان قبل سنوات طويلة لم يريدوا تعريض حياتهم وما ملكت أيديهم للخطر دون أن يعرفوا لصالح مَنْ؛ لذلك قال لهم الشيعى إن الإمام المستور الحافظ للسر الأعظم موجود فى السلمية بسورية. فذهبت رسلهم إليها، فوجدوا سعيد بن حسين، الذى عندما سألوه أن يكشف لهم عن الإمام، أجاب «إنه أنا»، وأضاف أنه يُلقب فى الحقيقة باسم عبيد الله؛ وقال إن نسبه يصل إلى إسماعيل، ومنه إلى على وفاطمة، بنت النبى. ومن هنا جاءت تسمية الفاطميين، التى استخدمتها هذه الأسر الفارسية الحاكمة، والتى يُطلق عليها أيضاً اسم العبيدين، نسبه إلى خليفتهم الأول. ولم تفتقد هذه الأسرة إلى العلماء الذين دللوا على صحة قرابتها لعلى؛ بينما كان العلماء المناصرون للعباسيين ينكرون ذلك ويدحضونه بنفس الحزم والجزم. وظلت الحجج المؤيدة والداحضة لهذا الأمر تشعل جذوة نار الشحناء والبغضاء بين علماء المسلمين المحدثين؛ وحتى اليوم نجد بعضاً من العلماء الأوربيين قد اعتقدوا بشرعية الفاطميين(2) وبأنهم أصحاب حق.

(1) قارن بين: **البيان**، المجلد الأول، ص ١٣٧ وص ١٤١ حتى ص ١٤٩، **واخبار جوته**، ترجمة نيكلسون، ص ٦٤، ص ٩٢، ص ٩٦ وما بعدها؛ والمقريزى، فى كتاب ساسى، *Chrestomathie Arabe*، المجلد الثانى، ص ١١٥؛ وساسى فى كتابه، *Exposé de la religion des Druses*، المجلد لأول، صفحة سبعين ومائتين وما يليها.

(2) انظر المصادر الموثوقة التى ذكرها م. ساسى فى كتابه، *Exposé de la religion des Druses* ، المجلد الأول، صفحة سبع وأربعين ومائتين

ولكن أبا عبد الله الشيعى هو المؤسس الحقيقى لخلافتهم فى أفريقية، ولا يبدو لى أنه شريك لهم فى نسبهم الزائف الذى تم بتدبير المعلم الأعظم (داعى الدعاة).

وعندما ذاع السر وصار عبيد الله محل شك عمال الخليفة بسورية، بسبب تردد الغرباء عليه وزيارتهم له بشكل غريب؛ مضى هارباً إلى مصر بصحبة شاب يُدعى أبو القاسم، المكلف بنشر الدعوة العلوية، ما استطـاع إلى ذلك سبيلاً إذا لم يستطع هو ذلك(1). وأثناء هروبه وفراره تجلت له علامات رائعة من الانتساب إلى إسماعيل مثل: العيون اليقظة كعيون الصقر تراقب بصاصى الوالى؛ والرجال المخلصون المرابطون لنصرته فى كل موضع يحل به؛ والعصا الذهبية التى كانت تحل كل المشاكل وتذلل الصعاب. وحينما أدرك عبيد الله أن العباسيين يفتشون عنه فى مصر للقبض عليه، أزال كل أثر له من أمامهم، وانتقل إلى طرابلس بأفريقية ومنها إلى سجلماسه، وهى مدينة تقع على الأطراف الجنوبية للمحيط الكبير (الأطلسى)، وهى حالياً مهدمة وتابعة لمراكش، أما فى ذلك الحين فكانت حاضرة إمارة بنى مدرار، وهم برابرة، من الخوارج الصفرية ومستقلون عن بنى الأغلب. فظهر لهم عبيد الله فى زى تاجر ثرى يرغب فى الإقامة فى بلدهم؛ فنال عطف الحاكم ورضاءه عليه، وهذا الحاكم اسمه اليزيو؛ وشعر بالأمن والأمان لديه

وما يليها، وكتابه، *Chrestomathie Arabe*، المجلد الثانى، من ص ٨٨ حتى ص ٩٢ وص ٩٥؛ وم. كاترمير فى، *Journal Asiatique*، أغسطس ١٨٣٦، ص ٩٩ وما يليها، ونجد أن أولهما يؤكد ادعاءات الفاطميين أما الثانى فيدحضها. انظر كذلك: كتاب **الفهرست**، مخطوطة باريس، المجلد الثانى، الورقة ٦ الوجه الثانى؛ والبيان، المجلد الأول، ص ٢٩٢ وما يليها؛ وابن الأبار، مخطوطة الجمعية الآسيوية بباريس، الورقة ٣٧ الوجه الثانى. ولا يساورنا شك فى أن سعيد، أى عبيد الله، من نسل القدّاح، وأن المناصرين للفاطميين والمتشيعين لهم كان يجب عليهم إثبات قرابة القداح لعلى؛ ولكن أحداً لم يفعل ذلك.

(1) وهذه الحكاية وردت فى كتاب **الفهرست**، مخطوطة باريس، المجلد الثانى، ورقة ٧ الوجه الأول، وفيها نجد أن أبا القاسم لم يُذكر على أنه ابن عبد الله، كما روج وأشاع ذلك عبيد الله وكما كتب جميع المؤرخين الآخرين.

ولكن عندما أخبر زيادة الله حاكم سجلماسه أن داعى دعاة الفرقة التى حولت أفريقية قفراً يباباً يختبئ عنده، حامت الشبهات حول التاجر الغريب؛ فقبضوا عليه، واستجوبوه، وواجهوه بابنه وخدمه، وتم تعذيب هؤلاء جميعاً جلداً بالسياط؛ إلا أنهم أنكروا كلهم قائلين نفس العبارات النافية؛ ولم يتبين اليزيو حقيقته، إلى أن طلب إليه الشيعى، الذى دخل رقادة ظافراً منتصراً، طلب إليه بمعسول الكلام والوعود الكاذبة، إطلاق سراح عبيد الله. ولكنه رفض وأبى، وقذف بالرسائل فى وجه رسله، وأمر بقتلهم. وتحدثنا الأخبار أن الشيعى ارتعدت فرائصه من أجل عبيد الله، إلا أنه لم يعر هذه الإهانة اهتماماً؛ وعاود سؤاله وطلبه؛ وفى المرة الثانية أيضاً قتل اليزيو رسله. فحينئذ استشاط غضباً وترك رقادة (فى مايو ٩٠٩) لمهاجمة سجلماسه.

والظـــاهر أن أقل ما كان يطمح إليه ويرغب فى تحقيقه ـ وهذا ما انطـوت عليه نفســـه ـ هو إطلاق سراح عبيد الله. ومنذ بداية الفتنة التى وقعت بأفريقية، يبدو أن الشـيعى، بسبب ولائه للأســرة العلوية الحقيقية أو بسبب طموحه الشخصى، وبعد دراســة وتمحيص، كان يزمع إبعاد دجال السـلمية عن الجيش. ولكنه لم يستطع التنكر له على الملأ، فقد كان له أصدقاء وأعداء بين رؤساء كتامة، وبين قادة الجند المرتبطين ارتباطاً وثيقاً مع عبيد الله فى المشرق، والداخلين فى تلك المؤامرات والمكائد من تجسس، واختـــلاق الأكاذيب وافتعـــالها، ونشر الخرافات والأوهام، التى كان الشيعى نفسه منغمساً فيها ومحاطاً بها، وكانت الخيوط الرئيسة فى يد عبيد الله. ولذا طفقت الجموع الغفيرة تردد اسم الإمام المستور؛ فإذا ما علمت أنه فى خطر محدق؛ فلن تستطيع قوة بشرية كبح جماحهم. فلم يجرؤ الشيعى إذن على تهشيم وتحطيم الأسطورة التى اختلقها اختلاقاً بيديه، ومن ثم كان أول مَنْ جثا أمامه؛ وأرجأ خططه؛ راجيا أن تزيل فضـائله وأعماله الحسنة إسـاءاته وسـقطاته؛ وأن الأميـر

الجديد لا يفعل أمراً دون الالتجاء إليه؛ وعندما أدرك خطأه، تذمر، وتآمر عليه، فقُتِل.

ها هوذا يمتطى صهوة جواده على رأس جيشه الظافر المنتصر، وأثناء سيره، كان يرى شعوب البربر الأخرى تخضع له بكل هدوء وسكينة وتفسح له الطريق؛ حتى وصل إلى سجلماسه، وكسر رجال اليزيو الذين خرجوا للقائه ومقاتلته؛ واحتل حاضرتهم. وبنفاد صبر واشتياق أسرع مهرولاً إلى محبس عبيد الله، ومعه رؤساء كتامة؛ الذين، ما أن رأوه سليماً مُعافى، حتى انهمرت دموع الفرح والحبور من عيونهم. وحملوه إلى معسكرهم (٢٠ أغسطس ٩٠٩) بكل إجلال وإكبار ينم عن التقديس والتوقير؛ إذ كان عبيد الله وابنه فقط على صهوة جوادين، أما الآخرين فكانوا راجلين، يتقدمهم الشيعى، الذى كان يسير وهو يصيح هاتفاً «ها هوذا مولاى ومولاكم!». وتجددت تلك الطقوس فى رقادة (يناير ٩١٠)؛ عندما دخلها دخول الظافر المنتصر ومعه جيشه؛ فخرج الأهلون بالقيروان لرؤيته وهم يُهللون ويهتفون له التهليل والهتاف المعتاد؛ ولم يخل كذلك الحشد من شعراء شبهوه بالإله المعبود. وتلقب بلقب أمير المؤمنين، وتكنى بالمهدى، الذى يعنى «الرشيد من الله»، وهكذا ذُكر اسمه كل جمعة فى الخطبة. وعلاوة على دولة سجلماسه، كان الشيعى قد فتح له قبلها بقليل إمارة تاهرت، المستقلة عن الأغالبة؛ ولذلك فإن دولة الفاطميين منذ البداية بسطت سلطانها ونفوذها على كل أرجاء أفريقية الشمالية، ما عدا الإمارات البعيدة فى الغرب التى كانت تحت سيطرة الأدارسة(1).

---

(1) قارن بين: يحيى بن سعيد، **تتمة حوليات اوتيكيو**، مخطوطة باريس، *Ancien Fonds* ١٣١ *A*، الورقة ٨٧ الوجه الثانى وما يليها؛ وكتاب **الفهرست**، مخطوطة باريس، المجلد الثانى، ورقة ٦ الوجه الثانى وما يليها؛ وابن الأثير، عام ٢٩٦، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ١٩٧ الوجه الثانى، والمخطوطة C، المجلد الرابع، ورقة ٢٩٠؛ **والبيان**، المجلد الأول، ص ١٤٩ وما بعدها؛ **واخبار جوته**، ترجمة

وانتهت الاحتفالات، وبعدها شرع المهدى فى وضع أسس الإمبراطورية الجديدة. وبدلاً من التسامح الدينى الذى كان يتبعه أبو عبد الله حَلَّ محله التعصب والتزمت من قِبل أخيه الذى ولى أفريقية ذاتها أثناء حرب سجلماسه؛ فاضطهد السُّنيين. وحينما استتب الأمر للمهدى، أمر بالتمسك بكل صرامة بالطقوس الشيعية والالتزام بها فى الشريعة أو فى تطبيق القوانين المدنية التى تختلف اختلافاً بيناً عن الشريعة السُّنية: وبتغيير بعض الكلمات فى الأذان؛ واستبدال الصلاة بالصوم؛ وبلعن صحابة النبى ماعدا علياً؛ وإباحة أشكال أخرى للطلاق؛ وإعطاء البنات نصيبا أكبر فى الميراث؛ وبدع أخرى مماثلة، منها المثير للسخرية والاشمئزاز ومنها الجاد والمهم، أثارت كلها غضب وحنق أفريقية(1). وطفق طبقاً لنصيحة أشد سوءاً يقيم دولته على مذهب الشيعة ويدمجها فيه. وطلب البيعة «للإمام المستور الصادق المفسر للأسرار» من رؤساء كتامة الذين كانوا يعتقون مذهب الإسماعيلية فبايعوه. ولكن العرب هلعوا وفزعوا حينما رأوا القضاء فى رقادة يتقلده جماعة من الدعاة يترأسهم الشريف الذى هو أعلى وأكبر رجل فى الدولة، وكان الدعاة يدعون الناس للانخراط فى حركتهم بالترغيب والخداع؛ ثم انتقلوا بعد ذلك إلى التهديد والترهيب، والزج بالرافضين فى غياهب السجون؛ وقتلوا منهم أربعة آلاف رجل، بأمر من الأمير أو من جراء وحشية وفظاظة قلب أتباعه الكتاميين. وبالرغم من

نيكلسون، ص ١٠٠ وما يليها؛ والمقريزى، فى كتاب ساسى، *Chrestomathie Arabe*، المجلد الثانى، ص ١١٤ ـ ١١٥. وقد استقيت تاريخ ٢٠ أغسطس ٩٠٩ من ابن الأبار، مخطوطة الجمعية الآسيوية بباريس، الورقة ٣٩ الوجه الأول.

(1) قارن بين: **رياض النفوس**، مخطوطة باريس، الورقة ٦٧ الوجه الثانى؛ وابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ١٩٧ الوجه الثانى وما يليها؛ والمخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٢٩٠ وما يليها، عام ٢٩٦؛ **والبيان**، المجلد الأول، ص ١٥٨ ـ ١٥٩؛ والمقريزى، **المقفى**، مخطوطة باريس، *Ancien Fonds*، ٦٧٥، الورقة ٢٢٢ الوجه الأول؛ وابن حماد، مخطوطة C، م. شربونو، الورقة ٣ الوجه الأول.

كل هذه الضراوة فإن الذين اعتنقوا مذهبه من العرب كانوا يعدون على أصابع اليد الواحدة.

وفى نهاية المطاف اضطر المهدى لوضع حد لهذا العنف وإيقافه، فملأ محافل الإسماعيليين ومجامعهم بالمريدين ما استطاع إلى ذلك سبيلاً(1)، إلا أن مأربة فى الإيعاز للناس بطبيعته الإلهية قد باء بالفشل، إذ إنه كان يريد أن يحكم بطبيعتين، كملك وكإله. وعندما تم نقل مقر الخلافة إلى مصر، فإن خلفاءه قد حرصوا على نشر هذه الآراء والأفكار وتأكيدها. وكان أكثرهم جنوناً وهوساً، ورعونة وجبناً، وتشدداً وتعصباً، هو ذلك الفاسق الحاكم بأمر الله، الذى وصل به الأمر إلى انتحاء منحى تأليهه والاعتقاد بألوهيته؛ وكان الدروز على أية حال يبجلونه ويمؤلهونه.

ولكن المهدى لم يستطع قهر نفوس الناس واخضاع ضمائرهم، فقام بتدبير كل شئ آخر فى مملكته وتنظيمه ببراعة رجل الدولة المقتدر. فأجزل العطايا والهبات، والملق والتملق، وإسناد الوظائف العسكرية والمدنية للكتاميين، أكثر مما فعل الشيعى من قبل. وبالرغم من ذلك لم يترك نفسه كلية فى أيدى جندهم ولم يركن إليهم، إذ قام بتنظيم جيش مستقر يتألف من العُتقاء والعبيد، بعضهم من الجنس اليونانى والإيطالى(2)، وبعضهم الآخر من الزنج. ووضع بكل عناية وحسن تدبير القواعد والقوانين لإدارة موارد الدولة (بيت المال)، ومن ثم أشعر الناس بعدم ثقل العبء

(1) قارن بين: ابن الأثير والمقريزى، المصدران السابقان. انظر أيضاً فى **رياض النفوس**، الورقة قبل الأخيرة، الوجه الثانى، حيث توجد حكاية نادرة غريبة تُروى فى تأهيل ابن جازى.

(2) يحيى بن سعيد، الذى تابع سيرة أوتيكيو، كتب لفظة الروم، التى كانت تُطلق على كلتا السلالتين، ومن ثم ينضوى تحتها الصقليون. والظاهر أن غالبيتهم كانوا من مسيحيى صقلية، الذين اعتنقوا الإسلام أو الذين ظلوا على مسيحيتهم. وخرج من بين هؤلاء المتعصبون الفاطميون جوهر الذى فتح المغرب ومصر، والذى يُطلق عليه مرة لقب الرومى، ومرة أخرى الصقلى، أى من أهالى صقلية.

الملقى عليهم وأصبح لديه من القدرة ما يمكنه من تشديد وطأته عليهم دون صخب واستنكار(1). واستولى ليس فقط على أملاك وثروات الأغالبة(2)، بل استحوذ كذلك على أموال الوقف والاقطاعات العامة المملوكة لبعض المدن(3)؛ ونزع الأسلحة المخبأة فى أبراج السواحل؛ وقوض قصور الأغالبة المحصنة؛ وأزال من على القلاع والمساجد أسماء الأمراء الذين أسسوها، ونقش اسمه مكانهم(4). وبالاضافة إلى كل ما استحدثه من أشياء لتجميع السلطة فى يديه، كان المهدى مثل سابقيه يجلس فى محكمة المظالم، ويدير بنفسه الأمور العامة(5).

وثارت عليه العديد من قبائل ومدن البربر، فأخضعها بجنده الكتاميين بقيادة الشيعى. ثم تناهى إلى علمه أن الشيعى يغتابه، وأن روساء كتامة يُرهفون له السمع، وأنه يتم التشكيك إن كان الجالس على العرش هو حقيقة الإمام الصادق المهدى. وفى يوم من الأيام دعا أبا عبد الله وأخاه لحضـــور وليمة عنده؛ ودبر لهما مكيدة أثناء خروجهما فقُتلا غيلة؛ وتظاهر بالتقوى التى تضمر بداخلها المراء والرياء وصلى عليهما بنفسه صلاة الجنازة (فبراير ٩١١)، وبكل هدوء وسكينة قام بدفنهما فى حديقة قصره. وقتل رؤساء كتامة الآخرين غير الموالين. فحز

(1) نقرأ فى **البيان**، المجلد الأول، ص ١٧٥ وص ١٨٤، أن المهدى فى عام ٣٠٢هـ (الموافق ٩١٥ ـ ٩١٦م) قام بحصر الاقطاعات والضياع وتسجيلها، وأخذ الخراج على متوسط ما تغله محدداً ذلك بين أعلى وأقل إنتاجية للأراضى المستثبتة، وأنه فى عام ٣٠٥هـ (الموافق ٩١٧ ـ ٩١٨م) فرض ضريبة إضافية بذريعة جباية المتاخرات. وكان بيت مال الفاطميين يُحصِّل الأموال من مصادر أخرى عديدة بحرصه الشديد على جمع المال.

(2) يحيى بن سعيد، الورقة ٨٩ الوجه الأول.

(3) **رياض النفوس**، الورقة ٦٧ الوجه الثانى. وقد ورد فى النص مايلى: أخذ أموال الأوقاف «والقلاع». وهذه اللفظة الأخيرة تعنى بلا شك مدن الأقاليم والأرباض.

(4) **رياض النفوس**، الكتاب المذكور؛ وابن حماد، مخطوطة م. شربرنو، الورقة ٢ الوجه الأول.

(5) يحيى بن سعيد، المرجع المذكور.

فى الحال رأس(1) أحدهم لإجترائه الطلب منه إثبات معجزات تدلل على ألوهيته. وقال كتامى آخر بأن روح الإله قد حلت فيه؛ وبما أنه لم يستطع إثبات ذلك بإحراز النصر؛ فقد تم القبض عليه وسيق إلى التعذيب حتى الموت.

وبالرغم من كل هذا لم تهدأ ثورات أهالى القيروان والمدن العربية الأخرى، ولم يَخْمد العداء المستحكم من جانب الفقهاء ووجوه القوم، وشراسة الجند الكتاميين، وتمرد شعوب البربر الأخرى وعصيانها؛ وكان أشد هذه الفتن خطراً أو بلاءً تلك التى ثارت باسم على، فألبت فرق الخوارج وأثارت حنقها الدفين، فخرج منها، فى بضع سنين، قائد أثار القلق والرعب، ينتسب إلى فرقة تُعرف بالنقارية. فحينئذ لم يستطع المهدى أن يعول على أى جنس، أو يعتمد على أى رأى وتقدير، ولكنه عول فقط على نظام حكومته، فكان عليه إنقاذه ووضعه بمنأى عن اندفاع وتحرش العناصر المناوئة المعادية وببراعة فائقة لم يفعلها الأغالبة من قبله. فلم تبد له رقادة مناسبة للإقامة فيها لقربها الشديد من القيروان، ولا أى مدينة أخرى يقيم فيها العرب. وبعد مشاورات كثيرة أراد أن يتخذ لنفسه مقراً قريباً من البحر، حيث ينفعه الأسطول فى الدفاع عنه وفى تهديد الغرباء والأفريقيين والصقليين الذين يتبرمون من حكمه العسوف؛ وحيث ستجلب التجارة ثروات وخيرات شعوب أخرى جديدة. فجاب الساحل كله من شرق قرطاجنة، ووقع اختياره على جزيرة صغيرة تبرز بين خلجان الحمامات وقابس، على شكل راحة

---

(1) قارن بين: ابن الأثير، عام ٢٩٦، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ١٩٨ الوجه الثانى، والمخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٢٩٠ الوجه الثانى؛ وابن خلكان، فى **حياة ابى عبد الله الشيعى**، ترجمة م. دى سلان الإنجليزية، المجلد الأول، ص ٤٦٥؛ **والبيان**، المجلد الأول، ص ١٥٨ وما يليها؛ وابن الأبار، مخطوطة الجمعية الآسيوية بباريس، الورقة ٣٨ الوجه الأول؛ وابن حماد، مخطوطة م. شربونو، الورقة ٢ الوجهين الأول والثانى.

(2) يحيى بن سعيد، الورقة ٨٩ الوجه الثانى.

يد مفتوحة، بينما البرزخ يشبه معصم اليد. وأطلق عليها اسم المهدية، وكانت تسمى أيضاً أفريقية، واتخذها حاضرة لدولته. وأجرى على الميناء توسعات بادخال أعمال رائعة بديعة عليه، حتى يصبح قادراً، كما ورد فى الأخبار، على استقبال سبعمائة سفينة؛ وابتنى داراً لصناعة السفن وإصلاحها، وقلاعاً، وأبراجاً، وأبواباً من الحديد الخالص ذات أحجام كبيرة لم تُر من قبل، وصوامع للغلال، وصهاريجاً للمياه؛ وأشرف بنفسه على أعمال البناء والتشييد؛ وحل المشاكل الميكانيكية(1)؛ وعرف من علم التنجيم يوم وساعة وضع حجر أساس مدينته الجديدة، إذ ظهرت فى كبد السماء مجموعة من النجوم تُعرف بمجموعة الأسد، فقال إن هذه نبوءة خير وفأل حسن؛ واستعمل علمه وشعوذته التى ورثها عن أسلافه الفرس الحقيقيين، حتى بدت مدينته عجيبة وحاضرة منقطعة النظير فى الغرب. وبعد مضى خمس سنوات (٩٢٠)، عندما شاهد حاضرته حصينة منيعة تزخر بكل شئ، صاح قائلاً: «الآن سيهدأ بال الفاطميين وسيذعنون لى»(2).

---

(1) لم تكن توجد طريقة لوزن هذه الكتل الحديدية. فاستعمل قارباً كميزان هيدروستاتيكى، إذ حمله بالأبواب الحديدية واضعاً علامة حيثما يغطس حجم القارب فى الماء. وبعد ذلك يضع - بدلاً من الأبواب - حمولات كثيرة؛ ثم وزنت هذه الحمولات بالموازين العادية.

(2) قارن بين: بكرى، ترجمة م. كاترمير فى، *Notices et Extraits de MM*، المجلد الثـــانى عشر، ص ٤٧٩ وما يليهـــا؛ ويحيى بن ســـعيد، **تتمة اوتيكيو**، مخطوطة باريس، *Ancien Fonds*، ١٣١ *A*، الورقة ٨٩ الوجه الثانى؛ وابن الأثير، عام ٣٠٣، فى كتاب تورنبرج، *Annales Regum Mauritaniæ*، المجلد الثانى، ص ٣٧٣؛ وابن الأبار مخطوطة الجمعية الآسيوية بباريس، الورقة ٣٨ الوجه الأول.

الفصل السابع

وبعد أن أعيتها الحرب الأهلية التى دارت رحاها فى عام ٩٠٠ من الميلاد ظلت جماعة صقلية هادئة - أو نحو ذلك تقريباً - لسنوات تسع. وقد توالى على حكمها فى هذه الأثناء أربعة من الأمراء: زيادة الله (٩٠٢ - ٩٠٣) ومحمد بن السرقوسى الذى أحله والده محله (مايو ٩٠٣)[1]، ومن بعد مقتل الأب تولى الحكم على بن محمد بن أبى الفوارس ثم أحمد بن أبى الحسين بن رباح وهو من أسرة مضرية نبيلة استقرت فى صقلية من حوالي ستين عاماً وقد عرفت بالحكام والقواد البواسل. وكما تقول إحدى الروايات التاريخية فإن علياً قد أطيح به من قبل زيادة الله[2]، وربما يكون أهل بالرمو قد قاموا باختياره حين وجدوا العرش وقد تلطخ بالدماء من جراء مقتل الأب آملين فى ذلك اضطراباً يتيح لهم استعادة حقوقهم.

وما أن عرف فى بالرمو بمهرب زيادة الله حتى هب الأهالى - بوازع من على نفسه - فى مطلع شهر إبريل من عام ٩٠٩ فاقتحموا القصر ونهبوا ما فيه وأخذوا أحمد ونصبّوا علياً فى مكانه[3]. وبعد

(1) ابن الأثير، سنة ٢٨٩ المخطوطة *A*، المجلد الثانى الورقة ١٧٢ الوجه الأول؛ والمخطوطة C، المجلد الرابع الورقة ٢٧٩ الوجه الأول؛ ابن خلدون: *Histoire de l'Afrique et de la Sicile* ص ١٤٦، النويرى، فى دى جريجوريو *Rerum Arabicarm* ص ١١.

(2) النويرى، الموضع المذكور. انظر أمجاد عائلة رباح فى المجلد الأول من هذا الكتاب ابتداءً من يعقوب بن فزاره والد رباح ص ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٩٢، ٤٠٤، ٤١٤.

(3) قارن: النويرى، الموضع المذكور، و*Chronicon Cantabrigiense*، ص ٤٤، حيث نجد ابن رباح مكان ابن زياجى.

علمهم باحتلال رقادة قام أهل بالرمو بإرسال أحمد أسيراً إلى أفريقية وطلبوا من الشيعى أن يقر علياً والياً. وحين منح له الولاية أوصاه بأن يستأنف الجهاد الذى كان قد توقف إبان حكم زيادة الله[1]. كان النصارى قد عادوا آنذاك لتحصين أنفسهم فى قلاعهم بمنطقة ڤال ديمونى إما لعدم اكتراث من يتولى الأمور فى صقلية أو ربما نتيجة لاتفاق مع الإمبراطورية البيزنطية[2]. من جهة أخرى لم يعقب ذلك حدث له أهمية إلى أن تم اعتلاء المهدى - كما لم يرد ذكر صقلية سوى فى واقعة اضطهاد أبى القاسم التيرازى قاضى بالرمو أثناء حكم الأغالبة والذى تم طرده ربما مع أحمد، وقد ضرب فى ميدان عام بالقيروان هو والعالم قاضى طرابلس بعد أن أتهم كلاهما[3] بالاستمرار على مذهب السُّنة.

وإذا ما تعرضنا لوضع صقلية فى هذه الفترة التى خلا فيها العرش فسوف نرى ثورة عام ٩٠٠ قد عادت لتطفو سريعاً على السطح بعد أن غابت يد الأغالبة التى أخمدتها. فعلاوة على قوى الجماعة الذاتية التى انتعشت خلال عقد من الزمان فإنها استعادت عنفوانها فيما يبدو بنبلاء من العرب ربما لجأوا إليها من أفريقية عند أول وجل[4] أو اضطهاد تنامى بشكل مطرد. وقد صار إخلاص هؤلاء لبنى الأغلب ينسجم مع رغبة الصقليين

(1) النويرى، الموضع المذكور.

(2) نقرأ فى *Cronica di Gotha*، ترجمة نيكلسون، ص ٧٩، أن زيادة الله بعث فى عام ٢٩٤ (٩٠٦ - ٩٠٧) بسفراء إلى القسطنطينية كما استقبل بالتبجيل فى رقادة أحد رُسل بيزنطة.

(3) **رياض النفوس**، مخطوطة باريس الورقة ٦٧ الوجه الثانى.

(4) كان عبد الله بن صايغ آخر وزراء زيادة الله قد ابحر إلى صقلية عندما لاذ لأمير بالفرار. انظر النويرى: **تاريخ إفريقية** فى حاشية *Histoire des Berbèrs par Ibn-Khaldoun* ترجمة م. دى سلان المجلد الأول ص ٤٤٤. ومن المؤكد أن ابن صايغ لم يكن هو الوحيد الذى حاول هذا المسلك.

فى الاستقلال. لكن ذلك الجرح الماثل إلى جوارهم والذى يتمثل فى البربر من أهل چرچنتى جعل الطبقة الأرستقراطية فى بالرمو ـ مترددة فى حمل السلاح من جديد ضد إفريقية وقانعة بأن تسير أمور الولاية حسب التدبير القديم من خلال أمير يكون منها بشكل خالص. ويبدو أن علياً فى الواقع هو المتزعم لمنحى طبقة النبلاء وبالتالى قامت بفعل ما يحلو لها إبان فترة انتقال العرش. وحين أراد بعدها خداع المهدى واسترضاءه بطاعة شكلية طلب إليه على أن يذهب إلى رقادة للقائه فوافقه المهدى بسعادة غامرة. فلما ناله بإفريقية قام بسجنه وأرسل فى حكم الجزيرة بواحد من رجاله سبق له تجربته فى مهام مماثلة: الحسن بن أحمد بن على بن كليب الملقب بابن أبى خنزير والذى عمل قائداً لشرطة القيروان إبان حكم الشيعي(1).

ومن أعمال ابن خنزير الأولى تتضح نوايا أمير أفريقية وأحوال الجماعة. فعند نزوله مازارا فى العاشر من ذى الحجة لعام مائتين

---

(1) يتم استخلاص الوقائع الخارجية عند مقارنة ابن الأثير والنويرى، الموضعان المذكوران؛ ابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ترجمة م. دى ڤرچيه ص ١٥٨، ١٥٩؛ أبو الفدا: *Annales Moslemici*، عام ٢٩٦ فى دى جريجوريو ص ٧٨؛ شهاب الدين: المصدر السابق ص ٥٩.

نجد الاسم الكامل لابن أبى خنزير فى **البيان**، المجلد الأول ص ١٤٨.

إن مهمة الوالى قد خلعها عليه الشيعى فى مدينة القيروان وبالمثل على أخ له يدعى خلف فى كاستل ڤكيو. ويؤكد ابن خلدون، الموضع المذكور، أن ابن أبى خنزير كان من أعلام قبيلة كتامة. وأعتقد أنا أنه من أركان الفرقة غير أنه من سلالة العرب. ولقب الهفتريرى ـ الذى نقرؤه فى الطبعة اللاتينية لأبى الفدا ـ من بين أسماء حاكم صقلية هو قراءة خاطئة لاسم أبى خنزير. ومن المستحسن أن نلفت الأنظار إلى أن رامبولدى فى: *Annali Musulmani*، وقائع عام ٩٠٩ المجلد الخامس ص ١١٩، ١٢٣ تخيل قيام المهدى بالسفر إلى صقلية وتخيل قصصاً كثيراً عن ثورة بالرمو على أحمد بن أبى حسين بن رباح، ولا تبدو هذه أخطاء من المصنفين العرب وحدها، بل اضافات خاصة قام باضافتها للنويرى ولحوليات شهاب الدين.

وسبعة وتسعين (٢٠ أغسطس ٩١٠) قام بإنابة أخ له يدعى علياً(1) حاكماً على چرچنتى وهى مهمة لم يكن لها وجود أثناء حكم الأغالبة ويبدو أن المهدى قد أنشأها بغرض ممالأة البربر وإثارة الشقاق بينهم وبين العرب. فى ذات الوقت استعمل قاضياً لصقلية رجلاً يدعى اسحق بن منهال وهو ـ كما تضيف الحوليات ـ أول من جلس على كرسى القضاء باسم المهدى(2)؛ وهذا يبين أن القضاء قد سار على المنهج السنى لنحو أكثر من عام ومن قبل من عينه أمير صقلية. وقد استقدم ابن أبى خنزير رجالاً جدد لإدارة شئون الولاية كانوا قد اتهموا فى أمور جسام، أو من الجائز أنه قد استحدث دوائر جديدة طبقاً لإرادة أمير صقلية(3). «صاحب الخُمس»، الذى سيرد ذكره، يبدو منصباً جديداً ومن المؤكد أنه قد تم أنشاؤه لإضعاف سلطة أمير صقلية سواء كان مكلفاً باقتسام الغنائم والأراضى المنزوعة من المهزومين والاحتفاظ بالخُمس منها للخزانة العامة أو كان يتولى كذلك إدارة حصيلة الخُمس(4). وفى ربيع أو صيف العام التالى (٩١١) قام أمير صقلية، بعد أن حجبت عنه أمور الجزية لفترة، بقيادة الجيش إلى ڤال ديمونى حيث كان النصارى قد انتصبت هامتهم: فحرق الزرع وجمع الغنائم والأسرى لكنه لم يتجرأ على اقتحام القلعة(5). فقد كشفت تلك الحرب الهينة ما حل بمسلمى صقلية من عناء، والاضطراب العام الذى يثيره ذوو الأصول العربية

---

(1) يذكر اسمه فى **البيان**، المجلد الأول ص ١٢٩.

(2) ابن الأثير وابن خلدون، الموضعان المذكوران.

(3) النويرى، فى دى جريجوريو *Rerum Arabicarum*، ص ١٢.

(4) المصدر السابق ص ١٣، و*Chronicon Cantabrigiense*، فى كتاب دى جريجوريو ص ٤٤.

(5) ابن الأثير وابن خلدون، الموضعان المذكوران.

ضد الفـاطميين وهــو ما كان يتفجر فى كــل لحظة بالمدن الإفريقية(1).

فى مثل هذه الأجواء أراد ابن أبى خنزير أن يقيم وليمة لصفوة الأشراف بقصر بالرمو. كان جلوس المدعوين فى ردهة القصر حين أشار أحدهم، أو تظاهر(2)، بوقوع اضطراب بين عبيد الأمير، ولبريق سيوف أطلتِ الواحد تجاه الآخر، فهب على قدميه صائحاً: «تعرضنا للخيانة» فأسرع الجميع صوب النوافذ وهم يصيحون «إلى السلاح ـ إلى السلاح». كانت ذكرى الشيعى والذى قتل بوحشية مع أخيه على أعتاب قصر المهدى لا تزال ماثلة فى الأذهان(3)، ولم يكن ابن أبى خنزير يبدو رجلاً ذا ضمير حى. من المؤكد أن جموع العــرب فى ذلك العصر كانت تتندر على كرم الضيافة عند آبائهم من البدو فمــع شيوع الرذيلة وتفشى الكراهية كان وقوع الخيانة أمراً ممكناً جداً ويسهل بشدة الاعتقاد فيه. عندئذ خرج الأهالى إلى الســاحة وتجمعوا أمام القصر فلما وجدوا الأبواب موصده أضرموا فيها النيران ولم يتوقفوا عند خروج المدعوين سالمين والذين ما نطقوا بالتأكيد بأنهم كانوا فى حلم. ولما أراد ابن أبى خنزير مخاطبة الجماهير فقد أنفاسه وقاطعوه بالوعيد والتهديد والغلظة؛ فلما رأى الجموع توشك أن تدخل القصر حاول الخلاص بأن قفز إلى إحدى الدور المجــاورة، لكنه سـقط وكسرت ساقه فأخذوه وألقوا به فى السجن. هكذا فشلت خيــانة الأمير أو أصاب النبــلاء بإفكهم النجــاح: هذا ما لا دراية لى به. وكتب النبلاء

(1) **البيان**، المجلد الأول، ص ١٥٨ : ١٧٢.

(2) المؤرخ الوحيد الذى يحكى هذه الواقعة استخدم هنا كلمة قد تعنى «زعم أو أعطى انطباعاً».

(3) حسب قول أكبر الثقات من المؤرخين كان الشيعى قد اغتيل فى شهر فبراير من عام ٩١١. وقد حدثت الفتنة ببالرمو فى الصيف التالى أو بعد ذلك، إذ إن ابن خنزير قدم فى أغسطس من عام ٩١٠ وذهب لقتال ديمونه فى ربيع أو صيف عام ٩١١.

بالواقعة إلى المهدى الذى قام بالعفو عن الثائرين وعزل ابن أبى خنزير من مهامه مكتفياً بإخماد الفتنة فى بالرمو وبأن يتولى خليل ـ صاحب الخُمس ـ(1). أمور الحكم مؤقتاً. وقد وقعت هذه الأحداث، فيما قبل السابع والعشرين من ذى الحجة لعام ٢٩٩ (الثالث عشر من أغسطس ٩١٢)، حينما قدم إلى صقلية موفداً من قبل المهدى أمير جديد لصقلية يدعى على بن عمر البلوى(2).

كان يعيش بصقلية فى هذا الوقت رجل يدعى أحمد بن زيادة الله بن كرهب(3) ذو شأن عظيم وواسع الثراء، ينتمى لأسرة عربية عريقة تدين بالولاء للأغالبة، وقد عمل أحد كبارها وزيراً أول لإبراهيم بن أحمد كما قام آخر، والده تقريباً، باقتحام سيراكوزا(4) وكان أخوه أو

(1) «صاحب الخُمس» *Saheb-el-Khoms*. وقد ترجم كاروزو خطأً هذه الوظيفة بـ «صاحب ألكامو» فى *Chronicon Cantabrigiense*، وقائع عام ٦٤٢١ وقد تبعه فى الخطأ دى جريجوريو ومارتورانا وونريش، وهو خطأ لا يغتفر لعالم مستشرق. وقد حاول م. كوسين الذى سقط فى هذا الخطأ هو أيضاً ـ أن يصحح إياه فى الطبعة الفرنسية للنويرى المنشوره بباريس، ص ٢٤.

(2) قارن بين: ابن الأثير، وقائع عام ٢٩٦ المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ١٩٨ الوجه الثانى؛ والنويرى، فى دى جريجوريو *Rerum Arabicarum*، ص ١٢، ١٣؛ وابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٥٩. تفاصيل الفتنة والحكم المؤقت لخليل يذكرهما النويرى دون سواه. وقد قمت باتباع حذوه بشأن التاريخ الخاص بمقدم على بن عمر لصقلية.

فى الفصل الذى يحمل عنوان «قصة مقتل أبى عبد الله الشيعى» يروى ابن الأثير (وقائع عام ٢٩٦، المخطوطة *A* المجلد الثانى، الورقة ٢٠٠ الوجه الثانى ـ والمخطوطة C المجلد الرابع، الورقة ٢٩٠ الوجه الأول) عن ثورة قام بها فى صقلية من يدعى ابن وهب. عند مقارنة هذه الرواية بالفصول الخاصة بالوقائع التى جرت فى صقلية تحت وقائع عامى ٢٩٦ و٣٠٠ نرى أن تلك الرواية واهية وأنها أخذت دون تمحيص دقيق عن حكاية حول ثورة ابن كرهب فى سنة ٣٠٠ والتى أتى فيها الاسم والتاريخ خطأً.

(3) هــكذا ورد بإحــدى فقــرات عريب المتضــمنة فى **البيان**، المجــلد الأول، ص ١٦٩. وعلى ســبيل الاختصــار يقــوم المؤرخون الآخــرون بكتـــابة أحمد بن كرهب.

(4) انظر الكتاب الثانى، الفصل التاسع، المجلد الأول ص ٤٦١ الهامش

أحد أقربائه قد تولى حكم الجزيرة قبلها بقليل(1). ويبدو أن الأمير الفاطمى لما لم يجد وسيلة لإدارة الأمور فى الجزيرة قد تشاور فى ذلك مع ابن كرهب وهو خصم له، لكنه يتصف بالصدق والنزاهة إذ من المعروف لدينا أنه كتب إلى المهدى قائلاً له: «إذا ما أردت أن تستتب الأمور فى البلاد فابعث إليها بجيش كبير يخضعها لسيطرته وينزع القوة من أيدى الزعماء، وإلا فسوف تبقى الجماعة خارجة عن سلطة القانون على الدوام، تشعل الفتن ضد الأمراء فى كل حين وستردهم لك إلى ديارهم خاويي الوفاض»(2). وحسبما أعتقد فإن ابن كرهب كان يشير بشكل قاطع فيما أوجز إلى كلا المسلكين عند زعماء الشعوب المسلمة فى الجزيرة، أى قضاة البربر وأشراف العرب، وهم زعماء لشيع ذات طبيعتين متباينتين، لكن كلاً منهما يتولى الكثير من الأمور المدنية ويتزعمان قيادة الفرق المسلحة. تلك هى السلطة أو (الزعامة) كما تقول الأخبار بالحرف، التى كان ينبغى القضاء عليها فى صقلية. وإذا ما تركنا البربر جانباً وصوبنا النظر إلى طبقة العرب فإن هذه الشهادة الصريحة والتى أكد عليها كل ما تم ذكره فى العصور اللاحقة، تبرز تنامى آفة ثالثة أضحت تتعاظم فى الجماعة ولا تقل خطورة عن تناحر السلالات وربما أقول عن الطغيان الإفريقى. فلم تظهر غطرسة النبلاء من قبل لأن الأهالى الذين قد يشعرون بالموجدة منها لم يشبوابعد شأن أهل القيروان

(1) اختير محمد بن السرقوسي أميراً فى عام ٩٠٣. وقد احتلت سيراكوزا وتعرضت للدمار وصارت مهجورة فى عام ٨٧٨؛ وعلي هذا فلا يمكن أن يكون مولد الأب بتلك المدينة وقد اكتسب اسم السرقوسي من النصر.

(2) ابن الأثير وقائع عام ٣٠٠، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ٢٠٦ الوجه الأول؛ المخطوطة *B*، المجلد الرابع الورقة ٢٩٣ الوجه الأول. بدلاً من «يُخضع» وردت بالمخطوط الأول كلمة «يبدد». أود م. دى فرچيه هذه الفقرة فى ابن خلدون ص ١٦١، الهامش.

والمدن الإفريقية الأخرى. غير أن المقاومة والمناهضة الوحيدة للإمارة كانت تظهر بين ذوى النفوذ وكانت تختلط بمشاعر حرية الجماعة، لكن السواد من أهل بالرمو كانوا يتشيعون بصفة عامة لهم وقد تأخر بهم الحال ثلاثين عاماً أخرى ليضجروا منهم. وفى ظل غياب الشعب لم يبق بالتالى إلا الخيار من بين آفتين: الاستبداد الفاطمى أو إطلاق العنان لتولى النخبة، وبالنسبة لابن كرهب فقد بدا الخيار الأول أقل وطأة. وهذا ما يكشف عن مدى الخيار الآخر، كما أنه يظهر سجية ذلك الوطنى الكبير الذى كان شريفاً وسنياً تتجه مشاعره صوب الأغالبة وصقلياً، وقد قدم مشورة تتنافى مع كل مصالح واتجاهات طائفته. ولم يمض زمن طويل حتى أقدم ابن كرهب على تضحية كبرى بأن ألقى بنفسه فى هوة الثورة ليس على سبيل الاستخفاف أو الغرور أو التطلع، وإنما عن وعى وإيمان نفس كريمة حين أدرك بأنه يمكن من خلال ما تيسر لهم من قليل فى مواجهة الكثير تحرير الوطن من قبضة إفريقية وكذا من الفوضى.

بدخول عام ٩١٣ من الميلاد كانت صقلية قد استيقظت عن بكرتها على لغط جديد: فطرد البلوى من بالرمو، وهو عجوز واهن يبعث على السأم(1)، كما أبعد من چرچنتى على بن أبى خنزير، شقيق حسن، وقد سلبت داره(2)؛ وفى السابع والعشرين من شهر يناير قام أهل بالرمو بقتل عمران، صاحب الخُمس(3)، الذى

(1) ابن الأثير، وقائع عام ٣٠٠ المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ٢٠٥ الوجه الثانى، والمخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٢٩٣؛ النويرى، فى دى جريجوريو *Rerum Arabicarum*، ص١٢؛ ابن خلدون *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٥٩.

(2) البيان، المجلد الأول، ص ١٦٩.

(3) *Chronicon Cantabrigiense* فى دى جريجوريو، المصدر السابق ص ٤٤.

يبدو أنه أراد وضع يده على الحكم شأن سابقه خليل. فى ظل ذلك التحرك الشامل ضد السلطة الفاطمية خفقت العقول بما هو معتاد من عزم على الوفاق حتى أن كلا من العرب والبربر وقعا على المناداة بأحمد بن كرهب حاكماً للجزيرة. ولمعرفته طابع تلك التقاربات فقد أبى ولاذ بالفرار وقام باللجوء إلى أحد الكهوف للاختباء، فلما عثر عليه وجهاء كل صقلية المسلمة ظل متمسكاً بالرفض والقول بأنه لا يثق بهم. غير أنهم لما ألحوا فى مطالبته وأقسموا له بأن يطيعوا إياه حتى الممات(1) سلم أمره لله وأقر القبول. وفى يوم الاثنين الموافق الثامن عشر من شهر مايو كان أهالى صقلية يقلدون إياه منصب الأمير فى احتفال مهيب(2). فاستهل عمله بأن أرسل جماعة إلى كلابريا فى صيف عام ٩١٣، قامت ـ بعد أن انقضت على النصارى ـ بحمل الغنائم منهم والأسرى(3).

بعد ذلك اتجه ابن كرهب بصوابه لأعمال أكبر. ففى أعقاب الحرب التى قادها إبراهيم بن أحمد كان النصارى فى ڤال ديمونه قد دعموا وحصنوا ديمونه وبعض القلاع الصغيرة وكذا تاورمينا ـ وهو عمل من الأهمية بمكان حتى أن المؤرخين المسلمين قد أطلقوا عليها فى هذا المقام اسم تاورمينا الجديدة. لذا تأهب ابن كرهب لاقتحامها مرة أخرى بقصد أن يضع فيها ـ كما شاع الحديث ـ مقتنياته وأسرته وعبيده، وأن يتحصن بها فى حال اندلاع حرب أهلية، لكن يبدو أن الهدف الحقيقى كان إتمام وضمان الاستيلاء على ڤال ديمونه. وأيا كان الأمر، فقد أرسل إليها

(1) **البيان**، الموضع المذكور.
(2) ابن الأثير، البيان، النويرى، ابن خلدون، الموضعان المذكوران. التاريخ الصحيح ورد فقط فى *Cronica di Cambridge*، الموضع المذكور.
(3) ابن الأثير، الموضع المذكور.

ولده علياً ومعه جيش ظل يحاصرها لثلاثة أشهر حتى ثارت فرق كثيره ـ قد تكون من البربر ـ صارخة بأنها لا ترغب فى القتال كى تضع فوق رقابها نيراً آخر، وقامت بإشعال النار فى متاع قائد الجيش وجناحه وأخذوا يبحثون عنه ليقتلوه إلا أن العرب قاموا بالدفاع عنه. بيد أنه قد تم التخلى عن تلك الحملة(1).

فى الوقت ذاته(2) سعى ابن كرهب إلى ترتيب شئون صقلية فى حكم شرعى ومستقر مع كل تلك الحرية التى لم يكن غلاة المسلمين قد تخيلوها على الاطلاق. كانت الكيفية بسيطة للغاية وهى الاعتراف باسم الخليفة العباسى المقتدر بالله الذى ما كان له أن يستطيع من بغداد، فى الظروف البائسة التى كانت تعصف بالخلافة، أن يرفع الخراج أو يزاول أية سلطة، أو يقوم باختيار أمير على صقلية، ولم يكن له أن يفعل شيئاً سوى تولية من اختاره الصقليون. وبالنسبة للأمير فإن الولاية كانت تمنحه قدراً من الأنصار والإجلال، وتنزع بعضاً من الذرائع التى يتوسل بها أدعياء التجديد، كما تضع حائلاً طفيفاً أمام زلل تلك السلطة التى تفتقر للقوة العامة، وفيما تبقى فإنها ما كانت لتزيد من مخاطر حكم مستبد، وما كان يخشى منها الزعماء المعتدلون تصلباً كبيراً فى تطبيق العدالة. غير أن طبقة الأشراف من عرب صقلية أخذت تلامس الحلم الجميل لحكم من نتاج قريحتها وهو ما تاقت إليه من قبل ورغبت فيه حتى وقت قريب ولم يمكنها أبداً أن تناله. كان البربر يعملون كمن يلقى

(1) ابن الأثير، وقائع عام ٣٠٠، المخطوطة A، المجلد الثانى، الورقة ٢٠٥ الوجه الثانى؛ والمخطوطة B، المجلد الرابع، الورقة ٢٩٣ الوجه الأول؛ ابن خلدون *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٥٩.
(2) لا يوحى الخطاب أو مغزى النصوص بأن كرهب قد اتخذ هذا المسلك (من بعد عصيان تاورمينا (وبغرض معالجة الأمر).

بنفسه فى البحر من على ظهر سفينة تحترق، فلتعسف إمارة إفريقية ورفقائهم فى الجزيرة من العرب ضدهم فإنهم اتفقوا هذه المرة مع من هم أقرب إليهم(1). وبصوت واحد فإن صقلية كلها قد أقرت ابن كرهب حين ألقى بخيار الطاعة للعباسيين. فى الحال تم رفع اسم المهدى من الخطبة وجرى الدعاء للمقتدر فى المحافل الجليلة التى تجمع المؤمنين. وأرسلت الخطابات والرسائل إلى بغداد حيث أبدى الخليفة استحسانه بشموخ أصحاب السلطان وأمر بتحرير عهد الولاية باسم أحمد بن زيادة الله بن كرهب وقام كالعادة بإرساله إليه مع رسل مخصوصين ومعه الهبه المعتادة من شارات الحكم: الرايات السمراء، والعباءات السوداء والقلادة الذهبية(2). وصل الوفد القادم من بغداد إلى بالرمو فى أعقاب أسطول صقلية الحربى والذى كان عائداً إلى الميناء بنصر مؤزر(3).

بعد العدول عن اسم المهدى تهيأ ابن كرهب لاثبات جدارته بحد السيف. وما أن عرف بخروج أسطول إفريقى لمهاجمة صقلية أو لمحاربة مصر والأمصار الإفريقية المتمردة(4) حتى أمر فى التاسع من يوليو عام ٩١٤ بابحار أسطول صقلية تحت قيادة ولده محمد. وفى الثامن عشر من يوليو وجد فى ميناء لمطة بالقرب من المهدية قائد الأسطول المعادى حسن بن أبى خنزير - ذلك الذى نجا بالكاد فى الفتنة التى وقعت ببالرمو، وهاجمه فدحر الأفارقة وأضرم النار فى سفنهم بكاملها وقام بأسر

(1) ليس مسئولاً عن هذه التأملات أى من المؤرخين.
(2) قارن بين: ابن الأثير، **البيان**، النويرى، وابن خلدون، المواضع المذكوره.
(3) يتضح ذلك من ترتيب الوقائع لدى ابن الأثير وابن خلدون.
(4) انظر **البيان**، المجلد الأول، وقائع عام ٣٠٠ وما بعده؛ ابن خلدون *Storia dei Fatemiti* فى حاشية *Histoire des Berbères*، للمؤلف نفسه، ترجمة م. دى سلان، المجلد الثانى ص ٥٢٤.

ستمائة من بينهم حسن. وقد شوه محمد من النصر بأن ذبح حسن بيديه وقام بقطع يديه ورجليه وإرسال رأسه إلى والده فى بالرمو: قسوة ربما كان باعثها إساءات قديمة فى صقلية نبعت بكل تأكيد من نماذج الهمجية التى كانت أقدمت عليها الجيوش الفاطمية فى الأمصار الإفريقية المتمردة، ومن المجزرة الغامضة التى وقعت للعرب المنتمين للأغالبة. وصل بعد الهزيمة نفر قام المهدى بإرسالهم على عجل من رقادة غير أن الصقليين - بعد أن وطأوا البر - قاموا بقتالهم وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة حتى أنهم استولوا على كل ما فى معسكرهم من عتاد. بعدئذ قام الأسطول بمهاجمة وتدمير صفاقس التى كانت معقلاً للفاطميين ثم اجتازها وظهر فى طرابلس. وإذ وجدوا القائم، بن المهدى، مع جيشه عائداً من مصر أداروا دفتهم إلى صقلية(1).

لقد قوّى وقع ذلك النصر وتنصيبه فى الولاية من عزم ابن كرهب فبدأ أعمالاً أكثر حيوية فى الشئون العامة، بصلابة واحتراس حسبما يذكر أحد المؤرخين(2) بالصيغة المعتادة تاركاً إيانا لنترجم هذه الرموز إلى أرقام ولتخيل فوق ذلك الصعوبات التى كانت تواجه حاكم صقلية الجديد: تطلعات البربر وأشراف العرب المتناقضة وتطلعات قدامى الأسر المسلمة والصقليين الذين تحولوا للإسلام، وذوى النفوذ من المحاربين ورجال القانون، والرغبات الجامحة المضطربة عند سواد الشعب، والكثير من البغى والتبديد مما يستوجب تقويمه - فكم من مطامح كان على ابن كرهب أن يصمد لها، ومن تنازلات وأطماع كانت تستوجب أن يضع

(1) قارن بين: *Chronicon Cantabrigiense*، الموضع المذكور، وقائع عام ٦٤٢٢؛ ابن الأثير الموضع المذكور، **البيان**، وقائع عام ٣٠٠، ٣٠١ المجلد الأول، ص ١٦٩ و١٧٢؛ ابن خلدون، *Storia d'Affrica* و*Storia dei Fatemiti*، الموضعان المذكوران. تستخلص التواريخ فقط من *Cronica di Combridge*.
(2) **البيان**، المجلد الأول، ص ١٦٩.

حداً لها، وحاقدين عليه اتقاؤهم، وقطاع للطرق كان يجب عقابهم أو ترويضهم، وسخط غادر يستوجب اصلاح ذات البين له، وكم من الكائدين ممن كان عليه أن يتصدى لهم والحمقى الذين يتوجب استرضاؤهم فى ظروف الجماعة التى تحدثنا عنها ما بين أناس تجمعوا دون أى رابطة حقيقية بينهم، وكل منهم على قناعة بأن الثورة إنما تم القيام بها لمنفعته الخاصة. وتكشف إحدى الحملات التى حاول ابن كرهب القيام بها فى كلابريا - متناسياً فيما يبدو أن الفاطميين كانوا من وراء ظهره - عن أن أخشى ما كان يخشاه هى الانقسامات الداخلية وأسـباب الخـلاف على الفئ ولذا كان يجتهد فى أن يشبع مطامع من هم أكثر شـرهاً بغنائم الحرب المقدسة. وقد قام الجيش الذى عبر الفنـار بأعمال النهب والتخريب وأنزل البلاء بالمسـيحيين العزل عند الطرف الجنوبى من البر الإيطـالى(1). لكن الأسـطول قد غرق فى الأول من سبتمبر من نفس العام - أربع عشرة وتسعمائة - أو من العام الذى يليه وذلك فى جاليـانو بالقـرب من رأس لوكا، وجاليكو، القريبة من ريجو(2). وقد كانت هذه بداية انحدار ابن كرهب. فحين اضطر من جديد لمحـاربة قوات الفـاطميين البحرية التى كانت تتضخم على شـريط أفريقيـة الساحلى مُني أسطول صقلية والذى أضعفته تلك الكارثة التى وقعت له فى كلابريا بالهزيمة وتم

---

(1) ابن الأثير، الموضع المذكور، من غير ذكر لتاريخ كل واقعة من وقائع ثورة ابن كرهب التى يرويها جملةً فى وقائع عام ٣٠٠.

(2) *Chronicon Cantabrigiense*، الموضع المذكور، وقائع عام ٦٤٢٣. على أساس التسلسل الزمنى المتبع فى هذه المدونة فإن التاريخ يرجع بدون شك إلى عام ٩١٤. لكنى أزعم وجود خطأ من جانب المؤرخ وهو تسليح أسطولين صقليين فى ذات الوقت، أو تلك السرعة فى تحركات الأسـطول الوحيـد الذى كان فى الثـامن عشـر من يوليو قد انتصر فى لمطة ثم حـاصر صـفاقس وطرابلس فوصـل بعدها لمينـاء بالرمو وتواجد أخيراً بمياه كلابريا فى الأول من سبتمبر. اسم المكان ترد كتابته فى النص دون نقط على الحروف.

الاستيلاء على سفنه بالكامل. ومن ثم كان تذمر القوم وبدأ كل إجراء يتخذه ابن كرهب يكتب له الفشل، ورفع مثيرو القلاقل الذين كانوا قد هدءوا خشية على رؤوسهم(1).

يروى شيدرينو أن زويه حين كانت تتولى حكم بيزنطة بدلاً من ولدها القاصر قسطنطين برفيروچنيتو، إذ أرادت أن تركز قواها فى مواجهة البلغار الذين أخذوا يهددون العاصمة من جديد، عقدت سلاماً مع مسلمى صقلية حتى يكفوا عن اجتياح بوليا وجزر كلابريا التى استعادتها الأسرة المقدونية. ولهذا الغرض قام اوستازيو رجل المهمات الخاصة فى البلاط(2) - كما يطلق عليه الآن - وحاكم كلابريا بتوقيع اتفاق مع أمير صقلية يقضى بأن تدفع إليه جزية مقدارها اثنان وعشرين ألف بيزنطية من الذهب سنوياً أى ما يوازى ثلاثمائة ألف ليرة تقريباً(3). ويستطرد مؤلف الحوليات موضحاً أن چوفانى مونزالوتى قد حـل مكان اوسـتازيو وكان ظالماً فى حـكمه حتى أن أهل كلابريا ثاروا على الإمبراطورية وانصـرفوا إلى الأمير لاندولفو، أمير بنڤنتو، فى أعقـاب تنصيب رومانوليكابينو على عرش القسطنطينية(4). وهذه الأحداث تشير - للتاريخ الذى لم يرد ذكره فى الرواية - إلى أن إقرار السلام فى صقلية إنما يرجع إلى عام ٩١٥ أو بدايات عام ٩١٦، وعموماً فى عهد ابن كرهب(5).

---

(1) ابن الأثير، الموضـع المذكور. لا يذكر ابن الأثير تعـرض الأسـطول للغرق فى كلابريا.

(2) Θαλαμηπόλος.

(3) فى القرن التاسع كانت χρυσίον توازى ما بين ثلاثة عشر إلى أربعة عشر فرنكاً من المعدن.

(4) شيدرينو، طبعة نيبوهر، المجلد الثانى ص ٣٥٥.

(5) وقعت الحرب مع البلغار، التى تم القيام بها (بعد) المعاهدة مع صقلية، فى عام ٩١٧. وقد توج رومانو ليكابينو فى ١٧ ديسمبر ٩١٩ وأتى التمرد فى كلابريا من بعد فى عامى ٩٢٠، ٩٢١. ومع ذلك فقد أرخ لى بون *Histoire du Bas Empire*، الكتاب ٧٣، الفصل ١٢، بعد تحقيق جيد أرّخ لمعاهدة صقلية فى عام ٩١٦. وترجع إشارة چورچو موناكو

لقد كانت ثمرة هذا الاتفاق فخاراً لمستوطنة صقلية المسلمة وللرجل البارع على رأس الحكم فيها، ومصدر عار على الإمبراطورية. ذلك على الرغم من أننى قد لا أؤخذ بالدهشة إذا ما وجد ببعض الروايات التاريخية فى ذات يوم من الأيام أن الاثنين وعشرين ألف بيزنطة من الذهب قد كانت سبباً لانقسامات جديدة بين الجند من العرب والبربر، وأن الطوائف كانت تتهم الأمير بأنه قد باع نفسه للكفار من أجل أن ينفق أموالهم مع حراسه.

مثلما كان متوقعاً بدأ رد الفعـل ضد ابن كرهب من قبل طائفة البربر. فبمرور عام ٣٠٣ من الهجرة (السادس عشر من يوليو عام ٩١٥ إلى الثالث من يوليو لعام ٩١٦) كان أهالى چرچنتى يتنكرون لسلطته وأخذوا يبعثون الرسائل بولائهم إلى المهدى وانساقت إليهم جماعات أخرى. وقد تزعم جانبهم رجل يدعى أبو غفار(1) فأراد - بالاشتراك مع رؤوس المتمردين - أن يفضى هو نفسه إلى ابن كرهب بأن يغادر صقلية إلى خارجها على الفور مصحوباً بالأمان

طبعـة نيبوهر، ص ٨٨٠ بالحـدث ربمـا إلى الخمسعشرية الثالثة (٩١٤ - ٩١٥). على أيـة حـال بمـا أنـه لم تكن فى صقلية أية حـكومة من صيف عـام ٩١٦ إلى ربيـع ٩١٧ فإنـه يبدو أن المعـاهدة قد وقعت قبـل تدعيم السـلطة الفـاطمية، وفى عهـد ابن كرهب. ولا يجب التـأريخ لهـا فى فتـرة لاحقـة إذ من المعـروف أن أسـطولاً للمهدى كـان يغير على ريجـو فى شـهر أغسـطس لعام ٩١٨.

غير أنه إذا تركنا جانباً مناقشة ما إذا كانت المعاهدة قد وقعت فى عام ٩١٥ أو فى ٩١٨ وكذا ٩١٩، من قبل تولى رومانو ليكابينو، فمن المؤكد بأنه لا يمكن تصنيفها فى عام ٩٢٨ كما ذهب مارتورانا (المجلد الأول ص ٨٦) وتبعه فيه ونريش (الكتاب الأول، الفصل الثانى عشر § ١٠٥). وقد أخذ مارتورانا تفاصيل المعاهدة عن شيدرينو وتاريخها عن النويرى. لكن يبدو لى واضحاً أن هذا التاريخ لا يعود إلى المعاهدة الأولى بل إلى تجديد تلك المعاهدة ما بين القسطنطينية والفاطميين كما سأتناول هذا بالشرح فى الموضع المناسب فى سياق الفصل التالى.

(1) هذا الاسم الذى أورده النويرى فقط يخلو - فى المخطوطة - من الحركات ومن دون شك فهو ليس اسم العائلة، لكنه لقب؛ وكما أقرأه أنا فإن معناه «الرجل كثيف الشعر عند الرقبة والوجه».

حيث إن الناس كانوا يحنقون عليه؛ وقد رد ابن كرهب عليهم برصانة بأنه قد تولى الحكم بطلب منهم ونزولاً على رغبتهم هم أنفسهم، كما ذكرهم بالقسم الذى أقسموه له، وأبلى فى إقناعهم ألا يفسدوا المهمة التى شرع فيها الصقليون على نحو جيد، غير أنهم ركبوا العناد ولم يشأ هو أن يذعن لهم ولتهديداتهم بل إنه وجد آخرين كثيرين يحتفظون له بالولاء فتحصّن فى بالرمو على ما يبدو، وبدأت المعركة. وسواء لأن المعركة كانت فى صالح المتمردين أم لأنه أراد تحاشى استمرار نزيف دم المدنيين فإن ابن كرهب قرر طواعية اللجوء إلى أسبانيا. وليس مجافياً للحقيقة أن ما أدى لانهياره هو ذلك الحدث الجديد والرهيب المتمثل فى محاصرة الجماعة فى جريليانو والذى كان يبدو سبباً فيه ما وقع من سلام مع البيزنطيين(1). وبعد أن قام باستئجار السفن وحملها الكثير من حاجياته هو وخاصته كان ابن كرهب بصدد الإبحار فى الرابع عشر من يوليو لعام ٩١٦(2). وفى هذه الأثناء اكتظ الشاطئ بحشد من الناس قفزوا على السفن غاضبين فسلبوا ما فيها وقاموا بإلقاء القبض على الأمير وأبنائه ومن كان يتبع مصيره من الأصدقاء وفيهم القاضى ابن خامى. وبعد أن كبلوهم ألقوا بهم على ظهر أحد القوارب وقاموا بإرسالهم، زيادة فى الخزى، إلى الغاصب الفاطمى بسوسة. «ما الذى دفـع بك لإنكار الحـق المقدس لبيت على وتتمرد علينا؟» قال المهدى لابن كرهب فى استعلاء وقد أتى به مكبلاً فى قيوده

---

(1) انظر الفصل التالى. كان بدء الحصار فى الرابع عشر من يونيو لعام ٩١٦. وقد يكون الاتهام ظالماً لأن قطاع الطرق فى جاريليانو لم يكونوا خاضعين لأمير صقلية. لكن متى حكمت أهواء المتحيزين على الأعداء بالصواب؟.

(2) يرد ذكر التاريخ بدقة فقط في *Cronica di Cambridge*. ويتوافق معه **البيان** مع اختلاف طفيف إذ يضع أسر ابن كرهب فى عام ٣٠٢ الذى كانت نهايته فى الثالث من يوليو لعام ٩١٦، ووصوله إلى سوسة فى شهر المحرم من عام ٣٠٤ أى من ٤ يوليو إلى ٢ اغسطس.

فأجـابه: «الصقليون، لقد ولونى رغم إرادتى، ورغم إرادتى عزلونى». عندئذ أعـاده إلى السـجن وزاد فى تعذيبه ما استطاع بما هو غير مألوف وأهانه بصنوف الهوان. وبعد أن امتطى جواده أخذ فى اقتياد السجناء معه إلى رقادة والتى كانت لاتزال عاصمة للدولة. وخارج باب السلْم، هنالك حيث كانت بقايا جثة حسن بن أبى خنزير الذى تم قتله بعد معركة لمطة مدفونة، ضُرب ابن كرهب وابناؤه وأصدقاؤه من الساسة حتى الموت شأن لصوص الطرقات، وقطعت أيديهم وأرجلهم وعلقت جثثهم فوق الأعمدة الكثيرة المواجهة للمقبرة(1).

قام المناهضون للثورة فى صقلية بمشاركة نبلائهم ممن كانوا ضحاياها بإرسال تظلم شديد اللهجة إلى المهدى. فلما كانوا يحلمون بإمكان انكار حقه واستدامة الأمر أخذوا يكتبون إليه بأنهم فى غير حاجة إلى جند أو أى نوع من المساعدة من طرفه سوى أن يعين حاكماً وقاضـياً وسوف يتولون أنفسهم أمر ما تبقى، وأضافوا شروط أخرى ملأته بالسخط والغيظ مثلما كتب المؤرخون الذين لم يعرضوا للتفاصـيل(2). وخلافاً لما كانوا يشـتهون من سند لحلمهم الخيالى قام المهدى ـ الذى كان يعرف استغلال الظروف استغلالاً جيداً ـ بإرسال قائد محنك إلى صقلية(3) هو أبو سعيد موسى بن أحمد

---

(1) قارن بين: *Chronicon Cantrbrigiense*، وقائع عام ٦٤٢٤ (١ سبتمبر ٩١٥ إلى ٣١ أغسطس ٩١٦) فى دى جريجوريو *Rerum Arabicarum*، ص ٤٤، **البيان**، وقائع عامى ٣٠٣، ٣٠٤ المجلد الأول ص ١٧٥، ١٧٦ وابن الأثير، وقائع عام ٣٠٠ المخطوطة *A*، المجلد الثـــانى، الورقة ٢٠٦ الوجـــه الأول، والمخطـــوطة C، المجلد الرابع، الورقـــة ٢٩٣ الوجـــه الأول، النويـــرى فى دى جريجـــوريو ص ١٣ وابن خـــلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٦٠، ١٦١ و*Storia dei Fatemiti* فى حاشية *Histoire des Berbères*، المجلد الثانى ص ٥٢٥. يضع كل من ابن الأثير وابن خلدون الذى نقل عنه، والنويرى هذه الأحداث، مع خطأ فى التاريخ، فى عام ٣٠٠.

(2) **البيان**، وقائع عام ٣٠٤، الموضع المذكور.

(3) حين يشير إلى ثورة ابن كرهب يذكر يحيى بن سعيد، الذى واصل حوليات اوتيكيو

الملقب بالضيف، بصحبة أسطول وفرق قوية من قبيلة كتامة يتزعمهم شيوخهم. وقد وصل إلى ترابانى فى الخامس عشر من شهر أغسطس حيث ذهب لاستقباله علية القوم من أهالى چرچنتى وقد أكرم وفادتهم كثيراً وقدم إليهم ثياباً فاخره وحاول إغواءهم واخضاعهم لرغباته؛ فلما رأى ألا جدوى أمر فجأةً بالقبض على أبى غفار وتقييده فى الأوتاد. وسرعان ما لاذ أخ له يدعى أحمد بالفرار، فهرول إلى چرچنتى لدعوة الأهالى إلى حمل السلاح. هكذا قام البربر بعد مضى شهرين فقط ـ وبعد فوات الأوان ـ باشعال الثورة من جديد، وهى التى كانوا قد أخمدوها بأيديهم. وقد حذت حذوهم مدن وحصون أخرى(1).

سار أبو سعيد دون توقف صوب العاصمة. ولمعرفته أن جموعاً ثائرة سوف تعترض طريقه، وأن المدينة تفتقر للدفاع من جهة البحر، قام القائد الإفريقى بجسارة بابحار رجاله الكتاميين ودخل ميناء بالرمو مع أسطوله فى الثامن والعشرين من شهر سبتمبر(2). كان ثغر الميناء هو تلك المنطقة التى تسمى حالياً كالا، وكانت المياه الساحلية والقناة الكبيرة تتغلغل داخل الأرض كثيراً حتى حواجز المدينة القديمة بحيث تخلف عند كلا الجانبين ذراعين تملؤهما

(مخطوطة باريس ـ الورقة ٨٩، الوجه الثانى) بأنها قد أخمدت من قبل أحد قواد المهدى ويدعى بجانة أو بُجانة إلخ (إذ لا يضع حركات على الحروف) والذى أخضع كذلك مدينتى برقة وتوجرت المتمردتين. ورغم عدم صحة هذه الرواية فمن الواضح أن الأمر يتعلق بأبى سعيد والذى ربما كان يحمل ذلك الاسم الآخر، وهو اسم بربرى من وقعه فى أذنى.

(1) قارن بين: *Chronicon Cantrbrigiense*، ابن الأثير، **البيان**، النويرى، ابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، المواضع المذكورة، قام رامبولدى (المجلد الخامس، وقائع ٩١٤، ٩١٥، ٩١٦، ٩١٧) بخلط وتجزئة كل هذه الأحداث ـ التى أخذها عن *Cronica di Cambridge* وعن النويرى بطريقته الخاصة. وقد جعل ماراتورانا (المجلد الأول، ص ٨١) ونريش (الكتاب الأول، الفصل الحادى عشر § ١٠٣) من نفس الشخص قائدين: موسى بن أحمد، وأبو سعيد الضيف، وجعل ونريش مقدم الأول إلى صقلية فى عام ٩١٣ والآخر فى عام ٩١٦.

(2) قارن بين: *Chronicon Cantrbrigiense*، وابن الأثير، الموضعان المذكوران.

الصخور والرمال البحرية يخلوان كما يبدو من السكان(1). وقد قام أبو سعيد بوضع أفراده فوق أحد الذراعين وتحصن به من الأمام بسور يمتد عرضياً من الميناء إلى الساحل الخارجى، يحميه على الجانبين ومن خلف البحر الذى كان يسيطر عليه بواسطة أسطوله، وهكذا فقد قام بإغلاقه فى وجه المحاصَرين(2). فى البداية أمكنه أن يلحق القليل من الضرر بالمدينة - ففى السابع عشر من شهر أكتوبر كان أهالى بالرمو يقسمون أمام ناظريه على الوحدة مع سفراء

---

(1) انظر هامش ص ٧٠، ٧١ من هذا المجلد. لقد انحسرت مياه الميناء القديم خلال قرون قليلة بشكل ملحوظ إما لارتفاع سطح الأرض أو نتيجة فيضان نهر بابيريتو - أو لكلا السببين معاً. وحين أتى ابن حوقل إلى بالرمو فى عام ٩٧٢ كان الميناء الكبير بحى سكيافونى (كنيسة سان دومينيكو، وضاحية بيتسوتو .. إلخ) وكانت الترسانة فى الخالصة وهو حصن شيده الفاطميون فى عام ٩٣٧؛ ويقول ابن حوقل إن البحر كان يحيط به عدا ناحيته الجنوبية. من الواضح إذاً أن المياه كانت تشغل تلك المنطقة المسماه حتى الآن «بياتزا ديللا مارينا» ولو أنها لم تعد ترى البحر. ويؤكد فاتزللو بأنه مع هبوب رياح شمالية عاتية فى بدء القرن السادس عشر كانت الأمواج تضرب أحد بوابات المدينة وتغمر الميدان المتاخم بالمياة، وأن هذا لم يعد يحدث كتب هو، أى نحو عام ١٥٥٠ (*De rebus Siculis*، العشرية الأولى، الكتاب السابع، الفصل الأول، وحالياً فإن البحر الشمالى الشرقي الكبير، الذى يمتد مباشرة داخل كالا يبعث بالكاد بعضاً من قطرات مائه أسفل المنازل ويدفع بجداول مياة الأمطار إلى داخل مجارى المياة فى بياتزا ديللا مارينا. لكننى أعتقدأنه فى بداية القرن العاشر كان الذراعان منخفضين بحيث لا تمكن الإقامة عليهما. وفى الوقت الحالى توجد عند طرف ذراع ترامونتانا القلعة التى تم تشييدها فوق صخور تلامس بالكاد سطح الماء. فيما يتميز جيداً ذراع الخالصة أو جوزا كما يطلق على هذا الحى حتى الآن - وهى الخالصة التى أنشأها الفاطميون، يتميز حتى الآن بظهره الذى يرتفع فيما بين رصيف البحرية بمعناه الحقيقى وبياتزا ديللا مارينا. ويوجد هنا قصر بوتيرا، والشارع الذى يحمل نفس الاسم، وكنيسة لاكاتيتا (أو الميناء القديم)، ودار سك العملة، والمحاكم - ويرجع أقدم مبانيه إلى القرن الرابع عشر. كما كانت تقوم به حتى عام ١٨٢١ كنيسة كالسا والتى ترجع كذلك إلى القرن الرابع عشر أو الثالث عشر.

(2) ابن الأثير، الموضع المذكور. ملابسات المكان التى يرويها تتلاءم مع كلا الذراعين، وشهادة ابن حوقل من أن الميناء القديم كان يقع بحى سكيافونى لا تذهب الشك، إذ أن الخالصة كانت بها أيضاً ترسانة للسفن، أو ميناءاً حربياً. بل إنه يحتمل أن الذراع الشمالية - كونها أكثر انخفاضاً من الآخرى ومن جهة ثانية وحلة - لم تكن تصلح كذلك لإقامة معسكر عليها.

من چرچنتى ومدن أخرى نذكر من بينهم أسمى ابن على وأوا السيعرى(1). لكن يبدو أن الخطر المشترك لم يطو صفحة العداء وأن البقية الباقية من صقلية لم تقم بإرسال المعونات إذ أخذ القائمون على الحصار يضيقون الخناق أكثر فأكثر على بالرمو. وفى إحدى المعارك لقى الصقليون الهزيمة وبقى طريحاً على أرض المعركة عدد كبير من نبلائهم، فاندفع الكتاميون القساة إلى الضواحى فكانوا يضعون ساكنيها بما فيهم النساء والأطفال على حد السيوف. وأخذوا يغتصبون الفتيات ويقومون باتلاف ونهب كل شئ. غير أن المدينة القديمة ظلت صامدة، فطلب أبو سعيد إلى المهدى إمدادات أخرى من الرجال والسفن فنالها إلى أن ندرت المواد الغذائية وارتفعت الأسعار، حتى سعر الملح ارتفع إلى ما دون الليرة بقليل للأوقية الواحدة(2) فأذعن الأهالى لعقد اتفاق معه بعد أشهر ستة من الحصار. وقد تم إقرار العفو العام فيما عدا اثنين من زعماء التمرد: فقام الأهالى بما عهد فيهم من تسرع بتسليمهما وتركوا أبا سعيد يدخل المدينة فى الثانى عشر من شهر مارس لعام ٩١٧. وقام كما هو واضح على النقيض من شروط الاتفاق، قام باقتحام البوابات وهدم الأسوار وانتزاع الأسلحة وخيول الحرب وفرض إتاوة على المدينة،

---

(1) يُقرأ التاريخ وأسماء السفراء فى *Cronica di Cambridge*، والإشارة إلى چرچنت ومدن أخرى فى ابن الأثير. آوا، أو أُوا يبدو اسماً بربرياً بالفعل.

(2) يُقرأ ذلك فى *Cronica di Cambridge* فقط. وقد قرأها كاروزو وعلماء الشرقيات ممن ساعدوه فى النشر «تاريين» وفسروها على أنها «٢ تارى». ولكن علاوة على أن لفظة «تارى» قد تكتب بالعربية «درهم» فإن المخطوط يذكر بوضوح «حريتين» وقراءتها «خروبتين» وتعنى «٢ خروبة» وهى وزن وعملة ويبدو أن تسميتها ترجمت عن الكلمة اللاتينية *Siliqua*. وهذه العملة توازى ١/ ٤٠ من الدينار، أى ٠،٣٦ من الليرة الإيطالية. وبالتالى كان سعر أوقية الملح ٠،٧٢ ومن المحتمل أنها الأوقية الرومانية التى كانت تستخدم فى صقلية حتى ما بعد الحكم الإسلامى ويشير إليها الإدريسى.
وحسبما يقول الإدريسى، فإنها لا تختلف كثيراً عن الأوقية الرومانية القديمة، وتساوى ثلاثين جراماً على وجه التقريب.

وبعد أن قام بأسر كثير من أعلام الرجال بعث بهم إلى المهدى فى إفريقية. ومن دون صخب أمر هذا بإلقائهم فى البحر مقيدين وروج بعدها بالعفو العام فى صقلية. وفى شهر سبتمبر من العام نفسه أخذ أبو سعيد فى العودة مع جيشه وأسطوله إلى إفريقية تاركاً فى حكم صقلية سالم بن أسد بن راشد تحميه زمرة من ذوى البأس من الكتاميين(1). وبدت الثورة من أجل الاستقلال قد ماتت وأهيل عليها التراب.

(1) قارن بين: *Chronicon Cantrbrigiense*، الموضع المذكور، وقائع عامى ٦٤٢٥، ٦٤٢٦؛ ابن الأثير، الموضع المذكور؛ البيان، وعريب وقائع عام ٣٠٤ المجلد الأول ص ١٧٦؛ ابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٦١، ١٦٢. يذكر ابن خلدون خطأً أن الحرب التى كانت ببالرمو قد وقعت فى ترابانى. النويرى فى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ١٣ يخلط بينها وبين أحداث چرچنتى. اسم الأمير الجديد مذكور فى *Cronica di Cambridge* باسم سالم فقط، وفى **البيان**، سالم بن أبى راشد، وفى ابن خلدون، سالم بن راشد، وفى النويرى، سالم بن أسد الكنانى. وأعتقد أن صحته الكتامى إذ من غير المحتمل أن يكون المهدى قد قام بوضع عربى من قبيلة كنانة على رأس جند قبيلة كتامة البربرية، الذين بقوا فى صقلية.

الفصل الثامن

وبين هذه الحروب الأهلية التى رويناها والتى وقعت بالجزيرة فإن الإيطاليين بالبر الإيطالى لما توصلوا - فى إحدى المرات النادرة - إلى اتحاد جمع بينهم لشهور قليلة قاموا باقتلاع المسلمين من جريليانو. وقد كان ممكناً أن تنشأ عن ذلك اتفاقات لها أمد طويل سوى أنه قبل دخول القرن العاشر، لما جعل اقطاعيو شمال إيطاليا من أنفسهم أمراء مطلقين، فإن نفوذ الإمبراطورية الغربية قد تراجع نظراً لضعف الطامعين فى أخذ مكانتها وكثرة عددهم. وكانت القوات البيزنطية تكفى لا أكثر ولا أقل للبقاء دون طردها من جنوب إيطاليا، وانحط شأن التاج البابوى بسبب الأعمال المعيبة والقسوة والمساوئ التى كان يسمح لنفسه بها. ومع ذلك وكما أن للتاريخ شطحات فإن ذلك التحالف الإيطالى والذى كان بحق صائباً وضرورياً وله مردود إيجابى كانت بدايته فى روما وسط كثير من الأعمال المذمومة، وقد كان بطل هذه المهمة هو چوڤانى العاشر الذى ولد من فضيحة، وتوج بفضيحة أكبر حتى أن كتاب الكنيسة لا يذكرونها.

حينما اعتلى چوڤانى العاشر كرسى البابوية (٩١٤) كان أهالى جريليانو بصدد التحول من قطاع للطرق إلى فاتحين وبعد أن تجمع المسلمون ممن حاربوا بتلك النواحى فى عهد چوڤانى الثامن كما روينا - فقد استهلوا تجمعهم الجديدة بالاستيلاء على كنوز الأديرة: لكن الهزيمة التى لاقوها فى كلابريا عام ٨٨٥ قد نالت منهم(1) - والحقيقة أنهم تزودوا تحت حكم إبراهيم بن أحمد بالخارجين من الأفارقة

(1) انظر الكتاب الثانى، الفصل ١١ ص ٤٩٨، ٥١٤ وما بعدها.

ومن الصقليين خاصة فى عام ٩٠٠ وقد وهبهم انتقال إبراهيم إلى كلابريا (٩٠٢) حماساً ودعماً، على ما أعتقد، إذ أظن بأنه قد انضم إليهم الجانب الأكبر من عصبة أجروبولى التى اندثر اسمها بعد نهاية القرن التاسع، وإذا كان قد تبقى منها رهط قليل فقد كانوا تحت كنف جمهورية نابولى(1). وفى المقابل تزداد أهوال برابرة جريليانو كما ورد فى كل الروايات التاريخية المتعلقة بهذا الزمان فترسم لهم صورة أمضى أذى وأكثر بشاعة من المجريين الذين كانوا ينزلون الدمار فى لومبارديا(2)، ولكن إذا ما انتقلنا إلى التفاصيل فإن أحداً لا يلقى بالاتهام على المسلمين بأنهم قاموا بحرق المئات من الأسرى مثلما فعل المجريون. إن الثابت هو أن المسلمين لم يكونوا يفوقوا المجريين قسوة أو عدداً، وإنما يتفوقون عليهم بحق فى السرعة والمثابرة وفى النظام. كانت تبرز عند المنتصف من شواطئنا فى البحر التيرانى تلك النواة الطبيعية للدولة الإسلامية ألا وهى القيروان(3). وبدأ معسكر جريليانو يأخذ شكل المدينة: فقاموا بتدعيمه بالتحصينات والأبراج(4) وكانوا يحتفظون فيه بالنساء والأبناء والأسرى والغنائم(5). كانت قمم التل القريب حصناً لهم عند الخطر الداهم. وكان الجزء القصير من النهر الذى يمكن اجتيازه بالقوارب ييسر تمركزهم ويسهل تلقى المساعدات؛ فعند مصبه كان يقيم نصارى جاييتا المتحالفين معهم وتبعد عنهم قليلاً جمهورية نابولى التى كانت

(1) ربما كان من بين هذه الجماعات الصغيرة المسلمون الذين قاموا مع أهالى نابولى بقتل ثلاثين مواطناً من كابوا فى عام ٩٠٥. انظر *Chronicon Sancti Benedicti* فى: بيرتز، .ec و*Scriptores*، المجلد الثالث، ص ٢٠٦.

(2) ليوتبراندو: *Antapodesis*، الكتاب الثانى، الفصلان، ٤٤، ٤٥.

(3) انظر المجلد الأول، ص ١٨٩.

(4) يقول ليوتبراندو *munitiones*؛ بينما يقول بندتو راهب سانت أندريا: *Turroes*.

(5) ليوتبراندو، الموضع المذكور.

تحمل على الإحترام، لكنها كانت صديقة لهم فى نهاية المطاف. ولا ينبغى أن نقول بأن أولئك كانوا خاضعين للأغالبة أو الفاطميين من بعدهم، ولم يمتثلوا أبداً لأمراء صقلية. فقد كانوا يشكلون كياناً سياسياً بذاته، خارجاً على القانون، شأن جماعات إسلامية أخرى كثيرة فى أزمنة وأماكن عدة: فى كريت، وباري، وتارانتو، وفراسينيتو. وعلى غرارها كان أولئك على ما يبدو يقومون باختيار زعيم لهم، يطلق عليه أحد المؤرخين الإيطاليين لقب خليفة(1)، وربما كان يسمى كذلك.

إذا ما نظرنا على خريطة إيطاليا إلى أسماء الأماكن التى تعرضت للاجتياح فسوف نرى أن غارات الخيالة كانت تنطلق، من موقع جريليانو مثل أشعة تمضى لتصيب المنطقة بكاملها فى شبه دائرة متسعة، إلا أنها كانت تقصر وتتبعج ما بين الجنوب والشرق حيث كانت تلاقى نابولى والإمارات اللونجوباردية، بينما كانت تسرى بعيداً جداً فيما بين الغرب والشمال إلى داخل دولة الكنيسة. وحين استنفرهم ما حاق بهم من أضرار غير مألوفة من جانب أهل جريليانو فى أعقاب حرب إبراهيم بن أحمد أتى النصارى فى يونيو من عام ٩٠٣ لاعتراضهم عند ضفة النهر فأصابتهم هزيمة دامية(2). وفى عام ٩٠٨ أراد أتنولفو أمير كابوا الذى تولى منذ فترة قليلة إمارة بنفنتو (٩٠٠) أن يعاود حمل السلاح فتحالف مع نابولى وأمالفى، وبعد أن جمع الكثير من الجنود قام باجتياز جريليانو على جسر من القوارب فى سترا، كما كان يطلق على المكان المجاور لترايتّو، وتعرض لعاصفة هجوم ليلى قام به المسلمون ومن يؤازرونهم من جاييتا، ولكن حين اشتدت المعركة أنزل الهزيمة

(1) *Chronicon comitum Capuæ*، فى بيرتز: .ec و *Scriptores*، المجلد الثالث، ص ٢٠٨.

(2) *Chronicon Sancti Benedicti*، فى بيرتز، الجزء نفسه ص ٢٠٦. من المحتمل أنه يعنى اللونجوبارد فى كابوا وبنفنتو وأهل نابولى.

بالأعداء وأخذ يطاردهم حتى ملاجئهم(1). ونظراً لأن قواته لم تكف للقيام بذلك الاقتحام، إلا إذا صار لأهل نابولى دور أكبر فى التحالف، فقد قام بارسال إبنه لاندولفو ليطلب المساعدة من ليونى والذى كان يتوق إلى تأمين مناطق السيادة البيزنطية فى إيطاليا. وهكذا بينما كان يجرى الإعداد للحملة فى القسطنطينية اضطر لاندولفو للعودة إلى بنفنتو لموت والده (٩١٠)، وتوفى ليونى نفسه بعد ذلك بقليل (٩١١)(2). وبعد أن أخذ لاندولفو الحكم قام فى عام ٩١١ بتجديد الاتفاق مع جمهورية نابولى التى وعدته بالكلمات بمساعدته ضد المسلمين كما لو كانت بنفنتو أرضها هى(3)، لكن يبدو فى الواقع أن لعبة التوازنات التى بدأت قبل ذلك بثمانين عام لم تتوقف. فقد أختلف مصير الجيوش. فقد قام المسلمون يقودهم ألّيكو، كما ورد اسمه فى الأخبار، بالتقدم حتى سواحل الأدرياتيك عندما لحقهم لاندولفو وأنزل بهم الهزيمة فى معركتين فى سيبونتو(4) وكانوزا(5) وقد عادوا للظهور بقوة جديدة فألحقوا الخراب بڤينوزا وفريچنتو وتورازى وأڤللينو وفى ضواحى بنفنتو نفسها(6). وفى النهاية قاموا بنهب دير أليفيه وإحراقه(7).

---

(1) *Leo Ostiensis*، الكتاب الأول، الفصل ٥٠.
(2) المصدر المذكور الفصل ٥٢.
(3) تتناول أيضاً الوثيقة الخاصة بجريجوريو، دوق نابولى، اتفاقات دولية أخرى مع بنفنتو كالقوانين التى يتم بمقتضاها على سبيل المثال الحكم فى النزاعات التى تنشأ بين رعايا من الدولتين. يرجع تاريخ هذا الاتفاق إلى الحقبة الرابعة عشر من التقويم الرومانى وهو مدون فى إحدى وثائق دوق نابولى چوڤانى، يوجد فى براتيللي *Historia Principum Langobardorum*، المجلد الثالث، ص ٢٢٨.
(4) مانفريدونيا الحالية.
(5) *Chronicon comitum Capuæ*، الموضع المذكور. وألّيكو هذا هو من ذكرته الأخبار بأنه كان خليفة الهاجريين فى ترااينتو وجريليانو.
(6) المصدر نفسه.
(7) *Chronicon Vulturnense*، فى كتاب موراتورى *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الأول، الجزء الثانى ص ٤١٨. وتقول الأخبار بأن هذا قد حدث فى عام ٩١٦.

وقد تسببوا فى أضرار أكبر بنواحى روما، فدمر فى هذا الوقت دير فرفا الذى اشتهر فى العصر الوسيط بأملاكه الضخمة وبجرأته على الباباوات، وقد هجره الرهبان حين شعروا بالمسلمين من فوقهم(1)، ولا يعرف العام الذى وقع فيه ذلك. تقع فرفا فى إقليم سابينا الذى كانوا يعيثون فيه مثلما كانوا يعيثون فى سهل كامبانيا بروما وأراضى تشيكولى ويعملون فيه القتل والحرق والسلب. وقد زحف الأعداء إلى ما وراء نهر التيبر فى نيبى وصعدوا حتى أورتا ونارنى حيث استقروا فيهما(2). فلما استولوا على المعابر قاموا بفرض جزية كبيرة على النصارى الذين كانوا يذهبون للحج إلى مقبرة الحواريين. وقد تعرضت ضاحية المدينة الكبرى بالفعل لاجتياح كبير حتى أن مؤرخاً ساخراً قد كتب قبل خمسة عشر عاماً بأن الرومان كانوا يسيطرون على نصف روما والأفارقة على نصفها الآخر(3).

وسط الكثير من الكوارث تقدم إلى چوڤانى العاشر واحد من المسلمين هارب بسبب الإهانات التى وقعت عليه من بنى جلدته وقد أخذ يتفاخر بقدرته على التصدى لهم على أن يمده البابا بشبان أقوياء يتسلحون بالدروع وبالسيوف والرماح ومشدات الخصر الخفيفة ويحملون معهم قليلاً من الأطعمة. ومن هذا الوصف نلمس المجاورين من أهل كتالونيا الذين اشتهروا بشدة فى معارك ثورة الغروب الصقلية(4). وقد أعطى چوڤانى العاشر ستين رجلاً قام المنشق معهم - بعد ترصده رفاقه القدامى - بنهبهم داخل

---

(1) *Chronicon Farfense*، فى كتاب موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الثانى، الجزء الثانى، ص ٤٥٤.
(2) *Chronicon Benedicti Sancti Andreæ monachi*، الفصل السابع والعشرون، فى كتاب بيرتز *.ec* و *Scriptores*، المجلد الثالث، ص ٧١٣.
(3) ليوتوبراندو، المصدر المذكور، الكتاب الثانى، الفصلان ٤٤، ٤٥.
(4) المجاور تعنى الآن مجاهد (مقاتل).

ممر ضيق. عندئذ بدأ الرومان يتشجعون ويخرجون إلى الريف ويقاتلون فى مجموعات صغيرة فيصادفون النجاح[1]، وكوّن أكيبراندو - وهو من رييتى - حشداً من المقاتلين اللونجوبارد ومن أهالى سابينا لمواجهة المسلمين المتحصنين بأطلال تريفى[2] فهزمهم وقضى عليهم بالسيوف. ومن ناحية أخرى قام أهالي نيبى وسوترى بنزال المسلمين على أرض بكّانى وانتصروا عليهم. وبعد هذه الهزائم تراجعت فرق المسلمين فى نارنى وتشيكولى إلى جريليانو[3].

ولأن البابا ولاندولفو كانا يدركان بأنه من غير المجدى التفوق على الأعداء هنا وهنالك إن لم يتم اجتثاثهم من الجذور فقد قاما بالفعل فى أقل من عامين بإرسال مشروع حملة صليبية، وبعثوا الرابطة التى تكونت فى عام ٩١٠ وقاموا بتوسعتها فجذب البابا إليها الإمبراطورة زويه والبريكو دوق كامرينو، وبرنجاريو دوق فريولى الذى كان يحمل هذا اللقب منذ كثير من السنين ويتمتع آنذاك تقريباً بنفوذ ملك إيطاليا. فى أواخر عام ٩١٥ قدم برنجاريو إلى روما تعضده الأموال التى منحه إياها البابا ووسط التصفيق - إذ أنه لم تكن حاجة لشرائه - توج نفسه بالتاج الإمبراطورى. وفى الفصل التالى بعد أن اتحد البابا والإمبراطور قاما للمرة الأولى والأخيرة لمصلحة إيطاليا بالزحف على جريليانو. وقد تبعتهما الفرق العسكرية من دوقيتى كامرينو وسبوليتو فيما اتجه لاندولفو إلى نقطة الالتقاء برفقة الجنود من إمارة كابوا وبنفنتو. وقامت الإمبراطورية البيزنطية بتقديم مساعدة فعالة، فقدمت الأسطول وفرقاً ضخمة من بوليا وكلابريا والدهاء اليونانى للقائد البارع

---

(1) ليوتويراندو، المصدر نفسه، الفصلان ٤٩، ٥٠.

(2) *Civitatis vetustate consumpta*. (يفتقر الراهب بندتو إلى الدقة بشأن التوافق) *nomine Tribulana*.

(3) *Benedicti Sancti Andreæ monachi* ، المصدر المذكور، الفصل ٢٩.

نيقولا بيتشنلى الذى استمال إلى الرابطة أمير سالرنو وأكثر من هذا دوق نابولى ودوق جاييتا مغرياً كليهما بلقب النبيل ومهدداً بسحقهما إن عاونا المسلمين.

فى شهر يونيو اتجه الأسطول اليونانى شمالاً إلى جريليانو وقام البابا بنفسه - مع من اتحد معه من الإيطاليين - بالضغط من بقية الجهات وقاموا بهجمات مبهرة إستحق فيها البريكو ولاندولفو الثناء على شجاعتهما. ولاذ المسلمون بالفرار إلى المرتفعات الجبلية بعد أن فضت ملاجئهم حيث طوقتهم بشدة أسلحة القوات المسيحية. وأقام البيزنطيون قلعة عند الساحل الوعر الذى كان المحاصرون قد اعتادوا الخروج إليه للحصول على المؤن. وبعد ثلاثة شهور وبعد أن ضاع أناس كثيرون فى المصادمات، وبعد أن ضغط الجوع عليهم ضغطاً شديداً قام المسلمون تنفيذاً لنصيحة قدمها لهم سرّاً، كما شاع آنذاك، دوق نابولى ودوق جاييتا، قاموا بحرق المعسكرات، وأثناء الهرج والمرج بحث من استطاع إلى هذا سبيلاً عن ملجأ له فى الغابات المحيطة حيث طاردهم المسيحيون وقتلوهم أو أسروهم جميعاً. وهكذا انتهت جماعة جريليانو فى شهر أغسطس من عام تسعمائة وستة عشر. ولم يتوان الرهبان من إشاعة أنهم رأوا بعيونهم القديس بطرس والقديس بولس بين جموع المقاتلين[1].

---

(1) قارن بين: ليوتبراندو، *Antapodesis*، الكتاب الثانى، الفصل الرابع والأربعون والفصل السادس والخمسون، فى كتاب برتز، *Scriptores*، إلخ، المجلد الثالث، ص ٢٩٧، ٢٩٨؛ *Chronicon comitum Capuæ*، فى كتاب برتز، المجلد نفسه، ص ٢٠٨؛ *Annales Cassinatenses*، المرجع المذكور، ص ١٧١؛ *Annales Beneventani*، المرجع نفسه، ص ١٧٤؛ *Chronicon Benedicti Sancti Andreæ* إلخ، المرجع نفسه، ص ٧١٣، ٧١٤؛ *Chronicon Farfense*، فى كتاب موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الثانى، الجزء الثانى، ص ٤٥٥؛ *Chronicon Pisanum*، فى كتاب موراتورى، المرجع المذكور، المجلد السادس، ص ١٠٧ وما بعدها، عام ٩١٧؛ لوبوبروتسبتاريو، فى كتاب برتز، *Scriptores* الخ، المجلد الخامس، ص ٥٣؛ مرنجونى، فى *Archivio Storico Italiano*،

ولم يؤد هذا النصر إلى تحرير كل إيطاليا. ففى الشمال كان مسلمو فراسينيتو، الذين وصلوا من أسبانيا، وألقوا بأنفسهم فى جبال الألب، قد عاشوا لمدة قرن أو أقل قليلاً (٨٨٩ - ٩٧٥) في أراضى بيومنت الحالية وكذلك سويسرا وجنوب فرنسا، ولن أتحدث عنهم إذ إنهم خارج الموضوع الذى أتناوله بالدراسة(1).

وعلى الطرف الآخر من شبه الجزيرة الإيطالية لم يستمر السلام طويلاً. فلعل الإمارة الفاطمية لم تشأ الالتزام بالاتفاقات التى عقدها المتمرد ابن كرهب. والأمر الأكثر يقيناً أن الإمبراطورية البيزنطية لم تعرف حراسة تلك المناطق بالسيف، أو أن تفرض الالتزام بالسلام فى الظروف المتدهورة التى كانت سائدة فيها.

إن معاملة الشعوب بالعصى تتطلب عصا غليظة وعيوناً مفتوحة، ولكن الإمبراطورية، بجنودها البائسين وإرادتها المتهرئة، كانت تتعجل تجريد أمراء اللونجوبارد من أملاكهم وإلى اقتلاع نبلاء الاقطاع، واخضاع البلديات. ومص دماء الشعب ودهسه بالأقدام. وبعد أن استعاد البيزنطيون نحو نهاية القرن التاسع مناطق كلابريا وجانباً كبيراً من بوليا(2)، أخذوا دولة بنفنتو ثم فقدوها خلال أربع سنوات (٨٩١ - ٨٩٥)؛ وحاولوا دون جدوى الاستيلاء على كابوا وسالرنو، واضطروا للارتباط مع إمارات اللونجوبارد (٩٠٨ - ٩١٦) ضد مسلمى جريليانو(3)، ولم ينجحوا فى أن يتداركوا أو أن

المجلد السادس، الجزء الثانى، ص ٤، عام ٩٠٧؛ ليونيس أوستينسيس، الكتاب الأول، الفصل الثانى والخمسون. والمصادر الرئيسة هى مصادر ليوتبراندو وبندتو دى سانت أندريا من المعاصرين، وليونى دوستيا الذى كانت لديه مذكرات معاصرة. وهناك اختلاف فى التاريخ، ولكن تحديده هو مع تتويج برنجاريو.

(1) وقائع مسلمى فراسينيتو تم بحثها بحثاً نقدياً متعمقاً وتم عرضها عرضاً واضحاً من جانب م. رينو فى كتابه *Invasions des Sarrazins en France etc.*، الجزء الثالث.

(2) انظر الكتاب الثانى، الفصل الحادى عشر.

(3) انظر الفصل السابق.

يقمعوا تمرد مدن عديدة من مدن بوليا وكلابريا التى كانت تهب نفسها (٩٢١) إلى بنفنتو، ولم تستعدها الإمبراطورية إلا من خلال التعامل مع الأمير لاندولفو(1). وفى هذه الأثناء لم يتم دفع الجزية لمسلمى صقلية.

ولمدة عشرة سنوات شاهدت الشعوب البائسة فى جنوب إيطاليا مجئ وجوه جديدة من صقلية تحت شعار الفاطميين، وجوه لصوص أجانب: بدلاً من العرب والبربر والزنوج، وجوه عصبة من الشمال أكثر ضراوة وبأساً؛ لأنه يبدو أن المهدى لم يثق فى إعادة القوات إلى عموم مسلمى صقلية وإلى العرب فى أفريقية، ولأنه كان يحتاج إلى رجاله الكتاميين لإطفاء الحرائق التى تشتعل فى عقر داره ولمحاولة فتح مصر، وهو منتهى طموح مملكته وأسرته. رنا عندئذ للانكشاريين الذين كان إبراهيم بن أحمد يفضلهم: السلافيين، وهم سلعة ممتازة فى تجارة الرقيق التى كانت تمارس فى البحر المتوسط من القرن السابع حتى القرن العاشر، حتى أنهم قد أطلقوا اسمهم على هذا الأمر(2)، على ما يبدو. وهم فى النهاية أناس معتدلون؛ جسورون فى الحروب، محبون للحرية أكثر من أى شعب من شعوب ذلك الزمان فى المناطق الأوربية حيث كانوا يشكلون حكماً ذاتياً؛ وهم بالإضافة إلى هذا أناس يتسمون بالإنسانية نحو

---

(1) شدرينو، طبعة نيبوهر، المجلد الثانى، ص ٣٥٥، ٣٥٦.

(2) حول السلاف المستقرين والخصيان الذين اشتراهم الأمراء المسلمون فى تلك الأزمنة، انظر رينو، *Invasions des Sarrazins an France etc.*، الجزء الرابع، ص ٢٣٣ وما بعدها. وقدماؤنا ليسوا مبرئين من تجارة الرقيق. ففى القرن الثامن كان تجار ڤينسيا يحققون مكاسب كبيرة منها وكان لهم سوق فى روما أيضاً. وقد منع البابا زكريا هذه التجارة سنة ٧٤٨. انظر انستازيو ببليوتكاريو فى كتاب موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الثالث، ص ١٦٤. وحذر شارلمان أدريانو الأول سنة ٧٤٨ من التسامح مع هذه الفضيحة؛ واعتذر البابا قائلاً أن اليونانيين واللونجوبارد هم الذين يمارسونها. انظر *Codex Carolinus*، طبعة جرستر، الرسالة ٧٥. وقد جرى منع أهل ڤينيسيا كذلك سنة ٨٨٧ وسنة ٩٦٠ وذكر هذا موراتورى، *Annali d'Italia*، سنة ٩٦٠.

الرقيق الذين كانوا لديهم(1): ولكن لم يبد لهم أن بيع الرجال من جنسهم ومن الجنس الجرمانى، الذين كانوا يأسرونهم فى الحروب وفى عمليات النهب على الحدود(2)، لم يبد لهم هذا أمراً سيئاً. عند ذاك، كما هو الحال اليوم، كانت غالبية الجنس السلافى تحتل أوربا الشرقية؛ كانت تتداخل مع الشعوب الفنلندية، ومع الإمبراطورية الجرمانية، ومع المجريين، ومع الإمبراطورية البيزنطية: كان السلافيون والكروات والصرب وفروع أخرى من السلاف يشغلون المناطق الواقعة فى شرق الأدرياتيكى وكانت فروعهم تمتد إلى شبه جزيرة المور، تتوسطهم بقايا الشعوب القديمة بشكل مستمر؛ وكانوا قد صاروا مسيحيين منذ فترة وجيزة، وكانوا جيراناً يخشى بأسهم فى مكان؛ ودافعى جزية فى مكان آخر، وخاضعين فى مكان ثالث للقسطنطينية(3). كان المنفذ الرئيس لعبيدهم هو البحر الأدرياتيكى؛ وكانوا يهيمنون على الأسواق كما كانت تهيمن عليها المدن اللاتينية والإغريقية على الساحل الشرقى؛ وكان بحارة الساحل الإيطالى يساعدون فى النقل؛ وكان مسلمو البحر المتوسط، من أسبانيا إلى الشام، يستهلكون هذه البضاعة أكثر من غيرهم من الشعوب، فى تحويلهم إلى جنود ووصفاء وخصيان. واخترع المهدى آلة منتجة لبضاعة جديدة: وأقصد بها غنائم الحرب والأسرى الذين كان السلافيون يذهبون للحصول عليهم فى بر إيطاليا(4).

---

(1) ليونيس إمبراطوريس، *Tactica*، الفصل ١٨، فى كتاب مورسيوس، *Opera*، المجلد الرابع، والترجمة الفرنسية من وضع ميزروا.

(2) حول هذا الاختلاف بين الأجناس التى كانت تساق إلى السوق، انظر المصادر المرفقة لدى م. رينو، المرجع المذكور، ص ٢٣٥، ص ٢٣٦.

(3) كوستانتينى بروفيروچنيتى، *De administrando imperio*، الفصول ٢٩، ٣١، ٤٩، ٥٠. قارنه ببحث ليلويل المهم، *Geògraphie du moyen age*، بروكسل ١٨٥٢، المجلد الثالث، فصل *Slavia*.

(4) بهذه الفرق من العبيد، وقد يكون أغلبها من غير المسلمين، كان بالإمكان التملص

أطبق أول سرب، عبَر من أفريقية إلى صقلية على قوارب متهالكة، على ريچو ليلاً، فى سنة تسعمائة وثمان عشرة، واستولى على المدينة دون مقاومة(1). فى سنة تسعمائة وأربع وعشرين وصل مسعود(2)، وهو عبد أو عبد سلافى معتوق، على ظهر عشرين غليون؛ فاحتل قلعة سانت أجاتا، تلك التى توجد بالقرب من ريچو(3)، كما أظن، وعاد أدراجه إلى المهدية بالأسرى(4). ولما ذاق

من القاعدة الشرعية التى تخص المقاتلين بأربعة أخماس الغنيمة. انظر فيما بعد قصة غنيمة أوريا.

(1) *Chronicon Cantabrigiense*، فى كتاب دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٤٥، سنة ٦٢٤٦ (الأول من سبتمبر ٩١٧ إلى ٣١ أغسطس ٩١٨). ويجب أن أشير هنا إلى فرق أخرى تم افتراضها. فيقول رامبولدى، *Annali Musulmani*، ٩١٩، ٩٢١ (المجلد الخامس، ص ١٤٨ وص ١٥٠) إن سالم بن راشد، أمير صقلية، قد احتل أولاً ليبارى، ثم أماكن مختلفة تقع على نهرى ڤولتورنو وجريليانو؛ ويقول إنه حارب چوڤانى العاشر عند رأس أنسيو. وهذه الحرب الأخيرة تكرار بلا مبرر لواقعة جريليانو فى سنة ٩١٦. واسم سالم أخذه من النويرى؛ واسم ليبارى لا أعلم من أين أخذه؛ وباقى الحديث هو محض خيال يقوم على بعض إشارات كتاب الحوليات الإيطاليين. ويكرر مارتورانا، المجلد الأول، ص ٨٤، و ونريش، الكتاب الأول، الفصل ١٢، § ١٠٤، يكرران هذه الأحداث ويستشهدان برامبولدى، المسئول عن هذه الخيالات؛ ولم يذكر چيانونى، الكتاب ٧، الفصل ٤، كل هذه الخرافات، ولكنه أشار إليها فقط إشارة مضطربة وأضاف فرقة جديدة احتشدت فى جرجانو. وهكذا بدى له أنه قد صحح اسم جريليانو وكذلك عدم التوافق الزمنى الوارد فى ليوتبراندو، *Antapodesis*، الكتاب الثانى، الفصل الخامس والأربعين. ونقرأ فى كتاب موراتورى، *Annali d'Italia* ، وبالتالى عند من لخصوه أو هاجموه، أنه فى سنة ٩١٩ أحرز لاندولفو وأتتولفو انتصارات كثيرة على السراسنة واليونانيين. والمصدر الذى اعتمد عليه هى فقرة فى أخبار دير على الڤولتورنو، فى كتاب موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص ٤١٨، الذى يذكر هذه الإشارة المبهمة بدون تاريخ، بعد وثيقة ترجع لعام ٩١٦. ولكن النص يشير اشارة عامة لحكم هذين الأميرين، ويشير إلى الانتصارات التى أحرزاها على مسلمى جريليانو سنة ٩١٦ وما بعدها، وعلى البيزنطيين بعد سنة ٩٢٠.
وأخيراً فإن التفسيرات القائمة علي *Cronaca della Cava* و*Cronica di Calabria* الزائفة ذكرت مصادمات كثيرة بين الأهالى والمسلمين، قبل مارتورانا بعضها ولم يقبل أخرى.

(2) هذا من بين الأسماء التى كان المسلمون يطلقونها عادة على الرقيق.

(3) فى كلابريا وحدها توجد ثلاثة أماكن بهذا الاسم.

(4) قارن بين: *Chronicon Cantabrigiense*، الموضع المذكور، سنة ٦٤٣٢ (الأول

الأمير طعم المكسب أرسل حملات أكبر فوض عليها الحاجب، أو كما نقول رئيس الوزراء، أبا أحمد جعفر بن عبيد، الذى أتى فى السنة نفسها بأسطول ضخم ليقضى الشتاء فى صقلية(1). وفى ربيع سنة تسعمائة وخمس وعشرين عبر إلى كلابريا واستولى على بروتسانو(2) وأماكن أخرى كثيرة، وفى النهاية مضى لمحاربة أوريا، فى أراضى أوترانتو. ودارت معركة مهمة جداً، معركة دموية ذكرتها الأخبار المسيحية بهذه العبارة: هذا العام، وفى شهر يوليو، تم الاستيلاء على أوريا(3)؛ إلا أن شهادة كاتب يهودى تم أسره يحدد تحديداً دقيقاً الأول من يوليو(4)؛ وتجعلنا إحدى العبارات الواردة فى الحوليات الإسلامية نقول بأن قوات كلابريا البيزنطية قد

من سبتمبر ٩٢٣ إلى ٣١ أغسطس ٩٢٤)، **والبيان**، المجلد الأول، ص ١٩٢، وقائع سنة ٣١٠هـ. (٣٠ أبريل ٩٢٢ إلى ١٩ أبريل ٩٢٣).

(1) **البيان**، المجلد الأول، ص ١٩٤، وقائع سنة ٣١٢هـ. (١٨ أبريل ٩٢٤ إلى ٢٧ مارس ٩٢٥).

(2) *Chronicon Cantabrigiense*، الموضع المذكور، سنة ٦٤٣٣. والاسم مكتوب بدون نقاط علي الحروف؛ ولكن بروتسانو قد تكون أفضل قراءة.

(3) *Chronicon Barense*، فى كتاب موراتورى، *Antiquitates Italicæ*، المجلد الأول، ص ٣١؛ ولوبو بروتسبتاتريو، فى كتاب موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الخامس، ص ٣٨؛ وينسب الأول العملية إلى السراسنة، ويتحدث عن قتلى وأسرى؛ والثانى ينسبها إلى السلاف، سنة ٩٢٤.

(4) شبتاى أو (سبّاثاى) دونولو، مقدمة كتاب *Hakmoni*، فى مجموعة *Miscellanee ebraiche*، وعنوانها *Melo-Sciofinayim* والتى نشرها السيد جيجر، حاخام بريزلاو، برلين ١٨٤٠، ص ٣١؛ وينبغى مقارنتها مع المخطوط العبرى بالمكتبة الإمبراطورية بباريس، *Ancien Fonds*، ٢٦٦. واسم المدينة المكتوب بدون حركات *aurs*، جعل البعض يعتقد ذات مرة أنها أفرسا؛ ولكن ما من شك أن القراءة الصحيحة هى *Aurias*. وتاريخ احتلالها هو يوم الأثنين ٩ تموز سنة ٤٦٨٥ طبقاً للتقويم العبرى. وإنى مدين بهذه المعلومات للمستشرق العلامة السيد درمبورج، الذى درس مخطوط باريس.

ويظهر دونولو(Δόμνουλος) طبيباً مشهوراً فى كلابريا فى منتصف القرن العاشر، وينافس فى مهنته صانع المعجزات القديس نيلو الشاب. انظر *Vita Sancti patris Nili Junioris etc., greco-latina,* الذى نشره چو مات، كريوفيلو، روما ١٦٢٤، ص ٨٨.

مضت إلى أوريا، وحمت سكان جزء كبير من البلد، ودعمت الحصار أو كشفت على الأقل عن وجهها أمام الأعداء أثناء الهجوم. إن الواقعة الخاصة بقتل جعفر لستة آلاف مقاتل، فى المعركة وبعد المعركة؛ ذات مغزى كبير؛ وكذلك سياقته لعشرة آلاف أسير من بينهم نبيل دفع فدية عن نفسه وعن المدينة تبلغ خمسة آلاف مثقال من الذهب(1)، أى ما يوازى اثنين وسبعين ألف ليرة إيطالية(2). وقد اتفق القائد المسلم على منح هدنة لكلابريا كلها وأخذ رهائن ضماناً للجزية، وحاكم المنطقة وقائدها وأسقف صقلية(3) ليونى؛ وسافر بهم إلى الجزيرة فى التاسع عشر من يوليو(4). ويبدو أن توقيع الاتفاق قد تم فى ترانتو، لأن المؤلف الذى ذكرته تواً، ومن الجائز أن يكون من مواليد كلابريا، وهو الطبيب العالم شبتاى دونولو، يروى أنه بعد أن ألقى القبض عليه مع يهود آخرين كثيرين فى أوريا، اقتيد إلى ترانتو وهناك تم دفع فديته(5). وما أن وصل

---

(1) **البيان** وعريب، المجلد الأول، ص ١٩٥.

(2) المثقال هو اسم ثقل، ومثقال الذهب يساوى ديناراً، وأنا أحسبه بـ ١٤.٥٠ ليرة تقريباً.

(3) *Chronicon Cantabrigiense*، فى كتاب دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٤٦، السنة ٦٤٣٤ (الأول من سبتمبر ٩٢٥ إلى ٣١ أغسطس ٩٢٦). إن اتفاق شهادة لوبو بروتسبتاريو **والبيان** وشبتاى دونولو تجعلنا نفترض أن *Cronica di Cambridge*، قد سجل الواقعة فى سبتمبر، وربما عند وصول جعفر إلى بالرمو بالغنيمة والأسرى. وقد بدى لى أن **البيان** و*Cronica* يشيران إلى اتفاقين مختلفين؛ أحدهما هو الاتفاق الخاص بمدينة أوريا، والآخر بكل كلابريا، والتى كانت تضم تحت اسمها أراضى أوترانتو أيضاً. ما هى الأسقفية الصقلية التى كان ليونى أسقفاً عليها، هذا لا نستنتجه. إنه لم يكن بكل تأكيد حاكم كلابريا، كما افترض ونريش (الكتاب الأول، الفصل الثانى عشر، § ١٠٥، ص ١٤١)، عندما فسر تفسيراً خاطئاً *Cronica di Cambridge*، ولم يفكر أن الإمبراطورية البيزنطية لم تعهد بالحكم مطلقاً للأساقفة.

(4) فى ٢٥ من ربيع الثانى سنة ٣١٣هـ. **البيان**، الموضع المذكور. ويقول النص إن جعفر **وصل إلى صقلية فى ذلك اليوم**. وتحملنى المصادر الأخرى المذكورة إلى تصحيح العبارة لتصبح **سافر إلى صقلية فى ذلك اليوم**.

(5) شبتاى دونولو، الموضع المذكور.

جعفر إلى صقلية حتى أبلغ الأمير الفاطمى بالنصر؛ ثم حمل إليه بنفسه الغنيمة إلى المهدية: وكوّم فى قاعة من قاعات القصر المنسوجات الحريرية برسوماتها وألوانها(1)، والمجوهرات، والنقود وكل متاع نفيس. وكان المهدى يمتع بها ناظريه عندما هتف أحد رجال القصر كان يقف بجانبه «سيدى، لم أر أبداً كنزاً كبيراً مثل هذا!»، فأجابه المهدى قائلاً: «إنها غنيمة أوريا». فقال المنافق وهو ينافق الوزير الأول، «يمكن أن تطلق على من أتى بكل هذا إلى دارك أنه رجل ثقة». ولكن الأمير البخيل قاطعه قائلاً: «والله، لقد أكل الجمل، وحمل لى أذنيه!»(2) وقد تم بيع الأسرى فى أفريقية(3).

وفى ذلك الوقت جرى توقيع اتفاق بين المهدية والقسطنطينية وتمت فيه، على ما يبدو، المصادقة على اتفاقات كلابريا واتفاقات ابن كرهب. ويروى شدرينو كيف أن سيمون ملك البلغار كان يتأهب للقيام بهجوم جديد على عاصمة الإمبراطورية، فأرسل يقترح التحالف على أمير أفريقية على أن يساعده من جانبه بالأسطول، ووافقه أمير أفريقية وأرسل رسله مع الرسل البلغار لاتمام الأمر فسقط هؤلاء وأولئك فى قبضة اليونانيين فى كلابريا وأُرسلوا إلى القسطنطينية. واحتفظ رومانو ليكابينو بالأسرى البلغار لكى يمنع التحالف، وأعاد الأفارقة إلى سيدهم وأرسل معهم هدايا وعرضا بدفع جزية كلابريا؛ وأدار الأمر إدارة حسنة حتى إن الأمير الفاطمى وقع معه معاهدة السلام وتنازل له عن نصف المبلغ الذى كانت الإمبراطورة زويه قد وعدت به؛ وبالتالى نقصت الجزية إلى أحد عشر ألف بيزنطة فى السنة.

(1) فى النص «ديباج» وهو تحوير للفظ اليونانى δίβαφος، الذى وصل إلى العرب عن طريق الفرس الذين يكتبونه *dibah* ديباه.
(2) **البيان**، الموضع المذكور.
(3) لوبو بروتسبتاريو. الموضع المذكور.

وسار الحال على هذا إلى أن اعتلى العرش نيتشيفورو فوكا (٩٦٣)؛ ولكن الواقع هو أن قادة كلابريا كانوا يدفعون الجزية كاملة لأنهم أناس شرفاء؛ وكان اللصوص يحتفظون بالمبالغ فى جيوبهم(1). هذا ما يرويه شدرينو دون أن يذكر تاريخاً محدداً ويخطئ فى اسم المهدى(2)؛ مما لا يدع مجالاً للشك فى هذا.

إن هذا السلام والأحداث التى لحقت به أدت إلى الحديث عن فضيحة أكبر من فضائح الإمبراطورية البيزنطية تكررت حتى اليوم ويبدو أن فيها مبالغة أو تحريفاً. فقد كتب ليوتبراندو، بعد ثلاثين سنة من الاتفاق(3)، أنه سمع أنه عندما تمردت على رومانو ليكابينو مناطق كلابريا وبوليا، ولما لم يجد وسيلة لاستعادتها، طلب مساعدة مسلمى أفريقية، وأنهم أتوا إلى إيطاليا بجيش كبير العدد، وبعد أن أخضعوا تلك المناطق أعادوها وسلموها لليونانيين، وبعد أن انتهوا من تقديم مجاملتهم «استداروا نحو روما ومضوا ليحطوا عند جريليانو»: وفى هذا عدم توافق زمنى يبلغ نصف قرن(4)، وهو ما لا يدع مجالاً للثقة فى القصة. وفى الأخبار المسيحية

(1) شدرينو، طبعة باريس، المجلد الثانى، ص ٦٥٠؛ طبعة بون، المجلد الثانى، ص ٣٥٦، وما بعدها.
(2) إن الاسم فى النص هو φατμοῦν; وربما يعنى φατλοῦν, ؛ لأن المهدى لم يكن من بين أسمائه فضل؛ ومن ناحية أخرى فإن حرفى μ و λ يتم الخلط بينهما بسهولة فى المخطوطات اليونانية. ويذكر لى بو، *Histoire du Bas Empire*، الكتاب الثالث والسبعون، § ٥٣، التفاوض تحت سنة ٩٢٣ وهو تاريخ واحدة من العمليات الكثيرة التى قام بها سيميون ضد القسطنطينية. ولكن رواية شدرينو يمكن مطابقتها على الثلاث سنوات التالية، وحتى وفاة سيميونى. ومن ناحية أخرى فإن الإجراءات التى اتخذها سيميون مع المهدى تسبق بسنوات عديدة توقيع السلام بين المهدى ورومانو.
(3) ليوتبراندو، *Antapodesis*، الكتاب الثانى، الفصل الخامس والستون، فى برتز *Scriptores* و *ec.*، المجلد الثالث، ص ٢٩٦. ومن المعلوم أن المؤلف بدأ الكتابة فى فرانكفورت نحو سنة ٩٥٨. برتز، المرجع المذكور، ص ٢٦٤.
(4) جلس رومانو ليكابينو على العرش سنة ٩١٩؛ ولكنه حكم حكماً فعلياً بدءاً من سنة ٩٢٠ فقط، وخسر كلابريا سنة ٩٢١. وقد احتشد المسلمون عند جريليانو نحو سنة ٨٨٢، وطردوا منه سنة ٩١٦.

الأخرى، وفى حوليات المسلمين لا نجد أثراً لهذا الحدث(1)؛ إلا إذا كان الاتفاق الذى ذكره شدرينو يتناول حدثاً أسبق من معركة أوريا وأن هذه المعركة لم تجر ضد الجيوش البيزنطية وإنما ضد المتمردين: وهذا يعنى إعمال الخيال بشكل مفرط. وعموماً فإنى أعتبر الرواية رواية غير صحيحة، وهى الرواية التى نشأت عن اتفاق ومعاهدة السلام وعن الكراهية الشديدة التى كان يشعر بها كل الإيطاليين - عن حق - تجاه اليونانيين. لقد قبل ليوتبراندو الرواية سعيداً بها، ليس فقط للكراهية القاتلة التى تعبر عنها واحتقاراً ونكاية فى بلاط القسطنطينية، وإنما لتشابهها مع الوقائع التى كانت تجرى فى عصره عندما كان قادة كلابريا وحكامها البيزنطيون يتعاملون مع أمراء صقلية ويماطلونهم. إن الاتفاق الوحيد سواء كان اتفاقاً ضمنياً أم صريحاً والذى قد يرجع إلى ما بين سنة تسعمائة وخمس وعشرين وسنة تسعمائة وثلاثين هو أن يستثنى البيزنطيون من الهدنة وأنهم حددوا للفاطميين أسماء مدن كلابريا وبوليا غير الخاضعة لهم ولا تدفع حصتها من الجزية اللازمة للمسلمين. وهكذا فليقتصر توجيه اللوم للبيزنطيين على هذا فقط، ولتُمح من التاريخ استحالة فرض سيطرتهم على جنوب إيطاليا التى استعادوها بجيوش المسلمين(2).

---

(1) إن راهب الدولة الرومانية بندتو دى سان أندريا، الذى كتب فى السنوات الأخيرة من القرن العاشر وقائع موشاة بالقصص والروايات يشير (فى برتز، .*Scriptores ec*، المجلد الثالث، ص ٧١٣) إلى رسل الرومان إلى بالرمو وأفريقية حتى يأتوا للاستيلاء على مملكة إيطاليا، فيقول إنهم ذهبوا لهذا الغرض إلى أمالفى وجريليانو ولكن هذا الحدث يخص بوضوح ممارسات أثاسيوس أسقف نابولى (٨٧٩ ـ ٨٨٢) ولا يضيف قيمة إلى كلمات ليوتبراندو أو يدعمها ، ولا يحمل فى طياته أى مفارقات تاريخية.

(2) لا ينبغى أن تفت فى عضدنا مرجعية مكيافيللى الكبيرة، وهو الذى قبل الإطار العام لقصة ليوتبراندو (*Istorie Fiorentine*. الكتاب الأول، فى الفقرة التى تبدأ هكذا «كان الإمبراطور كارلو قد توفى»). فيعلم الجميع أنه فى عصر الوزير الفلورنسى (مكيافيللى) كانت مصادر تاريخ إيطاليا مجهولة وغير مؤكدة. ولكن لا

وفى الدول المستقلة عن الإمبراطورية اليونانية، وفى المدن التى تمردت عليها، وحيثما كان القادة والحكام يماطلون فى دفع الجزية، لم يعدم الجنود السلافيون وسيلة للسلب والنهب. ففى شهر يوليو سنة تسعمائة وست وعشرين استولوا على سيبونتو، حسب رواية إحدى الوقائع، تحت قيادة ملكهم ميكيلى(1) وقد يكون الزُبان، كما يطلق على كبير الجمهوريات السلافية، ولكنه جاء بدون طلب من أحد، ولم يحضر من أفريقيا بصفته خادما للمهدى. ولكن وصيف المهدى السلافى شاهين، عبر من أفريقيا إلى صقلية فى السنة التالية الموافقة لسنة ثلاثمائة وخمس عشرة للهجرة على متن أربع وأربعين سفينة أغلبها سفن حربية: وبعد أن انضم جنوده إلى جنود أمير صقلية، أبحر إلى تارانتو، وحاصر المدينة التى دافع عنها سكانها دفاع الأبطال؛ ودخلها مهاجماً، فقتل الرجال القادرين على حمل السلاح وأرسل باقى السكان لبيعهم فى أفريقية(2). ويبدو أن جيش صقلية والسلافيين قد انقسما فى

ينطبق هذا المبرر على چانّونى، الكتاب السابع، الفصل الرابع؛ كما لا ينطبق على مارتورانا، المجلد الأول، ص ٤٨، الفصل الثالث، أو على ونريش، الكتاب الأول، الفصل الثانى عشر، § ١٠٤، ص ١٣٩، ١٤٠.

(1) قارن بين: لوبو بروتسبتاريو و*Cronica di Bari*، فى برتز *Scriptores*، المجلد الخامس، ص ٥٤؛ *Chronicon Sanctæ Sophiæ Beneventi*، فى كتاب موراتورى، *Antiquitates Italicæ*، المجلد الأول، ص ٢٥٣؛ رومووالدو سالرنيتانو، فى كتاب موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الخامس، سنة ٩٢٦. إن الخمسعشرية الخامسة عشرة تصبح الخطأ الوارد فى *Cronica di Bari* التى تنسب الحدث إلى سنة ٩٢٨. وينبغى قراءة اسم *Istachael* الوارد فى بعض طبعات لوبو قراءة صحيحة وهو ميخائيل.

(2) قارن بين: ابن الأثير، وقائع عام ٣١٣، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ٢٣٤ الوجه الثانى؛ والمخطوطة *C*، المجلد الرابع، الورقة ٣٠٤ الوجه الأول؛ **والبيان**، المجلد الأول، ص ١٩٩، عام ٣١٥ (٧مارس ٩٢٧ إلى ٢٣ فبراير ٩٢٨)، والنويرى، عند دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ١٣، ١٤، سنة ٣١٦، ولوبو بروتسبتاريو، و*Cronica di Bari*، الموضع المذكور، سنة ٩٢٧؛ وابن خلدون *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٦٢. وفى مؤلف حاجى خليفة *Cronologia historica*، ترجمة الكونت كارلى، ڤينسيا ١٦٩٧، ص ٥٩، نقرأ عن عملية تارانتو

سنة تسعمائة وثمان وعشرين لينقلا الحرب إلى منطقتين مختلفتين. فعسكر جيش صقلية عند أوترانتو واقتحمها فى السابع عشر من أغسطس، ودمر المساكن وأخذ يعد العدة لمهاجمة بلاد أخرى عندما أجبره الوباء على أن يعود أدراجه إلى بالرمو(1). وأخذ شاهين مع رجاله السلافيين يهاجم الإمارات اللونجوباردية من ناحية البحر التيرانى؛ فاستولى على قلاع عديدة تذكر المذكرات الإسلامية منها غيران أى «لى جروتى» (الكهوف) «وقلعة الخشب»: وهى أسماء يصعب التعرف عليها فى طبوغرافية العصور الوسطى، فمن الواضح أن المنتصرين أطلقوا أسماء على هواهم أو ترجموا الأسماء إلى لغتهم. وبعد أن أثقل كاهلها قدر استطاعته حضر ساين إلى سالرنو؛ فاشترى أهلها السلام ودفعوا ثمنه نقوداً ودبياجاً(2). ومن هناك انتقل إلى نابولى وأخذ يجبرها على اتفاق مشابه، إلا أنه أخذ منها نقوداً وثياباً، كما تقول الوقائع(3): وهى

هذه والتى لا توجد فى النص الفارسى بباريس.
ويجب أن أنبه إلى أن الاختلافات فى الوقائع التاريخية تضطرنى إلى ترتيب الأحداث بأفضل شكل ممكن، دون اليقين الذى اعتدته. فعلى سبيل المثال يقول أحدهم أن ساين قد جاء بأربع وأربعين سفينة. ويقول آخر بثلاثة وثلاثين سفينة حربية؛ فهناك من يتحدث عن قوات ساين وأمير صقلية مجتمعة، ومن يتحدث عن قوات ساين فقط؛ وهناك من يخطئ فى التواريخ بشكل واضح؛ وهناك من يخلط كل العمليات فى سنة واحدة؛ وهناك من يذكر أسماء الأماكن، وهناك من لا يذكرها؛ وهناك من يكتبها بحيث تحتاج إلى تخمين القراءة الصحيحة. إن هذا يجب أن يقال عن كل العمليات التى جرت بدءاً من سنة ٩٢٧ وحتى سنة ٩٢٩.

(1) ابن الأثير والنويرى، الموضعان المذكوران. وآخذ التاريخ من *Cronica di Cambridge*، الموضع المذكور، العام ٦٤٣٦ (الأول من سبتمبر ٩٢٧ إلى ٣١ أغسطس ٩٢٨)، واعتقد أنه يجب أن نقرأ بها اسم أوترانتو بدلاً من زرنيوه *Zarniwah*، المذكور عشوائياً فى الطبعات السابقة. أما أوترانتو فنقرأها واضحة عند المؤلفين الآخرين.

(2) انظر الهامش رقم ١ فى صفحة ١٨٠ من هذا المجلد.

(3) **البيان**، وهو المصدر الوحيد لهذه الواقعة، يستخدم لفظ **ثياب**، جمع ثوب؛ وهو يعنى الملابس بشكل عام أو حسب الاستخدام الحديث فى مصر، الملبس الذى ترتديه النساء، عادة فوق كل الملابس الأخرى عند خروجهن من المنزل: أى الحَبَرة. انظر دوزى *Dictionnaire détaillé etc.*، ص ١٠٦. ولكن ابن حوقل، عند حديثه عن

بلا شك قطع القماش المصنوعة بشكل لا مثيل له فى العالم والتى كانت تمثل ثروة المدينة، كما يؤكد التاجر العربى ابن حوقل، الذى نزل فى نابولى بعد ذلك بأربعين سنة تقريباً(1). وحصَّل شاهين كذلك جزية كلابريا وعاد إلى بالرمو بالغنيمة وبعدد وفير جداً من الأسرى(2).

ولكن فى السنة التالية، إذ يبدو أن قادة كلابريا وحكامها كانوا يتباطأون دائماً فى الدفع، ظهر شاهين فى البحر الأدرياتيكى بأربع سفن ضخمة ولما وقع على قائد كلابريا، الذى كان على رأس سبعة سفن، لم يتردد السلافى بل هاجمه وانتصر عليه. ولما رسا بعد ذلك استولى على ترمولى فى شهر سبتمبر أو أكتوبر؛ وعاد فى النهاية

نابولى، كما سيظهر فى الهامش التالى، يستخدم اللفظ نفسه فى المفرد والجمع، بمعنى قطعة من قماش الكتان. وكانت قطع القماش، التى يتراوح سعر الواحدة منها بين خمسة ليرات وستمائة ليرة، لا تشغل حيزاً كبيراً: وبهذا التفسير فإن عبارة **البيان** تكون قريبة من الواقع.

(1) ابن حوقل، النص العربى، فى كتابى *Biblioteca Arabo-Sicula*، ص ١٠، ١١، الفصل الرابع، § ٢. ومن المرجح أن هذا الرحالة المثابر قد ذهب إلى نابولى قبل ذهابه إلى بالرمو أو بعد ذهابه إليها بوقت قصير. فقد كان فى بالرمو سنة ٣٦٢ للهجرة (٩٧٢ - ٩٧٣). ويقول ابن حوقل إنه رأى بنفسه فى نابولى هذه الثياب الرائعة من الكتان، والتى نستنتج من تعبير آخر بالنص أنها كانت مشغولة أو مقصبة. وكل **ثوب**، طوله ١٠٠ ذراع وعرضه يتراوح بين ١٠ و١٥ ذراع، كان ثمنه ١٥٠ رباعى، أى ١٥٠ ربع من الذهب. وهذه العملة المستخدمة فى صقلية من القرن العاشر وحتى القرن الثانى عشر تساوى طبقاً لوزن معدنها ٣.٨٠ ليرة. **والذراع**، أو دراع كما ينطقونه اليوم هو مقياس؛ ومن بين الطرق التى كانت ولا تزال تستخدم فى المشرق، ربما استخدم ابن حوقل الذراع «الزنجى» ويبلغ طوله حوالى ٠.٤٨ متراً. وينبغى إضافة هذا إلى المواد الكثيرة المتوفرة لدينا عن الصناعات الإيطالية فى العصر الوسيط. ويشرح المختصون ويصفون هذا النسيج الرقيق فيقولون إن عرضه كان يتراوح بين ٥ و٧ أمتار وإن ثمنه كان يبلغ ٥٧٠ ليرة للثوب الذى يبلغ طوله ٤٨ متراً؛ وعليهم أن يقولوا لنا إن كان هناك خطأ فى الأرقام التى ساقها ابن حوقل.

(2) قارن بين: *Chronicon Cantabrigiense*، الموضع المذكور، عام ٦٤٣٧ (الأول من سبتمبر ٩٢٨ إلى ٣١ أغسطس ٩٢٩)، والنويرى، الموضع المذكور. فيقول المصدر الأول إن ساين لم يقتحم أى «مدينة» من مدن لومبارديا؛ ويتفق هذا مع رواية **البيان** التى استشهدنا بها بعاليه. ويبدو أن التاريخ المذكور فى *Cronica di Cambridge* هو تاريخ العودة إلى بالرمو فى نهاية الصيف، ولكن فى سنة ٩٢٨.

إلى المهدية باثنى عشر ألف أسير(1). وكانت آخر غزواته هى غزوة سنة تسعمائة وتسع وعشرين تلك. وأعتقد أن الأسطول والجنود السلافيين قد أتوا فى ذلك الوقت لقضاء الشتاء كل عام فى بالرمو وأن جانباً منهم قد بقى بها للتجارة بعد سفر شاهين؛ لأن أكبر أحياء المدينة، المجاور للميناء، سمى حى السلافيين(2).

لقد تنفست إيطاليا الجنوبية الصعداء لمدة طويلة لأن البيزنطيين استمروا فى دفع الجزية حتى وفاة المهدى(3)؛ وبعد ذلك استعرت نيران الحرب الأهلية فى صقلية؛ وفى تلك الأثناء تحولت قوات الفاطميين البحرية صوب چنوة. وفى بدايات هذه الجمهورية، يبدو أن التجارة قد ازدهرت فسال لعاب الفاطميين لها. وأعد أبو القاسم محمد، ابن المهدى، بعد أن جلس على العرش فى سنة تسعمائة وأربع وثلاثين، أعد على عجل أسطولاً يتكون من ثلاثين سفينة حربية(4)؛ أبحر به يعقوب بن اسحق وجاب ساحل ليجوريا، ونزل بأنحاء چنوة، وأصاب بها غنيمة وأسرى(5). وجمع أبو القاسم جيشاً جديداً فى سنة تسعمائة وخمس وثلاثين، وأرسله إلى تلك النواحى. قام المسلمون عندئذ بضرب حصار حول المدينة،

---

(1) قارن بين: *Chronicon Cantabrigiense*، الموضع المذكور، عام ٦٤٣٨ (الأول من سبتمبر ٩٢٩ إلى ٣١ أغسطس ٩٣٠)؛ **البيان**، المجلد الأول، ص ٢٠١، وقائع سنة ٣١٧ (١٣ فبراير ٩٢٩ إلى أول فبراير ٩٣٠). ويذكر المصدران ويتفقان على أن هذه كانت حملة ساين الثالثة. وقد كتبت الاسم حسبما ورد فى *Cronica di Cambridge* وفى كتاب جوته. ويذكر النويرى الاسم صارب. أما العالم محقق البيان فيصححه إلى صابر.

(2) ابن حوقل فى وصف بالرمو يذكر اسم هذا المكان. ويطلق على هذا الحى اليوم اسم حى الرئيس *Quartier del Capo*.

(3) النويرى، الموضع المذكور.

(4) الذهبى. يبدو لى أنه يشير بشكل متميز إلى أصل التفاصيل التى نعرفها عن هذه الواقعة الهامة من وقائع التاريخ الإيطالى.

(5) ابن الأثير وابن خلدون. فى رواية الذهبى المضطربة، هناك إشارة إلى هجوم سابق على الهجوم الذى تم فيه الاستيلاء على المدينة.

وفتحوا الثغرة(1)، ودخلوا والسيوف بأيديهم يقتلون الرجال ويأخذون النساء والفتيان، واستولوا على ما في البيوت وعلي كنوز الكنائس(2)، ثم عادوا إلى سفنهم. وأثناء عبورهم البحر نزلوا فى سردينيا، وقهروا بعددهم سكان الجزيرة الشامخين؛ وحرقوا سفناً كثيرة من سفنهم؛ وعملوا الشئ نفسه فى جزيرة كورسيكا(3)؛ وعادوا إلى المهدية دون رادع وحملوا معهم فى الأسر ألف امرأة إيطالية(4). هذا ما نقرؤه فى مذكراتهم عن واقعة چنوة(5) المبكية، التى أشار إليها كتابنا فى ذلك الوقت إشارة عابرة وأضافوا العلامة التى أظهرتها السماء بأن أصطبغت بالدماء عين ماء(6). وفى نهاية القرن الثالث

---

(1) الذهبى.

(2) ليوتبراندو: *Cunctosque civitatis et ecclesiarum thesauros* ولا اعتقد أن المقصود هو دار البلدية والكنيسة وإنما بيوت الأهالى إلخ ...

(3) هذا ما جاء بوضوح فى مخطوط الذهبى. أما فى مخطوط ابن الأثير فإننا نقرأ بوضوح *Karkesia* (قرقسية)، وهكذا نجدها أيضاً فى فقرتين فى كتاب ابن خلدون الذى يضيف: «على سواحل سورية». وقد دفع هذا العالم البارون دى سلان إلى تصحيح الاسم ليصبح «قيصرية»؛ لأن اسم قرقسية خطأ فادح. ولكن يبدو أن ابن خلدون أو الناسخ قد أضاف عبارة «سواحل سورية» هذه إذ لم يخطر بباله أن الأمر يتعلق بكورسيكا. ويبدو لى هذا أكيداً من رواية ابن الأثير، الذى يتحدث عن غزوة واحدة على چنوة وسردينيا وتلك الجزيرة الثالثة.

(4) الذهبى.

(5) قارن بين: *Chronicon Cantabrigiense*، لدى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٢٦، عام ٦٤٤٢ (الأول من سبتمبر ٩٣٣ إلى ٣١ أغسطس ٩٣٤)؛ وابن الأثير، المخطوطة *B*، المجلد الأول، ص ١٤٩ وص ١٦٣، والمخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٣٢١ الوجه الثانى والورقة ٣٢٥ الوجه الثانى، السنتان ٣٢٢ (٢١ ديسمبر ٩٣٣ إلى ٩ ديسمبر ٩٣٤)، و٣٢٣ (١٠ ديسمبر ٩٣٤ إلى ٢٨ نوفمبر ٩٣٥)؛ **البيان**، المجلد الأول، ص ٢١٦؛ والنويرى، لدى دى جريجوريو، المرجع المذكور، ص ١٤، والذهبى، تاريخ الإسلام، السنة ٣٢٣، مخطوطة باريس، *Ancien Fonds*، ٦٤٦، الورقة ٥٠٥، الوجه الثانى؛ وابن خلدون، *Histoire de l'Afrique etc.*، ص ١٦٢ وص ١٦٣، و*Storia dei Fatemiti*، مخطوطة باريس ٧٤٢ *quater*، المجلد الرابع، الورقة ١٨ الوجه الثانى؛ والترجمة التى قام بها م. دى سلان فى *Histoire des Berbères* لابن خلدون، المجلد الثانى، ص ٥٢٩، الحاشية.

(6) ليوتبراندو، *Antapodesis*، الكتاب الرابع، الفصل الخامس، فى برتز، *Scriptores ec.*، المجلد الثالث، ص ٣١٦.

عشر، لم تكتف الجمهورية القوية المنتصرة بهذه المعجزة الخارقة، بل إنها تصورت قيامها بانتقام رهيب: خرج شباب جنوة بالأسطول، وعند عودتهم، وجدوا المدينة خاوية على أعقابها، فحولوا اتجاه مقدمات السفن لمطاردة السراسنة، وفاجأوهم وهم يستمتعون بالغنيمة فوق إحدى الجزر المهجورة بالقرب من سردينيا، فقتلوهم وصارت أجسادهم جبلاً من الجثث، وأعادوا الزوجات والأخوات والأبناء إلى بيوتهم. وهذه قصة خرافية بسيطة يبدو أنها كانت تحكى للأطفال؛ وهى خرافة تليق بفم من ألفها أو أعادها وكررها ألا وهو: ياكوبو دا ڤراچيو، رئيس أساقفة جنوة، مؤلف *Leggenda Dorata* (1) (الرواية الذهبية).

---

(1) *Iacopi de Varagine Chronicon*، لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores* المجلد التاسع، ص ١٠.

الفصل التاسع

لن أطيل فى رواية أحداث صقلية الداخلية من ثورة إلى أخرى. لقد حكمها لمدة عشرين سنة سالم بن راشد الذى تلقب بالأمير بعد أن تركه فيها أبو سعيد(1) عند سفره. لكن سلطته كانت منقوصة. وكما رأينا فقد قام على قيادة المعارك فى البر الإيطالى قادة أرسلوا خصيصاً من أفريقية؛ وإذا كان سالم قد شارك فى هذه المعارك فكان ذلك بوصفه مساعداً ومعاوناً(2). وكان الأسطول الصقلى، الذى كثيراً ما سبب المشاكل للمهدى فى زمن ابن كرهب، يحارب السنيين، رعايا العباسيين فى مصر، الذين كانوا يعلمون أن الصقليين يذهبون إلى هناك دون رغبة منهم. ولكن بعد المعركة البحرية التى انتصر فيها العباسيون خارج رشيد (٩١٩)، أخذوا الأسرى إلى البر، وأخرج شعب مصر من بينهم الكتاميين ليقتلهم، بينما عفا عن أبناء صقلية وطرابلس وسكان أفريقية(3). وفى سنة

---

(1) مارتورانا، المجلد الأول، ص ٨٦ وص ٢١٥، الهامش ١١٥، وقد تبعه ونريش، وهو
يعتقد أن سالما أمير ٩١٧ غير سالم أمير ٩٣٧ وأنهما شخصان مختلفان مؤسسا حكمه
على هذا، أن النويرى فى الحالة الأولى يصف اسم العائلة ابن أسد؛ ويضيف أبو الفدا
فى الحالة الثانية لقب ابن راشد. ولكن هذا الافتراض لا محل له مع وجود مصادر
موثوقة أخرى من بين المصنفين الذين ذكرناهم فى الفصل السابع، ص ١٦٠، وخاصة
ابن الأثير الذى يكتب سالم بن راشد سواء فى وقائع ٣١٢ أم فى ٣٢٥ للهجرة.

(2) ارجع إلى الفصل السابق، ص ١٧٦ وما بعدها، وص ١٨٢.

(3) إوتيكى، *Pater Alexandrini annales*، المجلد الثانى، ص ٥٠٨، ٥٠٩. وهذا
الكاتب غير المعاصر هو الوحيد الذى يروى واقعة نجاة الأسرى، ويذكر فى مقدمتهم
الصقليين. ويذكر أن المعركة قد وقعت سنة ٣٠٧ للهجرة، ولكن ابن الأثير، المخطوطة
C، المجلد الرابع، الورقة ٢٩٨ الوجه الأول والوجه الثانى، يذكر أنها وقعت سنة ٣٠٦
(١٣ يونيو ٩١٨ إلى أول يونيو ٩١٩)؛ بينما يذكر *Cronica di Cambridge* أن حملة
الفاطميين على الأسكندرية وقعت فى سنة ٦١٢٧ (أول سبتمبر ٩١٨ إلى ٣١ أغسطس
٩١٩).

تسعمائة وسبع وعشرين جاء من أفريقية ابن الأمير سالم ليفرض ضريبة(1) على صقلية، وكان معه شيخان(2)، يدعى أولهما بلزمى وثانيهما قلشانى(3)؛ وعاد إليها مرة أخرى سنة تسعمائة واثنين وثلاثين ومعه شيخان آخران: ابن سلمى وابن دايه؛ وقد اشتدت أيديهما على الشعب وزادت قسوتهما، ولكن عندما مثلا فى السنة التالية فى القصر، أصابهما سخط سيدهما(4)، فربما بدا له أنهما - كما كان معتاداً أن يقول - قد حملا إليه أذنى(5) الجمل بعد أن أكلاه كله. ونرى فى النهاية أن سالماً وافق على هدنة لتاورمينا وحصون أخرى تابعة لمسيحيي صقلية فى سنة تسعمائة وتسع عشرة(6). من كل هذا يظهر أن المهدى كان يستخدم فى صقلية الطريقة التى ارتضاها علماء الشريعة المسلمين فى ذلك الوقت وهى: تقسيم حكم الإمارة إلى دائرتين: أولاهما تختص بالحرب والشرطة، والثانية للأموال والقضاء(7)؛ وأنه لم يكتف بهذا بل منع عنها الوسائل والقوى القادرة على الحرب. وترك بها قائداً عاماً للشرطة وشرّفه باللقب القديم أمير، وحامية من الكتاميين أو من جنود الشرطة، كما نطلق عليهم اليوم؛ وأقام سلاماً مع المسيحيين فى الجزيرة لكى يترك الجماعة مجردة من السلاح؛ وصارت شئون الحرب والأموال متمركزة فى أفريقية: بهذه

(1) هذه ترجمة حرفية للفعل العربى. ومن هنا نعلم بفرض هذه الضريبة الكبيرة غير المعتادة، ولكن لا نعلم طبيعة هذه الضريبة.

(2) تستخدم *Cronica* لفظ «شيخ»، أى عجوز، أو رئيس بطن من بطون القبيلة، أو عمدة قرية، أو إمام.

(3) أى أن الأول من مدينة بلزمة، وهى مدينة أفريقية سبق ذكرها؛ والثانى من قلشانة التى تقع على بعد ١٢ ميلاً من القيروان ويذكرها البكرى، *Notices et Extraits des Mss*، المجلد الثانى عشر، ص ٤٧٩.

(4) *Cronica di Cambridge*، المرجع المذكور، ص ٤٥.

(5) انظر الفصل الثامن، ص ١٧٩، ١٨٠.

(6) *Cronica di Cambridge*، المرجع المذكور، سنة ٦٤٢٧.

(7) انظر الفصل الأول من هذا الكتاب الثالث، ص ٦، الهامش٣.

النظم حكم المهدى صقلية. واستخدم وسائل مشابهة مع الأهالى العرب فى أفريقية. وعموماً حافظ على السلام مع الإمبراطورية البيزنطية ومع الشعوب البربرية المستقلة. وفضل القلم على السلاح، وفضل التحايل فى فرض الضرائب، والخداع الذى اجاده وبرز فيه، وهى أمور تعلمها وتربى عليها. وقاد الحرب ضد مصر بيد ولده، وبحكمة تمسك بهذا الفتح؛ ولكنه لم ينجح فى تنفيذه.

وتوفى المهدى، فى الثالث من مارس سنة تسعمائة وأربع وثلاثين، وذاع خبر وفاته فى صقلية يوم الخامس والعشرين من أغسطس، لأن ابنه الذى خلفه وهو أبو القاسم محمد الملقب بالقائم بأمر الله، أخفى خبر وفاته بقدر استطاعته(1)، خوفاً من تصرفات عرب أفريقية المعادية ومن طوائف الخوارج من البربر وخوفاً من الاضطرابات التى يثيرها اختفاء المهدى المتأله فى طائفة الإسماعيلية. وفى العاشر من مارس من السنة نفسها قُتل أمام قصر سالم فى بالرمو رنداسـك، حـاكم تاورميـنا(2): هذا كل ما نعرفه

(1) قارن بين: *Cronica di Cambridge*، المرجع المذكور، ص ٤٦، عام ٦٤٤٢؛ وابن الأثير، عام ٣٢٢، المخطوطة *B*، ص ١٤٩، والمخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٣٢١، الوجه الثانى؛ **والبيان**، المجلد الأول، ص ٢١٦. ويقول المصدران الأخيران إن الخبر قد حجب طويلاً.

(2) *Cronica di Cambridge*، المرجع المذكور، ص ٤٧، عام ٦٤٤٢. إن الاسم شبيه باسم رنداتسو، وهى مدينة ضخمة بنيت فى صقلية فى العصور الوسطى، ونجد اسمها مذكوراً فى الإدريسى رنداج. ويبـدو أن أصـل الاسـم يونـانى، لأن كتـاب *Storia Miscella*، الوارد فى كتاب موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الأول، الجزء الأول، ص ١٥٠، يذكر أن سيزينيو الملقب رنداسيوم كان وجيهاً، أثناء حكم ليونى إيزاوريكو؛ وتتحدث **تتمة تيوفان**، أثناء حكم رومانو ليكابينو، § ٤، عن Ρενταάκιος، وهو رجل من اتيكيوم، ولعله من أثينا، ومن أقرباء الوجيه نيتشتا، وقد كتب چورچو موناكو اسـمه بهذه الحروف نفسها، بينما كتبه سيميونى Ρενταάκης (طبعة بون، ص ٣٩٩، ٨٩١، ٧٣٢). وليس هناك ما يمنع أن يكون حاكم تاورمينا من هذه الأسرة، وأن يكون اسم رنداوتسو قد اشتق من اسمه أو من اسم غيره. ومن المؤكد أن هذه الواقعة حدثت فى بالرمو لأن كتاب *Cronaca* يقول «أمام قصر سالم». وليس هناك ذكر لأراض فى صقلية يطلق عليها **قصر سالم**، (واسم ساليمى الحـالى هو تحريف لاسـم صـنم فى العربية)؛ ويضيف كتاب *Cronaca* ذاته

عنه؛ ولكن اسمه اليونانى يحملنا إلى الاعتقاد أنه كان قائد المدينة المسيحية الذى خرق الهدنة وسقط فى يد سالم فأمر بإعدامه. وفى التاسع عشر من أكتوبر فاضت أنهار الجبال المحيطة ببالرمو بسبب الأمطار، وهى كارثة متكررة، فغمرت المياه المدينة وأتت على بيوت كثيرة داخل أسوارهـا وخارجـها وغـرق فيها كثير من البشر(1). وبعد مرور أكثر من سنة، وفى الحادى عشر من يوليو سنة تسعمائة وست وثلاثين هبت على الجزيرة رياح ساخنة للغاية، حتى إنها أحرقت الثمار فوق أغصان الأشجار؛ ولم يستطع أحد جنى أى محصول فى ذلك الفصل(2).

واشتعلت الثورة من جديد فى چرچنتى فى سنة تسعمائة سبع وثلاثين؛ ويبدو أن الفاطميين لم ينزعوا سلاح تلك المدينة أو يكبحوها مثلما فعلوا مع بالرمو، بسبب الدماء البربرية التى تجرى فى عروق سكانها، أو بسبب صدهم لابن كرهب. ولم يمنع هذا حرصهم على تحصيل الضرائب كما لم يمنع تحرشات عمال سالم؛ فصب أهل چرچنتى جام كراهيتهم له وكراهيتهم لكل مسلمى صقلية. قام الشعب إذن فى السابع عشر من أبريل ضد ابن عمران عامل سالم فى چرچنتى، وهاجموه فى كالتا بللوتا، وهى حصن قوى يبعد اثنين وثلاثين ميلاً كان يعيش فيه آمنـاً مع حرّاسـه(3)؛ وبعد أن انقضوا على القلعة، هرب العامل، ونُهب الحراس وسُرِقوا. وعندما وصل الخبر إلى سـالم، أرسـل أبا دقاق، وهو كتامى، على

عند ذكره لوفاة الأمير، أن الوفاة حدثت فى قصره. وربما يكون المقصود القصر القديم، الذى أطلق عليه اسم سالم وبقى قريناً به، لأنه كان آخر أمير أقام فيه، فقد انتقلت من بعده إدارة الحكم إلى الخالصة.

(1) قارن بين: *Cronica di Cambridge*، عام ٦٤٤٣، فى كتاب دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٤٧؛ والنويرى، المرجع المذكور، ص ١٤.

(2) *Cronica di Cambridge*، الموضع المذكور، سنة ٦٤٤٤.

(3) يذكر النص لفظ *N rd bariñ*، وهو لفظ لا معنى له. وقد قرأه المحققون الأوائل *Brediaræos* وربما يكون هو اللفظ الفارسى *Bardadār*، بمعنى حراس القصر.

رأس رجال قبيلته، وجند صقلية، وعساكر ميمون بن موسى، الذين كانوا جماعة من الشرطة على ما يبدو: وأخذ أبو دقاق يحكم الخناق على عَصُره، وهى أراض مازال موقعها(1) محل شك، بين بالرمو وچرچنتى، وكانت قد ثارت هى أيضاً، وعندئذ أتى أهل چرچنتى بغتة. وحمى وطيس القتال فى الرابع عشر من يونيو، ويبدو أن رجال كتامة هم الوحيدون من بين رجال الأمير الذين قاتلوا؛ لأن الرواية قد حكت عن هزيمتهم هم فقط وعن المذبحة التى جرت لهم، وسقط فيها أيضاً القائد، وتم أسر الباقين. وسار المنتصرون إلى بالرمو. وهناك قام الشعب، إما لأنه لم يكن قادراً على رفع رأسه، أو لأنه كان لايزال يشعر بالعداء القديم لأهل چرچنتى، وسلّم قياده لسالم وميمون بن موسى ليحارب لصالح المستبـدين. وجرى الصـدام فى الثانى من يوليو فى مَسِيـد باليس(2)، وكسـرت قوات بالرمو أهل چـرچنتى بعد معركة حامية

(1) إن الاسم لا يختلف اختلافاً كبيراً عن *Asaro*، وهى أسوروس القديمة، ولكن حرف *a* المكتوب عيناً يدل على أصل الاسم العربى؛ وموقع *Asaro* بالقرب من ليونفورتى يبعد كثيراً فى اتجاه الشرق عن الطريق بين بالرمو وچرچنتى. ولأنه لا توجد حروف أو علامات الحركة فى المخطوطة فإن هذا الاسم قد ينطق عُصر، التى تعنى «ملجأ ومنجاة» وهو اسم مكان غير معروف اليوم.

(2) إن *Cronica di Cambridge*، هو المصدر الوحيد الذى يذكر هذا ويذكر التفاصيل الأخرى لهذه الحرب، ويذكر اللفظ الثانى بحيث يمكن قراءته تاليس وناليس ولاليس، وماليس. واللفظ الأول يمكن نطقه وقراءته «مُشيّد» بمعنى «بناية وأثر». ولا تسعفنى أسماء أماكن قديمة أو حديثه فى صقلية فى ايجاد الاسم الحقيقى أو الموقع المحدد، الذى لابد أنه كان قريباً جداً من بالرمو. ولكن باليس هو اسم منطقة بين السند وسجستان، جغرافية الإدريسى، الترجمة الفرنسية، ١، ٤٤٤، ٤٤٩. وباليس أو بالس كانت مدينة صغيرة على شاطئ الفرات الغربى. انظر ابن حوقل، مخطوطة باريس، الملحقات العربية، ٨٨٥، الورقة ٨٥ الوجه الأول؛ الإدريسى، المرجع المذكور، ١، ٣٣٥؛ ياقوت، **مراصد**، طبعة ليدن، ١، ١٢٢؛ أبو الفدا، **جغرافية**، النص العـربى، طبعة باريس، ص ٢٦٨. وفى أسـبانيا كانت مدينـة (ڤليس بلانكو؟) فى منطقـة بجاية وميناءً بين اليكانتة وقرطـاجنة (الإدريسى، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ١٤، ٣٩).

الوطيس، وطاردتهم حتى طواحين مارينيو(1). وإذا كان من المقبول أن ندعم بالرأى مذكرات ذلك الزمان فإننا نقول بكل تصميم إن صفوة أهل بالرمو لم تواصل الحرب ضد الثوار عن رضا، وإنها حاولت أن تتباحث فى هذا الشأن مع الحكم وأن تقاومه بعد أن صار السلاح فى يدها من جديد. ومن المؤكد أن الثورة لم تخمد فى چرچنتى، وأنها اشتعلت بعد ذلك بشهرين فى بالرمو.

فى يوم الأحد ١٧ سبتمبر ثار الشعب بقيادة ابن صبايه وأبى طار(2) ضد سالم؛ ففصل الأمير رأسيهما بعد أن عرف بمقتل أبى نطار الملقب بالزنجى: وكان عماداً لشرطته فى ذلك الوقت. وظلت الغلبة لسالم، فقد خوزق فى العشرين فى دار الصناعة كثيرين من الثائرين. وحملت فرق ذات بأس السلاح يوم السابع من أكتوبر، وعاودت الكرة، ولكن سالماً هزمها مرة أخرى، وحاصرها فى المدينة القديمة التى انسحبوا إليها(3)، وانتهى الأمر دون سفك دماء كثيرة. وكان سالم منذ بداية هذه الحركات قد كتب للأمير: لقد ثارت الجزيرة كلها، وإذا كان لا يريد ضياعها، فلابد أن يرسل التعزيزات؛ وكان وجهاء الجزيرة، الذين كانوا يترددون فى الثورة، قد أرسلوا رسائل أخرى يقولون فيها إنهم يريدون طاعة الخليفة،

---

(1) فى المخطوطة نفسها نجد اسم *M r nuh*. ومارينيو التى تقع على بعد ١٧ ميلاً من بالرمو، تطل على نهر ميزيلميرى، على الطريق الذى كان على أهل چرچنتى أن يسلكوه. ونقرأ أخبار المعركتين بدون تفاصيل عند ابن الأثير، وقائع عام ٣٢٥؛ وعند النويرى، فى كتاب دى جريجوريو، ص ١٤ وص ١٥. ويذكر أبو الفدا، عام ٣٢٥، مجرد إشارة إلى الثورة.

(2) هذا ما يقوله كتاب *Cronica di Cambridge*. أما النويرى فيقول اسحق البستانى ومحمد بن حمو. ولعلهما الشخصان نفسهما. فقد يكون ابن صبايه هو لقب عائلة اسحق الملقب بالبستانى؛ وأبو طار هو لقب محمد. أما لقب عائلة الأخير فقد يكون الحموى، وقد يكون من أصل فارسى. ويذكر مارتورانا، المجلد الأول، ص ٨٨، ومعه ونريش، بلا سند، الاثنين الأولين بصفتهما قائدى ثورة ١٧ سبتمبر، والآخرين بصفتهما قائدى ثورة ٧ أكتوبر.

(3) *Cronica di Cambridge*، المرجع المذكور، ص ٤٨، عام ٦٤٤٦، وتوجد كذلك إشارة لهذه الواقعة عند ابن الأثير، عام ٣٢٥، وعند النويرى، المرجع المذكور، ص ١٥.

ولكنهم لا يستطيعون تحمل سالم الطاغية. ولهذا أرسل لهم القائم آخر ذا سجايا أرق، مع جيش قوى مكين به قواد(1) عديدون، ولعلهم كانوا جنودا مرتزقة. وكان اسم القائد الأعلى أبا العباس خليل بن اسحق بن ورد. وقد ولد فى طرابلس فى أسرة عربية عريقة، فكرّس حياته للدراسة والعبادة وخواطر الصوفيه؛ ثم وهب نفسه للفاطميين، عندما جعلوه وزيراً للتكفير والتعذيب ضد مواطنيه، وكافأوه بتوليته الإدارة العمومية، وإمارة المدن؛ واستغل هذا، فقد خاطر بحياته أثناء حكم المهدى البخيل، ولم ينقذه إلا تدخل القائم، الذى جعله، بعد أن جلس على العرش، قائداً لفرسان أفريقية، مع اختصاصه بالجند وبالأسطول(2). وكلّفه بالقيام بعملية صقلية. ويبدو أن جانباً من الأسطول البحرى قد تم إعداده وتجهيزه على عجل فى سوسة؛ إذ ترجع إلى ذلك الوقت الخرافة الأفريقية التى تقول إن عمال قلفطة السفن قد قاموا بخلع شواهد القبور فى جبانة سوسة ليسندوا بها السفن التى كان يجرى إصلاحها وإعدادها للحملة على صقلية، فلم يجرؤ أحد منهم أن يلمس شاهد قبر الصالح يحيى بن عمر بن يوسف الذى كان يشع منه نور عجيب(3).

عندما وصل خليل إلى بالرمو فى الثالث والعشرين من أكتوبر(4)، كشف عن وجهه السمح للأهالى الذين تقدموا إليه معلنين ولاءهم

---

(1) ابن الأثير والنويرى، الموضعان المذكوران. ويقول الثانى الذى يبدو أنه نقل هنا الخبر الأصلى: «مع جيش وقادة عديدين». ولهذا فإن هذا اللفظ لا يبدو مستعملاً بمعناه العام «قواد الجيش»، وإنما بمعنى قواد جماعات أصغر.

(2) قارن بين: ابن الأثير، مخطوطة الجمعية الآسيوية بباريس، الورقة ١٠٤ الوجه الأول، **والبيان**، المجلد الأول، ص ٢٢٣، عام ٣٢٥.

(3) **رياض النفوس**، الورقة ٦٠ الوجه الأول. توفى يحيى سنة ٢٩٠. ولكن اعتقد أن العملية المقصودة هى هذه أو عملية سنة ٩١٦.

(4) هذا ما يقوله كتاب *Cronica di Cambridge*، المرجع المذكور، ص ٤٨، عام ٦٤٤٦. ويقول النويرى، المرجع المذكور، عند نهاية سنة ٣٢٥؛ وبهذا يرجع إلى المصدر نفسه مع اختلاف طفيف.

للخليفة؛ واستمع إلى مظالمهم وشكاواهم ضد سالم؛ التى كررتها مصحوبة بالبكاء والعويل النساء اللائى خرجن من المدن حاملات معهن أطفالهن، كان المشهد مؤلماً أثر فى كل من رآه، كما يكتب ابن الأثير، حتى بكوا شفقة وتأثراً. وكرّر ممثلو الأراضى الأخرى بالجزيرة الاتهامات نفسها ضد سالم، كما كرّرها أهالى چرچنتى الذين خضعوا واستسلموا. وتظاهر خليل باسترضاء الصقليين فأعفى عُمّال سالم من وظائفهم: وهذا مشهد هزلى مألوف تصفق له الجماهير فى كل زمان. أما سالم، فقد مضى من بالرمو، وفقد لقب الأمير، ولا يبدو أنه قد نزعت منه أى سلطة أخرى إلا إمارة الجيش(1). ولهذا تجاسرت النفوس الذليلة تجاسراً لا كابح له، خاصة أنهم بعد أن تداولوا الأمر مع ممثلى چرچنتى فردوا عليهم قائلين: ألا يضحكوا ويفرحوا كثيراً، وأن عليهم أن ينتظروا ويروا إذا كان الأمير لم يرسل خيلاً للثأر لدماء جنوده التى سالت أثناء الثورة(2).

وعندما بدا أن الصقليين قد هدءوا واستكانوا، أخذ خليل يعد العدة لتكميم أفواههم. كان قصر الأمراء أو قلعتهم فى بالرمو يقع خارج المدينة القديمة، فى موقع القصر الملكى(3) الحالى نفسه. والدليل على هذا ثكنات الجند الباقية قرب المكان فى القرن العاشر(4)، والشارع المسقوف كما كان يطلق عليه فى

(1) انظر هنا الكتاب الرابع، الفصل الأول، ص ٢٤٢. ومن المؤكد أن سالماً قد احتفظ بالسلطة مع خليل، وإلا فما كان هناك داع للمداولة بين الأهالى وممثلى چرچنتى ولا لبقائه هو فى القصر القديم، ولا للقب أمير الذى أطلق عليه عند وفاته.

(2) قارن بين: ابن الأثير والنويرى وابن خلدون، المواضع المذكورة.

(3) فى العشرية الأولى، الكتاب الثامن، الفصل الثانى، يكتب فاتزللو عن القصر الملكى فى بالرمو قائلاً:

Hanc (arcem) a Sarracenis primum Panormum adeptis, super Veteris arcis ruinis excitatam literæ in ea incisæ indicant. ولكنه لم يعرض النقش ولم يجده أحد، ولهذا لا أعتد بهذه الشهادة.

(4) ابن حوقل، *Description de Palerme*، فى *Journal Asiatique*، المجموعة الرابعة، المجلد الخامس، ص ٩٥.

زمن النورمان، الذى كان يبدأ من الكاتدرائية حتى ذلك الموقع، والذى كان يربط بكل تأكيد القصر بالمسجد الجامع فى زمن المسلمين؛ كما هو الحال فى قرطبة(1)، والقيروان(2)، ومدينة الجزائر(3). ولم يكن القصر، الواقع على بعد ميل من البحر، ووسط مدن قوية وشعب عاص عنيد، مكاناً مناسباً لإقامة الأمراء بين ثورات شعب بالرمو وانتفاضاته المتكررة بل، على العكس من ذلك، كانت شبه الجزيرة عند الميناء التى عسكر فيها أبو سعيد أثناء حصار سنة تسعمائة وست عشرة(4)، كانت موقعاً حصيناً يستقبل المساعدات من الخارج، ومناسباً لمنع وصول أهل بالرمو إليه. وفى الحال والتو أرسى خليل أساس قلعة أطلق عليها اسم **الخالصة** بمعنى «المختارة والمنتقاة»؛ وكان لابد أن تضم نخبة الأوفياء المخلصين: الأمير ومرتزقته من حملة السلاح والقلم؛ وأن تضم قصراً، ودار صناعة، ودوائر عمومية؛ والسجن: أى آلة الحكم؛ مثل مهدية مصغرة، تحيط بها الأسوار والحصون المحصنة تحصيناً جيداً(5). وحسب عادة تلك الأزمان، اقتصد خليل النفقات والأموال، بأن أجبر الأهالى على العمل فى تشييدها(6)؛ وقام

(1) المقرى، *Mohammedan dynasties in Spain*، ترجمة جيانجوس، المجلد الأول، ص ٢٢٠؛ الإدريسى، *Geographie*، ترجمة چوبير، المجلد الثانى، ص ٥٨ وما بعدها.

(2) البكرى، ترجمة كاترمير، *Notices et Extraits*، المجلد السابع، ص ٤٧٣.

(3) بارچيه، وصف المسجد الجامع فى مدينة الجزائر سنة ١٨٣٠، فى *Journal Asiatique*، المجموعة الثالثة، المجلد الحادى عشر، ص ١٨٢. وهنا لا يتكلم فى الحقيقة إلا عن بوابة واحدة تصل إلى قصر الحاكم.

(4) انظر الفصل السابع من هذا الكتاب، ص ١٥٧ و١٥٨.

(5) ابن حوقل *Description de Palerme*، فى *Journal Asiatique*، المجموعة الرابعة، المجلد الخامس، ص ٢٢ وص ٢٣؛ والنويرى، *Enciclopedia*، نفس الموضع ص ١٠٤؛ والإدريسى، *Géographie*، ترجمة چوبير، المجلد الثانى، ص ٧٧.

(6) ابن الأثير، وقائع عام ٣٢٥، وفيها يكتب قائلاً: «كان الأهالى يشعرون بوطأة بناء القلعة وثقل العمل فيها». ويعلق العلماء المسلمون، وخاصة الماوردى، على هذا. انظر الفصل الأول من هذا الكتاب، ص ١٣، الهامش رقم ٥.

بالإضافة إلى هذا بهدم أسوار المدينة القديمة، وخلع بواباتها مرة أخرى(1). كان أهالى بالرمو يستشيطون غيظاً وفرقاً، ولكنهم كانوا لا يستطيعون أمام هذا حراكاً. أما أهالى چرچنتى، عندما أدركوا أن خليل كان مصيباً وعلى حق، فقد أرادوا حمل السلاح قبل أن ينفذ سالماً قلعة أخرى فى عقر دارهم.

عندئذ قاموا بتدعيم أسوار مدينتهم وتقويتها على قدر طاقتهم، وأخذوا يعدون عدة الحرب: ومن جانبه قام خليل بتجميع جيش كبير من الصقليين والقوات القادمة من أفريقية؛ وتحرك به من بالرمو فى التاسع من سنة تسعمائة وثمان وثلاثين. ولما خرج أهل چرچنتى للصدام، انتصروا عليه فى معركة دموية سقط فيها قائدان من كبار قادة الأمير: ابن أبى خنزير وهو من أسرة أمير سنة تسعمائة وأحد عشرة نفسها، وعلى بن أبى حسين من قبيلة بنى كلب، صهر سالم وأصل العائلة التى حكمت صقلية فيما بعد. واستمر جيش الإمارة، وهو جيش قوى ذو بأس تقوده إدارة خليل التى لا تكل ولا تمل، استمر برغم الهزيمة الأولى، فى حصار چرچنتى لمدة ثمانية شهور: لم يمر خلالها يوم دون قتال سواء كان قتالاً شديداً أم هيناً؛ إلى أن حل موسم الأمطار، فخلع خليل معسكره فى الثانى والعشرين من أكتوبر. وقضى الشتاء فى الخالصة، واستقدم قوماً من البربر من أفريقية، كما يدل على هذا اسما القائدين وساما وابن مدوا(2)، وانهمك فى زيادة ضرائب جديدة على الأهالى الصقليين الخاضعين له. ومن هنا، فإن كل القلاع وأهل مازارا، وقد شعروا بالقهر مما يتكبدونه من نفقات،

(1) *Cronica di Cambridge*، ابن الأثير وابن خلدون، المواضع المذكورة.

(2) هذان الاسمان مذكوران فقط فى *Cronica di Cambridge*. والمقطع «وا» يدخل فى أسماء بربرية كثيرة مثل ابن فى الأسماء العربية. ويبدو كنية غير عربية بكل تأكيد. ويوجد عند ابن الأثير بالحروف نفسها تقريباً ومع أختلافات ضئيلة اسم قلعة صغيرة بين رنداتسو وكاستيليونى، قد تكون مويو الحالية.

ورأوا أهل چرچنتى قدوة تحتذى خاصة أنهم كانوا يستثيرونهم، أخذوا فى إعلان العصيان والتمرد، كما يكتب ابن الأثير، متحدثاً بالتفصيل عن أحوال هذه الحرب. ويجب أن نفهم أن القلاع كانت قلاع ڤال دى مازارا، إذ إنها جميعاً فى تلك المنطقة وأسماؤها مذكورة؛ ولا يبدو من أى دليل آخر أن الجماعات الإسلامية كانت متناثرة شرق نهر سالسو. ويستطرد ابن الأثير قائلاً: «وضعوا فرسانهم على أهبة الاستعداد؛ وقطع التمرد خطوات عملاقة؛ وكتبوا الرسائل لإمبراطور القسطنطينية، يطلبون العون، فأرسل سفناً عليها رجال وحنطة». إلى هذا الحد بلغ اليأس والقنوط؛ وكذلك الاتفاق غير المعتاد الذى يبدو أنه قد تم بين العرب وبربر الجزيرة، والمقاومة العنيدة: وكان بمقدورهم أن ينتصروا فى هذه التجربة لو أن بالرمو أرادت أو استطاعت أن تحاول بذل منتهى جهدها، ولو أن الثائرين عرفوا الخضوع لقيادة موحدة، ولو أن المجاعة لم تنشب أنيابها لصالح الفاطميين. وفى ربيع سنة تسعمائة وتسع وثلاثين، بدأ خليل الحرب عند معابر مادونيه: اقتحم كلتافوتورو وقلعة السراط(1)، وسكلافانى: ولم تلق أى منها عوناً أو نجدة من الأقاليم الجنوبية. وبعد أن أمَّن ظهره وأطمأن إلى وفرة المؤن، اتجه ناحية الغرب، واحتل مازارا(2)؛ ثم احتل شبه جزيرة، أعتقد أنها كابو سان ماركو، حيث تم إلقاء القبض على قائد بيزنطى أو من أصل صقلى، اسمه فوكه أو ما يشبه ذلك،

(1) هى كوللسانو الحالية طبقاً للمسافات التى يحددها الإدريسى الذى يذكرها بهذا الاسم نفسه «قلعة السراط».

(2) إن ترتيب عمليات خليل العسكرية مذكور فى *Cronica di Cambridge* على وجه الدقة. والاسم الذى أكتبه مازارا هو «ل ب» راه وقرأه المترجمون الأوائل كلبارا وارتجلوا المقطع الأول. وعند تصحيحه ليصبح مازارا لا يحدث أى تعديل على الخصائص الأساسية كما توجد المدينة المهمة التى ذكر ابن الأثير اسمها. أما بشأن كلبارا، أو كيفما يقرأ مقطعها الأول، فلا وجود لاسم معروف يمكن أن ينطق عليه؛ ولا مجال إطلاقاً للظن أنها كلابريا.

فقتله خليل بعد أن سقاه ألوان التعذيب(1): ثم تحرك بكل رجاله لحصار كلتابللوتا. واستولى عليها بالاتفاق، بعد معركة دموية انتصر فيها فى العاشر من يوليو؛ ولم يستطع القيام بعمليات أخرى حتى شهر سبتمبر، عندما عسكر فى بلاتانى. وكانت بلاتانى تقع على بعد عشرة أميال تقريباً من كلتابللوتا، وعشرين ميلاً من چرچنتى وستة أميال من البحر: وهى قلعة قديمة يبلغ محيطها ميلاً، على قمة جبل يطلق عليه اليوم بلاتنللا، وهو يرتفع فى وعورة من كل جانب على الشاطئ الأيمن لنهر مكاسولى وعلى يسار نهر ليكو، الذى تغير اسمه وأصبح بلاتانى. وجدها المسلمون عند الفتح، وحازوها وهى تحت حكم النورمان، وكانت عظيمة ومزودة بحصن؛ فتحصنوا بها أثناء الحروب الأهلية فى بداية حكم فردريك زفيڤو، عندما تم دك الملاجئ، ووُهبت القرية بأراضيها إلى كاتدرائية بالرمو. حتى إنه فى القرن السادس عشر كانت لاتزال تتخلف عنها ـ كما يقول فاتزيللو ـ آثار رائعة، واليوم يشهد اسم كالاتا فى الخرائط الجغرافية على موقع الحصن(2).

(1) هذا الحدث وهذا الاسم مذكوران فى *Cronica di Cambridge* فقط، والاسم الثانى مكتوب بدون حركات ف ك هـ ويمكن قراءته فوكا أو بأى حركة أخرى مفضلة فى الترجمة اللاتينية ولا يفضل استخدامها وتكرارها فى الإيطالية. لأن فقه فى اللغة العربية يعنى علم الشريعة والقانون، ونحن هنا بصدد اسم علم واسم مكانَ أطلق عليه؛ ولا أعتقد كذلك أن العرب لديهم اسم علم مثل هذا. وعلى النقيض من هذا فإن عائلة فوكا معروفة فى الروايات البيزنطية، وكانت ذات شأن فى تلك الأزمان: وهذا ما أوحى لى باختيار النطق الأول. وبالإضافة إلى هذا كان يمكن إطلاق اسم أحد المسيحيين الصقليين باللاتينية و(لِم لا؟) بالإيطالية ممن قبل الثوار مساعدتهم مثلما طلبوا المساعدات من القسطنطينية وفى الحقيقة يوجد بالقرب من كابوسان ماركو موضع يطلق عليه فيكانا. وهذا، وتوافق الموقع القريب من مازارا وكلتابللوتا، اقنعنى بأن المقصود هو شبه جزيرة كابوسان ماركو. وقد ترجمت بشبه جزيرة كلمة جزيرة المذكورة فى النص، والتى تعنى المعنيين.

(2) انظر بالنسبة للقرن الثانى عشر **جغرافية** الإدريسى؛ وبالنسبة للقرنين الثالث عشر والرابع عشر، الوثائق التى أشار إليها بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ١٣٦، وهويللار - برهولز، *Historia diplomatica Frederici II imperatoris*،

وعبثا حاول خليل واجتهد ضد بلاتانى؛ بل إنه ترك أو خسر كلتابللوتا، وعندما أراد استعادتها بعد أن قسم قواته إلى قسمين، قام أهالى چرچنتى فى إحدى ليالى شهر نوفمبر بهجوم مفاجئ على هذا المعسكر وذاك؛ وحطموا معسكر كلتابللوتا ونهبوه وطاردوا الجنود المحاصرين أثناء هربهم. عندئذ تخلّى خليل بكل تصميم عن حصار بلاتانى أيضاً، لكى يركز كل قواته ضد چرچنتى، وهى النقطة الرئيسة فى الحرب، حتى يحبس هؤلاء الجسورين داخل أسوار مدينتهم، فلا يسببون له عاراً جديداً وحتى يشعروا بقسوة الجوع شعوراً أكثر ايلاماً.

كانت المجاعة تمزق الجزيرة كلها، ولم تكن نتيجة قسوة الفصول وأضرار الحرب التى لا يمكن تحاشيها بقدر ما كانت بسبب ألاعيب خليل الشيطانية؛ الذى لم يكذب بكل تأكيد عندما تفاخر بأنه قضى بالحديد والجوع على مئات الأنفُس فى صقلية. كانت الاستراتيچية التى اتبعها تتمثل فى أن يغذى جنوده، لأن الأعداء سيموتون دون جراح: وأمر القائد، الذى كان ينظم حسابات أفريقية قبلا، أمر بالاستيلاء وبنهب كل ما يمكن من طعام وبأى وسيلة، وبهذا كان يحقق صحة رجاله وسلامتهم والقضاء على الصقليين. وشغلت المجاعة المدن والقرى، كما تقول أخبار البلاد، وأكل الآباء والأمهات جثث الأبناء؛ وتهدمت القلاع بعد أن هجرها الرجال؛ وبارت الأراضى الزراعية، ويضيف البيان: أن أهالى لا حصر لهم لجأوا، هرباً من المجاعة ومن قَتَلة خليل المأجورين، لجأوا إلى بلاد الروم، أى إلى إيطاليا أو اليونان: حيث تحول أغلبهم إلى المسيحية. وبينما كانت الإبادة مستمرة فى الجزيرة، كان خليل مستمراً فى حصار چرچنتى: ثم ترك فرقة قوية مع أبى خلف بن هرون، ورجع

المجلد الأول، ص ١١٨ وص ١٩٤؛ ومورتيللارو، *Catalogo dei diplomi della Cattedrale di Palermo*، ص ٩٠؛ وبالنسبة للقرن السادس عشر وصف فاتزيللو، العشرية الأولى، الكتاب العاشر، الفصل الثالث.

هو إلى بالرمو، بعد أن تيقن من النتيجة. وفى شهر مارس سنة تسعمائة وأربعين استسلمت بلاتانى المنيعة؛ وصمدت چرچنتى إلى أن هرب منها أكثر العقلاء أو المغامرين طلباً للسلامة؛ أما الباقون فقد فتحوا بوابات المدينة، بشرط أن يخرجوا منها سالمين، فى العشرين من نوفمبر: لكن خليل، بعد أن صاروا وسط قواته، حنث بعهده وقادهم إلى بالرمو. وخافت عندئذ القلاع الأخرى من هذا الشطط ومن هذه الغلواء فأسرعت تطلب الصفح أملاً فى أن تخفف من غلواء هذا المستبد: وعادت صقلية كلها خاضعة للفاطميين. وكان خليل يرسل إلى القائم فى أفريقية جماعات الأسرى ليبيعهم(1)؛ ولم يمض وقت طويل حتى أبحر هو إلى أفريقية فى العاشر من سبتمبر سنة تسعمائة وواحد وأربعين، وبعد أن بدت له الأحوال هادئة تماماً؛ وترك فى حكم بالرمو اثنين من أعوانه هما ابن الكوفى وابن العطاف من قبيلة أزد(2)؛ لأن سالماً كان قد توفى فى السنة السابقة. وجَرَّ خلفه فى سفينة أخرى وجهاء چرچنتى. وعندما صار فى أعالى البحر أمر بإغراق سفينتهم، فماتوا جميعاً(3).

(1) *La Cronica di Cambridge* هو المصدر الوحيد الذى أشار إلى هذا، ويستخدم لفظة **سبى**، وهو يعنى النساء والصبايا السبايا. ولكن يبدو لى أنه استخدمه هنا بمعنى أشمل.

(2) نسبة ابن عطاف إلى القبيلة واردة فقط عند ابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٦٥.

(3) هذا الجزء الأخير عن الثورة مأخوذ جزئياً من *Cronica di Cambridge*، سنة ٦٤٤٧ حتى سنة ٦٤٥٠، فى كتاب دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٤٨ وص ٤٩؛ ومأخوذ جزئياً أيضاً من ابن الأثير، عام ٣٢٥. انظر أيضاً **البيان**، طبعة دوزى، المجلد الأول، ص ٢٢٣؛ أبو الفدا، سنة ٣٢٥، ابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، الترجمة، ص ١٦٤ و١٦٥. والنويرى فى كتاب دى جريجوريو، ص ١٥، يشير إلى حضور خليل ورحيله دون أن يذكر شيئاً عن الحرب. يضيف رامبولدى، *Annali*، المجلد الخامس، ص ٢١٣ و٢١٧ و٢٢١ و٢٢٣ و٢٣٠ تحت أحداث أعوام ٩٣٧ و٩٣٨ و٩٣٩ و٩٤٠ و٩٤١، ويضيف من عنده ودون سند تمرداً فى بالرمو فى هذه الفترة الثانية بمعاونة البيزنطيين؛ وأن إمارة أفريقية أرسلت الغلال إلى صقلية.

ولهذا فإن كتاب الحوليات المسلمين، رغم ما يتصفون به من القدرة على عدم التأثر، يهتزون عند الحديث عن خليل هذا؛ ومنهم من يشهر به ويفضحه لأنه قد تخطى كل حدود البربرية المتوحشة، ومنهم من يذكر أنه عمل فى صقلية مالم يجرؤ على فعله مسلم آخر قبله أو بعده فى أى بلد من البلاد. ويروى أنه بعد عودته إلى المهدية كان يجلس يوماً مع جماعة من أشراف المدينة فوقع الحديث عن الحرب فى صقلية، فأخذ الباغى يتباهى قائلاً: «لا أستطيع تحديد عدد من أمرت بقتلهم تحديداً دقيقاً؛ لكنهم لا يزيدون عن مليون ولا يقلون عن ستمائة ألف». وبعد لحظة وجيزة قال: «نعم، والله، لقد تجاوزوا الستمائة ألف». فارتفع صوت أبى عبد الله، المعلم بالمدرسة ليرد عليه دون مواربة(1): «يكفيك يا أبا العباس قتل واحد فقط»(2)، مشيراً إلى اقتراف ذنب سفك الدم من مركز السلطة(3).

ولم يمض وقت طويل إلا ونال خليل عقابه على أيدى البشر. فعندما كانت القيروان تحت تهديد المتمرد أبى اليزيد وكان الأهالى متحيرين بين الخوف من جماهيره الهائجة المائجة، وكراهيتهم للفاطميين أرسل القائم إليها القاتل المحترف الكبير على رأس ألف فارس من الزنوج. فأخذ حسب العادة القديمة فى ممارسة التعسف والظلم وسوء المعاملة وفى تطبيق علاج المجاعة وأخذ

(1) كان من المعتاد النداء بالكنية، أى باللقب الأول بدلاً من الاسم أو لقب الوظيفة.

(2) قارن بين: **البيان**، الموضع المذكور؛ وابن عبار، مخطوطة الجمعية الآسيوية بباريس، الورقة ١٠٤ الوجه الأول.

(3) ذنب، لأن أئمة الشريعة كانوا لا يسمحون بقتل المتمردين الذين يقبض عليهم وسلاحهم فى أيديهم، أو باستمرار حبسهم بعد انتهاء الحرب أو بأخذ ممتلكاتهم أو الاعتداء على نسائهم وبناتهم. انظر الماوردى، **الأحكام السلطانية**، طبعة إنچر، ص ٩٨ وما بعدها؛ **والهداية**، ترجمة هاملتون إلى الإنجليزية، الكتاب التاسع، الفصل التاسع، فى المجلد الثانى، ص ٢٥٠. ولقد سادت فى الإمبراطورية العثمانية بعض التعاليم المستبدة، ويمكن أن تجدها فى كتاب دوهسون، *Tableau de l'Empire Ottoman*، المجلد السادس، ص ٢٥٣.

يكتسح المناطق الزراعية بإفسادها فساداً فظيعاً، ولكن هذا جاء بنتيجة عكسية، فقد بدأ الأهالى يتذمرون ثم أخذوا يتآمرون، ثم اختاروا أهون الشرين، فاستدعوا أبا اليزيد. وعند اقتراب الجيش المتمرد (أكتوبر ٩٤٤) فقد خليل شجاعته: وخرج إلى المعركة خائر القوى؛ وهرب قبل أن يبدأ الالتحام، وجرى يتحصن داخل قصر القيروان. وعندما أخذه المتمـردون قتلوه مع عسسه وحراسه ورفعوا جثته على أحد الأعمـدة على البوابة التى يطلق عليها بوابة ربيع(1).

(1) قارن بين: ابن الأبار، مخطوطة الجمعية الآسيوية بباريس، الورقة ١٠٤ الوجه الأول؛ **البيان**، المجلد الأول، ص ٢٢٣؛ ابن الأثير، المخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٣٤٣، وقائع عام ٣٣٣.

الفصل العاشر

كان القدر يقف بالمرصاد فى هذه الثورة للفاطميين. ولقد سبق أن قلنا إن فرق الخوارج كانت تتأجج منذ القدم بين البربر، فتخبو تارة وتشتعل تارة أخرى. وكما يحدث عادة، خرجت من عباءة فرقة العبادية فرقة جديدة أطلق عليها اسم الناكريون(1)؛ وأساءت إلى عدالة مراميها بوسائلها الظالمة المنكرة، فقد دعت إلى شرعية قتل كل من هو غير ناكرى والاعتداء عليه ونهبه؛ وهو ما يعنى الجنس البشرى كله تقريباً. ويبدو أن أتباع هذه الفرقة الجدد أناس جادون فى عملهم، هادئون فى حياتهم، يعيشون فى جزيرة جربة، وكانوا يشكلون بكل تأكيد الجانب الأكبر من سكانها وكانت لهم هيئتـهم السيـاسية المستقـلة حتى القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر(2). وقد أخذت الفرقة فى الازدياد السريع فى بدايات القرن العاشر عند وصول الفاطميين إلى الحكم، وعندما ظهر الدليل على فاعلية هذه الدسائس فى الجنس البربرى، وعندما أهانت فرقة الإسماعيليين بقدريتها المستسلمة فكر الخوارج المتحرر. وظهر آنذاك فى غردية أى فى المنطقة الجنوبية من دولة تونس الحالية أبو يزيد مخلد بن قيداد من قبيلة إفرن ومن قوم زناتا؛ وكان رجلاً فقيراً، ضئيل الجسم، أعرج ومشوه الوجه، ولكنه فذ العقل والنفس مما يجعله قادراً على القيام بأية عملية من العمليات. ضاق أبو

(1) تعنى، من يقولون: «لا نريد أن نعلم شيئاً» مثل فرقة *Know - nothings* فى امريكا.

(2) انظر: التيجانى فى *Journal Asiat.*، المجموعة الرابعة، المجلد العشرين، ص ١٧١ وما بعدها؛ وابن خلدون، *Histoire des Berbères*، فى مواضع متفرقة.

اليزيد ذرعاً من الفاقة وهو يُحفّظ القرآن للشباب فانضم إلى علماء الناكريين الذين كانوا يريدون عمل شئ ولا يعلمون ماذا يفعلون؛ وصار واحداً من كبار الفرقة؛ وواتته الجرأة لتوسيعها وتحويلها إلى فتنة. وبعد مرور عشرين عاماً من الجهد والاضطهادات سجنه حاكم توزر، وحرّره رجاله فى عملية تتسم بالجرأة، فلجأ إلى الطرف الآخر من أطراف الدولة الفاطمية، بين جبال الأوراس، حيث انضمت إليه فرق أخرى من الخوارج وبعض قبائل الهوارة، وفى عام ثلاثمائة وواحد وثلاثين (٩٤٢ - ٩٤٣) أعلن الثورة: أن أبا يزيد هو قائدها وأن يكون نظام الحكم فى أفريقية - بعد طرد الفاطميين - حكماً جمهورياً. واختاره أتباعه اختياراً ديمقراطياً ليكون شيخ المؤمنين؛ فخرج على رأس الجيوش وهو يرتدى عباءة من الصوف الخشن ويمتطى حماراً محجّلاً فأطلقوا عليه «فارس الجحش». واحتل أفريقية بمائة ألف بربرى من مختلف القبائل والفرق يتسمون بالشراسة وعدم النظام. ومن بين المعارك التى خاضها بشجاعة واقتدار واختلفت نتائجها وتباينت سنذكر معركتين فقط خاضهما فى مواجهته صقلى، قد يكون من أصل يونانى، يُدعى بشارة(1)، وكان من رقيق القائم. كان الخليفة قد أرسل فى ذات الوقت خليل بن اسحق إلى القيروان، وبشارة هذا على رأس جيش إلى باجة، وتقع فى الداخل بين مدينة تونس ومدينة بونة

(1) هذا لفظ عربى معناه «الخبر السعيد» وهو من الأسماء التى كانت تطلق على الرقيق. وقد يكتب الاسم بالفرنسية *Bochra* وهو ما لايمكن نقله بالحروف الإيطالية. ويقول التيجانى إنه صقلى؛ أما نص ابن خلدون الذى نشره م. دى سلان فيقول إنه من رقيق صقلية، ولا أعرف الاختيار من بينهما. إلا أن النقد التاريخى يذكر لنا أن من بين رقيق الفاطميين ومرتزقتهم كان يوجد صقليون وسلافيون على السواء. والفرق فى كتابة اللفظين فى العربية طفيف جداً ولكن ما ورد فى المخطوطات لا يمكن أن يكون قولاً فصلاً. ومع هذا فإن التيجانى كان عالماً أكثر دقة من ابن خلدون، كما أن نسخ مخطوطات أعماله أقل من نسخ مخطوطات ابن خلدون، ولهذا تبدو أقل تعرضاً للخطأ.

حتى يدافع عنها ضد ذلك المتمرد الذى كان يتقدم نحوها سنة اربع وأربعين. ولما احتدمت المعركة كان أتباع أبى اليزيد يستديرون هرباً فجرى أبو اليزيد إليهم ونزل عن جواد المعركة واستحضر عصا وحماره المحجّل فامتطاه صائحاً: «هذا ما يفعله من لا يريد الهرب، وإنما يريد الانتصار أو الموت!» وأعاد تنظيمهم، والتف من الجانب حتى وصل خلف معسكرات بشارة ليقطع عليه طريق الانسحاب. وعندئذ أطلق القائد الفاطمى النفير لجمع جنوده؛ وأسرع فى طريقه إلى تونس وأبو اليزيد يتعقبه؛ ويقتل كثيراً من رجاله، واستولى على باجة ونهبها؛ واحتل تونس التى تركها بشارة متقهقراً إلى سوسة. وهناك وصلته تعزيزات من المهدية، وجاءته أوامر القائم بأن يستأنف الهجوم. ولما خرج من سوسة ووجد نفسه فى مواجهة أحد قواد أبى اليزيد اسمه أيوب بن خيران تصادما عند هرقلة، كما يطلق عليها اليوم، وهى على خليج الحمامات، فانتصر عليه بشارة وأقام مذبحة لأعدائه، ولكنه انسحب إلى المهدية قبل أن يصل أبو اليزيد إليه بأغلبية جيشه(1). وهكذا فإن القائم كان يقوم بالهجمات كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً ونازع المتمردين على أفريقية، ولم يستطع أن يمنعهم من أن يطردوا رجاله فى السنة نفسها من كل الأرجاء فيما عدا سوسة والمهدية، وأن يحاصروه فى العاصمة (يناير ٩٤٥). وسرعان ما احتلوا ضواحيها وأغاروا فى هجمات كثيرة على الحصن وفى هجوم (يوليو ٩٤٥) حدث خوف وهلع عظيم حتى إن عدداً كبيراً من سكانها، وخاصة التجار، هربوا منها ولجأ بعضهم إلى طرابلس وآخرون إلى مصر وكثيرون إلى صقلية.

إن تحصينـــات المهدية أنقذت الدولة الفاطمية فأتاحت الوقت

(1) يروى التيجانى أحداث هاتين المعركتين، *Journal Asiatique*، المجموعة الرابعة، المجلد العشرون، ص ١٠١ وما بعدها. انظر أيضاً ابن خلدون، *Storia dei Berberi*، النص العربى، المجلد الثانى، ص ١٨ وص ١٩.

لتَفَسُّخ قوات أبى اليزيد التى كانت تتشكل من عناصر من مختلف الأجناس والأهواء. وكان أهالى القيروان وبقية السلالة العربية يعانون معاناة شديدة أو قليلة من البدعة الناكرية بالرغم من أن أبا اليزيد إرضاءً لهم أراد أن يعترف علناً بمذهب السنة. ولكنهم ما كانوا ليتقبلوا الرخص الممنوحة للجيش وأعمال النهب التى يقوم بها وسيطرة البربر. ولكن إدارة القيروان عندما فتحت أبوابها لأبى اليزيد عقدت معه اتفاقاً بدعوة الأمويين فى أسبانيا؛ فأرسلت إليهم الرسل حقيقةً، ووعد الأمويون وعوداً كثيرة، ولكنها لم توضع موضع التنفيذ(1). كان أبو اليزيد منتشياً لتعامله مع علية القوم، فارتدى الحرير، وامتطى ظهور الجياد واستعدى نفوس أبسط الخوارج أو أغلظهم. حتى إن أحدهم قام يحمل عليه السلاح، وتركه آخرون شيئاً فشيئاً، ولم ينفعه بعد ذلك أن يمتطى الحمار ويرتدى العباءة الصوفية. وقد ساهمت صعوبة عملية المهدية فى زيادة الخلافات بين القوات القائمة على الحصار. ولفضائل إسماعيل بن القائم، وهو شاب متحمس بليغ ناشط يتمتع بحنكة سياسية ورؤية فى شئون الحرب كلفه والده بالقيادة العليا.

وبعد أن رُد أبو يزيد على أعقابه فى غزوات مختلفة وعندما رأى جيشه قليل العدد بسبب انصراف غير الراضين عنه وانصراف بعض المارقين الذين كانوا يجوبون أفريقية هنا وهنالك بحثاً عن غنيمة أيسر وأسهل، رحل عن المهدية (يناير ٩٤٦) وهاجم سوسة

(1) تبع علماء القيروان وسكانها بحماس شديد أبا اليزيد أثناء حصاره المهدية. ينبغى على من يكتب هذا الجزء الشائق من التاريخ ألا ينسى الأخبار التى يوردها **رياض النفوس**، الورقة ٨٩ الوجه الثانى إلى الوجه الثانى من الورقة ٩١. ويروى القرار الذى اتخذه الفقهاء فى جامع القيروان: وتسلّح العلماء، ومجئ أبناء المهن والحرف بأدوات الحرب وراياتهم ذات الألوان المختلفة وقد كتبت عليها عبارات عديدة؛ والشهداء الذين سقطوا فى المعركة إلخ.
وكان العالم أبو العرب، وهو من القادة الثوريين، ينادى بمحاصرة المهدية قائلاً: «لقد كتبت بيدى ١٥٠٠ مبحثاً، إلا أن الحرب هنا تفوق العلم وترتفع عليه ارتفاعاً كبيراً».

أملاً فى اخضاعها بسهولة ويسر ولكنه لم يفلح فى مقصده. وعندما وافت المنية القائم (مايو ٩٤٦) تجاهله إسماعيل، وبعد أن حصل على مزايا كبيرة تفوق مزايا المتمرد، أصدر مرسوماً بارتقائه العرش وصار لقبه المنصور بأمر الله. واستمر فى الحرب بنفسه وتعقب أبا اليزيد الذى تقهقر إلى جبال الأوراس، وبعد معارك طاحنة حاصره فى قلعة بين جبال قيانا، فحاول المتمرد الخروج منها فأصابته ضربة فى جبهته وأخرى فى كتفيه وهرب ثم أمسكوا به وبعد أيام قليلة مات متأثراً بجراحه (أغسطس ٩٤٧). وكان الناكريون فى تلك الأثناء قد قتلوا فرادى فى جميع أنحاء أفريقية. وقد قتل فضل، ابن أبى اليزيد، وكان قد بقى بسلاحه بعد موت أبيه، قتل غدراً وأرسلت رأسه إلى المنصور، وقتل غدراً أيضاً أيوب، ابنه الثانى وكان مشهوراً بصفته كاتب أنساب البربر وجرى اضطهاد عظيم لقبيلة افرين كلها.

وهكذا انتهت بعد أربع سنوات ثورة الناكريين. وكان القائم قد بقى فى المهدية ولم يجد أصدقاءً مخلصين إلا قبيلة كتامة وجانباً من أهل صنهاجة التى كانت تدين بالولاء للزيرى بن مناد: ومن هنا نبعت عظمة بيت الزيرى الذى حكم فى أفريقية لمدة قرنين من الزمان. وكان أبو القاسم حسن بن على بن أبى حسين، وهو من قبيلة كلب العربية قائداً ومستشاراً للمنصور فى الحرب نفسها ونال كل ثقته، وسرعان ما كافأه بحكم صقلية الذى استمر فى سلالته لمدة قرن من الزمان(1). ويضيف أحد المصنفين المجتهدين أنه تم تكليف حسن بمهمة أخرى قد تسىء فى يومنا هذا إلي أسماء أسوأ

(1) إن اللمحة التى أشير بها إلى هذه الثورة الكبيرة استقيتها من ابن الأثير، سنتى ٣٣٣ و٣٣٤؛ المخطوطة C، المجلد الخامس، الورقة ٣٤٣ الوجه الأول؛ **البيان**، المجلد الأول، ص ٢٢٠ ـ ٢٢٨؛ التيجانى، *Journal Asiatique* ، المجموعة الخامسة، المجلد الأول، ص ١٧٨ وما بعدها؛ ابن خلدون، *Storia dei Berberi*، النص، المجلد الثانى، ص ١٦ ـ ٢٣؛ ابن حماد، *Journal Asiatique*، المجموعة الرابعة، المجلد العشرون، ص ٤٧٠ وما بعدها. وبالنسبة للتواريخ فإنى فضلت الرجوع فى شأنها إلى ابن

البشر، ولكن يمكننا تصديق هذا بالنسبة للقرن العاشر كما سيصدق من يأتى بعدنا بالضرورة عمليات التعذيب فى إيطاليا فى القرن التاسع عشر. فقد أمر المنصور المثقف الشجاع بسلخ جثة أبى اليزيد وملء جلدها بالقطن المندوف وعرض هذا المسخ البائس لمدة خمسة شهور فى المدن الرئيسة بأفريقية وقد ربط فوق جمل ويحيط به قردان مدربان على صفعه ونتف لحيته. ويحكى أنه كان على حسن أن يقتاده إلى صقلية لعرضه بها بالاضافة إلى رأس فضل الذى كان قد قتل حديثاً. إلا أن المركب تعرضت للغرق وتم إنقاذ جلد أبى اليزيد واكتُفى بتعليقه على باب المهدية نفسه الذى ألقى به سهما عند وصوله وقت الحصار[1].

ولمدة ست سنوات لم يسمع أحد فى صقلية عن وقوع حروب أو اضطرابات بل حدثت عمليات سلب وبغى وعنف فردى: حتى إن الأخبار تشير إلى أن القوى كان يأكل الضعيف[2]؛ وهى بهذا تشير ولاشك إلى فظائع أشراف البربر وقوادهم والمرتزقة الذين تركهم خليل. ولم يكن الرخاء قد حلّ محل الجوع، حيث لم تكن هناك الأيدى اللازمة لزراعة الأرض بعد الدماء التى سالت فى سنة تسعمائة وأربعين. فى هذا الإطار كان كرينيتى الأرمنى، قائد كلابريا[3]

الأثير. انظر كذلك **رياض النفوس**، الورقة ٨٩ الوجه الثانى وما بعدها؛ يحيى بن سعيد، **تتمة اوتيكيو**، الورقة ٨٧ الوجه الثانى؛ ابن خلكان، ترجمة م. دى سلان، المجلد الأول، ص ٢١٨، والمجلد الثالث، ص ١٨٥.

(1) ابن حماد، المرجع المذكور، ص ٤٩٧.

(2) *Cronica di Cambridge*، المرجع المذكور، ص ٤٩، تحت عام ٦٤٥٠.

(3) **Ὁ Κρηνίτης Χαλδίας τῆς Καλαβρίας γεγόμενος στρατηγός.** وفى طبعة باريس. أضيف لفظ (παρά) بين قوسين بعد اسم العلم؛ وترجم *perfectus Crenita Chaldiæ in Calabria*، وهى الصيغة التى لم تتغير فى طبعة بون، بالرغم من أن النص تمت معـــالجته بشـــكل أفضل. وشـــالديا كان اسم منطقة بيزنطية عاصمتها تريبسوندا فى أرمينيا الصـــغرى؛ وهنا تدل على موطن ذلك المستغل وليس مقره فى كلابريا التى لم تكن أبداً موطناً لهذا الاســـم. انظر

الأعلى، يجمع قمح الإقليم بأبخث الأسعار ليبيعه فى صقلية المقهـــورة بما يســـاوى وزنه ذهباً (هذا ما يقوله شيدرينو) بسبب الجوع والحرب التى جلبها لها الشيرنايشى والتى وفر فيها الرومان ملجأ للهاربين من قرطاجنة، ولم تجرؤ أمتهم أن تطلبهم أو أن تدفع لها الجزية خشية أن يمنع الرومان عنهم الغذاء[1]. وعندما نترجم هذه الأسماء التى ترجع إلى التاريخ القديم والتى لم يتوقف عندها البيزنطيون فإننا نتأكد مما رواه الكتاب العرب. ونستخلص أن كرينيتى كان مستمراً فى تجارته حتى سنة تسعمائة وخمس وأربعين على الأقل، لأن الامبراطـور الذى خلـعه من منصبه وصادر أمواله التى كسبـها استـغلالاً هو قسطـنطين بروفيروچنيتو[2].

لقد صارت مستوطنة صقلية فى هذه الفترة القصيرة نهباً للشعوب القريبة. فيبدو أن ابن عطاف وابن الكوفى اللذين ولاهما خليل لدى عودته إلى أفريقية قد صـــارا رئيس الشرطة ورئيس الجبـــاية ولم يكن لأيهمـا لقب أمير مثل سالم قبل ذلك بقليل: فأخبار صقلية تقول عن كل منهما أنه متولى أى المفوض وتعنى حـــرفياً «مندوب الوالى»[3]. ومن الجـــائز أن يكون ابن أشعث قد خلف ابن الكوفى سنة تسعمائة وأربـــع وثلاثين ويبدو أنه كان جـــابى الأموال، ويبـــدو أن ابن العطاف، متولى الشرطة، نال سلطات أوسع فى سنة تسعمائة وخمس وثلاثين عندما كان الخليفة الفاطمى يوشك على السقوط

بالنســبة لكالديــــا، قســـطنطين برفيروچنيتـــو، *De Thematibus*، ص ٣٠، و*De Administrando imperio*، ص ١٩٩ و٢٠٩ و٢٢٦ فى طبعة بون.

(1) شيدرينو، طبعة بون، المجلد الثانى، ص ٣٥٧.

(2) شيدرينو، الموضع المذكور، استعاد قسطنطين قيادة الإمبراطورية فى ديسمبر ٩٤٤.

(3) *Cronica di Cambridge*، الموضع المذكور. أحسن راوى الأخبار صنعاً بأن ذكر لقب امير بالنسبة لكل السابقين وحتى سالم، ولم ينس هذا عند حديثه عن حسن بن على الكلبى بعد ذلك بقليل.

فى أفريقية وبدأ الهمس واللمز فى بالرمو(1). ولكن الضعف الذى يسم به المصنفون ابن عطاف كان مرجعه فى الواقع إلى قلة سلطة وظيفته بحيث كان لا يستطيع تسليح الشباب، وإعطاء الرواتب، وأن يقاوم الكفار وأن ينتزع منهم الجزية أو أن يجمع الغنائم والأسرى. كان القائم قد اقتفى نهج أبيه فجعل الحكم مركزياً فى أفريقية بشكل كبير وأضعف المستوطنة بأن انتزع منها المبدأ الحيوى للمجتمع الإسلامى وهو مبدأ الجهاد: وهو الخطأ الدائم الذى يقترفه المستبدون فيتركون الشعب بين الموت والحياة حتى يأمنوا جانبه. وهذا هو ما يضر بالشعب ويضر بالمستبد ولا يمنع الثورات، ذلك لأن الرغبة فى الثورة ستواتى المظلومين دائماً ولأن المستبد لن يستطيع تحاشيها دائماً. كانت بالرمو أقل المدن الإسلامية فى

---

(1) النويرى، فى كتاب دى جريجوريو، ص ١٥، دون أن يذكر اسم ابن الكوفى. وحسب الترجمة يقول النويرى: «السنة ٣٣٤، *"Præfectus electus fuit Mohammed-ben el Ashaat, qui usque ad annum 336 leniter gessit imperium"* ولكنه ينبغى تصحيح هذا حسب النص ليكون كالتالى: «وأصبح والياً على صقلية سنة ٣٣٤ محمد بن الأشعث؛ واستمر ابن عطاف فى عمله حتى ٣٣٦». إن غموض هذا النص هو الذى دفع م. كوسين إلى اعتبار اسم العلم «عطاف» اسماً أو صفةً وأن العبارة ليست صحيحة نحوياً، وهذا يرجع إلى تشكك المصنِّف الذى وجد اسمى حاكمين فى الوقت نفسه فافترض أن يكون أحدهما والياً حتى سنة ٣٤ وأن يكون الآخر قد اجتمعت له كل الأمور حتى سنة ٣٦. وعندما وجد ابن الأثير - على ما يبدو - الصعوبة نفسها فى الأخبار فإنه فضل السكوت. فلم يتحدث عن الآخرين أو عن الفترة التى تولى فيها ابن عطاف الحكم. ولما كان عليه أن يذكر اسمه لم يزد عليه أى لقب. وإذا أردنا أن نتبع النويرى بغض النظر عن غموض كلماته وعن سكوت *Cronica di Cambridge* وابن الأثير، يمكننا أن نفترض أن ابن الأشعث صار أميراً فى سنة ٣٤ وأن ابن عطاف تولى الحكم من سنة ٣٥ إلى سنة ٣٦. ويقول رامبولدى، المجلد الخامس، ص ٢٥٦، تحت سنة ٩٤٥، واستشهد به مارتورانا، فى المجلد الأول، ص ٢١٧ فى الهامش رقم ١٣، يقول إن محمداً بن الأشعث كان معلماً للمنصور. ولا أعتقد أن الكتب الموجزة التى كانت لديه قد زودته بهذا الخبر. واستطيع أن أفترض - من طريقة كتابته - أن هناك مفارقة تاريخية ضخمة جعلته يخلط بين ابن الأشعث هذا ومؤسس المذهب القرمطى. الذى أشرت إليه فى الكتاب الثالث، الفصل الخامس، ص ١٢١ من هذا المجلد.

معاناتها من حرب خليل. لم يتحمل الأشراف والفقهاء والعامة الخسة والنذالة واستنهضتهم المستجدات التى حدثت فى أفريقية حيث كان أبو اليزيد يحارب، فلم يستكينوا فى سنة تسعمائة وسبع وأربعين فى نهاية رمضان، عندما تؤدى الممارسات الدينية وتوافد الناس على الميادين بكثافة، إلى إلهاب حماس المسلمين.

وأثناء العيد الذى حل فى الأول من شوال سنة ثلاثمائة وخمس وثلاثين (٢٤ أبريل ٩٤٧) قام بنو الطبرى، وهى أسرة من أصل فارسى كان لها شأنها فى المجلس الذى يقوم على إدارة شئون بالرمو، قاموا بإثارة جلبة على ابن عطاف صائحين بأنه بسبب جبنه وقلة حيلته يدوس المسيحيون على المسلمين ويهزءون بالعهود ولا يدفعون الجزية من سنوات عديدة. سار الشعب فى ركابهم: ولما خرج ابن عطاف إلى الميدان ومعه عسكره، اختلط الحابل بالنابل وتم تفريق العسكر وتشتيتهم وقتل عدد كبير وتم الاستيلاء على رايات عطاف وألواحه، حتى إنه وصل بالكاد إلى القلعة وأغلق دونه أبوابها. وعاد الأهالى إلى ديارهم دون أن يضغطوا عليه بأكثر من هذا. فكتب عطاف إلى الأمير الرسائل المعتادة، بأن يرسل فرقاً من الجنود حالاً حالاً. وتدبر زعماء الفتنة من جانبهم فيما ستؤول إليه حرب أبى اليزيد وفيما يعتزم المنصور عمله فى صقلية. ولما علموا بأنه على وشك أن يولى حسن بن على أمور حكم الجزيرة، سافر على بن الطبرى ومعه رجال آخرون إلى المهدية ليطلبوا أن يولى أميراً يرتضونه بدلاً من حسن. ورأوا أن يحققوا هدفهم هذا سواءً باللين والرضا أو بالقوة وأوصوا مناصريهم فى بالرمو ألا يدعوا حسن يدخل المدينة ولا أن ينزل أتباعه من السفن، وأن ينتظروا الرسائل التى سيكتبونها إليهم من أفريقية بعد مقابلتهم للمنصور(1) وحديثهم إليه. ويرجع هذا الحدث إلى صيف سنة

---

(1) قارن بين: ابن الأثير، سنة ٣٣٦، وابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٦٥ وص ١٦٦ وإشارة النويرى المقتضبة فى كتاب

تسعمائة وثمان وأربعين، عندما تهيأ لمنصور، بعد إخماد آخر بقايا التمرد فى أفريقية، أن يفكر فى صقلية(1).

على عكس الأمراء الذين جاءوا من قبل لتولى أمور صقلية، أبحر الحسن بن على من أفريقية بسفن قليلة: ونزل فى مازارا بلا ضجيج وبقى بها طوال اليوم وكأنه فى محجر صحى؛ فلم يأت أحد للترحيب به. وعندما جن الليل ظهرت مجموعة صغيرة من الكتاميين وعرب أفريقية(2) وآخرين متعللين بعدم تجرؤهم على الحضور قبل هذا خوفاً من بنى الطبرى وأتباعهم وأبلغوه بالسفارة إلى أفريقية وبتعليمات بنى الطبرى. ولم يمض وقت طويل حتى

دى جريجـــوريو، ص١٥. إن فقـرة هذا المؤلف التى ترجمهـــا دى جريجوريو على النحو التـــالى: *"De perturbato rerum Siciliensium statu, et quod in earum administratione nonnulla vitia irrepsissent;"* وترجمهـــا م. كوســــين: *"La peine que lui donnaient les habitants et le mauvais état des affaires,"* ويمكن أن تصحح على النحو التالى: «أن الصقليين كانوا يتحمسون ويميلون إلى الشر»؛ أى إنهم كانوا يستعدون للثورة.

(1) لا يذكر ابن الأثير الذى استقينا منه تفاصيل هذه الأحداث وتفاصيل الأحداث التى وقعت بعد وصول الحسن إلى صقلية، ولا يذكر تواريخ أخرى إلا تاريخ اضطرابات بالرمو فى الأول من شوال سنة ٣٣٥ واختيار حسن فى سنة ٣٣٦ (٢٢ يوليو ٩٤٧ إلى ٩ يوليو ٩٤٨). ولا يذكر كتاب *Cronica di Cambridge* تاريخاً آخر لوصول الحسن إلا سنة ٦٤٥٦ (الأول من سبتمبر ٩٤٧ إلى ٣١ أغسطس ٩٤٨)؛ ولكن أحد الأحداث التى يرويها بعد ذلك تجعلنا نفترض وصوله فى نهاية السنة بتقويم القسطنطينية. ومن ناحية أخرى نعلم (ابن حماد المذكور سابقاً فى صفحة ٢٠٢) أن المنصور وحتى نهاية جمادى الثانى سنة ٣٣٣ (يناير ٩٤٨) كان يعرض فى شوارع القيروان جلد أبى اليزيد المحشو؛ وأنه كان يريد أن يرسله فيما بعد ومعه رأس فضل إلى صقلية بصحبة الحسن، وأن القارب قد غرق، إلخ.

ويكتب ابن الأثير فى النهاية أن الخليفة قد عاد إلى المهدية فى رمضان ٣٣٦ (مارس إلى إبريل ٩٤٨) بعد مقتل فضل بن أبى اليزيد؛ ويبدو أنه لم يفكر فى أمور صقلية قبل هذا. ولكنى أعتقد أن وصول الحسن إلى صقلية يمكن أن يكون فى يونية أو يوليو ٩٤٨.

(2) يكتب ابن الأثير وهو الراوى الوحيد لهذا الموضوع: «أهالى أفريقية» وهو بلا أدنى شك يشير إلى العرب الذين وفدوا حديثاً من أفريقية. فقد كان المستوطنون يُطلق عليهم صقليون؛ وكان البربر والقتاميون تُطلق عليهم أسماؤهم.

وصلت فرقة منهم إلى مازارا لترى قوات الحسن وتعرف نواياه ومقاصده. ولما وجدوه بلا قوات، بحيث يمكنهم أن يطيحوا به كما يشاءون، قصوا عليه قصصاً خيالية: وتظاهر هو بتصديقها ووعدهم بأنه لن يتحرك قيد أنملة من مازارا إذا ما مضوا إلى بالرمو وعادوا بالإجابة: إذ من الجائز أنهم تذرعوا بأنه لابد أن تتخذ الجماعة قرارها. ولكنه ما أن علم بسفرهم حتى امتطى جواده وأخذ طريقاً آخر ومعه فرقة صغيرة ليذهب إلى بالرمو ويسبقهم إليها، حيث كان من الواضح أنهم سيجمعون كل مثيرى الشغب حتى يستنهضوا المدينة ضده. كانت هذه الجماعة تتشاور بهدوء ودعة ولعلها كانت تستهزئ بالحسن حين انتشر خبر وصول الأمير الجديد إلى بيدا، على أبواب المدينة. ويقول ابن الأثير إن الحاكم(1) والموظفين العموميين وكل أولئك الذين كانوا يتوقون لدولة جيدة، ولا يبدو أن المقصود هذه المرة ليسوا هم الجبناء والمستسلمون، قد ذهبوا جميعاً للقائه؛ وكرّمهم الحسن واستعلم منهم عن أحوال المدينة واحتياجاتها، دون أن تظهر علامات العبوس المتعسف التى كانت تظهر عادة ولسنوات عديدة على قسمات الحكام. ولما علم إسماعيل بن الطبرى، زعيم طائفة الأشراف، بأن المدينة كلها قد خرجت لاستقبال الأمير لم يستطع إلا أن يذهب إليه مع الآخرين، وبادله الأمير الحفـاوة مثـل غيره أو ربمـا أكثر من غيره. ولما عاد إلى بيتـه شعر بأن خيوط المؤامرة تفلت من قبضته، وازداد غيظه عندما علم أن الحسن قد توجه إلى القصر وأن منافسى بنى الطبرى ومؤيديهم على السواء يقتربون منه. وفكر فى سبل بلبلة

---

(1) هذا ما يقوله ابن الأثير. كان هناك قاض لبالرمو. ولقب حاكم هو إذن لقب عام والمقصود به هنا قاض، أو أنه مستخدم لأن كرسى الحاكم كان شاغراً فى ذلك الوقت وبدلاً من القاضى الذى يختاره الأمير، كان الأمر يتعلق بآخر حل محله. وقد أطلق لقب حاكم بعد الفتح النورماندى على رئيس الإدارة البلدية فى مالطة؛ ولكن يبدو لى هذا أمراً عارضاً، نشأ عن الحكم المسيحى.

الرأى العام وبدا له أن أفضل طريقة هى الافتراء عليه. حملق أحد رجال المدينة، من أتباعه، فى زنجى من زنوج حرس الحسن وكان معروفاً بأنه رجل شجاع ولهذا يحبه الأمير، واقترب منه بطريقة معسولة ودعاه لدخول داره، وعندما جذبه إلى الداخل، قفز خارجاً وهو يصرخ: «النجدة، النجدة، لقد اقتحم هذا اللص مسكنى ويريد اغتصاب زوجتى تحت ناظرى». وجذبت الضجة الشعب، ولم يغب إسماعيل عن الانضمام إلى الجموع وهو يتمتم: «بداية طيبة! ليسوا أصحاب البلد، ويعاملوننا هكذا! وماذا ننتظر منهم إذن عندما تمتد جذورهم ويثبتوا فيه؟» وأخذ يوحى بضرورة الذهاب لمطالبة الأمير بالقصاص؛ إذ توقع أنه لن يوقع القصاص، وأن الشعب سوف يثير الاضطرابات وسوف يطرد الحسن. وأخذ العامة فى الاستهزاء وفى عدم الكف عن الشغب واقتادته إلى الأمير، فيستمع فى انصات وهدوء إلى الشكوى، ثم يجيب على ذلك الرجل: «إذا كنت تقول الصدق، فاقسم بذلك أمام الله» وإذ أقسم ذلك الفاجر، أمر فى الحال بفصل رأس العبد. وأمام هذا الحكم غير المتوقع ابتهجت المدينة كلها قائلين: «ها هى المرة الأولى التى يحكم فيها بالعدل؛ الآن نستطيع أن نحيا آمنين فى بالرمو». وانكمش إسماعيل وانطوى على نفسه(1).

وكان الحسن، وكأن شيئاً لم يحدث، يعامله معاملة طيبة مثل رؤساء الفرقة الآخرين، واستمرت هذه المهزلة حتى أواخر سنة تسعمائة وثمان وأربعين. وعن نهاية هذه القصة هناك روايتان: الأولى يرويها ابن الأثير ومن الواضح أنها مكتوبة فى مدونات تاريخ أفريقية الإسلامية؛ والثانية شهادة مباشرة أدلى بها أحد الصقليين المسيحيين أو على الأقل من أصل مسيحى؛ والأولى تروى لب

(1) ابن الأثير، سنة ٣٣٦؛ ابن خلدون *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٦٦. حيث نجد دائماً اسم «طبرى» بدلاً من «مطير» وهو خطأ فى المخطوطة التى ترجمها م. دى ڤرجيه.

الحدث، والثانية الشكل والمظهر الذى كسته به الدولة. وطبقاً للرواية الأولى فإن الخليفة قد احترس بلا شك من رسل الفرقة وقد علم بأن الأمور تسير سيراً طيباً فى بالرمو، وعندئذ أمر بالقبض عليهم فى أفريقية: وكانوا هم: على بن الطبرى، ومحمد بن عبدون، ومحمد بن جنا وآخرون أقل شأناً، وكتب إلى حسن بأن يقبض على رفاقهم؛ ووجد حسن أن هذه العملية شاقة فقام بها على حين غرة وغدراً. وتروى أخبار تاريخ البلد على النقيض من هذا أن جماعة بالرمو كانت تدبر مؤامرة ضد الحسن، وأنه أخذهم على حين غرة واصطادهم فى شبكة واحدة: هذه هى بالضبط الكلمة التى قد نقول إنهم سرقوها من العبيد المعتوقين الذين كانوا يكتبون أخبار الأمويين فى أسبانيا ويخففون بها جرائمهم(1). ولكن من الواضح أن الروايتين تتكاملان مثل أجزاء كتابة قديمة شاء القدر أن يتم العثور عليها فى أزمنة مختلفة. ففى الخامس والعشرين من ديسمبر سنة ثمان وأربعين(2) أرسل الحسن لإسماعيل بوصفه رفيقاً طيباً يقول له: «لقد وعدتنى أن تصطحبنى للتنزه فى حديقتك، تعالى إذن إلى القصر لنذهب معاً». وأرسل رسالة مماثلة باسم إسماعيل إلى أشراف الجماعة الآخرين. وعندما دخلوا جميعاً دون أن ينتابهم أى شك وتركوا الحراس الذين

(1) أوحت لى بهذه المقارنة الدراسة التى قام بها الأستاذ دوزى، عن مصادر تاريخ المسلمين الأسبان، *Histoire de l'Afrique etc*. المعنونة **البيان المغرب**، المقدمة، ص ١٦ وما بعدها.

(2) تقول أخبار كامبردج التى تذكر فقط التاريخ والعقوبة «عندما حل يوم الميلا» وكان يوم الاثنين، الأمير إلخ» واللفظ الذى نقلته عن العربية والواضح فى المخطوطة يعنى يوم عيد ميلاد المسيحيين، ولذا فلابد من إضافة حرف «د» فى نهاية الكلمة حيث وضعت علامة التنصيص. أما الناشرون الأوائل فقد حذفوا حرفاً آخر وكتبوا «الميعاد». ولكن هذا اللفظ بالإضافة إلى كونه غريباً، يغير معنى الحدث إذ يجعل ابن الأثير يروى لنا ترتيب الخيانة فى القصر ولا يذكر تاريخ اليوم؛ وليس من المحتمل أن يكون الراوى قد أغفله بينما يذكر اسم اليوم. وقد وقع عيد الميلاد فى سنة ٩٤٨ فى الواقع فى يوم الاثنين.

يتبعونهم عند بوابات القصر، استبقاهم الأمير بحديثه الحاذق وكرمه حتى ساعة متأخرة، ولم يظهر خارج الأسوار إلا المرح والحبور؛ ثم طلب من الرفقاء أن يقضوا تلك الليلة فى الاحتفال معه وأن يمضوا معاً فى الغد إلى إقطاعية بنى الطبرى وجعلهم يصرفون أتباعهم إلى بيوتهم على أن يأتوا فى الغد لأنهم باقون ضيوفاً على الأمير. ولم تساور أحدهم الشكوك فللضيافة حرمتها وقدسيتها. وفى الغد ظهرت جثثهم معلقة على الأعمدة وقد قطعت أيديهم وأقدامهم. وكان هؤلاء هم إسماعيل بن الطبرى، ورجا ابن چنا، وشخص يُدعى محمد وآخرون كثيرون لا يوجد ذكر لأسمائهم(1). وبعد القضاء عليهم صودرت أملاكهم. وبعد أن تمت هذه الضربة، ازداد أنصار الحسن، ونال حكمه الاستحسان العام من جانب الأهالى؛ واستراحت الجماعة من الاضطرابات واستعادت روحها وهمتها: هذا ما تقوله الأخبار حرفياً(2). ويفهم من هذا أن هذه الفعلة المفيدة لم يؤيدها من حررها وحده ولكن من رآها وربما الجانب الأكبر من الشعب الذى أفاد منها. فإذا ما غضضنا الطرف عن عادات تلك الأزمان وعن إعجاب العامة بالنصر وعن الحقد الذى أرضى هذا وذاك فلا يمكن إنكار أن الجريمة التى اقترفها الحسن عادت بالفائدة على عامة الناس، لأن الطبريين والچنا

(1) يجب أن أنبه إلى أن ابن الأثير الذى أخذنا منه الأسماء يروى قصة الغدر والقبض والمصادرة ولا يروى القتل ولا يذكر لقب محمد وعشيرته بل يترك مكانه دون كتابة فى إحدى المخطوطات ولا يوجد إطلاقاً فى المخطوطتين الأخرتين. أما أخبار كامبردج فتذكر عملية اغتيال من «وقعوا فى الشبكة» ومن بينهم شخص يُدعى مريش ورفاقه. وهذا الاسم كتبه المترجم الإنجليزى قريش، ولكن المدونة تذكر بوضوح الحرف الأول ميم. ولم أكتب هذا الاسم فى النص إذ بدى لى أنه كنية وأنه يشير بالضرورة إلى رئيس الجماعة أى إلى إسماعيل بن الطبرى؛ وتؤكد هذا - على ما أرى - معانى لفظ مريش التى ذكرها منيمسكى، وهى سهم رائش ونوع من أنواع التفاح. ومريش اسم من الأسماء التى تُطلق على الأسد.

(2) قارن بين: *Cronica di Cambridge*، وابن الأثير، وابن خلدون، المواضع المذكورة.

الساعين إلى المصلحة العامة، وإنما كانوا مستبدين صغاراً يتصارعون فيما بينهم ومع مستبد أكبر حول حق قهر الناس البسطاء. ومن هنا نستطيع أن نقول نحن أيضاً: إن المغلوبين أهل لهذا. ولكننا لا نبرئ الغالب الذى بادر فى مازارا بالكذب والخداع، وعقب على دخوله بالرمو بالقصاص من جندى برئ، واستكمل عمله بتحويل داره إلى شَرَك وسلاح العدل إلى الغدر والخيانة. كيف كان ينبغى على حسن أن يبحر بين هاتين الصخرتين، نترك حل هذه المعضلة لدارسى الحالات والأزمات. أما العبرة التى نريد أن نستخلصها فهى أن الدول التى لا تنتظم طبقاً للمساواة والحرية لا تملك علاجاً لأحوالها السيئة إلا وكان شراً مستطيراً.

الفصل الحادى عشر

ومع انتهاء الصراع من أجل الاستقلال فى هذا الوقت ومع بداية فترة خاصة بالعبادات، من المفيد أن نذكر العناصر الحضارية التى ظلت باقية.

تظهر أحداث المسيحيين فى النصف الأول من القرن العاشر أنهم كانوا يتمركزون فى الجانب الشرقى من الجزيرة. نعم كان إبراهيم بن أحمد قد دمر قلاعهم، ولكن الحروب الأهلية حالت دون أن يقيم المسلمون مستوطنات لهم فى تلك الأنحاء. ولكن لا يوجد أثر لأى أرض فى ڤال ديمونى أو ڤال دى نوتو فى تاريخ خليل الدموى أو فى ثورة أخرى من ثورات المستوطنات حتى سنة تسعمائة تسع وستين؛ ولكن فى حرب مانويلى فوكا (٩٦٤) نزل البيزنطيون بطول الساحل من مسينا إلى لنتينى وكأنهم ينزلون فى أراض صديقة. ولقد شبت هذه الحرب لأن المسلمين كانوا يريدون الإقامة وامتلاك أراض فى شرق صقلية(1).

تحولت المنطقة إلى منطقة بائسة موحشة، بالرغم من طبيعتها، فى ذلك الوقت الفاصل بين عصرين، عندما ترك الحكم البيزنطى بها - وهو ينصرف عنها - تراثاً بائساً من مساوئه الإجتماعية، وبدلاً من أن يكون المسلمون أصحابها الحقيقيين كانوا أعداءها الذين يتمتعون بحرية التنقل فى الإقليم. ومن المؤكد أن الزراعة قد اختفت بالضرورة باختفاء الأهالى الذين قل عددهم بسبب مذابح إبراهيم والهجرة إلى كلابريا وبلاد مسيحية أخرى؛ والدليل على هذا المجـاعة التى استمرت ردحـاً طويلاً من الزمان وعدم إمكان

(1) انظر الكتاب الرابع، الفصل الثالث.

نصف الجزيرة أن تنقذ من المجاعة نصفها الآخر الذى يرزح تحت سيف الحروب الأهلية(1). ومع اختفاء الثروات والسكان أخذت آخر بقايا الثقافة فى الاختفاء، ولهذا لا يوجد أثر فى هذا الوقت لكتاب صقلية المسيحيين(2).

ويبدو أن الديانة نفسها قد فقدت فى الأقاليم الشرقية الدلائل الخارجية التى تدل على أن النبات مازال حى إن لم تكن قد فقدت الأمل والرجاء وهو جذرها وأصلها. وفى الواقع لا توجد مذكرات كنسية عن تلك الفترة. ولا توجد أى سيرة من سير القديسين فيما عدا المؤلف المجهول لحياة القديس نيتشفورو أسقف ميليتو الذى يتحدث بشكل مبهم عن وجود عدد كبير من «أصحاب الرؤى الإلهية» الذين عاشوا فى صقلية (٩٦٤) يذكر منهم فقط براسّيناكيو؛ وهو كما يبدو كان متوحداً يقيم فوق مضيق مسينا، وهو رجل معروف بمحبته وبتنبئه بهزيمة مانويلى فوكا(3). وهذه الكثرة من المتنبئين هى دلالة واضحة على البؤس السائد والذى لا يجد له العقل البشرى مخرجاً ويرجع إلى هذا الجيل، أو إلى الجيل السابق، إيبّوليتو أسقف صقلية، ولا نعرف المدينة، والذى كتب تنبؤات شديدة الغموض عن سقوط السلطة الإسلامية ذاعت ذيوعاً كبيراً فى القسطنطينية فى فترة حكم ليوتبراندو الثانية.

ولا ينبغى أن نترك هذه التسمية الغريبة «أسقف صقلية» دون ملاحظة. فهذه التسمية تظهر فجأة فى منتصف القرن العاشر. وبالإضافة إلى ليوتبراندو تستخدمها أخبار كامبردچ عند

(1) الفصل العاشر من هذا الكتاب، ص ٢١٠ - ٢١١، من هذا المجلد.

(2) لا يرجع إلى تلك الفترة المؤلف المجهول الذى كتب حياة القديس نيتشفورو أسقف ميليتو الذى سنتحدث عنه توا. عاش هذا المؤلف، وربما يكون صقلياً، فى النصف الثانى من القرن العاشر. ويوجد النص اليونانى فى مكتبة الإمبراطورية بباريس، رقم ١٨١؛ ونشر م. هاس فقرة فى هامشه عن ليونى دايكونو، طبعة بون، ص ٤٤٢.

(3) ليونيس دياكونى كالونسيس، الموضع المذكور. يقول المجهول أن الرّائين قد ازداد عددهم فى صـقلية بفضـل الله شـأنهم فى ذلك شـأن كل منتجات الأرض (πλεονεκτεῖ γὰρ καὶ τῇ
Τὸ δὲ καὶ ἀπό τινος τῶν ἐν τῇ χώρᾳ δεσποτικῶν
τούτων φορᾷ τῆς ἄλλης εὐθηνίας οὐκ ἔλαττον.)

حديثها عن رجل يُدعى ليونى أرسِل رهينة إلى بالرمو سنة تسعمائة وخمس وعشرين(1)؛ ومن هنا يتضح وجود هذين الكاتبين اللذين يكرران نفس القول الذى كان شائعاً فى صقلية والقسطنطينية فى سنة تسعمائة وثمان وستين أثناء حياة كليهما. ومن المؤكد أن الرتب الكهنوتية لم تتغير فى المقار الصقلية: ولكن إذا افترضنا بقاء مقر أسقفى واحد فإن الأسقف لابد أن يسمى أسقف صقلية وليس أسقف هذه المدينة أو تلك. ولعله كان أسقف تاورمينا.

وإذا ما جمعنا معاً هذه الدلالات فإنها تشير إلى العدد القليل الذى آل إليه اليونانيون والإيطاليون فى صقلية الشرقية والحياة الشاقة البائسة التى تحيط بها المخاطر التى كانوا يعيشونها. كانت المدن المستقلة قد تحولت إلى مدن تدفع الجزية بعد حرب إبراهيم بن أحمد، وانفصمت كل رابطة من روابطها مع الإمبراطورية البيزنطية، وخاصة بعد توقيع الإمبراطورية معاهدة سلام مع الخلفاء الفاطميين(2). ويعترف كوستانتينو بروفيروچنيتو فى الواقع، عند وصفه للأقاليم بأن جزيرة صقلية قد ضاعت وبأن مدنها كما يقول «قد هُجر بعضها، ويسيطر السراسنة على بعضها الآخر»(3). وإذا ما تبقى ذكر لصقلية فى تقويم البلاط فإن المقصود بها فقط هى كلابريا التى كانت جزءاً منها فى وقت من الأوقات، وكان البيزنطيون يجدون عزاءً لهم على أحوالهم

---

(1) ليوتبراندى لجاتسيو، فى كتاب موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الثانى، الجزء الأول، ص ٤٨٥. *Hippolytus quidam Siciliensis*، *episcopus* فى أخبار كامبردج المذكور فى الفصل الثامن من هذا الكتاب، ص ١٧٩ يذكر: «ليونى أسقف صقلية»؛ ولا تسمح الكتابة العربية بتفسير العبارة بـ «أحد أساقفة صقلية».

(2) انظر الفصل السابع من هذا الكتاب، ص ١٧٣.

(3) *De Thematibus*، ص ٥٨، طبعة بون، المجلد الثالث من أعمال قسطنطين:

καὶ τὰς λοιπὰς πόλεις τὰς μὲν ἠρημωμένας, τὰς δὲ κρατουμένας παρὰ τῶν Σαρακηνῶν.

بأن يطلقوا ألقاباً فخمة سامية على واقع بائس؛ ومن هنا أطلقوا على الحاكم قائد صقلية الأعلى، وقائد كلابريا الأعلى ودوق كلابريا(1). وكان السكان الخاضعون للجزية فى صقلية يخضعون بالضرورة لإدارة بلدية(2)، وكانوا يدفعون الجزية عندما كانوا لايستطيعون رفض دفعها دون أن يقع عليهم العقاب، وكانوا يقومون بتعلية الأسوار فى غفلة من المسلمين، ومن وقت لآخر كانوا يحاولون المقاومة إذا ما اتيحت الفرصة لهذا أو إذا ما استفزهم بغى الغالبين وظلمهم. كان هذا هو حال تاورمينا، وكان حال بعض قلاع ڤال ديمونى. وليست هناك إشارة إلى ڤال دى نوتو بعد سقوط سيراكوزا ومدينة إتنا. وربما أن السكان الذين بقوا فيها بعد سياقة الآلاف منهم أسرى فى أجزاء أخرى من الجزيرة(3) أو خارجها كان من القلة والتشتت بحيث لم تجرؤ على عمل شئ ولم يذكرها أحد.

ومما يؤكد هذا الافتراض كثافة السكان العالية فى الجانب الغربى من نهر سالسو؛ ولا يكفى لتبريرها لا الهجرة من أفريقية ولا الزيادة الطبيعية لشعب ينمو. فلاشك فى هذا الأمر. وعندما جاء ابن حوقل إلى بالرمو فى سنة تسعمائة واثنين وسبعين ذكر أرقاماً تدل على أن سكان العاصمة كانوا أكثر من ثلاثمائة ألف نسمة(4). وكان خليل، قبل ذلك بثلاثين سنة، قد قتل أكثر من ستمائة ألف شخص فى ڤال دى مازارا مع استبعاد بالرمو التى لم تجد تلك النفس المتوحشة ذريعة لصب جام غضبها عليها. فإذا ما افترضنا

---

(1) كوستانتينو بورفيروچنيتو، المرجع المذكور، ص ٦٠؛ و *De administrando imperio*، ص ٢٢٥.

(2) الكتاب الثانى، الفصل الثانى عشر، ص ٥٢٤، ص ٥٢٥ من المجلد الأول.

(3) الكتاب الثانى، الفصل السادس والفصل التاسع من المجلد الأول، ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦، وص ٣٨٧، وص ٤٦٨.

(4) *Journal Asiatique*، المجموعة الرابعة، المجلد الخامس، ١٨٤٥، ص ١٠٥ الهامش رقم ٩.

على هذا الأساس أنه خلال أربع سنوات (٩٣٨ ـ ٩٤١) قد تم القضاء على ثلث سكان المنطقة المسلمة أى ڤال دى مازارا بما فيها بالرمو، فلابد أن عدد سكانها قبل سنة تسعمائة وثمان وثلاثين كان يبلغ مليونين وهو إجمالى عدد سكان الجزيرة الآن. وكان أقل من نصف السكان مسلمين(1).

أما عن الأجناس والسلالات فإنى أعتقد أن جانباً كبيراً من هؤلاء السكان كانوا من سكان كل صقلية القدامى، واقتصرت إقامتهم على ڤال دى مازارا وكانوا عبيداً محررين أو موالى ورقيقا مسيحيين ومنكرين الإيمان ويهود:(2) وكان اليهود يقيمون فى المدن أما الآخرون فيقيمون فى المدن والاقطاعات. وليست هناك ضرورة لأن نكرر ما سبق أن قلناه عن جماعة المسلمين القدامى. ولكن المسلمين الذين قدموا من أفريقية فى النصف الأول من القرن العاشر كانوا من ثلاث فئات: الصناع والجنود والهاربين. وليست هناك ضرورة للجوء إلى الشهادات بالنسبة للفئة الأولى خاصة أن ما بقى منها قد يكون قليلاً: إلا أن هناك مذكرات سعيد بن حداد، وهو من أسرة من الصناع كما يبدو من لقبه، وقد توفى أخوه فى صقلية تحت حكم إبراهيم بن أحمد وترك له أربعمائة دينار كسبها كما يبدو من أعمال صناعته(3). وقد أرسلت منذ سنة تسعمائة إلى سنة تسعمائة وتسع وثلاثين أربعة جيوش ضخمة للاستيلاء

(1) انظر الكتاب الرابع، الفصل الثالث حول السكان المسلمين فى سنة ٩٦٢.

(2) كانت توجد فى بالرمو ضاحية لليهود. ابن حوقل فى *Journal Asiatique*، المجلد المذكور، ص ٩٧.

(3) **رياض النفوس**، الورقة ٧١ الوجه الأول. توفى سعيد سنة ٣٠٢. ويضيف كاتب الترجمة أنه لمس الدينارات بفضل إبراهيم بن أحمد، ولا نعلم إن كان ذلك قد جرى لإلغائه إحدى المصاعب الخاصة بالضرائب، أم لأنه جعله يدفع الأربعمائة دينار خصماً من ثروته فى القيروان. وأنفق سعيد، الذى كان معتاداً على حياة متقشفة للغاية، ٢٠٠ دينار ليبنى له داراً، و٥٠ ديناراً للملابس، و٥٠ ديناراً لشراء السجاجيد وأوانى الطهى وأدوات منزلية أخرى، واحتفظ بمائة دينار للإنفاق منها على حياته،

على الحكم فى صقلية. ومرَّ جيش آخر (٩٠٢) وفرق أصغر كثيرة بصقلية أثناء انتقالهم إلى كلابريا. ولكن من هذا الكم الضخم من الجنود البربر والزنوج والسلاف وعرب أفريقية الذين نزلوا فى الجزيرة على مدى أقل من نصف قرن مات بعضهم ورجع أدراجهم آخرون ولم يبق منهم للإقامة فى الجزيرة إلا جزء يسير على ما نفترض؛ ولدينا دليل على هذا ولكنه خاص بالسلافيين فقط الذين أطلقوا اسمهم على أكبر أحياء العاصمة(1). ويبدو أن أهم وأكبر هجرة من حيث العدد ونوعية الرجال كانت هى هجرة أنصار بنى الأغلب والسنيين المتحمسين الذين كانوا يهجرون أفريقية، خوفاً أو عناداً، عند تغير الأسرة الحاكمة وبسبب ألوان الاضطهاد التى كانت تعقب هذا. فكانت صقلية منفى لهم باعتبارها بلد أبعد ما يكون عن عيون الحكام المتشككة وبصفتها بلد كان يكره الفاطميين ويعيش فى حالة ثورة واضحة مكشوفة إلى حد ما.

وبعد أن زاد السكان، وتوقفت حروب الفتح، بدأت الدراسات تورق وتزدهر وتأتى أيضاً بثمارها. فبعد أن أصابتها وعطلتها حروب الاستقلال بضجيجها وقرقعتها أخذت المبادئ الحضارية التى تصاحب الحركات السياسية فى بعثها وجعلها تسبق يقظة القرائح والعقول أو تلحق بها عن قرب. وكان الاتصال الوثيق مع المهزومين، والتربية التحررية للهاربين واللاجئين من أفريقية وعلومهم ومعارفهم وإرسال الفقهاء لتولى مناصب القضاء كل هذا شجع الدراسات والبحوث.

وإذا بدأنا بآثار الحضارة القديمة الخاصة بالبلاد، فإننا

ذلك أن ربع رطل من اللحم كان يكفيه لمدة أسبوع. وكان يقول: «فى اليوم الأول أشرب مرق العظم، وفى اليوم الثانى مرق أربطة العضلات، ومن اليوم الثالث إلى اليوم السادس أطباقاً من البنجر المخلوط بالفول أحياناً وبالحمص أحياناً، وبالجزر أحياناً أخرى؛ وفى اليوم السابع آكل اللحم!.

(1) ابن حوقل، *Journal Asiatique*، المجلد المذكور، ص ٩٣.

نذكر المصنَّف الذى قام بكتابته عالم صقلى فى مادة الطب بعنوان الخلافات. كان اسطفان المسيحى السورى قد كتب مسودة هذا العمل فى بغداد نحو منتصف القرن التاسع، ولأنه كان يجيد اللغة أكثر من إجادته للعلم فقد ترجم الأسماء البسيطة الواضحة، ونقل الأسماء الأخرى بالحروف العربية عن الاسم اليونانى دون أن يذكر مقابلاً عربياً له. ولهذا أبدى الأطباء الذين ازدهروا تحت الحكم الأموى فى أسبانيا، استياءهم من هذه الترجمة غير الدقيقة، وذلك عندما جرى اتفاق بين رومانو إمبراطور القسطنطينية وعبد الرحمن الناصر لدين الله الأموى سنة تسعمائة وثمانية وأربعين وأرسل له رومانو، من بين ما أرسل من هدايا، النص اللاتينى لتواريخ باولو أوروزيو ومخطوطة يونانية من الخلافات وبها منمنمات للنباتات. ولأن آمال علماء قرطبة كانت مهتمة بهذا، كما يروى لنا ابن جلجل الذى كان طبيب البلاط تحت حكم الخليفة التالى، فإن الخليفة عبد الرحمن طلب من رومانو مترجماً من اليونانية واللاتينية، فأرسل إليه فى سنة تسعمائة وواحد وخمسين الراهب اليونانى نيقولا وتمت مراجعة الترجمة أو أعيدت بالاستعانة بالصور والأشكال.

وينبغى إرجاع الفضل فى هذه الترجمة إلى أطباء عديدين من الأطباء العرب فى أسبانيا، وإلى العالم الطبيب اليهودى هسداى بن بسكروت والمترجم نيقولا وللصقلى أبى عبد الله الذى كان يتحدث العربية واليونانية وعلى علم بالطب، حتى إن الترجمة الفنية الشاقة قد تمت ولم يتبق من الألفاظ والمصطلحات لتدقيقها إلا نحو عشرة ليست لها أهمية كبيرة.

قال هذا ابن جلجل الذى عرف هذا الفريق فى شبابه وتردد عليهم. ولا يذكر عن الصقلى غير ما ذكرنا، ولكن يمكننا أن نستشف أنه كان من أصل يونانى دخل الإسلام حديثاً إذ لا نجد اسم أبيه أو لقب أسرته ولأن كثيراً ممن دخلوا الإسلام حديثاً كانوا غالباً ما

يتخذون اسم عبد الله(1). ويمكن أن نستنتج أن مساهمته كانت ذات أهمية كبيرة فيروى عنه فقط أنه كان يجمع بين المعارف الفنية واللغوية.

ومن الطب نقفز إلى القانون: إذ إن المذكرات التى لدينا لا تعطينا صورة أكثر اكتمالاً. ولا يمكن إذا كان القانون يعنى أساس كل حضارة من الحضارات، وإذا كان تحضر أوربا يرجع الفضل فيه إلى القانون الرومانى أكثر من فضل أى كتاب آخر أو مؤسسة أخرى، فإن دراسة القانون والحقوق اتسعت حدودها فى الإسلام وزاد تأثيرها الحضارى والأدبى أكثر مما حدث فى الغرب الوثنى أو المسيحى. لقد سبق أن أشرنا إلى أهمية فقهاء المسلمين السياسية فى القرنين الثامن والتاسع(2). كانت دراساتهم وأبحاثهم كلها تدور حول العلوم التى نطلق نحن عليها علوم الأخلاق والعلوم السياسية وتشمل جميع المعارف حتى الإلهيات وتستعين بفقه اللغة لتفسير القرآن، وتستخدم الترجمات أداةً لنقد الروايات الموروثة وتصل إلى أعتاب الرياضيات فى حساب الضرائب الشرعية والكسور فى تقسيم المواريث. ولكن لا يعيب أفريقية أنها لم تمارس بشرف علماً إلا هذا. وقد أوضح هذا العلم فى القرن التاسع أسد بن الفرات فاتح صقلية، وسحنون(3)، وكلاهما من مدرسة مالك. ولم يتأخر هذا العلم كثيراً فى العبور إلى صقلية من خلال تلاميذ سحنون، ومن بين هؤلاء التلاميذ رفع يحيى بن عمر بن يوسف، المتوفى فى

(1) توجد فقرة عن حياة ابن جلجل كتبها ابن أبى أصيبعة، النص العربى، والترجمة قام بها م. ساسى فى حاشية *Relation de l'Egypt par Abdallatif*، ص ٥٤٩ وما بعدها، وص ٤٩٣ وما بعدها.

(2) انظر الكتاب الأول، الفصل السادس، والكتاب الثانى، الفصل الثانى من المجلد الأول، ص ٢٢٢ وما بعدها وص ٣٢٢ وما بعدها.

(3) هذه كنية. أما اسمه الكامل فهو أبو سعيد عبد السلام بن حبيب بن حسان بن هلال بن بكار بن ربيعة، من قبيلة تنوخ العربية. هذا ما يذكره **رياض النفوس**، الورقة ٣٩ الوجه الثانى. قارن هذا مع ابن خلكان، النص الإنجليزى، المجلد الثانى، ص ١٣١.

سوسة سنة تسعمائة وثلاثة ولياً من أولياء الله الصالحين(1)، ومعلم الصقلى أبى بكر أحمد بن محمد بن يحيى، وهو قرشى مشهور بصلاحه(2). وجاء يحيى بن عمر بمؤلّف كبير أكثر فائدة من صوت هذا التلميذ وعنوانه «**أوامر الإيمان وشرائع الإسلام**»، وكان يُقرأ فى مدارس الشريعة فى صقلية وأفريقية. وكان يعرف بكتاب المعجزات. وأثناء حياة المؤلف باع أحد معتوقى الأغالبة جبته - وكان مصنفاً مجتهداً(3) - ليشترى رقاً قديماً(4) لينسخ عليه هذا الكتاب أو غيره من كتب يحيى بن عمر؛ وما أن انتهى من نسخ المخطوطة حتى قام أديب غيور فقير برحلة طويلة على قدميه رغبة منه فى قراءتها ونسخها. وبعد ذلك بسنوات طويلة رأى عالم من علماء الشريعة وكان من المعجبين والمتحمسين لكتاب المعجزات،

---

(1) انظر الفصل التاسع من الكتاب الثالث هذا من المجلد ص ١٩٥. ونستخلص تاريخ الوفاة من الموضع الذى وردت به الترجمة فى **رياض النفوس**، الورقة ٥٧، الوجه الثانى لقد أنفق يحيى بن عمر ستة آلاف دينار فى دراسة القانون. وذهب إلى أسبانيا فأطلق عليه لقب الأندلسى؛ وذهب إلى المشرق حيث درس، مثل كل من استطاع هذا، اللغة والشعر وهو يقطن فى خيام البدو بالجزيرة العربية. وأثناء ترحاله العلمى هذا الذى استمر سبع سنوات أنفق كل ماله تقريباً. **رياض النفوس** الموضع المذكور.

(2) **رياض النفوس**، الورقة ٧٩، الوجه الأول.

(3) لا أقصد أنه ناسخ فقط، كما قد يدل اللفظ فى العصور الوسطى، ولكنه كان رجلاً عالماً كثيراً ما صنف عن إملاء المعلمين. وقد تميز هذا على أقرانه من أفريقية بذاكرته الفذة ودقته المتناهية.

(4) يقول النص إن هذا، واسمه أحمد القصرى (أى نسبة إلى القصر القديم بالقرب من القيروان) لم يكن معه مال يشترى به ورقاً فباع جبته وبثمنها أشترى رقوقاً، وهذا اللفظ حسب المعاجم هو جمع رق، «ورق أو جلد رقيق». وتعريف اللفظ مبهم أو اختلف معناه باختلاف الأزمان والبلاد. ولكننا نقرأ فى المسعودى، *Biblioteca Arabo-Sicula*، ص ٢، أن حجر صقلية الخفاف كان يستخدم فى حك الكتابة بالدفتر وبالرقوق وبناءً على هذا يبدو لى واضحاً أن هذا اللفظ الأخير كان يعنى، فى القرن العاشر، «الرق القديم». أما اللفظ الذى استخدمته فهو ورق. ومن هنا نفهم جيداً أن الورق الجديد كان بالضرورة باهظ الثمن فى أفريقية وأغلى من المخطوطات اللاتينية والإغريقية، وهى بضاعة لا فائدة منها، بحيث كانت تُحك بالحجر الخفاف الصقلى قبل استخدامها. كم من المخطوطات القيمة القديمة قد ضاعت بهذه الطريقة!.

وكان صقلياً أو أقام بالجزيرة. رأى الكتاب فى الحلم منيراً بنور منبعث من السماء. إلى هذا الحد من التبجيل وصل الحال بكتاب يحيى وبالعلم الذى جد واجتهد فيه.

وكان فى بالرمو يقوم لمدة أربعة عشرة سنة بتدريس **المدونة**، وهو كتاب شريعة على مذهب مالك، معلم هو أبو سعيد لقمان بن يوسف، من قبيلة غسان العربية وانتقل إلى تونس سنة ثلاثمائة وثمان عشرة للهجرة (٩٣٠ - ٩٣١)؛ ومات شهيداً للعلم، إذا كان صحيحاً أنه مات بمرض أصابه فى ضلوعه بسبب ركن اللوح الذى كان معتاداً الكتابة عليه لشرح النص. ومن الملاحظ على هذا العالم أنه كان يملك ناصية اثنى عشر فرعاً من مختلف فروع العلم(1)، ولا يثير هذا الدهشة لاتساع الدراسات المتعلقة بالشريعة(2).

ومن بين تلاميذ سحنون تميز أبو عمرو ميمون بن عمرو بعلمه ونزاهته الصارمة فقد قدم لصقلية القدوة الصالحة فى فضائل القاضى. فعندما رقى من عضو محكمة المظالم بالقيروان إلى قاضى الجزيرة وعند رحيله إلى سوسه ليركب البحر التفت إلى مودعيه الذين كانوا يتمنون له رحلة طيبة وقال لهم: «أيها المواطنون، ها هى الجبة وها هى العباءة اللتان أرتديهما، وها هو خُرج كتبى، وهذه هى جاريتي الزنجية التى تقوم على خدمة دارى؛ بجبة وعباءة لا أكثر ولا أقل، تذكروا هذا، وسترون بأى متاع سأرجع من صقلية». ويروى بعد ذلك الصقلى سعيد بن عثمان أنه

---

(1) **رياض النفوس**، الورقة ٧٩ الوجه الأول.

(2) تقدم مخطوطة بمكتبة باريس، *Ancien Fonds*، تحت رقم ٢٧٧ الورقة ١٠٠ الوجه الأول وما بعدها نموذجاً فريداً على هذا. فهذا المصنف القانونى الذى يرجع للقرن السادس عشر يتناول فيما يتناول المياه الراكدة التى يجوز استخدامها فى الوضوء. ولأن هذه المياه لابد أن تكون بحجم معين فإن المصنف اعتبر نفسه مضطراً إلى الإشارة إلى الوسائل الجيوديسية لقياس سطح المياه الراكدة ويقدم لهذا مبحثاً طويلاً مزوداً بأشكال هندسية.

عندما وصل إلى بالرمو واصطحبوه إلى دار القضاة، وعندما رأى ميمون الدار أبى أن يدخلها قائلاً إنه لا يعلم كيف يتصرف فى قصر كبير مثل هذا، وأراد أن يذهب للإقامة فى بيت صغير. وفى هذا البيت الصغير، بلا حراس أو حُجّاب، عندما كان يقرع أحدهم الباب كانت الزنجية تجرى لتفتح الباب وتقول له «حالاً ستتحدث إلى القاضى»، وتناديه ثم ترجع إلى غزلها لتبيع خيطها لكى تغطى ما ينقص من نفقات سيدها. ومن نافلة القول أن نقول إن كان هذا القاضى محبوباً من المدينة بأسرها. ثم مرض. فلما رأى أصدقاؤه أنه لم يغادر البيت منذ ثلاثة أيام، ذهبوا لزيارته فوجدوه طريحاً، لافوق سجادة، وإنما على حصيرة من نبات البردى مصنوعة محلياً(1)، وكان يسند رأسه على حشيتين محشوتين بالتبن. وقال لهم باكياً إنه بقى فى مكتبه، والله شاهد على هذا، إلى أن خارت قواه؛ وإنه ما كان ليتركهم لو لم يصبه هذا المرض العضال الذى لا شفاء منه. وأراد أن يمضى ليموت فى وطنه. وعندما سافر كانت آخر كلمات ميمون لأهل بالرمو: «ليهبكم الله من بعدى من هو أفضل منى»، فدعوا له بالسلامة والشفاء. ولم ينس، عندما وطأت قدماه سوسة أن يشهد الناس على خُرج كتبه وملابسه وقد بليت وعلى جاريته ذاتها(2).

ومن المؤكد أن العلاقات السياسية مع أفريقية قد أثمرت لصقلية تجارة مفيدة من الأفكار والدراسات. ونذكر من بين تلاميذ سحنون

---

(1) أضيف هذا لأن ابن حوقل يتحدث عن بردى بالرمو فى *Journal Asiatique*، المجموعة الرابعة، المجلد الخامس، ص ٩٨.

(2) **رياض النفوس**، الورقة ٧٧، الوجه الثانى. ومع أننا نقرأ هذه الترجمة تحت سنة ٣١٦ فإن تاريخ ٣١٢ يبدو خطأ يجب تصحيحه حسب الترتيب الزمنى الذى يبدأ قبل ذلك بقليل فى **رياض**. وطبقاً لما جاء به الذهبى فى **كتاب العبر**، مخطوطة باريس، *Ancien Fonds*، تحت رقم ٦٤٦، المجلد الأول، تحت سنة ٣٢٠ وقعت فى هذه السنة وفاة ميمون وقد بلغ المائة عام من العمر وأصبح مشلولاً غير واع.

تلميذه ضيامة بن محمد، المتوفى سنة مائتين وسبع وتسعين (٩٠٩ - ٩١٠)، وكان قاضياً لصقلية تحت حكم الأغالبة(1). ومع التعاليم السنية كانت تظهر أيضاً الاتجاهات الفلسفية الجديدة بين المسلمين، فمن المعروف أن الفقيه أبا جعفر محمد حسين مرزوى، وهو كما يبدو من أصل فارسى وانتقل إلى صقلية سنة مائتين وثلاث وتسعين (٩٠٥ - ٩٠٦) كان هناك شك كبير فى أنه كافر(2). ويبدو أن الدراسات فى فقه اللغة قد بدأت كذلك فى صقلية فى منتصف القرن العاشر إذ إن أول صقلى قارئ للقرآن وأول نحوى نجد اسمه فى مجموعة التراجم هو أبو عبد الله محمد بن خورسـان، وهو واحد من معتوقى الأغـالبة ولد سنة ثلاثمـائة وستة (٩١٨ - ٩١٩) من أصل فارسى هو أيضاً بالنظر إلى لقب أسـرته(3).

وتظهر فى نفس الوقت فى صقلية أول نماذج أحد العلوم التى كانت ذائعة عند المسلمين ذيوعاً كبيراً ألا وهو علم التراجم وكان منتشراً فى المدارس وفى ملتقيات العلماء: وهى البوتقات التى كانت تنصهر فيهـا المذكرات الأدبية والتاريخيــة فى ذلك الزمان. كتب بعضــهم على الورق ثم جاء الناسخون وحفظوا لنا هذه المواد التى تدخل فى إطار تاريخ الأدب والتى غالباً ما يطلق عليها طبقات، نظراً لأن التراجم مصنفة فى طبقات للفقهاء والنحويين والشعراء والمعجميين وهكذا.

---

(1) **البيان**، النص العربى، المجلد الأول، ص ١٦٠.

(2) المرجع المذكور؛ ص ١٥٨. والمرزوى اسم نسبة إلى مرو فى خورسان وإلى ضاحية فى بغداد وربما إلى قرية كذلك. انظر **لب اللباب** للسيوطى، طبعة ليدن، ص ٢٤٢، الهامش٤.

(3) المقريزى، **المقفى**، مخطوطة ليدن ١٥٦٦، تحت اسم محمد؛ والسيوطى **طبقات اللغويين**، مخطوطة باريس، الملحقات العربية، رقم ٦٨١، ومخطوطة الدكتور چون لى، تحت نفس الاسم. إن عصره وصفته معتوق من الأغالبة تجعلنا نظن أنه من مواليد صقلية وأن والديه كانا قد هربا إليها. ويبدو أن أسرته من أصل فارسى بسبب اسم خورسان هذا بالرغم من أنه لم يأخذ شكل النسبة الخورسانى. وكان بنو خورسان سادة تونس فى القرن الثانى عشر.

ومن أقدم كتب الطبقات وأنفسها **رياض النفوس**، الذى ذكرناه كثيراً والذى يتناول تراجم الفقهاء وأولياء المسلمين فى صقلية حتى بعد منتصف القرن العاشر ويذكر لنا أسماء صقليين نقلوا شفاهة أو كتابة كثيراً من الروايات. فنجد أبا بكر أحمد، وقد ذكرناه قبلاً تلميذاً من تلاميذ يحيى بن عمرو، يترك لنا مذكرات، مكتوبة على ما يبدو، عن الفقيه العالم أبى هرون الأندلسى، الذى عاش فى أفريقية ويقدم أبو بكر روايته باعتباره شاهد عيان حينا أو ناقلاً أقوال غيره(1). ويروى أبو بكر نفسه نقلاً عن صقلى آخر هو أبو عبد الله محمد بن خورسان(2) يروى أخباراً عن ابن غازى من سوسة وكان رجلاً تقياً ومقرئاً شهيراً للقرآن لعذوبة صوته ثم أدانه السنيون بالفسق لأنه مدح المهدى مدحاً ممجوجاً عندما تولى السلطة وانضم إلى أحد مذاهب الإسماعيليين(3). وقد عاش أبو بكر فى النصف الأول من القرن العاشر نظراً لأنه فى شبابه كان يعرف يحيى بن عمرو (المتوفى سنة ٩٠٣) وأبا هرون الأندلسى (المتوفى سنة ٩٠٥). وكان سعيد بن عثمان معاصراً له وصقلياً مثله وقد روى شفاهة أعمال القاضى ميمون فى بالرمو(4). وهناك أبو بكر آخر، اسمه محمد بن أحمد بن إبراهيم، وكان يعمل معلماً، ويقال له الصقلى. وقد قدم لمؤلف **رياض النفوس** روايات عن العالم الأفريقى التقى أبا يونس بن نصير الذى توفى فى سنة ثلاثمائة وأربعة (٩١٦ ـ ٩١٧) والذى كان صديقاً له وضيفاً عليه(5). وقد ربح الصقلى أبو حسن الحريرى،

(1) **رياض النفوس**، الورقة رقم ٦٠ الوجه الأول. والمؤلف ملكى لم يعش بكل تأكيد قبل نهاية القرن العاشر أو بدايات القرن الحادى عشر يبدأ روايته بهذه العبارة: يروى أبو بكر إلخ. ومن هنا نعتقد أن مكتوباً ما كان تحت ناظرى ملكى وليست قصة أدخلها مؤلف أحدث وإلا لذكر اسمة كما هى عادته.

(2) لم يذكر **رياض النفوس** أن هذا صقلى، ولكننا نعلم ذلك من مصادر أخرى. انظر ص ٢٣١، الهامش رقم ٣.

(3) رياض النفوس، الورقة ١٠٧ الوجه الثانى.

(4) انظر ص ٢٢٩.

(5) **رياض النفوس**، الورقة ٧٣، الوجه الثانى.

المتوفى سنة ثلاثمائة واثنين وعشرين (٩٣٤)، لمحة لسيرته فى رياض النفوس بفضل غرائبه الصوفية التى يمكن أن تجعله من بين رواة سير الأولياء، لأنه روى بلسانه رؤى مفرِّج(1) الحلوة، وصراعات أبى على الطنجى مع عدو الجنس البشرى(2)، والوقائع التى حدثت للحاج أبى سرى واصل، الذى اعتزل بالقرب من قلعة ديماس فى أفريقية(3).

وعلي الرغم من الرغبة فى تصور أن مذكرات ذلك العصر قد ضاعت فإن النتيجة هى أن ثقافة صقلية العقلية ـ قبل الدولة الكلبية ـ كانت تنحصر تقريباً فى علم الحقوق؛ ولم تترك أسماءَ أفذاذ ـ إن الحكم السلبى الذى يرد فى **رياض** وفى غيره من المصنفات، يتأكد من خلال معجم ابن خلكان العام حيث نجد ترجمات لصقليين من القرنين الحادى عشر والثانى عشر ولا نجد ترجمة واحدة لصقلى من القرن العاشر. وهذا لا يعنى أن الدراسات البعيدة عن الشريعة والمعارف والآداب والشعر كانت مهملة إهمالاً تاماً فى صقلية قبل الكلبيين.

وكان يكفى أن ينقلهم إلى هناك بنو الأغلب الذين تفرعوا تفرعاً واسعاً من جذع إبراهيم الحاكم، ذلك أن هذه الفروع الشريفة قد قدمت فى القرن التاسع أمراء كثيرين لصقلية(4)، ويبدو أن إحدى

(1) انظر الكتاب الثانى، الفصل العاشر، ص ٤٨١ من المجلد الأول.

(2) **رياض النفوس**، الورقة ٧٩، الوجه الثانى. وينبغى ملاحظة أن ترجمة أبى حسن الحريرى مذكورة تحت سنة ٣١٦، ولكنه كان لايزال حياً فيما بين عامى ٣٢٢ و٣٢٣، ولهذا فلابد أن يكون هناك خطأ فى التاريخ.

(3) **رياض النفوس**، الورقة ٦١ الوجه الأول. يذكر أن وفاة واصل كانت فى سنة ٢٩٤. وقد كتب كنيته سَري طبقاً لما ذكره الذهبى، مخطوطة باريس، *Ancien Fonds*، رقم ٨٠٢ والذى ينبه إلى أن اسماً آخر يكتب بالعربية بنفس السواكن يُنْطق سُرّي.

(4) انظر الكتاب الثانى، الفصل الخامس والسابع والتاسع والعاشر، المجلد الأول، ص ٣٦٦ و٤٠٤ وما بعدها، ٤١٢، ٤٥٣، ٤٨٣، ٤٨٧؛ والكتاب الثالث، الفصل الثالث والسادس، المجلد الثانى، ص ٦٤، ٦٥، ١٢٩.

عائلاتهم قد انتقلت واستقرت فى الجماعة:(1) ونعلم من ناحية أخرى أن سلالة أغلب كانت تهتم بدراسة المنطق، والجدل والفلك أو التنجيم، والبلاغة، وفقه اللغة وأسلوب الكتابة الرائع؛ ونجد منهم كذلك مَن أملى أخبار أو تاريخ بنى الأغلب، ولم تكن هناك ندرة فى شعرائهم(2). ولكن هذه العلوم لم تزدهر فى أفريقية أبداً بمقدار ازدهار الفقه، ولم تصل إلى مستوى الآداب المعاصرة عند خلفاء الشرق وأسبانيا: وكان بالضرورة أن تظل الجماعة الصقلية أكثر تأخراً وهى التى كانت تستعير هذه العلوم من الوطن الأم. ولا نجد أفريقيين أوصقليين فى **يتميات الدهر**، وهى مختارات شعرية للثعلبى، وهو فارسى الأصل عاش فى بدايات القرن الحادى عشر، وتتبع شعراء الشرق الإسلامى المجيدين والمتوسطين وألقى نظرة كذلك على شعراء أسبانيا(3).

من المؤكد أن التجارة كانت مزدهرة فى كل جوانبها بين صقلية وأفريقية، ولابد أن هذا نتج عن العلاقات السياسية بين البلدين وكانت تحمل معها تشابهاً فى الصنائع والتحضر فى العادات والآداب. وكان يقابل انتقال الأعيان المألوف من أفريقية إلى صقلية والذى تحدثنا عنه قبلاً، انتقال بعض أبناء المستوطنة الذين كانوا يذهبون إلى الوطن الأم ليجربوا حظهم، فكان يطلق عليهم الصقليون

(1) ابن حوقل، *Journal Asiatique*، المجموعة الرابعة، المجلد الخامس، ص ٩٩، يتحدث عن منجم حديد بالقرب من بالرمو كان يملكه واحد من بنى الأغلب.

(2) انظر الكتاب الثالث، الفصل الثانى، ص ٥٩ من هذا المجلد، وابن أبّار، مخطوطة الجمعية الآسيوية بباريس، الورقة ٣٥ الوجه الأول، والورقة ٣٦ الوجه الأول، والورقة ١٤٨ الوجه الثانى. ومن هذا الموضع الأخير أخذ كازيرى الخبر الذى طبعه دى جريجوريو فى *Rerum Arabicarum*، ص ٢٣٧، السطر السادس والذى لا يختص اختصاصاً بتاريخ الأدب الصقلى.

(3) يشير الثعلبى (مخطوطة باريس، *Ancien Fonds*، ١٣٧٠، القسم الأول، الكتاب العاشر، الورقة ٦٦، الوجه الأول) إلى أنه لم يجد مختارات شعرية مجموعة للمغرب (أفريقية وأسبانيا) وإنما قصائد متفرقة جُمعت هنا وهناك. وبالرغم من هذا يقدم مجموعة كبيرة من الشعر الأسبانى، وأشعار قليلة ترجع إلى البلاط الفاطمى فى مصر ولا يقدم أحداً من أفريقية أو صقلية. ويوجد طرابلسى واحد من طرابلس الشام.

سواء لمولدهم بها أو لإقامتهم بها مدة طويلة من الزمن. وقد بلغ بعضهم درجة عالية وكان له شأن كبير فى أفريقية. فنقرأ من بين حكام طرابلس اسم شكر، الملقب الصقلى الذى بدأ فى سنة مائتين وستين (٨٨٢ - ٨٨٣) فى بناء صهريج ضخم، وبنى قبة وتسع المسجد الجامع(1). وقد تم تدعيم أسوار المدينة نفسها وتوسيعها فى سنة ثلاثمائة وخمس وأربعين (٩٥٦ - ٩٥٧) على يد أبى الفتح زيان الصقلى متولى حكم البلد(2). وقد ذكرنا منذ قليل اسم القائد الصقلى بشارة فى معارك الفاطميين مع أبى اليزيد(3).

وحتى لا تُحرم الجماعة من مرض خطير من أمراض الوطن الأم، نجد أن الصقليين قد تباروا مع إخوتهم فيما وراء البحر فى الاحتفاء بالزهد الإسلامى. إن الأوهام تعمل فى الشعوب عمل المشروبات المسكرة فى جسم الانسان، فعندما يرتشفها ويتذوقها تمنحه نشاطاً وحيوية، ثم تشوش العقل، وكثيراً ما تثيره فيحتدم غضبه، وفى النهاية تتلف أعصاب الانسان وقواه، وتجعله يسقط فى خمول وبلاهة الشيخوخة. إن قدرة الإسلام الخارقة للطبيعة بعد أن ساعدت على تحقيق نتائجها الروحية والاجتماعية والسياسية التى كانت أمم آسيا القريبة تسعى لتحقيقها، تملكت قلوب المسلمين بجذوة من الحماس العقائدى وجعلتهم يهجعون فى هذيان الكفارة والاسترحام: وهكذا فإن ذلك الحماس الذى كان فضيلة نافعة للعالمين، تحول إلى رذيلة عندما أدى إلى خلافات دموية أو إلى ما هو أسوأ، إلى الاعتزال للعبادة، وإلى تعذيب الذات دون أى نفع للآخرين، وإلى التحلل من الروابط الأسرية والروابط مع المدن، وإلى استبدال عملة الفضائل البشرية الرنانة بصكوك للعالم الآخر لم يوقعها مؤسس دينهم وإنما وقعها مفسرون لمفسرين. وإذا ما تصفحنا

(1) التيجانى، **رحلة**، مخطوطة باريس، الورقة ٩٧ الوجه الثانى، وما بعدها. الترجمة الفرنسية، ص ١٩٠ وما بعدها.

(2) الموضع نفسه.

(3) انظر فى الكتاب الثالث هذا، الفصل العاشر، ص ٢٠٦.

رياض النفوس نرى ثلاثة أنماط من الكمال الروحى تظهر تباعاً بين مسلمى أفريقية: ففى القرنين السابع والثامن نجد محارب الفتح المتطلع إلى الاستشهاد؛ وفى القرن التاسع الفقيه الذى يواجه بشجاعة وجسارة المستبدين والعامة؛ وفى القرن العاشر المتعبد، وهو انسان تتسم حياته بالورع، والتقوى، يفنى ذاته بالزهد، ويذوب فى دموعه، ويقضى ليله ونهاره يصلى ويجتر أموراً فوق الطبيعة، ونادراً ما يقوم من سجوده ليرى إذا كان مواطنوه أحياءً أم أمواتاً. وقد عانى المتزمتون طويلاً فى المقارنة بين الدين الإسلامى والدين فى الامبراطورية البيزنطية وجردوه من فضيلة الجهاد ومن المودة اللتين نفحهما محمد (عليه السلام).

ونموذج ذلك يتمثل فى مُفرّج، أول ولى من أولياء صقلية يظهر فى **رياض النفوس**، الذى قضى البقية الباقية من حياته فى التوبة والكفارة، بعد أن كان قد سفك الدماء قبلاً (٨٨٢؟) من أجل الوطن(1). ويحكى أبو حسن الحريرى مؤلف قصة هذا الولى معاناة ومتاعب أبى على الذى يرجع أصله إلى طنجة ولكنه وُلد وأقام فى صقلية، والذى عرفه معرفة شخصية وقضى حياته فى تقشف وزهد لا يعرفان الكلل، بعيداً عن الاهتمامات الدنيوية، مستغرقاً فى الصلاة. وكان من المعتاد أن يظهر له الشيطان فى شكل إنسان يستحلفه باسم الله أن يترك حياة التوبة والكفارة القاسية - وكان الروح الشرير يضيف - «التى لن تجعلك تشعر بسلام النفس أبداً». وكان أبو على يرد عليه قائلاً: «اذهب عنى أيها الشيطان المجرب؛ فسأستمر بعون الله رغماً عنك». ولكن حدث فى أحد الأيام أن الشيطان قلبه أثناء نومه على دكَّة فوقع أرضاً وشجت جبهته وتورّم جرحه ثم تورّم وجهه كله فعاد إليه الشيطان موسوساً: «توقف، وأنا أشفيك حالاً». واستمر الناسك فى دفعه عنه وفى الرد عليه بأنه يفضل الموت فتركه الشيطان لمصيره حتى وافاه

(1) انظر الكتاب الثانى، الفصل العاشر، ص ٤٨٠ من المجلد الأول.

الأجل عاجلاً(1). لقد خلف لنا أبو حسن الحريرى ذكرى هذه السيرة ليكتبها أبو سليمان ربيع القطان(2) وهو عالم أفريقى كان من عادته أن يذهب لزيارته فى بيته بالقرب من مسجد أبى زرمونا، فى القيروان على ما أظن، فكان يروى له أمور المتزهدين الصقليين. ويبدو أن ربيع كان قد اشتاق أن يعرف الحريرى للعجائب التى كان يسمعها عن رحمته وتقواه: فقد كان رجلاً قابعاً دوماً أمام نوْله حزيناً صامتاً، إلا أنه كان يندفع بين الفينة والفينة شاكراً الله شكراً كثيراً وحامداً إياه؛ وعند سماعه أذان الصلاة كان يغمغم ويزحف على الأرض ويتألم من ذنوبه ويصرخ قائلاً: «آه لى، لقد أفنيت حياتى فى المعاصى!». وكان العالم الفقيه، وهو أيضاً من العباد المتعبدين ولكنه كان أقوى همة وشكيمة، يُعجب بوساوس أبى حسن، ولم يتمالك نفسه من أن يقول: «أنت تملؤنى حبوراً» عندما سمعه يردد أن كل فكره مركز على الموت وأنه لا يتوق إلى شيء إلا المثول أمام حضرة الله(3). وهكذا كانت دلالات التعبير تختلف باختلاف طبيعة النفوس، وكانت هناك أيضاً خرافات صبيانية. فقد حفظ لنا القزوينى، وهو مؤلف فى علم الكون وفى التاريخ الطبيعى فى القرن الثالث عشر، حفظ لنا فى فصل الحيوانات البحرية بالبحر المتوسط، قصة مسلم تقى من الغرب كان مبحراً فى هذا البحر فى سنة مائتين وثمان وثمانين (٩٠١) فرأى شاباً صقلياً كان معه فى المركب، يلقى الشبكة فتصطاد سمكة صغيرة عجيبة تحمل رمز الإسلام على هيئة طوق، وكان مكتوباً على فكها الأيمن: «لا إله إلا الله»، وعلى قفاها «محمد»؛ وعلى فكها الأيسر «رسول الله»(1).

(1) **رياض النفوس**، الورقة ٧٩ الوجه الثانى.
(2) القطان تعنى نسَّاج: وتاجر القطن.
(3) **رياض النفوس**، الورقة ٧٩ الوجه الثانى.
(1) زكريا ..... القزوينى، *Cosmographie*، النص العربى **عجائب المخلوقات** نشره الأستاذ وستنفيلد، ص ١٢٥. ويقول المؤلف إن السمكة كان طولها شِبراً وإن المركب كانت بالقرب من برتون *Brtun*، ولا أعرف ما هو هذا المكان.

الكتاب الرابع

الفصل الأول

قدمت قبيلة كلب(1)، وهى فرع من فروع قضاعة، ولكنها من أصل حميرى، قدمت جنوداً للجيوش التى كانت تمر بالغرب فى بداية القرن الثامن؛ وبعد ذلك بقليل ظهر فى تاريخ أفريقية أمراء كلبيون ذائعو الصيت(2)، ومنهم بشر بن صفوان الذى قاد غارة على صقلية(3). ولما هيمن على أفريقية بعد ذلك عرب عدنان، الذين أنزلوا سلالة قحطان وداسوها، ظهر قائد كلبى قُتل فى الحروب الأهلية فى نهاية القرن الثامن وكان قد تولى على ميلا بالقرب من قسطنطينة(4)، فى المناطق التى كانت تقيم بها قبيلة كتامة. وعندما استولى بنو الأغلب وهم مضريون على الدولة فى النهاية تلاشى اسم الكلبيين حتى مجئ الفاطميين الذين كان من المنطق أن يقربوا بقايا الأشراف العرب أعداء الأسرة الحاكمة السابقة. وكان بعض رجال الكلبيين قد صار لهم أتباع، وربما تصاهروا كذلك، مع أناس من كتامة كانوا يحبون أن

---

(1) كلب لفظ معروف فى معناه المعجمى. وهذا اسم أحد آباء القبيلة الأوائل وأطلق عليه، حسب عادة العرب قبل محمد، لأنهم رأوا، أو سمعوا، كلباً ينبح عند ولادة الطفل.

(2) الكتاب الأول، الفصل السادس ص ٢١٠، هامش ١، وص ٢١١ من المجلد الأول. انظر كذلك ابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ترجمة م. دى فرجيه، فى مواضع مختلفة؛ كوندى، *Dominacion de los Arabes en España*، الجزء الأول، الفصول ٢٢ و٣٢ و٣٣ و٣٥؛ والمقرى، *Mohammedan dynasties in Spain*، ترجمة الأستاذ جيانجوس، الجزء الثانى، ص ٤١ وص ٦٦.

(3) الكتاب الأول، الفصل السابع، ص ٢٤٤ من المجلد الأول،

(4) النويرى، تاريخ أفريقية فى حواشى *Histoire des Berbèrs par Ibn-Khaldun*، ترجمة البارون دى سلان، الجزء الأول، ص ٣٩١.

يتعربوا، لأننا نرى فى الأزمنة اللاحقة (٩٨٦) شيخ الكتاميين فى مصر، رئيساً ارتضوه لهم ولم يعينه الخليفة بكل تأكيد، كلبياً من بيت أمراء صقلية(1). وقد نال بنو أبى حسين الكلبى سواء لقربهم من الكتاميين أم لمذهب الإسماعيليين أم لخدمات أخرى قد قدموها رضا بلاط المهدى(2)؛ فقد توفى من الكلبيين فى چرچنتى على وهو يحارب فى صفوف القائم(3)، ونال حسن بن على استحقاقات جديدة لدى المنصور، كما سبق أن ذكرنا. فعندما عهد إليه المنصور بصقلية كان لا يعتمد على إخلاصه وقدره فقط وإنما كان يعتمد بالقدر نفسه على قدر أسرته: فهى أسرة شريفة ولكنها نالت تقدير الشعب، أسرة وصلت حديثاً إلى صقلية، ولكنها غير مرتبطة بأى رباط مع الجانب الارستقراطى فى البلاد.

ليست هناك ضرورة لأن ندرس امتياز صقلية الإقطاعى المزعوم لصالح حسن، والذى كان يقوم على تفسير خاطئ لنص مزور، وقد أهمله المصنفون المحدثون لمعرفتهم أن هذا يتعارض تماماً مع النظم الإسلامية(4). وبدلاً من هذا الأمر غير الممكن شرعاً،

(1) المقريزى، المذكور فى كتاب ساسى *Chrestomatie Arabe*، الجزء الأول ص ١٣٧.

(2) النويرى، فى كتاب دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ١٥. وينبغى تصحيح العبارة *"tum quod de majoribus suis optime fuisset,"* لتصبح «وأيضاً لأن آباء حسن كانوا خداماً مخلصين لآباء منصور». وهكذا يجعلهم يصلون بكل وضوح إلى المهدى.

(3) انظر الكتاب الثالث، الفصل التاسع، ص ١٩٨.

(4) ترجم ماركو دوبليو سيترون النص خطأً لعدم إجادته العربية ولعدم معرفته بالشريعة الإسلامية فقال *"dedit insulam Siciliæ in Feudum ec"* وهى العبارة المأخوذة من شهاب الدين عمرى، فى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٥٩. وقد شك دى جريجوريو فى الخطأ، الموضع نفسه، الهامش *f*. أما ونريش فأدانه إدانة أبسط، الكتاب الثانى، الفصل ٢٣٠، ص ٢٧٠ و٢٧١. ولم يلاحظ كلاهما أن المصنف كان ينقل عن أبى الفدا وأننا لدينا النص العربى بالرغم من ضياع مخطوط شهاب الدين. ويقول أبو الفدا إن المنصور قد أعطى الولاية (أى منصب الأمير) لحسن، *Annales Moslemici*، الجزء الثانى، ص ٤٤٦، السنة ٣٣٦. وقد تحاشى مارتورانا الخطأ، دون أن يفنده.

ظن مارتورانا أن الخليفة الفاطمى قد أمر عند اختياره لحسن بأن يكون لحكم صقلية لقب أرفع وأسمى وسلطة أكبر وأوسع فجعل الجزيرة «إمارة قائمة بذاتها»(1). ولكن لم يكن اللقب فى الحقيقة جديداً وكذلك السلطة أيضاً. فالأمر الأول أن وظيفة الوالى، التى يعتقد مارتورانا أنها أقل من وظيفة الأمير، هى فى الواقع الوظيفة نفسها طالما أن الأمر يتعلق بولاية، ويتساوى فى الأمر أن نقول والى أفريقية أو مصر أو صقلية أو ما شابهها أو أن نقول أمير: وهذا الأمر سواء فى اللغة المتداولة أم فى اللغة القانونية(2). ثم إن ما من كاتب تحدث عن تغير النظم فى عصر حسن(3) ولم يختصه أحد هو وأتباعه بلقب أمير بينما لقَّب سابقيه بلقب والى: فمنذ بدايات فتح صقلية استخدم اللقبان على حد سواء، فكان يستخدم أحدهما مرة والآخر مرة أخرى تبعاً للاستخدام اللغوى وهوى الكاتب، كما كان يطلق على الأغالبة لقب والى أحياناً، ولقب أمير أفريقية فى أحيان أخرى. وفى النهاية، فإذا كان المقصود بعبارة «إمارة قائمة بذاتها» الحكم الذى لا يضم ولاية أخرى، فإن صقلية كانت دائماً قائمة بذاتها تحت حكم المسلمين. وإذا كان معناها إمارة ذات سلطة كاملة، وظيفة والٍ أو أمير عام كما يقول رجال القانون العام، فإن صقلية كانت

(1) *Notizie storiche dei Saraceni Siciliani* (أخبار تاريخية عن سراسنة صقلية)، الجزء الأول، ص ٩٢؛ والثانى ص ١٥.

(2) أشرت إلى هذا فى الكتاب الأول، الفصل السادس ص ٢٢٠ من المجلد الأول وفى الكتاب الثالث، الفصل الأول، ص ٨ من هذا المجلد. إن والى تعنى معنى آخر متى ارتبطت بألقاب قضائية أخرى. وأمير إذا جاءت أمام كلمة «جيش» تعنى «قائد». وفى الأزمنة المتأخرة أطلق لقب أمير على كل سلالة الأمراء وعلى سلالة محمد (عليه السلام).

(3) حتى *Cronica di Cambridge*، التى كتبت فى عصر الكلبيين لم تقل هذا. ولكن هذا الكتاب هو الذى أوحى لمارتورانا بهذا التمييز لأن حسن هو أول أمير تحدث عنه راوى الأخبار، ولكنه لم يتحدث عن الآخرين، ربما لعدم معرفته التاريخ؛ وعلى كل حال فهو يطلق لقب أمير على سالم (٩١٧ ـ ٩٣٧).

كذلك دونما انقطاع حتى سنة ثمانمائة وثمان وسبعين، ومن فترة إلى أخرى فى السبعين سنة التى تلت ذلك حتى سنة تسعمائة وثمان وأربعين، كلما لم يستطع أمراء أفريقية أن يدوسوا بأقدامهم على الجماعة حسب هواهم(1). وبهذا لابد من تصحيح العبارة، ويجب من ناحية أخرى شرحها لأكبر عدد من القراء. إن عبارة «حكم ذاتى» فى صقلية كانت تعنى منذ عشرين أو ثلاثين سنة، وجود نائب لملك نابولى، يقيم فى أبهة فى قصر بالرمو الملكى وكانت تعنى إدارة مدنية ومالية وقضائية مستقلة عن وزراء نابولى: وهذا النظام كان يتوق إليه أولئك الصقليون الذين كانوا لا يكرهون العائلة المالكة كراهية كبيرة، ولذا منح لهم شكل من أشكال الحكم الذاتى لبضع سنوات. ومن هنا فإن عبارة «إمارة قائمة بذاتها لصقلية» كانت عبارة مفضلة لدى البعض ومفضلة بالنسبة لمارتورانا على ما أعتقد، وكانت واضحة غاية الوضوح لكل أهل البلاد؛ وفى حالتنا كانت تعبر، بشكل واضح أو لا، عن فكرة صحيحة لأن النظام فى سنة ألف وثمانمائة واثنين وثلاثين كان شبيهاً للغاية بنظام سنة تسعمائة وثمان وأربعين، وهذا حكم تجريدى قائم على الأسباب والنتائج. ولما لم يكن لدى ونريش هذا التعليق فإنه تعلق بتجديد اللقب والسلطة وهما أضعف ما فى مفهوم مارتورانا، وركز عليهما رغم الايضاحات التى قدمتها له الدراسات الشرقية، وبتسرعه الشديد ابتعد عن دراسة مسألة «القانون العام» هذه(1).

---

(1) انظر: الكتاب الثانى، الفصول الخامس والسادس والسابع والتاسع والعاشر، وكل الكتاب الثالث. وإذا أخذنا بشكل عشوائى مثالا من ابن الأثير فإننا نجد لقب «أمير صقلية» تحت سنوات ٨٣٥ و٨٥١ و٨٩٥ و٩٢٥، ويستخدم أحياناً فى الموضع نفسه لقب «والى» ويطلق على الحكم ولاية. ونجد الشئ نفسه لدى غيره من رواة الأخبار المسلمين. ويذكر **البيان** تحت سنة ٨٣٥ لقب صاحب الذى تحدثنا عنه قبلاً.

(1) ونريش، *Conmentarii*، الكتاب الأول، § ٢٢٩، ص ٢٦٩. كان لابد للفقرات التى

وتبدو لى هذه المسألة واضحة بسيطة. فالشريعة الإسلامية تقضى بشكلين لحكم الولاية: سلطة مدنية وعسكرية فى يد واحدة أو منقسمة. والشكل الأول إلزامى فى الفتوحات الجديدة وفى البلاد المجاورة للكفار، وقد استخدم هذا النمط بالضرورة فى صقلية، حيث كان المستوطنون يسعون لاستقلاليتها. وقد أراد إبراهيم بن أحمد والمهدى والقائم تجربة النمط الثانى، ولكن أنهار الدم الذى سال لم تكف لترسيخ هذا النمط. أما المنصور، وكان أكثر حكمة واقتداراً، وربما لأن ثورة أبى اليزيد قد فتحت عينيه، فقد تخلّى عن حكم صقلية، باعتبارها قرية أفريقية، من مجلسه، ويغتصبها كما يروق له عن طريق متصرفيه: فجعل حكمها حكم ولاية كبيرة متاخمة وأرسل إليها نائباً عنه. وهذا الأمر ما كان، ولم يكن بمقدوره أن يكون، مصحوباً بقانون جديد أو بلقب جديد(1).

استشهد بها من كتاب البارون *De Hammer* عن تأسيس الدولة الإسلامية قد جعلته يدرك الحقيقة، خاصة أن *Hammer* قد ذكر اسم أمير صقلية فى سنة ٨٨٠، وكان بإمكانه هو نفسه أن يرى آخرين كثيرين فى النصوص العربية. وكتب:

Utcumque vero res se habuerit, id certe Constat dignitatem illam in Hasani Calbitæ familia, hereditario quasi jure postmodum remansisse.

وانزلق بكلمة *quasi* (تقريباً) إلى مأزق منصب الحكم الذى استمر لقرن فى الأسرة نفسها.

(1) حدث الشئ نفسه فى مسألة القانون العام بالنسبة لأفريقية ذاتها فى سنة ٣٦١ (٩٧١ ـ ٩٧٢)، عندما نقل المعز مقره إلى مصر فكان عليه أن يقيم الإمارة فى الولاية لا أن يقويها ويدعمها. ولما عرض الإمارة على جعفر بن على، وهو من أصل عربى، طلب منه جعفر أن تكون له سلطة مطلقة فى اختيار القضاة وفى إدارة الأموال وفى كل أعمال الحكم الأخرى ودون التزام بأن يقدم تقريراً عن إدارته أو أن ينتظر موافقة الخليفة لكى ينفذ تدابيره. فأجابه المعز غاضباً بأنه يريد أن ينصب نفسه أميراً بدلاً منه. ولما صرفه لجأ إلى البربرى بلكين، مؤسس الأسرة الزيرية الذى طلب منه على عكس سابقه أن يختار الخليفة القضاة ومدبرى شئون المال وقواد الجند، وأن تتم مناقشة الأمور المهمة فى مجلس القائمين على الإدارة العمومية، وأن يقوم هو بلوكين بالعمل على تنفيذ قرارات المجلس. فاختار المعز الزيرى وقال لأحد المقربين إليه إن الزيرى سيصل بعد مشوار طويل إلى الهدف نفسه الذى أراد جعفر الوصول إليه فوراً. المقريزى، **كتاب السلوك**، فى كتاب كاترمير، *Vie du calife Fatimite Moezz*، فى *Journal Asiatique*، (نوفمبر ١٨٣٦ ويناير ١٨٣٧)، مستلة، ص ٨٧ و٨٨.

ولم يكن باستطاعته المنصور أن يقيم الإمارة الوراثية. إن توارث الإمارة فى إحدى الأسر نراه كثيراً فى تواريخ المسلمين، بدءاً من أغالبة أفريقية وحتى باشاوات مصر الحاليين، ولكنه ظهر فى الواقع واستمر تحت ستار اختيار وتعيين قائم على إرادة الأمير. وبدأ دوماً من جانب أمير مؤقت، وانتهى به الأمر دوماً إلى أسرة حاكمة جديدة مستقلة، ومر بسلسلة من الأحداث المتشابهة، من أسرة حاكمة إلى أخرى، وكأنها أشكال هندسية متطابقة تقوم على قانون واحد وتظهر بشكل واحد أمام الناظرين. وبعد موت المنصور وبعد سنوات قليلة من اختيار حسن، لم يغير خلفاء المنصور أسرة أمراء صقلية، لأنها كانت ذات سطوة فى البلاط وكانت تحكم الجزيرة حكماً هادئاً. وعندما ساءت الأمور بالنسبة للكلبيين فى القاهرة، أدرك الخلفاء الفاطميون أنهم لا يستطيعون استئصالهم من صقلية. فقد حدث ما نتج بالضرورة من النظم الاجتماعية والسياسية للمسلمين، كما أشرنا فى موضع آخر. فالأشراف العسكريون، والجند المرتزقة والعلماء كانوا مرتبطين بالأسرة الكلبية ارتباطاً وثيقاً قائماً على المصلحة بسبب الرواتب والرعاية؛ وكانت الإغارات على المسيحيين وصدقات البلد هى التى تقيم أود عامة الناس، وكان الجميع راضين عن الدخول التى كانت تستثمر من أجل الرخاء العام أو من أجل رخاء الصقليين، وعن المبانى التى كانت تقام، وعن روعة بلاط الحاكم الذى يحمى ويرعى الموهوبين، وعن الإدارة التى تقوم على احتياجات مواطنى صقلية وعبقريتهم وليس على احتياجات موظفى المهدية، وكانوا راضين عن المستوطنين الذين كانوا يتحركون من فال دى مازارا ليعمروا مدن شرق صقلية ولزرع حقولها أو للتمتع بالجزية التى كانت تدفعها تلك المدن التى بقى بها المسيحيون. ولكن لا محل للسؤال عما إذا كان مسلمو الجزيرة كانوا يريدون المخاطرة بأن يحكمهم رجال جدد، يمكن أن يغيروا كل شئ ويعيدوا العسس وجباة الضرائب كما كانوا فى عصر سالم. وذات مرة حاول الخليفة الفاطمى أن يعيد هذا بموافقة الكلبيين على مايبدو على وعد

إقامة دولة أكبر فى مصر، فشهر الصقليون أسلحتهم (٩٦٩) ولم يجد الخليفة وسيلة لإنهاء الاضطرابات إلا أن يرسل أميراً كلبياً على وجه السرعة. وهكذا تأسست على مدى عشرين سنة وراثة الإمارة على أرض الواقع، وكانت عاملاً ضاغطاً على الصقليين.

ولكن نشأت إمارة صقلية، دون مرسوم أو استفتاء عام يمكن أن يقوم رواة الأخبار بتسجيله، فكانت واضحة للعيان. ويتحدث ابن حوقل الذى وصل إلى بالرمو سنة ثلاثمائة واثنين وستين (٩٧٢ - ٩٧٣) عن القصر الذى كان السلطان يقيم به؛ وهذا اللفظ استخدمه كتاب القرن العاشر للإشارة إلى أمراء حقيقيين، مُعترف أو غير مُعترف بهم من قِبل الخليفة: والحقيقة أن لهذا اللفظ مدلولاً أساسياً على العنف، وعندما أصلح الزمن الأمر والاسم وغيره إلى لقب عام، صار معناه إمبراطورية خالية من سلطة الخلفاء الدينية(1). وسواء كان ابن حوقل قد كرّر لفظ سلطان لأنه كان يسمعه فى بالرمو، أم قاله من تلقاء نفسه لتعريف النظام الذى كان يلمسه بنفسه، فإن هذه الشهادة شهادة على لحظة مهمة إذ تتوازى مع هدف الثورة التى اشتعلت فى صقلية قبل ثلاث سنوات ومع صورة الأحداث التى تلت ذلك حتى منتصف القرن الحادى عشر. فمنذ عام تسعمائة وسبعين وما بعده لم تتحرك أية جيوش من أفريقية أو من مصر لتحارب فى البر الإيطالى أو فى صقلية مع مسلمى الجزيرة. وكان الصقليون يخلعون أميراً كلبياً عندما يتراءى لهم هذا ويختارون بدلاً منه آخر من الأسرة نفسها. أما إذا كان الخليفة يرسل على كل حال، لمن

---

(1) استخدم لفظى *Sultano* و*Soldano* على السواء فهما كتابتان للفظ نفسه، الأول حسب استخدامنا اليوم، والآخر كما كان يسمعه آباؤنا فى العصر الذى كانت تتولى الجمهوريات الإيطالية أمور التجارة مع المشرق. ويفضل الأمراء العثمانيون شأنهم فى ذلك شأن أمراء تركيا فى آسيا الصغرى ومختلف الأسر الحاكمة فى مصر بعد صلاح الدين، يفضلون لقب سلطان على لقب خليفة، والذى تم التنازل لهم عنه، تنازلاً غير شرعى بكل تأكيد، من جانب الأسرة العباسية الثانية.

يعينه الأمير خليفة له أو لمن يعينه الشعب، وثيقة ومعها شارات الوظيفة ولقب تاج الإمبراطورية وسيف الإيمان الرنان وما شابهه، فإن هذا يعنى فقط أن صقلية كانت تعترف بالفاطميين خلفاءً دينيين. ولا يتجاوز اسم الفاطميين المنقوش على العملات الصقلية منتصف القرن الحادى عشر. وقد لاحظنا أكثر من مرة أن المسلمين فى العصور الوسطى لا يعيرون اهتماماً كبيراً لمثل هذا التكريم الذى كان الأمراء المسيحيون يتمسكون به أيما تمسك. وبالإضافة إلى هذا فإن اسم الفاطميين كان يسمح للعملة الصقلية بالتعامل بها بشكل أوسع فى العمليات التجارية الجارية مع أفريقية ومصر، ولهذا السبب لم يتردد فى تقليدها وتزويرها أمراء سالرنو اللنجوبارد(1). ولكن لا يستطيع أحد أن يؤكد أن الجزيرة كانت خاضعة للخليفة الفاطمى الظاهر (١٠٢١ ـ ١٠٣٦) لأن عملات كثيرة ضربت فى بالرمو(2) باسمه وباسم خليفته، فى حين لم يذكر أحد اسميهما من قريب أو من بعيد فى التمرد على الكلبيين، ولم يتورط الخلفاء فيه، ولم تفكر الأسرة الكلبية فيهم أو في أى من الأطراف التى كانت تسعى إلى الاستحواذ على سلطة الدولة: بل إن طرفاً سعى إلى الحصول على مساعدات خارجية فاتجه إلى أمراء أفريقية الزيريين مهدداً باللجوء إلى البيزنطيين إذا رفضوا مساعدته.

ولقد ساعدت على تحرر صقلية، كما سبق أن قلنا، قوة الكلبيين

---

(1) انظر هذه العملات فى مؤلَّف دومينيكو سبينللى أمير سان جورجو، *Monete cufiche etc.*، نابولى ١٨٤٤، مجلد واحد، ص ١ وما بعدها. ولكنى أشك فى بعضها فكتاباتها منقولة بشكل غير صحيح كما يبدو لى.

(2) انظر قائمة مورتيلارو، الأعمال الكاملة، الجزء الثالث، ص ٣٧٧ وما بعدها. ويمكن إضافة ١٤ عملة أخرى موجودة فى مجموعة Cabinet des Medailles بباريس، وثلاث عملات أخرى نشرها السيد فدريجو سوريه، *Extrait des Memoires de la Societé imp. d'Archeologie.*، سان بطرسبرج، ١٨٥١، ص ٥٠، ٥١، رقم ١٢٢ و١٢٤ و١٢٥.

فى البلاط، وانتقال عاصمة الفاطميين من المهدية إلى القاهرة، وحروب خلفاء مصر الأوائل فى الشرق، وجنون الآخرين وضعفهم، وتحرر أفريقية فى الوقت نفسه. والسبب الرئيسى هو أن الصقليين قد أرادوا هذا. فنادراً ما يحدث أن تبقى الشعوب ذليلة عندما تريد بإصرار وعزيمة أن تنزع نيرها: فإذا فشل جيل لعيب فيه أو لقوة العدو، فإن جيلاً آخر سوف يقتنص العدو فى غفلة منه أو أثناء تورطه فى مشكلة من المشاكل التى غالباً ما يتورط فيها الظالمون، وعندئذ سينتصر، وربما يكون انتصاره بلا معركة. وقد أثمرت الدماء التى سالت لمدة ستين سنة أن صقلية بسبب جلبة إحدى الثورات استعادت فى سنة تسعمائة وثمان وأربعين الأمير العام وفى سنة تسعمائة وسبعين بعد حرب قصيرة تحللت من إرادة الخليفة المنفردة فى اختيار الحكام، وهذا يعنى أنها وصلت إلى أعلى درجات الحرية التى وصل إليها شعب مسلم. وكان فى مقدور المستوطنة أن تصل إلى هذا قبل ذلك لولا الانقسامات العرقية والمدنية والاجتماعية التى مزقتها على الدوام.

الفصل الثانى

لم تدفع الامبراطورية البيزنطية منذ موت المهدى، أو منذ تمرد چرچنتى، جزية كلابريا(1). وتوقفت المدن المؤمَّنة فى صقلية عن دفعها فى الأزمنة الأخيرة. ولكن ما أن ذاع كيف يقوم الحسن بإعادة تنظيم الشئون العامة، حتى جاء إلى بالرمو راهب ليقدم المتأخرات عن ثلاث سنوات من جانب بعض المدن(2). وأما مدن صقلية أو كلابريا الأخرى التى لم تقدمها، فقد عاقبها الأمير الجديد بغارات عنيفة، فطلبت العون من القسطنطينية(3). وهناك بقى بروفيروچنيتو فى الحكم على غير المتوقع وقد بدى له أن دفع تلك الجزية للبربر يحط من شأن وعظمة الإمبراطورية. وقد اجتهد بروفيروچنيتو بقدر ما تتيحه له قدراته البسيطة وطبيعته الخاملة، فى إحياء نظم الحضارة الرومانية التى درسها فى الكتب والتى ملأ بها مؤلفاته ولم يهمل قسطنطين بروفيروچنيتو الإدارة العسكرية أو الانضباط، مما عاد ببعض الثمار على الامبراطورية وكان هو ينتظر ما هو أكثر من هذا. ولكنه، بدلاً من الرسل الذين يحملون الجزية، كان يرسل إلى إيطاليا من كان يظنهم قواداً وجنوداً. وكان أول ما قام به هؤلاء هو إساءة معاملة المواطنين

---

(1) شيدرينو، طبعة بون، الجزء الثانى، ص ٣٥٨.

(2) ابن الأثير، السنة ٣٣٦، المخطوطة C، الجزء الرابع، الورقة ٣٥٠ الوجه الثانى؛ ابن خلدون *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٦٧، ويتحدث هذان المؤلفان عن الروم والمقصود روم صقلية لأن قسطنطين رفض دفع الجزية عن كلابريا.

(3) ابن الأثير، السنة ٣٤٠، المخطوطة C، الجزء الرابع، الورقة ٣٥٣، الوجه الثانى. وكتب المؤرخ هنا روم صقلية؛ ولكن يبدو أنه يقصد روم كلابريا وبعض المدن الأقوى فى صقلية مثل تاورمينا وراميتا.

وفرض الضرائب عليهم بأسوأ من معاملة الأعداء لهم(1).

وما أن علم الحسن بنزول البيزنطيين فى أوترانتو حتى طلب من ناحيته دعماً عسكرياً. وأرسل إليه المنصور سبعة آلاف فارس وثلاثة آلاف وخمسمائة من المشاة بالإضافة إلى جنود البحرية والمراكب الحربية وسفن النقل فوصلوا إلى بالرمو فى الثانى من يوليو سنة تسعمائة وخمسين بقيادة العبد المعتوق فرج محمد. كان جيش صقلية مستعداً تمام الاستعداد، حتى إن قوة ضخمة قد تحركت فى الثانى عشر من يوليو صوب مسينا تحت قيادة الحسن. وبعد وقت قصير عبرت القوة المضيق وهاجمت ريچو التى وجدوها خالية من السكان. وزع الحسن الفرسان لجمع الغنائم من الأنحاء ومضى هو على رأس أكبر عدد من القوات لحصار چراتشى، وأخذ يهاجمها هجوماً ضارياً دون جدوى؛ وكاد أن يخضعها بعد أن قطع عنها مياه الشرب وعندئذ جاءت قوات جديدة من الجيش البيزنطى لملاقاته. ولهذا ضم أهالى چراتشى والعبيد المدموغين والرهائن وجمع رجاله وتحرك ضد اليونانيين، فهرولوا مسرعين ولجأوا إلى أوترانتو وبارى. وأثناء مطاردة الحسن لهم أقام معسكره عند كسّانو، وأخذ يغير على تلك النواحى. وبعد أن حارب المدينة لمدة شهر دون نتيجة وبعد أن حل الشتاء عقد الاتفاق معها كما فعل مع چراتشى وعبر الفنار وترك الأسطول يقضى الشتاء فى ميناء مسينا وعاد أدراجه إلى مقره فى بالرمو(2). ويبدو أن اتفاقى

---

(1) شيدرينو، الموضع المذكور. يعتقد، وهذا يعفى القوات البيزنطية جزئياً من عار كبير، أن هذه القوات قد وصل بعضها قبل صيف عام ٩٥٠ وبعضها فيما بعد. ومما هو معروف أن شيدرينو لا يذكر أبداً أى تواريخ.

(2) قارن: *Cronica di Cambridge*، سنتى ٦٤٥٩ ـ ٦٤٦٠، فى كتاب دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٤٩، ٥٠، وابن الأثير، سنتى ٣٣٦ و٣٤٠، المخطوطة *B*، ص ٢٦٣ وما بعدها، والمخطوطة *C*، المجلد الرابع، الورقة ٣٥٠ الوجه الأول وما بعدها، و٣٥٢ الوجه الثانى؛ وابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ترجمة م. دى ڤرچيه، ص ١٦٧، ١٦٨ حيث بدلاً من *Sire Doghous* نجد *(Stratego)* قائد؛ **وتاريخ الفاطميين**، مخطوطة باريس العربية، الملحقات العربية، ٧٤٢ *quater*،

چراتشى وكسّانو كانا بمثابة هدنة لمدة عام اشتريت بدفع إتاوة يدفع
جزء منها نقداً ويقدم الرهائن ضماناً للباقى(1).

وكانت الجيوش البيزنطية تتجمع آنذاك فى كلابريا، وفى العام
السابق إما أنها لم تمر كلها بإيطاليا أو أنها قاومت سيطرة بنفتنو
على بوليا، واحتلت أسكولى(2). وكان الأسطول تحت قيادة
ماكروينى، أو كما نقول نحن چوڤانى الطويل؛ وكان الجيش كبير
العدد إن لم يكن قوياً وقادراً، تحت قيادة النبيل مالاتشنو، والذى
انضم إليه رجال بسكوالى قائد كلابريا.(3) بأمر من الخليفة،
هاجم الحسّن البر فى ربيع سنة تسعمائة واثنين وخمسين. وفى
الثامن من مايو، وكان من بين أيام العيد فى ذلك العام فى مكة،
تصادم الجيشان أسفل چراتشى: وعن هذه المعركة تقول الحوليات
العربية إنه لم تحدث معركة أعنف وأشد منها، بينما تشهد
الحوليات اليونانية أن العدو قد حقق انتصاراً غالياً، ويبدو أن
السبب فى هذا هو أن المسيحيين كانوا يتميزون بكثرة العدد
بينما كان المسلمون يتمتعون بالنظام وبالثقة فى القائد(4)، وكانا

المجلد الرابع، الورقة ١٨ الوجه الثانى، مع ترجمة م. دى سلان فى حاشية *Histoire des Berbéres* لابن خلدون، المجلد الثانى، ص ٥٢٩. وينبغى التنبيه إلى أن ابن الأثير يروى الأحداث ذاتها فى ظروف مختلفة فى الفصلين الخاصين بسنتى ٣٣٦ و٣٤٠. وهكذا أيضاً ابن خلدون فى الموضعين اللذين أذكرهما، وثانيهما يحتوى على أخطاء عديدة. لقد ترجمت اللفظ اللاتينى الوارد فى *Cronica di Cambridge* *(Cameli)* والذى يعنى جمال ، بلفظ أحمال، حيث أضاف الكتاب نقطة غير موجودة باللفظ أصلاً. تُرى ماذاَ كانت تفعل الجمال فوق جبال كلابريا وفى غاباتها؟

(1) يتحدث *Cronica di Cambridge* عن الرهائن فقط بينما يتحدث ابن الأثير عن النقود، ولا يتحدث هذا أو ذاك بالتفصيل عن الاتفاقات.

(2) سجل لوبو بروتسبتاريو الاستيلاء على أسكولى، فى برتز *Scriptores*، المجلد الخامس، ص ٥٤. ويبدو أنه ينبغى تصحيح التاريخ المذكور ٩٥٠ ليصبح ٩٥١.

(3) شدرينو، الموضع المذكور. انظر الهامش ١ من صفحة ٢٤٨.

(4) يقول شدرينو إن القائد المسلم شجع رجاله قبل المعركة بألا يخشوا جيشاً جنوده يعاملون معاملة سيئة من قبل قوادهم؛ مشيراً إلى الإتاوات والإهانات التى كان النبيل والقائد يعاملان بها الأتباع. وقد بدى لى أن أقبل مسألة التشجيع ورفع المعنويات ولا

متساويين فى الشجاعة. وقد فر المغلوبون بسرعة وكان المسلمون
يتعقبونهم حتى الليل، وقتلوا منهم كثيرين وأسروا الرجال، واستولوا
على الأسلحة والخيول والمتاع: وبصعوبة بالغة نجا النبيل
والقائد(1). وأرسلت رؤوس القتلى علامة على النصر لتُعرض فى
مختلف مدن صقلية وأفريقية، كما كانت عادة الحروب فى تلك
الفترة. حاصر الحسن چراتشى التى دافعت دفاعاً مريراً بالرغم من
يأسها من وصول مساعدات. وأرسل قسطنطين أمين سره چوڤانى
بيلاتو إلى أمير صقلية الذى لم ينتش - كما يقول البيزنطيون -
بانتصاراته فوافق على الهدنة(2). وتم توقيعها فى صيف

أقبل مادة حديث الحسن، الذى يبدو أن شيدرينو قد انساق وراءه من خلال المحسنات البلاغية التى كتب بها التاريخ على مدى زمن طويل.

(1) قارن بين: *Cronica di Cambridge*، السنة ٦٤٦١، المرجع المذكور، ص ٥٠؛ شيدرينو وابن الأثير وابن خلدون، المواضع المذكورة؛ لوبو بروتسبتاريو، سنة ٩٥١ فى كتاب برتز، *Scriptores*، المجلد الخامس، ص ٥٤ حيث نقرأ: "*Malachianus fecit prælium in Calabria cum Saracenis et cecidit.*" ونستخرج يوم المعركة من ابن الأثير الذى يذكره بشكل مختلف فى روايتى سنة ٣٣٦ وسنة ٣٤٠ وهما من مصدرين مختلفين. ففى الأولى يذكر وقفة عرفات أى يوم ٩، وفى الثانية عيد الأضحى أى يوم ١٠ ذى الحجة، وهذا التباين قد يكون ناتجاً عن الحساب الفلكي الذى سبق التقويم المدنى بنصف نهار. وقد ورد فى *Cronica di Cambridge* اسم النبيل (Μαλαχένοζ) كما ذكره شيدرينو مكتوباً (*M»»l»gên* أو *M»»l»gân*) أما لوبو فقال إنه ملاكيانوس. وهذا دليل جديد على أن حرف *X* يُنطق فى صقلية مثل نطق ك أو جـ على الأقل منذ القرن التاسع وما بعده. أما فى بوليا فيُنطق بالنطق اللاتينى لحرفى *ch*.

(2) قارن بين: ابن الأثير وشيدرينو، الموضعين المذكورين. لاحظت من قبل أن ابن الأثير يروى روايتين مختلفتين عن هذه العملية فى ٩٥٢. وتختلف الروايتان كذلك فى طريقة الهدنة، فنقرأ فى فصل سنة ٣٣٦ أنه بدخول سنة ٣٤١ (٢٨ مايو ٩٥٢)، ولأن الحسن كان لايزال يحاصر چراتشى، أتى للقائه سفير من القسطنطينية ومعه أجرى الهدنة وانتقل بعد ذلك إلى ريچو. ويكتب المؤلف نفسه فى فصل سنة ٣٤٠ أن بحصار چراتشى تم جمع الأموال فأرسل الحسن فوراً جماعة مسلحة إلى مدينة بيتركوكّا. وعلى هذا فإن هدنة چراتشى كانت تشمل المدينة فقط ثم امتدت إلى الإقليم، أم أنها وُقعت فى چراتشى لتشمل كلابريا كلها؟ فى هذه الحالة الأخيرة يمكننا أن نفترض أنه تم الهجوم على بيتركوكّا، إما بمخالفة المعاهدات، أو لأنها لم تكن خاضعة للإمبراطور ولم تدخل ضمن الهدنة.

عام تسعمائة واثنين وخمسين وكانت تقتصر فى البداية على جراتشى - على مايبدو - ثم شملت جميع أنحاء كلابريا الخاضعة للإمبراطور، وتم الاتفاق على دفع الجزية والأكثر من هذا على التسامح فى ممارسة الشعائر الإسلامية. وأرسل الحسن جماعة أخذت تسلب بتراكوكّا، كما كان يطلق على الأراضى الواقعة بين رأسى سبارتيفنتو وبروتسانو(1). ومضى آخرون للهجوم على أراض أخرى لا نعلم إن كانت روزيتو على حدود كلابريا مع بازيليكاتا، أم جزر ترميتى بالقرب من نهر جرجانو(2): ونلاحظ فى هذه السنة نفسها سلب معبد جرجانو ونهب أماكن عديدة تابعة لدولة بنفنتو(3). وكان أسرى بتراكوكّا وروزيتو، أو ترميتى، يُنقلون من

---

(1) لا شك فى هذا الأمر إذ إنه موجود في *Cronica di Cambridge* وفى ابن الأثير والاسم فى *Cronica* هو *Btra»uka*، حيث يمكن وضع حرف ف أو ك بدلاً من علامة التصيص التى وضعتها لعدم وجود نقاط. وعلى كل حال فإن الكتابة بالحروف اللاتينية غير صحيحة فقد نسبت السواكن الثلاثة الأولى لاسم مكان والحروف الأخرى كوّنت ظرفاً غير مناسب. أما مخطوطات ابن الأثير فنجد بها *Btr Ku˜a* بتراكوكا. والاسم نفسه نجده فى **معجم البلدان** لياقوت، الذى ينقل عبارة من ابن حوقل تضع *Btr Kuka* بين جراتشى وريچو، والإشارة الموجزة إليها تدل على أنها كانت أراض مهمة فى القرن العاشر بالنسبة لسكانها وتجارتها. وبعد ابن حوقل بقرنين يكتب الإدريسى *Btr kuna*، طبقاً لما جاء فى مخطوطات باريس، المكتوبة بالخط الأفريقى فيمكن أن نقرأ *K* بدلاً من *N* دون أن نغير النص. ويقول الإدريسى إن هذا اسم نهير يصب على بعد ثلاثة أميال من رأس چفيرا (زفيريوم) وستة أميال من بروتسانو: كما ينبغى تصحيح نص م. چوبير، المجلد الثانى، ص ١١٦ الذى لا يذكر هذه الأرقام وغيرها الدالة على المسافات. وعبثا حاولت البحث عن الاسم الحديث لهذا المكان فى خرائط كلابريا ووصفها. وهذا الموقع يتطابق مع بيترابنّاتا أو برنكاليونى. ويمكن أن يكون فوق الجبل، بالنظر إلى اسم بيترا (حجر). أما *Cocca* و*Cucco* وغيرهما فهى أصوات لاتينية متأخرة ويونانية متأخرة انتقلت إلى لغتنا وإلى لهجات كلابريا وصقلية حيث نجد أن *Cucca* تعنى بومة، وتقليد صوت البومة.

(2) فى *Cronica di Cambridge* فقط، نجد بعد *B trakuka* اسماً جغرافياً آخر هو *R m t sa*. ولا يمكن أن تكون هذه راميتا بصقلية، لأن الكتاب نفسه *Cronica* يكتب اسمها بشكل آخر. ويبدو لى أن قراءتها بـ روزيتا وترميتى هى الأرجح، وثانيتهما تتفق مع الهجوم على جرجانو.

(3) *Chronicon Sanctæ Sophiæ*، فى كتاب موراتورى *Antiquitates Italicæ Medii Ævi*، المجلد الأول، ص ٢٥٣. وربما كان المهاجمون من أهل كريت،

صقلية إلى أفريقية؛ وأرسل معهم مقيداً بالسلاسل قائد أسطول المسلمين ويدعى أبو محل، الذى ما أن وصل إلى المهدية حتى عوقب بأقصى عقوبة. ولا نعلم ماهية جريمته: هل هى خرق الهدنة، أو هى استغلال الغنائم لمصلحته الخاصة، وهذا هو الاحتمال الأكبر(1).

وبينما كان رجال الحسن يهاجمون سواحل الأدرياتيكى، انسحب هو من جراتشى إلى ريچو، وافتتح(2) مسجداً فى وسط المدينة وهو مسجد شامخ بمئذنته التى ترتفع عالياً من أحد أركانه حتى يراه الجميع ويسمعوا ترتيل المؤذن. ولقد اتفق فى الواقع على أن يكون للمسلمين حرية الأذان للصلاة وكذلك كل الشعائر العامة الأخرى، وألا يطأ مسيحى بقدميه المسجد، وأن يكون ملجأً لكل مسلم حتى إن كان أسير حرب ولو تحول إلى المسيحية متى بدى له أن يلجأ إليه. وهدد بأنه إذا علم بنقض حجر واحد من أحجار مسجد ريچو فإنه سيعمل على هدم الكنائس المسيحية فى كل أنحاء صقلية وأفريقية. ويكتب ابن الأثير بسعادة وحبور أن المسيحيين التزموا بهذه الاتفاقات فى خنوع وخضوع؛ ويتجاهل أن مسجد ريچو لم يستمر أكثر من أربع

ولكن الأرجح أن الأسطول الصقلى، بعد الهدنة مع البيزنطيين، قد أغار على الأماكن التى كانت تحت سيطرة بنفنتو.

(1) *Cronica di Cambridge*، الموضع المذكور، يرجع هذه الأحداث إلى سنة ٦٤٦١ (١ سبتمبر ٩٥٢ إلى ٣١ أغسطس ٩٥٣) ربما عند عودة الحسن إلى صقلية. ويقول رامبولدى، فى الجزء الخامس، ص ٢٨٤، تحت سنة ٩٥٤، بأن الأسطول الصقلى قد تم الحجز عليه واقتيد إلى أفريقية، أى أنه يطبق على المراكب ما كتبته الأخبار عن قائد الأسطول. ويسير على نهجه كل من مارتورانا وونريش. وينبغى ملاحظة أن الحوليات العربية تطلق على الحسن القائد الأعلى فى عمليتى سنة ٩٥١ وسنة ٩٥٢. وانتصارات المسلمين هذه فى كلابريا مذكورة بشكل عام فى مخطوطة يحيى بن سعيد، مخطوطة باريس، *Ancien Fonds*، ١٣١ *A*، الورقة ٨٧ الوجه الثانى.

(2) يقول النص بنى، ويبدو أن المفهوم من هذا أنه حوّل أحد مبانى المدينة لاستخدامه مسجداً.

سنوات(1). ولقلقه من نكاية الكفار العظيمة، أخفى الأهمية الحقيقية لهذا الحدث: تفكير الحسن المتحضر فى استغلال النصر لصالح التجارة التى كانت مزدهرة بكل تأكيد بين صقلية وكلابريا والتى كانت قادرة على أن تكون أكثر إزدهاراً بتسامح الإسلام فى ريچو.

ولم يمض وقت طويل على عملية كلابريا، حتى وافت المنية المنصور (مارس ٩٥٣) وصار ابنه أبو تميم معاد خليفة باسم المعز لدين الله، فذهب الأمير الحسن إلى البلاط فى المهدية وترك حكم صقلية لابنه أبى الحسن أحمد. وأقر المعز هذا: ويروى رواة الأخبار هذه الواقعة مستخدمين عبارات مختلفة، ولكن مضمونها هو أن الخليفة قد ترك الإمارة للحسن على أن يحل أحمد محله حال غيابه أو وفاته(2). وهذا فضل عظيم يمكن أن نفسره بحاجة المعز إلى

---

(1) ابن الأثير، السنة ٣٣٦، المخطوطة *B*، ص ٢٦٣؛ ابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٦٨، ١٦٩ حيث نجد خطأً مطبعياً يقول: *"El Haçan retourna alors à Kharadja o il bâtit etc."* وكان ينبغى أن يقول ريچو بدلاً من *Kharadja* مثلما هو مذكور فى النص العربى. وفى ختام رواية عمليات الحسن فى كلابريا، أنبه إلى أنى استبعدت منها الأحداث المذكورة تحت الأعوام من سنة ٩٤٨ إلى سنة ٩٥٢ فى *Cronica di Arnolfo*، وفى الملحقات المدسوسة على *Cronica della Cava*، والتى نشرها كلها براتيللى، الجزءين الثالث والرابع، والتى لم يشك مارتورانا ابداً فى تزييفها، كما لم يشك من قبله دى ميو *Annali...del Regno di Napoli* الجزء الخامس، ص ٢٨٨ إلى ص ٣٢٥.

(2) ابن الأثير، السنة ٣٤٠، المخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٣٥٣ الوجه الثانى، وابن خلدون، الموضع المذكور، يكتبان بوضوح أن الحسن ترك مكانه لابنه، ولكن من المؤكد أن عبارة أبى الفدا أدق، *Annales Moslemici*، الجزء الثانى، ص ٤٤٦، السنة ٣٣٦، وابن أبى دينار، مخطوطة باريس، الملحقات العربية، ٨٥١، الورقة ٣٧ الوجه الثانى، وأولهما يضيف أن المعز صادق على أحمد وثانيهما، بتحديد أكثر، يضيف أن حكم صقلية قد تركه الحسن وأن أحمد بدل منه، وجدّد الخليفة مرسوم التعيين بنفسه لهذا. وينقل أبو الفدا كلمات ابن شدّاد، وهو من مؤلفى القرن الثانى عشر؛ أما النويرى، فى كتاب دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ١٥، فيقول: «وسأل الحسن المعز أن يشرّف ابنه أبا حسن بلقب والى صقلية ... إلخ». وهذه هى العبارة الصحيحة بدلاً من الخطأ: *"a quo cum nobilissimus filius ejus etc"*. والتاريخ الصحيح موجود أيضاً فى أبى الفدا، وطبقاً له فإن الحسن بقى فى

غالب چرانشى فى عملية مصر، التى اختلف مصيرها فيما بعد. وربما كان على جيش أفريقية أن يخوض غمار هذه الحرب بعد عودته من كلابريا إلى صقلية والذى انتقل إلى أفريقية بعد سفر الحسن إليها بوقت قصير(1).

وبينما كان يجرى التفكير فى هذا الفتح، ذهب الأمير ومعه جماعة تتسم بالجرأة إلى أسبانيا. فقد حدث أن مركباً صقلياً يحمل رسائل إلى المعز كان متجهاً إلى أفريقية فصادف مركباً ضخماً لم يكن له مثيل فى ذلك الزمان، أمر ببنائه عبد الرحمن خليفة أسبانيا الأموى وكان متجهاً للتجارة مع مصر، فقام رجاله بالسلب والقرصنة ضد المركب الصقلى ولم يحترموا ما ينقله. ولما علم المعز بالأمر كلّف الحسن بالثأر لما حدث باستخدام أسطول صقلية. ولما دخل الأمير ميناء المريه، حرق كل المراكب الموجودة به، واستولى على المركب الذى قام بالاعتداء وكان قد عاد من الاسكندرية ببضائع ثمينة ومغنيات فى ميعة الصبا لعبد الرحمن؛ ثم أبحر بعد أن أعمل فى المريه قتلا ونهبا، وعاد سالماً إلى المهدية. وقام الأسبان بغارتين على سواحل أفريقية ولكنهما لم تردا بالمثل، فقد اختلفت نتائجهما. وجرى هجوم آخر على المريه بعد ذلك سنة ثلاثمائة أربع وأربعين (من ٢٦ أبريل ٩٥٥ إلى ١٣ أبريل ٩٥٦)(2).

صقلية خمس سنوات وشهرين؛ ولكن سفره إلى أفريقية ينبغى أن يكون فى يونية أو يوليو ٩٥٣.

(1) *Cronica di Cambridge*، فى كتاب دى جريجوريو، المرجع المذكور، ص ٥٠، السنة ٦٤٦٢ (من أول سبتمبر ٩٥٣ إلى ٣١ أغسطس ٩٥٤).

(2) قارن بين: ابن الأثير، السنة ٣٤٤، المخطوطة *B*، ص ٢٨٦؛ أبو الفدا، *Annales Moslemici*، السنة نفسها، الجزء الثانى، ص ٤٦٢؛ ابن خلدون، *Storia dei Fatimiti*، مخطوطة باريس، الملحقات العربية، ٧٤٢ *quater*، الجزء الرابع، الورقة ٢٠ الوجه الثانى؛ كوندى: *Dominacion de los Arabes etc.*، الجزء الثانى، الفصل ٨٥؛ كاترمير، *Vie de Moezz*، فى *Journal Asiatique*، نوفمبر ١٨٣٦، المجموعة الثالثة، الجزء الثانى، ص ٤٠٤، حيث يذكر نصاً آخر لابن خلدون. أطلق ابن خلدون على الأسطول الذى هاجم أسبانيا «الأسطول الصقلى» فى العبارة الأولى.

وجاء الحسن إلى صقلية بعد أن ناداه نداء حرب أكبر. كانت الهدنة مع البيزنطيين قد جُددت سنة ثلاثمائة وأربع وخمسين لمدة عامين آخرين على الأرجح، وجاء لهذا الغرض إلى بالرمو الراهب أشوروبولو(1). ولكن قسطنطين، الذى ما كان يطيق دفع الجزية، والذى تشجع بسبب البسالة التى أظهرها جنوده ضد مسلمى آسيا الصغرى، أراد أن يجرب حظه مرة أخرى فى إيطاليا. فأرسل إليها جنود تراتشيا والمقدونية وعلى رأسهم النبيل ماريانو أرجيريو، كما أرسل الأسطول تحت إمرة قائدين أقل شأناً هما كرامبيا وموروليونى، سنة تسعمائة ست وخمسين(2)، عندما كانت الهدنة على وشك الانتهاء. بدأ أرجيريو من نابولى، المعروفة آنذاك فى البلاط بأنها متمردة وصديقة للمسلمين لاتفاقاتها القديمة معهم وربما الحديثة أيضاً: فحاصرها بحراً وبراً؛ وحرق ضواحيها، وأجبر سكان المدينة على الاعتراف بالسيادة البيزنطية وهو يضع نصل السكين على رقابهم. وخضعت بالمثل(3) أماكن مختلفة من الإمارات اللونجوباردية وكلابريا وكانت هى أيضاً متمردة بشكل أو

ويكتب كوندى أن مراكب أفريقية وصقلية كانت موجودة، ويقدم تفاصيل أخرى ربما استقاها من مؤلفين أسبان؛ ولكننا لا نستطيع أن نثق فى نقده أو فى رواياته.

(1) *Cronica di Cambridge*، السنة ٦٤٦٢ (٩٥٣ ـ ٩٥٤) فى كتاب دى جريجوريو، المرجع المذكور، ص ٥٠. الاسم هو *Asur b ls* وحرف الـ *s* الأول ينطق مثل حرف ç فى الفرنسية. ويبدو أن الاسم مركب من Ασσύριοσ و πουλος وهى فى اللغة اليونانية الحديثة نهاية تفيد اللقب. ولكن اللفظ بكامله ربما يكون اسم علم أو لقب عائلة ترجع إلى ما كان البيزنطيون يصرون على تسميتها أشور.

(2) إن تاريخ ٩٥٥ والذى ينبغى تصحيحه ٩٥٦ موجود لدى لوبو بروتسبتاريو. انظر موراتورى، *Annali d'Italia*.

(3) قارن بين: تتمة تيوفانس، طبعة بون، ص ٤٥٣ و٤٥٤، وشيدرينو، الجزء الثانى، ص ٣٥٩؛ وأولاهما هى أخبار القصر وهى معاصرة للأحداث، والثانى مصنف يرجع إلى القرن الثانى عشر ويختلف مع الأخبار فى تفاصيل كثيرة، ولا ندرى من أين استقاها. ولا يذكر الاثنان أى تواريخ أو إشارات دالة. أما عن الحرب مع مسلمى صقلية فإن الحوليات العربية تصمت عنها؛ ولا يوجد أى مرشد مؤكد إلا بعض الإشارات الواردة فى *Cronica di Cambridge* حتى يمكننا تفسير البلاغة المبهمة، الكاذبة غالباً، التى يستخدمها البيزنطيان.

بآخر؛ ومن يدرى فربما كانوا يدعون المسلمين بنذورهم وربما أيضاً باتصالاتهم؟ ولم يتأخر المسلمون. فقد وصل عمّار، شقيق الحسن، من أفريقية بأسطول فى التاسع من أغسطس عام تسعمائة وستة وخمسين، وقضى الشتاء فى بالرمو، وفى الربيع هاجم كلابريا(1). ولم يقطع عمّار البلاد بسهولة ويسر، بل يبدو أنه اضطر لطلب دعم فى بعض الأماكن واستنجد بأخيه فقد وجد نفسه محاصراً من الشمال من القوات البيزنطية الرئيسة، بينما كان باسيليوس القائد البحرى يجرب من جانبه أو من خلفه فرقة جريئة وأسطولاً صغيراً. وما أن نزل إلى ريجو، حتى قام باسيليوس بهدم المسجد، ثم أخذ بعناد يوجه مقدمات السفن إلى منتصف المستوطنة الإسلامية فى صقلية، واستولى على ترمينى على بعد أربعة وعشرين ميلاً من بالرمو، ثم هاجم مدينة مازارا، فهرول إليها الحسن، فانهزم الأمير هزيمة منكرة وفقد كثيراً من رجاله(2): ومضى باسيليوس عن صقلية دون أن يصيبها بأضرار أخرى. وفى السنة التالية (٩٥٨) وصل الحسن بأسطول صقلية إلى سواحل كلابريا وضم قواته إلى قوات عمّار ومضيا معاً إلى أوترانتو لمواجهة الأسطول البيزنطى بقيادة ماريانو أرجيرو نفسه. ومن الروايات الثلاثة المتباينة والمنقوصة التى لدينا عن هذه المعركة نجد أن رياحاً عنيفة قد هبت على أسطول صقلية عندما كان على وشك الاشتباك، مما أتاح الفرصة للنبيل ليخرج من المأزق دون أن يخوض المعركة، وللاستيلاء على سفينة من سفن المسلمين ألقت بها الرياح بين سفنه. ودفعت الرياح باقى السفن نحو صقلية وغرق عدد كبير

---

(1) *Cronica di Cambridge*، السنة ٦٤٦٤ (٩٥٦ ـ ٩٥٧)، المرجع المذكور، ص ٥٠؛ ابن الأثير، السنة ٣٤٥ (من ١٤ أبريل ٩٥٦ إلى ٢ أبريل ٩٥٧)، المخطوطة *B*، ص ٢٨٩ ويكتب قائلاً: «فى هذه السنة خرج الحسن بن على، صاحب صقلية، بأسطول ضخم ضد بلاد الروم».

(2) المرجع نفسه، أعتقد من الأحداث التالية أن عمّار كان مقيماً فى كلابريا وأن باسيليوس قد انسحب من الجزيرة.

منها . ثم تفاخر الصقليون بهروب أرجيرو؛ بينما روى أرجيرو فى القسطنطينية أنه حطم، بمساعدة الرياح، كل سفنهم وأغرقها؛ وكتب راوى أخبار بيزنطى، نجهل عصره، أن المسلمين المعسكرين فى ريچو، عندما رأوا الأسطول البيزنطى على وشك العبور من أوترانتو إلى صقلية، أصابهم فزع شديد فعادوا أدراجهم مسرعين وغرقوا فى بحر صقلية. وفى الحقيقة إذا كانت قوات عمّار تعسكر عند ريچو فإن أهل المدينة قد أعتقدوا أن ركوبها سفن الحسن، كان اندفاعاً للهرب، وأنه قد عُرف بعد ذلك أن هذه السفن لم تبحر إلى أوترانتو وإنما غرقت عند صقلية(1).

وعلى كل حال لم يهاجم النبيل الجزيرة ولم يحاول القيام بعملية أخرى تستحق الذكر. وقام الحسن بإعادة بناء أسطول صقلية(2) فى أقل من عام واحد. وليس مخالفاً للحقيقة، ولكن ليس مؤكداً، أن أسطولاً إسلامياً صغيراً قد هاجم فى ذلك الوقت نابولى لأيام عديدة وأخذ الأسرى وفقد غالبية السفن فى الهجوم، وفى النهاية وافق على ترك المدينة فى سلام بعد أن حصل منها على إتاوة نقدية وأوانى من الذهب والفضة: ومن الممكن أن نتصور كذلك أن أحد الأسرى قد رأى فى الحلم القديس چنّارو والقديس أجريبّينو اللذين وعداه بعتقه وهو ما تحقق فيما بعد(3)؛ ونعلم من مصدر

---

(1) قارن بين: تتمة تيوفانس، طبعة بون، ص ٤٥٤ و٤٥٥، وشيدرينو، الطبعة نفسها، الجزء الثانى، ص ٣٥٩ و٣٦٠؛ و*Cronica di Cambridge*، الموضع المذكور، السنتين ٦٤٦٦ و٦٤٦٧ (أول سبتمبر ٩٥٧ إلى ٣١ أغسطس ٩٥٩). ومن الواضح أن **تتمة تيوفانس** تنقل التقرير الرسمى للنبيل، مع شئ من التحفظ والاضطراب فى التواريخ. وقد حَفظ لنا شيدرينو الرواية الأخرى التى لا توجد لدى رواة الأخبار المعاصرين المعروفين لنا.

(2) *Cronica di Cambridge*، الموضع المذكور.

(3) دى ميو، *Annali del Regno di Napoli*، الجزء الخامس، ص ٣٥٨، السنة ٩٥٨. إن الكفيل الوحيد هو المؤلف المجهول لأعمال القديس أجريبينو. فإذا صدقنا الحدث، فإنه يبدو لى أن دى ميو على حق فى وضعه تحت سنة ٩٥٨ بدلاً من سنة ٩٦١، كما فكر آخرون.

أكثر ثقة أنه قد وقعت بعض المصادمات: ففى سنة تسعمائة وستين أسَر المسلمون أفرينا، أو رجلاً يسمى باسم آخر، وكان قائداً يونانياً بكل تأكيد؛ وأسَر البيزنطيون ابن بسلوس واقتادوه إلى القسطنطينية؛ وفى سنة تسعمائة وواحد وستين جاء إلى صقلية مندوب بيزنطى يسمى باسم عظيم، سقراط، ودفع فدية لأسرى شعبه الآخرين نقداً(1). وانتهت الحرب الهينة بهدنة تم توقيعها ـ على مايبدو ـ فى العام نفسه واستمرت حتى ارتقاء نيشفورو فوكا.

---

(1) *Cronica di Cambridge*، الموضع المذكور، السنتان ٦٤٦٨ و٦٤٦٩ (الأول من سبتمبر ٩٥٩ إلى ٣١ أغسطس ٩٦١). إن اسم أفرينا الذى نقلته، مكتوب بلا نقاط: ولذا فقد يكون مكوناً من الحروف التالية:
١ـ أ أ إ؛ ٢ـ ف، ق؛ ٣ـ ب، ت، ث، ن، ى؛ ٤ـ الحروف نفسها؛ ٥ـ أ أو هـ.

(2) شيدرينو، الموضع المذكور.

الفصل الثالث

وبعد أن هدأ السلاح، قام الحسن بعملين مهمين، ختم بهما الصداقة الجديدة التى قامت بين الفاطميين والجماعة الصقلية وهى الجماعة التى أصبحت موالية جداً بعد أن كانت غاية فى التمرد. سارع بالظهور في بلاط المهدية هو وولده أحمد بصحبة ثلاثين من خيرة وجهاء الجزيرة المسلمين، أدوا القسم للمعز، حسبما قال أحد المؤلفين(1)، وحسبما تذكر الوقائع المعاصرة، أدخلهم الحسن فى جماعة أمير المؤمنين(2): وعليه يبدو لى واضحاً أنهم انتسبوا لجماعة الإسماعيلية(3). ولم يحدث أبداً للفاطميين، من قبل، أن اجتذبوا إليهم، بهذه السرعة، أتباعاً بهذا الكم ولهم ذلك القدر. لذا

---

(1) ابن شداد، الذى أخذت منه هذه الفقرة لأبى الفدا، *Annales Moslemici*، الجزء الثالث، ص ٤٤٦، وما بعدها، عام ٣٣٦. ويتفق معه ابن أبى دينار، المخطوطة، باريس، الورقة ٣٧ الوجه الثانى. وكلاهما يرجع الحدث لعام ٣٤٧ (من ٢٤ مارس ٩٥٨ إلى ١٢ مارس ٩٥٩)، ويتحدثان فقط عن ذهاب أحمد والثلاثين معه، دون ذكر حسن.

(2) *Cronica di Cambridge*، عام ٦٤٦٩ (من ١ سبتمبر ٩٦٠ إلى ٣١ أغسطس ٩٦١)، فى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٥٠، حيث تحدث عن حسن وليس عن أحمد. وتباين التاريخ إما أنه لا يحدد ذات الحدث إما أنه يشير إلى سفرات مختلفة.

(3) إن مارتورانا، الجزء الأول، ص ١٠٠، وونريش، الكتاب الأول، الفصل الرابع عشر، § ١٢٨، ص ١٦٤، كلاهما يفسر ذهاب الثلاثين على أنه ذهاب من أجل اعتناق المذهب الشيعى. لكن كلام *Cronica* الذى ذكرته يحمل على الاعتقاد بأنهم ذهبوا للانتساب لجماعة الإسماعيلية. لم تكن هناك ضرورة للقسم من أجل تنصيب الأمير، الذى كان معترفاً به فى صقلية منذ سنوات طويلة. ولم يكن هناك قسم، أو إشهار لاعتناق المذهب الشيعى؛ الذى يختلف عن السنى فى جملة واحدة فى أذان الصلاة وفى بضعة نقاط فى الشريعة، وكان تطبيقها خاضعاً لممثلى الحكم، وما كان للأفراد دور فى ذلك. ومن جانب آخر فإنه بات جليا مدى اشتياق الطائفة الجديدة لضم أتباع للجماعة الإسماعيلية. انظر الكتاب الثالث، الفصل السادس، ص ١٤١، ١٤٢.

لم يكف المعز عن تكريمهم؛ وكان يقدم لهم الخلِع، أى تلك العباءات الفاخرة المصنوعة فى المصانع الملكية، وكان يغالى ويغدق عليهم الكثير فى الرواتب العسكرية(1)، وربما حباهم أيضاً بمنح أوفر من ذلك.

ولهذا فإننا نقرأ فى الوقائع أن أولئك الوجهاء كانوا يلحون على الخليفة للقيام بعملية على تاورمينا(2). وهذه الإشارة بالإضافة إلى الآثار التى نتجت بالعام اللاحق لذلك، تبين أن العملية كانت ترمى لتوسيع المستوطنات الإسلامية فى ڤال ديمونى وڤال دى نوتو، وإخضاع أراضى المنطقتين للخراج، أو نزع ملكية أو تقسيم أراضى هاتين المنطقتين حسب الأحوال؛ وتغيير أوضاع المسيحيين فيصبحون **ذميين** أو عبيداً بعد أن كانوا مواطني بلديات يؤدون الجزية. يبدو أن كان ذلك هو هدف الزيارة إلى أفريقية، والانتساب للطائفة. ولما كان المعز يتطلع دائماً للشرق وللعباسيين، أعدائه وأعداء الإمبراطورية البيزنطية على السواء، فربما رفض الطلب للحسن وحده، وربما وافق رغماً عنه لجمع نبلاء صقلية على تلك العملية التى كان يمكن أن تعرض السلام مع القسطنطينية للخطر. وما كان باستطاعته أن يرفض ذلك دون أن يشعل الاضطرابات فى صقلية. ولما كان اتفاق الأمان مع البلدان دافعة الضريبة، مؤقتاً بطبيعته، فلم يكن المستوطنون يستبعدون حق احتلالها بالقوة. ولم تكن تتقصهم الرغبة فى ذلك أو ربما الحاجة إليه، حيث كانت قيمة الإتاوة أقل بكثير من قيمة **الجزية** أو **الخراج**، كما أنها أقل أيضاً من ريع الأراضى. وكان الحسن بالتأكيد هو صاحب

---

(1) *Cronica di Cambridge*، الموضع المذكور، إن العبارة الذى ترجمتها «رواتب عسكرية» يمكن قراءتها بطريقة أخرى، ويمكن أن تعنى «مكاسب». ومع ذلك فقد تتحمل هنا مرادفات أخرى، حيث إنه لم تكن هناك أراضٍ يمكن تقسيمها، ولم يكن بإمكان الأمير اعطاء أراضى الدولة، ولكنه كان يستطيع تخصيصَ ريعها حسب نظام زمنى. انظر الكتاب الثالث، الفصل الأول، ص ١٩، وما بعدها من هذا المجلد.

(2) *Cronica di Cambridge*، الموضع المذكور.

هذه الفكرة ومحرّكها، حيث كان يتوق أكثر من غيره لأن يضع يده على صقلية الشرقية، ليزيد من عدد **الجند**، ويملؤها برجاله، وليضاعف من دخول الدولة وقوتها، مما يرفع من شأن التاج الفاطمى ويعود عليه وعلى أبنائه بالنفع الأكيد.

ومع عودة أحمد والنبلاء(1) تملأهم الفرحة، تفتح ربيع عام تسعمائة واثنين وستين، ببهجة عمت سائر المسلمين، بداية من قصور الأمراء وحتى أحقر أكواخ الفقراء. كان المعز قد أعلن فى أنحاء الدولة كافة أن يوم ختان ولده، هو أيضاً يوم ختان الصبية الذين بلغوا السن في جميع الأسر، ووعد بأن ينفق هو على الاحتفالات التى اعتادوا القيام بها لذلك الخروج المهم للرجال من حضن أمهاتهم إلى جماعة المدينة(2): وهذه هى عاده المسلمين الأثرياء حينما يغدقون علي رعاياهم، ويشارك فقراء البلاد في الموائد وطيباتها(3) . وعلى ذلك فمع هلال ربيع الأول عام ٣٥١ (٨ أبريل ٩٦٢)، وإذ كانت أسماء الصبية مسجلة من قبل، تم أخذهم لإتمام ذلك الطقس، بدءاً من ابن الأمير أحمد واخوته، ثم نزولاً بعد ذلك إلى النبلاء وحتى صغار القوم، وكان مجموعهم في صقلية خمسة عشر ألف صبى، وخُصص لهم من عند الخليفة مائة ألف درهم وخمسون حِمل ثياب وهدايا صغيرة(4). والختان عادة عربية ضاربة في القدم، وليست تعليماً قرآنياً، لايقترن بوقت محدد، وجري العرف على أن يكون في سن السابعة، وقد تختلف في ذلك عائلة عن أخرى لذا فقد يجرى فى السادسة عشر من عمر الفتى. ومع أن الرقم الذى أشرنا إليه لا يدل بكل تأكيد على عدد السكان

(1) أبو الفدا، وان أبى دينار، بالموضعين المذكورين، من المفهوم أنهما لم يوردا شيئاً مما نسبته من أفكار إلى المعز وإلى الحسن والوجهاء الصقليين.

(2) النويرى الذى استشهد به كاترمير *Vie de Moez, Journal Asiatique*، المجموعة الثالثة، المجلد الثانى، ص ٤٢٠.

(3) دوهسون، *Tableau de l'empire Ottoman* ، الكتاب الثانى، الفصل ١٧.

(4) أبو الفدا، وابن أبى دينار، الموضعان المذكوران.

المسلمين بالجزيرة كلها ؛ فإنه يمكن الإفادة منه لتقدير عددهم تقديراً تقريبياً(1).

ودون تأجيل بدأ أحمد فى تنفيذ الخطة المرسومة. فتحرك في شهر مايو بجيش من الصقليين والأفارقة، للهجوم على تاورمينا؛التى كان مواطنوها قد أعدوا العدة للدفاع، حتى الموت، عن مالهم وعن حريتهم، إذ كانوا على علم بدوافع الهجوم. ودافعوا فى بسالة، ولم يتهيبوا من رجال الحسن بن عمار، ابن عم أحمد، وقد جاء من أفريقية إلى بالرمو أول أغسطس وهرع إلى ميدان الحرب. ولكن حينما قطع المسلمون مجرى المياه التى كانت تروى عطش المدينة، بات النزول إلى الاتفاق ضرورة. ولما رفض أحمد أى اتفاق مشرف للمدينة، إذ كان يحسن معرفة هدفه، أجبرت قسوة العطش أهل تاورمينا على تسليم كل ما كانوا يملكون وأنفسهم عبيداً، لينجوا بحياتهم: وهكذا خرجوا من حصنهم يوم الرابع والعشرين من شهر ديسمبر، بعد سبعة أشهر ونصف من الحصار. ويكتب ابن الأثير أن ممتلكات المغلوبين أصبحت **فيئاً**؛ بما يعنى أن الأراضى خضعت للضريبة العامة، للانتفاع بها فى رواتب الجند. وأرسل الأمير إلى المعز ألف وسبعمائة وسبعين أسيراً(2). ووضع

(1) طبقاً لبيان السـكان فى فرنسا وفى بعض مناطق إيطاليا التى اطلعت عليها، فإن الصبية من الذكـور فى سن السابعة يبلغ عددهم واحد من مائة من عدد السـكان. وإذا افترضنا أن نصف الخمسـة عشر ألفاً فى سن السـابعة والنصف الآخر يفوق عمره الثامنة فسـوف يصل عدد سـكان صقلية المسلمين فى عام٩٧٢ إلى ٧٥٠.٠٠٠ نسمة، وهو عدد لا يتعارض مع الحسـابات التى أجريناها فى معطيـات أخرى، الكتاب الثـالث، الفصل الحـادى عشر، ص ٢١٦ من هذا المـجلد. وفى كتاب *Somma della Storia di Sicilia*، بالرمو ١٨٣٤، الجزء الأول ص ٣٧٦، يكتب بالميرى فى هذه النقطة ويقدر عدد مسلمى الجزيرة بثلاثمائة الف نسمة. ويخطئ؛ حيث يرى أن الختان بدأه الفاطميون، وأنه أجرى فى صقلية للمرة الأولى، ولكن فى جميع الصبية من جميع الأعمار.

(2) يقدرها النويرى بألف وخمسمائة وسبعين. وبافتراض أنها الخمس أى نصيب الأمير فسوف يصل عدد سكان تاورمينا إلى ٩٠٠٠ نسمة. ولكن ربما لم يقتض الأمر اتباع النسبة القانونية، فربما أرسل المعز جنودا من عبيده، وله أن يأخذ نصيبهم من الأسرى ومن الغنائم.

بالمدينة حامية قوامها بضع مئات من المسلمين،وغير اسمها، إكراماً للخليفة، من تاورمينا إلى المعزية(1).

ويظهر ذلك بداية الجماعة، ويوحى بالنظام المرتقب فى كل المنطقة الشرقية. وحتى لا تتدهورالمعزية، فقد تقرر بالطبع ترك السكان الزراعيين فى الأرياف؛ والإبقاء على صغار القوم من التجار أو الصناع فى المدينة بصفتهم عبيداً أو معتوقين. ومن المؤكد أن الأراضى غير المحمية أو قليلة السكان كانت تطلب **الأمان** وتحصل عليه؛ حدث ذلك قبل تاورمينا أو بعدها؛ وهكذا أخذ المواطنون يقبلون وضعهم بمثابة **ذميين** ليتحاشوا أن يستعبدوا، أو أن يجردوا من ممتلكاتهم الخاصة، وبدأت تستقر فرق صغيرة من **الجند** فى أهم الأماكن. وفى هذا الشأن نعرف على وجه الخصوص ما كان فى سيراكوزا، حيث ظهرت بعد سنتين مستوطنة صغيرة لاتقوى على الدفاع عن نفسها ضد بضعة قوارب بيزنطية، ولكنها بدت بعد خمس سنوات أخرى، وقد اشتد كيانها، حتى علا صوتها فى الحرب الأهلية(2). وعلى ذلك فهناك احتمال أنهم نزلوا عند أطلال أكرادينا وأورتيچا نحو عام تسعمائة واثنين وستين؛ حيث وجدوا بعض

---

(1) قارن *Cronica di Cambridge*، عام ٦٤٧٠ ـ ٧١، المرجع المذكور ص٥١؛ وابن الأثير، عـــام ٣٥١، المخطوط *B*، ص٣٠٢؛ وأبوالفـدا، *Annales Moslemici* عام ٣٣٦ و٣٥١، المجـــلد الثـــــانى، ص ٤٤٦ ومـــــا بعدها، و ص ٤٧٨؛ والنـــويرى، فى دى جريجــــوريو، *Rerum Arabicarum*، ص١٥و١٦، وابـن خـــلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص١٧٠، و**تاريخ الفاطمين**، مخطوطة باريس، ملحقات عربية، ٧٤٢، *quater*، المجلد الرابع، ورقة ٢٠ الوجة الثانى، وترجمة م. دى سلان فى حاشية *Histoire des Berbères par Ibn-Khaldoun*، الجزء الثانى، ص ٥٤٢؛ وابن أبى دينار، مخطوطة باريس، ورقة ٣٧ الوجه الثانى وما بعدها؛ ولوبو بروتوسباتاريو، فى بيرتز، *Scriptores*، الجزء الخامس، ص ٥٤.

(2) فيما يخص سيراكوزا فى عام ٩٦٤، انظر بقية هذا الفصل، وفى عام ٩٦٩، انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب الرابع. أما بالنسبة لباقى المدن فلم تتوافر لى نصوص استشهد بها.

التجمعات من الشعب المسيحي. على أية حال، فبعد احتلال تاورمينا، أصبحت صقلية جميعها خاضعة للمسلمين فيما عدا راميتا، البقية الباقية من البلديات اليونانية والرومانية فى صقلية؛ والملاذ القديم، فيما أرى، للأشداء من مواطنى مسينا(1)، والآن أصبحت ملاذاً لمسيحيين آخرين من الإقليم ممن آثروا مواجهة الموت على مهانة الخضوع.

وما أرى فى التاريخ شعباً عرف بعزة النفس أكثر من ذلك: كانت تجهيزاته مدروسة بعناية، وعزيمته قوية، وقدرة القتال فيه عالية، وأمله ضعيف فى وصول مساعدات ومع ذلك ألقي بالقفاز في وجه المنتصرين. فحينما توفى الإمبراطور رومانو الثانى (١٥ مارس ٩٦٣) وخلفه طفلان، تنازعت السلطة أمهما الجاحدة وأحد المعاونين الضعفاء؛ وما كان أحد فى صقلية يعرف نتيجة الثورة العسكرية التى نصبت نيتشيفورو فوكا (١٦ أغسطس ٩٦٣)، عندما كان حسن بن عمار يضع معسكره فى راميتا، فى نهاية رجب عام ثلاثمائة واثنين وخمسين (٢٣ أغسطس ٩٦٣)؛ وكان قد حضر ليعاقب حركة التمرد، حسبما كان يقال عادة. وكانت الشكوك قليلة في نتائجها، لدرجة أن الأمير أحمد ســـافر فى الوقت نفســـه إلى أفريقية(2) ليقوم، فيما يبدو، بوضـــع نظام إدارى للجزيرة مع المعز، الذى أمر حينئذ ابن عمار باخضاع راميتا. فجاء ونشر المنجانيق و**العراضات**(3)، لضرب الأسوار؛ وعمـــل على إرهـــاق المواطنين بهجمـــات يوميـــة، ولم يجن من ذلك شـــيئاً. وعندما فكر فى إخضـــاعهم بالتجـــويع، قضى بين تلك المرتفعات الشتاء والربيع والصيف، وهو يحكم

---

(1) انظر الكتاب الثانى، الفصل العاشر، ص ٤٨٦ من هذا المجلد.

(2) قارن *Cronica di Cambridge*، عام ٦٤٧١ (٩٦٢ ـ ٣)، المرجع المذكور، ص ٥١، والنويرى، المرجع المذكور، ص ١٦.

(3) هذا اللفظ وهذا الحدث وردا لدى النويرى وحده. والعراضات آلات قاذفة أصغر حجماً من المنجانيق، حسبما تصفها المعاجم، وكانت تستخدم عند العرب فى القرن العاشر، وقد ذكر ذلك الماوردى، طبعة إنچر، ص ٧٥.

تحصين معسكره بالخنادق، وأقام لنفسه قلعة وللجنود دياراً صغيرة(1).
أما أهالى راميتا فقد طلبوا فى هذه الأثناء العون من نيتشيفورو فوكا، **الخادم**، كما يسميه العرب دائماً، لمهمته الحالية التى قام بها قبل تنصيبه، وجللها باحتلال كريت (مايو ٩٦١) وبانتصارات أخرى حققها(2). وعندما اعتلى العرش أراد أن يعفى الإمبراطورية من مذلة دفع الجزية للمسلمين، وكان يحدوه الأمل فى أن تكفى رعايته وجيوشه نفسها لاستعادة صقلية بتشجيع من سكانها المسيحيين. لذا جمع جيشاً ضخماً، قيل عنه إنه مكون من أكثر من أربعين ألف رجل(3)، من أقوام مختلفة: ـ أرمن، وهم من أقدم من دافعوا عن الإمبراطورية؛ ومن المرتزقة الروس(4) الذين تنصروا حديثاً؛ وباوليتشان(5)

(1) النويرى، الموضع المذكور.
(2) حسب ما أورده الكتاب البيزنطيون الذين ذكرهم لوبو فى *Histoire du Bas Empire* ، الكتاب ٧٤، الفصل ٤٦، فإن كلا الخليفتين، العباسى والفاطمى تخليا عن الكريتيين نظراً لعدم تمكنهما من المساعدة. وعند بعض كتاب الحوليات المسلمين ورد خطأ أن المعز أرسل قوات حررت كريت؛ وهو الأمر الذى لاحظه م. كاترمير فى إحدى المؤلفات الفارسية، وفى حصافة أعزاه إلى اختلاط فى زمن وقوع الأحداث، حيث ذكر الحدث فى مكان هزيمة قسطنطين جونجيل عام ٩٥٨. انظر *Journal Asiatique*، المجموعة الثالثة، المجلد الثانى، ص ٤٢٠، ٤٢١. ولكنه تصادف ووجدت الرواية نفسها فى ابن الأثير، عام ٣٥٠ (٩٦٢)، المخطوطة C، المجلد الرابع والخامس، وفى مخطوطة أخرى من مخطوطات باريس، ملحقات عربية، ٧٤١ مكرر، ورقة ٢٢٨ الوجه الثانى؛ إلا أنه فى إحدى المخطوطات يقرأ بوضوح اسم كريت، بينما ورد فى الآخر «جزيرة ...» مع ترك مكان الاسم خالياً. وعليه فيمكن اعتبار الخطأ وارد فى الاسم وليس خلطاً زمنياً. ورأيت من المناسب ذكر ذلك، فربما كانت الجزيرة المقصودة هى مالطة.
(3) ابن الأثير.
(4) النويرى.
(5) النويرى. وقال عنهم هذا المؤلف مجوس. وترجمها دى جريجوريو إلى فرس *Persis*؛ وأورد م. كاترمير، المرجع المذكور، لفظ نورمان *Normands* بين قوسين، إنهم دون أدنى شك البوليتشان، الذين استحقت هرطقتهم المانوية أن تجد لدى المسلمين تسمية مجوس الشائعة. ونحن نعلم أن فيالق تراتشا كانت تقوم على الباوليتشان وأنها انتصرت فى كريت. انظر لوبو، المرجع المذكور، الكتاب ٧٤، الفصل ١٤، وچيبون، *Decline and Fall*، الفصل ٥٤، هامش رقم ٤.

مراطقة، أخذوا يعملون تحت لواء مضطهديهم، حال نقلهم إلى تراتشا، واشتهروا بقوتهم القتالية الضارية: ومن بين هؤلاء كان الروس والباوليتشان قد أظهروا بأسهم فى كريت(1). وتم تجهيز سفن لم يسبق لضخامتها مثيل، لتعبر بالرجال، وكانت سفن القتال قوية ومزودة بالنيران(2)؛ وكان يزيد من هول الجيوش كثرة الآلات القاذفة التى كانت تحملها(3)؛ وبالضرورة كانت هناك حاجة إلى من يبتهل إلى السماء، ويرعى ذلك الحشد المتباين فى عاداته ولغاته وأفئدته الأجنبية، ويضمه فى رحاب أبوة كاهن، يصلى، ووضعت هذه المسئولية في يد نيتشيفورو، وكان رجلاً ذا مروءة، ورجاحة عقل، وكان كاهناً للبلاط، ثم بعد ذلك أسقف ميليتو، ثم فى النهاية أصبح قديساً معترفاً به(4). وحتى هنا تصرف الإمبراطور بحس الجندى القديم. إلا أنه اختار القادة بإنعام القصر وسرعة بديهة. ولم يكن قائداً واحداً بل إثنين، وكلاهما من الأشراف؛ وكان أولهما شقيق القهرمان، وكان اسمه نيتشيتا؛ وكان متشبعاً بالتعاليم الدينية، متبحراً فى كتابات الآباء القديسين، ولكنه أخطأ طريقه ووجد نفسه فى تلك الآونة كبير حملة سلاح الإمبراطور، وهو ما يعنى مساعد الإمبراطور فى الميدان وتقلد رتبة نائب أمير البحرية، أى القائد الخاص بتجهيز السفن(5)، والقائد الأعلى للعملية(6). أما الآخر فكان مانويل، الابن غير الشرعي لليونى فوكا، وابن شقيق نيتشيفورو فى الوقت نفسه، وقد عين قائداً للفرسان: وكان شاباً تغلى الدماء فى عروقه، متصلب الرأى، ذا

(1) لوبو، الموضع المذكور.
(2) ليونى دياكونو كالوينسى.
(3) ابن الأثير.
(4) *Vita di San Niceforo vescovo di Mileto*.
(5) ليونى دياكونو، *Vita di San Niceforo*.
(6) *Vita di San Niceforo*.

عزيمة غاشمة(1). وبالجمع بين هذين الاثنين فكر نيتشيفورو فى تكوين القائد المثالى، دون اللجوء إلى أى ممن حاربوا معه من آسيا الصغرى وخبرهم، ويمكن أن يذهب إلى صقلية ويكتسب شهرة ثم يضع نفســـه، كمـــا فعل هو نفسه، على الطريق إلى العرش: ذلك ما حـــال دون التفـــاته لخطأ وضع رجل عزيز النفس طاغى القوة تجرى فى عروقه دماء الأمراء، على مستوى النّدبة والطاعة العسكرية. ومع ذلك فما كان بالقسطنطينية من يشك فى إحراز النصر. وعلاوة على ضخامة كل ذلك الجهد كانت هناك كتب جديدة للتنبؤات ممثلة فى رؤى دانييلى وتنبؤات إيبوليتو، أسقف صقلية، التى لم تسقط منها واحدة؛ وكان يقرأ فيها كيف أن السبع والشبل، يأتى يوم، ويلتهما الوحش. وكان واضحاً لليونانيين أن الوحشين ذوى الأنياب كانا يرمزان للإمبراطورين المسيحيين نيتشيفورو وأوتونى، بينما يرمز وحش الصحراء الآخر إلى المعز؛ إلا أنه بعد أربع سنوات من الهزيمة، جاء ليوتبراندو ليسخر منهم إذ لم يفهموا. حيث إن أوتونى وولده، مثل أسود حقيقية، كان عليهما أن يأكلا نيتشيفورو، الحمار الوحشى، الذى أتى بالمحرمات. وهكذا أخذ أسقف كريمونا اللاذع يتحدث فى تعقل، وأعزى انتصار المسلمين للثقة التى اكتسبوها وهم يفسرون مثله تماماً، نبوءة إيبوليتو(2).

ولما عرف أحمد باستعدادات العدو، أسرع بإصلاح السفن الصقلية وتسليحها؛ وجَهَّزها ببحارة وجنود، وطلب تعزيزات عاجلة من المعز. ولم يأبه المعز بالتكاليف، وأرسل سفناً أفريقية بحشود كبيرة

(1) ليونى دياكونو.

(2) ليوتبراندو. يعرف الجميع سبب سخطه على البيزنطيين، ذلك لأنه لومباردى؛ وسخطه على نيتشيفورو فوكا لأنه استقبله ببرود، أو أكثر من ذلك، حينما أرسله أوتونى الأول إلى القسطنطينية مبعوثاً.

من البربر(1)، بقيادة الحسن أبى أحمد. ولما وصلت فى شهر رمضان (١١ سبتمبر إلى ١٠ أكتوبر ٩٦٤)، أرسل الحسن جيشاً إلى الميدان فى راميتا، وظل هو وغالبية رجاله فى بالرمو، حيث علم بنزول باسيليوس البر فى غرب صقلية (٩٥٧). وكان الجيش البيزنطى قد تجمع على لسان كلابريا، بعد أن عبر البحر الأدرياتيكى. وبدأ يوم الثالث من شوال (١٢ أكتوبر)، عبور المضيق وأتمه فى تسعة أيام، واحتل مسينـا فور وصـوله؛ وحصنها بالخنـادق وأصلح بناء الأسوار(2) وفى الوقت نفسه كانت جيوش أخرى، نقلها الأسطول بالتأكيد، قد بدأت فى الظهور على الساحل جهة الشمال وجهة الشرق؛ وباغت أحدهما ترمينى واستولى عليها، ونجح بذلك فى قطع مساعدات الحسن؛ أما فى الساحل الآخر فكان الجيش موزعاً بلا داعٍ بين تاورمينا ولينتينى وسيراكوزا، وقام بالاســـتيلاء دون قتـــــالٍ على المدينتين الأولتين، بينما أخذ الثالثة بعد معركة(3). وهذا الخطأ المتمثل فى إبعاد رجال كثيرين عن مسينا، علاوة على خطة الحرب، وسوء الانضباط لدى الجنود، كانت مظـــاهر لم تخف على المتلهفين من مســـــيحيى صقلية.

(1) ابن الأثير، والنـــويرى، وباقى الكتـــاب العـــرب. ويســـتخلص اســـم البربر من *Cronica di Cambridge* فقط، حيث أساء الناشرون الأول فهم اللفظ ومنهم دى جريجوريو؛ حتى إنهم ترجموه إلى اللاتينية: *"Cum Copiis Ben-Aler"*. وبدلاً من اســـم العلم هذا، يجب أن يقرأ اللفظ، دون أدنى شك، *Berà ber* برابر، وهو جمع بربر.

(2) ابن الأثير، والنويرى، وباقى الكتاب العرب.

(3) ليونى دياكونو هو الوحيد الذى أشار إلى هذه الأحداث، وسط صيغ بلاغية متعارف عليها، جعلتنى أتشكك فيما إذا كان الكاتب حسب أسلوب علمى متعارف عليه آنذاك قد حشر فيها، جميع الأسماء القديمة التى كانت تخطر على ذاكرته من جغرافية صقلية. فهو يطلق على ترمينى، اسمها القديم إيميرا، ولم يذكر كلمة عن راميتا. أورد أنه لم يستطع الصقليون الدفاع عن المدن، انسحبوا فوق المرتفعات وداخل الغابات. وحينما طاردهم الرومان هناك حيث تحجب الأغصان الكثيفة ضوء الشمس، تفككت جحافلهم، تصيدهم البربر المتربصون لهم بين الأغصان والكهوف، .. إلخ. ومع ذلك فوسط هذه الجمل المدروسة المألوفة، فإن قصة المدن الأربعة المذكورة لها شكل الحقيقة؛ وأكثر من ذلك أننا نعرف من مصادر أخرى أن المسلمين واصلوا القتال فى أماكن مختلفة بعد نصر راميتا ودل فارو. لذا أقر هذه الشهادة.

ويحكى عن براسيناكيو، رجل الفضائل، الذى كان قد اتخذ له مكاناً يعتكف فيه، على المضيق، وكان من بين «أصحاب الرؤي»(1) ممن يعتقد فى وضوح رؤاهم فى البلد، ويُحكى أنه أسرّ بإحساسه بالهزيمة المحدقة إلى كبير الكهنة البيزنطى الذى لم يكن يتوقع غير ذلك من تلك الزمرة المسلحة(2) التى كلفوه برعايتها.

وبينما كان نيتشيتا يخوض بالجزء الأكبر من سفنه على طول ثلاثمائة ميل من الساحل، انحصر مانويلى فوكا مع القسم الأكبر من الخيالة بين مساقط جبال نتّونى، لكى يمد يد المساعدة لراميتا. وهى إذا ما نظرنا إليها على الخريطة، تقرب من مسينا بمسافة تسعة أميال(3)، ولكن يرتفع جبل الدينامار حائلاً بينهما، وهو يطل على مياه اليونيو ومياة التيرانى، وترتفع قمته ثلاثة آلاف وثلاثمائة قدم عن سطحهما. لذلك فمن يصعد من مسينا إلى راميتا، عليه أن يتابع الدوران مسافة طويلة حول الجبل فى اتجاه الشمال والغرب حتى سباتافورا، أو باتجاه الجنوب حتى ميلى، ثم الصعود مرة أخرى من هذه النقطة أو تلك من خلال الوديان المشتركة؛ ويمتد طريق الأولى أربع وعشرين ميلاً، بينما يزيد طريق الأخرى عن ثلاثين. والطريقان يؤديان إلى سهل مستدير، قطره ثلاثة أو أربعة أميال، ترتفع فى وسطه هضبة أو بالأحرى كتلة هائلة، تعتمد على طريق واحد ضيق وعر وشاق طوله نصف ميل؛ أما القمة وهى غير منتظمة فتتوجها الأسوار. هذه هى راميتا. والسطح المحيط بها يبدو كحلبة جهزت للجيوش، للنزال حتى الرمق الأخير. تحدها حواف مخيفة فى انحدارها، يشقها ما يفى بفتح طريق ناحية الشمال إلى سبّاتافورا، وناحية الجنوب إلى

(1) θεοπτικων.

(2) اعتقد أننى بهذه العبارة دون غيرها من ترجمة حرفية، قد نقلت بصورة أفضل النص القائل: ἀναγωγίαν πλείστην τῶν στρατηγῶν. Vita di San Niceforo vescovo di Mileto.

(3) انظر الكتاب الثانى، الفصل العاشر، ص ٤٨٧ من المجلد الأول.

ميلى، ومضيق آخر نحو الغرب يؤدى إلى مونفورتى. وتقطع السهل من الجانب الشرقى هوة تبدو كما لو كانت خطاً قطعها ميزان بناء، ولمسافة أميال عديدة من الجنوب إلى الشمال، وهو قطع غائر فى الحجر الصوانى، واسع، عميق؛ وعند قاعه يتخذ أحياناً شكل الخندق المحفور للقلاع، ولا يمكن النزول فيه، هكذا يصفه كتاب الأخبار العرب؛ وكذلك يؤكد لى رجال خبروا هذه الأماكن، ومنهم عرفت ما كتبت عنه: ويرد ذكر حلوق الجبل الثلاث عند العرب أيضاً ولكنهم ذكروا فقط اسمى ميكوس وديمونا؛ وفى يومنا هذا يبدأ من أولهما طريق ميلى ومن الثانى طريق مونفورتى. ويرجع هذان الاسمان إلى وجود قلعتين كانتا مهمتين جداً فى ذلك الحين؛ لذا رأينا أن نتناولهما بالحديث(1).

وكان ابن عمار قد أخبر أحمد بنزول العدو من البحر فتحرك فى الحال من بالرمو(2)؛ ولكنه لم يستطع الوصول قبل مانويلى، الذى ما أن جمع رجاله فى مسينا حتى قادهم، على عجل، إلى راميتا، ليلة الخامس عشر من شوال (٢٤ أكتوبر). وأرسل فرقة فى محاولة للعبور إلى ميكوس، وأخرى فى طريق ديمونا، وفرقة ثالثة لقطع المساعدات على طريق بالرمو: وتابع هو الطريق الساحلى حتى سباتافورا، بجيشه الذى قسمه إلى ستة فرق؛ وبعدئذ صعد عند منعطف راميتا. وحينئذ كان لابد لابن عمار من أن يستغنى عن ثلاث فرق ليغلق الطريق إلى ميكوس وديمونا، وليواجه المُحاصَرين

(1) انظر الكتاب الثانى، الفصل الثانى عشر، المجلد الأول، ص ٥٢٣، الهامش رقم ٤؛ والكتاب الثالث، الفصل الرابع، ص ٨٥، هامش ١. والنويرى هو الوحيد الذى أورد أسماء الأماكن، فى المخطوطتين، وبهما يسهل التأكد من اسم ديمونا. ولكن ليس الحال كذلك مع الاسم الآخر حيث توجد أحرف *"Ksc"* «قش» أو *"Ks"* «قص» حيث إن الأحرف الأولى مشكوك تماماً فى حقيقتها. كما أرى أن الأصوب هو ما ورد بالإدريسى فهو أفضل المخطوطات.

(2) النويرى؛ ولكن لم يحدد ما إذا كان براً أم بحراً. والاحتمال الأول هو الأرجح، وأن احمد قد أطال المسيرة تحاشياً لترمينى، التى يحتلها الأعداء.

إذا حاولوا الخروج. ولم يبق له إذن إلا الاعتماد على تكتل جيد، قوامه أو أغلبه من العرب الصقليين، يشاركه فى مواجهة مانويلى. ومع الفجر أشعلوا المعركة(1).

ولم يتوان مواطنو راميتا فى حمأة المعركة، عن مواجهة الحشد الإسلامى، الذى ردهم داخل الأسوار. وكان كذلك حظ أولئك الذين احتلوا طريقى الجنوب والغرب وصدوا البيزنطيين(2). ولكن العرب الذين عانوا طويلاً فى قتالهم ضد مانويلى، وكانت مذبحة مروعة للعدو ولهم، حيث كانت تصيبهم قذائف الآلات المكثفة، والخناق يضيق عليهم؛ فقد بدأوا ينسحبون إلى مكامنهم(3). وواصل المسيحيون مطاردتهم، والانتشار فى السهل، وتطويق الميدان: «إذا كنا قد طاردناهم من الطريق، ماذا يستطيعون الآن ونحن نطوقهم وننزع عنهم الهواء؟». ومبالغة فى الثقة فى النصر، تراخت صفوف البيزنطيين واختل نظامهم. أما الآخرون، فإنهم كانوا واثقين وتواقين أيضاً للموت(4)، فقد أرادوا فى التو مواجهة مصيرهم، وهم يرددون أبيات شاعر عربى قديم قال ما معناه: «تقهقرت حباً فى الحياة، وآه من نفس بصدرى دون إقدام! لتصبغن جروح الجبان أعقابه، ولنا تمطر دماؤها بنان الأقدام»(5).

(1) قارن بين: ابن الأثير والنويرى. وهذا الأخير، كما قلنا، لم يذكر اسم الطريق الذى سلكه مانويلى؛ ولكن الطريق الوحيد الذى تبقى متاحاً له، كان طريق سباتافورا، لأنه أقصر الطريقين الصالحين للمرور. وهذا الاستنتاج الذى تفرضه الضرورة يؤكده وضع الفرقة على طريق بالرمو.

(2) ابن الأثير؛ والنويرى.

(3) يذكر المؤلفون أن ابن عمار ذهب لمواجهة مانويلى، دون تفاصيل تحدد المكان الذى كانت تدور فيه المعارك قبل التجمع في الميدان. ولكنه من الواضح أن القتال كان يدور فى وهد سباتافورا. لم يكن بمقدور ابن عمار أن ينتظر فى السهل عدواً يفوقه فى العدد والخيول.

(4) ابن الأثير، النويرى ... إلخ.

(5) هذه الأبيات التى لم يذكرها سوى ابن الأثير، هى من أشعار حسين بن همام، من قبيلة مرة، ويتضمنها كتاب مختـارات من الشعـر، عنوانه «الحمـاسة» أى «فضائل فى الحـرب»، والنص العربى قام بنشـره فرايتاج، ص ٩٢، ٩٣. وقد عاش حسين قبل

واندفعوا مع ابن عمار: وجمّعهم وقع الأبيات فى قوة أفسحت أمامها الطريق. ولما رأى القائد أنه يمكنه النصر بدلاً من الموت، صاح بأعلى صوته: «اللهم، إن تركنى بنو آدم، فلا تتركنى أنت». وقام يشحذ الهمم، حتى فرق صفوف العدو، وعبثا حاول قوادهم إعادتهم إلى الصواب بالكلام وبالقدوة. وكان مانويلى يحثهم وسط الضجيج ومعه نخبة من فرسان؛ وأخذ يواجههم بما تفاخروا به أمام الإمبراطور والآن يهربون أمام حفنة من بربر. وجرح بين المسلمين أثناء ذلك؛ وقتل رجلاً بسيفه؛ ثم وجد نفسه مطوقاً، تضربه السهام من كل جانب، ولكنها لم تخترق درعه القوى. أخذوا حينئذ يرمون جواده، فمن يصوب من الأمام ومن من الجانب وما أن سقط الجواد على الأرض بصاحبه حتى هجموا عرباً ويونانيين يتعاركون فوقه، وانتهى آخر الأمر مانويلى ومن ساعده. وتفرق الآخرون. وكان ذلك بين الظهر والعصر(1)، وكانت غالبية العرب من المشاة، كما هو واضح من واقعة مانويلى التى أنهت المعركة.

واستمرت المطاردة والهرب، والمذابح حتى ساعات الليل. ولكى تأتى الأقدار(2) بأهوالها الملحمية جاءت غمامة سوداء، أظلمت ذلك المكان الذى تطوقه الجبال، ثم تفجرت عن بروق ورعود حينما

الإسلام؛ والقليل الذى نعرفه عنه يمكن الاطلاع عليه فى شروح «**الحماسة**»، الموضع المذكور، وفى ابن دريد «**كتاب الأصول**» بالنص الذى قام وستنفيلد بنشره فى جوتنجا، ص ١٨٦. والأبيات التى رددها المقاتلون تدل على أنهم عرب، ولكنهم من المستوطنة الصقلية؛ لأن المعز كان قد أرسل من أفريقية جنوداً بربر. أما الجند العرب بأفريقية، إذا ما كان قد تبقى منهم البعض فى ذلك الوقت. فقد تقلص عددهم بما لا يسمح بمجيئهم إلى صقلية.

(1) يكتب النويرى: حتى بعد صلاة الظهر، وهى الصلاة التى تؤدى عند منتصف النهار؛ ويكتب ابن الأثير: فى ساعة العصر. وكانت فى ذلك الفصل تقابل الساعة الواحدة والعشرين ونصف الساعة، حسب طريقة قدمائنا.

(2) بما أننى استخلصت هذه التفاصيل من العرب، فليس هناك أدنى شك فى وجود صنعة بلاغية. فالعرب لا يحلقون بالطبع بخيالهم فى حولياتهم.

لاح النهار؛ وقست على الفارين، وزادت مخاطر تلك الأماكن المجهولة. وحينما أخذت فرقة كبيرة تجول على غير هدى بالمنحدر، انزلقت فى الحفرة؛ التى امتلأت بالرجال والجياد، حتى مر من فوقهم المنتصرون بخيولهم المسرعة، هكذا قالت حولياتهم، ولعله غير مستحيل. وفى كل ناحية بين الغابات وبين الصخور كانوا يطاردون فلول الفرق، ويذبحونهم بكل ما أوتوا من قوة: وأسر قلة من الأشراف أو كبار الرجال، لعدم إمكانية تخليصهم. وقليلون جداً تمكنوا من النجاة بالفرار. وكان عدد القتلى يزيد على العشرة آلاف؛ وكانت الغنيمة لا تحصى من الخيول، والمتاع، والسلاح؛ ومن بينها عثروا على سيف انتقل من عند المسلمين إلى المسيحيين فى الشرق، ثم وجدوه فى ميدان حرب راميتا الدامى. وكان محفوراً عليه بالحرف العربى: «هذا سيف هندى، وزنه مائة وسبعون مثقالاً، قتل الكثيرين أمام رسول الله». هذا الأثر، الذى يرجع لحروب الإسلام الأولى، تم ارساله بعد ذلك إلى المعز مع أسلحة أخرى ثمينة ودروع، وزرديات(1)؛ بالإضافة إلى

(1) قارن بين: ابن الأثير، وأبى الفدا، والنويرى، وابن خلدون. وقد ترجم دى جريجوريو *Rerum Arabicarum*، ص ١٨، الجزء الأخير من الكتابة المحفورة على السيف هكذا: *"multum is sanguinem fudit in manibus Apostoli Dei"*، مبتعداً بذلك عن الترجمة الفرنسية التى قام بها م. كوسان؛ الذى رد عليه فى *Histoire de Sicile ... du Nowairi*، ص ٣٤، فى حاشية ريادسال، (*Voyages en Sicile.ec*)، وقال إن التعبير العربى «بين يدى» لا يعنى «فى يدى» بل «فى حضور». وهذا صحيح جداً، حتى وإن ربطنا بذلك، دفاعاً عن دى جريجوريو، أمثلة أخرى نادرة، تؤدى فيها العبارة المذكورة إلى المعنى الحرفى لها وهو «فى يدى» أو «بيديه». ولكن فى حالتنا هذه موضوع البحث فإنى أشك فى أن السيف كان فى قبضة يد الرسول وإنما فى يد أحد رجال الإسلام من المحاربين الأوائل. والعبارة فى حرفيتها تقول: «طويل قدر ما ضرب به، بين يدى ... إلخ». وهو ما يمكن أن يقصد به فى حضور الرسول، بجانبه أو بالجانب الآخر: وقد أساند الافتراض الثانى، دون الأول، ذلك للبس فى التعبير الذى يكاد يكون مقصوداً، وأكثر من ذلك لأنه يفتقر إلى صيغة (قتل) «فى سبيل الله» أى دفاعاً عن الدين. ويعادل وزن السيف سبعمائة أو ثمانمائة جرام، حيث يتباين قدر المثقال بحسب زمان ومكان استخدامه.

جديلة من رؤوس مقصوفة ومئتى أسير بربرى، هكذا ذكرت الأخبار(1)، ويبدو أنهم كانوا من الأرمن أو الروس. ولكن ما أن نقلت الغنائم إلى بالرمو، وخرج الأمير الحسن للقائها، حتى اهتز، حسبما يقول ابن خلدون، لشدة المفاجئة المفرحة لدرجة أن أخذته حمى قاسية؛ أفضت به إلى الموت، فى شهر نوفمبر، عن ثلاثة وخمسين عاماً(2). ويلتزم كتاب الحوليات الآخرون الصمت على هذا المرض المأسوى: حتى جاء ذلك الجرئ، الذى كان أول كاتب فى **العلم الجديد**(3)، واستطاع أن يتخيله، وهو فى بحثه الدائب داخل التاريخ ذاته عن دوافع الحدث، التى توجد أحياناً خارجه. وبكى الجميع موت الحسن، الرجل القدير، راجح العقل، مؤسس أسرة حاكمة وإن شابته عيوب الوظيفة، التى سرعان ما تختفى فى بريق التاج.

وفى هذه الأثناء تجرع ضحايا راميتا، حتى الثمالة، كأس المرارة التى قدمتها لهم أقدارهم. تماسكوا بعد هزيمة اليونانيين؛ ولكن نقص الغذاء أجبرهم على إخراج الأفواه غيرْ ذات الفائدة: كانوا ألفاً من المساكين، كما يبدو، بين شيوخ، ونساء، وأطفال. وابن عمار، بدلاً من أن يدفعهم مرة أخرى إلى الحصن، ويعجل باستسلامه، جمعهم وأرسل بهم إلى بالرمو؛ ولكنه كان قاسياً مع من تبقوا. ومع أنهم استحالوا إلى جلد وعظام، استمروا فى القتال، وكان قد دخل

(1) النويرى. إن تسمية **علج** التى استخدمها لم تكن تطلق فى العادة على البيزنطيين (الروم) ولا على الفرس (العجم). وقد استخدم المؤلف أو ربما ناقل الخبر لفظ **علج** ذاته ليميز به ضارب المجداف الألمانى، أو بالأحرى الأرمنى، الذى ورد ذكره بالكتاب الثانى، الفصل الأول ص ٣١٦ من المجلد الأول.

(2) قارن بين: أبى الفدا، والنويرى، وابن خلدون. وقد ورد تاريخ موته عند أول هؤلاء الكتاب فقط فى *Cronica di Cambridge*، وحسبما ذكر أولهم فقد توفى فى شهر ذى القعدة (٨ نوفمبر - ٨ ديسمبر)، وتوفى حسبما ذكرت وقائع كامبردج فى نوفمبر.

(3) وابن خلدون، ومثله مثل كاتبنا الإيطالى فيكو، رأى أن يجرب هو أيضاً علماً جديداً. انظر المقدمة بالمجلد الأول من كتاب التاريخ هذا ص ٨١.

عام تسعمائة وخمسة وستين؛ حينما جاء يوم جهز فيه ابن عمار السقالات، وبدأ الهجوم واستمر فيه حتى ساعات الليل؛ وحينئذ صعد رجال من رجاله إلى أسوار راميتا المنشودة. وأخذ الرجال بحد السيف؛ وسيقت النساء والأطفال للأسر؛ وسلبت المدينة وجمعت منها الغنائم الكثيرة. وحينما رحل ابن عمار بعد عام ونصف من تلك الأماكن الخشنة التى اشتهرت بغزارة ما سال بها من دماء، ترك بالقلعة حامية وسكاناً مسلمين(1).

وفى هذه الأثناء كان أحمد ينتصر فى معركة بحرية. فلما علم بهزيمة مانويلى وكان آنذاك يتعجل الخطى للزحف على راميتا(2)، واصل سيره كما يبدو، نحو مسينا(3) ليحول دون تمكن البيزنطيين من نزول آخر من البحر، وهم من وجدوا لهم مكاناً آمناً فى ريجو. ثم وقعت فى صقلية بعد ذلك صدامات(4) أخرى عديدة، ولا نعرف أماكنها، ونعرف منها فقط اسم أحد القادة البيزنطيين، يدعى المعلم إيساكونت، وقد هزم فى مذبحة كبيرة(5). ومن ذلك يتضح أن المسلمين أخذوا يستعيدون الأراضى المحتلة، الواحدة تلو الأخرى، بينما ظلت السفن اليونانية متكاسلة فى ريجو لتجمع رجال الحاميات.

واتخذ أحمد موقع المراقبة فى مسينا ومعه من القوات ما استطاع. وعندما نشر أسطول العدو أشرعته فى طريقه إلى القسطنطينية، قام بالهجوم عليه؛ وكان التفاوت فى التجهيزات البحرية كبيراً، لدرجة أن المسلمين كانوا يلقون بأنفسهم أحياناً للعوم حتى يشعلوا

(1) ابن الأثير وورد بعض من التفاصيل بالنويرى.
(2) النويرى.
(3) إن كتاب الأخبار البيزنطيين، بدءاً من ليونى دياكونو، ليست لديهم معلومات كافية، حتى إنهم يقولون إن العدو أخذ السفن البيزنطية فى ميناء مسينا، حينما كان يطارد فلول الفارين من راميتا. وانتشر هذا الخبر فى وسط إيطاليا مشوشاً، حيث يقول ليوتبراندو إنهم قتلوا مانويلى وأخذوا نيتشيتا فى المعركة نفسها بين شيلا وكاريدى.
(4) قارن بين: ابن الأثير، النويرى، ابن خلدون.
(5) ليوتبراندو.

النار فى سفن الأعداء(1). ولكم طال وقسا ذلك القتال الذى لونت دماؤه البحر، هكذا كتب العرب(2)، على سبيل المجاز، وهو مقبول. وتحقق انتصارهم فى معركة **المضيق**، حسبما يسمونها. وبعد أن أغرقت سفن البيزنطيين وأحرقت أو فقدت جميعها، أخذ عدد هائل من الأسرى ومن بينهم مئة وجيه، وألف نبيل، هذا إن لم يكن ذلك مجازا حسابياً عبر به ابن خلدون. ونقلت الغنائم والأسرى إلى بالرمو(3). وكان من بينهم الأدميرال الضعيف الذى أرسل إلى المعز، وأقام عامين بالمهدية(4) فى سجن مريح، حيث كان يقضى وقته بنسخ عظات سان باسيليوس، ونصوص أخرى دينية يونانية، ونسخ أكثر من مائتى رق: تضمنها مجلد جميل، يوجد الآن فى مكتبة باريس، ممهور بالتاريخ والاسم والإهداء إلى إحدى كنائس القسطنطينية، وكتب من أوله إلى آخره بيد واحدة ثابتة، يد ناسخ قدير، كتبت التعاليم بالذهب والألوان، وتركت الأطر رحبة، وخطت بها العمدان والأسطر بالمسطرة والفرجار، حتى ليحقدن أمثال تيمستوكل وأرشيميدس على مدى رقى صنعة نيتشيتا(5). أما عن أحمد فما أن أفسح ذلك الأخير الطريق أمامه، حتى أخذ يندفع صوب

(1) ابن الأثير، وفى موضعين لابن خلدون. إن الأستاذ فليشر، حينما أطلع على طبعات **المكتبة العربية الصقلية**، اقترح قراءة «أغرق» بدلاً من «أحرق» فى هذا الموضع؛ حيث لا يختلف الفعلان فى الكتابة العربية إلا فى نقطة على الحرف الأول. ولكن المخطوطات موحده فى القراءة التى اتبعتها. وإنى أرى أن الاحتمال الأكبر فى معركة بحرية، هو أن يحقق الأثر باشعال النار أثناء العوم وذلك بشعلة نار يونانية باليد، عن أن يغطس المحارب ومعه عامود من حديد يتعامل به على جانبى غليون ضخم.
(2) النويرى.
(3) قارن بين: ابن الأثير وابن خلدون. كلاهما يذكر صراحة أن معركة المضيق وقعت عام ٣٥٤.
(4) ليونى دياكونو، وليوتبراندو، وكاتب كتاب *Vita di San Niceforo* المجهول، وشيدرينو.
(5) مخطوطة يونانية، *Ancien Fonds*، ٤٩٧، مصدرها مكتبة كولبرت. قام بدراسة ونشر التوقيعات مونفوكون، *Paléographie*، ٤٥ *A*، جاء نشرها بشكل أفضل فى م. هاسى، فى الهامش بالصفحة رقم ٦٧ من نص ليونى دياكونو. والتوقيع

المدن اليونانية، على ما أظن، فى كلابريا؛ وهى المدن التى حينما رأت المزارع تسلب وطرق التجارة تقطع، لم تكن تجد سبيلاً آخر سوى المهادنة بدفع الجزية للمنتصرين(1). هكذا كانت نهاية العملية التى قام بها نيشفورو فوكا(2).

الوارد فى ص ٤٤٤ والمؤرخ فى سجن أفريقية، حسبما كان يسمى أيضاً مهدية (ἐν τῷ δεσμωτηρίῳ 'Αφρικῆς)، فى سبتمبر الخمسعشرية العاشرة (٩٦٧). وفيها لم ينس نيتشيتا ألقاب حامل سلاح الإمبراطور ونائب قائد الأسطول.

(1) ابن الأثير وابن خلدون ويقول كلاهما مدن الروم. ولكن هذه المدن لا يمكن أن تكون بصقلية حيث لم يكن المسلمون يكتفون بالضريبة التى تدفعها البلديات.

(2) قـارن بين: ليونيس دياكـونى جـالونسيس؛ إلخ، طبعة بون، ص ٦٥ ـ ٦٧؛ و*Vita di San Niceforo vescovo di Mileto*، التى كتبها مجهول من صقلية أو كلابريا، ومخطوطة باريس اليونانية، *Ancien Fonds*، ١١٨١، والفقرة التى أوردها م. هاسى فى الحاشية على ليونى دياكونو، المرجع المذكور، ص ٤٤٢؛ وشدرينو، الجزء الثانى ص ٣٥٣ و٣٦٠، طبعة بون؛ وليوتبراندو، *Legatio*، عند برتز، *Scriptores*، الجزء الثالث، ص٣٥٥، ٣٥٦، ولوبو بروتوسباتاريو عام ٩٦٥ فى بيرتز، *Scriptores*، الجزء الخـامس، ص ٥٥؛ و *Cronica di Cambridge*، فـى دى جـريجـوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٥١، والتى توقفت عند بداية هذه العملية بالضبط؛ وابن الأثير، عام ٣٥٣، المخطوطة *B*، ص ٣٠٨ وما بعدها، والمخطوطة C ٤، ورقة ٣٦١ الوجه الثانى؛ وأبى الفدا، *Annales Moslemici*، عام ٣٣٦، الجزء الثانى، ص ٤٤٨؛ والنويرى، فى دى جـريجوريو، المرجـع المذكـور؛ ص ١٦ ـ ١٨؛ وابن خـلدون، *Histoire de l'Afrique ... ec.*، ص ١٧٠، ١٧١، و**تاريخ الفاطميين**، مخطوطة باريس، ملحقات عربية، ٧٤٢ *quater*، المجلد الرابع، الورقة ٢١ الوجه الأول، مع ترجمة م. دى سلان، فى حواشى *Histoire des Berbères*، لابن خلدون ذاته، الجزء الثانى، ص ٥٢٩ وما بعدها؛ وحاجى خليفة، *Cronologia*، عام ٣٥٣ فى الترجمة الإيطالية التى قام بها كارلى، ص ٦٣؛ وابن أبى دينار، مخطوطة باريس، ملحقات عربية، ٨٥١، الورقة ٢٦ الوجه الثانى، و٢٧ الوجه الثانى وما بعدها. وفى *Annali Musulmani*، الجزء الخـامس، ص ٣٠٦ و٣١١ و٣١٤ يورد رامبولدى، فى هفـوة غيـر معقولة، نزول مانويلى إلى البر وموتـه فى عـام ٩٦٣؛ ثم يذكر عودته إلى صقلية عام ٩٦٤، ويخترع حرباً قام بها مسيحيو چرچنتى عام ٩٦٥؛ يبدو أنهـا تكرار لثورة ٩٣٨. إن كان كاترمير، فى حياة المعز، *Journal Asiatique*، المجموعة الثالثة، المجـلد الثالث، ص ٦٥ ـ ٦٨، يورد روايـة هـذه العملية نقلاً عن نصـوص أبى الفـدا والنويرى: ثمة قراءة خـاطئة فى النويرى، حملت المستشرق والمترجـم اللامع على أن يترجم قائلاً *"Les Musulmens é taient animés par le sentiment de l'honneur"* بدلاً من «دخلوا فى معسكرهم» كما هو مذكور بالفعل، وبالمقارنة مع نص ابن الأثير.

الفصل الرابع

وبعد مضى سنتين على هذه الانتصارات التى تحدثنا عنها، أى خلال عام ثلاثمائة وست وخمسين (١٦ ديسمبر ٩٦٦ إلى ٥ ديسمبر ٩٦٧) أبلغ المعز أمير صقلية بالصلح الذى عقده مع الإمبراطورية، وأضاف طالباً منه إصلاح أسوار بالرمو وحصونها، اليوم أفضل من غد، هكذا ورد فى الرسالة، كما طلب منه تخطيط مدينة حصينة فى كل **إقليم** بالجزيرة، وأن يكون بالمدينة مسجد **جامع** ومنبر؛ وأن يجمع فيها أهل **الأقاليم**، حتى يحول دون إقامتهم متناثرين فى الأرياف.

وفى الحال أمر أحمد ببدء الأعمال فى بالرمو، وأرسل فى سائر بقاع الجزيرة شيوخاً قادرين على إعمار البلاد. ذلك ما ورد فحسب بكتاب من كتب التاريخ الإسلامية(1). وحينما جاء ابن حوقل إلى بالرمو بعد ذلك بست سنوات، أخذ يعبر عن إعجابه بالأسوار القوية بقصر الخالصة؛ وتنبه إلى أن ثلاث من بين بوابات القصر التسع، أقامها أحمد، ومن بينها واحدة تحولت من بناء ضعيف إلى موقع دفاعى(2). أما عن المدن التى أجـرى إصـلاحها علاوة على العاصـمة، فنحن لا نعرف عنها شيئاً مؤكداً(3). ولكن ما يجدر البحث فيه هو

---

(1) النويرى، فى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ١٩. لو كان باستطاعتى لترجمته على هذا النحو «قادرين على التعمير». وهو اللفظ الذى ورد بالضبط فى النص؛ *imara* **عمارة**. ويجدر الأخذ فى الاعتبار أن الخبر حين نقل من النويرى، ورد فيه *"fabbricare"* «تشيد». ولكن أسوار بالرمو كانت أقدم من ذلك بالتأكيد. ويجب تفسير هذا اللفظ أيضاً على أنه «**إعادة الصلاحية**» «**إصلاح**» *"riattare"* هناك حيث يذكر مدن الأقاليم.

(2) *Journal Asiatique*، المجموعة الرابعة، المجلد الخامس، ص ٩٢ ـ ٩٥.

(3) اورد دى جريجوريو فى *Rerum Arabicarum*، ص١٦٧، رسماً مصغراً لإحدى

النظام العسكرى والإدارى اللذين أشار إليهما راوى الأخبار بشكل غير وافٍ. وسوف نحاول الخوض فى ذلك؛ ثم نتحدث عن اتفاق الصلح.

أول ما يجب أن ننظر إليه هنا هو ماذا يقصد بلفظ **إقليم**؛ وهو لفظ أخذه العرب مثلا عن الإغريق(1)؛ واحتفظوا بالمعنى الخاص به فى الجغرافيا الطبيعية؛ وأضافوا إليه أيضاً مدلول تحديد وحدة أراضٍ. وهكذا نجد اللفظ مستخدماً فى أفريقية فى القرن العاشر(2)، وفى صقلية فى الثانى عشر(3) وفى مصر فى الرابع عشـــر(4)؛ للدلالة فى الغـــالب على تلك المســـاحة المتوسـطة

الكتابات الموجودة بقصر ترمينى، ويقرأ فيها بكل تأكيد، اسمى المعز لدين الله وأحمد. لكن التاريخ المكتوب هو ٣٤٠، حتى وإن اضيف رقم فى خانة الآحاد، وبافتراض أن يكون رقم ٩، فسوف يرجع التاريخ إلى فترة سابقة لما نتحدث عنه؛ وعلى أية حال هناك أجزاء أخرى ناقصة فى الكتابة والتى ربما تضمنت عبارات مثل «شيد بأمر.. إلخ وبرعاية الأمير.. إلخ». ومع ذلك فهذه الكتابة، مثل كل الأخريات، يجب أن تقرأ على الأثر ذاته، إذا أمكن ذلك، وحتى هذه اللحظة فإن هذه الكتابة تؤكد أن قصر ترمينى شيد أثناء ملك المعز.

(1) لكى يتجنب العرب نطق ساكنين فى بداية الكلمة، نظراً لطبيعة لغتهم، فقد سبقوا اللفظ اليونانى κλίμα بألف وحركتها الكسرة، إ.

(2) ابن حوقل، **جغرافيا**، الفصل عن أفريقية، مخطوط باريس، ملحقات عربية، ٨٨٥، ص ٣٦، ٤٥، ٤٨، ٥١، ٥٢، يتحدث عن **اقاليم** شبه جزيرة باشو (دَخِل الحالية)، وسوسة وستفورا ولاريبوس وأشير وكفصة.

(3) الإدريسى، **جغرافيا**، فى الفصل عن صقلية، تحدث عن **اقاليم** سيراكوزا، ونوتو ومازارا ومرسالا وترابانى، وتشفالا، ورحل منكود، ويقول عن شاكا إنها أكبر مدن **الأقاليم**، التى كانت تتبع كالتابيللوتا؛ ويشير أيضاً بصيغة الجمع إلى **اقاليم** كاستروچوڤانى وبيترابرسيا: ثم فى النهاية يقول إن إقليم ديمونا يبدأ من كارونيا. وباستثناء الأخير الذى يبدو وأنه يتطابق مع ڤال ديمونى، فالبقية الباقية إما أنها نواحى أو مناطق.

(4) عند ساسى، *Description d'Egypte par Abdallatif* ، حواشى، ص ٥٨٦ وما بعدها. والموضوع بالتحديد هو عن الأماكن فى أقاليم مصر. وإن استعرضنا قائمة الأسماء نجد أن الوحيد المحدد باسم **إقليم** هو نستراوه، أما التقسيمات الأخرى فتسمى أحياناً **عمل** (حكومة)، وأحياناً **ثغر** (منطقة حدود). ويبدو أن **عمل** قد ظهر

التى نطلق عليها نحن اليوم اسم منطقة أو مقاطعه؛ ولم يكن يقصد باللفظ ســـوى ذلك المعنى فى كتـــاب المعز. وذكر المسجد الجامع والمنبر لا يحملان على تصور إقليم أوسع من ذلك؛ بل مجرد أن تكون هناك مراكز مهمة. حيث يجدر إقامة صلاة الجمـــاعة، يوم الجمعة.

ولكن الأهل(1) الذين كان يجب أن ينتقلوا من الريف إلى المراكز، لا يمكن أن يقصد بهم السكان كافة: مسيحيون ومسلمون؛ أحرار وذميون أو عبيد؛ نبلاء وسوقى. وما لا يعقل أيضاً ولكن بصورة أقل، هو أن يقصد بهم المسلمون كافة، مع عدم استبعاد الفلاحين، وكانوا موجودين بالتأكيد فى ڤال مازارا؛ أما فيما يتعلق بالصناع والتجار فما كان من داعٍ لأمر من الأمير حتى يقيموا بالمدن. إلا أن الأمر كان يخص أهل الجهاد؛ أى النبلاء وعائلاتهم العريقة؛ ومَنْ غير هؤلاء كانوا يُعدّون أهلاً للبلاد خلال العصور الوسطى، سواء فى أرض مسيحية أم فى أرض الإسلام؟. ونحن لا نعرف ما كان يحدث فى ڤال دى مازارا، وقد فتح منذ قرن من الزمان، إن كانت رواتب الجنود تدفع من الخزانة العامة، نقداً وعداً أو **بالإقطاع**، أي إذا أردنا القول بالإنابة من **خراج** أراضٍ معينة، يحصلون منها بأيديهم(2)، حيث كانوا مستقرين هنا وهناك فى الأرياف. ولكن ذلك كان يحدث بالضرورة فى ڤال ديمونى وڤال دى نوتو، نظراً لما طرأ من تحويل حديث

عند الإدريسى بمثابة مرادف **لإقليم**، حتى وإن لم يقتصر على الإشارة لحدود النظام المدنى فقط، ذلك حين استخدم لفظ إقليم للتحديد العسكرى؛ وهذا افتراض ليس باستطاعتى تأكيده. ولفظ ثغر كان يقصد به ساحة أو ميدان *"piazza"*، مثل اللفظ الذى نستخدمه نحن اليوم فى لغة الإدارة العسكرية وتجدر ملاحظة أنه بالنص المذكور عن مصر، يوجد ٢١ قسماً؛ وأن **الأعمال** تضم عدداً متفاوتاً من الأماكن تتراوح بين ٢٨٣ إلى ١٥٠ أو أقل أيضاً من ذلك. **وثغور** الأسكندرية ورشيد ودمياط بها عدد أقل بكثير. بينما يضم **إقليم** نستراوه **٥ أماكن فقط.**

(1) ورد بالنص لفظ «أهل»، أى شعب أو عائلة أو قوم بشكل عام.

(2) انظر الكتاب الثالث؛ الفصل الأول، ص ٣٠ وما بعدها من هذا المجلد.



للإتاوة إلى **جزية** على الأفراد، **وخراج** على الأراضى الزراعية، حيث لم يتسع الوقت لتحرير السجلات وتحديد المساحات؛ التى بمقتضاها تستطيع الإدارة العمومية تحصيل المال أو غلة الخراج. ولذا فلم يجيدوا العمل **بالإقطاع**؛ وإن كان ذلك لا ينفى عن رجال الجندية أنهم من خلال استقطاعات مقدمة وغير منظمة، وبموافقة أو غير موافقة الأمير أحمد، كانوا يقتسمون فيما بينهم دخل المناطق الجديدة، التى لم تكن معروفة بدقة، وظلوا لذلك منتشرين فى الأرياف، محصلين لما يشاءون ودافعين لأنفسهم. وهذا النوع من الاستيلاء المستمر كان يلحق الضرر بالرعايا المسيحيين، ويضعف عصب الدولة الإسلامية، ذلك لأنه إهدار للدخول المتاحة، وجفاف لما يمكن أن يكون مصدراً للدخل فى المستقبل وتخلى للجندية عن الانضباط. هذه هى الأضرار التى أراد المعز أن يواجهها، وربما كانت فى ڤال دى مازارا؛ بل كانت بالتأكيد فى شرق صقلية؛ ذلك بالعمل بنظام جديد؛ يبدو أن عُهد بمقتضاه لقضاة مدنيين، بأمر التحصيل، وكلفوا هم أو موظفون آخرون فى كل مدينة كبرى، بمراقبة المسئولين وإبلاغهم بكلام الأمير؛ وهو الشئ الذى كان يتم عادة، أثناء **الخطبة**، ولكن من على المنبر، فى المسجد **الجامع**(1). وعن ماهية أسماء أقاليم صقلية وحدودها، حينئذ وهل كانت مجرد مناطق عسكرية، أو كانت أيضاً إدارات، فليس هناك مذكرات من ذلك العصر تطلعنا على ذلك؛ ولا يمكن الاستعاضة عنها بالاستنتاج. علينا فقط أن نتصور أن **الأقاليم** كانت متوائمة مع هيئات الجند، وليس العكس: لأنه باستثناء المستقرين، فإن الجند الآخرين كانوا يكوّنون هيئاتهم بحسب صلات القرابة، ولم يكن من السهل تقسيم هيئة منهم، ولم يكن من اليسير جمع سلالتين مختلفتين أو أكثر معاً. وبناء

(1) كان الخلفاء فى صدر الإسلام وأمراء الولايات هم الذين يخطبون فوق المنابر. ثم توفر لذلك فيما بعد خطباء بمقابل.

على هذه الأسباب وعلى تباين الدخول العامة على أراض متساوية فى مساحتها(1)، نشأت الفوارق الكبيرة فى اتساع الأقاليم، الملحوظة فى حكومات إسلامية مختلفة؛ والتى استمرت فى صقلية حتى القرن الثانى عشر(2).

بدا الصلح لحظة مواتية لذلك الإصلاح الإدارى العسكرى؛ وربما كانت الحكومة البيزنطية هى التى طلبته خلال إجراءات الصلح، لتخفف بالنصح الأضرار اللاحقة بمسيحيى صقلية، حين لم تعرف كيف تمنعها بالسلاح، والتى لم تكن تجهلها، أو لتتظاهر بذلك مع رهبان صقلية وكهنتها. وتلك النصائح التى كانت مفيدة أيضاً للأمير المسلم، كانت لابد أن تقابل بصدر رحب فى نطاق الصداقة الوثيقة التى تولدت آنذاك بين بلاط القسطنطينية والمهدية، بناء على مصالح مشتركة. ومن بينها الشكوك التى كانت تحوم حول أوتون دى ساسونيا، الذى أراد أن يملك فى إيطاليا بقدر ما ملك شارلمان وأكثر: وبعد أن تم الخضوع له من الألب وحتى التيبر؛ وبعد أن توج إمبراطوراً فى روما (٩٦٢)، وسيداً للمدينة؛ وبعد أن جعل من نفسه قاضياً يعاقب الباباوات، أو ينتقم منهم، وحكما يختارهم ويخلعهم، وكان يهتم من قبل، برضى أمير بنڤنتو، ضد مصالح نيتشيفورو، فقدأخذ يهاجم كلابريا (٩٦٨)، ولذا كان يمثل تهديداً لصقلية(3).

(1) ليس فقط بناء على اختلاف خصوبة الأراضى؛ ولكن أيضاً لأن الدولة كانت تمتلك الأراضى فى بعض الأحيان، وفى أحيان أخرى تحصل الرسوم فقط.

(2) كانت أراضى چاتو، على سبيل المثال، تصل من أحد أطرافها حتى ساجانا، بالقرب من بالرمو. بينما يصل الطرف الآخر بالقرب من كالاتافيمى: وهو بعد يقدر بعشرين ميلاً صقلياً. وكانت أراضى مازارا تحتل بالتقريب كل المنطقة المعروفة اليوم بهذا الاسم بالإضافة إلى نصف مساحة الكامو، وتصل إلى حدود أراضى چاتو، أى أنها كانت تمتد حوالى ٣٠ ميلاً. انظر وثيقة عام ١١٨٢ عند *Del giudice Descrizione del real tempio.. di Monreale*، حواشى ص ٨، ٩، ١٠. وفى المقابل كانت أراضى بالرمو وغيرها قليلة جداً.

(3) انظر الفصل السادس من هذا الكتاب.

أما فى الشرق فكانت تربط المعز ونيتشيفورو، مشاعر أقوى، وهى الرغبة فى تجريد الآخرين. فالخلافة العباسية، وقد فقدت منذ زمن ولاياتها البعيدة، ظلت تحكم فى بغداد، وبالاسم فقط وفى حدود ضيقة. وكان يحكم البويديون أو البُويَدينيون بلاد فارس، وآل حمدان بلاد ما بين النهرين؛ والإخشيد بلاد الشام ومصر؛ والقرامطة الجزيرة العربية، ومنها انطلقوا فى قوة إلى الخارج. وتسمية خليفة فى حد ذاتها تبقت على سبيل الرياء أو الشفقة من قبل الأقربين المغتصبين، الوزراء وقادة الجيوش، ممن تعاقبوا فى سيادة العاصمة، وباعوا المسئوليات العامة تحت ناظرى خلفاء عمر وهارون الرشيد، ونهبوا قصر الخلافة، وتعرضوا لهم بالأذى، وضيقوا معيشتهم؛ بينما المرتزقة الأتراك أو الديلميت، والعامة يلطخون شوارع بغداد بالدماء. ووسط كل هذه الخسائر، اندفع نيتشيفورو فوكا (٩٦٢ ـ ٩٦٧) لدى انتصاراته فى آسيا الصغرى، اندفع مرتين داخل سوريا، وأخذ حلب، واللاذقية وأماكن أخرى كثيرة، وحاصر أنطاكية، التى استولى عليها رجاله فيما بعد(1). وهكذا حينما وصل نيتشيفورو إلى الصدام مع الأخشيدين، أعداء المعز المباشرين؛ فمن المحتمل أن أدى الأمر إلى أن يعمل كلاهما بما يتفق مع الآخر.

وأكثر من ذلك أن كان بين المعز وأحد السفراء البيزنطيين من المودة ما كان ينشأ أحياناً بين العقول المتفتحة. وكان اسم ذلك السفير نيكولو، وقد أرسل إليه أكثر من مرة من القسطنطينية إلى المهدية وإلى القاهرة(2)، ولعله كان هو ذاته، الذى عقد الصلح المذكور عام تسعمائة وسبع وستين، وأحضر للمعز هدايا نيتشيفورو الرائعة، وعلى سبيل الفدية أو الإكرام حصل منه على الأسير

(1) انظر بخصوص هذه الفترة *Annali Musulmani*، أبو الفدا، ولوبو *Storia del Basso Impro*.

(2) ابن أبى دينار، هو الذى حكى هذا الحدث، ويقول بالتحديد «ذهاباً وإياباً أكثر من مرة».

نيتشيتا(1) ولما توقف السفير أثناء الرحلة فى صقلية، استطاع أن يدرك مدى قوة الفاطميين: ذلك حينما استقبله حاكم الجزيرة فى حفاوة ولاحظ مظهر الجيش اللائق؛ ثم شاهد الفرق الكبيرة المجهزة منه بعد ذلك فى سوسة. ولكن طريق اليونانى فى المهدية لم يكن سهلاً، وسط جموع العسكريين، والتابعين ورجال البلاط، وما أن دخل القصر حتى خطفت بصره روعة المكان: اصطحبوه إلى المعز، وكان يجلس فى عظمة على العرش، وكأنه ليس بشراً من الآنام، ولو تفاخر بالصعود إلى السماء لأجابه: «غير معقول ولكنك تستطيعه». حتى إنه قيل إن نيكولو، أفضى بذلك الخاطر للأمير، بعد بضع سنوات، وإن الأمير أرسل سراً فى طلبه فى القصر بالقاهرة وسأله: «أتتذكر ذلك اليوم الذى توقعته آنذاك فى المهدية، هل كنت تتخيل أن تأتى لتحيتى ملكاً فى مصر؟» أجابه: «كان حقاً»؛ فقال المعز: «سوف نتقابل الآن فى بغداد، أنت سفير، وأنا خليفة». ولكن اليونانى ظل صامتاً. ولما ألحّ المعز عليه أن يتكلم، حكى له عن ذلك النور الذى كان يسطع فى المهدية بينما يراها الآن يعتمها الظلام، وبدت كما لو كان الحظ قد انصرف عنها. وأطرق المعز صامتاً؛ ومرض، ومات بعد فترة وجيزة (٩٧٥). أيا كان من شأن هذا الحوار الذى لا يجب أن ننكره على رجلين من القرن العاشر يهتمان بالتنجيم، فإننا سوف نقبل تفاصيل البعثة الأولى التى تهم موضوعنا: أى أوضاع الجيش الصقلى، وكيف أن المعز كان يتحدث

(1) يستخلص تاريخ الصلح والهدايا التى أحضرها المبعوث للمعز من النويرى، عند دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ١٩. وعلى حد قول ليوتبراندو، فى برتز، *Scriptores*، الجزء الثالث، ص ٣٥٦، فإن نيتشيتا ثم فداؤه بذهب كثير لم يكن ليقدمه رجل عاقل من أجل أسير. ويبدو لى أحتمال أرجح أن يكون المعز قد أعاده دون فدية، حسبما يؤكد لوبو *Histoire du Bas Empire*، الكتاب ٧٥، الفصل ١١. ولكن المصادر التى ذكرها المؤلف الفرنسى لا تذكر شيئاً بهذا الخصوص، ولا تتحدث عن سيف محمد الذى يقولون أن نيتشيفورو أرسله للمعز، وهو السيف الذى أعتقد أنه ذلك الذى أخذ فى راميتا، وأن لوبو قد خلط الحدث بغيره أو رتقه بطريقته.

عن طيب خـــــاطر، عن طموحاته الشرقية، مــــع مبعوثى القسطنطينية(1).

كانت حروب نيتشيفورو وثورات القرامطة فى سوريا، تضرب عضد الحكم التركى، الذى تأسس فى مصر على يد إخشيد، أحد قواد الدولة العباسية، الذى احتل الولاية التى عهد إليه بها وتركها لأبنائه. وحينما واتت المنية (مايو ٩٦٨) كافور، الذى كان عبداً واعتقوه، وكان يمسك بزمام الدولة بيد ثابتة، خلفه بالاسم، أحمد، ابن أخ الأخشيد، وكان فتى فى الحادية عشرة، أما بالفعل فكانت البلاد فى يد حاكم ووزيرين، يعيشون على الاستيلاء على حقوق الغير واغتصابها. وعلى ذلك عم الاضطراب صفوف العسكرية، وساد الاستياء المواطنيين الذين كانوا يتابعون بآذانهم أعمال المعز؛ وكان ببغداد سمسار يهودى، أسلم، وكان فاحش الثراء وكان أداة ضرورية للإدارة بمصر، ولما رأى أن السادة الجدد بدأوا يمدون أيديهم ليقتصوا منه، لجأ للفاطميين؛ وأطلعهم على أحوال البلاد وسبل السيطرة عليها. وكان الوباء والمجاعة اللذان روعا مصر آنذاك، عاملين مساعدين للتدهور(2).

وكان المعز ذا رأى رشيد وعقل راجح فى إدارة الحكم، وكان يتفـاخر بذلك. ويحـكى أنه، ذات مرة، لكى يعظ كبـار قبيلة كتـــامة، التى كان يخشـــاها ويدللها، استقـبلهم فى ديوانه منهمكاً

(1) إن هذه القصة الطويلة، المأخوذة بالتأكيد من كتاب من كتب الأخبار الأفريقية، توجد بكاملها فى ابن أبى دينار، مخطوطة باريس، الورقة ٢٨ الوجه الأول؛ والتى قمت بالترجمة منها، متغاضياً عن كلمات كثيرة هنا وهناك، ولكن دون إضـــافة كلمة واحدة من عندى. وابن الأثير، مخطوطة A، المجـــلد الثالث، الورقة رقم ٧ الوجه الثـــانى، و٨ الوجه الأول، ينقـــل الحدث بالكلام نفسه تقريباً، إلا أنه ينقص الرحـــلة، إلى صـــقلية وإلى سوسة. انظر ترجمة الفقرة المأخوذة من ابن الأثير عند كاترمير، *Vie de Moezz-li-din-allah*، فى *Journal Asiatique*، السلسلة الثالثة، المجلد الثانى، ١٨٣٦، ص ١٣١ من المستلة.

(2) ابن خلكان، **حياة جوهر**، ترجمة م. دى سلان إلى الإنجليزية، الجزء الأول، ص ٣٤٠ وما بعدها؛ كاترمير، المرجع المذكور، ص ٢٧ وما بعدها.

فى العمل، وسط كتب ورسائل عدة. وقال لهم: «هاكم ترون كيف أقضى يومى وأكتب بيدى الرسائل إلى الشرق والغرب، بدلاً من أن أجلس إلى الموائد وأتعطر بالمسك، وأرتدى ثيابا من الحرير والفراء، وأرشف الكؤوس على ألحان الجميلات وغنائهم! من فى هذا الشعب يصدق أن الأمير يعتكف فى غرفة ليحقق الأمان والرخاء للبلاد، والنصرة لكم على الأعداء؟. وأنهى كلامه معهم بلهجة رجل الفضيلة والحكمة، فأخذ يذكرهم بالخصال الحميدة، وبالرضى حتى بزوجة واحدة، ووعدهم بأنهم فى طاعتهم له، سوف يفتحون بلاد الشرق، كما فعلوا فى الغرب(1). وفضلاً عن ذلك كان يتم اللجوء للمنجمين، وأكثر منهم للجواسيس، وكان ممثلو الدولة يُرسلون وأيديهم ملآنة بالذهب إلى البلاد المنشودة، ويُبعث بعسس عبوسين إلى السكان العرب بأفريقية. وعلى ذلك فربما كان الكلام لفيليبو الثانى ملك أسبانيا، إذا ما قرأنا أن المعز كان يُعرف بالتعصب والمواراة، بدلاً من كرم أخلاقه، واتساع ذهنه، ورهافة حسه، ودأبه ونجاحاته، فضلاً عن تمكنه من ثلاث لغات مختلفة، كلغة البربر والزنوج والسلاف(2).
أما بصفته رجل دولة فما من رسم استطاع أن يفوق دقة تخطيطه الواسع واتقانه لفتح مصر. وعلاوة على أعماله المذكورة فقد كان يعمل على اكتساب أتباع له فى المدينتين المقدستين بالجزيرة العربية، وتأمين حكمه فى أفريقية؛ وجمع الكنوز، وتنظيم الجيوش، والبحث فى كيفية إرسالها إلى الفتح بقيادة قائد بلا أطماع.

ووجده أو صنعه بنفسه: كان ذلك الصقلى المنحدر من أصل مسيحى(3)، واسمه جوهـر، وهو ابن عبد الله، الذى يبدو، أنه كان

(1) كاترمير، المرجع المذكور، ص ٢٢ وما بعدها، وهو يستشهد بالمقريزى.

(2) كاترمير، المرجع المذكور، ص ١٣٤، ١٣٥، ويرجع أيضاً للمقريزى.

(3) الخذاعى، مخطوطة باريس، *Ancien Fonds*، ٧٦١، الورقة ١١٦ الوجه الأول؛ وابن الأثير، عام ٣٥٨، المخطوطة C، المجلد الخامس، ورقة ٧ الوجه الأول، وابن

عبداً أنكر دينه، وكان قد اشتراه خصى أفريقى، وعاد يبيعه لآخر، ثم باعه ذلك الأخير إلى مشترٍ آخر فأعطاه هدية للخليفة الفاطمى المنصور(1). وعينه المنصور للعمل مع أمناء السر، ثم أعتقه بعد ذلك؛ وعلى هذا، وحسبما يمليه القانون الإسلامى، دخل فى كنف العائلة. كان شاباً حسن المظهر، حميد الأخلاق، حاضر البديهة، دؤوباً ودقيقاً فى عمله، وكان كاتباً حصيفاً، ومن الكتابات التى تبقت له إعلان الأمان الذى منح للشعب المصرى؛ كما أحب الشعر والآداب كثيراً، وقام برعاية من يعمل بها، وحينما ارتفع شأنه كان يجزل العطـاء للشعراء. وبعد أن خبره المعز فى مهام عمومية مختلفة، عينه وزيراً، ثم قرر أن يرسله (٩٥٨) مع جيش من البربر ليخضع ولايات أفريقية الغربية لطاعته، ذلك حين أخذت بعضها تتقارب مع الأمويين الذين كانوا فى أسبانيا: واستطاع جوهر، فى أقل من سنتين، أن يحتل أراضى دولة مراكش الحالية، بعد معارك عديدة، وكان يرسل إلى المعز الأسماك والطحالب التى يصطادونها من المحيط الأطلسى، وأحضر له بنفسه أمراء سجلماسه **وفاس فى اقفاص من الحديد**. لذلك حينما تقررت عملـية مصر، عهد المعز

خلكان، الترجمة الإنجليزية م. دى سلان، المجلد الأول، ص ٣٤٠ وما بعدها؛ **والبيان**، النص، الجزء الأول، ص ٢٢٩، هؤلاء الكتاب يقولون صراحة جوهر الرومى، بمعنى أنه، كما هو معروف، من أصل يونانى أو لاتينى. وفى الجامع الأزهر بالقاهرة، الذى أسسه جوهر عام ٣٦١ (٩٧١) توجد، أو كانت توجد كتابة نقلها المقريزى؛ وربما وضعها الفاتح نفسه، وفيها لم يطلق عليه سوى «جوهر أمين السر الصقلى» لأن لفظ «صقلى» يقرأ بوضوح فى مخطوطات باريس الأربعة، التى ذكرتها فى **المكتبة العربية الصقلية**، النص، ص ٦٦٩، ٦٧٠، وورد الشئ نفسه فى طبعة بولاق الحديثة، بمصر حيث لاحظت وجوده فى الحاشية. لذا لا يمكننى تقبل ما تصوره م. كاترمير، المرجع المذكور، ص ٧٥، الذى ترجم *"Esclavon"*؛ بلفظ **صقلبى**، لأنه كانت بجيوش الفاطميين **سلاف** كثيرون. وقد لاحظت فى أماكن أخرى أن هذا اللفظ حين يكتب بالأحرف العربية، يسهل خلطه بلفظ **صقلى**، وأما فى حالتنا هذه فلا مجال للشك لأن رجلاً **روميا**، يمكن أن يكون صقلياً، وليس سلافياً بحال من الأحوال.

(1) الخذاعى **والبيان**، الموضعان المذكوران؛ وابن حماد، مخطوطة م. شيربونو، الورقة ٨ الوجه الأول.

بالمهمة إلى عتيقه الصقلى؛ واهتم بتوفير التجهيزات معه، حتى إنه أمر بحفر آبار فى صحراء برقة على الطريق المنتظر أن يطرقه الجيش، من سرت إلى الفيوم. وحدث أن مرض جوهر فى هذه الأثناء مرضاً شديداً؛ وكان الخليفة يزوره ويشجعه، وفى ثقة كان يقول: «لن يموت، لأن عليه أن يفتح لى مصر»(1).

وفى أوائل فبراير عام تسعمائة وتسعة وستين، ولدى تجمع القوات فى سهول رقادة، استعداداً للتحرك للعملية، ظهرت صورة من صور المساواة فى الجور. فقد نزل جوهر من على السرج، وقبّل يد المعز وظلف جواده الأصيل؛ ولما عاد بدوره على ظهر فرسه مع الجيش رأى أبناء ذلك الأخير وأقاربه وكبار المملكة أيضاً، يسيرون على الأقدام بأمر من الخليفة. إن العدد الذى أورده كاتبو الأخبار وهو مائة ألف رجل، يدل على أن الحشد كان ضخماً؛ أما الجمال المحملة بأكوام الذهب، فهى ترمز، على طريقة حكايات ألف ليلة وليلة، إلى كم المؤن الضرورية لمن يذهب للحرب فى بلد، كأن ليس به ما يؤكل، وبالإضافة إلى ذلك المراكب التى لا تحصى وقد حملت بالقمح وسارت فى ركب الأسطول حتى مصبات النيل. وفى أوائل يونيو، وفى مكان ليس ببعيد عن الفسطاط، مقر الحكم، كان جوهر يوقع مـع كبــار المواطنين(2) اتفاقاً يمنح شعب مصر كافة الأمان فى حياته وممتلكاته وعائلاته، باسم الخليفة، الذى تحرك رحمة بالبلاد، وأرسل جيشه الذى لايقهر، ليخلصهم من الناهبين والمخربين وليعـيد العدالة. وعلى أرض الواقـع، فقد وعد

---

(1) قارن بين: ابن خلكان، الموضع المذكور، والكتاب الآخرين العرب الذين استشهد بهم م. كاترمير، المرجع المذكور، ص ٩ - ١١، وص ٣٥. إن الفصل الذى كتبه ابن الأثير عن عمليات جوهر حتى المحيط، قـام م. تورنبرج بنشـره فى هـامش بكتـاب *Annales Regum Mauritaniæ*، (القرطاس)، الجزء الثانى، ص ٣٨٢. أبو الفدا، **جغرافيا**، ترجمة م. رينو، الجزء الثانى، ص ٢٠٤، يحدد فى دقة خط سير العملية التى خططها المعز.

(2) قارن بين: ابن خلكان، الموضع المذكور، والمراجع التى استشهد بها م. كاترمير، المرجع المذكور، ص ٤٠ وما بعدها.

بالإعفاء من جباية ضرائب المواريث غير الواجبة، وإمداد المساجد بالمصروفات اللازمة، واحترام العقائد الدينية(1)، والأحكام حسب عادات البلاد، بما لا يتعارض مع القرآن ولا السُنة؛ وحماية حقوق الذميين(2). وحينئذ تحركت المدينة بأقسامها؛ ومن ازدرى الاتفاق، خرج للصراع وتمت هزيمته؛ أما عن المنتصر فما أن أكد بحكمته بنود الاتفاق، حتى دخل الفسطاط، فى أوائل شهر يوليو. ولم يغير شيئا في الشعائر سوى اسم الأمير فى خطبة الجمعة، وأذان الصلاة، ولون ملابس الموظفين العموميين، فغيره من الأسود إلى الأبيض. واهتم بشئون الإدارة فى تمكن الخبير المحنك؛ ووضع فى كل وظيفة رجلاً مصرياً وآخر أفريقيا، وأدار شئون القضاء فى عدل؛ وفى اتضاع نادر من نوعه مارس الحكم المطلق الذى عهد به إليه(3). ولما أقام معسكره بالقرب من الفسطاط، حدد مكان العاصمة الجديدة، القاهرة، أى المنتصرة وهمَّ على التو ببنائها(4). وبنى بها الجامع الأزهر، الذى تم إنجازه فى سنتين، وبه أراد مؤسسه أن ينقل للاحقين اسم وطنه صقلية، وعمله ومهمته اللذين كانا بداية عظمته(5). وأمّن الفتح بأن قمع من قام بالثورة فى الأقاليم،

(1) ورد بالنص فى هذا الموضع لفظ **ملة**، أى «عقيدة دينية».

(2) ابن حماد، مخطوطة م. شيربونو. الورقة ٨ الوجه الثانى، و٩ الوجه الأول. وقد وقع على هذا العقد فى شعبان ٣٥٨، وقعه جوهر أمير سر، وعبد أمير المؤمنين .. إلخ. واتفق على أن يشمل الأمان كل شعب **الريف** والصعيد. وأعتقد أن النص يتفق مع ما استخلصه م. كاترمير من مخطوطة ليدن للنويرى وأورد بدايته فى المرجع المذكور ص ٤١ ـ ٤٣، حتى وإن أغفلت بالترجمة الشروط المهمة التى أتحدث عنها. من هذا نرى أن الفاطميين لم يمنعوا المذهب السُنى، بحال من الأحوال؛ وإنما اقتصروا على تحديد صيغة الأذان، كما أوردت فى هذا المجلد، ص ١٣٦، ١٤١، الكتاب الثالث، الفصل السادس.

(3) ابن حمّاد، الورقة ٨ الوجه الثانى؛ وكاترمير، المرجع المذكور ص ٥١ ـ ٥٦.

(4) كاترمير، المرجع المذكور، ص ٤٨.

(5) تحدث المقريزى، عن وجود كتابات فى دائرة قبة الرواق الأول ورد بها: «بسم الله ... إلخ. بنى بأمر عبد الله ووليه أبى تميم معد المعز لدين الله أمير المؤمنين. (عليه وعلى أسلافه الكرام وأبنائه من بعده بركات الله)، وشيده عبد الأمير، جوهر الصقلى أمين سره، سنة ٣٦٠». **المكتبة العربية الصقلية** ٦٦٩ ـ ٦٧٠.

وهزم القرامطة (٩٧١) هزيمة لا تنسى، حين جاءوا يهاجمونه بالقاهرة(1).

وفى هذه الآونة كان يهتف باسم المعز فى مكة والمدينة، وبفضل قادة صغار كان يرسلهم جوهر تمكن من ضم أجزاء من سوريا(2)؛ رغماً عن القرامطة، أو ربما من جراء خوف المسلمين منهم، فلعل الشعوب، من السويس وحتى الفرات كانت راغبة فى الاعتراف به سيداً لها. لذا ألح عليه جوهر كثيراً، حتى أقنعه بأن ينقل كرسيه إلى مصر؛ وهو الأمر الذى، إن لم يكتف به الفاطميون فى تحقيق الامبراطورية التى كانوا يصبون إليها، أفاد أيضاً فى استمرارية سلالتهم لمدة قرنين، ولو ظلت فى أفريقية، لكانت قد انتهت سريعاً. إن خصوبة أرض مصر الإعجازية؛ وموقعها الذى يجعل منها معبراً للتجارة بين الشرق والغرب؛ وطبيعة شعبها، وغالبيته من المسيحيين، وهم مسالمون أو طيعون وملتصقون بالأرض، كانت عوامل توفر قاعدة راسخة لهيمنة ترتكز على نظم الإدارة، من قبل جماعة وقبيلة من البربر، أكثر منها على الشعب وسلاحه القومى: علاوة على ذلك كان سادة مصر، لضرورة جغرافية يحكمون دائماً سوريا ويمسكون بمفاتيح غرب الجزيرة العربية بأيديهم. أما فى أفريقية فلم يستطع الفاطميون، التغلب على عداوات المواطنين العرب خلال ستين عاماً من الأحداث المروعة والقهر(3)، ولم يقدروا على إطفاء التنافس فى دماء البربر الذى أشعلته فيهم طوائف الخوارج؛ وعندما كانوا يقومون بفتح مصر، قادتهم الضرورة

(1) كاترمير، المرجع المذكور، ص ٥٧، ٨٢ وما بعدها.

(2) كاترمير، المرجع المذكور، ص ٥١، ٦٣، ٦٩ وما بعدها.

(3) انظر الوقائع العديدة التى تثبت ذلك، فى **رياض النفوس**، ورقة ٩٢ الوجه الثانى. ٩٣ الوجه الثانى ... إلخ، والنصوص الأخرى الواردة فى هذه المخطوطة والتى استشهد بها م. كاترمير، المرجع المذكور، ص ١٣ وما بعدها. ولا أريد الحديث عن أسباب نقل مقر الحكم إلى مصر، فرأيى فيها مختلف تماماً.

إلى الاعتماد على قبيلة صنهاجة، لقمع متمرد جديد أراد أن يحذو حذو أبى اليزيد(1). وما كانت صنهاجة، التى يقودها الزيريون، لتقدم لهم جيوشها فى إخلاص تام لتكون خادمة لهم، والكتاميون كذلك ما كانوا يتحملون أن يحكم الخليفة فى دارهم(2)؛ وفى الوقت ذاته لم يكونوا كافين للسيطرة على أفريقية، وأن يكونوا أتباعه فى مصر وقبضته فى صقلية فى آن واحد.

لهذه الأسباب قرر المعز أن ينتقل نهائياً من أفريقية، فأخذ معه أثاثه وكنوزه وسلاحه، وحتى عظام أسلافه. ورحل فى أغسطس عام تسعمائة واثنين وسبعين؛ وتوقف قليلاً فى سردينيا، وهى بلدة أفريقية، يبدو أنها استمدت اسمها من أهل سردينيا الذين أقاموا بها(3)، وفى تمهل العظماء دخل القاهرة فى يونيو عام تسعمائة وثلاثة وسبعين؛ وقام مع جوهر بترتيب الشئون العامة؛ ثم نحى جانباً عتقه، اللامع الذى توفى عام اثنين وتسعين؛ وكان ابنه حسين، قائد جيش مهم جداً لدى حفيد المعز، الذى قتله غدراً(4).

وإذ سوف يندر أن يقودنا سير الأحداث للعودة لتاريخ مصر؛ فيكفينا أن نضيف للمعز، النظم السياسية التى تركها بالولايات القديمة. إنه سرعان ما ألقى جانباً تلك الفكرة، إذا كانت بالفعل قد جالت

---

(1) ابن الأثير، المخطوطة C، المجلد الخامس، عام ٣٥٨، ورقة ٣٦٧ الوجه الأول. كان اسم قائد التمـــرد أبو خَرْزَ أو خزرٍ، من قبـــيلة زناتة، وكان أتباعه من جماعتى السفرية والنَّقَارية. وفى مخطوطـــات ابن خلـــدون ورد اســـمه على أنه أبو جعفر: *Histoire des Berbères*، الترجمة، الجزء الثانى؛ ص ٥٤٨، بالحواشى. انظر أيضاً كاترمير، المرجع المذكور، ص ٦٢.

(2) عن صنهاجة انظر ابن الأثير، المخطوطة C، المجلد الخامس، ص ٣٦١؛ وعن قتامة، انظر المقريزى، الذى ذكره م. كاترمير فى المرجع المذكور، ص ٣٠.

(3) ابن الأثير، الموضع المذكور، والبكرى وابن خلدون، الذين ذكرهم م. كاترمير، المرجع نفسه، ص ٨٦، هامش رقم ١. وعليه جاء ذلك الخطأ الذى تنبه له هذا المستشرق العلامة، وهو تصور رحلة قام بها المعز إلى جزيرة سردينيا. انظر أيضاً ونريش، *Commentari*، الكتاب الأول، الفصل الثالث عشر، § ١١٣.

(4) ابن خلكان، ترجمة م. دى سلان إلى الإنجليزية؛ المجلد الأول، ص ٣٤٠ وما بعدها.

بخاطره، فكرة أن يعهد بافريقية لعربى ينحدر من أصل نبيل، لا يرضى بسلطة قليلة؛ ولا يكفى لحكم البلاد مع وجود جماعات العرب المناهضين(1). لذا لجأ إلى البربر، إلى قبيلة صنهاجه، وإلى عشيرة الزيريين، وإلى زعيمهم بلكين؛ ولكى يعرّب اسمه أطلق عليه اسم **يوسف ابو الفتوح**، ولقّبه **بسيف الدولة**. فساندة بيد قوية ضد المتمردين، مثلما فعل أبوه مع أبى المعز، وكان المعز يعرف جيداً أنه لو لم يجعل منه حاكماً، لاستطاع أن يولى نفسه أميراً(2). وكان بلكين يعلم ذلك هو أيضاً، فلم يتأثر من أنهم حجبوا عنه الحكم المدنى: ومن أن يختار المعز قضاة، وبعض قادة العسكر(3)، وأن مجلساً من الموظفين العموميين يقوم بالبت فى مجمل الشئون، على أن يقوم هو على تنفيذ القرارات(4). وقبِل ما هو أكثر من ذلك: أن يعين المعز مديراً **للخراج**، وآخر لمختلف الضرائب، وكلاهما شبه مستقل عن حكومة أفريقية(5)،

---

(1) كاترمير، المرجع المذكور، ص٨٧، عن المقريزى. انظر هذا المجلد ص٢٤٣، هامش ٢.

(2) ابن الأثير، عام ٣٦١، المخطوطة C، المجلد الرابع، ورقة ٣٧٠ الوجه الأول والثانى، والمجلد الخامس، ورقة ١٠ الوجه الثانى.

(3) م. كاترمير، المرجع المذكور، ص ٨٨، حسبما ورد بالمقريزى، كتب **القادة**. وأرى أنه يجب تفسيرها على أنها **بعض القادة**؛ لأنهم كانوا بالتأكيد من المرتزقة ومن فرق المحاربين العربية؛ وليسوا من القوات الرئيسة، أى قبيلة صنهاجة، التى كان لها نظامها العسكرى الخاص بها.

(4) كاترمير، الموضع المذكور، عن المقريزى.

(5) ابن الأثير، الموضـــع المذكور، وابن خـــــلدون، و*Storia dei Fatemiti*، بحواشى *Histoire des Berbéres*، للكاتب نفسه، الترجمة، الجزء الثانى، ص ٥٥٠. يضيف أولهما أن المعز أمر المديرين **بمكاتبة** بلكين. كان ذلك بالتأكيد من أجل الحفاظ على الشكل؛ ومن أجل تأكيد تحقيق الهدف. ويجدر ملاحظة الفصل بين إدارتى، الخراج، ومختلف الضرائب. وفيما أرى فالتفرقة لا ترجع فقط لطبيعة التحصيل المتباينة، بمعنى أن إحداهما ضريبة غير متغيرة ومباشرة، كما يمكن أن نسميها اليوم، بينما الأخرى متغيرة وإلى حد ما غير مباشرة، ولكن لأنها ترجع أيضاً لاختلاف الأراضى واختلاف السكان. **والخراج** كان يجب أن يستخرج أساساً من أفريقية ذاتها، ولا أعتقد أنه كان مقبولاً أبداً من قبل قبائل البربر الأشد قوة. فقبيلة كتامة ما كانت تريد أن تدفع حتى العشور المحددة فى الإسلام. انظر كاترمير، المرجع المذكور، ص ٣٠.

وقد استمرا فى إرسال المال إلى مصر زمناً طويلاً(1). ومن ثم كانت تلك الحكومة المزدوجة، هى ذاتها، التى أرادت الأسرة الحاكمة أن تعينها فى صقلية ولم يتحقق لها ذلك. وما كان المعز يعد نفسه بدوام طاعة بلكين(2)؛ ولكنه كما يفعل دائماً رجال الحكم، أخذ يجمع اليوم الثمار المتاحة، وترك هموم المخاطر التى لا يمكن تحاشيها للغد.

وهكذا بعد أن رتبت أمور أفريقية الفاطمية بتعيين نائب أمير يحكم من ضفاف خليج قابس الغربية وحتى مدى استطاعته فى اتجاه الأطلنطى، استثنى المعز الحذر، طرابلس، وأدجابيا وسرت جنوب الخليج؛ وعهد بها إلى أيدٍ أخرى حتى يخلو له طريق المرور من مصر، إن حدث وخطر لبلكين خاطر جديد. واستثنى صقلية أيضاً، وهى ولاية من سنين طويلة، لبنى أبى حسين الكلبى(3) تم اقرارها مؤخراً.

(1) **البيان**، النص، الجزء الأول، ص ٢٣٨، ويحكى فى عام ٣٦٦ (٦ ـ ٩٧٧) وما بعدها، أن أرسل المدير إلى مصر ٤٠٠.٠٠٠ دينار تم جمعها **بالقيران**. وهذا الحدث يقطع كل شك.

(2) يقولها ابن الأثير صراحة. ويجدر ملاحظة أن المؤلفين الشرقيين يختلفون عن الأفريقيين حول أولى نظم حكم الزيريين. فابن الأثير، وأكثر منه المقريزى المصرى، يضيقان حدود سلطة بلكين. وابن خلدون فى الموضع المذكور تواً، يورد الأحداث نفســها بالموجز؛ ولكنه فى *Histoire des Berbères*، الترجمة، الجزء الثانى، ص ١٠، يقول إنه ترك لبلكين سلطة تكاد تكون مطلقة. لذا فمن الواضح أن الأوائل كتبوا بناء على ما كتبه المصريون، وأن ابن خلدون قد نقل عن ابن الأثير، ذلك فى **تاريخ الفاطميين**، أما فى **تاريخ البربر** فقد تبع المراجع الأفريقية دون اهتمام بما فى ذلك من تناقض: وقد تكرر ذلك عنده أكثر من مرة. ثم أنه كما يرى كل منا فقد ساند مؤرخو مصر تحت حكم الفاطميين، حق الأسرة الحاكمة الفاطمية، فى حين أن الكتاب الأفارقة تحت راية الزيريين، وقد تحللوا من طاعة مصر، أرادوا أن يرجعوا استقلالهم حتى بدايات الحكم الزيرى.

(3) ابن الأثير، عام ٣٦١، المخطوطة C، المجلد الرابع، ورقة ٣٧٠ الوجه الأول، والمجلد الخامس، ورقة ١٠ الوجه الأول، مع البدائل التى أوردتها فى **المكتبة العربية الصقلية**، ص ٢٦٧ بالنص.

الفصل الخامس

حرص المعز على امتلاك مقاليد الأمور مرة أخرى فى صقلية. وفى عام ٣٥٨هـ الموافق (٢٤ نوفمبر ٩٦٨ ـ ١٢ نوفمبر ٩٦٩)، وبينما كان جوهر يستعد للتوجه نحو مصر، لوحظ وصول رسول بيزنطى إلى «المهدية» ومعه هدايا نفيسة، وكان الخليفة قد أمر بتدمير حصون تاورمينا ورامتا اللتين أعيد بناؤهما منذ فترة وجيزة. وكان ذلك أمراً خطيراً على مسلمى الجزيرة(1) الذين هدموها وفقاً لنصيحة غير المسلمين؛ وكما هو الحال فإن الكراهية العامة تدفع المرء كثيراً إلى ترك الاتهامات الصادقة وتذهب به إلى تلمس اتهامات باطلة. ولخوف الأمير أحمد من تدهور الأوضاع، فقد أرسل أخاه أبا القاسم وعمه جعفر على رأس جيش وقد أقاما بين المدينتين وأمرا بتدميرهما وحرقهما. وكان ذلك بمثابة مقدمة(2) لانقلاب على الحكم، مما أجبر المعز على استدعاء الأمير أحمد إلى أفريقيا هو وأسرته(3) وقد رحب الأمير بذلك وأطاعه. وقد سار الأمير أولاً على رأس الأسطول(4) وابن عمه «ابن عمار» على رأس مجمـوعة من الجنـود كان مقدراً إرسـالها لدعم جوهر(5)، بينما

(1) النويرى، فى *Di Gregorio, Rerum Arabicarum*، ص ١٩.

(2) النويرى، المرجع المذكور. الجملة التى طبعها دى جريجوريو بطريقة خاطئة فى النص وترجمها *ut earum edificia disjicerent* يجب تصحيحها بـ كلا الاثنين (أبو القاسم وجعفر) عسكرا بين المدينتين. وهكذا قال أيضاً م. كاترمير، المرجع المذكور ص ٦٨. وأغلب ظنى أن هذا الإجراء ينسب إلى حدث العطايا البيزنطية، وإلا لِمَ الجمع بين الحدثين؟.

(3) النويرى، المرجع المذكور، أبو الفدا، *Annales Moslemici*، سنة ٣٣٦؛ ابن أبى دينار، مخطوطة باريس، الورقة ٣٨ الوجه الأول.

(4) أبو الفدا وابن أبى دينار، المرجعان المذكوران.

(5) كاترمير، المرجع المذكور ص ٨٤.

ظل محمد، أخو أحمد، بالبلاط مدى الحياة، وذلك لثقة المعز فيه ومحبته له أكثر من أى صديق آخر(1) ومن الواضح أن بنى أبى حسين قد تلقوا وعداً بأن تكون لهم مكانة رفيعة لدى الخليفة إما فى إفريقيا أو مصر، وأن تدمير «تاورمينا» و«رامتا» قد وقع لكون حكامهما من العرب الصقليين، وكان من المعتاد تجريدهم من الأسلحة قبل الهجوم عليهم. وقد غادر الأمير أحمد البلاد بعد حكم دام قرابة ستة عشر عاماً وتسعة شهور. وقد رحل الأمير مع نهاية عام ٣٥٨هـ الموافق (أكتوبر أو نوفمبر ٩٦٩م). وقد أخلى الأمير أحمد منزله من الأبناء والأخوة والأقارب والخدم والموالى والثروات والأثاث وكل ما يمكن حمله. وبعد تحميل ثلاثين سفينة أبحر الأمير أحمد إلى «المهدية». وقد ترك الأمير عبداً محرراً من عصر أبيه يدعى «يعيش» والذى خوله المعز الحكم فى صقلية(2).

لكن وقع صدام بين القبائل التى تجمعت بالترسانة وبين عبيد «كتامة» المحررين وحاربوهم وقتلوهم(3). ويقصد بالقبائل قوات الجند من

(1) المقريزى، **المقفى**، مخطوطة ليدن الجزء الأول. تحت اسم محمد بن حسن بن على إلخ الملقب بالصقلى. ويضيف كاتب الترجمة أنه عند مرض هذا الأخير بالقاهرة، ذهب المعز لزيارته وأنه مات فى عام ٣٦٣ (٩٧٣ ـ ٩٧٤) وقد كفّنه بنفسه وصلى على جثمانه. وكان محمد هذا قد ولد فى عام ٣١٩ (٩٣١) ولكن قبل نزوح والده إلى صقلية.

(2) قارن: النويرى، وأبا الفدا والمقريزى وابن أبى دينار المواضع المذكورة، ولكن الأخير يخطئ فى التاريخ. فالجميع يقولون أن يعيش تم إبداله من الأمير أحمد نفسه. ولكن ما يتفق مع العقل هى رواية ابن الأثير وقائع عام ٣٥٩، المخطوطة C، المجلد ٤ ورقة ٣٦٨الوجه الثانى والمجلد ٥ ورقة ٩ الوجه الأول وهو يؤكد أن يعيش قد اختاره المعز. ويتبع ابن خلدون *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، الترجمة، ص ١٧٢، يتبع هذه الرواية، ولكنه يقول خطأ بأن الأمير أحمد قد انتخبه الصقليون بعد موت أبيه. انظر هذا المجلد، الكتاب الرابع، الفصل الثانى، ص ٢٥٤، الهامش رقم ٢.

(3) ابن الأثير وقائع عام ٣٥٩، المخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٣٦٨ الوجه الأول، والمجلد الخامس، الورقة ٩ الوجه الثانى. ويذكر بالنص لفظ «قبائل» وهو جمع لكلمة «قبيلة» وهى تعنى إحدى تقسيمات القبيلة العربية. فالكُتاب العرب فى القرن الحادى عشر الذين يتحدثون عن افريقيا يستخدمون هذا الاسم العام عند وصف القبائل العربية

عرب صقلية مرتبين وفقاً لسلالاتهم. أما عبيد «كتامة» المحررين فهم بالتأكيد الأجانب من الزنوج والسلافيين والبربر وقبائل أخرى وربما أيضاً بعض مسيحيى صقلية والبر الإيطالى المرتدين الذين حررهم زعماء «كتامة» وقاموا بتسليحهم لدعم فرقهم العسكرية لقلة عددها فى ذلك الوقت وللوفاء باحتياجات الأسرة الحاكمة. ولا أرى تجاوزاً منى فى التفسير إذا أضفت أن الجند الصقليين كان يعادى بصورة كبيرة عبيد «كتامة» المحررين بسبب الفئ الذى كانوا يعتبرونه ميراثاً لهم وأصبح يشاركهم فيه الخارجون من العبودية؛ أو ربما لأنهم قد حصلوا على المرتبات التى سقطت بسبب رحيل الكلبيين. ويبدو أن الاضطراب قد استمر حتى نهاية عام ٩٦٩م(1). ولما كانت ترسانة بالرمو تقع فى الخالصة (2) فمن الواضح أن يعيش لم يجد ما يدفع عنه الثائرين بعد أن فقد الحرس الخاص به داخل القلعة نفسها.

وكما حدث دائما فى صقلية، فإن نار بالرمو اندلعت على الفور بباقى المدن: فقد تم قتل عبيد كتامة المحررين فى أنحاء(3) سيراكوزا؛ وعمت الاضطرابات والمشاجرات كل الجزيرة؛ وساد العداء: وعبثاً حاول يعيش أن يهدئ النفوس ولكن الشك فيه وعدم وجود سلاح معه أو أتباع جعل أحداً لا يستمع له. وقد قامت القوات

او البربرية على حد سواء وإلى اليوم فى أقاليم الجزائر ووهران (وليس فى كل الجزائر او باقى أفريقيا) يطلق لفظ قبيلى فقط على البربر. وبالطبع فإن فى النص الحالى لابن الأثير والذى نسخته فى القرن الحادى عشر أو الثانى عشر بعض الأخبار لايقصد بلفظ قبائل إلا قبائل عرب صقلية؛ وذلك لأنه فى المقام الأول غير مقترن بمسمى عرقى يحدده، وثانياً، لأن النزاع فى صقلية فى ذلك الوقت لم يكن ليحدث إلا بين المستوطنين العرب والحراس. أما بربر جنوب صقلية فلم يعد لهم شأن بعد معركة عام (٩٤٠) ولم يعودوا جزءاً من شعب بالرمو.

(1) فى نوفمبر من عام ٩٦٩ رحل الكلبيون، وفى يونيو عام ٩٧٠ عادوا مرة أخرى.

(2) ابن حوقل، *Description de Palerme* فى *Journal Asiatique*، المجموعة الرابعة، المجلد الخامس، ص ٩٣.

(3) هكذا وبالحرف النص: أنحاء، حارة، مجاورة. ربما يتعلق الأمر بالحى أو الإقليم.

بالسطو والعنف ضد سكان المدن الأصليين كما اجتاحوا(1) المدن المسيحية الآمنة(2). وأثناء دفاعهم عن حقوقهم لم يحترموا حقوق الآخرين. وأظهرت القوة التى استخدمت ضد المسيحيين فى الواقع معاناتهم من توزيع الفئ ورغبتهم فى إصلاح الظلم بالقوة. وعندما علم المعز بالفوضى التى عمت صقلية، ولم يكن تمرد قبائل زناتا فى أفريقيا(3) قد انتهى وكانت قبائل القرامطة تهدده بغزو قريب لمصر، فإنه لم يقف ضدالصقليين. لذا قام بعزل يعيش وأرسل إلى الجزيرة أبا القاسم على بن حسن نائباً لأخيه أحمد؛ حتى يظهر حرصه على عدم تغيير النظام أو الرجال. ومع قدومه فى ١٥ شعبان ٣٥٩هـ (الموافق ٢٢ يونيو ٩٧٠) هدأت الأوضاع وعم الفرح أرجاء المستوطنة واستقبلته وخضعت(4) لإمرته.

وبعد بضعة شهور وأثناء إبحار الأمير أحمد مع جيشه الإفريقى نحو مصـر، حلّ به المـرض فى طرابلس ولم يمض وقت طويل حتى وافته المنية. وفى نوفمبر عام ٩٧٠هـ كتب المعز إلى أبى القاسم

(1) بالنص لفظ مماثل ومشتق من ذات الجذر وهو «رعية» والذى نسمعه يتردد فى أحداث البلاد الإسلامية اليوم. لكن ربما يقصد به بشكل رئيس الرعايا المسيحيين.

(2) هذا الحدث الهام جداً الذى يتناول الثورة ضد يعيش ذكره فقط ابن الأثير، الكتاب المذكور، فضلاً عن إشارة ابن خلدون فى *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، الترجمة، ص ١٧٢.

(3) يرى ابن الأثير، وقائع عام ٣٥٨ المخطوطة C، الجزء الخامس، الورقة ٣٦٧ الوجه الأول، أن زعيم هذا التمرد تم إخضاعه فى ربيع الثانى عام ٣٣٩ (فبراير ومارس ٩٧٠). وحول الاسم انظر الهامش رقم ١ من ص ٢٩٢.

(4) قارن بين ابن الأثير، وقائع عام ٣٥٩، المخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٣٦٨ الوجه الثانى، ابن خلدون الكتاب المذكور؛ أبي الفدا *Annales Moslemici*، المجلد الثانى، عام ٣٣٦؛ والنويرى فى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ١٩؛ وابن أبى دينار مخطوطة باريس، الورقة ٣٨ الوجه الأول. إن يوم قدوم أبى القاسم إلى بالرمو يطابق عدد سنوات حكمه بالضبط والتى يذكرها ابن الأثير وهو يروى وفاته التى وقعت فى ٢٠ محرم عام ٣٧٢هـ. وقد حكم، كما يقول كاتب الحولية، اثنتي عشر عاماً وخمسة شهور وخمسة أيام؛ وهى وفقاً للتقويم الإسلامى ٤٤٠٥ يوماً. انظر ابن الأثير عام ٣٧١، والذى سنذكره فى نهاية الفصل السادس للكتاب الحالى. ويعطى أبو الفدا الرقم نفسه الذى ذكره ابن الأثير، بينما يقول ابن أبى دينار أنهما اثنتا عشر عاماً؛ أما **البيان** يرى، وهو مخطئ، أنها إحدى عشر عاماً.

خطابات التعزية لموت أخيه كما بعث إليه بمرسوم تنصيبه أميراً على صقلية(1)، وأصبحت صقلية أكثر استقراراً فى عهد هذا الأمير العادل الكريم(2).

وقد قدم فى ذلك الوقت (٩٧٢ - ٩٧٣) إلى بالرمو أبو القاسم محمد بن حوقل الذى ترك لنا وصفاً للمدينة(3). وقد ولد ابن حوقل بمدينة بغداد فى زمن كان يعج بالفوضى فى الخلافة، وظل فى ترحال لقرابة ثلاثين عاماً (٩٤٣ - ٩٧٦م) لولعه بدراسة أحوال البلاد والبشر والتجارة؛ وقد زار معظم البلدان الإسلامية، من الهند حتى سواحل إفريقيا الشمالية(4)، وإن كان ابن حوقل لم يطأ أرض أسبانيا، فإنه قد ذهب إلى البر الإيطالى وإلى مدينة نابولى حيث كان

(1) قارن بين: أبى الفدا *Annales Moslemici*، عام ٣٣٦، المجلد الثانى، ص ٤٤٦وما بعدها. والنويرى فى دى جريجوريو *Rerum Arabicarum*، ص ١٩، وابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، النص ص ١٧٢. وفقاً للأول، فإن الأمير أحمد قد توفى فى أواخر شهور عام ٣٥٩ (حتى الثانى من نوفمبر عام ٩٧٠)، وقد كتب المعز لأخيه فى عام ٣٦٠ (بدءاً من الثالث من نوفمبر).

(2) ابن خلدون، الكتاب المذكور يذكر فى نصه «الكامل» بدلاً من «الكريم» كما ترجمت اعتماداً على البديل الموجود بمخطوطة تونس.

(3) هذا الفصل الخاص بجغرافية ابن حوقل قمت بنشره مترجماً باللغة الفرنسية فى *Journal Asiatique*، عام ١٨٤٥، المجموعة السادسة، المجلد الخامس، ص ٧٣ وما بعدها؛ ثم باللغة الإيطالية فى *Archivio Storico*، الحاشية السادسة عشرة (١٨٤٧)، ص ٩ وما بعدها، مع البدائل التى تم الحصول عليها من مخطوطة أكسفورد. والآن فإن مقالين فى «معجم البلدان» لـ «ياقوت» سأنشرهما فى *Biblioteca Arabo Sicula* - ص ١٠٧ و١٢٠ من النص العربى، يدفعانى إلى تصحيح بعض الأماكن وإضافة أخبار أخرى والتى تنقص فى نسخ ابن حوقل، والموجودة بأوربا، ولكنها كانت توجد بالتأكيد فى الطبعة التى كانت بين يدى «ياقوت».
إن الاختلافات التى سنراها بين ما أكتب الآن وترجماتى التى ترجع إلى عام (١٨١٥) و(١٨٤٧) تنجم عن التصحيحات سالفة الذكر وعن تفكير وتمحيص أفضل، وأسمح لنفسى بالقول بإن ذلك قد نجم أيضاً عن دراية أفضل باللغة. وعلاوة على ذلك يجب أن انبه إلى أن الترجمة الإيطالية والملاحظات بهما الكثير من الأخطاء المطبعية. والإستشهاد بابن حوقل وبياقوت يصلح لبقية الفصل الحالى كله.

(4) عن حيـــاة وأعمال ابن حوقل انظر: *Reinaud, Géographie d'Aboulfeda,* و *Uylenbrœk, Iracœ persicæ descriptio,* ليدن، ١٨٢٢؛ المقدمة، ص ٨٢ وما بعدها.

يمر بها المسلمون من كل أنحاء البحر المتوسط(1) من أجل تجارتهم.
إن جغرافية ابن حوقل التى كتبها من خلال كتابات الآخرين ومن خلال مذكرات رحلته، يشوبها عادةً القلق والأحكام المندفعة وأحداث يسهل للآخرين تصديقها إما لجهلهم أو لشغفهم: وهو عمل عبقرية غير متمرسة فى العلوم أو الآداب؛ وإن حَفل بحس تجارى يصيب الهدف فى وصف الأمور العامة؛ نستخرج منها أخباراً دقيقة تتعلق بمسار رحلاته وعادات الشعوب والمحاصيل والدخل العام والنظم الإدارية. وعن صقلية لا يذكر ابن حوقل غير أنها تبلغ من حيث الطول مسيرة سبعة أيام ومن حيث العرض مسيرة أربعة أيام، وهى مأهولة بالكامل ومزروعة وجبلية التضاريس وتعلوها القلاع والحصون، وحاضرتها بالرمو وهى المدينة الهامة الوحيدة لكثرة عدد سكانها ولشهرتها فى العالم. وعن بالرمو يتحدث ابن حوقل أكثر من اللازم وأحياناً أقل من اللازم، فنراه يغفل الأحوال الاقتصادية التى اعتاد أن يصفها فى بلدان أصغر من بالرمو والتى ربما فقدت فى كتيب بعنوان «فضائل أهل صقلية» أو فى كتيب آخر أو فصل من الجغرافيا تبقت منه فقط بعض الشذرات(2).

إن خريطة بالرمو التى يمكن رسمها من هذه المعلومات ومن ذكريات آثارها تصور لنا الأحداث الرئيسة لجزيرة صقلية منذ الفتح الإسلامى وحال المستوطنة الذى كان يترجح بين الفضيلة والرذيلة. فضيلة المركزية والحضارة، ورذيلة الانقسام: فى الأجناس والطبقات والديانات التي كانت تتباعد فيما بينها النفوس والأماكن نتيجة الشكوك المتبادلة مما أدى إلى زيادة الكراهية فيما بينها. وإذا كان هذا هو حال كل

(1) انظر الكتاب الثالث، الفصل الثامن، ص ١٨٤، الهامش رقم ٣ من هذا المجلد.
(2) يشير المؤلف، فى المخطوطات التى لدينا بأوربا، للكتيب الأول فى نهاية **وصف صقلية**. والعنوان وبعض التفاصيل الأخرى تقرؤها فى الفقرة السابق ذكرها من «**معجم البلدان**» لياقوت، الذى وقع بين يديه بالتأكيد الكتيب الثانى عن صقلية، أو طبعة أخرى أكثر تفصيلاً من **الجغرافيا**.

الحضارات فى العصور الوسطى، فإن بالرمو ما كانت تحبس مواطنيها داخل سور أو خندق. كانت بالرمو تنقسم إلى خمس مناطق (حارات)، كما يقول ابن حوقل، ويطلق على اثنتين منها اسم مدن(1) لكونهما حصونا وأودية منفصلة. الأولى وتسمى كسارو (قصر) وهى كما يذكر تمثل أيضاً بالرمو القديمة والحقيقية وهى مدعمة بأسوار شاهقة وضخمة من الأحجار ومحاطة بأبراج ويسكنها التجار وطبقة النبلاء المعنية بإدارة المدينة(2). أما المدينة الثانية فهى «الخالصة»، وهى محاطة بأسوار أقل ارتفاعاً ويقيم بها السلطان وحاشيته، ولم يكن بها أسواق أو فنادق، ولكن حمامات ومكاتب عامة والترسانة والسجن. وكانت المنطقة التى ليس بها أسوار والتى يطلق عليها منطقة سكيافونى، كانت الأكثر من حيث تعداد السكان وأضخم من المدينتين المهيبتين الخاصتين بالإدارة والحكم، وكانت مقراً للأسطول والتجار الأجانب الذين يفدون على بالرمو(3). وكانت المنطقتان الأخرتان مفتوحتين، ولم تكونا مختلفتين الواحدة عن الأخرى وهما المنطقة الجديدة ومنطقة المسجد *(Moschea)* وكانتا تضمان الأسـواق والحرف: المبادلون، وبائعـو الزيوت، وبائعو الحنطة؛ والعطارون والخياطون وصانعو الأسلحة والنحاس وكانت كل

(1) هكذا الحال فى النص الذى لدينا. فى الطبعة الأخرى والتى يحتفظ لنا فيها «ياقوت» بالشذرات، يبدو أن ابن حوقل قد أطلق اسم «مدن» على المناطق الثلاثة الأخرى.
(2) يتحدث ابن حوقل تحديداً عن التجار فقط، ولكن عند حديثه عن كبرياء أهل المدينة، كما سنرى فيما بعد، نجده يعترف دون قصد، بأنه كانت تقيم بالقصر الأسر العريقة التى كانت تمتلك مساجد خاصة وكانت تدرس بها الشريعة، أى أعضاء الجماعة والتى نطلق عليهم نبلاء المدينة.
(3) لا يذكر ابن حوقل حالة السكان أو جنسيتهم، ولكن كان هناك الميناء: وهو أمر يكفى. ومن ناحية أخرى نعلم أن هناك فى ذلك الحى كانت توجد استراحات بحارة جنوة حتى القرن الثامن عشر؛ ومازالت توجد أيضاً كنيسة سان چورچ المسماة بكنيسة بحارة جنوة. وهنا كانت توجد أيضاً فى القرن الثالث عشر حارة أهل أمالفى، كما يستنتج فازللو من الوثائق، ونضيف أنه فى ذلك الزمن كانت توجد كنيسة القديس أندريا الخاصة بأهل أمالفى.

حرفة مستقلة عن غيرها ومنفصلة عنها، إلى جانب وجود محلات الجزارة وكانت تصل إلى ما يقرب من مائة وخمسين داخل المدينة(1) ومحلات أخرى أكثر خارجها. وهناك شارعان يطلق عليهما ابن حوقل اسم منطقتين دون أن يضعهما مع المناطق الخمسة سالفة الذكر وكان اسمهما حارة اليهود، وحارة أبى جمين. وبالمثل كان المعسكر الخاص بالجنود منعزلاً وكان محاطاً بسياج(2). أما الأحياء التى كانت تحتوى على آثار الدمار الذى حدث نتيجة حروب الاستقلال فهى توجد فى الناحية الجنوبية الشرقية وسط الحدائق حتى أوريتو، حيث تتناثر على السواحل، ومن الناحية الجنوبية الغربية حيث كانت تبدأ من المعسكر فى صف متواصل حتى قرية بيدا(3).

ويمكن ملاحظة مواقع المناطق بسهولة: كانت الكاسارو تقع فى الوسط، على شكل سفينة تتجه مقدمتها ناحية الشمال. أما الخالصة فكانت تبدو راسية فى خط مائل؛ ومن الشرق إلى الجنوب الغربى كانت تقع منطقة المسجد، وكذلك المنطقة الجديدة والمعسكر: وكانت سكيافونى تقع فى خط مواز لكسارو، من الجانب الغربى.

وكان البحر، كما هو واضح، يفصل، من خلال مصب ضيق لم يتغير، الخالصة عن أقصى شمال سكيافونى؛ وعند بلوغه أقصى نقطة فى كاسّارو كان ينقسم إلى مستنقعين، على الجانب الغربى منهما تم بناء الميناء التجارى فى سكيافونى، وعلى الجانب الشرقى فى الخالصة تم إنشاء الترسانة. وإذا كانت المستنقعات قد غمرت، فى

(1) كتب ابن حوقل لفظ «بلد» وهو لفظ غير محدد فى العربية مثل لفظ «*Paese*» فى الإيطالية. ويبدو أنه كان يريد أن يطلق هذا اللفظ على المناطق الخمسة وليس على المنطقتين المحاطتين بأسوار فقط.

(2) كان هذا بالتأكيد فى القرن الثانى عشر حيث كان يحمل اسم «حلقه»؛ والحرف الأول من هذا اللفظ كان يكتب بطرق مختلفة فى الوثائق، وسوف أذكر ذلك فى موضعه. ويتحدث ابن حوقل بصورة معبرة، دون قصد، عن المعسكر بوصفه حارة خارج المدينة القديمة.

(3) انظر ص ٦٩ من هذا المجلد.

الماضى، كل جوانب المدينة، فإنها انحسرت فى القرن العاشر ليبقى منها المصب وحوضان، وبعد تسعمائة عام لم يبق غير المصب الذى يطلق عليه كالا(1). ويقول ابن حوقل إن عدة جداول ضخمة، يكفى كل واحد منها لإدارة طاحونتين، كانت تقطع الأرض الزراعية ما بين مدينة كاسّارو وسكيافونى حيث تعمل الطواحين بسهولة، وحيث تنتشر البحيرات الصغيرة، وحيث توجد المستنقعات التى ينمو بداخلها البوص الفارسى أو تزرع بها الخضروات(2). يقول ابن حوقل «فى هذه البقاع يوجد مستنقع مغطى بنبات البردى الذى يستخدم فى الكتابة، وكنت أظنه لا ينمو إلا فى مصر فقط، ولكنهم هنا يصنعون أيضاً أنواعاً عديدة من الأحبال للسفن، وبعض الورق اللازم للسلطان». ولكن هناك بردية كبيرة، ومن العجيب أنها من صقلية، وليست من مصر، وتبدو بحروفها العربية كأنها مصرية الصنع وقد كُتب عليها مرسوم من «چوڤانى الثامن» لصالح دير تورنى *Tournus* فى فرنسا وهى مؤرخة بالعام الأول من حكم الإمبراطور كارلو الكالڤو

(1) فى القرن السابع عشر قام شخص يدعى چامبتيستا مارنجو وفقاً لأوامر مبهمة صدرت له برسم خريطة لبالرمو القديمة، والتى تم نسخها بالألوان بعد ذلك على لوحات، نُقلت منها واحدة إلى مكتبة المدينة. وأمر مورسو بتصغير هذه الخريطة ونقشها وبنى على أساسها مدينته بالرمو فى عهد النورمان، والتى كانت ترسو فيها السفن داخل أراضى المدينة القديمة من جانبيها الاثنين. إن شهادة ابن حوقل تفض كل خلاف حيث يخبرنا بأى ماء كانت تنفصل المدينة القديمة عن سكيافونى وبأنه من الناحية الأخرى كان يخرج من منطقة المسجد وحارة اليهود، واللتين نعرف موقعهما الحالى، أى مكتب البريد، وشارع النحاسين ... إلخ. لكن وثائق القرن الثانى عشر والثالث عشر لم تسمح فى الحقيقة لمورسو بأن يجعل البحر يصل إلى هذا الحد، وقد جعله يصل إلى المكتبة العمومية الحالية مفترضاً أن لوائح إحدى الرهبانيات وهى رهبانية «سيدة نوباكتيس» والتى تُقرأ على إحدى الرقاع اليونانية فى كنيسة القصر أنها: أولاً، كانت تنتمى إلى مدينة بالرمو؛ ثانياً، أن يكون قد ذكر بها حى *Naupactitessi* بدلاً من دير *Naupactitesse* (ἐν τῇ τῶν ναυπακτιτησσῶν μονῇ)؛ وثالثاً، أن هذا اللفظ كان يعنى «صُناع السفن» وليس «نساء لبانتو» (Ναύπακτος). وسوف نتناول هذه الوثيقة بالتفصيل فى موضعه والتى تم إرفاقها للتدليل على نشأة هذه الرهبانية قبل الغزو النورماندى.

(2) يقول ابن حوقل بالتحديد: حقول قرع رائعة.

(٨٧٥م) ومحفوظة فى مكتبة باريس(1). فالنبات المصرى الذى يزودنا بالمعرفة القديمة قد حمله الإغريق إلى سيراكوزا وحمله العرب إلى بالرمو، وظل نبات البردى حتى القرن العاشر، وعندما جف المستنقع، بقى الاسم الذى يعرف حتى الآن باسم *Papireto* بابيريتو (مزرعة البردى).

وعلى عكس المستنقعات والزراعات المتواضعة، كان الريف فى الجانب الشرقى يزهو بالخضروات والحدائق الخلابة على ضفاف أوريتو والتى كانت تُسمى (وادى عباس) وظل الحال هكذا حتى عهد النورمان وآل زفيقى (2)، ولكنها اليوم استعادت اسمها القديم. وكانت الحدائق تنمو وتختلـط بحقول الكـروم فى قرية بلهرا(3)

---

(1) *Bulle de Tournus* التى تم نقشها لاستخدامات *Ecole des Chartes*، باريس عام ١٨٣٣. انظر أيضاً مارينى *Papiri Diplomatici*، ص ٢٦، ٢٧، ٢٢٢، ٢٢٣. ورقة البردى هذه يبلغ طولها عدة أمتار وعرضها ٥٨سم. والكتابة العربية، التى تتوسطها بعض الخطوط الحمراء، نلمحها فى بداية اللفافة المكتوبة بالحروف المائلة الكبيرة الواضحة وبريشة ملونة وأصبحت اليوم سمراء بدلاً من الحبر الأسود؛ ولكن نظراً لأن ورقة البردى متهالكة من أطرافها فمن الممكن قراءة بعض الروابط وحروف الجر وبعض المقاطع المبتورة ولفظ «الله» وفقرة باسم «سعيد بن .... بصعوبة. إن تجارة صقلية المسلمة مع نابولى» وعلاقات «چوڤانى الثامن» الواضحة مع هذه المدينة ومع المسلمين تجعل الاعتقاد بأن ورقة البردى هذه من بالرمو اعتقاداً سليماً حيث تبدو بدائية الصنع بالمقارنة بالبردى المصرى.

(2) اسم عباس فى وثيقة ترجع لعام ١١٦٤ لدى مونجيتورى. *Sacrœ domus Monumenta, ... Mansionis* الفصل الخامس، ولفظ *Habes* فى وثيقة ترجع لعام ١٢٠٦ فى *Pirro, Sicilia Sacra* ص ١٢٩ وهناك ألفاظ *Audhabes, Avedhabes,* أو *Leudhabes* نجدها فى وثائق أخرى ترجع لعامى ١٢٠٧ و١٢١١ المرجع المذكور ص ١٣٠ ـ ١٣٦ مع ملاحظات داميكو . ولسنا فى حاجة إلى الإشارة بأن الألفاظ *Aud, Aved, Leud* هى نقل للفظ العربى وادي ومعناه «نهر». أما لفظ عباس فهو اسم علَم.

(3) يمكن التعرف على الاسم بسهولة فى اسم *Bulchar* لدى فازيللو العشرية الأولى، الكتاب الثامن، الفصل الأول، وفى الـ *Segeballarath*، المرجع نفسه، كما كان يطلق فى زمن ما، على حد قول المؤلف، على الميدان الحالى لـ *Ballaro* وكان هذا تشويهاً بلا شك للمقابل لسـوق *Balharā* والذى كانت قريته تقترب من ذلك الجـانب من المدينة.

وهو لفظ هندى(1) تحول الآن إلى موريالى وهى تسمية لاتينية، وبالقرب من هذه القرية كان هناك منجم للحديد كان يملكه فى القديم أحد أفراد بنى الأغلب ثم صار ملكا للسلطان الذى كان يستخدم الحديد فى صناعة السفن. وكان النهر يدير الطواحين الأخرى الضرورية لقطاع كبير من الشعب. وقد نزل ابن حوقل ليستعرض ينابيع الماء الخاصة بالمدينة وضواحيها، والتى مازال بعضها يحتفظ باسمه(2) حتى الآن، إلا أن ابن حوقل يغفل اثنين منها لهما اسمان عربيان، ويبدو أنهما قد أكتشفا فى القرن الثانى عشر(3). وعلى عكس الرأى الشائع فإنه يرى أن المسلمين فى بالرمو كانوا يقومون بإتلاف الكثير من الثروات المائية. ويطلق ابن حوقل، وهو الذى وُلد على ضفاف نهر دجلة بالعراق، على «وادى عباس» اسم الوادى الكبير، الأمر الذى يجعلنا نعتقد بأن العديد من الشرايين المائية الموجهة لخدمة المدينة(4) كانت تفيض عليه بمائها. بيد أن ابن حوقل لم يفته أن جزءاً من أراضى المدينة كانت ترويه الترع، أما الجزء الآخر فكانت تسقيه الأمطار كما هو الحال فى بلاد الشام. وقد انتابت ابن حوقل دهشة كبيرة عندما وجد سكان الجزء

---

(1) انظر الكتاب الثالث، الفصل الأول، ص ٣٦ ـ ٣٧ من المجلد الحالى.

(2) «غبريال» *Cribrum* وهى اليوم «جبريالى». والاسم العربى ربما كان هو اللاتينى والذى منه أخذ المعنى.

ـ «فواره» وهى تسمى اليوم «فاڤارا» *Favara*.

ـ «عين أبى سعيد»، الذى كان فى وقت ما، وفقاً لرأى ابن حوقل، حاكماً للبلاد. انظر الكتاب الثالث، الفصل السابع، ص ١٥٧ من هذا المجلد. وقد عثر فازيللو فى الوثائق على لفظ عين سيتيم *Ain-Seitim*، وتسمى اليوم *Annisinni* أو *Dennisinni*

(3) *Garraff ù* و *Garraffeddu* واللفظ الأخيـر هـو التصغير الصـقلى للأول. لفظ *Gharrá f* «غرّاف» هو صـفة تعنى «وفير الماء». وهذا الموقع كان بحيرة أو مستنقعاً فى عصر ابن حوقل ويمتد من ناحية الجانب الشمالى للقصر. ومع ذلك فإن المصدرين، أو الأول على الأقل، قد أكتُشفا بين القرنين العاشر ومنتصف القرن الثانى عشر، قبل أن تبدأ اللغة العربية فى الزوال.

(4) يمكن أن نضيف إلى هذا السبب تغيير زراعة الجبال أو اهمالها والتى تزيد فيضان الأنهار، ولكنها تقلل من كمية الماء الدائمة. إن وادى هذا النهر، هناك حيث يشق الصخور، يوضح لنا أن مجرى النهر كان أكبر وأعمق مما هو عليه الآن.

الشرقى فى كاسارو والخالصة وأحياء هذا القطاع، يشربون الماء الموجود فى آبارهم. لذا لا يجب أن نتعجل فى إرجاع الفضل إلى حكم المسلمين فى تقدم الإقتصاد المائى والذى يوفر الماء الجارى اليوم لكل أجزاء المدينة وحتى الطوابق العليا فى المنازل. فإذا أمعنا النظر فى الألفاظ الفنية لعمال المياه فى بالرمو رأينا أنها تمتزج باليونانية واللاتينية والعربية، ومن هنا نكتشف الدور الجماعى لتلك الســلالات الثلاثة والتى اتحدت فى ظل حكم النورمان؛ إلا أننى سأرجئ الحديث عن هذا إلى الكتاب الأخير.

وإذا أتينا للحديث عن الآثار، فإن ابن حوقل قد لاحظ المسجد «جامع كاسارو» والذى كان فى وقت ما كنيسة مسيحية، وبداخلها كانت توجد رفات أرسطو وفقاً لرجال المنطق بالمدينة، إلا أن ابن حوقل لا يؤكد سوى رؤيته للنعش، المعلق بأعلى، وسماعه رواية أن الإغريق القدامى قد اعتادوا التوسل برفات الفيلسوف لحدوث معجزات فى أوقات الجفاف والطاعون والحرب الأهلية. إذن فالمجال يسمح بوضع الأسطورة والأثر قبل أو بعد العصر المسيحى، مع إرجاع الاسم إلى القدم وربما لعبادة إمبدوكليس، بيد أن نوعية المزار واستخدامه تتلاءم بصورة أفضل مع المحبة المسيحية. ويذكر بكري هذه الرواية نفسها، إلا أنه بدلا من اسم أرسطو يذكر اسم جالينو الذي ذهب من روما لزيارة المسيحيين في سوريا، وانه مات اثناء الرحلة في صقلية. ولا يبدو غريباً أنه عند استسلام بالرمو قد أتفـق على ترك الكنيسة كلها، أو جزء منها، قائمة وأنه عند تحويلها إلىَ مسجد، ترك السادة الجدد، ويمكن تصديق هذا أو عدم تصديقه، تركوا هذا الرمز فى أحد الأركان خارج المبنى؛ وهناك أمثلة على تقسيم الكنائس بين الديانتين فى الفتوحات الأولى؛ ولم يكن القصص الدينى الذى تم تبادله بين الجانبين بقليل عندما قل التعصب وساد الهدوء بينهما(1). ومدينة الكاسارو، بيضاوية الشكل

(1) إن أحوال المساجد والكنائس فى «دمشق» و«قرطبة» معروفة للجميع. ويعلم كل واحد كذلك أن فى العصور الوسطى كَرم بعض الأمراء المسلمين وصدقوا بعض رجال

كان يقطعها من ناحية المحور الأكبر طريق مستقيم، لايزال يحمل حتى اليوم اسم سماط أو لنقل صف؛ وكانت توجد بهذا الطريق فنادق ومحلات وكان مبلطاً بالكامل وهى ميزة، لم تكن منتشرة فى العصور الوسطى. وكان للمدينة القديمة تسعة أبواب، معروفة المواقع(1)، ومن هذه الأبواب باب، ظل يُعتقد حتى القرن الماضى أنه من صنع مؤسسى بالرمو من اليهود أو الكلدانيين وذلك بفضل الحروف الغريبة التى كانت منقوشة فوق قوسه وعلى جدار مئذنة مجاورة، وقد دمر الباب والمئذنة، أحد الحكام الأسبان، بينما حافظ علماء المدينة على الحروف التى كانت تزين المئذنة، برغم ما اعتراها من تغيير وتشويه، كما اختلطت الأحجار وفقد جزء منها، ويلمح المرء بها كتابة كوفية جميلة، ويمكن أن نرى تاريخها الذى يرجع إلى القرن الرابع الهجـرى وكذلك ثلاث آيات من القرآن الكريم والتى يعتاد كتابتها على أبواب المساجد(2). أما مدينة الخالصة فكانت بها أسوار بلا أبواب أخرى ماعدا أربعة من ناحية

الدين المسيحيين المشهـود لهم بعلمهم أو لمـحبتهم أو لمعـرفتهم بالمستقـبل؛ وبالمثل تعامل بعض الأمراء المسيحيين مع الفقهاء وعلماء الفلك المسلمين. ووفقاً لشهادة Lane الموثوق بها فى كتاب *Modern Egyptians*، لندن ١٨٣٧، المجلد الأول، ص ٣٢٢، فإن مسلمى ويعاقبة مصر مازالوا يتبادلون تبادلاً أخوياً بعض القصص الدينى.

(1) يذكر ابن حوقل، ١ـ باب البحر؛ ٢ـ باب الشفاء، هكذا سمى باسم عين ماء قريبة؛ ٣ـ باب سانتا أجاتا شنتغات؛ ٤ـ باب روطه من اسم عين مياه أخرى (*Rut* من الفارسية *Rud* ويوجد الاسم فى أسبانيا)؛ ٥ـ باب الرياض الذى صُنع بدلاً من الآخر رقم ٦ المسمى باب ابن كرهب من اسم المتمرد المشهور؛ ٧ـ باب الأبناء؛ ٨ـ باب الحديد؛ ٩ـ باب جديد بلا اسم. والجزء الأكبر من هذه الأسماء يوجد فى وثائق القرن الثانى عشر، كما ذكرت فى تعليقى على ابن حوقل فى *Journal Asiatique* وفى *Archivio storico italiano*.

(2) تم هدم باب *Patitelli* فى عام ١٥٦٤ كما ساءت حالة الكتابة التى كانت تظهر فى عصر فازيللو والذى أخطأ، من وجهة نظرى، فى اعتقاده بأنه مختلف عن «باب البحر» والذى كان قد عثر على اسمه فى الكتابات القديمة. والبرج الصغير القريب والذى كان يسمى *Baich*، والذى تحول من مئذنة مسجد إلى مسكن لأحد المواطنين، قد تآكل من الجانب الغربى فى عام ١٥٣٤ من جرّاء بعض الترميمات: تم آنذاك نقل الأحجار التى توجد بها الكتابة إلى صف واحد بأعلى المبنى؛ إلا أن فازيللو أسرع إلى هناك وانتهره وامر بإعادة ترتيبها ونسخ بإتقان الحروف ولكنه أخطأ فى وضع مجموعة من ثلاثة أو

البر تجاه الجنوب. وكانت توجد خارج أسوار «الكاسارو»، كما أعتقد،
على الحوض الشرقى الرباط، كما كانوا يطلقون على أماكن إقامة
المتطوعين فى المدن الحدودية، أولئك المتطوعين الذين يتقاضون
أجرهم من الزكاة الشرعية أو من خلال الأوقاف الدينية مقابل
خروجهم لمقاتلة الكفار، وهم نوعية، مع اتساع الإسلام واجتياحه،
كانت تشبه فى نظامها الفتوات فى الجيوش الإقطاعية، وفى خمولها
كانت تشبه الرهبان المتسولين بالبلاد التى كانت تحوى منهم الكثير.
ويقول ابن حوقل أن كثيراً من «الرباط» كان موجوداً فى

أربعة حروف أو قلبها وكانت قد نقشت فى كل حجر. وقد نشر الرسم بصورة مصغرة
فى كتاب التاريخ الذى ألفه، العشرية الأولى، الكتاب الثامن، الفصل الأول: معتقداً
الاحتفاظ بالنص الكلدانى الذى كُتب بعد فترة قليلة من الطوفان. فى عام ١٥٦٤ قام
الحاكم الأسبانى الذى حكم الكاسارو وأطلق عليها اسم «توليدو» *Toledo*، بهدم البرج
دون اكتراث، ولكن العالم ماركو أنطونيو مارتينز أحاط البرج برعايته وقام بنقل الجزء
الأكبر من الأحجار المنحوتة إلى قصر المدينة ونسخ الأشكال؛ أربعة وثمانين حجراً
ينقصها واحد وعشرون حجراً. وهكذا بقيت الكتابة مرتبة تقريباً وكأنها سطر طويل من
حروف الطباعة سقطت على الأرض وقام شخص أُمى بوضعها فى خمس أو ست
سطور، بعد أن ألقى بعيداً بالجزء الرابع. وهكذا نشرها توريموتزا بعد قرنين تقريباً،
ولأول مرة، (*Siciliæ etc. Inscriptionum* الطبعة الثانية) وبعده دى جريجوريو فى
(Rerum Arabicarum) ومورسو (*Palermo Antico*)، وقد أكد أسمّانى نوعية
الحروف؛ ولكنه قرأ القليل منها. ووجد تشسن بها رقماً تأريخياً وشذرات من آية
قرآنية. وقد قرأت أنا بها آية أخرى؛ أما الباقى فقد قرأه م. رينو، والذى استشرته فيما
قرأت، فأكده لى وعلى الفور استكمل القراءة. وها هى الترجمة للتاريخ والآيات القرآنية،
والتى تكتب الكلمات التى تم التوصل إليها بخط أسود. وأشير للسطور وفقاً لنسخة
مارتينز:

السطر ٣. ثلثمائة ـ تشيسن؛ وأضاف مع الشك رقم ٣١. ويبدو لى بالأحرى، ولكن لا
أؤكد ذلك، أنه رقم٦٠.

سطر ٤. (القرآن، السورة رقم ٢٤، آية رقم ٣٦) «**فى بيوت اذن الله ان ترفع**».
السطور ٥، ٦، ٧، ٨، ٩: «**ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال** (آية
٣٧) **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله** وإقام الصلاة **وإيتاء الزكاة
يخافون** يوماً تتقلب فيه **القلوب والأبصار**». رينو.

سطر ١٢. (السورة الثانية، آية ٢٥٦) «**الله لا إله إلا هو الحى القيوم**» تشيسن.
وهناك كلمات عديدة فى السطور ٤، ٦، ٧، ٨ لمارتينز تطابق السطور ٦، ٧، ٨، ٩ عند
فازيللو؛ وتُظهر بصورة أفضل أن صور هذا المؤرخ أكثر دقة من صور مارتينز.

بالرمو على شاطئ البحر وكانت تعج عن آخرها بالجنود المرتزقة
المنحطين والمجرمين: عجائز وشباب لا عمل لهم، أشرار يتظاهرون
بالعبادة لكسب المال وفى الوقت نفسه يعترضون الشريفات من
النساء ويعملون قوادين وما هو أسوأ من هذه الانحرافات، ويقيمون
هنالك لأنهم مشردون لا مأوى لهم ولا مأكل .

ولإحصاء عدد السكان، يعطينا ابن حوقل الحل: فقد تجمع فى
مسجد الجزارين فى يوم من الأيام كل الجزارين مع عائلاتهم
وعمالهم وبلغ عددهم نحو سبعة آلاف شخص. وهذه الحرفة وفقاً
للإحصاءات الحالية التى تتم لسكان المدينة تمثل نسبة واحد إلى
مائة، ولذلك فإن العدد فى القرن الحادى عشر ربما يصل إلى سبعمائة
ألف، وإذا ما قمنا بطرح جزء كبير من هذا العدد لتغير الأحوال
والظروف، فلا يمكن أن نصل لعدد أقل من ثلثمائة أو ثلثمائة وخمسين
ألف نفس(1). ومع هذا العدد يتلاءم عدد المساجد التى كانت

---

(1) الأرقام الصحيحة وتشمل الجزارين ومساعديهم والعاملين بالمجازر وبائعى
احشاء المواشى، وأسرهم، وتقدر بخمسة أفراد لكل منزل، بلغ عددها فى عام
(١٨٤٤) ٢٠٠٠. وكان تعداد السكان يصل لنحو مائتى ألف نسمة. أما رقم ٧٠٠،٠٠٠
الذى قدر بهذه النسبة فى عام (٩٧٢) فيجب أن يقل عن ذلك للأسباب التالية: أولاً،
نظام المجازر العامة الذى يقلل اليوم من الاحتياج لكثير من الأيدى العاملة؛ ثانياً، أن
الاستهلاك الأكبر للحوم يفترض أن يكون فى عاصمة صقلية الإسلامية. أما بالنسبة
للطبقات الأقل رفاهية، وفى الأوضاع الحالية المضنية للمدينة، فإن استهلاكها للحوم
قليل أو منعدم؛ ثالثاً، أيام الصوم عن اللحوم والتى لم يكن على المسلمين صومها؛
رابعاً، تعدد الزوجات والذى، مع مرور الوقت، يؤدى إلى سوء الحالة الأسرية وليس
العكس، وإن أدى هذا التعدد، فى حالة الثراء، إلى زيادة أفراد الأسرة إلى ٥ أو ٦ أو ٧
أفراد، إلا أن عدد أرباب الأسر يقل أو يقل عدد المحلات بالنسبة لعدد الأفراد. لهذه
الاعتبارات فإننى أفترض أن عدد الأفراد الذين يعملون فى هذه الحرفة يمثل
بالنسبة لتعداد أفراد المدينة نسبة واحد لخمسين وليس واحد لمائة كما يحدث
اليوم؛ وأريد أن أشير إلى أن من بين الأفراد الخمس فى كل أسرة يوجد أيضاً
الأطفال الرُضع الذين لم يرهم ابن حوقل بالتأكيد فى الاثنين وثلاثين صفاً (الأرقام
مكتوبة لا يشار إليها بالرموز) وفى كل صف حوالى ٢٠٠ فرد وهم الذين كانوا
يحضرون للصلاة. إذن فإن كان تعدادى يشوبه الخطأ، فإنه لن يكون خطأً فادحاً. إن
المنطقة المأهولة بالسكان، والتى أكتسبت القليل على ضفاف الماء وفقدت الكثير
داخل اليابسة تؤكد هذا الرأى. ويجب أن أنبه إلى أنى فى الملاحظات على

فى بالرمو وهى خمسمائة مسجد، ويوجد ثلاثة أخماس هذا العدد فى المدينة القديمة والمناطق الكبيرة، وخُمسا هذا العدد بالضواحى؛ وكانت المساجد كلها معدة ومجهزة ومطروقة وكانت مساجد عامة أو لمهن أو خاصة. ولم يكن ابن حوقل قد رأى مثل هذا العدد من المساجد فى مدن مماثلة أو أكبر، ولم يكن يعرف لها نظيراً إلا فى قرطبة، فقد رُوى له عن عدد المساجد بها، ولكنه فى بالرمو رآها رؤى العين كما أكد له ذلك كل المواطنين. ومدينة قرطبة، فى الواقع، والتى ساءت أحوالها فى القرن الرابع عشر كان بها سبعمائة مسجد(1)، وكانت مدينة القسطنطينية بها مساجد أقل قليلاً حتى القرن السابع عشر(2) وكان لكثرة المساجد ببالرمو ما دفع ابن حوقل للقول بأن كل أسرة كانت ترغب فى أن يكون لها مسجد خاص بها من أجل الفخر والزهو، وليس هذا فحسب بل كان كل أخ يريد مسجداً خاصاً به وإن جاور أخاه فى السكن. ويحكى أن أبا محمد وهو من مدينة «قفصة»، وهو رجل قانون متخصص فى العقود(3)، قد بلغ به الأمر أن يبنى مسجداً على مقربة عشرين خطوة من مسجده لابنه كى يلقى به دروساً فى الشريعة. وقد لوحظ أن أكثر من ثلثمائة معلم كانوا يقومون بتعليم الأدب للفتيان

الترجمتين الإيطالية والفرنسية، ذكرت أن تعداد سكان بالرمو ١٧٠،٠٠٠ نسمة. وقد أظهر الإحصاء الذى تم بعد ذلك بقليل أن تعداد سكان بالرمو أكثر من ذلك بكثير لذا قمت بتصحيح الرقم إلى مائتى ألف نسمة.

(1) جيانجوس فى ملاحظاته على المقرى *Mohammedan Dynasties in Spain* المجلد الأول ص ٤٩٢.

(2) دوسون يذكر أن عدد المساجد فى القرن الثامن عشر كان ٢٠٠ مسجد فى نطاق القسطنطينية و٣٠٠ فى الضواحى، مضيفاً أنه لم تكن توجد مساجد فى قصور النبلاء؛ وهذا ما كان يجعل عدد المساجد فى بالرمو كبيراً *Tableau général de l'empire Ottoman* المجلد الثانى، ص ٤٥٣ وما بعدها، طبعة باريس عام ١٧٨٨.

(3) هذا هو المعنى للفظ «وثائقى» والذى تقرؤه مكتوباً بطريقة مختلفة دون ترجمة له فى ترجمتىّ الفرنسية والإيطالية. انظر حاجى خليفة طبعة فلوجل، المجلد السادس ص ٤٢٣ رقم ١٤و١٧٤.

ويعقب على هذا بأن اختيار هذه المهنة كان مبعثه الاستعفاء من الجهاد حتى فى حالة هجوم العدو؛ وكانوا يفخرون بأمانتهم وتدينهم وكانوا يقومون بالشهادة فى القضايا وعلى العقود، ولكن فى الواقع لم يكن فيهم شئ جميل أو طيب يدعو للإعجاب. ولم يكن حال غيرهم مختلفاً عن هذا فالقاضى «عثمان بن حرّار»، وكان رجلاً يخشى الله، رفض فى الواقع شهادات مواطنيه فى القضايا الكبيرة أو الصغيرة نظراً لمعرفته بهم، وشرع ينهى كل النزاعات بالصلح؛ وعندما اشتد عليه المرض حذر من يتولى القضاء بألايثق فى أى فرد. وقد خلفه، كما يقول ابن حوقل، رجل يدعى أبو إبراهيم إسحاق بن ماهلى الذى ثارت حوله أقاويل كثيرة(1)؛ منها على سبيل المثال عدم اللجوء للختان، أو الالتزام بالصلوات، وعدم دفع الزكاة الشرعية، وعدم الذهاب لأداء فريضة الحج؛ وصيام رمضان فقط، والتطهر بالماء فى حالة واحدة فقط! وقد أطلق حكماً مفاده: أن بالرمو ليس بها عباقرة بارزون أو علماء أو أذكياء أو متدينون؛ وأنه لم ير فى العالم أناساً هكذا قليلى الإدراك، شديدى الغرابة، يفتقدون الرغبة فى القيام بأعمال عظيمة ويتكالبون على تعلم الرذائل.

لكنه يناقض نفسه عندما يذكر العلل: وأن أساس كل ضرر هو الإكثار من أكل البصل الطازج فى الصباح وفى المساء، من الأغنياء والفقراء ومن ثم فقد أتلف عقولهم وأمات أحاسيسهم(2). والدليل على ذلك أنهم يشربون من الآبار بدلاً من البحث عن الماء العذب الجارى، وإذا حادثتهم أدركت أنهم يخلطون الأمور ويخطئون فيها؛ وإذا ما نظرت

---

(1) يروى لنا ابن حوقل هذه الأحكام، أما ياقوت فهو يحذفها من الفقرة الموجودة بالنص الذى لدينا.

(2) اعتقد الأطباء العرب فى العصور الوسطى اعتقاداً كبيراً فى أن البصل يضر عقل من يتناوله. وفى **معجم البلدان**، المكتبة العربية - الصقلية، الفصل الحادى عشر، ص ١٠٧، يقدم لنا ياقوت تعليقاً على هذه الفقرة التى أوردها ابن حوقل مستلة من كتاب عربى فى الطب، حيث يشرح لنا إضعاف العقل والأحاسيس، أن تناول الماء المالح بعد أكل البصل لا يجعل الانسان يشعر بطعم الماء السئ.



إليهم فى ضوء الشموع تلمح بنيانهم الواهى. وتغلب عليهم الشراهة حتى انهم لا ينفرون من رائحة الطعام الكريهة؛ وأجسامهم متسخة حتى إن اليهود يبدون أنظف منهم. وبالمقارنة بسواد منازلهم تصبح المدفأة رمادية اللون. وفى البيوت المضيئة، ترى الدجاج يجرى داخل الغرفة ويعيث فساداً فى الحجرة بل فى وسائد صاحب الدار. أضف إلى ذلك أن الحنطة لم تكن تخزن فى صقلية من عام لآخر؛ وكثيراً ومع سوء أحوال المناخ تأتيها الديدان بالأجران.

لقد مضى الزمن الذى كانت فيه كتابة التاريخ تستخدم فى معارك حول مثل هذه الموضوعات، فحب الوطن إذا ما أصبح تصرفاً من تصرفات الأطفال فإنه يشتعل فى الأمور التافهة ويضيع هباء. إلا أننى لا يجب أن أنفى عن مواطنى بلدى من المسلمين، وقد مضت عليهم تسعة قرون، الرأى السليم فيهم، من وجهة نظرى، كما أفعل مع غيرهم من أهل «مادي» وأهل «الصين». أقول إذن إن التاريخ الأدبى لصقلية منذ منتصف القرن العاشر إلى منتصف القرن الثانى عشر لا نلمح فيه عباقرة عظام أو دراسات منسية؛ ويبرز لنا ذلك ابن حوقل نفسه عند حديثه عن المناطقة الذين كانوا يتحدثون عن أرسطو، وعند حديثه عن الثلثمائة معلم وعن المساجد العديدة والتى كانت تفيد، كما نعلم، فى تقديم دراسات ذات طابع جامعى كما نسميها اليوم. فى القرن ما بين ابن حوقل إلى الحرب النورماندية تقدمت بالطبع الثقافة فى ظل حكم الكلبيين؛ لكن هذا لا يعنى أنه كان لابد أن تكون بهذا الانحطاط التام فى عصره. وأعتقد الاعتقاد نفسه بالنسبة للتحضر الخارجى، والذى كان بارزاً بهذا الحد فى الحرب سالفة الذكر وبعدها، كما يشهد بذلك بعض شعر ابن حمديس وكذلك كتاب مجهول(1) المؤلف فى الجغرافيا، وابن جبير وأوجونى فالكاندو

(1) هذا العمل المجهول المؤلف يحمل عنوان «جغرافية»، وقد تم تأليفه بالتأكيد فى القرن العاشر ولكن تم تحريفه بالإضافة بعد ذلك، وهو يورد عن ابن حوقل بعض الأخبار عن صقلية، ويضيف أن أهل بالرمو كانوا يتميزون عن كل الشعوب المجاورة بأناقة

ومعهم كل تاريخ الحكم النورماندى. وبالنسبة للفضائل الدينية وفقاً لمذهبهم، فإن أقلها أهمية هى التى نراها فى سير الصالحين؛ وأول الفضائل هى العبقرية الحربية، ظهرت بوضوح فى انتصارين عظيمين تحققا، الأول قبل بضعة سنوات فى رامتا على الإمبراطورية البيزنطية، والثانى بعده ببضع سنين فى كلابريا على «أوتونى الثانى». لكن الرقابة الصارمة تضع جنباً إلى جنب، كما يحدث غالباً، الأخطاء والحقائق. وخطأ ابن حوقل هو أنه فى تعاملاته مع تجار البلد، رسم صورة طبقة النبلاء والعلماء والعامة بكل ما تحمله من الملامح التى صورها له أولئك نتيجة الحقد الذى كان يوجد بين الطبقات. كذلك أخطأ ابن حوقل عندما اتهم المسلمين المخلطين من اليونانيين واللاتينيين بالانحرافات الجسدية والأخلاقية وذلك نتيجة للسمات غير المعتادة التى لاحظها عليهم؛ فهم أنصاف أجانب فى ملامح وجوههم،وبشرتهم ونطقهم وعاداتهم وغير معتادين، بصورة جيدة، على الممارسات الإسلامية. والحقيقة هى أن شعب صقلية كان يتكون من عناصر متباينة ولاسيما فى بالرمو: فقد كانت هناك سلالات عديدة، وكان هناك الإسلام، وبقايا ظاهـرة أو مستترة من المسيحية، وقوانين مدنية غير متساوية، وثراء وفقر، وعنف حربى وصناعة، برج بابل يتفاعل فيه وينمو الغرور والأحقاد والنذالة وآفات إجتماعية لا حصر لها. وإذا كانت هناك أمور قد بالغ فيها ابن حوقل فى كتاباته، فإن هناك أموراً أخرى قد لمسها بيده.

ولم يكن هذا فى صقلية فحسب، بل فى أسبانيا وكل البلدان الإسلامية الواقعة على البحر المتوسط. وعند قراءة كتاباته يمكن القول بأنه قد فطن أو انزعج لأنه لم يجد فى الغرب فضيلة التحضر التى كانت غائبة فى بغداد؛ وكيف أن العيوب الشخصية تنسب دائماً

الأثاث والملابس والسلوك الحميد ... إلخ. ولكن هناك شك فى أن يكون تاريخ هذا الجزء هو القرن العاشر أى ربما يكون القرنين التاليين. والنص يوجد بالمكتبة العربية الصقلية *Biblioteca Arabo-Sicula*، الفصل الخامس، ص ١٢، ١٣.

إلى قَدر الانسان، وعيوب الآخرين إلى من يعانى منها. وبالمثل يحدث
أنه عندما يتم تقييم الأجانب، ننظر فى كثير من الأحوال إلى السطح
ونغفل فضائلهم ونبرز رذائلهم الأساسية، وهذا، من وجهة نظرى، ما
فعله ابن حوقل فى وصفه العام للبحر المتوسط. وعند حديثه عن
قبرص وكريت يقول «لقد فتحهما المسلمون وحكمهما أبناء محاربى
الجهاد؛ إلا أن الحقد والشراسة قد تمكنا من شعوب هذه البلاد على
غرار شعوب حدود الإمبراطورية وما وراء النهرين وبلاد الشام، فقد
اجتاحهم الفساد والظلم والطمع والخلاف والخيانة والكراهية
المتبادلة؛ حتى إنهم فتحوا الطريق أمام الأعداء وسيكونون نذيراً لمن
يتدبّر الأحداث جيداً»(1). وقبل أن ينهى هذا الفصل يواصل حديثه
قائلاً: «إن الروم يغيرون اليوم على المسلمين بكل الطرق ويهاجمون
سواحل هذا البحر، ويستولون على السفن من كل جانب، وليس هناك
من يساعدنا أو يحمينا. وأمراؤنا بلغت بهم الخسة مبلغاً وازدادوا
تقتيراً وتكبراً فى ديارهم؛ أما أهل العلم فهم لا يكترثون ولا يعون،
فهم يردون عليك بما يحلو لهم من تعليقات ولا يفكرون فى الله ولا
فى الحياة الأخرى؛ أما التجار فهم الأسوأ فهم لا يتورعون عن كسب
حرام؛ والصالحون البلهاء المستعدون لتغيير جلدهم، يسيرون فى كل
مصيبة ويبحرون مع كل تيار. وفى ظل هذه الأجواء بقيت الحدود
والجزر تحت رحمة الأعداء، أما الأرض فإنها تشكو لخالقها الظلم
الذى تعيش فيه»(2).

---

(1) ابن حوقل، **الجغرافية**، مخطوطة ليدن، ص ٦٩ والورقة ٩٧ من نسخة باريس، *Suppl Arabe*، رقم ٨٨٥.(بتصرفى)

(2) المرجع المذكور، ص ٧١ من مخطوطة ليدن، الورقة ٩٨ الوجه الثانى من نسخة باريس.(بتصرفى)

الفصل السادس

وفى ذلك الوقت بدأت صداقة المعز مع نيتشيفورو *Niceforo* تأخذ
شكل التحالف، الأمر الذى جعل المؤرخين الغربيين يواجهون بها
الإمبراطورية البيزنطية. وقبل سنوات بدأ أتونى الأول يخطط
للاستيلاء على جنوب إيطاليا، كما أشرنا، فشرع يطلب مساعدات
بصفته ملكاً إقطاعياً من باندولفو كابو دى فيرّو أمير كابوا وبنفنتو
ضد نيتشفورو الذى اتجه للاستيلاء على بوليا؛ وكان يحاول دون
جدوى استقطاب أمير سالرنو؛ وفى أكتوبر من عام (٩٦٨) أضرم
النيران على حدود كلابريا وقام بالسطو عليها وعلى دويلة سالرنو؛
وكان يحصل على قوات بحرية من أهل بيزا الذين ظهروا بعد ذلك
وهم يحاربون فى كلابريا(1). وفى مارس من عام (٩٦٩) شدد
الحصار على مدينة بارى الخاضعة لحكم البيزنطيين؛ وفى ذلك
الوقت أرسل مساعدات لباندولفو الذى حقق انتصاراً فى بوفينو
ثم هُزِم فيها بعد ذلك(2). ولم تفلح إجراءات زواج ابنه من الأميرة

---

(1) فى عام (٩٦٢) اتجه أتونى صوب بيزا حيث ظل بعض النبلاء الألمان: *Archivio Storico italiano Sardo, Cronaca Pisana,* المجلد السادس، الجزء الثانى، ص ٧٥. وفى عام (٩٧١) كان أهل بيزا فى كلابريا:
Marangone, Cronaca Pisana فى المجلد السابق نفسه ص ٤. أو فى عام (٩٦٩) وفقاً لـ: *Chronica Pisana, presso Muratori, Rerum Italicarum Scriptores* المجلد السادس، ص ١٠٧ وما بعدها.

(2) قارن *La Cronica Salernitana* المجهولة فى *Pertz, Scriptores,* المجلد الثالث ص٥٥٤ والتى لا تحمل تواريخ محددة، و*Lupo Protospatario*، فى *Pertz, Scriptores,* المجلد الخامس ص ٥٥ سنة ٩٦٩ حيث يشار إلى تاريخ توجه أوتونى إلى كلابريا فى شهر أكتوبر من العام نفسه والذى حدث فيه كسوف للشمس فى شهر ديسمبر. والشئ نفسه نجده فى *Annales Casinatenses*، فى *Pertz, Scriptores* المجلد الثالث، ص ١٧١، وقد

اليونانية تيوفانو فى توطيد العلاقات بينهما، بل تدهورت هذه العلاقات (فى الفترة من يونيو إلى أكتوبر من عام ٩٦٨) نتيجة للغدر الذى اشتمه البيزنطيون، والإهانة التى تعرض لها السفير ليوتبراندو فى القسطنطينية، وخيانة البيزنطيين الحقيقية أو المفترضة، فقد أغاروا على قوات أتونى فى كلابريا عندما كانت تتأهب فى سعادة لاستقبال العروس عام (٩٦٩). وتوالت الحروب بين الامبراطوريتين فى بوليا ولا داعى للحديث عنها هنا(1). ففى إحدى هذه المصادمات فى عام (٩٦٨) تقريباً قام اثنان من عائلة لاندولفى وهما أخو باندولفو كابو دى فيرّو وابنه بالحرب فى أوردونا ضد اليونانيين والمسلمين المتحدين معاً وأجبروهم على الفرار، إلا أن لاندولفو الشاب اصيب بجراح(2). وقد قام أتّو ابن الماركيز ترازيموندو حاكم مدينة اسبوليتو فى عام (٩٧٢) بهزيمة أحد القادة المسلمين ويدعى بوكوبولى وطارده حتى مدينة تارانتو (3)؛ ولعله كان مساعداً أرسله المعـز إلى نيتشيفورو فوكا قبل وفاته، أو لعله كان قائداً مرتزقاً من

وقع الكسوف بعد ٢٢ ديسمبر عام (٩٦٨). ويروى روموالدو السالرنى وهو مؤلف من القرن الثالث عشر الوقائع نفسها مع بعض الاختلافات فى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores* المجلد الخامس، سنة ٩٦٧.

(1) انظر موراتورى، *Annali d'Italia*، ٩٦٨ إلى ٩٧٠.

(2) *Chronica Sancti Benedicti* فى كتاب *Scriptores* المجلد الثالث، ص٢٠٩ فى الإشـــارة إلى *Landolfo l'Aradito* الـــذى بدأ حـــكمه عـــام ٩٥٨ (يصـــحح بعام ٩٦٨).

(3) انظر لوبو بروتوسبتاريو فى برتز *Scriptores*، المجلد الخامس، ص ٥٥. وهو يطلق لقب (*Caytus*) (قائد) على بوكوبولى هذا، وربما أبو قبايل، مع أربعين ألف مقاتل مسلم، أو وفقاً لمخطوطات أخرى أربعة عشر ألف. وبعض المخطوطات ترى أن أتّو كان على رأس ستين ألف رجل. وهذه الأرقام غير صحيحة على الإطلاق؛ والأمر لا يزيد بالتأكيـد عن فرقة صغيرة حيث لم يرد ذكر هذه الواقعة فى حوليات المسلمين فى أفريقيا أو صقلية. انظر أيضاً دى ميو، *Annali di Napoli*، المجلد السادس، ص ٩٠، والمؤلف يبذل جهداً ليبرهن على أن هذه المعركة قد حدثت بعد عام (٩٧٣). واترك جانباً حروب المسلمين فى كلابريا والتى تم وضعها فى *Cronica della Cava*، دار نشر براتيللى، أعوام ٩٧٠ ـ ٩٧٣.

جنود أمير سالرنو أو من جنود جمهورية نابولى التى تعرضت لغزو أتونى قبل ذلك بقليل فى عام (٩٧٠).

لكن زيميش، الذى تولى الحكم بعد مقتل نيتشيفورو فى١١ سبتمبر من عام (٩٦٩)، عقد اتفاقية سلام مع أوتونى، كما وافق على زواج تيوفانو بابنه(1)؛ ولهذا لم يكن هناك سبب للاتفاق بين القسطنطينية والفاطميين. وتلاشى السبب الثانى اثر انتصارات زيميش فى بلاد الشام وانتصارات المعز على القرامطة، وبالتالى ما أن تم القضاء على العدو المشترك، حتى بدأ الخلاف يدب بين الطرفين(2). وفى غضون أسبوعين (٢٤ ديسمبر (٩٧٥)، و٧ يناير (٩٧٦)) توفى الاثنان؛ وسرعان ما دب الصراع على الحكم واشتعلت الحروب الأهلية فى أرجاء الإمبراطورية البيزنطية، ولهذا لم تشن الإمبراطورية حروباً ضد الفاطميين، غير أن السلام لم يعرف طريقه بينهما. وفى هذه الأثناء اندلعت الحرب فى بوليا وقام رجل يدعى زكريا، يبدو أنه يونانى من اسمه، فى عام (٩٧٥) بالاستيلاء على بيتونتو وقتل إسماعيل، وهو يبدو مسلماً من اسمه، وهو قائد فرقة مساعدة أو من المرتزقة(3).

إن الحماس فى إنزال الجنود، بعد وقت ليس بالطويل، فى مدينة مسينا، يوضح لنا كيف أن البيزنطيين قد تحالفوا مع أصدقاء جدد ضد أصدقائهم القدامى. وترجع إلى ذلك الوقت الاستعدادات البحرية لينتشيفورو الملقب بالمعلم فى كلابريا، والذى أمر، وفقاً

---

(1) *Chronicon Salernitanum* فى برتز *Sciptores*، المجلد الثالث، ص ٥٥٦، عام (٩٧٠). انظر أيضاً لى بو *Histoire du Bas Empire* الكتاب الخامس والسبعون § ٥١.

(2) استولى الفاطميون مع نهـــاية عام (٩٧٤) وبداية عـــام (٩٧٥) على طرابلس وبيروت فى بلاد الشام، بعد أن قاموا بطرد الحامية البيزنطية. أنظر كاترمير *Vie de Mœzz* مستلة من *Journal Asiatique*، ص ١٢٦ و١٢٨. وكان السفير نيكولو قد عاد لتوه إلى بلاط المعز قبل موته بقليل ولكننا رأينا كيف كان يتحدث معه.

(3) لوبو بروتوسباتريو، عام (٩٧٥)، فى برتز *Scriptores* المجلد الخامس، ص ٥٥.

للقانون البيزنطى، بتسليح السفن على نفقة المدن لحماية السواحل
والهجوم على صقلية؛ وقد زاد الخطر على أهل روسانو حتى إنهم
قاموا بحرق السفن وقتل قواد القوارب، وبعد تهديدات عديدة، عفى
عنهم الحاكم وذلك بعد وساطة القديس الشاب نيلو، أو لأنه لم يكن
من اليسير عقابهم(1). ويبدو أن البيزنطيين قد تحالفوا مع أهل بيزا،
ففى ذلك الوقت جاءوا إلى كلابريا لخدمة الإمبراطورية وقد حضروا
بالسفن فقط واحتلوا مسينا فى البداية. وقد سارع إليها أبو القاسم
بجيش صقلى وعدد كبير من العلماء وأصحاب المكانة فى المجتمع،
وقد ذكر ذلك ابن الأثير، وهو بذلك يخالف ما ذكره ابن حوقل. وقد
دخل المدينة فى شهر رمضان من عام ٣٦٥هـ الموافق (مايو عام
٩٧٦) إلا أن الأعداء فرّوا هاربين. وقد طاردهم أبو القاسم عبر
المضيق ووصل بقواته حتى مدينة كوزنسا وحاصرها لعدة أيام؛ وقد
طُلِب منه عقد اتفاق مقابل المال وعندئذ وافق، وفرض الجزية
نفسها على روكا دى تشيللارا، وبعد ذلك على مدن أخرى. وأرسل فى
هذه الأثناء أخاه قاسم مع الأسطول نحو سواحل بوليا(2)، وقد أمره
بالاتجاه بقواته إلى الجنوب صوب كلابريا حيث كان يحارب فى جمع

---

(1) *Vita di San Nilo il giovane*، حياة القديس الشاب نيلو، نص إغريقى وترجمته باللاتينية التى قام بها چوڤان ماتيو كاريوفيلو، روما ١٦٢٤، ص ١١٢، وما يليها. نيتشيفورو هذا، وهو الأول والوحيد الذى حصل على لقب μάγιστρος ، فى كلابريا، يقال إنه مرسل من الأباطرة الأتقياء، ولكنه مرسل من باسيليوس وقسطنطين وبعد موت زيميش. ومن ناحية أخرى فإن هذا التاريخ يتلاءم مع عمر القديس نيلو فى ذلك الوقت، والذى يتناول كاتب سيرة القديسين حياته وفقاً للترتيب الزمنى؛ والأحداث توضح لنا أنه منذ عام (٩٦٣) وحتى نهاية القرن لم يكن لدى البيزنطيين الرغبة فى الإغارة على صقلية باستثناء عام (٩٧٦).

(2) ابن الأثير هو الوحيد الذى ذكر هذا الحدث، ونقرأ فيه *b«r bûla*. وهذا جعلنى افكر فى باولا فى كلابريا وافترضت هذا فى *Biblioteca Arabo-Sicula*، ص ٢٦٨ من النص. وبعد ذلك اعتبرت أن الصوت الأول يجب أن يقرأ برّ *barr* بمعنى أرض، وأن يُقرأ الصوت الثانى *bûla* أو *Puglia* بإضافة حرف بعد حرف *L*. وتدفعنى أيضاً لذلك معركة جراڤينا.

كبير من قواته(1). وقد هاجم المسلمون جراڤينا فى بوليا، ولم يكن
ذلك مجدياً، وفقاً لرواية لاتينية، ووفقاً لرواية أخرى فقد استولوا
عليها؛ لكن الروايتين ربما قد قررتا الحقيقة إذا ما انتهى الأمر
بجراڤينا بدفع الجزية(2). وبعد أن سالت دماء كثير، وبعد أن غنم
الأمير وأخوه الكثير من الغنائم واقتادا أسرى كثيرين، عادا إلى
صقلية(3).

ولم ينس أبو القاسم الهجوم على مسينا، فقام بترميم حصن رامتا،
القوى وذلك فى عام ٣٦٦هـ الموافق (٢٩ أغسطس ٩٧٦ حتى ١٧

---

(1) قارن: ابن الأثير، عام ٣٦٥؛ المخطوطة *A*، المجلد الثالث، الورقة ٩ الوجه الثانى؛ والمخطوطة *B*، ص ٣٧٥؛ والمخطوطة C، المجلد الخامس، الورقة ١٦ الوجه الأول ... إلخ؛ أبو الفدا، *Annales Moslemici*، ٣٦٥، المجلد الثانى، الورقة ٥٢٤، وحاجى خليفة، *Cronologia*، الترجمة الإيطالية لـ *Carli*، ص ٦٥. ومن بين مخطوطات ابن الأثير، فإن المخطوطة *B*، تكتب الاسم بالحروف المتحركة *Kasenta*؛ أما المخطوطات الأخرى وأبو الفدا فلا تستخدم حروفاً متحركة وتخطئ فى النقاط فوق الحروف. أما المدينة الأخرى فقد كُتِبت *Gelwa* فى المخطوطة *B*، وفى مخطوطة أبى الفدا، مكتبة باريس، الملحقات العربية *750*، الورقة ١٦٣ الوجه الثانى؛ وبالنسبة لمخطوطات المؤرخين الآخرين، فنجد تارة *Golwa* وتارة *Helwa*. وهذا الاختلاف ما بين حرف *W* وحرف *R* الذى نراه عادةً فى المخطوطات العربية ولا سيما المكتوبة بالحروف الإفريقية، يدفعنا لقراءة شيللارا *Cellara*؛ فحرف *g* الجيم بالعربية يقابل حرف C فى لغتنا، وحرف *L* المضعف لا يُكتب مضاعفاً ولكن يشار إليه فقط من خلال علامة التشديد. وشيللارا هى بلدة صغيرة فى منطقة كوزينسا الحالية ما بين هذه المدينة وروليـانو. وعلى أيـة حـال لا يمكن أن نقبل تفسير م. دى ڤرچيه *Caltagirone* والذى يقترحه فى عرضـه لهذه الفقرة لابن الأثير، فى هـامش ابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile* ص ١٧٣.
ماركو دوبليو شيترونى فى ترجمة لشهاب الدين عمرى، أو بعض علماء صقلية الذين قاموا بطباعتها، قد قرءوا بدلاً من كوينسا كتانيا، وبدلاً من چلوا أفولا. ومن هنا فإن ونريش فى *Commentarii*، الكتاب الأول، الفصل الخامس عشر §، ١٣١، يفترض اندلاع ثورة فى كتانيا وأفولا بصقلية. لكن نص أبى الفدا الذى نقله شهاب الدين ومجموع الأحداث لا يسمح بهذا الافتراض غير المقبول على عكس مارتورانا، المجلد الأول، ص ٢٢٥، الهامش ١٥٥، والذى أوضح لنا الطريق الصحيح.

(2) قارن لوبو بروتسبتاريو، عام ٩٧٦ روموالدو سالرنيتانو، العام نفسه، فى المصادر السابق ذكرها لبرتز وموراتورى.

(3) ابن الأثير وأبو الفدا، الموضعان المذكوران.

أغسطس ٩٧٧م)، وقام بوضع حامية عسكرية بها تحت قيادة أحد عبيده الزنوج(1)،واتجه بعد ذلك نحو البر الإيطالى، واقتحم سانتا أجاتا والتى ربما تكون من أعمال ريجو؛ حتى إن أهل المدينة قد خرجوا منها بالاتفاق، وسلموا له الحصن وما به(2). وهكذا يخبرنا ابن الأثير: ويقول مؤرخ عربى آخر، إن أبا القاسم قد اتجه نحو تورى (الأبراج) حيث شرع الجيش فى نهب الماشية والأغنام وقاموا باقتيادها وكانت كثيرة للغاية حتى إنها كانت تعوق المسيرة، فأمر القائد بذبحها كلها فى مكان ظل يطلق عليه حتى عهد المؤرخ اسم «منخ البقر»(3). وما أن اقترب المسلمون من تارانتو، حتى تسلل أهلها منها وأغلقوا الأبواب للدفاع عن أنفسهم، وإيقاف العدو؛ وقد تسلق المسلمون أسوار المدينة اعتقـاداً منهم ببدء الحرب إلا أنهم عندما أدركوا الحيلة قاموا بحرق المدينة وتدميرها بكل قواتهم. ووصل أبو القاسم إلى مدينة أوترانتو، ومرّ بمدن أخرى لا نعلم اسمها(4)، ولكننا نعرف أن أوريا التى توجد فى تيرّا دى أوترانتو وبوڤينو التى توجد فى كابيتاناتا قد تم حرقهما وتم أسر عامة شعب أوريا واقتيادهم نحو صقلية(5). واقتحم الجيش فى النهاية مدينة يبدو لى أنها جاليبولى(6)

---

(1) قارن ابن الأثير، الموضع المذكور والنويرى فى دى جريجوريو *Rerum Arabicarum*، ص ١٩.

(2) ابن الأثير، الموضع المذكور.

(3) أبو الفدا *Annales Moslemici*، المجلد الثانى، ص ٤٥٠، عام ٣٣٦، وكتب ابن شداد. لذا فهذا الأمر ربما يعود للقرن الثانى عشر. ولفظ *Vaccarizzo*، ربما يطابق معنى «منخ البقر» فى كلابريا القريبة من صقلية. فى منطقة روسانو. لكن الألفاظ *Bova* و*Bovino* وأسماء عديدة تنتمى للأصل نفسه نجدها فى مملكة نابولى لذا لا يمكن وضع افتراض على أساس دقيق. والشئ نفسه يمكن أن يقال عن اسم المكان: *Le Torri*.

(4) ابن الأثير، الموضع المذكور.

(5) قارن لوبو بروتسبتاريو، عام ٩٧٧ وروموالدو سالرنيتانو، ٩٧٦ فى مصدرى برتز وموراتورى السابق ذكرهما.

(6) هذا الحدث نجده عند ابن الأثير فقط وفى كل المخطوطات، فهذا الاسم بلا نقاط فوق أو تحت الحروف، ويرى م. دى ڤرچيه فى الملاحظة التى ذكرتها قراءة *Gravina*. لكن هناك اختلاف فى الزمان والمكان، لأن جراڤينا اقتحمت فى عام ٩٧٦ وتوجد فى

وحصل منها على الجزية، واتجه الجيش نحو صقلية ومعه العديد من الأسرى والركائب المحملة بالغنائم الوفيرة فضلاً عن الشعور بالزهو والمجد لاجتياحه وتحطيمه جزءاً كبيراً من البلاد يعادل اليوم نصف مملكة نابولى(1). ويسجل المؤرخون غزوتين أخرتين لأبى القـاسم فى البر الإيطالى ما بين عامى ٩٧٨ و٩٨١ دون أن يذكروا تفاصيل ذلك(2).

وعلى غير المتوقع نجد سيرة أحد القديسين باللغة الإغريقية تشهد لأمير صقلية بروحه السمحة الكريمة، ولكن سنبدأ من البداية، لأن عادات الشعب الذى تم الهجوم عليه وعادات المهاجمين، طوال القرن العاشر كله تشبه نسيج هذا المكتوب، المعتدل فى روايته للخوارق حتى إنه لا يغشى الأبصار. نحن نتحدث عن سيرة القديس نيلو دا روسّانو، كما رواها رفيقه وتلميذه فى نهاية القرن العاشر أو مع مطلع القرن الحادى عشر. ولد القديس نيلو فى عام ٩٠٣ وتوفى فى عام ٩٩٨. درس سيرة الأبوين القديس أنطونيو سابا وإيلاريونى، كتب هذا تلميذه، بالرغم من أنه لم تنقصه الكتب أو العبقرية لتعلم تحضير أرواح الموتى لو أنه أراد ذلك(3). وبعد أن أصيب بالحمى بدأ يفكر فى الموت رغم عدم تجاوزه الثلاثين من عمره، وقد دفعه هذا إلى ترك أملاكه وابنة غير شرعية وقام بحلق رأسه فى دير القديس مرقوريوس ولجأ إلى

بوليا. وفضلاً عن ذلك ربما يجب تغيير شكل بعض الحروف. أما فى قراءتى *Garipoli* فلا أضيف شيئاً غير النقاط ويمكن أن أخمن بأن المسلمين فى القرن العاشر كانوا ينطقون *Gallipoli* هكذا مثلهم فى ذلك مثل الصقليين اليوم. لكن يجب أن نضع فى الاعتبار هنا أن الأمر ربما يتعلق ببلدة بالقرب من كاتنتزارو أطلق عليها اسم *Garopoli* فى القرن الثامن عشر. انظر ساكو والقاموس الجغرافى لمملكة نابولى، ١٧٩٥، ١٧٩٦.

(1) ابن الأثير وأبو الفدا الموضعان المذكوران.

(2) النويرى، الموضع المذكور، يذكر خمس حملات عسكرية لأبى القاسم فى البر الإيطالى، الأخيرة فى عام ٣٧٢، والأولى فى عام ٣٦٥.

(3) حيـــــاة القديس نيلو الشـــــاب الســـــابق ذكرهـــا، ص ٤. النص به φυλακτά و ἐξορκισμούς.

دير القديس ناتزاريو(1) بعيداً عن نفوذ الحاكم البيزنطى، الذى كان
يريد أن يخلع عنه ثوب الرهبنة لإعادته إلى نير العمل بصفته قائد
عشرة. وأثناء فرار القديس نيلو بمفرده وصل إلى ساحل البحر على
قدميه وهناك هاجمه من أحد الأدغال بربرى مسلم وتبعته مجموعة
من الأحباش حُمر العيون، وكانت مركبهم تقف على الشاطئ. وقد
تحدث معه البربرى، وما أن أدرك أنه بطريقه للدخول فى الرهبنة،
حتى شرع بإنسانيته يقنعه بالانتظار حتى الكبر قبل أن يعتزل العالم.
وعندما أيقن أنه قد حزم أمره على ذلك ودّعه وهو يرتعد من رأسه
حتى إخمص قدميه، ولكن بعد أن أمعن التفكير، جرى خلفه صائحاً:
انتظر أيها الأخ انتظر، وأراد أن يعطيه خبزاً طيباً لرحلته، معتذراً
لعدم وجود طعام آخر يعطيه له. وهكذا تحول الاحسان الإسلامى
المعتاد لعابر سبيل مسكين إلى معجزة: لقد اعتبروا ذلك الإنسان
النبيل الذى كان يمتطى صهوة جواده بالقرب من دير القديس ناتزاريو
أنه الشيطان بلحمه وعظمه، فبعد أن علم بعزم الشاب، وصمه
بالجنون، فإن كان يريد الخلاص كان يمكنه أن يتوب فى منزله دون
أن يدخل بين الرهبان «البخلاء»، كما يقول، «المدعين، المنقطعين
للأكل والشراب؛ حتى إن إناء الطعام فى مطبخهم من الضخامة
بحيث يسعنى قائماً على قدمى ولنصف جوادى هذا». وبعد أن ارتدى
نيلو مسوح الرهبان عاد إلى دير القديس مرقريوس بعد فترة من
الزمن، وقد تميز القديس نيلو بطاعته الرهبانية وتعذيبه لجسده
وصلواته وارتدائه رداء خشن كان يغيره مرة واحدة فى العام، كما
عرف بصبره على المكاره والمتاعب، وجديته فى الدراسة والبحث،

(1) دى ميو *Annali di Napoli*، المجلد الخامس، ص ٢٥٧، عام ٩٣٨، يوضح لنا أن دير القديس ناتزاريو الذى أطلق عليه فيما بعد دير القديس فيلاريتو، يقع على بعد ميل من سمينارا وستة أميال من بالما، وكان ينتمى لدولة سالرنو، أما دير القديس مرقريوس، فكان يتبع البيزنطيين.

وأقواله المأثورة عن المحبة المسيحية، وذكائه وحدسه(1).
وقد ذاعت سيرة قداسته وكرّمه أصحاب المناصب العامة وقصده
الأساقفة ورؤساء الأساقفة وكبار الأمناء ببلاط القسطنطينية وحكام
كلابريا ذاتهم لطلب النصائح والتنبؤ بالمستقبل(2)؛ وأسس دير جروتّا
فرّاتا بالقرب من روما، وتغلب على نفور السلالة الإيطالية والمقيمين
فيما وراء الجبال من لغته، من تركه شعر الرأس واللحية على الطريقة
اليونانية(3). وقد كرّمه الإمبراطور أوتونى الثالث وجريجوريو
الخامس فى شيبته فى مونتى كاسينو؛ وفى بلاط أمراء كابوا. وقد
توسل القديس للاثنين للعفو عن البابا غير الشرعى فيلارجاتو(4).
وقبل أن يبلغ القديس نيلو هذه المرتبة العالية، كان قد دافع عن
صغار المذنبين مثل ثوار روسّانو الذين تحدثنا عنهم، كما دافع
عن شاب من بيزنيانو، كان قد سرق يهودياً وقتله، وأراد القضاة
أن يسلموه إلى الجالية الإسرائيلية(5). وكان القديس نيلو ينافس
بأسلوبه الخاص فى فن الطب، طبيباً يهودياً يدعى شابتاى دونولو
وكان رجلاً ذا علم واسع فى ذلك الوقت بكلابريا(6). وكما كان يظهر
المسلمون فى عصر دونولو(7)، كانوا أيضاً يظهرون فى عصر القديس
نيلو، كانوا بمثابة ضربة كبرى لمدن كلابريا بعد الحكام البيزنطيين.
ففى إحدى الغارات الرهيبة، وقد قام بها قائد يدعى حسن، كما
يبدو لى، فى عام (٩٥١) أو (٩٥٢)، كان رهبان دير القديس
مرقريوس يفرّون هنا وهناك فى الحصون والقلاع، بينما ظل القديس

(1) حياة القديس نيلو، من ص ٥ إلى ص ٣٧.
(2) المرجع السابق، فى مواضع عديدة.
(3) حياة القديس أدالبرتو، *Acta Sanctorum*، ٢٣ إبريل.
(4) حياة القديس نيلو، من ص ١٢٤ إلى ص ١٥٥، قارن سيرة القديس أدالبرتو السابق ذكرها.
(5) المرجع السابق، ص ٦٣.
(6) المرجع السابق، ص ٨٨ وما يليها.
(7) انظر هذا المجلد، ص ١٧٧ ـ ١٧٨، الكتاب الثالث، الفصل الثامن.

نيلو فى صومعته فى مغارة قريبة، ومنها رأى غبار خيول الأعداء، وبعد أن فرّ إلى أعلى الجبل عاد، فوجد أن الأعداء قد سرقوا كل شئ حتى جوال من الخيش الخشن واجتاحوا الدير ولم يجد أثراً لراهب من رفاقه المخلصين. ولما كان يريد أن يسترده أو أن يسجن معه، خرج إلى الطريق فى الفضاء فإذا بعشرة فرسان يتجهون نحوه وهم يرتدون ملابس وعمامات(1) ويحملون الأسلحة على هيئة السراسنة، وما أن وصلوا إليه حتى نزلوا عن صهوة خيولهم وخروا أمامه راكعين: كانوا سكان أحد الحصون وقد هرعوا وهم متنكرون هكذا فى هذه الأردية، لفعل الخير أو الشر لا أدرى، وقد أكدوا له نجاة رفيقه(2). وبعد أن هدأت الأمور من قبل المسلمين، وبعد أن اشتعلت ثورة روسّانو التى تحدثنا عنها، تنبأ القديس نيلو بالعاصفة الجديدة. عاد فى ذلك الوقت رئيس الأساقفة ڤلاتّو، مع جمع كبير من الأسرى الذين تم دفع الفدية عنهم فى إفريقيا بفضل أخته التى كانت، كما يقولون، زوجة لملك المسلمين: وهى أمة مقرّبة (للمهدى) أو (القائم) لذا عندما اقترح ڤلاتو الذهاب مرة أخرى لتخليص أسرى كلابريا فى إفريقيا، حذره القديس نيلو بألا يعرّض نفسه لمغارة الأفاعى التى سوف تلدغة فى نهاية الأمر؛ وبالفعل ذهب ڤلاتو ولكنه لم يعد من هناك أبداً(3). وفى هذه الأثناء اندلعت الحرب الإسلامية فى كلابريا، وقد تنبأ القديس نيلو بأنها لن تضع أوزارها فى الحال، لذلك نصح القائد باسيليوس بعدم بناء كنيسة لأن المسلمين، كما يقول، سوف يدمرونها على الفور بعد احتلال البلدة(4). وإبان الحرب التى اندلعت عام (٩٧٧) احتمى القديس نيلو بحصن روسانو بينما ظل

(1) σαχιόλια.
(2) حياة القديس نيلو، ص ٥٤.
(3) المرجع السابق، ص ١١٧، ١١٨.
(4) المرجع السابق، ص ١٢٣.

ثلاثة رهبان بالدير وقد تم اقتيادهم أسرى إلى صقلية(1). ولكى يفتدى هؤلاء الرهبان، باع القديس نيلو مخازن الدير بنحو مائة بيزنطة من الذهب(2)، وبعد أن أعطى المال لراهب مخلص وزوده بدابة تبرع بها القائد باسيليوس بعثه إلى بالرمو ومعه رسائل موجهة للأمير، وكما تقول الأخبار التاريخية، إنهم كانوا يطلقون عليه لقب (*Amira*) ورسائل أخرى لكاتم الأسرار(3)، وهو رجل كفء ومسيحى للغاية وبعد أن قام الأخير بترجمة هذه الرسالة السامية للأمير، نالت استحسانه لما فيها من حكمة وفطنة ولأسلوبها الذى يدل على أنها مرسلة من ولى من أولياء الله(4): لأجل هذا تم تكريم «الرسول» الذى بعث به القديس نيلو تكريماً عظيماً وغمره الأمير بالهدايا، كما أرسل معه هدية من جلد الوعل إلى القديس نيلو ومعها هذه الرسالة: «إن ما تعرض له رهبانك نجم عن خطأ منك؛ فلو أنك طلبت منى الأمان لأرسلت لك علامة(5) كان يكفى تثبيتها فوق الميدان، فلا يكدر صفو الدير أحد ولا يكون هناك سبب لهروبك منه. أما الآن، فإن كنت تخشى المجئ عندى، فيمكنك الإقامة على حريتك بالبلدة التى تخضع لإمارتى، حيث تنال احترام الجميع وتكريمهم»(6). وأرى أن هذا الخطاب ساذج من حيث المعنى والأسلوب.

وفى هذه الأثناء توفى أتونى الأول (٩٧٣)، وخلفه أتونى الثانى، الذى استحق اللقب الذى أطلقه عليه الرومان وهو «الدموى». وقد حاول أتونى الثانى غزو جنوب إيطاليا مرة أخرى حيث بدى له فى ذلك

(1) المرجع السابق، ص ١٢٠.
(2) ἑκατὸν χρυσίνων.
(3) νοτάριον.
(4) هذه هى الترجمة الحرفية للفظ العربى «ولى» ومعناها «مصطفى»، صديق، قديس ... إلخ.
(5) σημεῖον وهى ربما تعنى العلامة أو شعار ولقب يكتبه الأمين فى مقدمة الرسائل الدبلوماسية وهى التى كانت توضع محل الختم أو الإمضاء فى عصرنا.
(6) المرجع السابق، ص ١٢٠.

الوقت ضعف سلطة أخوة زوجته الحاكمين فى القسطنطينية وعدم هيبتهم وعدم قدرتهم على القيام بحروب جديدة. ومع غروب عام (٩٨١) نزل إلى بنفنتو منادياً بالتحرك ضد المسلمين، وبعد أن اجتاح سالرنو، التى كانت قد رفضت الخضوع له ومساعدته، أعد أتونى قواته لغزو مدن كلابريا(1)، التى، كما يقول ديتمار، وهو رجل ساكسونى من سلالة عريقة وأسقف ومعاصر للأحداث، كانت تعانى بشدة من اليونانيين والسراسنة(2). ويؤكد مؤرخ آخر من أصل ألمانى ومعاصر لتلك الأحداث بأن الأباطرة البيزنطيين بعد أن فشلوا فى إثناء أتونى عن هذا الغزو، قاموا بمساندة مسلمى صقلية وغيرها من الجزر وأفريقيا ومصر للهجوم عليه(3). وتذكر الحوليات الإسلامية، والتى تتفق بصورة مذهلة مع ديتمار فى الكثير من التفاصيل، تذكر فقط أن أبا القاسم قد أعلن الجهاد لأن ملك الفرنجة كان يتحرك صوب صقلية(4). ومن الجلى أن البيزنطيين ومسلمى صقلية، بعد تجدد الخطر المشترك، قد اتحدوا كما كان الحال فى عهد نيتشيفورو والمعز(5). وربما قام قائد كلابريا بتجنيد بعض الجماعات الإسلامية التى عسكرت فى تلك المناطق وناصرته. لكن الجيش الصقلى لم يحارب أبداً جنباً إلى جنب مع اليونانيين: إن القول بأن كليهما كان يحارب أتونى فى ميدان القتال نفسه هو تصور خاطئ للكُتاب المحدثين الذين يركنون أكثر إلى المصنفات تاركين جانباً الأحداث التاريخية الأصلية.

(1) سوف أذكر الاستشهادات فى نهاية الحدث، وهنا سأشير لها فقط. إن تاريخ الوصول إلى بينفنتو وسالرنو يوجد فى *Cronica di Santa Sofia* وتؤكده الوثائق التى ذكرها *Muratori* فى الحوليات *Annali*.

(2) ديتمار.

(3) حوليات القديس جاللو.

(4) ابن الأثير.

(5) وبدون ذلك لم يكن أبو القاسم ليقدم على غزو كلابريا خشية أن تتحد جيوش أتونى والبيزنطيون ضده.

فى ربيع عام (٩٨٢) اتجه أتونى صوب مدينة تارنتو وسرعان ما فتحها وذلك لضعف الدفاع اليونانى(1). وكان يشارك فى هذا الجيش القوى أفراد من ساكسونيا وبافاريا وغيرهم من الألمان، وكذلك إيطاليون من الأقاليم التى تقع شمال كلابريا ومن الإمارات اللونجباردية تحت قيادة كبار الشخصيات فى الامبراطورية من العلمانيين ورجال الدين، فضلاً عن الصفوة من نبلاء المانيا وإيطاليا(2). ونظراً لندرة القوات البحرية، اتفق أتونى مع بحارة قاربين حربيين، كانا يُرسلان منذ عهد نيتشيفورو فوكا لجمع الضرائب من كلابريا، ووعدوه بحرق أسطول المسلمين: كان ذلك يمثل خيانة مزدوجة، أو انهم كانوا مترجحين فى إخلاصهم لسيدهم ومن ناحية أخرى كانوا على استعداد لمساندة أتونى المنتصر والتخلى عنه فى حالة هزيمته. ويذكر ديتمار أن هاتين السفينتين كانتا طويلتين وسريعتين بصورة تثير الإعجاب، وبهما صفان من المجاديف وخمسون رجل فى كل واحدة منهما ومزودتان بتلك النيران، التى لا يطفئها غير الخل. وقد تعرضت مجموعتان من خيالة المسلمين للهزيمة من جيش أتونى(3)؛ واحتمت مجموعة منهما أو لعلها مجموعة ثالثة، داخل مدينة، أعتقد إنها روسانو وبعد ذلك فرت هاربة(4).

(1) ديتمار *Gli Annalis Lobienses* فى برتز، *Scriptores*، الجزء الأول، ص ٢١١، يقول إنه فى عام (٩٨٢) احتفل أتونى بعيد الميلاد فى سالرنو وعيد القيامة فى تارنتو. هذا التاريخ نراه أيضاً فى الوثائق التى ذكرها دى ميو. ووفقاً لحوليات سان جاللو، فإن أتونى كان يريد أن يحتل إيطاليا حتى البحر *Siculum et portum Traspitam (var Traversus)*، والتى ربما تكون تفسيراً خاطئاً لـ *Taranto*. و*Taranto* يجب أن تصحح، إما بروسانو *Rossano*، أو الاسم الذى يكتبه ابن الأثير *Mileto*، وابن خلدون راماتا *Rametta*.

(2) انظر الأسماء فى نهاية الحكاية.

(3) ابن الأثير.

(4) ديتمار، *Quos primo infra urbem quandam clausos fugavit devictos, postque eosdem in campo ordinato fortiter adiens etc.* إن المقارنة بابن الأثير توضح أن الغارة الأولى كانت موجهة ضد فرقة صغيرة أما الثانية فكانت ضد الجيش.

وبعد أن تحرك أبو القاسم بجيشه فى شهر رمضان (٣٧١هـ) الموافق (من ٢٧ إبريل إلى ٢٦ مايو من عام ٩٨٢)، مضى بطول ساحل كلابريا الشرقى حيث تلقى تحذيرات مؤكدة عن قوات الأعداء المرابطة فى روسانو(1). ونظراً لعدم ثقته فى اقتحام روسانو، جمع قواده الذين كانوا يريدون التقدم نحوها وأصدر أوامر قاطعة بالانسحاب: وقام الجيش والأسطول بتنفيذ هذا الأمر، وعندئذ أرسلت سفن العدو التى كانت تراقب الأمر برسائل إلى أوتونى ليهجم على المسلمين الذين أصيبوا بالذهول(2). وترك خلفه كل ما يعوقه عن التقدم واتجه مسرعاً مع صفوة جنوده صوب الصقليين فى الخامس عشر من يوليو(3) على ساحل استيلو(4). وعند رؤيتهم عن بعد فى قلة عددية، صاح قائلاً: إنهم إحدى العصابات وليسوا بجنود، وعلى الفور أمر بالهجوم عليهم(5). وبعد أن توقف أبو القاسم لفترة، قام بترتيب صفوفه استعداداً للمعركة(6). وبعد اشتباكات مريرة بالأيدى، قامت سرية من جيش الإمبراطورية

---

(1) ابن الأثير. وأضيف أنا روسّانو لأن الإمبراطورة والحاشية قد ظلوا هنالك عندما شرع أتونى فى مطاردة أبى القاسم.

(2) ابن الأثير. يتحدث ديتمار بصورة مماثلة عن تحذيرات تم إرسالها إلى أوتونى من عملائه (كشافيه).

(3) وفقاً لابن الأثير فإن العشرين من محرم يوافق بالحساب الفلكى الرابع عشر وبالتقويم المدنى الخامس عشر. ديتمار *tertio idus julii*، أى الثالث عشر؛ الرثاءات التى يقدمها برتز فى *Scriptores*، الجزء الثالث، ص ٧٦٥، الملاحظة رقم ٥٩ بها؛ *Secundo idus julii, idibus julii* ويقول لامبرتو *idibus julii*؛ أى الرابع عشر والخامس عشر.

(4) بالقرب من البحر، وفقاً للجميع. ويقدم لوبو بروتسباتريو، فى مختلف المخطوطات *Cotruna, Columnæ Colupna etc.* ويقول روموالدو سالرنيتانو ستيلو والتى يطابق لفظها باليونانية *Colonna*. وأنا أستند إلى هذه الرواية لأن روسانو تبعد ٤٥ ميلاً عن كوترونى. وميدان القتال ربما كان أبعد بكثير من ذلك، وفقاً لتفاصيل انسحاب أبى القاسم وهروب أوتونى.

(5) حوليات القديس جاللو.

(6) ابن الأثير.

بمهاجمة قلب الجيش الصقلى وشقته وفرت هاربة. واشتد القتال حتى إن قوات أوتونى بلغت الرايات التى يحميها أبو القاسم بمجموعة من الأشراف والفرسان الشجعان الذين أصروا على عدم التقهقر، فتم حصدهم جميعاً وضرب الأمير على هامته(1) فسقط؛ أما جيش المسلمين فقد استبسل فى القتال حتى استطاع أن ينتزع النصر من يد الإمبراطور الألمانى، بل إن المهزومين من المسلمين فى ذلك الوقت اتحدوا واندفعوا لاستعادة ما سُلب منهم، هذا ما يقوله ابن الأثير، وهم مصممون على الموت، أما المنتصرون، يقول ديتمار، فبعد صدام قصير غُلبوا وقُطعوا تقطيعاً(2). ومما يثير الدهشة هذا التحول السريع فى أحداث المعركة، فعندما انهزم قلب الجيش الصقلى، تقدم مرة أخرى من المؤخرة وأطبقت الميمنة والميسرة اللتان لم تصبهما أية خسائر على مؤخرة جيش العدو. أما ما تبقى من جيش أوتونى فقد فر هارباً تاركاً أربعة آلاف جندى صريعاً بميدان القتال وعدداً كبيراً من النبلاء أسرى للمسلمين(3). ومن بين هؤلاء الأسرى الأسقف ڤرشيللى الذى أُرسل إلى مدينة الإسكندرية بمصر وتم افتداؤه بعد سنوات طويلة، وقد حدث بالمثل مع عدد كبير من الرهبان والعلمانيين الذين عادوا رويداً رويداً إلى ألمانيا(4). وتذكر الروايات التاريخية الإيطالية أن من بين الذين سقطوا صرعى تلك المعركة لاندولفو أمير كابوا وأتنولفو أخاه وأبناء أخيه إنجولفو، وڤاديبرتو، وجويدو دى سسّا(5)؛ أما الروايات التاريخية الألمانية

---

(1) ابن الأثير. وفاة بولكاسيموس ورد ذكرها عند لوبوبروتسبتاريو.

(2) يقول ديتمار، مثل ابن الأثير، إن المعركة أنتصر فيها الجيش المهزوم الذى وحدّ صفوفه. وتشير *Gli Annali di San Gallo*، إلى شئ قديم جداً وهو كمين أفلت منه آلاف الأعداء.

(3) ابن الأثير. تضيف مخطوطة لوبو بروتسبتاريو، صفراً إلى عدد الموتى وتنسبه للجيش الصقلى.

(4) حوليات القديس جاللو.

(5) قارن *Chronicon Sancti Benedicti*، فى *Pertz, Scriptores*، الجزء الثالث، ص ٢٠٩ و*Leone d'Ostia*، الكتاب الثانى، الفصل التاسع.

فتذكر أريجو أسقف اوجسبورج، وڤرنر رئيس دير فولدا وعدد كبير من الرئاسات الدينية(1). ومن كبار البارونات نذكر ريخار، ودوق يدعى أودونى، ومن الكونتات ديتمار، وبيشلينو، وچيڤهاردو، وجونتيرو وبيرتولدو وإتيشلينو وآخر يدعى بيشلينو أخوه، وبوركاردو، وديدونى، وكورادو، وإيرمفريدو، وأرنولدو وغيرهم لا يعلمهم إلا الله، هذا ما يقوله ديتمار الذى فقد خاله(2) فى تلك المعركة.

أما أتونى الدموى فقد انطلق هارباً مع ابن عمه دوق باڤييرا ورأى بعد القاربين اليونانيين عند الشاطئ ونجى بنفسه(3). ولكن بعد أن فقد جواده صاح به يهودى كان موضع ثقته وكان يرافقه «خذ جوادى وأنفق على أولادى إذا لقيت حتفى»، عندئذ امتطى أتونى صهوة(4) الجواد ودفعه نحو البحر؛ وصاح معطياً إشارة للبحار الذى انطلق على الفور. وعندما رجع إلى الشاطئ، وجد اليهودى، ويدعى كالونيمو، ينتظره وهو قلق عليه وليس على نفسه؛ وكان ابن عمه هناك عندما رأى المسلمين يتقدمون بسـرعة كبيرة نحوهم. «ماذا سأفعل؟» صاح أتونى، «لكن مازال لدى صديق!» وانطلق من جديد نحو البحر بجواد اليهودى(5). وهـذا الأخير تم قتله(6). اسـتضاف القارب الآخر الذى كان يمر الإمبراطور، بعد أن تعرف عليه بحار سلافى(7). وبعد

(1) *Annales Oltemburani,* و *Lamberti Annales*

(2) قارن ديتمار ولامبرتو والوقائع الصغيرة لدى *Pertz, Scriptores*، الجزء الثالث، ص ١٢٤، ١٤٣، والمراثى المذكورة بعد ذلك فى ص ٧٦٣، الهامش ٥٩.

(3) ديتمار.

(4) ابن الأثير، يذكر أن جواد أتونى توقف، دون ذكر البحر. لكن ديتمار يذكر أن أتونى ألقى بنفسه للسباحة من على صهوة جواد اليهودى.

(5) ديتمار.

(6) ابن الأثير، ان الأسم الذى يعطيه ديتمار يجعلنا نعتقد أن هذا اليهودى من كلابريا أو من بوليا، ومناضل ضد اليونانيين، وربما كان يتحدث لغتهم.

(7) يقول ديتمار: *ab Heinrico milite ejus qui szlavonice zolunta vocatur ognitus intromittitur.* وبعد ذلك عند حديثه عن ذات الشخص يطلق عليه اسم *binomius*. ولكنى أعتقد أنه سلافى.

أن اراحه قائد القارب على مخدعه وبعد استجوابه تأكد من أنه أتونى؛ وقد توسل إليه أتونى أن يرسو عند روسانو حتى يأخذ معه زوجته وثرواته لأنه لم يرد أن تطأ قدماه هذه الأرض التعسة، وفضل الذهاب إلى القسطنطينية حيث سيردالأباطرة الورعون الجميل لمن أنقذ صهرهم من موت محقق. وافق اليونانى وبعد أن أبحر ليلاً ونهاراً وصلوا إلى مدينة روسانو(1). وأرسل أتونى البحار السلافى إلى اليابسة ولم يمر وقت طويل حتى شوهدت الإمبراطورة ومعها ثيرّى أسقف ميتز تنزل إلى الشاطئ ومعها قافلة من الدواب تحمل كنوز أتونى. عندئذ ألقى القبطان اليونانى بهلب القارب واقترب الأسقف بمراكب صغيرة من القارب ومعه عدد قليل من الأفراد، وتحدث مع أتونى الذى ارتدى زى التشريفات كى يستقبل الإمبراطورة استقبالاً حافلاً، وجاء يمشى فوق متن القارب وفجأة قفز فى الماء. وقد حاول أحد البحارة منعه من ذلك ولكنه جُرح جرحاً خطيراً، أما الآخرون فقد أبعدوا إلى الخلف من أفراد أسرته الذين اعتلوا أسطح السفينة ومعهم أسلحة فى أيديهم، وكان أتونى فى تلك الأثناء قد بلغ الشاطئ؛ وهكذا سقط الدناى اليونانيين اللذين احتـالا على كل البشر. وهكذا يختتم ديتمار(2) هذا الجـزء وهو راض عما كتب. وفى روايتـه هذه لا أرى شيئاً يشبه الخرافة. ويروى البعض الآخر هذه القصة بصورة مختلفة، حسب الروايات الشـائعة(3)، ومنهم من يضيف إليهـا ويحذف

(1) ديتمار: *et perdiu et pernox ad condictum pertingere locum properavit.* يبدو على الأقل يوماً كاملاً. چوڤانى دايكونو دى فينسيا يقول إن أتونى ظل على السفينة ثلاثة أيام.

(2) تعطى حوليات القديس جاللو، خلاصة الحدث قائلة إن أتونى فر بصعوبة بسفينة إلى قلعة من قلاعه.

(3) ارنولفو، چوڤانى داكونو دى فينسيا، يقول بوضوح إن أتونى قد نجى بنفسه على ظهر قاربين يونانيين.

منها ما يحلو له(1)، وهناك بعض المزيفيين المحدثين الذين أعادوا صياغة هذه القصة بطريقتهم(2). وهناك فى النهاية النقاد المستاؤون الذين يرفضون كل هذه القصص دفعة واحدة(3). إن الروايات العربية تتفق مع ديتمار سواء فى وقائع الهروب الأولى وفى تفوق «أتونى» قائلة أن «أتونى» اتجه إلى المعسكر الذى توجد به زوجته ومعها عاد إلى روما(4).

وفى الواقـــع بعد أن أقـــام بكـــابوا قـــدر المستـــطاع اتجه أتونى إلى شمال إيطاليـــا وجمـــع فى عام (٩٨٣) المجلس الخاص للإمبراطورية فى فيرونا(5) وسارع للانتقام من صقلية وتفاخر بإعداد أسطول عظيم من السفن جعله على هيئة جسر بمضيق مسينا(6)، ولكن القدر لم يمهله وتوفى فى روما فى (٧ ديسمبر عام ٩٧٣) دونما مخاطرة على عكس ما حدث لأبى القاسم الذى سقط صريعاً بميدان المعركة، حيث دفعت السلالة العربية لمثيلتها الإيطالية ثمن إيجـــار صقلية وهو عبارة عن ضربات موجعة شردت بها جيشاً چيرمانياً وأودت بحياة الإمبراطور أتونى الذى مات غيظاً وكمداً بعد أن ذهب إلى أقصى جهة فى شبه الجزيرة الإيطالية، وربما بارك أيضاً أهل سالرنو وروما وإيطاليون من أقاليم أخرى والذين تم تجنيدهم تحت راية الإمبراطور، باركوا السيوف الشرقية التى كانت تلمع فى أعينهم. إن الضرورة الملحة للتوسع الجغرافى والتى تأتى قبل أى شئ آخر، جعلتنا نرى المسلمين فى صقلية، وهم أصحاب الطابع الدينى

---

(1) *Hermanno Contratto, Sigeberto, ec*.

(2) *Pratilli* فى تعقيباته على *Cronaca della Cava*.

(3) موراتورى، *Annali d'Italia*; وســـان مارك، *Abregé chronologique de l'Histoire d'Italie*.

(4) ابن الأثير.

(5) ديتمار. انظر فى موراتورى *Annali*، القرارات التى صدرت فى هذا المجلس حول الإقامة بـ كابوا قارن مع *De Meo*.

(6) حوليات القديس جاللو، أرنولفو.

فى المقام الأول، يفوزون فى كلابريا بأول معركة(1).

وظل الصقليون سادة الموقف وحل جابر بن أبى القاسم محل الأمير وأمر بحشد قواته ولم يسمح لها بالاستمرار فى جمع الغنائم أو الأسلحة ومعدات الحرب التى تركها العدو لتدعيم ترسانات صقلية

---

(1) الشهادات العربية هى: ابن الأثير، وقائع عام ٣٧١، المخطوطة *A*، المجلد الثالث، ص ٣٣، الوجه الأول؛ وملخص ابن خلدون، عن الموضوع، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٧٣، ١٧٤؛ وإشارات أبى الفدا، *Annales Mosl*، عام ٣٣٦، المجلد الثانى ص ٤٤٦ وما بعدها؛ **البيان**، النص، المجلد الأول، ص ٢٤٨، سنة ٣٧٢، النويرى فى كتاب دى جريجوريو، المرجع المذكور، ص ٢٠؛ ابن أبى دينار، مخطوطة باريس، الورقة ٣٨ الوجه الأول؛ حاجى خليفة، *Cronologia*، ترجمة كارلى، سنة ٣٧٢، ص ٦٦. وينبغى أن نشير إلى أن ابن الأثير وابن خلدون يطلقان على إمبراطور الفرنجة، بدلاً من اسم أوتونى، اسم بردويل نسبة إلى اســم بلدوڤينو الذى كان ذائعاً فى الحروب الصـــليبية. والمصادر اللاتينية: ثيتمـــارى، *Chronicon*، الكتاب الثـــالث، الفصل ١٢، فى كتاب برتز *Scriptores*، المجلد الثالث، ص ٧٦٥ وص ٧٦٦ (ولد ديتمار ابن كونت ڤالديك وأسقف مرسبورج، ولد فى عام ٩٧٦ وتوفى فى عام ١٠١٨)؛ *Annales Sangallenses Majores*، فى كتاب برتز، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٨٠ (يقول مؤلف هذا الجزء إنه رأى عودة أسرى كثيرين تم دفع فديتهم)؛ چوهانس دياكونى، *Chronicon Venetum*، فى كتاب برتز، المرجع المذكور، المجلد السابع، ص ٢٧ (وانتهى المؤلف من الكتابة سنة ١٠٠٨)، ريشارى، *Historiarum*، فى كتاب برتز، المرجع المذكور، المجلد الثالث، ص ٥٦١ (كتب المؤلف فيما بين ٩٩٦ و٩٩٨، ولكن فى إشارة مقتضبة)، لامبرتى، *Annales*، فى كتـــاب برتز، المرجـــع المذكور، المجلد الثالث، ص ٦٥ (عاش المؤلف فى منتصف القرن الحادى عشر)، هريمانّى أوج، *Chronicon*، فى كتاب برتز، المرجـــع المذكور، المجلد الخـــامس، ص ١١٧. (ولد إرمانّو كونتراتّو، وهذا اسم شـــهرته، فى عام ١٠١٣ وتوفى فى عام ١٠٥٤). وتضـــاف إلى هذه الأخبـــار إشارات أقل شأناً وردت فى كتـــاب برتز، المرجـــع المذكور، المجـــلد الأول، ص ٢١١، ٢٤٢، المجلد الثـــالث، ص ٥ و٦٤ و١٢٤ و١٤٣؛ والمجلد الخامس، ص ٤. وعن محـــررى الأخبار اللاتين فى إيطاليـــا فى القرنين الحـــادى عشر والثـــانى عشر، لوبو بروتوسبتاريو، ومجهـــول بارى فى كتاب برتز، المرجـــع المذكور، المجـــلد الخامس، ص ٥٥ ويقولان فقط إن أوتونى حـــارب أبا القاســـم من السراسنة، عام ٩٨١ وقتلـه ولقى ٤٠,٠٠٠ رجـــل حتفهم؛ وأماتو، *L'Ystoire de li Normant*، الكتـــاب الســـادس، الفصـــل ٢٢، يذكر على وجـــه العموم هزيمة أوتونى؛ ليونى دوســـيتا، الكتاب الثانى، الفصل ٩؛ فى كتـــاب برتز، المرجـــع المذكور، المجلد الســـابع، ص ٦٣٣ يتنـــاول الموضـــوع باقتضـــاب ودقـــة؛ وفى اســـهاب أكبر يتحدث أرنولفو، *Gesta Episcopor. Mediol*، فى كتاب برتز، المرجع المذكور، المجلد الثامن، ص ٩.

ولا نعلم إن كان هذا لضرورة ما، أم لخوف أم للرغبة فى الإسراع بالاستيلاء على دولة بالرمو أو لأنه فكر فى نقل جثمان والده معه. ولكن الشعب كرم فيه فضائله وأطلق عليه «الشهيد» وترك للتاريخ هذه العبارة شاهدة له: رجل عادل، شريف، محب لرعيته، عطوف، محسن لم يترك لأبنائه قطعة نقود من الذهب أو الفضة، أو قطعة أرض، فقد وهب كل شئ للفقراء ولأعمال الخير(1).

وفى الختام يقول روموالدو سالرنيتانو، فى كتاب موراتورى، *Rerum Italicorum Scriptores*، المجلد الخامس، سنة ٩٨١، يقول صراحة فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر. إن أوتونى انتصر فى ستيلو ثم انهزم عند ريجو.

ووضع براتيللى فى تعليقه على *Cronica della Cava*، المجلد الخامس من مجموعته، وضع من عنده قصة طويلة عن هذه العملية فى عام ٩٨٢؛ واختلق قصة أخرى فى المجلد الثالث من *Cronica dei Duchi di Napoli*، عام ٩٨١، عن معركة بحرية بالقرب من مالطة.

هذه هى المصادر سواء الموثوقة أو غيرها، ولم أذكر مع هذا كل المصنفات بدءاً من القرن الحادى عشر وما بعده. ومن بين المصنفين الذين رووا حرب أوتونى الثانى رواية بها تلفيق أذكر سيجونيو، *Historia de Regno Italico*، الكتاب السابع، وفيها قال بانتصاره الأول فى عام ٩٨١ وهزيمته فى عام ٩٨٢ بمدينة بازنتللو فى كلابريا، حيث كانت الحرب تدور من ناحية بين اليونانيين والسراسنة، ومن ناحية أخرى فإن الرومان وجيش بنفنتو تخلوا عن أوتونى انتقاماً منه. هذان الحدثان تخيلهما المصنف وهذا شئ مفهوم. ولكنى لا أعلم فى أى كتاب تاريخ أو جغرافية وجد اسم بازنتللو. إن بازنتو، وربما يكون هذا هو سبب الخطأ الذى وقع فيه، إن بازنتو اسم نهر كبير فى بازيليكاتا يصب فى خليج تارانتو فيما بين مدينتى تارانتو وروسّانو. وأخذ موراتورى فى تصحيح هذه الأخطاء فى مؤلفه *Annali d'Italia*، ٩٨٢، ودى ميو فى *Annali del Regno di Napoli*، المجلد السادس، ص ١٥٨ وما بعدها، وص ١٧١، وص ١٧٤ وما بعدها وذكر تواريخ هامة للغاية. ومع هذا استمر الخطأ بعد تصحيحه؛ وحتى اليوم مازالت تجرى الاشادة بهذين اليومين، بهرب اليونانيين فى أول مواجهة بالمعركة الثانية وباسم بازنتللو.

(1) ابن الأثير وابن خلدون، الموضعان المذكوران.

الفصل السابع

حقاً كان هناك بون وفرق شاسع بين الواقع والشرع فى مسألة اختيار الأمراء وتوليتهم، هكذا كتب المؤرخون كتابات متعددة عن جابر، فقال بعضهم إن المسلمين بصقلية قد ولوه أمرهم دون وصول كتاب من الخليفة بتوليته(1)؛ وقال البعض الآخر إن العزيز بالله، الذى ولى الخلافة بعد المعز (٩٧٥)، قد ولاه الإمارة بشكل مقبول وحسن(2). وكلا القولين صحيح بكل تأكيد. ولكن جابر انغمس فى لذائذ الحياة وملذاتها، فترك أمور الإمارة تسير إلى الأسوأ. ولذا خلعه أهالى صقلية(3)، أو استغاثوا بالقاهرة والتجأوا إليها، حيث مهدت الضغائن والأحقاد التى كان البلاط يغص بها الطريق أمامهم، وذلك لأن ابن كلس، وزير الخليفة، كانت تساوره الريب بشكل خطير فى جعفر بن محمد، الذى ينحدر من أسرة الكلبيين بصقلية، والذى كان من أولياء العزيز الحميمين المقربين إليه، أكثر مما كان أبوه محمد مع المعز(4). ومنذ توفى أبو القاسم دبر ابن كلس عزل غريمه ونفيه بطريقة عجيبة، فأقنع العزيز بأن يجعله أميراً على صقلية(5) بدلاً من ابن عمه. ومَنْ يدرى كم ساند الصقليين وأيدهم فى تذمرهم وتقديمهم لتظلماتهم وشكاواهم، وإن كان لم يدفعهم للمطالبة بذلك؟ وتحدثنا الحوليات العربية فتقول

---

(1) أبو الفدا، وابن أبى دينار، الموضعان المذكوران.

(2) النويرى، الموضع المذكور.

(3) ابن خلدون، الموضع المذكور.

(4) بشأن محمد هذا انظر الفصل الخامس من الكتاب نفسه، ص ٢٩٦.

(5) أبو الفدا، الموضع المذكور. فى تصورى واعتقادى أنا أن الصقليين طلبوا النجدة من مصر واستغاثوا بها. ولم يذكر ذلك أبو الفدا أو ينوه عنه؛ ولكن ابن خلدون أسهب فى الحديث عن ذلك، كما رأينا.

إن جابر تألم من ذلك أيما إيلام فترك الإمارة، وأن جعفر قد تولاها على مضض وعلى غير رغبة منه. ومع ذلك فلما وصل إلى صقلية سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة (١٤ يونية ٩٨٣، ٢ يونية ٩٨٤)، قام بإصلاح البلاد وضبط أمورها فنعمت بالنماء والازدهار؛ وامتُدح لحبه للعلم والدراسة ولسخائه وجوده. وقد وافته المنية فى عام خمس وسبعين وثلثمائة (٢٣ مايو ٩٨٥، ١١ مايو ٩٨٦)، وخلفه أخوه عبد الله الذى تأسى بسيرته الحسنة واقتدى بها، ولم يمر وقت طويل حتى انتقل هو أيضاً إلى جوار ربه، فى شهر رمضان سنة تسع وسبعين وثلثمائة (ديسمبر ٩٨٩)؛ فترك الإمارة لابنه أبى الفتوح يوسف. هكذا قال النويرى وابن أبى دينار بوضوح وجلاء، ولم يخالفهما المصنفون والمؤلفون الآخرون فى هذا القول. ويقول النويرى إن العزيز أرسل إليه فور ذلك كتاب بتوليته الإمارة(1).

وفى ذلك الوقت وصل به الأمر شأواً عظيماً. وسرعان ما كسر شوكة بنى أبى حسين واستأصل شأفتهم من البلاط بالقاهرة. وأختير فاتح راميتا حسن بن عمار، لشهرته ورباطة جأشه بين الجند ولمصاهرته لقبيلة كتامة، شيخاً وزعيماً للكتاميين المقيمين فى مصر الذين اختاروه طواعية وهم مازالوا حراساً وجنداً للفاطميين. ولذا أضحى فى ذلك الوقت سيداً لهم وقائداً مخلصاً للخليفة، حتى إن العزيز، عندما أشرف على الموت ودنا أجله (أكتوبر ٩٩٦)، أوصاه بابنه المنصور، الملقب بالحاكم بأمر الله، وكان طفلاً يبلغ من العمر إحدى عشرة سنة، فعهد به إليه. وعندما تقلد الحكم، أجبره زعماء كتامة على إسناد إدارة أمور الدولة لابن عمار، باستحداث منصب أُطلق عليه اسم «الواسطة»، أى القائم بالوساطة؛ وأضيف إليه لقب أمين الدولة، وهو لقب جديد وخلع

(1) راجع: أبا الفدا، والنويرى، وابن خلدون وابن أبى دينار، المواضع المذكورة. نقرأ أيضاً وفاة عبد الله وخلافة ابنه من بعده فى كتاب **البيان**، النص، المجلد الأول، ص ٢٥٤.

مستحدث أيضاً على البلاط الفاطمى فكان نذير شؤم ووبال عليهم؛ إذ إن أمراء الأمراء الذين كانوا سبباً فى التشهير بالخلافة العباسية والاستهانة بها كانوا يتلقبون بألقاب مماثلة مثل: عماد الدولة، وركن الدولة، وسيف الدولة وغيرها. وكاد بنو أبى حسين أن يحاكوهم ويقلدوهم فى باقى الأمور: فقد كان قائدهم وزعيمهم يميل إلى الأبهة والبذخ ويتغطرس ويستعلى كما لو كان ملكاً؛ وكان يستنفد فى القصر، وفى الجيش النفقات لإثراء الكتاميين، ولم يقتص منهم فى حالة خروجهم عن القواعد والنظم واقترافهم الآثام والمآثم. فغلبه أحد غلمان القصر سريعاً، بالاعتماد على الجند الأتراك المرابطين الذين قضوا بذلك على صلف الكتاميين وغرورهم؛ فتم عزل ابن عمار من قيادة أمور البلاد (٩٩٧) وجُرد من سلطاته، وكُرّم ونحى جانباً لسنوات قلائل، إلى أن أمر القاصر، الذى كان آخذا فى التمتع بالدماء، بقتله والفتك به(1).

ومن الجدير بالملاحظة أنه خلال فترة حكم ابن عمار القصيرة كان هو يمسك بدفة الأمور فى مصر بينما كان يحكم صقلية(2) فى ذات الوقت ابن عمه يوسف: تماماً كما يحدث فى أيامنا هذه حيث نرى بعجب وانبهار اثنين من الأقرباء، أحدهما الوزير الأعظم بالقسطنطينية، بينما الآخر باشا مصر. ومع ذلك كان واضحاً وجلياً للجميع استقلال صقلية؛ ولا غرو فى أن البلاط الفاطمى قد

(1) قارن بين: يحيى بن سعيد، مخطوطة باريس، *Ancien Fonds*، A١٣١، ص ١٣٨ وما يليها؛ وابن الأثير، المخطوطة C، المجلد الخامس، الورقة ٣٣ الوجه الأول، عام ٣٨٦، والمصادر التى ذكرها م. دى ساسى فى كتابه، *Chrestomathie Arabe*، الطبعة الثانية، المجلد الأول، ص ١٣٧، وص ١٣٨، وفى كتابه، *Exposé de la Religion des druses*، صفحة ثلاث وثمانين ومائتين وما يليها. والظاهر أن البلاط الفاطمى حتى ذلك الحين لم يمنح مثل هذه الألقاب الشرفية سوى لبلقين، والى الفاطميين على إفريقية. انظر ابن الأثير، الاستشهاد المذكور فى ص ٢٩٢، وابن خلدون، *Histoire des Berbères*، الترجمة، المجلد الثانى، ص ١٠.

(2) أبو الفدا، *Annales Moslemici*، عام ٣٣٦، المجلد الثانى، ص ٤٥٠، وقد نقل عن ابن شداد، الذى من المرجح أنه كان واحداً من أقدم المؤرخين والمصنفين.

منح، بتدخل على ما يبدو من ابن عمار، ليوسف لقب ثقة الدولة(1). ولم تعد صقلية مجرد واحدة من بين دول المسلمين المطلة على البحر المتوسط فى ذلك الحين، بل بدأت البلدان الأخرى تنظر إليها بحسد وغيرة. وكان قد ذاع صيتها العسكرى بفضل أمراء الكلبيين الثلاثة الأوائل بالإضافة إلى ذلك الرخاء والازدهار الذى نعمت به فى عهد سلالة محمد الكلبى الذين برز من بينهم يوسف هذا. ونقرأ فى أحد الأخبار التاريخية أن الناس خلال فترة حكمه نعموا بكل ما يتمناه المرء ويشتهيه من خير الدنيا؛ وأن عهده كان عهد طمأنينة وذا فائدة وفعالية؛ وأنه أخضع العديد من البلدان البيزنطية وتغلب عليها؛ وأن الأمير أظهر ما طُبع عليه من المروءة والشهامة، والكرم والجود، والعدل الذى كانت تفتقر إليه كثير من الإمارات الإسلامية الأخرى(2). وكان البعض يمدحه ويثنى عليه لعزمه النافذ وحزمه الشديد ولسماحته تجاه رعيته(3)؛ بينما كان البعض الآخر يُقرظه ويشيد به لأنه فاق وبز أسلافه فى بلوغه ذروة المجد والعظمة، وسنام القوة والسلطان(4). وقد وصلتنا أخبار ثقافته وثقافة بلاطه من تراجم الشعراء المعاصرين له وسيرهم.

ومن أوائلهم نذكر ابن مؤدب، وهو من قُطَّان المهدية، وهو رجل ذو عقلية غريبة عكف على دراسة الكيمياء وحجر الفلاسفة الأسطورى، وهو رجل معروف برذائله وعاداته السيئة، وجشعه، وتقتيره، وتطلعّه ورغبته للسير فى مناكب الأرض للحصول على المال بإنشاده أبياتاً ركيكة من الشعر؛ وقد ارتحل متوجهاً إلى إحدى الجزر المتاخمة لصقلية، فوقع فى أيدى البيزنطيين وظل فى الأسر

(1) النويرى وابن خلدون، الموضعان المذكوران.

(2) **البيان**، النص، المجلد الأول، ص ٢٥٤.

(3) النويرى عند دى جريجوريو، المصدر المذكور، ص ٢٠.

(4) ابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، الترجمة، ص ١٧٨.

مدة طويلة. ثم بعثوا به إلى بالرمو مع باقى الأسرى، عندما أبرم يوسف هدنة مع الإمبراطورية البيزنطية، فامتدحه ابن مؤدب بقصيدة قصيرة، فكافأه الأمير؛ ولعدم رضائه عن هبة الأمير التى منحه إياها، أخذ يذم يوسفَ ويتحدث عنه بكل شائنة ونقيصة على الملأ، ولذا جَدَّ صاحب الشرطة فى البحث عنه للقبض عليه. فاختبأ عند أحد معارفه، وهو عامل بدار الصناعة غير أنه خرج ذات ليلة سكران لشراء نُقل ليتناوله مع الخمر(1)، فقبضوا عليه، وعلى التو اقتاده صاحب شرطة المدينة(2) ووضعه بين يدى يوسف. فوبخه يوسف وقرَّعه بقوله: «أيها التعس، ما هذا الذى أسمعه عنك!». فقال له الشاعر: «فليحفظ الله سيدى الأمير، إنها إفتراءات يفتريها الوشاة». فأردف يوسف قائلاً: «ولكن هل تتذكر اسم الشاعر الذى أنشد القصيدة التى يقول فيها: ها هوذا الرجل القدير المهيب وقد أجبره وأكرهه أولاد الآثمات؟». فأجاب ابن مؤدب: «نعم، إنه الشاعر نفسه الذى نظم هذا البيت من الشعر: ضغائن الشعراء وأحقادهم، الويل كل الويل لمن يعيرها اهتماماً!». ولسرعة بديهته فى الاستشهاد بأبيات المتنبى(3)، لم يقل له الأمير أى شئ آخر؛ بل أعطاه مائة رباعى(4) ذهباً شريطة مغادرة المدينة

(1) النقل هى الفواكه المجففة والحلوى التى أعتاد الشرقيون تناولها أثناء شربهم الخمر.

(2) صاحب الشرطة. انظر الكتاب الثالث، الفصل الأول، ص ١٢ من هذا المجلد.

(3) أقول هكذا إذ إننى بحثت لمن يُنسب هذان الشطران من الشعر، فوجدتهما للمتنبى، وكلاهما فى قصيدة نظمها لبدر بن عمار. انظر ديوانه وبه شروح مستفيضة، مخطوطة مكتبة باريس، الملحقات العربية، ١٤٨٣، الورقة ٤٤٨ الوجه الأول. والمتنبى يعنى مدعى النبوة، وقد أُطلق عليه هذا اللقب لأنه أراد النبوة وأدعى ذلك، وهو من أشهر الشعراء العرب فى العصور الإسلامية. توفى عام ٣٥٤ هـ (٩٦٥).

(4) رباعى، وقد ورد فى مخطوطات أخرى كلمة دنانير. والرباعى كان عملة متداولة فى صقلية فى القرن الثانى عشر، والظاهر أنها كانت تعادل ربع دينار ذهب، وحول هذا الموضوع انظر نص ابن جبير، طبعة رايت، ص ٣٢٩ وص ٣٣٥ والهامش الذى كتبه المحقق ص ٢٣ من المقدمة.

فى الحال؛ «لأننى أخشى» هكذا قال الأمير: «إذا كنت قد عفوت عنه مرة، فسيدفع الثمن غالياً فى المرة الثانية»(1).

وكانت شهرة بلاط يوسف تجتذب إليه العديد من المفكرين والشعراء المبدعين وذوى النفوس العالية، من أمثال محمد بن عبدون، الذى ولد فى مدينة سوسة فى بيت من بيوتات القيروان التى يُشار إليها بالبنان، وكان معروفاً بين أترابه ومعاصريه بحسن لغته وسهولة أسلوبه ورصانته. وقد نظم قصائد فى مديح الأمير، حازت إعجابه، لدرجة أن الأمير أراده واختاره صاحباً ورفيقاً لابنه جعفر الذى كان يهوى الشعر(2)، فارتبط به بأواصر صداقة قوية وراسخة، حتى إنه عندما أراد العودة إلى بلده، فإن جعفر، الذى خلف أباه السقيم(3) فى حكم البلاد، أنكر عليه ذلك ورفض بشدة، بالرغم من أن محمداً طلب منه ذلك ومن أبيه ناظماً لهما أبياتاً من الشعر تفيض بالمشاعر والحب. وبما أن جعفر كان متيماً بذلك الشاعر الفذ، ضاق ذرعاً من إلحاحه ولجاجته؛ ولذا منعه من دخول القصر؛ ولكى يرضى عنه كان لزاماً عليه نظم أبيات جديدة من الشعر، يقدمها له الشاعر خلسةً حينما يكون جعفر فى أحد المنتزهات(4) يُسرى عن نفسه. وعندما سمع جعفر أنه يشبهه بالقمر وإنه كالقمر يتوارى عَمَّنْ يريد الثناء عليه، اغرورقت عيناه

(1) قارن بين: ابن خلكان، طبعة وستنفيلد، الفصلة العاشرة، ص ٢٨؛ **ومسالك الأبصار**، مخطوطة باريس، *Ancien Fonds*، ١٣٧٢، الورقة ١٢٠ الوجه الثانى.

(2) النص لا يقول ذلك، ولكننا نعرفه من مصادر أخرى، وسنتكلم عن هذا فى موضعه.

(3) وهذا ما يجب أن نستخلصه من الأحداث ذاتها، بالرغم من أننا لا نقرأه فى النص.

(4) كلمة متنزه تعنى مكان للترويح والتسلية، وملهى، وڤيللا، وأحياناً أماكن السمر. واسم جعفر يجعلنى اتذكر متنزهات النورمان الملكية التى كان يُطلق عليها فاڤارا أو مارى دولشى، فى بالرمو؛ والظاهر أن المسلمين هم الذين أطلقوا اسم قصر جعفر على المكان وظل هذا الاسم شائعاً حتى عصر جوليلمو الصالح. انظر ابن جبير فى: *Journal Asiatique*، المجموعة الثالثة، المجلد السابع (١٨٤٦)، ص ٧٦.

بالدمع، ووهب الشاعر ثروة كبيرة(1).

ولست أدرى كم من العطايا والهبات أغدقها يوسف مقابل قصيدة نظمها له شاعر اسمه عبد الله، إلا أنها كانت ذات قيمة كبيرة طبقاً لذوقهم واستحسانهم إياها، وذلك قبل سنة ثمان وتسعين وتسعمائة(2)، بمناسبة عيد الأضحى المبارك(3)، وهذا الشاعر ينحدر من قبيلة تنوخ، ويُلقب بابن قاضى ميلا، ومن ثم فالظاهر أنه نازح من إفريقية. وقصيدته احتفظ لنا بها ابن خلكان وقد قرأها بمحض الصدفة على غلاف أحد الكتب، فنقلها فى تراجم الأعلام، خشية ضياعها وفقدانها؛ وحسب القواعد الثابتة للقصيدة العربية القديمة، فإنها تبدأ بذكر الأحباب والتألم لفراقهم، وبظهور الجميلات اللاتى يبدو أنهن تورية، فلا ينبثن ببنت شفه إلا لذكر شعائر الحج؛ وهكذا نصل بعد رحلة طويلة إلى عيد الأضحى، وإلى يوسف وابنه. وجاء العيد الذى اكتسى بكامل الأبهة والفخامة، والذى أضاء أطراف راية العراق الرقيقة، جاء بعد عام لزيارة ثقة الدولة، الذى قلّده قلادة وأنواطاً، واستقبله جعفر بالاستبشار والغبطة والابتهاج. ولكن أى جوهرة أكثر إشراقاً وتلألأً من كلا الملكين، وهما سليلا الشرف اللذان ينحدران من قبيلة قضاعة؟(4) ومن ذا الذى إذا أتى على أمواله، التمس العون من يوسف، فخاب رجاؤه؟ ذلك هو يوسف الذى تبارى مع الأمراء لبلوغ ذروة المجد فبلغها وحده؛ إنه هو البطل الأوحد القادر على إصلاح ما أفسده

(1) التيجانى، **رحلة**، مخطوطة باريس، الملحقات العربية، ٩١١ مكرر، الورقة ١٦ الوجه الأول. وقد نقل المؤلف هذه الفقرة من ابن رشيق.

(2) فى ذلك العام أُصيب يوسف بالفالج فخلفه ابنه وذلك حسبما جاء فى الأخبار التاريخية. ولكن من حجم الثناء والتقريظ الذى نُثر عليه وعلى جعفر، يبدو لى أن يوسف لم يترك الحكم، بل جعل ابنه يشاركه فى اللقب فقط.

(3) يوم ١٠ من شهر ذى الحجة، هو عيد كبير عند المسلمين. وهو أيضاً العيد الذى يتم الاحتفال به فى مكة فى ختام الحج، وفى هذه القصيدة يُقال الكثير عن الحج.

(4) قضاعة هى أحد أصول الجنس الحميرى، الذى تنتمى إليه قبيلة كلب.



الدهر المتخم بالكروب والهموم؛ إنه هو الحسام المسلول فى وجه أعداء الله، إنه هو درع المسلمين القوى المتين؛ إنه هو البصيرة التى ترى كل شئ وتعرف الانتقال بين اللين والشدة؛ إنه هو المحارب صاحب السيفين، وهما الإرادة الراسخة والمهند البتَّار. ها هو الجيش يغزو ويغمر أرض الأعداء؛ فتنقض السهام الرودينية(1) كأنها رؤوس الأفاعى تهاجم فلول الأعداء؛ وها هم قادة الأعداء وقد تمزقت أشلاؤهم وانفصلت رؤوسهم وعليها خوذاتهم عن جذوعهم؛ ومع ذلك لا تنقطع قرقعة السيوف وصليلها، حتى إن الزرديات التى كانت تتلألأ عند الفجر، اصفرَّت مما لحق بها من أديم الأرض، بل عندما ارتفع الغبار احتجبت الشمس وساد الظلام. وعبثاً حاول الكفار إصلاح ما أصابهم من ضُرٍّ وخسائر؛ وعبثاً شرعوا فى اجتناء أول ثمار الحقول، ففى كل عام تُرسل أنت جماعات وأسراباً إلى حومة الوغى، فتضرب جبالهم وسهولهم، تاركةً وراءها بقايا جثث عارية كثيفة شعر الرأس واللحى(2)؛ ومن ينجو بحياته يعيش وحيداً شريداً بلا أسرة، إذ إنها وقعت فى الأسر؛ ويجد معابده وهياكله قد إنتُهبت وخُرِّبت، فيصير لزاماً عليه الكف عن الشرك وعبادة الأوثان. سلاماً عليك، يا يوسف، يا حارس الإسلام اليقظ فى دُجى هذا العصر البائس اليائس. فليكن عيدك سعيداً وممتلئاً بالغبطة؛ ولتكن أيامك مديدة فى إنجاز الأعمال الصالحة، وفى حكم البلاد، وفى بلوغ سنام المجد؛ وليكن خالداً اسمك وليتردد دوماً من على

---

(1) يُطلق الشعراء هذا الاسم على السهام الدقيقة والمستقيمة، وهو مأخوذ من اسم رودينه، التى كانت زوجة صانع الأسلحة الشهير بالبحرين.

(2) كان الأتقياء المتدينون من الإغريق فى العصور الوسطى، بسبب تأويل خاطئ لأحد النصوص الدينية، يعتبرون قص الشعر خطيئة، ولذا فإن اللونجوبارد والفرنجة كانوا يسخرون منهم ويستهزئون بهم واستمر هذا الحال حتى القرن الثانى عشر، كما فعل فى هذا المقام الشاعر المسلم.

المنابر(1). وهكذا وضع الشاعر الفضائل فى سلة واحدة مع عدم التسامح الدينى وآلام ولوعة المقيمين بالجوار. فياليتها تتبدد وتتلاشى تماماً خطيئة القسوة والوحشية من ديانات أكثر تآلفاً ومودة ومن شعوب أكثر تحضراً وتمديناً!

ومع هذا فإن بلاط الكلبيين فى بالرمو كان معروفاً فى إيطاليا بسمو الخلق وفقاً لعرف تلك الأزمنة، ويشهد بهذا أحد المؤلفات التاريخية ورواية كُتبت، بعد أو قبل سنة، من عام ألف من عصرنا. أقول يشهد بهذا بأن يضع الأفكار والآراء المعاصرة فى قالب الماضى، كما يحدث فى الغالب الأعم. ويروى المؤلف وكان راهباً من رهبان روما أو إحدى ضواحيها، يروى عمليات الهجوم والانقضاض الأولى التى قام بها المسلمون على شبه جزيرة إيطاليا (٨٤٢) على هذا النحو: أن فلورنتى ملك بالرمو كان مغرماً ومتيماً بجيزا الجميلة أخت الأمير رومالدو، ولكى يقوم باختطافها أعد أعداداً عديدة وجهزها من سراسنة إفريقية، وبالرمو وبابل؛ ونزل فى سواحل أمالفى، بمساعدة رادلجيزو الخائن، فضرب حصاراً على بنفنتو حتى قتل رومالدو أربعين ألفاً من رجاله فى إحدى المعارك التى هزمه فيها، ونجا فلورنتى بشق الأنفس وبصعوبة

---

(1) ابن خلكان، طبعة وستنفيلد، الكتاب العاشر، ص ٢٨ وما بعدها. وهذه القصيدة تتكون من ٦١ بيتاً وكل بيت من شطرين. ومن هذا يستشف كل امرئ أننى لم اترجم ترجمة حرفية، ولم أقم كذلك بترجمة كل الأبيات الشعرية التى تخدم موضوع بحثنا؛ ولكننى أوليت اهتماماً بجمع الجمل ذات الدلالة الكبيرة والمغزى العميق، وأحياناً قمت بنقلها، مع إسقاط كثير من الصور التى تتضمنها، ولم أضف إليها شيئاً. ويجب التنويه إلى أن شطر البيت «فلزاماً عليه الكف عن الشرك وعبادة الأوثان» وجدته فى تصويب حسن أجراه الأستاذ فليشر على ص ٦٤٠ من كتابى *Biblioteca Arabo-Sicula*، حيث كان يوجد هذا البيت من الشعر على النحو التالى: «أنت الذى أوقعت بهم الهزيمة وضربتهم فى عقر دارهم، حتى جعلتهم فرادى؛ وفى طقوسهم وشعائرهم، **فتركوا الشرك وعبادة الأوثان**». والجملة المكتوبة بالأسود عبّرت عنها مخطوطة ابن خلكان بلفظة واحدة لها مرادفات عديدة، وما من مرادف يمكن قبوله.

بالغة بحياته(1). وهذه القصة الخيالية هى دليل ليس فقط على قوة الكلبيين وسطوتهم، ولكن أيضاً على ثقافتهم التى كانت سائدة عند نهاية القرن العاشر؛ حتى إنه نسب إليهم الكثير من أعمال البطولة والفروسية(2). ولم يغفل المصنف، وهو من أتباع أوتونى الثالث، أن ينسب تأسيس مستوطنة جريليانو الرهيبة (٨٨٣)، إلى السبب الذى أدى إلى الهزيمة التى لحقت بأوتونى الثانى (٩٨٢)، ألا وهو أن البيزنطيين أرسلوا رسلهم إلى بالرمو وإفريقية، لعرض حكم إيطاليا على السراسنة(3).

ومهما كان الاتفاق الذى أُبرم بين الإمبراطورية الشرقية ومسلمى صقلية، فإنه قد انتهى بوفاة أوتونى الثانى. فعندما رأى البيزنطيون أن المنتصرين والمهزومين قد ارتحلوا تاركين مواقعهم بعد يوم أُريقت وسالت فيه دماء غزيرة، استولوا مرة أخرى بكل سهولة ويسر على كلابريا وتوابعها وبقليل من الجهد على بوليا. وبسطوا سيطرتهم وهيمنتهم من ريجو إلى خليج بوليكاسترو الواقع على المنحدر الغربى لجبال الأبنين، وعلى المنحدر الشرقى من ريجو إلى ترونتو: وأقاموا مقر حكمهم فى بارى، وأنفذوا إليها حسب عاداتهم الحكام والقواد، الذين، فى حوالى عام ألف، أخذوا يتلقبون بلقب كتبانو (رئيس)(4). ولكن لم يتغير نهج الحكم البيزنطى فى السلب

(1) *Benedicti Sancti Andreae Monachi Chronicon*، فى كتاب بيرتز، *Scriptores*، المجلد الثالث، ص ٧٠٠. وبالنسبة لعصر المؤرخ ومكانته انظر مقدمة ناشر كتاب فى ص ٦٩٥.

(2) فى تقديم الكتاب المذكور نلاحظ أن بنديتو هذا يبدو أنه أول أو من بين أوائل الذين كتبوا عن رحلة كارلو مانيو إلى الأراضى المقدسة المزعومة. فنحن إذن وعلى وجه التحديد إزاء روايات الفروسية والشعراء التروبادور، والنبل، والفرسان الجوالين.

(3) المرجع المذكور، ص ٧١٣.

(4) تحريف للفظة *Capitaneus*، كما نَوَّه إلى ذلك دوكانج؛ أو أنها مشتقة من كلمتين إغريقيتين وهما κατά و ϖᾶν، حسب اعتقـــاد بعض علماء الدراسات الهيلينية الآخرين.

والنهب، والفساد والإفساد، والوهن والضعف. إذن فمنذ انسحاب أوتونى حتى الاحتلال النورماندى قاست تلك الولاية الأمرين من استبداد لا يطاق وجهود عاجزة ترمى إلى التخلص من ذلك النير؛ وفى بعض الأحايين ونتيجة لليأس والقنوط كان من بينهم من يستغيث بمسلمى صقلية ويستصرخهم؛ فكانوا دوماً أنصاراً أو أعداء يقاتلون فى البلاد، ما عدا فى فترات الهدنة القصيرة، ومنها هدنة واحدة مؤكدة لا نعلم تاريخ سنتها(1). ولم يحدد كُتَّاب الحوليات العربية مللهم ونحلهم؛ أما الكُتَّاب اللاتينيون فيقدمونهم لنا بإيجاز مُخل، وتواريخ محل شك وريبة، وأسماء خاطئة محرفة، وبلا أى ترابط وتسلسل: كأنهم ندبات لا نعرف أصلها ولكنها لا تنمحى من ذاكرة الناس ووجدانهم. وسنحاول إذن ترتيب الإشارات المتناثرة ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، وسنبدأ بالفترة التى سبقت حكم يوسف وسنختم حديثنا بالفترة التى تلت حكمه، إذ إنها ليست إشارات كثيرة، وحتى لا نقطع الحديث فى الفصول التالية عَمَّا وقع فى صقلية من أحداث.

إنتُهبت فى سنة ست وثمانين وتسعمائة سانتا تشرياكا أو جيراتشى(2)؛ وفى العام التالى تعرضت كلابريا لغارات أخرى؛ وفى سنة ثمان وثمانين وتسعمائة، تم الاستيلاء على كوزنسا(3) وتخريبها، وتم كذلك مهاجمة القرى القريبة من بارى واقتحامها وسيق رجالها ونساؤها أسرى وسبايا إلى صقلية(4). وفى سنة واحد وتسعين وتسعمائة كان جيش المسلمين قد عسكر فى تارانتو؛

(1) انظر ص ٣٣٨. فإنها كانت فى الفترة ما بين ٩٨٢ و٩٩٨، حيث إن يوسف لم يكن قد ترك بعد الحكم لابنه.

(2) لوبو بروتوسباتاريو، عام ٩٨٦. أستشهد هنا وفيما بعد بكتاب بيرتز، *Scriptores*، المجلد الخامس، ص ٥٥ ـ ٥٦.

(3) روموالدو سالرنيتانو، عام ٩٨٧. وهنا وبعد ذلك استشهد بموراتورى فى كتابه، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الخامس.

(4) لوبو بروتوسباتاريو، ٩٨٨.

فسارع لنجدتها الكونت أتّو ومعه حشد من أهالى بارى، فسقط فى المعركة هو وبعض رجاله(1). وعاد المسلمون فى سنة أربع وتسعين وتسعمائة إلى تلك الأصقاع؛ وضربوا عليها حصاراً استمر ثلاثة أشهر، واقتحموا عنوة وبعد معارك دامية ماتيرا، التى أضرمت فيها النيران، والتى عانت من المجاعة وقاست ويلاتها أثناء الحصار، حتى إنه يُحكى أن امرأة أكلت لحم ابنها(2). ومن ثم أخذ الإيطاليون المدحورون المقهورون فى التآمر على البيزنطيين، وقد حدث فى شهر أكتوبر من سنة ثمان وتسعين وتسعمائة أن إزمجاردو من مدينة بارى قد اجتمع مع قائد اسمه بوسيتو، الذى يبدو أنه أبو سعيد، ووصل سراً وخفيةً إلى المدينة؛ ففُتح له أحد أبوابها؛ ولكن القائد المسلم، عندما رآه يخرج من باب آخر، تراجع خشية الغدر والخيانة، أو مخافة أن تكون العملية قد أجهضت(3)؛ وبالفعل باءت المؤامرة بالفشل. وفى أعقاب ذلك، استمرت الهدنة على ما يبدو لبضع سنين، ومن المرجح أنها استمرت أمداً من الدهر مع الرئيس البيزنطى، الذى حرّض بعد ذلك المسلمين على مهاجمة البلدان المستقلة، المطلة على البحر التيرانى، وفى يوم الثالث من أغسطس سنة اثنين وألف برز المسلمون أمام بنڤنتو بجحافلهم التى من الضرورى أن نسميها جيشاً، وفى الليلة نفسها سلكوا طريق كابوا، وحاصروا المدينة؛ وبعد ذلك توغلوا حتى وصلوا إلى نابولى، ولا ندرى مدى النجاح الذى حققوه، والظاهر أنهم كانوا يفرضون الإتاوات الباهظة ثم

---

(1) لوبو بروتوسباتاريو، ٩٩١، ومؤلف مجهول من بارى فى الصفحة نفسها من كتاب بيرتز. والاسم يُكتب بطرق مختلفة على هذا النحو: *Asto, Otho, Azzo*.

(2) قارن بين: لوبو بروتوسباتاريو، ٩٩٤؛ ومؤلف بارى المجهول، ٩٩٦؛ وروموالدو سالرنيتانو، ٩٩٤.

(3) لوبو بروتوسباتاريو، ومؤلف بارى المجهول، ٩٩٨. وكان بوسيتو يُلقب بـ *Caytus*، أى القائد.

يعودون أدراجهم(1). وفى شهر مارس سنة ثلاث وألف، توغلوا داخل الأراضى الواقعة فى خليج تارانتو، وضربوا حصاراً على مونتى إسكاليوزو(2)، ولكن حصارها لم يؤت ثماره. وكانت حرباً، ولم تكن غارة للسلب والنهب، تلك التى أعقبت ذلك سنة أربع وألف، وكان المسلمون فيها تحت إمرة القائد صفى، المرتد عن دينه، الذى بحلول شهر مايو خيم وعسكر فى بارى، وحبس فيها جريجوريو رئيس الولاية؛ وكان يعتزم مهاجمة حاضره الولاية لولا جنود ڤنيسيا، الذين كانوا على أهبة الاستعداد لمساعدة الامبراطورية اليونانية ومناصرتها عندما يتم تهديد أمن الأدرياتيكى. ولذا أبحر بجيشه بيترو أورسيولو دوج ڤينيسيا فى العاشر من شهر أغسطس، ووصل إلى بارى يوم السادس من سبتمبر، ووجد نفسه وجهاً لوجه أمام الأعداء، الذين حاولوا بلا طائل تثبيت خيلهم على ساحل البحر وقامت سفنهم بالاشتباك. فقام الدوج بتزويد بارى بالمؤن والإمدادات اللازمة، وأعد كل شئ للخروج من الضاحية والقيام بمعركة بحرية فى الوقت نفسه. ولمدة ثلاثة أيام دار اشتباك بالأيدى وبالأسلحة البيضاء والسهام والنبال التى تحمل رؤوسها كتلاً من النار؛ وعندما أدرك صفى سوء العاقبة، رفع معسكره فى هدوء ليلة الثانى والعشرين من سبتمبر(3).

ضئيلة وقليلة العدد كانت القوات المتحاربة، ولكن

---

(1) قارن بين: النصوص المختلفة من أخبار **سانتا صوفيا دى بنڤينتو** *Cronica di Santa Sofia di Benevento*. ويحمل أحدها وبالتحديد تاريخ اغسطس ١٠٠٢، الخمسعشرية الخامسة عشرة، فى كتاب موراتورى، *Antiquitates Italicæ*، المجلد الأول، ص ٢٥٧؛ أما باقى النصوص الأخرى فنجدها فى كتاب بيرتز، *Scriptores*، المجلد الثالث، ص ١٧٧. انظر أيضاً روموالدو سالرنيتانو، ١٠٠١.

(2) لوبو بروتوسباتاريو، ومؤلف بارى المجهول، ١٠٠٣.

(3) قارن بين: چوڤانى دياكونو ڤينيسيا، المعاصر لهذه الأحداث، فى كتاب بيرتز، *Scriptores*، المجلد السابع، ص ٣٥؛ ومؤلف بارى المجهول، عام ١٠٠٣، فى كتاب موراتورى، *Antiquitates Italicæ*، المجلد الأول، ص ٣٣؛ ولوبو بروتوسباتاريو، عام

النصر كان حدثاً جللاً، ففى تلك الموقعة البحرية التى دارت رحاها يوم السادس من أغسطس سنة خمس وألف فى ريجو؛ قام أهالى بيزا، الذين كانوا حينئذ أنداداً لڤنيسيا، بكسر شوكة المسلمين(1) واستئصال شأفتهم. وفى شهر أغسطس سنة تسع وألف، نُقضت الهدنة التى أُبرمت مع القائد ساتو، وفى رأيى أن اسمه سعيد، فاحتل المسلمون مرة أخرى كوزنسا(2). وبعد ذلك نقرأ أن رجلاً يُدعى إسماعيل قاتل فى صفوف السراتشينى سنة إحدى عشرة وألف فى مونتى بيلوزو؛ وأن رجلاً يُدعى بازيانو قد سقط صريعاً فى ميدان القتال وأن إسماعيل دخل قلعة بارى(3)؛ وفى هذا النص يبدو أنه يجب قراءة اسم ميلو بدلاً من إسماعيل(4): ولست أدرى إذا كان هذا الاسم ميموناً مباركاً أو مشئوماً تعساً، ولكن من المؤكد أنه كان عظيماً ومبجلاً، ومن المرجح أنه كان اسماً لرجل من أبناء مدينة بارى، وأنه ثار وانتفض كما فعل إزماجاردو ضد استبداد البيزنطيين وعسفهم، ولذا اشترى بثمن بخس سيوف النورمان. ولا يتطرق الشك إلى نفوسنا فى أن الأمراء الكلبيين قد مدوا يد

١٠٠١ أو (١٠٠٢). وتاريخ عام ١٠٠٤ نجده عند چوڤانى دياكونو، وكذلك دقائق العملية وتفاصيلها. انظر أيضاً داندولو، الكتاب التاسع، الفصل الأول، الجزء ٤٤، فى كتاب موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الثانى عشر، ص ٢٣٣، ويحمل تاريخاً خاطئاً.

(1) *Chronica Varia Pisana*، فى كتاب موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد السادس، ص ١٠٧ وص ١٦٧؛ ومارانجونى فى *Archivio Storico Italiano*، المجلد السادس، الجزء الثانى، ص ٤. والتاريخ المذكور فى كل هذه المراجع هو عام ١٠٠٦، وهذا التاريخ يجب طرح عام منه؛ إذ أن هذا حدث فى أغسطس، ويتم حساب العام حسب تقويم بيزا.

(2) لوبو بروتوسباتاريو، عام ١٠٠٩.

(3) *Chronicon Barense*، فى كتاب موراتورى، *Antiquitates Italicæ*، المجلد الأول، ص ٣٣، عام ١٠١١، والبدائل التى ذكرها بيرتز فى كتابه والتى تمت مقارنتها من لوبو بروتوسباتاريو.

(4) وهذا رأي دى ديوميو، *Annali di Napoli*، المجلد السابع، ص ١٢ ـ ١٣، عام ١٠١٠.

العون وأشعلوا نار هذه الحركات التى وقعت فى بوليا: وإن كان أنصارهم وأتباعهم فى الحرب مجهولين وغير معروفين، فإنه يكفى الاهتمام الذى أولته أخبار بوليا لملاحظة وتتبع التغيرات والاختلافات التى طرأت على إمارة المسلمين بدءاً من سنة خمس عشرة وألف وحتى سنة عشرين وألف، غافلة تمام الإغفال تلك الأحداث التى سبقت أو أعقبت تلك الفترة(1).

ونتيجة لثورة الجند وانتفاضتهم التى وقعت فى سنة خمس عشرة وألف، وبالتالى تم تقليص قوات الكلبيين وتخفيض أعدادها، فإنه يُفترض أن المسلمين الذين نزلوا فى سنة ست عشرة وألف أناخوا فى أراضى سالرنو وكانوا من أفريقية وليس من صقلية؛ وقد حاصروا حاضرتها وضيقوا عليها فترة من الزمن بسفنهم وجندهم؛ ولكن فى نهاية المطاف إضطروا إلى ترك هذه العملية(2). ويروى آخرون أن أربعين رجلاً من أشراف النورمان تواجدوا بالمصادفة فى سالرنو، أثناء أوبتهم من رحلة الحج إلى بيت المقدس،

---

(1) لوبو بروتوسباتاريو، فى كتاب بيرتز، *Scriptores*، المجلد الخامس، ص ٥٧، عام ١٠١٥.

"Apparuit Stella Cometæ mense februarii et Samuel rex obiit et regnavit
"filius ejus... 1016. Occisus estipse filius praefati Samuelis suo conso
"brino filio Aronis et regnavit ipse... 4020. Descenderunt Sarracent cum
"Rayca et obsederunt Bisinianum et apprehenderunt eam et mortuus est
"ipse admira (amira, amita etc.) et Melis dux Apuliae".

إذن فتنازل يوسف عن الحكم قبل عام ١٠١٥؛ وقتل جعفر لأخيه فى عام ١٠١٥؛ وطرده فى عام ١٠١٩ الذى ستقرأه فى الفصل التالى، كل ذلك يتوافق إلى حد كبير مع الأحداث التى أشار إليها لوبو ونوّه عنها: ولا يهم عدم تحرى الدقة فى التفاصيل ولا الخطأ فى الأسماء. ولذا أعتقد أن هذه الأخبار تقصد بالحديث الكلبيين فى صقلية، وليس مغامراً من المسلمين حاول الاستيلاء على كلابريا وهو افتراض وتصور لا يستند إلى أى أساس من الصحة.

(2) قارن بين: لوبو بروتوسباتاريو، ومؤلف بارى المجهول، عام ١٠١٦، و *Annali di Santa Sofia di Benevento*، فى كتاب بيرتز، *Scriptores*، المجلد الثالث، ص ١٧٧، نفس العام.

وأنهم عندما رأوا صلف المسلمين وعنتهم وخوف أهالى سالرنو وهم يرتعدون فرقاً حتى إنهم شرعوا فى دفع الجزية، عندئذ غلى الدم فى عروقهم وطلبوا خيلاً وعتاداً، وتعاهدوا على تحرير المسيحيين وتخليصهم بقوة السلاح؛ فوثق الناس فى هؤلاء الرجال شديدى البنيان الذين تنم ملامحهم عن أنهم مقاتلون بالسليقة: ولذا هجموا بغتة على الأعداء وكروا عليهم مهاجمين وشتتوا شملهم وقتلوا منهم كثيرين. ويبدو لى أن هذه الرواية يمكن قبولها والأخذ بها، إذا ما أضفنا أنه قد انضم إلى هذه الحفنة من الرجال الغرباء خيل وجند إمارة سالرنو، وإذا ما أسقطنا بعض الأصفار من عدد السراتشينى البالغ عشرين ألفاً، وهذا العدد قرأناه فى إحدى المصنفات. وقد رفض هؤلاء المحاربون الصالحون الأتقياء قبض أية أعطية لقاء صنيعهم، واستأنفوا سيرهم ورحلتهم بالرغم من توسلات الناس ووعودهم لهم: ولذا أنفذ أمير سالرنو معهم رسولاً ابتاع بأمواله بضائع أكثر ترفاً، وحمل إلى نورماندیا بعضاً من خيرات الله التى ينعم بها الناس فى إيطاليا مثل: أفخر وأفخم الثياب الأرجوانية اللون، وأعنة الخيل المصفحة بصفائح الذهب، والبرتقال، وحلوى اللوز والجوز(1). فهرع الغرباء يلتهمون هذه الخيرات؛ حتى إنهم التهموا معها اليد التى قدمتها لهم وافترسوها.

---

(1) قارن بين: أماتو، *L'Ystoire de li Normant*، الكتاب الأول، الفصول ١٧، ١٨، ١٩؛ وليونى دى أوستيا، الكتاب الثانى، الفصل ٣٧، فى كتاب بيرتز، *Scriptores*، المجلد السابع، ص ٦٥١ ـ ٦٥٢؛ وفى هذين المصدرين نلاحظ أن أماتو، وهو الأقدم، يذكر أحداثاً قليلة تتسم بطابع روايات الفروسية: وفضلاً عن هذا نجد أن كليهما يستقيان مادتهما من المصدرنفسه. ومن بين الأحداث الهامة فإن الاختلاف بينهما يكمن فى أن أماتو يقـول بوصـول النورمـان أثنـاء الحصـار بينمـا يقول ليونى بمجيئهم قبله؛ وأن أولهما يفترض وصول السراتشينى لجباية الجزية المعتادة التى توقفت للأبد بعد تلك العملية، بينما الآخر يعزو الحدث إلى أنه عملية من العمليات الهجومية المألوفة والتى كانت تنتهى بدفع الإتاوة. ويتفقان تقريباً فى تاريخ الغزوة، فيقول أحدهما إنها وقعت قبل عام ألف ويروى الآخر أنها حدثت قبل ست عشرة

وبينما كانت جيوش النورمان تبدأ فى الظهـــور فى بوليا بفرق ضئيلة العدد، فإن المتمردين نظراً لحاجتهم الماسة لمساعدات أقوى، لم يتوانوا عن طلب مسـلمى صـقلية، الذين فى سنة عشرين وألف اتفقـوا مـع رجـل من بوليا يُدعى رايكا، وقاموا بحصـار

سنة على وجه التقريب من عام ١٠١٧. وبما أن كليهما ينسبان قدوم الجند المرتزقة المغامرين الذين ظهروا فى إيطاليا عام ١٠١٧ إلى الإغراءات التى قدمها رسول سالرنو وسفيرها، هكذا بدا لى ضرورياً الأخذ بالتاريخ الذى ذكره لوبو بروتوسباتاريو وبأخبار سانتا صوفيا دى بنفينتو *Cronica di Santa Sofia di Benevento*، التى بالإضافة إلى مكانة مصنفيها، فإنها تتلائم أيما ملائمة مع معرفة هذا الحدث الذى لا يمكن أن يستمر ست عشرة سنة. وفضلاً عن هذا فإن تاريخ بداية القرن قد أُشير إليه بشكل غامض ومبهم فى المذكرات التى كتبها أماتو فى حوالى عام ١٠٨٠، وليونى دى أوستيا فى بدايات القرن الثانى عشر.

ولم أنوه عن المؤلفين اللاحقين ولم أشر إليهم، من أمثال أودوريكو فيتالى (المتوفى عام ١١٤١)، والذى قال إن أعداد السراتشينى كانت ٢٠.٠٠٠ بينما كانت أعداد النورمان ١٠٠، وأن من بينهم دروجونى ... إلخ. وعلى النقيض من ذلك، فالظاهر لى أن النقاد المحدثين قد أنكروا إنكاراً تاماً حكاية الأربعين حاج، وهذه الرواية، عندما نطرح منها الكلام المنمق الذى تتميز به المائدة المستديرة، سنجد أنه ليس بها ما يتناقض مع سجايا الناس والأزمان.

ومن الجدير بالإشارة أنه فى أخبار سانتا صوفيا دى بنفينتو، فى كتاب بيرتز، *Scriptores*، المجلد الثالث، ص ١٧٦ ـ ١٧٧، نقرأ عن الغزوات والغارات المذكورة هنا فيما بعد، والمأخوذة من إضافات وردت فى طبعة براتيللى، المجلد الرابع، ص ٣٥٨، والتى لا توجد فى المخطوطات الأخرى، انظر فى مجلد بيرتز المذكور، ص ١٧٣، تنويه المحقق الألمانى، الذى يبدو لى أنه لم يذكر أن الإضافات قد كُتبت بأيدى المؤلفين أنفسهم الذين حرَّفوا أخبار *Cronica della Cava*، واختلقوا ولفقوا أخبار كلابريا وأخبار دوقات نابولى ... إلخ. وعلى أية حال فإننى لا آخذ تلك الأخبار ولا أقبلها على علاتها وعلى أنها صحيحة وهى:

- عام ٩٨٢ - بعد أن حاقت الهزيمة بأوتونى، انتهب السراتشينى جميع أرجاء كلابريا (ونحن نعلم أنهم عادوا أدراجهم على وجه السرعة إلى صقلية).
- عام ١٠٠٢ - وقبل زحفهم على بنفينتو (الوارد ذكره فى مختلف الطبعات)، وصلوا إلى بارى واستولوا على أسكولى وقلعة سانت أنجلو وأضرموا النار فيهما.
- عام ١٠٠٧ - قاموا باجتياح كابوا مرة أخرى ودمروها.
- عام ١٠٠٩ - قاموا بالاستيلاء على بنونتو وكاستروم ناتيى.
- عام ١٠١٦، أثناء حصارهم لسالرنو، عاثوا فساداً فى الأرض وخربوها حتى وصل تخريبهم إلى أجروبولى وكاباتشو.

بزينيانو(1) والاستيلاء عليها: والظاهر أنها أول غزوة يقوم بها الأمير الأكحل. وبعد ذلك نقرأ أنه فى شهر يونية من سنة ثلاث وعشرين وألف ضرب قائد يُدعى جعفر معسكراً فى بارى وأقامه مع رايكا؛ ثم ارتحل فى اليوم التالى، واقتحم بالاشانو(2): وفى هذا النص يجب تصحيح الاسم إلى ابى جعفر، ومن المرجح أنه هو الأكحل نفسه(3). ومن الغزوات التى خاض غمارها هذا الرجل، وما قام به من إضرام للنيران ومن نهب وانتهاب، وتخريب وتدمير فى كلابريا، والتى أشارت إليها إشارة عابرة الحوليات العربية(4)، فإننا نجهل تفاصيلها ودقائقها، حيث لا توجد أخبار عن كلابريا مكتوبة بأيد مسيحية فى ذلك العصر، ولكن فقط بعض المذكرات عن بوليا. وفى سنة تسع وعشرين وألف عاود جعفر، أو الأكحل، مع رايكا غزو بوليا واقتحامها؛ فضرب حصاراً على قلعة أوبيانو، ثم انسحب بعد إبرام اتفاق مع أهلها يقضى بأن يأخذ الغرباء أسرى، والظاهر أن المقصود بذلك الحامية البيزنطية المرابطة فيها(5). وفى هذه الأثناء وكانت على وشك الوقوع فى صقلية الفتن والاضطرابات التى أطاحت بأسرة الكلبيين وبسيادة المسلمين وهيمنتهم، عندما قام المسلمون فى شهر يونية سنة واحد وثلاثين وألف باحتلال كاسّانو، وأوقعوا فى الثالث من شهر يوليو

---

(1) لوبو بروتوسباتاريو، فى كتاب بيرتز، *Scriptores*، المجلد الخامس، ص ٥٧.
(2) المصدر نفسه، والاسم قد كُتب *Iaffari, Zaffari* ... إلخ. ويضاف إلى ذلك اسم كريتى *Criti* الذى على ما يبدو يجب نطقه وقراءته كايتى *Caiti*.
(3) أحمد بن يوسف، الملقب بالأكحل، يدعوه شيدرينو دائماً بأبى الفار *Apollofar*. وفى مصدر آخر تحدثنا الحوليات الإسلامية أن ابنه جعفر ظل يحكم صقلية عندما ذهب هو لخوض حرب فى شبه جزيرة إيطاليا. ولكن الظاهر أن كُنيته، التى كان العرب يُكنونه بها، هى أبو جعفر.
(4) قارن بين: ابن الأثير، تحت عام ٤٨٤، المخطوطة *A*، المجلد الرابع، الورقة ١٣٤ الوجه الأول وما بعدها؛ وأبو الفدا، *Annales Moslemici*، المجلد الثالث، ص ٢٧٤ وما بعدها؛ والنويرى، فى كتاب دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٢٢.
(5) لوبو بروتوسباتاريو، الموضع المذكور.

الهزيمة بالرئيس بوثو(1).

ومنذ ذلك الحين فصاعداً لم نسمع عن قيامهم بعمليات هجوم واقتحام فى شبه جزيرة إيطاليا، ولم يحدث ذلك حتى يمكننا افتراضه، إذ يجب علينا أن نضع فى الاعتبار الاضطرابات التى وقعت فى الجزيرة، وانتصار مانياتشى، وتزايد أعداد الجند المرتزقة من النورمان فى بوليا وكلابريا. والمسلمون الذين ظلوا فى تلك الأصقاع حتى تم الاستيلاء على صقلية وانتزاعها، كانوا من الفارين الهاربين أو من التُجار. ومن المؤكد أن هؤلاء كانوا هم الأفراد المقيمين فى ريجو، وهم الذين فى سنة ستين وألف تحالفوا مع المسيحيين ضد وطنهم فى موقعة بحرية غير موفقة باءت بالفشل، وقد فعلوا ذلك تنفيساً عما يعتمل فى صدورهم من غل وضغائن دفينة أو إظهاراً لولائهم وإخلاصهم للسادة الجدد(2). وفى ذلك العهد استقر فى سالرنو وأقام بها بعض المبعدين والمنفيين الآخرين الذين أصابتهم المحن، وبعض الرحالة من التجار والعلماء، وسنتحدث عن ذلك فى موضعه. ولكن الضربة التى ألهبت ظهر إيطاليا طيلة قرنين من الزمان من نهر التيبر وصولاً إلى فارو، قد تحطمت وانكسرت قبل منتصف القرن الحادى عشر.

ومن المؤكد أن المصائب والكوارث التى مُنيت بها كانت أشد وطأة وأقسى مما ترويه لنا حتى المذكرات، القليلة والمبعثرة، الخاصة بقرنين من الزمان يغلفهما تعتيم دامس وغموض رهيب؛ وبعض أخبار تلك الفترة نجدها بلا تاريخ وبلا تحقق من الأسماء الطبوغرافية فى سير القديسين؛ ولذا لا يمكننا التعويل والاعتماد عليها(3). وخير شهادة تقدمها لنا الأسماء التى نقرأها عموماً فى

---

(1) لوبو بروتوسباتاريو، الموضع المذكور.
(2) اماتو، *L'Ystoire de li Normant*، الكتاب الخامس، الفصل الحادى عشر.
(3) انظر تراجم سان نيلو، الكتاب الرابع، الفصل السادس، ص ٣٢١ وما بعدها من هذا المجلد؛ وتراجم سان ڤيتالى، وسان لوقا دى ديمينا، وسان چوڤانى تريستا، الكتاب الرابع، الفصل الحادى عشر.

الخرائط الجغرافية عن أماكن لم تنوه عنها ولو بكلمة واحدة الحوليات المسيحية ولا الحوليات الإسلامية: وهذه الأسماء، وغيرها كثير نجهله، وكثيراً منها تبدد وتلاشى، وسبب ذلك يرجع إلى الأحداث التى وقعت فى القرنين التاسع والعاشر، وليس فى القرن الثالث عشر، حينما كانت الفرق الإسلامية التابعة لفدريكو الثانى ومانفريدى لا تقوم بأى إجراء أو عمل إلا وقام كُتاب البلاط على التو بتتبع آثاره. والظاهر أن مونتى سراتشينو (جبل المسلمين) كان مستقراً وموئلاً للمسلمين فى القرن التاسع، وكان هذا الاسم يُطلق على الساحل الجنوبى لجارجانو(1)، وشمال نتوء جارجانو الواقع بين ڤيستى وبحيرة ڤارانو، كان يوجد كذلك مكان لتجمع السراتشينى. وثمة جبل آخر للسراتشينى يرتفع ويطل شامخاً على بلدية سان بارتولوميو دى كابيتاناتا على الجانب الآخر لفورتورى. وهناك جبل آخر يحمل اسمهم فى كلابريا تشيتريورى، يقع غرب القلعة الإمبراطورية. وفى الإقليم نفسه كان يُطلق اسم سراتشينو (إسلامى) على إحدى البلديات الواقعة جنوب غرب كاستروڤيللارى ببضعة أميال؛ ويصب فى بحر إيونيو، بين أمـيندولارا ومصب نهر كراتى، نهير سراتشـينو؛ ويجواره وعلى ساحل البحر يقف شامخاً برج سراتشينو كما يطلقون عليه. واسم البرج السراتشينو نفسه نلمحه وتقع عيوننا عليه فى الخرائط التى يرجع تاريخها للقرن الثامن عشر والخاصة بكلابريا تشيتى يورى، الواقعة بين لونجوبوكو وبوكيليرو. وحتى فى الدولة الباباوية التى تقع على بُعد بضعة أميال

(1) لياندرو ألبرتى، *Descrittione di tutta Italia*، ڤينيسيا ١٥٨٨، الورقة ٢٤٥ الوجه الثانى، يعتقد صحة ذلك، ويضيف قائلاً: «وحتى وقتنا الحاضر نشاهد مقابرهم المحفورة فى الأرض وذلك حسب طقوسهم السيئة وإحتفالاتهم الدنسة». ولكن «الطقوس السيئة» عند المسلمين تعنى «دفن جثث موتاهم ومواراتها فى الثرى وليس وضعها فى قبور حجرية». ولذا فليست هذه آثارهم التى خلفوها لنا على جبل جارجانو على وجه اليقين.

شمال شرق تيڤولى كانت هناك أرض تحمل اسم السراتشينى جاثمة عليها، وجنوبها ثمة أرض أخرى صقلية: وهى أسماء تركت بمحض المصادفة فى بداءة القرن العاشر من جانب جند جريليانو، أو فى نهاية القرن الحادى عشر من قبل مسلمى صقلية، الذين أخذهم روبرتو جويسكاردو وساقهم معه لتخليص البابا إلدبراندو من أيدى الرومان والألمان.

الفصل الثامن

وبعد مضى ثمانى سنوات على حكمه المزدهر الملىء بالرخاء، أُصيب يوسف بفالج فى جانبه الأيسر، ولذا سلَّم الإمارة لابنه جعفر، حيث إنه كان قد حصل له من مقر الخلافة فى مصر على وثيقة تخوله الحق فى أن يحل محله(1). وحينئذ أُرسلت إليه باسم الحاكم بأمر الله شارات الحكم، تحمل ألقاب تاج الدولة وسيف الملة(2). وهذه إجراءات إدارية إذ يبدو أن الخلفاء الفاطميين فى ذلك الحين لم يزعموا مزاولة سلطانهم على صقلية أو اختيار أمرائها وإنما أرادوا فقط الاحتفاظ باحتفالات تنصيبهم، كما كانوا يفعلون فى إفريقية؛ ولم يمنع هذا الأمراء الزيريين من منازعتهم على بعض المدن الحدودية بالحجة والسيف(3). وفى حقيقة الأمر ففى أثناء حياة الحاكم، التى نعرف كثيراً من تفاصيلها ودقائقها، لم تُذكر ولو كلمة واحدة عن صقلية أو حكمها أو أمرائها؛ اللهم إلا إذا ظهرت أسماء بعض الصقليين، من أهالى صقلية الأصليين أو من النازحين إليها، فى تاريخ مصر السياسى والأدبى، مثلهم مثل الغرباء من العراق، وسورية، وإفريقية. وسنتحدث عن هؤلاء الصقليين فى الموضع

---

(1) يؤكد النويرى أن الإنابة قد مُنحت قبل تنازل يوسف عن الحكم. والدليل على ذلك أيضاً قصيدة للشاعر عبدالله التنوكى التى تحدثنا عنها في الفصل السابع، ص ٣٤١، انظر الهامش ١.

(2) قارن بين: ابن الأثير، وقائع عام ٤٨٤، المخطوطة *A*، المجلد الرابع، ورقة ١٣٤ الوجه الأول وما بعدها؛ وأبو الفدا، *Annales Moslemici*، عام ٣٣٦، المجلد الثانى، ص ٤٤٦ وما بعدها، وعام ٤٨٤، المجلد الثالث، ص ٢٧٤؛ والنويرى، فى كتاب دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٢٠؛ وابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile* ، ص ١٧٨؛ وابن أبى دينار، المخطوطة، الورقة ٣٧ الوجه الثانى وما بعدها.

(3) أنظر هنا فيما بعد، ص ٣٦٤.

المناسب. ومن ناحية أخرى فإن بلاط الأمراء فى بالرمو كان ينظم أموره تنظيماً كاملاً وكأنه بلاط أمراء مستقلين. وأثناء ولاية جعفر تم استحداث منصبى الوزير والحاجب، أى الوزير وكبير الأمناء؛ وهذان المنصبان لم يكونا موجودين مطلقاً لدى أمراء الأقاليم والأمصار، الذين لم يكن فى مقدورهم استحداث ذلك. وكان الشعراء فى قصائدهم التى ينظمونها فى يوسف وابنه يدعون كلاً منهما ملكاً، وهو لقب جديد ودخيل على الإسلام، وكانوا يكتبون أشعارهم وكأن الخلافة فى مصر(1) لا وجود لها فى العالم.

وقد ورث جعفر عن أبيه، مع الإمارة، ما يمكن انتقاله وتوارثه عن طريق التربية الكريمة، إلا أنه لم يرث منه سمو النفس ورجاحة العقل. وقد نظم أبياتاً شعرية ركيكة، والفضل فى دخول اسمه فى مختارات العرب قصيدة ساخرة ولاذعة نظمها أثناء إقامته فى مصر (١٠٣٥)، التى قضى فيها ناعماً برغد العيش البقية الباقية من حياته عندما طردوه من صقلية: وفى قصيدته هذه نجد طباقاً مبتذلاً يدور حول رجلين من رجال البلاط شاهدهما وهما يرتديان ثياباً من الديباج(2)، أحدهما يرتدى ديباجاً أحمر اللون بينما ديباج الآخر أسود؛ وقد حظى التلاعب بالألفاظ بالإعجاب الشديد فى مجالس العرب ومجامعهم فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر(3). هذا فضـلاً عن أنه كان يتسم بالميل إلى السكون والدعة، والحــرص والشح، والقسوة والفظاظة: فعلى يديه وقعت أسرة الكلبيين فى الهوة التى كانت تسقط فيها كل الأسر الإسلامية الحاكمة، مما أدى إلى انهيارها، وخلفها وأعقبها فى الغالب بعد جيل أو جيلين من المحاربين الأشوريون؛ وكأن تدهور الدماء الملكية

---

(1) انظر القصيدة المذكورة فى الفصل السابع، ص ٣٤١ وما بعدها.

(2) حُلة حريرية، وبخصوصها انظر الهامش ٢، ص ٥٥ من هذا المجلد.

(3) عماد الدين **الخريدة**، مخطوطة باريس، *Ancien Fonds*، ١٣٧٦، ورقة ٤٠ الوجه الثانى، وابن خلكان، طبعة وستنفيلد، الجزء العاشر، ص ٣٢، الحياة٨٠٣.

قد حدث بسرعة داخل غرف الحريم حيث تفنى قوة الأب ويترك الأبناء الضعفاء بدورهم ذلك النذر اليسير من علو الهمة الذى تبقى فى سلالتهم.

ومنذ سقوط أبى القاسم شهيداً فضل أمراء صقلية التمتع بلذائذ الحياة فى قصر الإمارة فى بالرمو، على الجهاد والقتال في شبه جزيرة إيطاليا. وهكذا كان حال يوسف الطيب، وكذلك جعفر، الذى يبدو أنه شيد قلعة مارى دولشى بين المياه المتدفقة والبساتين الغنَّاء التى أضحت بعد ذلك مصدر بهجة لملوك النورمان(1). وكان القادة الذين يُرسلون للحرب والقتال، يعودون وهم يحملون القليل من الغنائم والأسلاب، ويجرون وراءهم أذيال الخزى والعار لانسحابهم من بارى (١٠٠٤) ولهزيمتهم فى ريجو (١٠٠٥): فالأمير المتنعم والمرفه والوزراء الساعون إلى المكاسب قد فتحوا الطريق ويسَّروه لظهور الطموحات العائلية. ومن ثم تآمر على، ابن يوسف، على أخيه مع المتمردين والعبيد الزنوج؛ وتخندق معهم فى أواخر شهر يناير من سنة خمسة عشرة وألف، فى مكان ليس ببعيد عن بالرمو، وأعلن عصيانه. فأرسل إليه جعفر دون إبطاء وعلى عجل لقتاله وملاقاته جند حاضرته وقواتها(2): وفى الثلاثين من شهر يناير وقعت الواقعة ودار القتال بين الفريقين، وانتهى بإراقة دماء الكثير من المتمردين والثائرين وفر مَنْ بقى منهم على قيد الحياة وولى هـــارباً وألقى القبض على علي، وأقتيد إلى أخيــه، الــذى أمــــر بقتلــــه، غير عابئ بدموع أبيـــه المفلوج: وهكذا وفى خلال ثمانية أيام راهن

(1) ابن جبير فى، *Journal Asiatique*، المجموعة الرابعة، المجلد السابع (١٨٤٦)، ص ٧٦، يُطلق اسم قصر جعفر على المقر الملكى الواقع فى مارى دولشى. ومن الأمراء الثلاثة الذين يحملون الاسم نفسه، لم أر منهم إلا ابن يوسف الذى كان له من القريحة وفسحة الوقت ما مكنه من تأسيس هذا القصر الملكى، الذى سنتحدث عنه فى الكتاب السادس.

(2) حسبما جاء فى كتاب ابن الأثير نجد كلمة «جند»، وحسبما قال النويرى نجد لفظة عسكر أى «جيش» وهى لفظة عامة يمكن أن تشمل وتتدرج تحتها أيضاً جند البلديات إضافة إلى جند النبلاء وأشراف القوم.

ذلك الشـــاب الأرعن على رأسه وعرضها للخطر ففقدها. وقتل جعفــــر العبيد، وأفنـــاهم عن بكرة أبيهم، وطرد البربرَ وأسرهم من الجزيرة، ولم يستثن منهم أحداً. فآل بهم المـآل إلى إفريقية(1).

وتعطينا الأخبار وميضاً خافتاً غير معتاد عن أسباب وقوع هذه الأحداث، فتضيف قائلة إنه تبقى مع جعفر جند صقليون فقط، ولذا تقلص عدد عساكره، فتجرأ الصقليون على حكامهم(2). ومن ثم نجد أن السود كانوا هم الجنود المرابطون. أما البربر فكانوا يشكلون البقية الباقية من المستوطنين الذين طردهم خليل بن اسحق (٩٤٠)، أو بالأحرى أنهم ما تبقى من الجند الذين قدموا ونزحوا من إفريقية أثناء فترة حكم أول أميرين من أمراء الكلبيين،

(1) قارن بين: ابن الأثير، والنويرى وابن خلدون، المواضع المذكورة؛ وعبارة ابن خلدون: *"maisil epargna ses partisans"* جاءت من قراءه خاطئة للنص، ويجب تصويبها وتصحيحها على هذا النحو: «فطردَ البربر والعبيدَ السود». ومن الجدير بالإشارة والتنويه أن النويرى قال إن المعركة وقعت يوم الأربعاء الموافق السابع من شهر شعبان سنة ٤٠٥ هجرية؛ وهذا اليوم يوافق، حسب الحساب الفلكى، يوم الأحد ٣٠ يناير، وطبقاً للحساب القمرى يوافق يوم الأثنين ٣١ يناير عام ١٠١٥م. ومن ثم فإن يوم الأسبوع ذُكر خطأً فى النص؛ أو جاء الخطأ فى حساب غرة الشهر العربى من اليوم الذى يُرى ويُشاهد فيه بالعين المجردة ميلاد قمر جديد، وهذا ما لاحظه التقويم وركز عليه. وعلى أية حال، فإن تاريخ ١٦ فبراير الذى نقرأه فى كتاب مارتورانا والذى نقله ونريش نقلاً أميناً، أتى من خطأ ورد فى كتاب دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٢١، والهامش C. ويرى مارتورانا وونريش أنجزءاً من المتمردين كان من الإفريقيين والجزء الأخر من عبيد على؛ ولكن النصوص تقول عن الأفارقة إنهم بالتحديد كانوا من البربر، أما عن الآخرين فتقول إنهم عبيد، أى موالى سود؛ ولم تضف أتهم كانوا عبيداً لعلى، ولكن الأحداث تُظهر وتُبين بجلاء أنهم كانوا جنداً مرابطين.

ولايستحق البحث والتمحيص الحدث الذى أورده رامبولدى فى كتابه، **حوليات إسلامية**، عام ١٠٠٢، وفيه قال إن الأمير «تاج الدولة بسبب حكمه الظالم وفظائعه وشنائعه الجسام» تم عزله وخلعه وحل محله أخوه أحمد. وهذه مفارقة تاريخيه من مفارقات الثورة التي شبت فى عام ١٠١٩ واستعر أوراها، وكاتب الحوليات لم يتنبه لذلك، فنقلها بعد ذلك فى حولياته.

(2) ابن الأثير والنويرى، الموضعان المذكوران.

والظاهر أنهم كانوا أيضاً من الجند المرابطين: وكانت فرق جند يحتفظ بها الأمراء عندهم لتقوم بخدمتهم فى داخل قصورهم وخارجها، ويحصلون على رواتبهم باستلامهم بشكل مؤقت ضياعاً، أو نقصد أن نقول أراضي أميرية: وكانوا أعداداً قليلة من الناس، حتى يمكن طردهم منها بسهولة ويسر. واغتيال على وقتله كان إذن نتيجة مؤامرة قام بها الجند. وبالقتل والتنكيل والإبعاد والإقصاء أراد جـعفر أن ينتقم ويثـأر لنفسه ويؤمن جانبه؛ غير أنه لم يتبـادر إلى ذهنه ولم يدر بخـلده أن بقاءه بين قوات أولئك الذين ثبتـوا أقدامه على عرش البلاد، لا يمكنه من إسـاءة معاملتهم دون تعريض نفســه للخطر.

والظاهر أنه لم يفكر إلا فى أبهة الإمارة والتلذذ بلذائذها ونعيمها، وألقى على الآخرين من رجاله تبعة العناية بتدبير المال اللازم لنفقاته ومصروفات البلاد. ومن سوء حظه وطالعه أنه عرف كاتباً يُدعى حسـن بن محمد الباجى، نسـبة إلى مدينة باجة فى إفريقية(1)، فجعله وزيراً. واتبع جعفر نصائحه ومشورته، ولذا أمر بخصم الخراج المفروض على الغلال والفواكه بنسبة عشرة فى المائة، وذلك بدلاً من الضريبة القديمة الثابتة غير المتغيرة والمضـروبة منذ أمد بعيد على ما تغـلـه الأرض المستبتـة المحروثة(2)؛ وزعم أنه يتبع التقليد العام السائد فى البلدان الإسلامية(3). والمقصود بذلك الأراضى المفروض عليها خراجاً دائماً: وكان هذا عملاً وإجـراءاً جائـراً عسوفاً؛ إذ لم يكن من السهل

---

(1) وهى مدينة تقع على سلسلة جبال الأوراس؛ وفى الوقت الحاضر هى من أرباض مدينة قسطنطينة.

(2) زوج البقر. ومما لا ريب أنها مساحة الأرض التى يمكن حرثها بالمحراث فى الموسم الواحد. انظر الكتاب الأول، الفصل السادس، المجلد الأول، ص ٢٢٥، الهامش ١.

(3) قارن بين: ابن الأثير والنويرى، الموضعين المذكورين؛ أولهما يستخدم لفظة غلات، أى «ما تغله الأرض»، أما الثانى فيستعمل اللفظتين طعاماً وثمراً، والأولى تعنى قمحاً، والثانية ثمار الأشجار أو الشجيرات، ولكنها تشمل الزيتون والعنب.

الميسور فى الشرع الإسلامى تغيير مقدار أو طريقة جباية الخراج الذى تم إقراره عند الفتح والذى يختلف باختلاف البلدان، وبالتالى فلم يكن لأعراف الأماكن الأخرى سواء كثرت أم قلت، أن تسرى على صقلية(1). ومن ثم فلا حاجة بنا لإظهار أن هذه البدعة زادت من عبء الخراج، عندما أراد الوزير والأمير إقرارها، وثار مالكو الأراضى وفعلوا ما فعلوا. غير أن الوزير زاد الطين بلة إذ عامل بفظاظة وغلظة القادة والشيوخ، أى رؤساء الجند من الأسر النبيلة والأعيان والوجهاء من علية القوم. فكان من البديهى أن يلتجأوا إلى الأمير ويستغيثوا به، فتحدث وتصرف معهم مستأسداً(2).

وكان الأمير جالساً مطمئناً برصانته وحزمه وبفطنة وزيره الأريب، عندما هبت ثورة عارمة فى اليوم السادس من شهر محرم سنة عشر وأربعمائة هجرية (١٣ مايو ١٠١٩)، إذ ثارت حاضرته بغتة وعلى غِرَّة، فتواثبت الخاصة والعامة على قصر الإمارة، وهاجمته، وهدمت بعض أبنيته الخارجية وعندما نزل الليل أحاطوا بالأسوار وحاصروها. وبمرور الوقت أصاب الوهن الحراس القلائل؛ وكاد الجمهور أن يقفز إلى داخل القصر، ولكنه عندما رأى يوسف

---

(1) هذا ما نستخلصه بجلاء ووضوح من الماوردى، فى طبعة إنچر، ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠. ويذكر هذا المؤلف بالتفصيل الحالات التى كان يجوز فيها زيادة الخراج أو تقليله، أى رفع قيمته أو إنقاصها على ألا يأتى ذلك من جانب المالك. فعلى سبيل المثال كان يمكن زيادة الخراج إذا تفجر الماء على غير توقع ليروى الأرض، وكان يمكن خفضه، إذا قلت المياه وتضاءلت؛ ولكنه كان لا يتغير ولا يتبدل، إذا حسن المالك من عمله، أو إذا أدى عدم إهتمامه وإهماله إلى إتلاف زراعته. انظر أيضاً ما قلناه حول هذا الموضوع فى الكتاب الثالث، الفصل الأول،ص ٢٠ ـ ٢٢ من هذا المجلد. وكان هذا لا يخص بالتأكيد الأراضى المفروضة عليها عشوراً أو الأراضى التى يمتلكها المسلمون ملكية حرة، وفى هذه الحالة فإن انتهاك القانون يكون فادحاً وخطيراً للغاية. وكذلك لا يختص بالأراضى الأميرية، لأن رؤساء الجند وأشرافهم لم يذهبوا على التحقيق لفلاحتها واستتباتها بالإيجار. ولا يتعلق بالأراضى التى يمتلكها المسيحيون، لأن الذين تأثروا بهذه الإجراءات هم المسلمون.

(2) قارن بين: ابن الأثير، وأبي الفدا، والنويرى وابن خلدون، المواضع المذكورة. ويقول الأول أن جعفر «قهر إخوانه (فى الإسلام) وعاملهم بتكبر واستعلاء». أما النويرى فيقول انه «اهان الصقليين وشيوخ البلد وإزدراهم، وعاملهم بتكبر واستعلاء».

المفلوج وهو يخرج محمولاً على محفة، توقف المهاجمون بغتة رحمةً به وتبجيلاً له. وحاول بكل ما فى وسعه تهدئتهم بالكلمات والوعود بعمل ما يريدون؛ ولما رأى الثائرون أن الشيخ المسكين أنهكته العلل والأمراض العُضال وأضناه الجزع والاضطرابات، انخرطوا فى بكاء مرير: كأنهم يستعطفونه ويسترحمونه متألمين لتعويلهم عليه فى كل ما تحملوه وقاسوه من جور وعسف. فأجابهم يوسف بأنه كفيل بابنه، وأنه هو نفسه يريد معاقبته ومحاسبته، واستبداله بالشخص الذى يروق لهم. فطالبوا بتولية ابنه الآخر أحمد، الملقب بالأكحل(1)؛ وعلى التو استصدر يوسف قراراً بخلع جعفر، وتولية أحمد الإمارة. وطالبوه كذلك بتسليمهم حسن الباجى والحاجب أبى رافع؛ وما أن تم تسليمهما للحشود المحتشدة الثائرة حتى قُتلا فى الحال، وجاب الناس طرقات المدينة وهم يحملون رأس الوزير، لبغضهم وكرههم له، وأحرقوا جثته، ولم يدفنوها. وبعد ذلك انصرف الناس عائدين إلى دورهم.

وخشى يوسف زيادة وحشية الناس بعد أن ذاقوا طعم الدماء وسفكها، ولذا وضع جعفر على ظهر سفينة مبحرة إلى مصر؛ وبعدها بفترة وجيزة، لحق به على متن سفينة أخرى. وبعد ذلك مات الاثنان فى مصر، التى حملا إليها معهما مالاً يُقدر بستمائة وسبعين ألف دينار، أى زهاء عشرة ملايين ليرة إيطالية. وبطريقتهم التى ألفوها وشبوا عليها، كان المؤرخون العرب يمتدحون فى يوسف تقواه وورعه وجوده وكرمه ويثنون عليه، ويقولون إن ما كانت تملكه يمينه فى صقلية بلغ ثلاث عشرة أو أربع عشرة ألف مهرة مسرَّجة، وذلك دون إحصاء الحيوانات الأخرى المخصصة للركوب أو النقل، وأنه عندما وافته المنية لم يترك ولا حتى

(1) الأكحل يعنى رجل شديد سواد الرموش وكأنها مصبوغة بالكُحل. والمقصود الرموش ذاتها، وليست الحواجب.

حُصاناً واحداً(1). ولكن إذا تأملنا الأحداث تأملاً واعياً، وإذا ما نحينا جانباً العشرة ملايين ليرة التى كانت بحوزته، سنجد أن ذلك القطيع الهائل يبين بجلاء مقدار الضياع الأميرية أثناء فترة حكم يوسف وجعفر. ومن المرجح أنه بعد طرده للبربر الذين ثاروا ضده فى سنة خمس عشرة وألف، استحوذ على ضياعهم، بدلاً من منحها للصقليين وتسليمها لهم؛ وأن الضجر من بخله وشحه هذا جعلهم يشعرون بوطأة الإهانة التى تعرضوا لها من جرَّاء فرض ضرائب باهظة على الأراضى والعقارات.

وبينما كانت الخلافات فى صقلية تزداد وتتكاثر، تعاظم فى إفريقية نفوذ الزيريين؛ وكانت سطوتهم وصولتهم والأحداث الداخلية التى مروا بها والانهيار الذى أدى إلى قيام العرب بثورة جديدة، كل هذه الأمور كان لها صداها من حين لآخر فى الجزيرة. فقد قام بُلكين ومعه جيوش صنهاجة، وشهرة المعز وصيته، وفرق من المستوطنين العرب القدماء على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم، باحتلال معظم أو كل البلاد حتى سوتة؛ وكبح جماح الأمويين

(1) قارن بين: ابن الأثير، وأبي الفدا، والنويرى، وابن خلدون وابن أبى دينار، المواضع المذكورة. والقصر الذى حوصر فيه جعفر لا يبدو أنها القلعة المسماة الخالصة، ولكنها قلعة الأمراء القديمة الواقعة فى مكان القصر الملكى الحالى، أو أحد القصور الموجودة فى الخالصة. ومن الجدير بالملاحظة والتنويه أن النويرى يقول بحدوث هذه الفتنة فى يوم الاثنين السادس من شهر محرم؛ ولكن ذلك اليوم، طبقاً للحساب الفلكى، يوافق يوم الأربعاء ١٣، وحسب الحساب القمرى يوافق يوم الخميس ١٤ مايو. وقد ترجم دى جريجوريو ترجمة خاطئة فى كتاب النويرى، ص ٢١ عندما كتب ما يلى: *"et omnia pessum dabat. Tum etiam Giafaro imputabatur quod universas populi siciliensis opes diriperet"* وفى ص ٢٢ قال: *"ab conspectu eorum non abscessurum"*. وهاتان الفقرتان يجب تصويبهما على النحو التالى: «وليحدث ما يحدث (فى جمع المحصول). هذا وقد أظهر جعفر إحتقاره للصقليين وامتهانه لهم. حتى إنه اعتزل مجالسهم ومجالستهم». وأخيراً ففى الصفحة نفسها ٢٢، نجد الجملة: *"ego administrationis suoe rependi vieemo"* ويجب تفسيرها على وجه التحديد كما يلى: «سأجيبكم أنا عن أفعاله وأعماله وسأعاقبه بنفسى».

بأسبانيا وهم الذين كانوا يبسطون نفوذهم على جزء من الساحل ويسيطرون عليه؛ واندفع جنوب المحيط الأطلنطى؛ وقمع قبيلة زناتة المناوئة وتغلب عليها؛ ومنحه الخليفة العزيز المدن الواقعة على حدود مصر، التى كان قد رفض منحه إياها فى المرة الأولى؛ وعند اقتراب ساعته (٩٨٤)، كان الناس من طرابلس إلى فارس يدينون له بالطاعة باعتباره أميرا حاكما متحكما وليس باعتباره ملكاً. وقد خلفه ابنه المنصور، فنجح مرة وفشل أخرى فى المحافظة على القوة التى كانت لأبيه، وأخضع لنيره قبيلة كتامة(1) وأدخلها فى طاعته. وحينئذ شعر باستقراره ورسوخه على العرش، ويتبين ذلك من كلماته، إذ قال: «حكم أبى وجدى بالسيف؛ أما أنا فلن ألجأ إلى استعمال قوة أخرى إلا قوة الخير والإنعام». وفى مرة أخرى قال: «لقد ورثت هذه المملكة وهذا الملك عن أبى، وأنا لا احتفظ بها بقوة مرسوم، ولن يهبها لى مرسوم»(2).

ومع كل هذا فقد تم الحفاظ على المظاهر والتقاليد المرعية؛ ولذا فعندما توفى المنصور، وتولى ابنه باديس الحكم (٩٩٦)، جاءته من القاهرة، باسم الحاكم، خُلع، ووثيقة التولية(3) ومُنح لقب نصر الدولة، الذى يعنى «عضد الإمبراطورية»(4). ولكن بعد مضى ثلاث سنوات من حكم باديس، قام واليه على طرابلس بخيانته والغدر به، إذ عرض المدينة على البلاط الفاطمى وقدمها لقمة سائغة له، فالتهمها البلاط الفاطمى فى الحال، وعهد بها ليانيس الصقلى، والى برقة، الذى من المرجح أنه كان من العُتقاء ذوى الأصول

(1) قارن بين: ابن الأثير، أعوام ٣٦١، ٣٦٥، ٣٧٩، ٣٨٦، المخطوطة C، المجلد الخامس، الورقة ١٠ الوجه الثانى ... ٢٧ الوجه الثانى، ٣٤ الوجه الثانى؛ و**البيان**، النص العربى، المجلد الأول، ص ٢٢٢، ٢٣٨، ٢٤٠ وما بعدها؛ وابن خلدون، *Histoire des Berbères*، ترجمة م. دى سلان، المجلد الثانى، من ص ٩ حتى ص ١٦.

(2) **البيان**، النص، المجلد الأول، ص ٢٤٩.

(3) ابن الأثير، عام ٣٨٦، المخطوطة C، المجلد الخامس، الورقة ٣٤ الوجه الثانى.

(4) ابن خلكان، ترجمة م. دى سلان الإنجليزية، المجلد الأول، ص ٢٤٨.

المسيحية. وأرسل باديس إليه شكواه، غير أنه رد عليه بعجرفة: ولم يتدخل أمير إفريقية، الذى يُعتبر فى مقام الخليفة وكأن الخلاف كان بينه وبين يانيس وأرسل له رجلاً يُدعى جعفر بن حبيب من المهدية ومعه بعض العساكر؛ فعسكر فى أجاس الواقعة بين قابس وطرابلس. وعندئذ أرسل ليانيس يُخيره بين واحدة من ثلاثة: إما المثول بين يدى باديس؛ أو إظهار الوثيقة التى منحه إياها والى طرابلس؛ أو الاستعداد للقتال. فرد عليه يانيس: «أن أذهب إلى بلاط مولاك، فهذا لن يحدث. وأنا غير مُجبر ولا مُضطر لتقديم الوثيقة، فأنا والٍ من ولاة أمير المؤمنين فى ولاية أكبر من طرابلس. أما الخيار الأخير المتبقى، فلا تشغل بالك: انتظرنى حيثما أنت فسنتقابل سريعاً». وتحرك كلاهما؛ والتقى الجيشان فى حقول الزيتون التابعة لقرية اسمها زنزور. فدارت الدائرة على يانيس وسقط من جيشه جند كثيرون مضرجون فى دمائهم، وكان ذلك فى سنة تسعين وثلاثمائة هجرية (١٢ ديسمبر ٩٩٩ - ٣٠ نوفمبر ١٠٠٠)؛ وأسر يانيس، فتضرع إليهم أن يحملوه إلى جعفر، ولكنهم حملوا إليه رأسه فقط. أما فلول جيشه فقد التجأوا إلى طرابلس(1) وتحصنوا بها، وكان زيدان الصقلى، وآخرون يدعونه ريدان العبد(2) يمد يد العون لطرابلس ويساعدها، ولكنها مساعدة زهيدة. وفى ذلك الحين كان هذا يقوم بإدارة شئون البلاط فى مصر، ثم دخل فى طاعة باديس وعاد إلى خدمته، بعد أحداث

(1) قارن بين: ابن الأثير، عام ٣٨٩، المخطوطة *A*، المجلد الثالث، ورقة ١٠٠ الوجه الأول؛ والتيجانى، **رحلة**، مخطوطة باريس، ورقة ٧٤ الوجه الأول، والورقة ٨٨ الوجه الثانى، والترجمة فى *Journal Asiatique*، المجموعة الخامسة، المجلد الأول (فبراير - مارس ١٨٥٣)، ص ١٠٤ وص ١٣٢؛ وفى أول هذه المواضع ينقل التيجانى المعركة كما نقلها ابن الأثير فى ص ٣٩٠، وفى الموضع الثانى ص ٣٨٩.

(2) **البيان**، النص، المجلد الأول، ص ٢٦٦، وقائع عام ٣٩٢. والاسم البديل «ريدان الصقلى» نقرأه فى النصوص التى ذكرها م. دى ساسى واستشهد بها فى *Exposé de la Religion des Druses*، المجلد الأول، الصفحة عشرين وثلاثمائة، ولم يتحدث فى كتابه هذا عن الأحداث التى وقعت فى طرابلس.

كثيرة، ليس من اللازم أن نرويها(1).

وكانت تلك الفترة مليئة بالكوارث والنكبات على السلالة البربرية، التى بعد قرنين من الزمان تخلصت من نفوذ العرب وسيطرتهم دون قتال، واحتفظت بالعناصر الحضارية التى خلفها أولئك الغرباء مثل: الدين، والشرائع، والعلوم، والآداب، والصناعات، وجماعة من أهل المدن عكفت على مزاولة هذه الحرف، وكانت هذه الجماعة حينئذ قليلة العدد ومتواضع مستوى معيشتها بحيث لا يمكنها انتزاع السلطة والسلطات مرة أخرى. ولم يكن أبداً القطَّان الأصليون للقارة الإفريقية الممتدة من البحر المتوسط حتى خط الاستواء أسياداً فى بلادهم، وذلك منذ قيام قرطاجنة، والرومان، والڤاندال (الجرمانيين)، والبيزنطيين، والعرب بعضهم تلو بعض باحتلال المنطقة الشمالية. ولكن نار الفتنة والشقاق وسمها الزعاف كانت تجرى فى عروقهم ودمائهم، وهذا ما منعهم دوماً من طرد الغرباء الغزاة؛ ولكنهم عندما استقلوا ببلادهم وأصبحوا يملكون زمام أمرها بمفردهم، لم يرسخوا فيما بينهم مبادئ التآلف والإخاء والصداقة أو قناعة وجوب العيش معاً؛ وأنكروا عموماً، وظل ذلك حتى وقتنا الراهن، التحضر الذى من المرجح أن الأفراد مستعدون له بشكل يثير الدهشة. ولن نتحدث عن العداء والخصومة بين فروع البربر المتعددة، وعلى وجه الخصوص قبيلة زناتة، التى كان أفرادها دوماً أكثر وحشية وعداءً للصنهاجيين، الذين يتسمون بلين الجانب ورقة الطبع، وقد ظهرت الفُرقة فى الأسرة الزيرية ذاتها، أثناء حكم باديس، عندما قـام حمـاد، وهو ابن الجـد بلكين، بعد أن خاض غمار الحرب مؤيداً للأسرة الزيرية الحاكمة، فتمّرد (١٠١٤) عليها وشق عصا الطاعة، وأسس دولة مستقلة فى المناطق الحالية

(1) انظر التفاصيل فى كتاب ابن الأثير، المخطوطة C، المجلد الخامس، الورقة ٤٠ الوجه الأول، وقائع عام ٣٩٢؛ **والبيان**، الموضع المذكور.

لمدينتى قسـطنطينة والجزائر(1). وبعد ذلك انهـالت النكبات والكـوارث على رؤوس أشـتاتهم التى تفـرقت بسـبب الحـرب الأهليـة.

وفى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة (١٠٠٤ ـ ١٠٠٥)، حسبما قال ابن رقيق الذى عاصر هذه الأحداث، فإن المجاعة والطاعون قد تنافسا على حصد أرواح الناس فى إفريقية؛ فهرب المزارعون من أراضيهم وتركوها إذ لم يبق لديهم ما يقتاتون به؛ وخلت القرى من قطّانها؛ واستنفدوا سريعاً ما كانوا يخزنونه فى المدن؛ وفى بعض القبائل البربرية، تناحر البربر فيما بينهم واقتتلوا لسد رمقهم بلحوم بعضهم. وفى هذه الأثناء كان الطاعون(2) يحصد بالمئات وبالآلاف قطّان الحواضر: ومَنْ شاهد ذلك المشهد الفظيع وعاينه يصوره فى دقائقه وتفاصيله التى رواها المؤرخ. وقد ظلت مدينة القيروان ردحاً طويلاً ومساجدها، وأفرانها وحماماتها مهجورة خالية من الناس، ومَنْ لم يكن لديه ما يُشعل به النار، كان يحتطب من أبواب وأسقف الدور التى هجرها أصحابها. لقد أخرجت المحن قطان المدن من ديارهم، فالتجأت أعداد عديدة من قطان الحواضر والقرى إلى صقلية. ثم انقشع الوباء وزال؛ وهـدأت حدة المجـاعة(3)؛ بيد أنها عادت تطل برأسها بانتشار الجراد واشتعال نيران الحرب الأهلية، سنة ست وأربعمائة (١٠١٥ ـ ١٠١٦)، وكذلك فى سنة تسع وأربعمائة (١٠٢٢ ـ ١٠٢٣)، وهكذا بين الفينة والفينة(4).

(1) انظر بوجه عام كتاب، *Histoire des Berbères*، لابن خلدون، الذى استشهدنا به فى مرات عديدة، وبصفة خاصة المجلد الثانى، ص ١٧ وص ٤٤.

(2) يذكر النص اللفظتين وباء وطاعون، اللتين من المؤكد أنهما تشيران إلى نوعين مختلفين من الطاعون.

(3) **البيان**، النص، المجلد الأول، ص ٢٦٧، عام ٣٩٥.

(4) قارن بين: ابن الأثير، أعوام ٤٠٦ و٤١٣ و٤٣٢، المخطوطة C، المجلد الخامس، الورقة ٤٦ الوجه الثانى والورقة ٥٦ الوجه الثانى والورقة ٧٤ الوجه الأول؛ والبيان، النص، المجلد الأول، ص ٢٨٠، عام ٤٠٩ ... إلخ.

وفى هذه الأثناء توفى باديس (أبريل ١٠١٦) وتولى ابنه المعز الإمارة، وتلقب بشرف الدولة حسبما جاء فى وثيقة الخليفة(1) بتوليته، وفى تلك الأصقاع حدثت حوادث وحشية من إبعاد ونفى بسبب العقيدة. فبعد أن داس الشيعة أهل السُّنة الذين كانوا يقيمون فى إفريقية زهاء قرن من الزمان تجرأ السنيون مرة أخرى بزوال الحكم الفاطمى: وآنئذ كانوا كثيرى العدد وحانقين ساخطين، حتى إن حماداً اطمأن إليهم فعلق آماله عليهم لنزع الملك وحجبه عن أحفاده: ولذا ظهر فى ثياب الثائر وأعاد (١٠١٤) مذهب السُّنة وطقوسه، واستباح دماء الزنادقة وأعمل فيهم القتل والتقتيل فى الأصقاع التى كانت تدين له بالولاء والطاعة، فدخل عنوة وبقوة السلاح بوجا، واستثار أهالى تونس فقتلوا وذبحوا على الملأ أولئك الذين ينتمون لتلك الطائفة(2)، الخليقة بأن تُقتل ألف مرة، لأنهم لم يريدوا القول بأن أبا بكر وعمر قد رضى الله عنهما. وهكذا فإن الحرص والطمع والثأر والانتقام يتلثم دوماً بلثام جد أقبح من وجوههم، إذا ما أماطوه عنها. وأخذ العلماء العرب الجامحون ينفخون فى النار من القيروان، فيردون على الاجتهادات الدينية متعللين بالفظائع التى كان يقترفها كل يوم إمام الشيعة فى مصر، السفاح المجنون الحاكم، الذى سرعان ما تجاوز الحد فى فظائعه وأعماله الوحشية، عندما (١٠١٦ - ١٠٢١) أعلن أنه الإله مبتدعاً ديناً صبغه بصبغته، وترويحاً لنفســه وإدخالاً للبهجة عليها أضرم النـــار فى حاضـــرته وأعمـــل فيها القتل(3). وكان للرأى العام

(1) ابن الأثير، عام ٤٠٦، المجلد المذكور، الورقة ٤٦ الوجه الأول والوجه الثانى.

(2) ابن خلدون، **تاريخ البربر**، النص، المجلد الأول، ص ٢٢٢، وترجمة م. دى سلان، المجلد الثانى، ص ٤٤.

(3) نقــرأ تفاصيــل الفظــائع التى وقعت فى عهد الحــاكم فى كتــاب، فى *Exposé de la Religion des Druses*، للمؤلف م. دى ساسى، المجلد الأول، صفحة ثلاث وتسعين ومائتين وما بعدها. وبداية تأله هذا الطاغية نقرؤها فى الصفحة ثلاث وثمانين وثلاثمائة وما بعدها.

كما يحدث فى العادة - صداه فى بلاط الزيريين ذاته؛ وفيه سكب معلم المعز ومربيه العقيدة السنية فى نفس الملك الجسور المقدام، البالغ من العمر ثمانية أعوام. ومن ثم ففى يوم من الأيام (يولية ١٠١٦) كان الطفل ممتطياً صهوة جواده فى شوارع القيروان وطرقاتها، وإذا به ينطق بلا قصد بكلمات التوقير لأبى بكر وعمر؛ وعلى التو حدث هرج ومرج واختلط الحابل بالنابل بين العامة وأنصار الأمير الذين كان بعضهم شيعة. فتم تمزيق هؤلاء البؤساء التعساء وأخذوا ينتهبون دورهم، ويفتشون فى كل مكان عن المشتبه فيهم من تلك الطائفة من الزنادقة والملحدين، ويقتلون الرجال والنساء والأطفال؛ وبعد ذلك أحرقوا الجثث واستولوا على ما أمكنهم الاستيلاء عليه. وفى خلال برهة انتقلت إلى المهدية وإلى جميع حواضر إفريقية ذاتها عمليات الإقصاء والاضطراب؛ واتسعت دائرتها فشملت القرى. وبلغ عدد الذين قُتلوا وهم يذودون عن أنفسهم وأرواحهم، والذين ذُبحوا كالخراف، الآلاف المؤلفة. وقد ظل اسم «بحيرة الدم» يُطلق على الحى الذى سقط فيه أول ثلاث آلاف ضحية، وصار هذا الحدث مضرباً للأمثال، كما حدث فى سان بارتلمى(1).

واستمرت عمليات الاضطهاد لمدة عامين على الأقل إلى أن تدخل الأمير على ما يبدو للحفاظ على الأرواح؛ ولم يحترم العامة دوماً العهود. إذ وقعت فى سنة تسع وأربعمائة هجرية (١٩ مايو ١٠١٨، ٧ مايو ١٠١٩) مذبحة لمجموعة من الشيعة وهم فى طريقهم هاربون إلى صقلية. فمن مائتى رجل فوق ظهور جيادهم، ولعلهم كانوا عزلا، ومعهم أسرهم وذويهم، كانوا متوجهين إلى المهدية

(1) قارن بين: ابن الأثير، عام ٤٠٧، المخطوطة C، المجلد الخامس، الورقة ٥٣ الوجه الأول؛ والبيان، وقائع عام ٤٠٧ وعام ٤٢٥، النص، المجلد الأول، ص ٢٧٩ وص ٢٨٥؛ والنويرى، **تاريخ إفريقية**، مخطوطة باريس، *Ancien Fonds*، ٧٠٢، الورقة ٣٦ الوجه الثانى؛ وابن خلدون، *Histoire des Berbères*، ترجمة م. دى سلان، المجلد الثانى، ص ٢٠. ولا اختلاف بينهم إلا فى التفاصيل.

بحماية الفرسان، لركوب البحر والرحيل، قد أمضوا ليلتهم فى ضاحية تُدعى كامل، فإذا بضمير أهالى تلك الأرباض يؤرقهم على تركهم يرحلون أحياء يُرزقون: فتسلحوا بالعتاد؛ وكرّوا على الزنادقة الذين لم يدافع عنهم حرّاسهم وذبحوهم عن بكرة أبيهم؛ واغتصبوا النساء صغيرات السن وجميلات المحيا وبعد ذلك قتلوهن كلهن(1). وهذه الحادثة البائسة تثبت لنا أن صقلية التى كانت ملجأ للفارين من المجاعة التى حدثت سنة خمس وألف، كانت كذلك ملجأً للزنادقة الذين تعرضوا للاضطهاد فى غضون هاتين السنتين، وأن حكومة إفريقية كانت تشرف على خروجهم ولعلها كانت تزودهم بالسفن.

وهكذا وقع بدم الشيعة عهد صداقة الأسرة الحاكمة الجديدة والشعوب العربية، التى انحصرت حينئذ فى الحواضر؛ حيث أنه فى بداية الأمر قام الأغالبة، ومن بعدهم الفاطميون، ولأسباب وذرائع خاصة بحماية الدولة، بضرب أشراف الجند المرابطين فى القرى(2) وإبادتهم. وفى كثير من الحواضر كان البربر، وفى بعضها كان الأفارقة، والبقية الباقية من مسيحيى البلاد؛ يقيمون مع العرب(3)، وكان يبدو أن الناس بمختلف مآربهم ومشاربهم والحكام الجدد قد هيأوا أنفسهم لتكوين أمة واحدة متماسكة. ولذا قام الزيريون بترك حاضرتهم القديمة أشير الواقعة بين جبال تيترى، واستقروا فى المنصورية التى تبعد نحو نصف ميل عن القيروان، أو ربما أقاموا داخل حاضرة العرب ذاتها، التى ضموها بعد ذلك إلى

(1) **البيان**، النص، المجلد الأول، ص ٢٨٠.

(2) انظر فى هذا المجلد الكتاب الثالث، الفصلين الثانى والسادس. جاء من المشرق مع الفاطميين أنصارهم رويداً رويداً وكذلك المتشيعون لمذهبهم ومن المرجح أنه علاوة على تقلدهم المناصب العامة فقد مُنحوا أيضاً أعطيات الجند. وفى إفريقية كان يُطلق على الشيعة عادة الشرقيون.

(3) بكرى فى كتاب، *Notices et Extraits des Mss*، المجلد الثانى عشر، ص ٤٦٢ وص ٥١١. انظر الكتاب الأول، الفصل الخامس، من المجلد الأول، ص ١٨١، الهامش ٢.

المنصورية(1) بإقامة التحصينات والحصون. وفى هذا العهد والزمان ازدهرت الصناعات اليدوية والتجارة، التى كانت تنقل من ناحية البحر المتوسط إلى صقلية، وأسبانيا وباقى البلدان البحرية(2)؛ ومن ناحية أخرى إلى المناطق الداخلية فى القارة الإفريقية. هذا الازدهار الصناعى يمكن أن نرجعه إلى مظاهر الأبهة والفخامة التى كان يرفل فيها بلاط الزيريين وفى احتفالاتهم العامة، وأعراسهم، ومشاهدهم الجنائزية، وهداياهم لخلفاء مصر؛ وكذلك إلى نقص قيمة، أو نود القول زيادة كمية المعادن الكريمة(3). وتشهد على وجود علاقات تجارية مع بلدان أفريقيا الوسطى الهدايا

(1) بكري، *Notices et Extraits des Mss*، المجلد الثانى عشر، ص ٤٧٢. وهذه المدينة، يُطلق عليها كذلك اسم صبرا، وقد أسسها الخليفة الفاطمى المنصور وأطلق عليها اسمه الأصلي، وقد نقل إليها بلاطه من المهدية عام ٩٤٧. انظر أيضاً **البيان**، النص، المجلد الأول، ص ٢٢٢.

(2) بخصوص التجارة والصناعة فى إفريقية ذاتها فإنه لدينا تقارير ابن حوقل، الذى زار تلك الأصقاع فى النصف الثانى من القرن العاشر؛ وكذلك بكرى الذى كتب عنها فى عام ١٠٦٧. فأولهما يحدثنا عن تجارة طرابلس مع موانى الروم (إيطاليا واليونان)؛ وعن تانيس وأورانو مع أسبانيا؛ وعن افريقية جمعاء مع المشرق، حيث كان يتم إرسال العبيد السود والإماء المولدات والروم والسلافيين، والعنبر الرمادى والحرير؛ ويحدثنا عن صناعة الصوف اليدوية التى ازدهرت فى أجدابيا وطرابلس؛ وعن صيد المرجان فى تانيس، وسوتة ومرسى خرز (*Journal Asiatique*، المجموعة الثالثة، ص ٣٦٢ وما بعدها). أما الثانى (*Notices et Extraits des Mss*)، المجلد الثانى عشر) فيذكر، بالإضافة إلى ما تغله الأرض من منتجات معروفة. قصب السكر بالقيروان، ص ٤٨٤؛ والقطن فى مسيلا، ص ٥١٥؛ والمواد الملونة فى سان، أو المعروفة باسم سنب، ص ٤٢٥؛ وأشجار التوت المزروعة فى القيروان وإنتاج الحرير فيها، ص ٤٦٢. ويذكر كذلك إزدهار صناعة النسيج والقماش فى القيروان، وسوسة، وقفصة، ص ٤٨٨، وص ٥٠٣؛ وتجارة زيوت صفاقس مع صقلية وبلاد الروم، ص ٤٦٥؛ والسفن التجارية الصقلية وتلك التابعة لامم عديدة والتى كان يعج ويزخر بها مرفأ المهدية، ص ٤٨٠.

(3) يعطينا **البيان** أخباراً دقيقة عن هذا الترف، وهى مستقاة من ابن رقيق، المؤرخ المعاصر لهذه الأحداث، والذى غالباً ما ينقل لنا أقوال التجار وأحاديثهم عن أثمان مفروشات العرائس وجهازهم ... إلخ انظر التفاصيل فى النص العربى، المجلد الأول، ص ٢٤٩ وحتى ص ٢٨٤، عام ٣٧٣ وحتى عام ٤١٥. وضرب بعض الأمثلة على ذلك فقال: فى عام ٣٧٣ هـ أرسلت إلى خليفة مصر هدايا من الخيل والثياب، وأشياء

التى بعث بها إلى المنصور أمراء السودان (٩٩٢) والاحتفالات والمواكب البربرية التى كان الزيريون يقيمونها، إذ كانوا يخرجون وهم يمتطون صهوات جيادهم المجللة بالروعة والأبهة ومن حولهم أفيال، وزرافات وكذلك الوحوش التى موطنها الأصلى الأطلسى(1).

ولم تكن سطوة المعز بن باديس أقل من مظاهر الفخامة والبهاء فى مملكته، فقد كان الجميع يخشاه ويهابه طيلة نصف قرن من الزمان، إذ كان يتسم بسرعة نجدته وحكمته وبقوة بأسه وإقدامه فى حومة الوغى. وحتى أواخر سنوات حكمه، عندما حل الدمار به وصار لا يملك شيئاً (١٠٥٣)، كان هو حقاً أقوى أمراء المسلمين فى تلك الأصقاع المطلة على البحر المتوسط(2). ولقد فطن إلى الفرص والمزايا التى وفرها له البحر لتوسيع نفوذه وهيمنته، فكان أول بنى جلدته فى القيام ببناء الأسطول الإفريقى، الذى لم تذكر

أخرى قيمتها مليون دينار، ص ٢٤٩؛ وفى عام ٤١٥ هـ أُنفق على زواج إحدى بنات باديس مليون دينار أخرى لشراء الجواهر، والجهاز، وآنية من الذهب والفضة، ومُخيم الستور التى حملتها العروس معها، ص ٢٨٤؛ وفى عام ٤٠٦ هـ عندما حلت الهزيمة ببنى حماد ووجدوا مع أحد الأسرى ٥٠.٠٠٠ دينار، ومع آخر ٨.٠٠٠ دينار ... إلخ. وبالرغم من أن بعض المبالغ والأرقام مُبالغ فيها بالتأكيد، فليست كلها مُبالغاً فيها. ويذكر ابن خلدون، *Histoire des Berbères*، أمثلة أخرى، أخذاً عن ابن رقيق، وهى أمثلة لا نجدها فى **البيان**.

(1) **البيان**، النص، المجلد الأول، ص ٢٥٦ وص ٢٥٨، عام ٣٨٢ وعام ٣٨٧، وفى الموضع الأول يحدثنا عن زرافة أُرسلت من السودان ومعها هدايا أخرى. ولذا فمن المرجح أنه فى نهاية القرن العاشر كانت هناك تجارة القوافل المباشرة بين أفريقية والسودان. ويتحدث ابن حوقل فى حوالى منتصف القرن نفسه عن تجارة السودان فقط مع سلجلماسه الواقعة فى دولة المغرب الحالية، التى احتلها فى بعض الأحايين الزيريون غير أنها لم تبق فى قبضتهم وتحت سيطرتهم أمداً بعيداً. ووفرة الذهب وكثرته، الذى حسب تلك الأزمان يثير عجبنا، ربما كانت تأتى مع التجارة من السودان.

(2) انظر تفاصيل حكم المعز ودقائقه فى كتاب ابن الأثير، أعوام ٤١٥، ٤١٧، ٤٢٧، ٤٣٢، المخطوطة C، المجلد الخامس، الورقة ٥٦ الوجه الثانى، والورقة ٥٩ الوجه الأول، والورقة ٦٩ الوجه الثانى، والورقة ٧٤ الوجه الأول؛ والبيان، النص، المجلد الأول، ص ٢٨٦ وص ٢٨٧؛ وابن خلدون، *Histoire des Berbères*، الترجمة الفرنسية، المجلد الثانى، ص ١٨ حتى ص ٢٠.

كلمة عنه او لم يشر إليه منذ أن قام الخليفة الفاطمى المعز بنقل مقره إلى مصر وحمل ما أمكنه حمله. ففى سنة ثلاث وعشرين وألف أعاد المعز بن باديس تجهيز دور صناعة السفن بالمهدية وبناء معدات السفن بكميات لا مثيل لها، وابتنى السفن الحربية وأقر انخراط البحاره فى الأسطول وتجنيدهم(1): ومن ثم ففى خلال سنوات قلائل، كان الأسطول الإفريقى، يسانده الأسطول الصقلى، يحاربان البيزنطيين فى الأرخبيل؛ وحاول الأمير الزيرى تقديم الدليل على أنه سيد صقلية والمهيمن عليها. وكانت البلية التى ابتلى بها مسلمو الجزيرة تكمن فى أن الأمير كان فى عنفوانه عندما وقعت بينهم الحروب الأهلية، وأنه تحول إلى فقير مجرد من السلاح عندما تمزقت دولة الكلبيين تمزقاً.

---

(1) **البيان**، النص، المجلد الأول، ص ٢٨٢، عام ٤١٤.

الفصل التاسع

بدأ الأكحل حكمه بداية مبشرة. إذ أدخل فى طاعته بعض القلاع والحصون التى كانت قد انفصلت عند ظهور بوادر الثورة (1)؛ وخلع عليه الحاكم لقب تأييد الدولة، واضطلع بالأمور والشئون العامة؛ وأعاد الطمأنينة والرضـا إلى البلاد وأشـعل الحـرب خارجها(2). ولم يكن يرسـل فقط الخيـالة للإغارة على شـبة جـزيرة إيطاليا، بل غالباً ما قاد هو نفســه الجيوش، لمناصرة الثائرين والمتمردين فى بولينا كما أسلفنا(3).

ومن ثم فكر الإمبراطور باسيليوس رغم تقدمه فى العمر إذ كان يبلغ من العمر ثمانية وستين عاماً، وهو رجل ذو دراية بفنون القتال، أن ينقل رحى الحرب بنفسه إلى صقلية. وكان منذ فترة وجيزة قد قام فى المشرق بصد المسلمين والروس والبلغار وقهرهم. فأرسل غلامه إوريستى، وهو حاجبه الأمين المخلص وساعده الأيمن فى حومة الوغى، ومعه خلق كثير من رعاياه وأنصاره من المقدونيين، والڤـالونيين (قُطـَّان المنطقـة الواقعة جنــوب شرق بلچيكا)،

(1) ابن الأثير، وأبو الفدا والنويرى، من الواضح أنهم جميعاً ينقلون نفس الحدث، ويكتبون «إنه قد دانت بالطاعة للأكحل كل قلاع صقلية التى كان المسلمون يمتلكونها». ومن هذا الكلام نفهم أن بعض الحصون فى بداية الأمر لم تخضع له. وفى ذلك الزمان لم يكن بصقلية أية أرض إلا وكانت فى قبضة المسلمين.

(2) ابن الأثير، عام ٤٨٤، المخطوطة A، المجلد الرابع، الورقة ١٣٤ الوجــه الأول، وأبو الفــدا، *Annales Moslemici*، عام ٤٨٤، المجـلد الثـالث، ص ٢٧٤ وما بعدها؛ والنويرى، فى كتاب دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٢٢؛ وابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، الترجمة، ص ٧٩.

(3) انظر الفصل السابع من هذا الكتاب، ص ٣٥١-٣٥٣.

والبلغار، والروس الذين اعتادوا القتال تحت شارات البيزنطيين وراياتهم(1)؛ فطردوا الصقليين من كل مكان كانوا يحتلونه فى كلابريا. وحينئذ قام الناظر بويوانّى بتوجيه عنايته واهتمامه لاصلاح ريچو، فأصلحها واستخدمها لاقامة الجند أثناء فصل الشتاء، إذ إنهم، كانوا بانتظار وصـول قوات أخرى مـع الإمبراطور(2) والأسـطول مع

(1) قارن بين: شدرينو، طبعة بون، المجلد الثانى، ص ٤٧٩، تحت عام ٦٣٥٤ (١٠٢٥-١٠٢٦)؛ ومؤلف بارى المجهول، فى كتاب بيرتز، *Scriptores*، المجلد الخامس، ص ٥٣، وفيه يجب دون أدنى شك تصويب عام ١٠٢٧ بعام ١٠٢٥. وشدرينو يذكر لنا اسم أوريستى وأوضاعه وأحواله البائسه؛ أما مؤلف بارى المجهول فيذكر أسماء المميزين فى الجيش، وأضاف إليهم الڤاندالبين، الذين من المرجح أن تكون القراءة الصحيحة هى الڤارانچيين. أما اسم قائدهم فمكتوب إسبوكيتونيتى وأسوأ من ذلك فى كتب أخرى إذ يُقال إنه دسبوتوس نيكوس .. الخ، إلا أن القراءة الصحيحة نجدها فى كتاب لوبو: وهي أوريستي كيتونيتي، أو أوريستي الحاجب (κοιτωνίτης). ولقب بروتوسباتاريو، الذى يعنى عضد الإمبراطور فى حومة الوغى، فهو مذكور فى كتاب شدرينو فى ص ٤٩٦. وقد وجب علينا فى كثير من المرات ملاحظة أن كلمة خليط من أناس مختلفين تعنى الجيوش البيزنطية. وفى تعليقه على قصائد وأشعار المتنبى، قال أحد المؤلفين العرب إن الجيش الذى أُرسل سنه ٣٤٣ هجرية(٩٥٤) لمحاربة سيف الدولة الحمدانى، كان يتألف من الأرمن، والروس، والسلافيين، والبلغار والخزريين. وقد ورد هذا فى كتاب ساسى، *Chrestomathie Arabe*، المجلد الثالث، ص ٥، الطبعة الثانية.

(2) قارن بين:ابن الأثير، وقائع عام ٤١٦، (١٠٢٥-١٠٢٦)، المخطوطة A، المجلد الثالث، الورقة ١٩٣ الوجـه الثـانى، نشـره م. دى ڤيرچيه فى حـاشيته على ابن خـلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٨٠؛ ومؤلف بارى المجهول، الموضع المذكور. وقد ورد اسم ريچو فى كتاب مؤلف بارى المجهول. اماابن الأثير فيتحدث عن طرد المسلمين وخروجهم من تلك الأصقاع الإيطالية وعن إقامة معسكرات للجيش البيزنطى: وهذا يجعلنا نفهم بجلاء أنها ريچو؛ ويؤكدالرؤية التى وردت فى كتاب مؤلف بارى المجهول، إذ يقول: *Et Regium restaurata est a Vulcano Catepano*. ومن الطبعات العديدة التى صدرت عن هذه الأخبار التاريخية، نجد طبعة تعارض الأخريات ونرى أن ريچو قد دُمرت؛ والظاهر أنه قد حدث سهو أو إغفال فى التصويب من جانب بعض الناسخين. وبوجه عام فإن مخطوطات الحوليات أو المؤلف المجهول سيئة جداً ذلك المؤلف المجهول، الذى يُدعى من بارى. واسم الناظر يُكتب بكتابات متعددة الأشكال وهى بُلكانو، بُوچانو، باچانو، بايانو، وفيها نتعرف على لفظ Βοϊωάννης, الذى حكم فى عهد باسيليوس الثانى تلك المقاطعة حكماً جيداً، حسبما ذكر شدرينو، المجلد الثانى،

أحد أقاربه ليعبروا المضيق(1). ثم أرجأ بعد ذلك الهجوم لمرض باسيليوس وسقمه، وبعد قليل تُوفى فى شهر ديسمبر سنة خمس وعشرين وألف(2).

وعندما انتشرت أخبار الأخطار التى تُحيق بصقلية، عرض المعز بن باديس مساعداته على الأكحل، فقبلها، ووافق عليها، ومن ثم أعلن فى إفريقية الجهاد، فسيَّر الأمير الطموح العالى الهمة بكل سهولة ويسر تلك الجموع الحاشدة التى تشتعل جذوة حميتها تجاه الملاحدة الزنادقة. حتى أنه كدَّسهم فى أربعمائة من القوارب الصغيرة الضيقة: وفى شهر يناير سنه ست وعشرين وألف أرسلهم إلى صقلية، متوكلاً على الله وآملاً فى عدم هبوب العواصف والأنواء. ولكن بالقرب من بنتلاريا هبت ريح عاصفة، فانكفأت القوارب فى طرفة عين وغاصت فى اليم؛ ونجا من الغرق القليل من الرجال(3). ومن العوامل والأسباب التى كان لها تأثير فعَّال ومفيد للأكحل حماقة قسطنطين

ص ٥٤٦، عند حديثه عن أحد أبنائه أو عن حفيد له يحمل اسمه نفسه، هزمه النورمان فى بوليا عام ١٠٤١. وبويوانى هذا، الذى تحرف اسمه إلى ڤولكانو، يرى بعض المثقفين أنه ليس اسماً لشخص بل اسم بركان كان يطلق حممه على ريچو ويلقى بها عليها؛ ثم بعد ذلك نسبوا الدمار الذى حل بها لبركان ڤيزوڤيو، غير أنه بعيد عنها وليس قريباً منها. انظر ملاحظة مارتورانا، *Notizie Storiche dei Saraceni Siciliani*، المجلد الثالث، ص ٢ حتى ص ٦.

(1) ابن الأثير، الموضع المذكور، يقول إنه «ابن أخت الإمبراطور»، وهذه مفارقة مع النبيل استيفانو الذى أرسل عام ١٠٣٨، أو إن الأمر يتعلق بأحد أبناء چوڤانى أورسيلو الذى كان ينبغى عليه تولى إمرة أسطول ڤنيسيا. وچوڤانى أورسيلو هو زوج أخت الإمبراطور رومانو أرچيريو الذى توفى فى عام ١٠٠٦.

(2) شدرينو، المجلد الثانى، ص ٤٧٩.

(3) ابن الأثير، الموضع المذكور، يحدثنا عن ٤٠٠ قلع، التى فيما يبدو أنها عند العرب اسم عام، كما نقول نحن قلاع. ليس هذا فحسب بل يبدو لى أن لفظى *gattus* و *Cattus*، اللذين نجدهما فى أخبار بيزا وفى كتاب مالاتيرًا (القرن الحادى عشر) تشيران إلى نوع من السفن.

الثامن وسذاجته الذى ظل بمفرده على العرش فى القسطنطينية، وانتشار مرض الدوسنتاريا فى كلابريا بين الجند، وقلة خبرة أورستى فى إدارة الحرب والسيطرة على مقدراتها. وباغته الصقليون بالهجوم عليه، فأحلّوا به هزيمة نكراء وسفكوا دماءً كثيرةً؛ وللانتقام والثأر من هذة الموقعة، جمع رومانو أرچريو الذى خَلَفَ قسطنطين (نوفمبر ١٠٢٨) فى الإليادى ومقدونيه أولئك الذين بدوا له خيرة الجند وحشدهم وأرسلهم إلى إيطاليا. غير أنهم لم يفعلوا شيئاً(1)، أو أنهم ولوا الأدبار ولاذوا بالفرار أمام المسلمين فى تلكما المعركتين المشهودتين اللتين وقعتا فى سنة واحد وثلاثين وألف(2).

ومن ثم تجرأ الإفريقيون والصقليون فقاموا بغارات بحرية كثيرة على الإمبراطورية البيزنطية. وخرَّبت سواحل إيليريا ودمرتها حفنة من قوارب المسلمين، لانعرف إلى أية أمة تنتمى، وقامت بالقرصنة حتى كورفو: فخرج للقائها أسطول راجوزا والنبيل نتشيفورو حاكم ناوبليا، فهزموه وقهروه؛ واستولوا على معظم السفن، أما تلك التى فرت هاربة فقد غرقت فى بحار صقلية، وكان ذلك فى سنه واحد وثلاثين وألف فى نهاية فصل الصيف(3). وفى سنة اثنتين وثلاثين وألف اجتاح الإفريقيون بجهد بالغ ساحل اليونان وجزرها؛ وتفوق النبيل نتشيفورو عليهم فى المعركة، وأسر منهم خمسمائة رجل(4). وفى شهر مايو سنة خمس وثلاثين وألف تدافع الإفريقيون والصقليون وطفقوا يغتنمون من المناطق الواقعة بين جزر تشكلادى وحتى سواحل تراتشا؛ ولتهورهم كان يكفى لإنزال العقاب بهم حكامُ الأقاليم الذين بعثوا منهم خمسمائة أسير آخرين إلى القسطنطينية،

---

(1) شدرينو، المجلد الثانى، ص ٤٩٦-٤٩٧، ولم يذكر تاريخاً محدداً فى الفترة ما بين عام ٦٥٣٧ وعام ٦٣٣٩ (١٠٢٩- ١٠٣١)

(2) انظر الفصل السابع، ص ٣٥٣

(3) شدرينو، المجلد الثانى، ص ٤٩٩

(4) شدرينو، المجلد الثانى، ص ٥٠٠

وقتلوا من تبقى منهم بخوزقتهم على طول الساحل الأسيوى، من أدرميتو إلى إستروبلو ولم تُلق هذه الوحشية فى القتل الرعب فى نفوس قراصنة إفريقية وصقلية حتى أنهم فى الصيف جهزوا اسطولاً أخر هاجم ليتشا والجزر القريبة منها؛ فهزمهم أسطول المنطقة وأسرهم، وقتلهم بإلقائهم فى اليم مكبلين بالأغلال، ما عدا جماعة منهم مكونة من خمسمائة رجل اقتادهم إلى حاضرة الدولة دليلاً على النصر. وفى تلك الأثناء وبهذه الطريقة أرسل البلاط البيزنطى إلى أمير صقلية رجلاً يُدعي چورچو بروباتو، للتفاوض على السلام(1)، أو بالأحرى لحمله عليه. وذهب إلى المعز بن باديس رسولٌ إغريقى أخر محملاً بالكثير من الهدايا من الحرير، والثياب وهدايا نادرة(2).

وكان الأكحل قد وقع فى أرض وعرة حاول الخروج منها وولج طريقاً مختصراً أوقعه فى منزلق. وتروى الحوليات أنه عندما كان مع قواته يقاتل الأعداء على أرضهم، غالباً ما كان يترك قيادة الجزيرة لابنه جعفر، الذى كان على النقيض منه : إذ لم يكن عادلاً ولارؤوفاً مع رعيته. ودونما قصد نطوى الصفحة، فنقرأ أن الأكحل بعد أن تجمهر الصقليون، قال لهم إنه يريد أن يخلصهم من الإفريقيين الذين يقاسمونهم أرضهم وضياعهم(3)؛ وإنه على استعداد لطرد اولئك الدخلاء. فرد عليه الصقليون أنه ليس فى مقدوره ذلك، إذ إن الإفريقيين تعاهدوا معهم وبينهم علاقة نسب وقربى فانصهرت السلالتان

(1) شيدرينو، المجلد الثانى، ص٥١٣ وص ٥١٤، وفيهما يذكر أن غزوة ترانتشا وقعت فى شهر مايو ٦٥٤٣، ثم يشير إلى السفارة التى قام بها چورچو بروباتو وإلى أحداث أخرى، من بينها الأحداث الأخيرة التى وقعت فى العام نفسه كغزوة ليتشا التى يرجع تاريخها بهذا إلى شهر أغسطس.

(2) **البيان**، النص، المجلد الأول،ص ٢٨٦، وقائع عام ٤٢٦ (من ١٥ نوفمبر ١٠٣٤ حتى ٣ نوفمبر ١٠٣٥).

(3) وهذه العبارة الأخيرة شديدة الخطورة نجدها عند النويرى فقط، اما ابن الأثير فلم يذكر ذلك.

وصارتا سلالة واحدة. ثم ودعهم الأمير. واستدعى الإفريقيين إلى حضرته، فعرض عليهم العرض نفسه على حساب الصقليين وضدهم؛ فقبلوا. ولذا حابى الأكحل الإفريقيين: فوضعهم من حوله واصطفاهم؛ وأعفى ضياعهم من الضرائب والمكوس وأسقط الخراج فقط عن ضياع الصقليين(1). ومن هذه الإشارات المبهمة الغامضة، المتباينة المتضاربة عند النظرة الأولى لها، ينبغى علينا تمييز ومعرفة الأحداث التى شتتت شمل صقلية الإسلامية وقلبتها رأساً على عقب.

وفى كتب التراث التى يرجع تاريخها للقرنين الأولين من الهجرة نجد أن الجند يطلق عليهم وبشكل مألوف درجوا عليه اسم البلد التى كانوا يقيمون فيها: كالسوريين، والمصريين، والخراسانيين الذين كانوا ينتقلون بين الفينة والفينة إلى إفريقية وأسبانيا، وهم الجند العرب النازحون من سوريا، ومصر وخراسان، فاختلطوا بعتقائهم من الأجناس المهزومة. وعلى مشارف عام ألف، كان يمكن إطلاق تسمية صقليين على السلالات المنحدرة من الفاتحين العرب الأوائل لهذه البلاد؛ وإفريقيين على أبناء الذين نزحوا إليها عندما سقطت أسرة الأغالبة (٩١٠)، وعندما جاءت أسرة الكلبيين (٩٤٨) وحتى أولئك الذين قد أخرجتهم للتو من إفريقية المجاعة والاضطهاد الدينى. ولكن بقياس هذه الفرضية مع الظروف والأحداث التى تخبرنا بها كتب التاريخ، سنجد أنها فى جزئية منها قد تكون صحيحة ومتوافقة وفى الجزئية الأخرى غير ذلك. ومن الجائز القول بأن الإفريقيين كانوا يشاركون فى البلاد، أى يشاركون فى المناصب العامة ورواتب الجند؛ وبمعنى أكثر اتساعاً

(1) ابن الأثير، وقائع عام ٤٨٤، المخطوطة *A*، المجلد الرابع، الورقة١٣٤ الوجه الأول، والنويرى فى كتاب دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٢٢، وكلاهما ينقل هذا المقتطف، والظاهر بجلاء أنه من مقتطفات الأحداث. والاختلاف الوحيد الذى يظهر يكمن فى لفظة «حيازة» التى ذكرها النويرى فى كتابه. وأبو الفدا، *Annales moslemici*، ٤٨٤، المجلد الثالث، ص ٢٧٦، وابن خلدون *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ، الترجمة، ص ١٧٩ يشيران إلى الحدث إشارة عابرة.

يمكن التسليم بأن مشاركتهم كانت تمتد لتشمل ملكية الأراضى(1)؛
غير أنه من الصعب الاعتقاد بأن قلة قليلة من عائلات الفارين والمغامرين
قد زاد عددها لدرجة أن الأكحل اعتمد عليها للوقوف ضد الأسر
العريقة النبيلة وضد مسلمى الجزيرة. ولا يبدو لى حقيقيا أن أميراً
عربياً ينحدر من أصل نبيل قد أنزل إلى موضع الرعية، أو عامة الناس،
صفوة الأشراف، ونحاهم عن الجند: ولهذا وردت كلمة «طرد» فى
النص، والتى لا تعنى طردهم من البلاد. وكذلك فليس من الواقع أنه
رفع الخراج على ضياع الأسر العريقة وتجاوز عنه للأشراف الجدد:
فهذا جور لا يتطرق إلى فكر حاكم مطلق مسلم. غير أننا نقصد، حسب
مفهومنا ومادرجنا عليه، أن الصقليين هم ذرية السكان الأقدمين التى
تربّت فى حظيرة الإسلام ونشأت فى كنفه، وأن الإفريقيين هم سلالة
الجند النازحين من إفريقية الذين استقروا بالجزيرة فى أزمنة مختلفة،
فأسماؤهم متوافقة مع أصولهم وبهذا يمكننا التعرف جيداً

---

(1) أى أن الأراضى منحت لهم لاقتسامها بين الجند وحق وضع اليد على الأراضى البور غير المزروعة؛ وكانت تلك هى الطرق المشروعة الوحيدة لأمير مسلم لمنح الأراضى. غير أن هذه الطرق لم تحدث أو كانت نادرة الحدوث فى القرن العاشر، عندما نزحت أسر جديدة من إفريقية؛ لأن الفتح قد انتهى وأصبح أمراً واقعاً، ولأن الأراضى التى تم الاستيلاء عليها على طول الساحل الشرقى الذى احتل فى ذلك الحين، اعتبرت فيئاً، أى أصبحت أملاكاً عامة، حسب الشهادة الصريحة التى وردت فى الحوليات. ولن استعمل المعنى المتخصص لفعل شرك، المستخدم هنا فى صيغة الغائب، والذى قد يشير ليس إلى «المشاركة» ولكن إلى «المخالطة». ولاحظ الأستاذ دوزى فى تحقيقاته الحاذقة الثاقبة عن أسبانيا الإسلامية، أنه فى التنظيم الأول لملكية الأراضى فى حوالى عام ٧١٩، أستقر الفاتحون فى أراضى المهزومين وتركوا لهم زراعتها وفلاحتها، وكان يُطلق على هؤلاء وأولئك كلمة شريك، أى «مشارك فى الملكية» انظر **البيان**، المجلد الثانى، ص ١٦، فى شرح ما استغلق من الألفاظ. وإذا ما طبقنا هذا المثال على الحالة التى نحن بصددها، فقد يزول الشك والريبة: فالصقليون هم المهزومون الذين انتزع منهم المنتصرون جزءاً من أراضيهم، كما حدث فى إيطاليا وانتزع «نصيب البربر». ولكن حول هذه النقطة الخلافية بالذات لا يمكن إقرار نظام مخالف بهذا الشكل لقانون المسلمين وشرائعهم؛ وهذا النظام فى أسبانيا كان استثناء، بالرغم من عدم تفسيره بشكل مغاير للتفسير الذى أورده العلامة الأستاذ بليدن.

على ما استغلق فى النص. وعندما أراد الأكحل تحريض الصقليين، فإنه
يذكرهم بأن الدخلاء يتمتعون بنصيب من إرث أسلافهم؛ وعندما ينتقل
من الخطابة والكلمات الرنانة إلى سرد الوقائع، فإنه يميز بين ملكية(1)
هؤلاء وأولئك: إذ يترك أراضى المنتصرين أو يعفيها، ويثقل العبء على
أراضى المهزومين، فيطالبهم بحقوق ضريبية، لم يكن ليرد عليها إلا
الفقهاء من أتباع الإمام مالك(2). وهكذا ظهر فى صقلية جيل من البشر
لم يكن من الممكن أن يوجد؛ وهو جيل أطلق عليه فى أسبانيا المولدين
ساعد على تفكك الخلافة(3)؛ وهذا الجيل الجديد بعد مضى عشر
سنوات على هذه البدعة التى ابتدعها الأكحل أمسك بمقاليد الأمور فى
صقلية الوسطى؛ وهم «أناس وضيعون» كما كانت تسميهم فى ذلك الحين
بهذا الاسم أخبار الأحداث التاريخية(4). وفى حقيقة الأمر فإن

---

(1) أملاك جمع مِلك ومُلك. وبين هاتين اللفظتين المشتقتان من أصل واحد، توجد الآن فكرة التمييز بينهما تمييزاً ينبع من فكرة بعض المستشرقين الفرنسيين، وهى أن الشريعة الإسلامية لا تقر الملكية الحقة إلا للأمير، وأنها لا تعطى إلا الحيازة للخاصة أو على الأقل للغالبية من الناس. وتمييزهم هذا صحيح، ولكن كان هناك تيسير فى تطبيقه وعلى نطاق كبير؛ كما أشرنا إلى ذلك فى الكتاب الثالث، الفصل الأول، ص ١٦ وما بعدها من هذا المجلد. أما بالنسبة للمسميات المختلفة، فالظاهر لى أنها تسميات تعسفية، أو أنها ظهرت مؤخراً فى تركيا، التى ليست هى أصل العرب، ولا نموذج القانون العام الذى يحتذى به. فلم يفرق فقهاء القانون العام الذين عاشوا فى القرن العاشر في هذه التسمية؛ والماوردى، الذى كان يعرف اللغة والقانون، لم يميز تمييزاً مختلفاً بين طريقتى الملكية، وهما «ملكية تابعة لعامة المسلمين» وهى خاصة بالأراضى التى أسلم صاحبها فينبغى عليه مع ذلك دفع الخراج، «وملكية تابعة لغير المسلمين»، وهى تتعلق بالأراضى التى تدرّ عشوراً، أى معفاة من الخراج، إذا آلت إلى أيدى المسلمين. إذن فكلمة أملاك تتركنا فى نفس النقطة التى انطلقنا منها.

(2) كان الأكحل يمكنه الادعاء بالمطالبة بحق أغتصب؛ أى التأكيد على أنه عند الفتح امتلك عموم المسلمين تلك الأراضى وتركوها للمسيحيين نظير دفع الجزية، وأنه بعد ذلك تحول حائزوها إلى الإسلام، وتجاوزاً تم أعفاؤهم من الخراج، ورفع عنهم العُشر الشرعى فقط.

(3) انظر ملاحظات دوزى الجميلة والقيمة، فى مقدمة **البيان**، §١ ، ص ٦. وكلمة مُولَّد تعنى بالضبط «ولد فى البيت» ومن ثم «فهو عربى من دماء مختلطة» ولد من أب عربى وأم أعجمية، أو من أم حرة وأب عبد. ولذا نُطلق عليه فى لغتنا لفظة مُهجن (مُوَلَّد).

(4) انظر الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب.

التقسيم ما بين إفريقيين وصقليين يقوم على أساس تقسيمهم إلى منتصرين ومهزومين، إلى أشراف وعامة، وكما يحدث فى كل بلد من البلاد التى يتم فتحها، كانت تختلط الأجناس فيما بينها، فيبقى التميز بين طبقاتها: ففى إيطاليا أضحى الإيطاليون هم الشعب، بينما اللونجوبارد هم النبلاء؛ وفى فرنسا كان يوجد الغاليون والفرنجة، وفى إنجلترا، السكسونيون والنورماند. ولم أتطرق بحديثى إلى أن الصقليين كانوا هم العرب، وأن الأفريقيين هم البربر، لأن ذلك قد يبعدنا ويخرج بنا عن الاستخدام اللغوى والأحداث التاريخية، التى بينت لنا تقلص سلالة البربر وزوالها من صقلية(1).

وتناقص الأشراف وضعف شأنهم، كما حدث فى أى دولة إسلامية أخرى، من جراء صراعاتهم ضد الإمارة. فبعد الأغالبة والفاطميين الأوائل، قصم ظهرهم (٩٤٨) الحسن بن على الكلبى؛ أما ابنه أحمد فقد أخذ باللين والحيلة البقية الباقية منهم (٩٦٦)؛ وابنه الآخر أبو القاسم استدرجهم معه للاستشهاد فى موقعة أستيلو (٩٨٢). ولذا فإن الأشراف، لفضائلهم ومناقبهم التى ظهرت فى حروب الاستقلال والحروب الدينية، ولمثالبهم فى الفتن والمنازعات من أجل حكم القلة، فقدوا أصالتهم الجوهرية، ولم تعوضهم للأسف الأسر النازحة من إفريقية: ولقلة أعدادهم وانخفاض قدرتهم، لعلهم بدأوا يضيقون ذرعاً من خوض غمار الحرب فى الوقت الذى كان فيه الكلبيون يشجعون الآداب، وحسن المعاملة ولين الجانب، والحياة الناعمة البهيجة.

وبعد مضى قرنين على الفتح، ازدادت أعداد الناس، أو المواطنين كما نريد أن نطلق عليهم. فمن ناحية نجد المسلمين التجار وأهل الحرف ينتقلون من إفريقية إلى صقلية ويجمعون الأموال باشتغالهم فى الصناعة؛ ومن جانب آخر، كان مسيحيو البلاد وهم أكثر عدداً،

(1) لسنا فى حاجة إلى التنويه إلى أن هذه الأسماء لا يربطها رابط مع الأسماء التى ذكرها شيدرينو عن قراصنة الدولتين الزيرية بإفريقية والكلبية بصقلية، الذين كانوا يهاجمون أملاك البيزنطيين فى المشرق.

وكانوا هم أصحاب الأراضى ومستأجريها يتحولون إلى الإسلام؛ أما عتقاء بيوتات الأشراف الذين أسلموا فبدأوا يتجهون إلى المناصب العامة وينخرطون فى الجيش؛ وأبناء هؤلاء وأولئك، توفرت لهم مجاناً دراسة الفقه فأصبحوا من الوجهاء بفضل العلم المقدس، وكانوا يشكلون تلك الطبقة التى تفوّقت على طبقة الأشراف تفوقاً كبيراً لكثرة عددها، ولم تكن لتحسدها على ما تنعم به من مزايا الثراء وموهبة العقل؛ وكانت تعمل معها جنباً إلى جنب فى وظائف الدولة وتفوقها فى مجالس الجماعة. وظهر النضج فى مواطنى مدينة بالرمو منذ منتصف القرن العاشر، عندما آثروا الحسن على الأشراف؛ فترك عامة الناس، كما يحدث دوماً، الأشراف وساروا وراء من اتخم بالمال من الأفراد واتبعوهم. وكان لزاماً وقوع الأمور نفسها وما ترتب عليها من آثار فى الحواضر الصغرى، مع وجود فارق العدد الأقل من النازحين من إفريقية. وكانت القرى، وهى مستقر الفلاحين، فى يد صغار المُلاك ذوى الأصول الصقلية، مع وجود اختلاط قليل أو معدوم مع الأشراف. وكان الأشراف لهم الغلبة والسيطرة فقط على الساحل الشرقى للجزيرة الذى أُحتل مؤخراً والذى كان يقطنه المسيحيون(1)، فكانت الطبقات الدنيا لا تدخل فى نسيج الدولة الإسلامية. وفى أرجاء الجزيرة شعر المواطنون أنهم أكثر قوة من الأشراف لمحاباة الأمراء الكلبيين لهم حتى ذلك الوقت. وبالرغم من ذلك لم يكن الحسد قد ولد حرباً أهلية. فقد ذهبت طى النسيان تلك الكلمة المشئومة بعد زوال البربر: فحينما كانوا يتقاتلون فى الساحة فإن ذلك كان لاقتلاع التصرفات الغريبة ومنعها من أحد الحجاب أو الأمراء.

(1) فى حقيقة الأمر فإنه أثناء الثورات التى وقعت فى عام ١٠٤٢، ظل الجانب الشرقى من صقلية فى يد الأشراف، أما وسطها وغربها فكان يسيطر عليهما عامة الناس، كما سنرى ذلك فى الفصل الثانى عشر من هذا الكتاب.

ولكن الإمارة، للضرورة أو طمعاً منها، أشعلت نيران الفرقة. وإذ تناقصت أعداد الجند الصقليين: وطردت الجند المرتزقة (١٠١٥) لم يتبق أحد للدفاع عن البلاط (١٠١٩)، وثمة قلة قليلة من الجند كانت هناك للذود عن الدولة. وفكر الأكحل فى الأمر، وقد أفاق من خطر مهاجمة البيزنطيين له ومساندة المعز (١٠٢٥)، وبوصفه رجل حرب أظهر بأسه فى كلابريا، ربما كان يستهويه الخروج ومن ورائه جيش أكبر ومحاكاة الكلبيين الأوائل فى مناقبهم. ولكن فى هذه الظروف الحالية، لم يكن من الممكن تشكيل الجيش وتزويده إلا بالمرتزقة؛ ولم تكن عوائد الضياع الأميرية ومواردها تكفى لسد النفقات، أو أنه أراد الاحتفاظ بها لبلاطه؛ ولم يجرؤ على زيادة الخراج، بعد ما رأى ما حدث مع أخيه. ولم يكن أمامه وسيلة سوى تقسيم رعيته، التى عندما اتحدت طردت جعفر؛ ويصطفى لنفسه جزءاً منها، وبمساعدة هذا الشطر ومؤازرته له يمكنه الحصول على المال من الشطر الآخر. وتم التقسيم: والاختيار مما لا شك فيه كان بين الأشراف وعامة الناس: وكان القسم الأول يزدرى الأناس الجدد ويحتقرهم، ويحرص على الحصول على رضا البلاط ونعمه، ومنظم، معتاد على شئون الجيش؛ أما أناس القسم الآخر فكانوا مهتمين بحرفهم وصنائعهم، وليس لهم تاريخ ولا روابط سلالات عريقة؛ وبقدر كثرة عددهم، كانوا يدفعون. وهمس الأكحل فى آذان هؤلاء وأولئك ليتلمس مشاعرهم ويذكى قرائحهم ويحرضهم، قبل أن يأتى إلى تمثيلية الاجتماع بهم. وما أن عقد عزمه، حتى اغتنم فرصة الحرب التى تدور رحاها فى كلابريا أو وجود تذمر ضد ابنه، وقام باستدعاء وجهاء صقلية للاجتماع بهم؛ وعرض عليهم ظروف الدولة وأوضاعها وخيرهم بين أمرين، أحدهما مستحيل والاخر مرّ: أن يقوموا هم بإمداد الجيش بالرجال أو بالمال. وعندما رفضوا الأمرين، قام بإنجـاز مشروعه، الذى سبق أن وافق الأشراف عليه بالتأكيد. فأعلن أن الصقليين مُلزمون بدفع الخـراج أو العُشـر المزدوج بدلاً

من الضريبة الثابتة المقررة: وحَصَّل المال بساعد الأشراف والمرتزقة الشديد، وقد جمعهم فى ذلك الحين، وأحضرهم إلى بالرمو، ورابطوا فى الخالصة وفى الأماكن الأخرى الهامة. وهكذا يبدو لى إمكانية تحديد الانقلاب الذى قام به الأكحل، والذى وقع ما بين سنة إحدى وثلاثين وألف وسنة خمس وثلاثين وألف، لأنه قبل حلول سنة إحدى وثلاثين وألف كان يخوض غمار حرب فى كلابريا، وقد أشار إليها الكتاب البيزنطيون(1) فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وست الاف (١ سبتمبر ١٠٣٤ إلى ٣١ أغسطس ١٠٣٥) وهو تاريخ بداية الحرب الأهلية فى صقلية؛ وفى سنة أربعمائة وسبع وعشرين هـ (٤ نوفمبر ١٠٣٥ إلى ٢٣ أكتوبر ١٠٣٦) يدرج الكتاب العرب قيام المغلوبين بالثورات(2).

وقد يقع اللوم على الأكحل، لو أن أملاك الدولة كانت كافية لتقوية الجيش؛ وإن لم تكن كذلك، فيجب توزيع اللوم على الصقليين لرفضهم دفـع الضرورات، وكذلك على الأمير الذى كان يتصـــرف بدهاء

(1) شيدرينو، المجلد الثانى، ص ٥١٤.

(2) ابن الأثير والنويرى، وأبو الفدا وابن خلدون، المواضع المذكورة. وبخصوص هذه البدعة التى جاء بها الأكحل، وكانت بداية انهيار صقلية الإسلامية لست فى حاجة للتنبيه إلى أننى أخذت فى أعتبارى رأى مارتورانا، المجلد الأول، الفصل الرابع، ص ١٢٨ وما بعدها، وهو الرأى الذى يتفق مع رأى ونريش، الكتاب الأول، الفصل السادس عشر، § ١٤٠. ولكنى أرى الظروف العامة بشكل يختلف ايما اختلاف، وأرى للحدث تفاصيل أخرى؛ وبناء على ذلك اسهبت فى شرح أسبابها. ولست أدرى لماذا ينسب مارتورانا ومعه ونريش إلى الحسن بن يوسف، الملقب بصمصام الدولة، السلام الذى أُبرم مع الإمبراطورية البيزنطية مع بداية الحرب الأهلية، والذى تم إبرامه على اليقين من قِبَل الأكحل. وفى الحقيقة، فإن شيدرينو قد تحدث عن هذا الأمر، وأطلق على أمير صقلية اسم أبو الفار مَوكومت، وهو اسم لا يتوافق لا مع كنية الأكحل، ولا مع اسمه، أحمد. والظاهر أن أبو الفار هو تحريف لاسم أبى جعفر (انظر الفصل السابع من هذا الكتاب، ص ٢٥٢): وعلى أية حال فإن التاريخ الذى ذكره شيدرينو غاية فى الدقة والتحديد بحيث لايدع مجالاً للشك. وحياة القديس فيلاريتو، فى كتاب جايتانى، *Sanctorum Siculorum*، المجلد الثانى، ص ١١٤ وما بعدها، وفى البولانديستيين، الأول من شهر إبريل، ص ٦٠٥ وما بعدها، تؤكد تأكيداً تاماً حدوث هذا التزامن.

وعنف لا يبررهما حميد قصده. ولكن فى هذه الحادثة، كما حدث فى مئات من الأحداث الأخرى الهامة والأكثر ذيوعاً وقرباً، فإن التاريخ لا يتوصل إلى التعرف على المذنب الأول متلبساً بفعلته. وكان الصقليون هم أول من حمل السلاح، وفيما يبدو كانوا تحت إمرة أبى حفص(1)، أخى الأكحل، الذى كان يتحرق شوقاً لانتزاع الملك منه، كما فعل ذلك من قبل علىّ أخوه الآخر، مع جعفر والأكحل نفسه، وقد قام بذلك طواعية أو على كره منه: ولذا فإن أولاد يوسف الصالح يشبهون بقوة الأدارسة. ويبدو أن الأمير هو أول من طلب مساعدات أجنبية، فقد قدم إليه لعقد السلام، بعد شهر مايو سنة خمس وثلاثين وألف، چورچو بروباتا. ويقول البيزنطيون إنه «أجرى المفاوضات ببراعة واقتدار» حتى إنه عاد إلى القسطنطينية ومعه ابن الأمير؛ وتم إبرام السلام قبل نهاية شهر أغسطس؛ وقبل الأكحل من الإمبراطورية منحه لقب **المعلم**؛ ولما كان أبو حفص يقاتله ويطارده، اضطر لطلب العون من صاحبه الجديد، الذى سارع بإرسال منياتشى ومعه جيش(2). ولقب معلم كان منصباً من مناصب البلاط الكبرى الخاصة بالنبلاء وكان أيضاً رتبة من الرتب العسكرية، كما نقول نحن مارشال(3): ولذا نجد أن دوقات نابولى وبعض دوقات ڤنيسيا(4)، ورؤساء الدول التى تتبع إسمياً البلاط البيزنطى، كانوا يتلقبون بلقب معلمى الجيوش؛ كما نجد

(1) **'Απόχαψ** وهى نقل غاية فى الدقة حسب الأسلوب الذى كان يتبعه اليونانيون. وبنفس الحروف كتبوا اسم أبى حفص (عمر بن شعيب) فاتح جزيرة كريت. انظر الكتاب الأول، الفصل السادس، ص ١٦٢. ولم يُعر رامبولدى هذه الدقائق والتفاصيل اهتماماً، فكتب أبا كعب، وهكذا نقل عنه مارتورانا وونريش.

(2) شيدرينو، المجلد الثانى، ص ٥١٣ ـ ٥١٤.

(3) دوكانج، **المعجم اليونانى**، تحت لفظة **Μαγίστερ** ، **والمعجم اللاتينى**، الطبعة الثانية، تحت لفظتى *Magister officiorum* و *Magister militum*.

(4) دوكانج، المرجع المذكور، *Magister militum*.

أن منزلة الأشراف كان البلاط البيزنطى يمنحها تارة للدوچات الأصدقاء وتارة أخرى للأمراء اللونجوبارد الموالين له(1). ولذا فإن اللقب الذى مُنح للأكحل لم يكن كلمة جوفاء بل كان علامة من علامات التبعية والخضوع، ووصمة فى جبين الكلبيين وكل مسلم، وذريعة رائعة لرعية فقدت ولاءها له، ولأخ طموح ولدولة مجاورة قوية ذات حول وطول.

وما اتخذه الأكحل من إجراءات وتدابير وما أحرزه من نجاحات وانتصارات فى الحرب الأهلية دفعت المتمردين لمحاكاته فيما فعل. فبعد اليوم الرابع من شهر نوفمبر سنة خمس وثلاثين وألف، ذهبت إلى المعز بن باديس رسل الصقليين يعرضون عليه الجزيرة، إذا ما قام بتخليصها من ظلم الأكحل وجور الذى لم يعد لهم طاقة على احتماله؛ وهددوا بأنه إن لم يفعل، سيرتمون فى أحضان الإمبراطورية البيزنطية، وقد استبد بهم اليأس والقنوط. فأرسل معهم المعز ابنه عبد الله، ومعه ثلاثة آلاف من الخيل وثلاثة آلاف من المشاة. واشتبك مع الأمير فى حرب طــويلة، وفى كثير من الأحـــايين كانت له الغلبة(2) بفضل المدد الذى كان يمده به الصقليون وأبو حفص، وعندئذ أُرســل ليونى أوبو (١٠٣٤) لتولى قيــادة جيش إيطــاليا، مكان أوريستى، فعبر الفارو سنة سبع وثلاثين وألف، بتشــجيع من الأكحــل، الذى ضُيق عليه الخناق. فإذا بليونى يفسح له الطريق؛ ويكسر أجناد المعز: وبعد ذلك

(1) على سبيل المثال، مُنح لقب شريف فى عام ٧٨٨ لأريچيزو أمير بنڤينتو؛ وفى عام ٩١٦ لدوق نابولى ولأمير سالرنو؛ وفى عام ٩٩٩ لچوڤانى ابن بيترو أوسيلو دوچ ڤنيسيا وشريكه فى الحكم.

(2) قارن بين: الروايتين العربية واليونانية. فالرواية العربية نجدها فى كتب ابن الأثير، وأبى الفدا، والنويرى وابن خلدون، أما الرواية اليونانية فنجدها عند شيدرينو، المواضع المذكورة. ودونما شك فالحدث هو بعينه، حيث أن شيدرينو يقول إنه عندما انتصر أبو الفار، استنجد أخوه الآخر بأمير أمراء إفريقية، وتعاهد معه على إعطائه جزءاً من الجزيرة.

انتابه الخوف، أو قال لنفسه إن المسلمين قد يتصالحون فيما بينهم ويتحدون لتمزيق جيش المسيحيين إرباً؛ فقفل عائداً إلى كلابريا، دونما اجتناء أية ثمار أخرى فيما عدا تخليص خمس عشرة ألف من الأسرى المسيحيين وتحريرهم، أو بالأحرى من سكان صقلية الذين أجفلهم الخوف من تلك الحرب الأهلية(1) ففروا منها. وحينئذ كانت الغلبة والسيطرة لجند المعز وأنصاره(2). ولم يجد الأكحل أمامه ملاذاً آخر يلجأ إليه سوى أسوار الخالصة، حيث حوصر وقُتل فى نهاية المطاف. ذلك لأن عامة مسلمى صقلية وقد عانت طيلة سنتين من ويلات الحرب الأهلية وخبرت مرارة الدواء المتمثل فى المساعدات الأجنبية، ضاقت بها ذرعاً وتضجرت منها، وبالفعل عرضت رغبتها فى تحرير الأكحل، غير أن رؤساء الثورة قد سبقوا، وقتلوا الأمير فى قلعته، وقدموا رأسه لعبد الله بن المعز(3).

---

(1) شيدرينو، المجلد الثانى، ص ٥٠٣، ٥١٦، ٥١٧، فى عام ٦٥٤٥ (الأول من شهر سبتمبر ١٠٣٦ حتى ٣١ أغسطس ١٠٣٧)، ويقول إن عدد الأسرى كان ١٥.٠٠٠ من الرومان، أو البيزنطيين. ويجب إسقاط صفر من العدد السابق، أو افتراض أن الأسرى كانوا موالى مسيحيين مقيمين فى صقلية.

(2) قارن بين: شيدرينو، وكتاب الحوليات العربية، المواضع المذكورة.

(3) قارن بين: ابن الأثير، وأبى الفدا، والنويرى وابن خلدون، وأشارة حاجى خليفة، عام ٤٢٧، التى نُقلت نقــلاً خــاطئاً فى ترجمة كارلى، ص ٧٠. وابن خـــلدون، المصدر المذكور، ص١٨٠ من الترجمـــة الفرنسية، يخلط أحداثاً وتواريخاً، كما يضيف أسماء ويغير أرقاماً. ثمة خطـــأ، على ما أعتقد، ورد فى مخطوطة باريس، جعل دى فيرجيه يترجم كما يلى:

"et Cité rent en leur présence l'emir El-Akhal, qui fut décapité par leur ordre;"، بدلاً من أن يقول: «وضربوا حصاراً على أميرهم الأكحل، الذى قُتل بعد ذلك». حياة سان فيلاريتو، المذكورة سابقاً، وتحت أيدينا النسخة اللاتينية منها فقط، تقول ميكيلى بافلاجونى أرسل الجيش إلى صقلية.

"tum ab ejus provinciæ Toparca tum a Siculis nonnullis Sœpe rogatus" وينقل الحدث كما نقله العرب فيقول:

"Interim vero Barbarorum tyrannus, eo qui in Sicilia dominabatur per dolum Sublato, bona illius omnia depredatus et in regnum

وظل عبد الله بمثابة صاحب الحاضرة والجزيرة كلها، إلى أن انقض عليه مناياتشى(1).

---

quod ille administrabat invadens, nemine omnino obsistente, Panormi totiusque Siciliæ potitur;" وبعد ذلك يسرد وقائع المعركة التى خاضها مناياتشى. وعن كلمة توباركا، فكما يعلم كل واحد منا أنها لفظة عامة واستخدمت حسب اللغة اليونانية فى تحديد أمير على إمارة صغيرة.

(1) نيلوموناكو، Vita di San Filareto Il giovane، فى كتاب جايتانى، Siculorum Sanctorum، المجلد الثانى، ص ١١٤. وقد سمع كاتب الســـــيرة عن الأحداث من سان فيلاريتو الذى كان يبلغ من العمر ١٧ أو ١٨ سنة فى ذلك الوقت وقد توفى وهو فى الخمسين من عمره. ولم تقع شهادته هذه تحت بصر مارتورانا ولا ونريش؛ وهى شهادة تزيل أى شك حول وجود تزامن بين هاتين السلسلتين من الأحداث اللتين نقل العرب إحداهما والأخرى نقلها شيدرينو. ولقد نوهت بعاليه على أنها أكيدة ومؤكدة تلك التواريخ الخاصة بطلب النجدة الأولى من الأجنبيين، أى الاستعانة بالبيزنطيين والزيريين. وأضيف الآن أنه لما فى ذلك من ازدواجية فإنه يجب إلغاء دعوة البيزنطيين من قبل صمصام الدولة، والدعوة الثانية التى وجهها أبو كعب للزيريين؛ كما أنه يجب وضع إمارة صمصام الدولة بعد حرب مناياتشى وليس قبلها. لقد وقع مارتورانا فى خطأ يعود إلى حد ما إلى رامبولدى؛ كما أخطأ أيضاً ونريش باتباعه مارتورانا. وتحت عام ١٠٢٥ و١٠٢٦، قام رامبولدى، بتحريف روايات النويرى وشيدرينو وأضاف من خياله أحداثاً أخرى.

الفصل العاشر

وكان آخر مجهود قامت به الإمبراطورية اليونانية على صقلية، وأقل مجهوداتها الحربية تعاسة، هو الذى أمر به راهب اسمه چوڤانى وصل إلى قيادة الأمور فى الإمبراطورية عن طريق الفساد الذى لا مثيل له: فقد قدّم أخاً له، وهو غلام سئ، إلى زويه الإمبراطورة فهامت به حباً وهى تقترب من الخمسين عاماً؛ ووضع السم لرومانو أرچيريو، وبينما كان يحتضر، نادى بالعشيق امبراطوراً، وزوّجه فى اليوم التالى أمام بطريرك القسطنطينية الذى بارك العروسين. هكذا صعد ميكيلى بفالجونى إلى العرش، وهو بين متبلد ونادم، ليكون امبراطوراً بالاسم؛ وكانت زويه شبه سجينة بينما كان چوڤانى يتولى أمور الدولة بقوة وحزم ودهاء. ولما استنتج حالة الاضطراب التى كانت فى صقلية، نصب الوزير الراهب الشرك للأكحل؛ وقررّ القيام بالعملية العسكرية، وجعل چورچيو منياتشى قائداً لها، وكان قد قدم الدليل أثناء حروب سوريا (١٠٣٠ ـ ١٠٣٤) على شجاعته البالغة ومشورته الصـــائبة الســـريعة. ولكن چوڤانى، محاباة لأقاربه أو لربيته، أمّر على الأســـطول ســـــتيفانو، زوج أخته، الذى لم يكن رجل بحر أو حرب أو يتمــتع بأية فضيلة. وبعد أن استدعى منياتشى من الحدود مع أرمينيـــا(1)، انقضى عامـــان بين الذهاب والجيئة والاســـتعدادات وتدريب الجيش الجـديد على الالتزام والنظام قدر الإمكان. وكـان الجيش كالعـــادة يزخر بالأجـــانب: بالروس(2) والاسكندنافيين(1) والإيطاليين من بوليا وكلابريا ومع كل هؤلاء فرقة من المرتزقة قوامها خمسمائة فارس إيطالى ونورماندى كانت فى خدمة أمير سالرنو ووفرت له الراحة والأمن حيناً والمتاعب حيناً آخر حتى إنه قدمها بكل رضا إلى منياتشى على سبيل الإعارة(2).

(1) شدرينو، المجلد الثانى، ص ٤٩٤ و٥٠٠ و٥٠٤ وما بعدها، وص ٥١٢ و٥١٤.

(2) *Annales Barenses*، فى كتاب برتز، *Scriptores*، المجلد الخامس، ص ٥٤، السنة ١٠٤١، تتحدث عن فرق روسية عادت إلى بوليا من عملية صقلية العسكرية.

ولقد وصلتنا أخبار عمليات محاربى اسكندنافيا المطلة على بحر البلطيق ومستوطنيهم فى نورمانديا بطريقتين مختلفتين فى الرواية. فقد كان شعراء النرويج وإيسلندا فى العصور الوسطى فى قصصهم الملحمية التى لم تكتب قبل القرن الثانى عشر، يروون أحداثهم المحلية بحيث يصورون الأخبار والوقائع وسط أوراق أغصان بلاغتهم الفجة؛ أما عندما يتناولون مظاهر البذخ والأبهة الخاصة بمواطنيهم فى بلاد بعيدة فكانوا يصيغون هذا الموضوع فى رواية فيها النذر اليسير من التاريخ. فكانوا يطلقون العنان بشكل أكبر للخيال مثلما فى قصصهم الملحمية التى كانوا يملونها بلغتهم ويلقونها لإمتاع

(1) كان الڤرانچيون، وهم قضاة معروفون فى البلاط البيزنطى بدءاً من القرن العاشر وما بعده، من أصل اسكندنافى ويصلون إلى القسطنطينية عن طريق روسيا. وقد استقينا مجيئهم إلى هذه العملية من مصادر أخرى غير المصدر المذكور فى الهامش السابق الذى قد يشير إلى بعض المعاونين الخاضعين للأمراء الروس. عن هؤلاء الڤرانچيين انظر چيبون، *Decline and Fall*، الفصل الخامس والخمسين، مع إضافات ميلمان وملاحظة لصمويل لانج، فى ترجمة *Heims Kringla* لسنورو ستورلسن، المجـلد الثالث، ص ٤. والاســـم مشتق من صـــوتين اسكندنافيين *Wehr*، و*Uaer* أو *Ware* وقد ترجمه لانج «المدافعون».

(2) قارن بين: أماتو، *L'Ystoire de li Normant*، الكتاب الثانى، الفصل الثامن، ص ٣٨؛ مالاتيرا، الكتاب الأول، الفصـــل الســـابع: جوليلمو دى بوليـــا، الكتـــاب الأول، *Plebs Lombardorum Gallis admixta qui bres dam ec.*؛ روبرتو جويسكاردو، *Cronaca* فى كتاب كاروزو، *Biblioteca Sicula*، ص ٨٣٠ فى كتاب موراتورى *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد، وفى الترجمة الفرنسية، الكتاب الأول، الفصل الرابع، ص ٢٦٦، من مجلد أماتو نفسه. ويقول شيدرونى، المجلد الثانى، ص ٥٤٥، إن عدد النورمان كان خمسمائة بالإضافة إلى قائدهم أردونيو. أما أماتو وليونى دوسيتا فيقولان أنهم كانوا ٣٠٠ بقيادة جوليلمو دى هوتڤيل. وعلى العكس من ذلك يشهد جوليلمو دى بوليا، كما رأينا، أن بالفرقة كان هناك عدد قليل منهم، ويبدو لى هذا هو الأصح.

جماعاتهم ويدخلون فيها هنا وهنالك بعض المقاطع الإيقاعية. وعلى النقيض من هذا كان رواة الأخبار والوقائع من النورمان، وقد نشأوا فى فرنسا تحت نير الأدب اللاتينى، يروون بحرية أقل فى إطار الحدود التى يسمح بها التاريخ الكلاسيكى؛ إلا أن رواية الفروسية الفرنسية، التى راجت آنذاك، كانت تغريهم بإضافة بعض ضربات الرماح النافذة. ولقد التزم الرهبان الإيطاليون الذين عاشوا تحت حكم الأمراء النورمان، بالمعيار بنفسه، سواء لعاداتهم السيئة وتملقهم، أم لأنهم فى الغالب لم يكن عليهم شهود إلا أولئك الأمراء والمحاربين: وعلى الأكثر فى عمليات المرتزقة الأولى بإيطاليا، التى تمت الكتابة عنها بعد ذلك بسبعين أو تسعين سنة على أساس ذكريات انتقلت شفاهة عبر جيلين. إلا إننا يجب أن نتحفّظ تحفظاً مختلفاً على الروايات الاسكندناڤية والنورماندية. وسوف نمعن النظر فى هذا فهذه هى المرة الأولى التى يلزمنا الرجوع فيها إلى المصادر الشمالية؛ وسنسعى إلى البحث فيها عن الحقيقة وإلى أن نربطها بالمذكرات اليونانية واللاتينية.

بعد أن جمع جورچيو منياتشى، والنبيل ميكيلى دوتشيانو الملقب «بفوزايولو»(1)، وهو الذى حل محل ليونى أوبو، الرجال فى ريچو عبروا الفنار (فارو) فى سنة ألف وثمان وثلاثين(2). ويروى كُتاب الجانب النورماندى كيف أن الجيش بعد أن عسكر على الأرض بالقرب من مسينا، سار ببطء ونظام نحو المدينة؛ فخرج إليهم المسلمون كالعاصفة، غير عابئين بعدد الأعداء. وقد لمع اليونانيون

(1) **Σφόνδιλος,** وهو *il verticillum* عند اللاتين.

(2) قارن بين: لوبو بروتسبتاريو فى كتاب برتز، *Scriptores*، المجلد الخامس، ص ٥٨، سنة ١٠٣٨؛ وشدرينو، المجلد الثانى، ص ٥٢٠، سنة ٦٣٤٦، (١٠٣٧ ـ ١٠٣٨)، وروبرتو جويسكاردو، *Cronica*، المواضع المذكورة، ونيلو موناكو، *Vita di San Filareto*، فى كتاب جايتانى، *Sanctorum Siculorum*، المجلد الثانى، ص ١١٥، ولدى بوللنديستى، ٦ أبريل، ص ٦٠٨.

عند الصدام، عندما أمر بالهجوم جوليلمو دى هوتڤيل الملقب بالذراع الحديدية، وهو قائد إحدى الفرق النورماندية الكبيرة، مشجعاً إياهم بكلمات تثير فيهم نخوة الرجولة، فانطلقوا متكاتفين كفرقة، وكسروا أعداءهم، ودفعوهم إلى الفرار، وطاردوهم حتى ملاجئهم؛ ويضيف آخر أنهم احتلوا إحدى البوابات. وسرعان ما استسلمت المدينة لمنياتشى(1). ولكن يبدو أن هذه المعركة، التى لا نجد لنا فيها ذريعة لنفى الشجاعة النورماندية، كانت فقط معركة للطليعة. فالمسلمون لم يعتمدوا أبداً فى حروبهم فى صقلية على مسينا، المدينة المسيحية، ولم يحصنوها، ولم يقيموا فيها حامية مهمة.

إن عُقدة الحرب كانت فى راميتا التى أسرع جل جيش إفريقية إليها، على ما يبدو، ووقف على عنق منياتشى ليمنعه من أن يخطو داخل الجزيرة. ولهذا ذهب لملاقاتهم بين حلوقهم ومنحدراتهم ليُظهر لهم أنه ليس مانويلى فوكا، وأنه ما من موقع يمكن أن يكون حصيناً بغير شجاعة الرجال. وكسرهم وقتلهم تقتيلاً حتى إن كتاب الحوليات استخدموا الكناية القديمة قائلين إن أرض المعركة غمرتها أنهار الدم(2). ولكن النصر لم يستمر طويلاً، فقد دافع العرب

(1) قارن بين: أماتو *Malaterra*، وروبرتو جويسكاردو، Cronica اللذين لا يتفقان فى التفاصيل. فالأول لا يذكر اسم مســـينا على الاطـــلاق، ولكنه يقـــول فقط: *"et ont Combattuà la cité et ont Vainchut lo chastel de li Sarrazin;"*: ولكن يبدو أنه يعنى بـ *Cité* سيراكوزا. ولكن مالاتيراً لا تشير إلى البوابة التى تم احتلالها. ولا يتحدث شدرينو عن هذه المعركة بقليل أو أكثر.

(2) شدرينو، المجلد الثانى، ص ٥٢٠، يذكر أن رجال قرطاجنة كانوا ٥٠٠٠٠ رجل، ويقول صـــراحة أن المعـــركة دارت **κατὰ τὰ λεγόμενα Ῥήματα.** وهذا الاسم يتفق مع ريمتا، ريمكتا المذكورتين فى وثائق القرنين الحادى عشر والثانى عشر ومع ريمت التى يتحدث عنها كتاب *L'Ystoire de li Normant*، الكتاب الخامس، الفصل العشرون عند الحديث عن عمليات الكونت روچيرو الأولى. إن الموقع ومذكرات الحروب السابقة تجعلنا نفهم أن الأفارقة قد أرادوا أن يتقرر مصير الحـرب فى راميـــتا وليس فى مسيـــنا. وهذا ما يفسر صمت شـــدرينو عن معركة مسينا وكذلك صمت رواة الأخبـــار النورمان عن معركة راميتا؛ فيكتب الأول عن أيام

الصقليون بضراوة عن مدنهم وقلاعهم، حتى إن منياتشى لم يحتل أكثر من ثلاث عشرة منها فى سنتين(1). وعن هذه الحرب فى مجموعات صغيرة لم تصلنا مذكرات تاريخية، ولكنها صارت عند ضفاف البلطيق موضوع زهو وافتخار قدامى المحاربين، وإبداع وإضافة من جاء بعدهم. إننى اتحدث عن الإنياذة على طريقتهم التى نسجوا بها قصصهم الملحمية مع المغامرات الشبابية التى قام بها أرولدو القاسى، الذى صار فيما بعد ملكاً للنرويج. فإذا استخلصنا الرواية بعد استبعاد الخرافة منها فإنها تكون على النحو التالى: أن أرولدو قد قاد فرقة الڤارنچيين فى جيش منياتشى، وأنه حارب حرباً طويلة فى صقلية ضد عرب البلاد والبربر، وأنه ركب البحر فى بعض المعارك على الساحل، وأنه استولى على بعض الأراضى مستخدماً اندفاع القوات وحماسها والحيل الحربية، وأنه جمع غنيمة كبيرة، وأرسلها إلى بلاط روسيا للاحتفاظ بها ومن هناك حملها إلى بلاده. ولعل فُتاتاً منها مازال باقياً فى متاحف كوبنهاجن وكريستيانيا وبطرسبرج ما بين عملات إسلامية من الذهب تم العثور عليها فيما حول البلطيق، وهى بقايا ثروات الإمبراطورية البيزنطية(2) التى كان أولئك السويسريون يجمعونها.

المعسكر دون أن يقدم تفاصيل عن المعارك الصغرى؛ والآخرون يكتبون عن انتصارات جيوشهم، دون الاهتمام بغير ذلك، أو بإهماله عمداً. وعلى كل حال فإن المعركتين متمايزتان تمام التمايز.

(1) شدرينو، الموضع المذكور.

(2) أنا مدين لفضل السيد ف. ب. بروش، مستشرق كريستيانيا العلامة، بمعرفة عملية أرولدو القاسى هذه وكذلك بالمصادر التى استطعت دراستها وترجمتها إلى اللاتينية والإنجليزية. وقد قدم لى الأستاذ ب. أ. مونش، مؤلف تاريخ النرويج المكتوب باللغة الوطنية، عن طريق السيد بروش، بعض الإيضاحات. ونقرأ أعمال أرولدو القاسى *(Harald Haardraade)* فى مجموعة القصص الملحمية بعنوان: *Scripta Historica Islandorum*، المجلد السادس، (كوبنهاجن، ١٨٣٥) من ص ١١٩ إلى ص ١٦١، وفى كتاب سنورّو ستورلسن، وهو مؤلف ايرلندى عاش فى نهاية القرن الثانى عشر وبداية القرن الثالث عشر، بعنوان: *Heims kringla* أو *Cronicle of the Kings of Norway*، ترجمه إلى الإنجليزية صمويل ليينج، لندن ١٨٤٤، المجلد الثالث، من ص ١ إلى ص ١٦، الملحمة التاسعة، من الفصل

استمر طويلاً شقاء حصار سيراكوزا ويحكى عنه فقط قصة قائد شديد البأس والضراوة، خرج من المدينة عندما وصل إليها جيش

الأول إلى الفصل الخامس عشر. حارب أرولدو، وهو شقيق أولاف القديس، ملك النرويج، حارب بشجاعة وهو شاب فى الخامسة عشرة فى معركة ستيكلستاد (١٠٣٠) وفيها قتل الملك وأصيب هو إصابة بالغة. وذهب بعد أن أخفاه رفاقه المخلصون إلى بلاط ياروسلاو الأول أمير روسيا الذى استقبله استقبالاً ودياً ثم جاهد جهاداً محموداً على حدود بولندا. وعندما طلب أن يتزوج إليزابيث ابنة الملك، أفهمه ياروسلاو انه قد يعطيها له زوجة لو أنه اكتسب أرضاً ومالاً. عندئذ مضى أرولدو يبحث عن الحظ بسيفه. (كل هذا يبدو جيد الصياغة، يضاف إلى هذا أن أرولدو نفسه ومعاصريه هم مصدر الرواية؛ فقد قال أحدهم إنه رآه شاباً يرتدى مسوحاً حمراء اللون، ذا ملامح ملكية وعسكرية، شاحب الوجه، كثيف الحواجب، تتم حركاته على شئ من العنف المنضبط).

ذهب ليحارب فى بولندا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا؛ ومنها انتقل إلى القسطنطينية مع فرقة من المرتزقة تحت الاسم المستعار نوردبريكت، لأن الأباطرة لم يريدوا اشتراك أحد من سلالة الملوك بين الڤارنچيين. (مصادر غير واضحة أو غير مذكورة. ويبدو أن انتقاله محارباً فى ألمانيا وفرنسا وإيطاليا عنصر خيالى).

كان يجلس على عرش القسطنطينية زويه وميكيلى كتلاكتو (ويقصدون كلفاتو ويجب أن نصححه إلى بفلاجونى، دون أن يكون هناك تضارب فى الترتيب الزمنى). الذين أرسلاه ليحارب فى بحر اليونان. (ربما سنة ١٠٣٥ ضد الأفارقة والصقليين الذين كانوا يجتاحون الأرخبيل؛ ولكن هذا لا يمكن تأكيده).

عندئذ تقلد أرولدو رئاسة الڤارنچيين (وليس قائداً، فالقائد العام كان يطلق عليه *Acolutho*، وإنما قائداً للفرقة المرسلة إلى إيطاليا)، وسافر مع چرچر (چورچيو منياتشى) الذى كان يجول بين الجزر اليونانية؛ وكثيراً ما تحارب مع القراصنة. (ومنياتشى لم يكن موجوداً بكل تأكيد). وكاد أن يتشاجر مع چرچر لأن الجيش فى إحدى الليالى كان يتسلق إحدى الهضاب، فتوقف أرولدو فوق هضبة ليتحاشى المناطق المنخفضة غير الصحية بتلك البلاد، وكان چرچر يريد أن يتمركز فى الموقع نفسه. وينتهى الأمر بأن يجريا قرعة فيكسبها أرولدو بدهائه أو بالتدليس فيبقى مكانه. (وهو أمر قد يقارب الحقيقة، وقد يكون حقيقة تغلفها الخرافات).

وأثناء حربه فى صفوف اليونانيين، لم يدفع أرولدو الڤارنچيين أبداً للاستبسال؛ ولكنه عندما يكون وحيداً، يحارب ببسالة ويأتى دائماً بالنصر. ولما تم لوم چرچر لأنه لا يكسب أبداً، فإنه ألقى بالذنب على الڤارنچيين، وفى النهاية ينقسم الجيش إلى قسمين: چرچر مع اليونانيين، وأرولدو مع الڤارنچيين واللاتين؛ ويأتى هذا بانتصارات كثيرة للغاية، ويعود ذاك خائباً إلى القسطنطينية ويتركه الشبان اليونانيون الذين يريدون البقاء مع أرولدو. (الجزء الأول يتلاقى مع المذكرات النورماندية. أما الأجزاء الأخرى فهى خرافات نسجت على بليّة منياتشى).

منياتشى، وأخذ يقتل اليونانيين واللونجوبارد تقتيلاً مثلما يفعل الذئب عادة بالنعاج. وتقدم جوليلمو الذراع الحديدى، وقد أشفق على اخوته المسيحيين، ليبحث عن أشجع محاربى المسلمين فى حومة

عندئذ يعبر منياتشى بالأسطول إلى أفريقية، التى يطلق عليها أرض السراسنة، فيفتح ثمانين مدينة أو قلعة؛ وينتصر فى الميدان على ملك أفريقية، ويحارب سنوات عديدة؛ ويأخذ غنيمة كبيرة من الذهب والمجوهرات وغيرها من المقتنيات القيمة، ويرسلها إلى روسيا، كما قلنا؛ ثم يهاجم ساحل صقلية الجنوبى. (ثم تذكر بعض المقطوعات الشعرية. إن العملية العسكرية الخيالية فى أفريقية مأخوذة من المعارك فى صقلية ضد الأفارقة. والثمانون قلعة أغلبها محض خيال؛ وملك أفريقيا قد يكون إشارة إلى عبدالله بن المعز فى معركة ترانيا).

وفى معركة بحرية انتصر فيها أرولدو على الأفارقة ألقيت جثث القتلى على رمال الشواطئ الجنوبية لصقلية التى اصطبغت بالدماء. (ثم تذكر مقطوعة شعرية. وهذا الحدث لا يمكن تأكيده أو نفيه).

ويمضى أرولدو بالأسطول إلى بلالاند (وهذا الاسم تطلقه الملاحم على بلاد زنوج أفريقية جنوب سرقلاند، أى شمال أفريقية) حيث يحقق انتصارات أخرى ثم يعود إلى القسطنطينية. وتطلب منه زويه جديلة من شعره فطلب منها فى المقابل أن يكتب عنه فى الكتابة اللاتينية. ثم يشفى بطريقة معجزية إمرأة مجنونة، ويخلص البلد المجاور من تنين ضخم؛ ويمضى لمحاربة جيش من الوثنيين عند حدود الإمبراطورية، وينتصر بمساعدة القديس أولاف الذى يظهر له فوق حصان أبيض؛ ووفاءً لنذره يبنى كنيسة فى القسطنطينية. (ولا حاجة لأن نذكر أنها كلها قصص من الخيال. فحصان القديس أولاف الأبيض هو جواد القديس إنياتسيو القسطنطينى فى معركة كلتافوتورو سنة ٨٨٢، المجلد الأول، ص ٤٨٠، الكتاب الثانى، الفصل العاشر، وحصان القديس غريغوريوس فى معركة تشرامى سنة ١٠٦٣).

وعندما أُرسل مع جرجر على رأس الأسطول لسلب صقلية، استولى على أربع مدن. الأولى، بأن حفر سرداباً أسفلها وصل من خلاله إلى منتصف قصر كانت به مأدبة ومرح. والثانية أقوى بكثير، لم يكن من الممكن الاستيلاء عليها بالحرب. ولهذا عندما رأى أرولدو أن أسراباً كثيرة من الطيور الصغيرة كانت تطير منها إلى الغابة القريبة، دهن بعض الأشجار بالقَار، وبعد أن أمسك بالطيور لصق بها شظايا من الصنوبر بعد أن رش عليها كبريتاً وشمعاً، وبعد أن أشعل بها النار أطلق الطيور البريئة، وهكذا عندما عادت إلى أعشاشها فوق الأسقف المغطاة بالقش، أشعلت الحرائق فى كل أنحاء المدينة فاضطرت إلى الاستسلام. (إطلاق الطيور نفسه نجده فى القصص الملحمية الخاصة بالدوقة أولجا، وبملكى الدنمارك هادينج وفريد ليف والقرصان جورموند) وسقطت مدينة أخرى أكبر من الأولى بالحيلة نفسها بعد حصارها لمدة طويلة: فقد تظاهر أرولدو بالمرض وبعد ذلك بالموت وأراد أن يدفن فى المدينة وسط مراسم جنائزية مهيبة، حيث تنافس الرهبان على أن يكون فى كنيسة كل منهم. وكان هو

الوغى، ثم يبتعد المسافة المناسبة ويطلق عليه سهماً نافذاً؛ وعند هذه الضربة يصاب أهل الحامية بالذهول ويلجأون داخل الأسوار مفضلين إلقاء الحجارة والسهام من أعلى، على نزال محاربى الشمال(1). وأياً كانت ضربة الذراع الحديدى، فإن سيراكوزا قد

وعدد قليل من الفارنجيين يخفون أسلحتهم تحت ملابس الحداد الطويلة وكان رفاقه يحملون النعش؛ وعندما صاروا عند البوابة قبضوا على سيوفهم وفتحوا الطريق أمام الجيش كله. (وتنسب حيلة مشابهة إلى روبرتو جويسكاردو فى كلابريا، وإلى فروديه الأول، ملك الدنمارك وإلى قادة آخرين كثيرين). وفى النهاية بينما كان الفارنجيون يضيقون الخناق على قلعة منيعة، تظاهروا بالاقتراب دون سلاح وبالمرح معاً ليستهزئوا بالحامية، وقام جنود الحامية بعمل الشئ نفسه حتى لا يظهروا أنهم أقل منهم. وتكررت المعابثة عدة أيام، وفى أحد الأيام يستل الفارنجيون سواطيرهم المخبأة ويحتلون البوابة كالمعتاد، فى معركة مريرة قام خلالها أرولدو بأمر شخص اسمه هلدور بالتقدم أمام القوات حاملاً الراية فأصيب بجراح خطيرة وعيّر الملك بالجبن. (يبدو هذا أقل خيالاً وخرافة؛ بالإضافة إلى أن هلدور، الذى عاد وآثار الجرح ظاهرة على أحد خديه، قد تم إطلاق *Uef-Ospaksson* عليه إلخ).

وبعد ثمان عشرة معركة انتصر فيها أرولدو فى صقلية وجمع خلالها غنيمة كبيرة، يعود هو وجرجر، الذى يقوم دائماً بدور الخادم أرلكينو فى المسرح. ثم يذهب أرولدو وحده مع الفارنجيين لفتح القدس، وللنزول فى نهر الأردن؛ وفى القسطنطينية يسجن كيداً من زويه بسبب الحب، أو لغيرة عريسها قسطنطين مونوماكو، ويطلق سراحه القديس أولاف بعد أن يتراءى له فى الحلم؛ وأثناء هربه يخطف أميرة يونانية ثم يطلق سراحها، وبعد مغامرات أخرى يتزوج من اليزابيث الأميرة الروسية فى نوفوجورد، ثم ينضم إلى ملك السويد لينزع تاج النرويج من ماجنوس ابن القديس أولاف. وفى النهاية يصبح ملكاً مع ابن أخيه (١٠٤٧).

وفتح القدس الخيالى، وعدم ذكر صقلية مطلقاً بصفتها بلداً إسلامياً ودلالات كثيرة أخرى تبين أن إنيادة أرولدو فى البحر المتوسط قد تم ابتداعها بعد الحروب الصليبية. ومن ثم فهى ليست معاصرة ولا نستطيع أن نؤسس عليها تلك الأحداث التى تشبه الأكاذيب على الأقل: وعلى سبيل المثال المعارك البحرية على سواحل جنوب صقلية، والحيلة الرابعة والأخيرة التى رويناها سابقاً. كما أن المصدرين اللذين ذكرتهما لا يتفقان فيما بينهما فى التفاصيل، كما تختلف هذه التفاصيل فى القصص الملحمية الأخرى التى لم تترجم، كما يذكر السيد بروك.

لقد أشرت إلى العملات الإسلامية التى اكتشفت فى البلطيق مثل غيرها من العملات الكثيرة التى وجدت فى الإمبراطورية البيزنطية. ويتفق العلماء على أصلها. انظر ملاحظة السيد لاينج، المرجع المذكور، المجلد الثالث، ص ٤٠.

(1) قارن بين: مالاتيرّا، الكتاب الأول، الفصل السابع، وروبرتو جويسكاردو، *Cronica*،

قاومت مقاومة طويلة حتى تمكن المسلمون من إعادة تكوين جيشهم وهددوا به المحاصِرين.

وجمع عبدالله بتعزيزات أفريقية عدة آلاف، ويقولون ستين ألف من الجنود المسلحين سواء تسليحاً جيداً أو ضعيفاً(1)؛ وعسكر معهم فى سهول ترابنا شمال إتنا؛ ومنها كان يستطيع أن ينطلق عبر وادى القنطرة إلى تاورمينا أو عبر وادى سيميتو إلى كتانيا وسيراكوزا. وكان أغلب الجنود من المشاة؛ لأنه عندما جاء يوم المعركة، كان عبدالله يعتمد على شوك من الحديد نثر حسب الأوامر على أرض الجبهة وهو لا يعلم أن جياد الأعداء لن يصيبها ضر منها لأن حوافرها قد غطيت بالحديد(2). ولم يكن منياتشى، الذى كان يواجه سيراكوزا المنيعة الحصينة، قد استولى من الجزيرة إلا على ساحلها الشرقى، واضطر إلى العودة للوراء ليتخلص من العدو الرابض خلفه. وعسكر على بعد خمسة عشر ميلاً إلى الشرق من ترابنا، حيث كانت توجد أرض ودير أطلق عليهما اسمه ومازال الاسم باقياً حتى اليوم(4).

النص والترجمة، المواضع المذكورة. إن لفظ *Archadius* الذى استخدم اسم عَلَم أُطلق على القائد، هو لقب، كما يعلم الجميع، رتبة عسكرية، قائد، وليست رتبة قضائية، أى قاض.

(1) هذا ما يقوله مالاتيرا. ويقول الراهب نيلو ١٠٠,٠٠٠، ويقول شدرينو إن العدد كان أكبر كثيراً، وذكر أن عدد القتلى قد بلغ ٥٠,٠٠٠. ومن ناحية أخرى يبدو أن أنونيمو لم يصل إلى الرقم الصحيح فقال إن عدد جنود المسلمين كان ١٥,٠٠٠ جندى. واسم المدينة لا شك فيه: فهى مدينة ترابنا فى كتاب مالاتيرا وفى كتاب أنونيمو؛ و Δραγῖναι فى كتاب شدرينو. وذكر شدرينو والراهب نيلو معسكر السهل، إلا أن الراهب نيلو لم يذكر اسم المدينة إذ نقرأ فى الترجمة *non longe ab urbe*، سواء كان هذا لأن النساخ قد أهملوا الاسم أو لأن سان فيلاريتو كان من ترابنا ذاتها. ولفظ πόλις الذى كان ينبغى أن يوجد فى النص لا يمكن أن يكون المقصود به العاصمة وإنما بالرمو، على عكس شهادة شدرينو والرواة النورمان المذكورين سلفاً.

(2) نيلو الراهب، الموضع المذكور.

(3) لا يتحدث شدرينو هنا عن حصار سيراكوزا، بل يقول إن منياتشى قد أخضع الجزيرة كلها. وموقع المسلمين فى ترابنا يكذبه.

(4) يكفى الاسم للدلالة على أن منياتشى قد عسكر هناك، ويؤكد أن أرض المعركة كانت فى السهول بين ذلك المكان وترابنا. والأرض التى أطلق عليها اسمه يصفها الإدريسى،

وقسم الجيش إلى ثلاث فرق، وهاجم ببسالة تساعده ريح تهب على وجوه الأعداء، أو حسب قول آخرين، جسارة وحمية الفرقة النورماندية، حتى إنه عند أول صدام تشتتت جماعات المسلمين وتفرقت؛ وحصدهم المنتصرون حصداً شنيعاً. ونجا عبد الله بالكاد هو وقليلون من أتباعه. وقد وقعت هذه المعركة فى ربيع أو صيف سنة ألف وأربعين(1).

ثم جرى فى المعسكر همس جعل الجنود يضحكون. وكانت الفرقة النورماندية تحت إمرة أردوينو لومباردو، وهو من رجالات رئيس أساقفة ميلانو ومواليه، وكان رجلاً

ويمكن الرجوع إلى النص فى *Biblioteca Arabo-Sicula*، الفصل السابع، ص ٦٤، الترجمة الفرنسية لچوبير، المجلد الثانى، والموجز فى مصدر دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ١٢٣. وكان اسمها السابق بكل تأكيد هو **غيران الدقيق**. وفى زمن فاتزيللو كانت توجد آثارها وكان يطلق عليها *il Casalino*؛ *De Rebus Siculis*، العشرية الأولى، الكتاب العاشر، الفصل الأول. وعن الدير الذى دمره الزلزال جزئياً سنة ١٦٩٣ انظر بالإضافة إلى فاتزيللو وثائق القرن الثانى عشر فى كتاب بيرّو *Sicilia Sacra*، ص ٣٩٦ و٤٥٦ و٩٧٧ و١٠٠٤. وارجع إلى داميكو، *Lexicon Siciliæ Topograficum*، المجلد الثانى، مادة *Maniacis*.

(1) قارن بين: شدرينو، المجلد الثانى، ص ٥٢٢؛ *Vita di San Filareto*، الموضع المذكور، مالاتيرا، الكتاب الأول، الفصل الرابع؛ *Cronica di Roberto Guiscardo*، فى كتاب كاروزو، *Biblioteca Sicula*، ص ٨٣٢، الكتاب الأول، الفصل الخامس، ص ٢٦٦ من الترجمة الفرنسية. وهذا المرجع يذكر موقع الأماكن وظروف المعركة بشكل مختلف وبطريقة خيالية واضحة. ويقول مالاتيرا كذلك إن المعركة قد كسبها النورمان وحدهم. ويمكن أن ندرك تاريخ المعركة من الترتيب الذى وضعها فيه شدرينو فى سنة ٦٥٤٨ (١٠٣٩ - ١٠٤٠) ومن عودة القائد دوتشيانو إلى البر فى نوفمبر ١٠٤٠. وطبقاً لما يذكره الراهب نيلو، فإن المستبد قائد البربر (عبدالله)، بعد أن هرب بجواده، عاد إلى أفريقية على سفينة صغيرة ونقل إلى البلاد بقايا جيشه. ويروى شدرينو أن القائد القرطاچنى وصل إلى الشاطئ أثناء هربه، حيث صعد إلى قارب صغير وأبحر به إلى أفريقية؛ لأن الأميرال البيزنطى لم يقم بحراسة الساحل حراسة جيدة، وكان منياتشى قد أوصاه بمنع عملية الهروب وصدها. إن من توقع من منياتشى مثل هذا الإجراء الوقائى، كان يجهل بكل تأكيد أن ترابنا تبعد عن البحر أكثر من ثلاثين ميلاً، وأن جبال كارونيا الشاهقة تقف شامخة فى منتصف الطريق. ومن ناحية أخرى تذكر الحوليات العربية أن عبدالله قد طرد إلى أفريقية بسبب ثورة مسلمى بالرمو، كما

نبيلاً(1)، ذا عقل ومشورة وقلب محب مخلص؛ وعندما كان يقيم قبل ذلك بقليل فى بوليا، ورأى الناس الذين يتحدثون لغته نفسها يعانون من النير ووطأته ووجد بالقرب منه قوات تتسم بالشجاعة الفائقة، أخذ يفكر حباً وطموحاً فى عمل جديد ضد البيزنطيين الذين يمقتهم الناس ويحتقرونهم(2). وكانت الفرقة العسكرية تشعر نحو البيزنطيين بشعوره نفسه المليء بالمحبة، وفقد امتدحها منياتشى بالكلام ووضعها فى أول الصفوف عند الخطر، وتركها فى آخر الصـــفوف عند المكافأة

سنروى فى الفصل التالى. من الواضح إذن أن كاتب سيرة القديس فيلاريتو، بل والرواية البيزنطية التى نقلها شدرينو، قد خلطا بين واقعتين متمايزتين وجعلا منها شيئاً واحداً، أى الهزيمة فى ترابنا التى أجبرت عبدالله على اللجوء إلى بالرمو، وثورة بالرمو التى أدت إلى طرده إلى أفريقية.

(1) يقول أماتو عنه: *"Arduyn servicial de Saint-Ambroise archevesque de Milan"* ويقول ليـــونى دوستـــيا: *"Arduinus quidam Lambardus"* (أى من لومبارديا الحالية) *"de famulis scilicet ambrosii;"*، ويقـــول مـــالاتيرّا *"Arduinum quendam Italum"*؛ ويقـــول لوبـــو بروتســـباتاريو *"Arduinus Lombardus"*؛ ويقـــول شـــدرينو «أردويـــنـــو ... وهـــو ســـيد مســـتقل على بلدة بعينهـــا (Ἀρδουῖνον... χώρας τινὸς ἄρχοντα, καὶ ὑπὸ μηδενὸς ἀγόμενον) وفى هذه الفقرة ذاتها، المجلد الثانى، ص ٥٤٥، يقول شدرينو بشكل إيجابى إن الفرقة النورماندية كانت تحت قيادة أردوينو، ولذا قـــــارن هذا بجوليلمو دى بوليا، الكتاب الأول، *Inter collectos erat Hardoinus etc.*، وكذا مـــع *Chronicon Breve Northman.* فى كتـــــاب موراتـــــورى، *Rerum Italicarum Scriptores* المجلد الخامس، ص ٢٧٨ الذى يقول بأن بوليا قد تم الهجوم عليها من جانب النورمان سنة ١٠٤١، *duce Hardoino*. وكل ظروف هذه الواقعة وظروف التنظيم فى ملفى، تدلل على الأمر نفسه. ويفضل أماتو ومالاتيرا وغيرهما من كتاب الجانب النورماندى أن يجعلوا جوليلمو الذراع الحديدى، قائداً للفرقة، ولعله هو الذى قاد فى سنة ١٠٣٨ إحدى السرايا ووصل إلى أعلى الرتب سنة ١٠٤٣.

(2) أماتو، الكتاب الثانى، الفصل السادس عشر وليونى دوستيا، الكتاب الثانى، الفصل السادس والستون، يكتبان الكلمات نفسها تقريباً ويقولان إن أردوينو، الذى أقامه البيزنطيون حاكماً على بعض مدن بوليا بعد الإهانة التى لحقت بهم فى صقلية وأرادوا الرد عليها، كان يشجع ويؤلب المواطنين فى الخفاء على الثورة. وينبغى أن نعد هذا حقيقياً ولكن ينبغى أيضاً أن نذكر قبل هذا عملية صقلية؛ لأنه من المستحيل أن تكون الحكومة البيزنطية بكل فسادها قد سلمت هذه الوظيفة إلى أردوينو بعد الفرار؛ كما لا تسمح بهذا الفترة الزمنية القصيرة بين هروب الفرقة أمام جيش صقلية واحتلال ملفى. وقدو قع أماتو بسهولة فى هذا الخطأ التـــاريخى لعدم معـــرفته بالتواريخ والتفاصـــيل. ويبدو ان

وتوزيع الغنائم. وعندما لم تأخذ حقها من الغنيمة بعد معركة ترابنا، ذهب أردوينو للشكوى من هذا العسف إلى القائد بكلمات قاسية شديدة: ورد عليه هذا بأفعال شنيعة وكان لا يتحمل ولا يخشى شيئاً فى العالم: فأمر بخلع ملابسه وأن يضرب جسده العارى بالسياط الجلدية فى معسكرات الجند. وتحمل أردوينو هذه الفعلة الشنعاء، وعاد إلى معسكر الفرقة، واستمهل من كان يريد أن يفسد الثأر والانتقام بأن يحمل السلاح تواً ضد الجيش البيزنطى كله. وتظاهر على العكس من هذا، بالخضوع والاستسلام، ولكنه لا يستطيع البقاء فى الجيش بعد هذه الإهانة، وهكذا يلتمس من أحد رجال منياتشى التصريح له بالرجوع وحده إلى البر الإيطالى. وبعد أن أمسك بيده المكتوب امتطى صهوة جواده ومعه كل فرقته؛ ويجد فى طريقه إلى أن يصل إلى مسينا: ويعبر المضيق بعد أن يبرز أمر منياتشى؛ ويذهب إلى القادة النورمان الآخرين الذين بقوا فى البر الإيطالى. وينادى بالحرية للشعب، ويشعل النار التى أتت على حكم البيزنطيين فى إيطاليا(1) كما تأتى النار على الهشيم.

فى تلك الأثناء كان قد ثار خلاف آخر. فبسبب عدم الحراسة الجيدة من جانب الأسطول البيزنطى، أبحر عبدالله من كارونيا أو من

أردوينو من طبقة صغار النبلاء الذين ثاروا سنة ١٠٣٣ ضد رئيس أساقفة ميلانو ووقعت بهم الهزيمة. ومن الحقيقى كذلك أنه وغيره من الهاربين ومن الأجانب قد شكلوا جماعة من المرتزقة وأنهم كانوا فى خدمة البيزنطيين قبل سنة ١٠٣٨ وأنه تولى القيادة العسكرية لبعض مدن بوليا.

(1) قارن بين: مالاتيرّا، الكتاب الأول، الفصل الثامن؛ وأماتو، الكتاب الثانى، من الفصل الرابـــع عشر إلى الفصـــل الثـــانى عشـــر؛ وجـــوليلمو دى بوليا، الكتـــاب الأول *Cumque triumphato etc.*. وأخبار روبرتو جويســـكاردو فى كتاب كاروزو، *Biblioteca Sicula*، ص ٨٣٢، وفى الترجمة الفرنسية، الكتاب الأول، الفصل الخامس؛ وليونى دوستيا، الكتاب الثانى، الفصل السابع والستين؛ وشدرينو، المجلد الثانى، ص ٥٤٥. وتختلف هذه المصادر اختلافاً كبيراً فى تفاصيل الخطأ الذى اقترف فى حق الفرقة، ويلصق بعضهم الخطأ بمنياتشى، وبعضهم الآخر بميكيلى دوتشيانو، الذى خلفه فى القيادة بإيطاليا. ولقد فضلت اتباع مالاتيرّا، فروايته أقرب إلى الحقيقة ومترابطة مع الأحداث الأخرى.

تشيفالو واحتمى فى بالرمو التى كان يمكنه منها استئناف الحرب(1). وغضب منياتشى غضباً شديداً عندما حضر أمامه الأدميرال قائد الأسطول، فسبّه بالخمول والجبن وخيانة الإمبراطورية، وضربه ضربتين أو ثلاثاً بعصاه على أم رأسه. وانصرف ستيفانو ليكتب رسائل إلى چوڤانى: فهذا التصرف بوصفه أمير مطلق، وهذا العنف مع أقارب الإمبراطور، يبين بوضوح روح منياتشى المتمردة: وأنه لابد أن يتحرز منه وإلا فسوف يسقط كالصاعقة على القسطنطينية ومعه الجيش المستعد أن يتبعه ويسير وراءه فى كل مصيبة(2).

كانت سيراكوزا قد سقطت، ويبدو أن منياتشى كان قد بدأ العمل على إعادة تحصينها وعلى إعادة الطقوس الدينية والنظام العام إليها؛ ولايزال حتى اليوم اسمه يطلق على القلعة القائمة فى أقصى طرف أورتيجا(3). ويروى كذلك أنه أرسل جسد القديسة لوتشيا فى صندوق من الفضة إلى القسطنطينية بعد أن أرشده إليه عجوز مسيحى؛ وأن الجثمان قد أخرج من مقبرته بحضور الفرقة النورماندية، وأنهم

(1) يفترض شدرينو، الذى يروى هذه الواقعة بشكل منفصل، أن القائد المسلم قد هرب إلى أفريقية وأن منياتشى قد غضب غضباً شديداً وعنف قائد الأسطول لأنه كان قد كلفه بمراقبة الساحل مراقبة جيدة حتى لا ينجو أحد بحياته من هذه الجهة. وموقع ترانيا وشهادة الراهب نيلو ورواية كتاب الحوليات العرب التى ذكرتها سابقاً ص ٣٩٩ الهامش رقم ١ تبين أن الخطأ هو تركه يبحر من إحدى نقاط الساحل فى اتجاه بالرمو. وذكرت الموقعين اللذين قد يكون الابحار قد تم من أحدهما. ومن الواضح أن شدرينو والراهب نيلو تناولا بداية ونهاية هروب عبدالله وأهملا الأحداث التى وقعت بينهما والتى يمكنها وحدها تفسير غضب منياتشى.

(2) شدرينو، المجلد الثانى، ص ٥٢٢ و٥٢٣.

(3) فاتزيللو، العشرية الأولى، الكتاب الرابع، الفصل الأول؛ ويؤكد دون سند آخر أن منياتشى أنشأ القلعة، ويضيف أنه أمر بسبك كبشين من البرونز بقيا فوق بوابة القلعة حتى سنة ١٤٤٨، عندما أخذهما ماركيز چيراتشى ليزين بهما قصره فى كاستلبونو. ثم استولى عليهما ماركيز آخر من چيراتشى فى ثورة من الثورات، فتم احضارهما إلى بالرمو، وانتقلا من مبنى إلى آخر وتمت مشاهدتهما فى سنة ١٨٤٨ فى إحدى قاعات القصر الملكى. ولكن عندما استولى الشعب على هذا القصر، وجد أحدهما مهشماً، بعد أن أصابته، على ما يبدو، طلقة مدفع؛ ووضعت اللجنة الحكومية الكبش الآخر فى متحف الجامعة. ويبدو لى أسلوب سباكته قديماً وليس بيزنطياً.

وجدوه كاملاً وغضاً نضيراً بعد سبعين سنة: كما يروى ذلك بعد نصف قرن أحد قدامى المحاربين النورمان لرهبان مونتي كاسينو، أو هذا ما كتبوه هم على الأقل(1). وبالمثل أمر منياتشى فى المدن المحتلة الأخرى ببناء حصون وقلاع لحاميات قوية، حتى يشجع المقيمين فيها على خلع النير عنهم. وكانت المكاسب تزداد قوة ومنعة، ولم يبق إلا النذر القليل حتى تعود الجزيرة كلها للإمبراطورية المسيحية. ولكن سرعان ما قبض - بناءً على أوامر البلاط السرية - على القائد المنتصر، ونقل بحراً إلى القسطنطينية، ووضع غياهب السجن، وكلّف ستيفانو نفسه وكذلك باسيليوس بدياديتى الضعيف(2) باستكمال الحرب.

وغاب منياتشى عن الجيش فى اللحظة المنكوبة التى رفع فيها أردوينو والنورمان راية العصيان فى بوليا؛ ولهذا اضطر القائد ميكيلى دوتشيانو إلى العبور بجانب من الجيش فى خريف سنة ألف وأربعين(3). عندئذ استأنف مسلمو بالرمو، التى لم يجر احتلالها مطلقاً(4)، هجماتهم. ولم يعرف ستيفانو والضعيف، وكلاهما غير كفء ولص، لم يعرفا القتال فى الريف أو الحفاظ على الحاميات التى نظم منياتشى أمورها؛ وأما القائد الذى حلت بقواته هزيمتان دمويتان بأيدى النورمان (١٧ مارس و٤ مايو ١٠٤١)، فقد استدعى، متعلقاً بآخر أمل، من صقلية جنود كلابريا والمقدونيين

(1) اماتو، الكتاب الثانى، الفصل التاسع؛ ليونى دوستيا، الكتاب الثانى، الفصل السادس والستين.

(2) شدرينو، المجلد الثانى، ص ٥٢٣.

(3) طبقاً لحوليات بارى، فى كتاب برتز، *Scriptores*، المجلد الخامس، ص ٥٤، دخل دوتشيانو، بعد عودته من صقلية، بارى فى نوفمبر ١٠٤٠. (المكتوب ١٠٤١، لأن السنة الجديدة كانت تحسب من الأول من نوفمبر).

(4) لقد استخلص احتلال بالرمو عن طريق الخطأ من أحد أبيات جوليلمو دى بوليا، الكتاب الأول، *Premia militibus Regina solveret urbe*. ويريد كاتب الأخبار أن يقول ريچو وليس «المدينة الملكية».

والباوليتشى(1). أما عن الحاميات البيزنطية فإن من لم تطرد منها قد مضت طواعية(2). وازداد الاضطراب للتغيرات التى وقعت بالدولة ولحالة عدم الاستقرار فى المجالس فى القسطنطينية، فبعد وفاة ميكيلى بفلاچونى (ديسمبر ١٠٤١)، جلس على العرش شاب آخر كان تفكيره ينحصر فى التخلص من زويه ومن وزراء الإمبراطور السابق؛ وهكذا تم استدعاء ستيفانو وبدياديتى، وتم إرسال دوتشيانو دون قوات إلى صقلية لإشعال الحرب من جديد، وكان دوتشيانو قد خاض الحرب قبل ذلك فى البر الإيطالى دون أن يحرز نجاحاً(3)، وقام بما كان ينبغى أن ينتظروا منه. ومع بداية سنة ألف واثنين وأربعين كانت الإمبراطورية قد خسرت الجزيرة من جديد، من مسينا إلى ما بعدها.

وكان يمسك بزمام مسينا نبيل يدعى كتاكلونى، الملقب بالأرسيشو(4)، ومعه ثلاثمائة فارس وخمسمائة من المشاة من جيش أرمينيا، وجاء لمحاربته (١٠٤٢ فى شهر مارس) حشد من المسلمين الذين انتفضوا انتفاضة شعبية فى صقلية كلها تحت قيادة أمير كلبى، على ما يبدو، ربما يكون الصمصام(5). واختبأ الأرسيشو لمدة ثلاثة

---

(1) حوليات بارى، الموضع المذكور.

(2) شدرينو، المجلد الثانى، ص ٥٢٣.

(3) قارن بين: *Annali di Bari* ولوبو بروتسبتاريو، فى كتاب برتز *Scriptores*، المجلد الخامس، ص ٥٤ و٥٨ ومع شدرينو المجلد الثانى، ص ٥٢٥.

(4) **Κεχαμένος.**

(5) يقول شدرينو، وهو المؤلف الوحيد لهذه الرواية، إنه تم إضافة دعم عسكرى من قرطاچنة إلى انتفاضة صقلية الشعبية وقاد الأمير أبو الفار الجيش. ويبدو لى أنه توجد أخطاء فى الكلمات: إذ كتب البيزنطيون اسم أبى الفار لعدم علمهم بموت الأكحل ولعلمهم بوجود أمير صقلية هنالك؛ وأنهم عندما رأوا البربر الفارين وصفوهم بأنهم القوات القرطاچنية المساعدة. وسوف نقرأ فى الفصل الثانى عشر الوقائع التى حدثت بعد ذلك بين المسلمين بدءاً من سنة ١٠٤٠ وحتى سنة ١٠٤٢ والتى يمكننا أن نقبل بشأنها من رواية شدرينو صفة القائد أمير صقلية، وأن نغير اسم الشخص وأن نستبعد خبر القتل. وقد عمل مارتورانا حسناً بتمسكه باسم الصمصام، المجلد الأول، ص ١٤١؛ إلا أنه جعله يذهب إلى مصر ويعود بقوات دعمه بها الخليفة الفاطمى؛ وهى أضفات

أيام داخل الأسوار دون أن يبدى أية علامة على الحياة، وترك العدو يقتنص ويلهو فى الأنحاء ويغريه بالاقتناع أنه خائف مرتاع. وفى اليوم الرابع، وكان يوم عيد(1)، يجمع الحامية فى الكنيسة، ويستنفرها من فوق المنبر أن تقاتل بقوة من أجل الإيمان والإمبراطورية؛ ثم يأمر بإقامة صلاة القداس؛ ويتناول مع كل رجاله من الأسرار المقدسة، وعند ساعة الغداء خمن أن المسلمين ليسوا فى حراسة جيدة، ففتح البوابات وهاجمهم. ولم يستطيعوا لهول المفاجأة أن يمسكوا بأسلحتهم أو أن ينظموا صفوفهم: فشتتهم كتاكلونى، وقتلهم تقتيلاً، ونهب معسكرهم، وعاد ممجداً إلى المدينة، بينما كانت فلول المحاصرين تهرول هاربة نحو بالرمو(2).

وأدى هذا الانتصار إلى تأجيل ضياع مسينا لبضع سنوات أو لبضعة شهور وضياع كل أمل فى صقلية. لأن ثورة الشعوب وتضخم فرقة المرتزقة يوماً بعد يوم بالمحاربين النورمان والإيطاليين القادمين من إيطاليا العليا(3)، كانا يقومان، بما لا يمكن دفعه، بطرد

أحلام رامبولدى، *Annali Musulmani*، ١٠٤٠.

(1) يكتب شدرينو عيد **العنصرة**، ولكن بعد صفحات قليلة (المجلد الثانى، ص ٥٣٨) ينسى هذا ويروى أن كتاكلونى حمل بنفسه إلى القسطنطينية بشرى النصر فى مسينا، فى الوقت الذى كان الشعب قد ثار فيه ضد الإمبراطور الجديد ميكيلى كلافاتو. وطبقاً لرواية شدرينو نفسه، فإن الاضطراب الذى أدى إلى خلع كلافاتو قد بدأ يوم الاثنين من الأسبوع الثانى بعد عيد الفصح عام ١٠٤٢ أى قبل عيد العنصره. ولا يمكننا إطلاقاً أن نتحدث عن عيد عنصرة سنة ١٠٤١، فقد وقع فى يوم ١٠ مايو، فلم تكن قوات كلابريا والمقدونيين والباوليتشيين قد تحركت بعد من صقلية. كما أن التبشير بالنصر لابد أنه حدث فى وقت متأخر. ولهذا فإنى أرى أن اسم العيد خطأ وأنه كان بلا شك يوم أحد السعف أو عيداً آخر.

(2) شدرينو، المجلد الثانى، ص ٥٢٣ و٥٢٤. وأنحى جانباً أبا الفار الذى قتل فى خيمته وسط الخمور، والجنود الذين كانوا يترنحون بسبب السُكر، والوديان وقيعان الأنهار المليئة بالجثث؛ والذهب، والفضة واللآلئ والجواهر الأخرى التى كانت موجودة فى معسكر المسلمين، والتى اقتسمها المنتصرون بالمكاييل (μεδίμνοις)

(3) شدرينو، المجلد الثانى، ص ٥٤٦، يتحدث عن هذه المساعدات من جانب الإيطاليين من المنطقة الواقعة بين نهر البو وجبال الألب.

البيزنطيين من البر الإيطالى. حتى منياتشى نفسه، الذى أطلق سراحه من السجن فى إحدى فترات صفاء القصر، وأرسل من جديد إلى إيطاليا (أبريل ١٠٤٢) اشتهر بحرصه فى خوض الحرب وساءت سمعته للقسوة التى عامل بها الأهالى، واستعاد بعض المدن ولكنه لم يصل إلى الانتصار على النورمان. وقد استثاره بهذا الشأن الزوج الثالث للإمبراطورة زويه أو دفعه بالأحرى إلى التمرد؛ حتى إنه نادى بنفسه إمبراطوراً وعبر بالجيش إلى اليونان (فبراير ١٠٤٣)، واشتبك مع قوات قسطنطين مونوماكو ودحرها: ولكن ضربة سُدّدت إليه بالصدفة أردته قتيلاً فسقط من على جواده. وبعد أيام قلائل كانت القسطنطينية تصفق للجبناء وهم يطوفون برأس منياتشى على رأس أحد السهام(1).

(1) قارن بين: شدرينو، المجلد الثانى، ص ٥٤١ و٥٤٧ حتى ص ٥٤٩، وميكيلى أتاليوتا، *Historia*، الذى نشره م. برونيه دى برسلى، ص ١١ و١٨ و١٩؛ وجوليلمو دى بوليا، الكتـــاب الأول، .*Interea magno Danaum etc*، حتى نهـاية الكتـاب؛ و*Annali di Bari*، ولوبو بروتسبتاريو، فى كتاب برتز، *Scriptores*، المجلد الخامس، ص ٥٤ و٥٨ السنتين ١٠٤٢، ١٠٤٣؛ و*Chronicon Breve Northman*، فى كتاب موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الخامس، ص ٢٧٨، وقائع السنتين ١٠٤٢ و١٠٤٣. ويسعى شدرينو إلى إشاعة الاعتقاد بأن منياتشى قد اخذ فى تعقب النورمان فى كل أنحاء إيطاليا فيما عدا بعض المدن القليلة، وهو قول زائف.

الفصل الحادى عشر

ورأى مسيحيو صقلية البؤساء أنهم بعثوا من جديدة عندما ارتفعت فى مدنهم وحصونهم رايات الصليب حاملة شعار: «المسيح ينتصر». إن القديس فيلاريتو الذى ربما تواجد فى ترااينا غداة المعركة(1)، قد أعتاد أن يروى عن صلوات الشكر العظيمة التى أقاموها بالكنائس؛ وكيف أنهم كسروا الأغلال عن أقدام إخوتهم السجناء، وأن زوال رعب ذلك الطاغية الأفريقى المتغطرس؛ جعلهم يتنفسون نسائم الحرية(2). ويالها من كلمة نعلم مغزاها عندما يتعلق الأمر بالنزاع بين أتباع ديانتين. وها هى أفراح الخلاص المقدسة تختلط بالثأر والتعدى؛ فعندما أجبرت الجيوش البيزنطية بعد فترة وجيزة على اخلاء صقلية، هجرها كثير من السكان المسيحيين إلى البر الإيطالى(3)، تحسباً لانتقام المسلمين. أما غالبية الشعب المعمّد فظـلـت، كما جـرت العـادة، فى مكانهـا حباً فى وطنها، أو للضـرورة أو لفتور الهمم. وعلى هذا النحو كان وادى ديمونى مكتظاً بالمسيحيين(4) عند الغزو النورماندى، كما وجدت قلة منهم

(1) انظر الهامش رقم ١ فى صفحة ٣٩٨ فى الفصل السابق. وتحملنا تفاصيل المعركة وما تلاها إلى الاعتقاد بأن المؤلف كان موجوداً فى ترااينا.

(2) نيـلو موناكـو فـى *Vita di san Filareto*، عنـد جـايتـانى *Sanctorum Siculorum*، المجلد الثانى، ص ١١٥، وعند *I Bollandisti*، المجلد الأول، أبريل ص ٦٠٩. وكان القديس فيلاريتو يبلغ من العمر عندئذ ثمانية عشر عاماً. وكان الطاغية هو عبد الله بن المعز.

(3) هكذا فعلت أسرة القديس فيلاريتو؛ ولا يمكن الظن بأنها كانت الوحيدة التى سلكت هذا الطريق.

(4) إذا ما تركنا جانبـاً مذكرات، مسـيحيى مسـينا المناهضين القائمة على الاحتمـال أكثر من قيامهـا على الصـدق، والتى سنعالجها فى الكتاب التالى، ففيما يخص مسـيحيى ترااينا انظر مالاترّا، الكتاب الثانى، الفصل الثامن عشر، و*La Cronica di Roberto Guiscardo*، عند كاروزو، ص ٨٣٨، والترجمة الفرنسية،

فى أودية نوتو ومازارا وسيراكوزا(1) وبالرمو(2)، وڤيكارى(3) وبتراليا(4) وأماكن أخرى(5). وأحداث الحرب النورماندية التى اقتصرت على عامين لاحتلال وادى ديمونى بينما لزمها ثلاثون عاماً للسيطرة على الواديين الآخرين تبرهن كذلك على أنه ظلت فى المنطقة الأولى حاميات قليلة من المسلمين فى المدن الرئيسة وفى القلاع وسط سكان مسيحيين مستكينين ولكنهم أعداء لهم، وفى باقى الجزيرة كانت هناك على العكس قلة من المسيحيين تحيط بهم طوائف المسلمين.

ولم يتغير الوضع القانونى للمسيحيين، إلا أن هناك ما يدفع إلى الظن بأن الإجحاف زاد بين عام ألف وثلاثة وأربعين وألف وواحد وستين؛ وكان دافعه فى البداية ثأر المسلمين الذين عادوا، ثم بعد ذلك انقسامهم إلى إمارات صغيرة تنزع إلى التحرش والغُنم. ومنذ أن سقطت آخر البلديات الخاضعة لنظام الجزية بين عام تسعمائة

الكتاب الأول، الفصل الخامس عشر؛ وفيما يخص وادى ديمونى نفسه انظر أماتو الكتاب الخامس، الفصل ٢١ و٢٥، ومالاتيرّا، الكتاب الثانى، الفصل الرابع عشر.

(1) نقرأ فى إحدى وثائق تانكريدى كونت سيراكوزا وكانت بتاريخ ١١٠٤ أن الكونت روچيرو أخضع كل رجال الدين اليونانيين واللاتين إلى أسقفية سيراكوزا عند إقامتها عام (١٠٩٣). ولم يأت الأولون منهم بالتأكيد مع النورمان. وعندما يروى شاعر سيراكوزا ابن حمديس مغامرات مرحلة شبابه *Biblioteca Arabo-Sicula*، الفصل ٥٩ § ١ ص ٥٤٩ يذكر ديراً للراهبات، حيث كان يذهب مع صعاليك آخرين لاحتساء الخمر «الذهبى اللون».

(2) فى الكتاب الثانى، الفصل ٤٥، يقول مالاتيرّا إن كبير الأساقفة كان يجاهد فى الحفاظ على الإيمان فى بالرمو قبل أن يدخلها النورمان. وكان يدعى نيكوديمو طبقاً لإحدى رسائل كاليستو الثانى، عند بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ٥٣.

(3) انظر وثيقة عام ١٠٩٨ لدير سانتا ماريا دى ڤيكارى، والتى سنستشهد بها فى الفصل التالى.

(4) مالاتيرّا، الكتاب الثانى الفصل ٢٠، يذكر أن قسماً من السكان كان مسيحياً والقسم الآخر مسلماً.

(5) مالاتيرّا، الكتاب الأول، الفصل ٢٧، عندما يروى وقائع غارة الكونت روچيرو على الأراضى من مسينا إلى چرچنتى يذكر إن واجهه *I Christiani Provinciarum*، والمقصود هنا مسيحيو وادى ديمونى ومازارا. انظر أيضاً الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب.

واثنين وستين وعام خمس وستين(1)، منذ تلك اللحظة فلاحقا ليس لدينا أخبار عنها، وليس باستطاعتنا تصور ماهية الضرورة أو الصدفة التى جعلتها تنهض من جديد. إن المسيحيين وهم يخضعون للكونت روچيرو وروبرتو جويسكاردو فى بدايات الحرب كانوا ذميين(2) حقيقيين يدفعون الجزية، وكانوا مزارعين أو برجوازيين، والمزارعون جزء منهم ملاّك والجزء الآخر من عبيد الأرض(3)؛ ومن المؤكد أن هذه الشعوب كان لها قضاة بلدياتهم، ولكنهم ما كانوا يشكلون هيئة سياسية. وليس هناك ذكر لعبيد مسيحيين امتلكهم مسلمون، ومن هنا يبدو أنه لم يتبق منهم عدد كبير له صدى أو ثقل بين أحداث الفتح. وربما اعتنق السواد الأعظم منهم الإسلام كى يحسن من أوضاعه(4)، واختلط من عُتق منهم ومن لم يعتق مع مجتمع المنتصرين.

وإذا كان من غير السهل أن تقتلع السلالات القديمة، فإن مسيحيى الجزيرة كانوا خليطاً من اليونانيين والإيطاليين القدماء. ويبدو أن هذا ما اعتقده النورمان، فتطلق رواياتهم أحياناً على السكان المعمدين الذين كانوا يقطنون صقلية فى بداية الحرب اسم يونانيين أو يونانيين مسيحيين، وأحياناً أخرى اسم مسيحيين فقط، وكانوا ينعتون الأوائل بالخونة، حسب التفكير الغربى(5). ويعطينا كاتب سيرة القديس ڤيلاريتو إشارة أخرى عندما ركز على لون البشرةالأبيض والوردى من بين مزايا صقلية والملامح الجميلة

---

(1) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب، ص ٢٦٣ وما بعدها من المجلد.

(2) انظر موضعى مالاتيرّا وداماتو المستشهد بهما تواً. والأحوال التى استخلصها أولهما فى الكتاب الأول، الفصل الرابع عشر تتطابق إلى حد ما مع أوضاع الذميين.

(3) انظر الكتاب الخامس، وهو بالتحديد الموضع الذى عالج هذه الأحوال حيث تظهر الأدلة عليها بعد الغزو النورماندى.

(4) الكتاب الثانى، الفصل الثانى عشر، ص ٥٣٧ من المجلد الأول.

(5) مالاتيرّا، الكتاب الأول، فى الفصول الرابع عشر والثامن عشر والعشرية والمستشهد بهما سابقاً، يتكلم عن مسيحيى وادى ديمونى وترااينا والأقاليم (بين مسينا وچرچنتى)؛ وفى الفصل التاسع والعشرين عن يونانى ترااينا الذين يعدون جزءاً من

والمنبسطة لكثير من سكانها، وهى ملامح لا تتشابه مع ملامح سان فيلاريتو اليونانى، ولعلها كانت تحدد ملامح النمط الإيطالى(1). ويبدو أن رهبان سان فيليبو دا أرجيرا فى صقلية، ينتمون إلى السلالة نفسها، إذ كانوا يتوجهون إلى روما فى النصف الثانى من القرن العاشر: وهى رحلة غير معتادة لأناس يونانيين فى ذلك العصر(2). وإذا كان قد استمر تعايش اللغتين الذى يعنى تعايش السلالتين خلال العصور الوسطى فى أجزاء شبه الجزيرة التى كانت بها مستعمرات يونانية فى العصر القديم، فقد كان الحال على هذا النحو أيضاً فى صقلية، إلا أن اللغة اليونانية قد تغلبت فى القرن الحادى عشر(3). ويبدو لى أن السبب فى هذا أن المسيحيين ذوى الأصول الإيطالية القديمة والبونية فى صقلية الغربية ارتد السواد الأعظم منهم عن دينه تحت حكم المسلمين، وكان ذلك يرجع فى الغالب إلى خضوعهم، وإن لم يخضعوا للحكم البيزنطى بسبب نفورهم من الجنس اليونانى ومن البيزنطيين. وذابت ديانتهم وربما أيضاً لغتهم فى مجتمع المسلمين. بينما ظلت الديانة واللغة فى صقلية الشرقية، مقر المستعمرات اليونانية القديمة الرئيسى.

إننا نفتقر لأى أخبار عن التحضر لدى مسيحيى صقلية فى

السكان المسيحيين فى تلك الجزيرة. ودى جريجوريو فى *Considerazionl sopra la storia di Sicilia*، الكتاب الأول، الفصل الأول، يأخذ بتقسيم السلالات نفسه ويذكر المصدر نفسه فى الهوامش ٢ و٣. ويضيف فى الهامش رقم ٤، مثالاً لچيراتشى أخذه من الكتاب الثانى، الفصل الرابع والعشرين عن مالاتيراً؛ والذى لا أريد أن أعول عليه حيث أنه من غير المؤكد ما إذا كان الأمر يتعلق بچيراتشى فى صقلية أم بمدينة تحمل الاسم نفسه فى كلابريا.

(1) نيلو موناكو، *Vita di San Filareto*، عند جايتانى، *Sanctorum Siculorum*، المجلد الثانى، ص ١١٣، وعند البولاندستين، ٦ أبريل، ص ٦٠٧.

(2) انظر هنا، فيما بعد، حياة سان ڤيتالى دى ديمينا.

(3) ليس هناك سطر واحد ولا اسم واحد لاتينى بين مذكرات الحكم النورماندى يمكن أن ترجع إلى العصر السابق.

النصف الأول من القرن العاشر(1)، ولكن فى المائة عام التالية تظهر لنا بعض علاماته. ولدينا إحدى سير القديسين فى نهاية القرن العاشر، كتبها فيما يبدو أحد اليونانيين الصقليين(2). ونحو عام ألف وثلاثين هناك أخبار عن قساوسة مسيحيين كانوا يُعلمون الآداب إلى فتيان من كاسترونوڤو فى وادى مازارا(3)، وربما فى ديمونا أيضاً(4). وفى النصف الثانى من القرن الحادى عشر قام أحد المسيحيين الأثرياء بالبلاد، وكان يعمل لحساب النورمان وصار بعد ذلك راهباً، بالعمل على جمع الكتب والصور فى مسينا(5). وهى علامات تبرهن فى صدق على ما يكشف عنه التاريخ السياسى وعلى أن الأحداث ما كان لها إلا أن تسير على ذلك النحو. ففى عام تسعمائة واثنين عبر وادى ديمونى المنجل الدموى الذى استخدمه إبراهيم بن أحمد، ثم بعد ذلك مر منجل المجاعة فى الجزيرة كلها، أما فى وادى مازارا فقد اجتازه منجل خليل بن اسحاق: ولكن حرب المنتصرين الأهلية جعلت مسيحيى وادى ديمونى يتنفسون الصعداء. وهم من عامة الفلاحين الذين لم يتمكن إبراهيم من الوصول إلى أكواخهم المتواضعة؛ وبعض من المواطنين المطرودين الذين عادوا، بعد العاصفة، فقراء غلاظاً إلى ديارهم

---

(1) انظر الكتاب الثالث، الفصل الحادى عشر، ص ٢١٣ و٢١٤ من هذا الجزء.

(2) انظر فى الفصل الثالث من هذا الكتاب المعلومات المستخلصة من *Vita di San Niceforo vescovo di Mileto*، واللمحة التى أعطيها عن سيرة القديس هذه فى نهاية الفصل نفسه، ص ٢٧٨ من المجلد.

(3) *Vita di San Vitale abate*، عند جايتانى، *Vitæ Sanctorum Siculorum*، المجلد الثانى، ص ٨٦، ولدى البولاندست، ٩ مارس، ص ٢٦.

(4) *Vita di San Luca di Demona*، لدى جايتانى، المرجع المذكور، ص ٩٦، ولدى البولاندست، ١٣ أكتوبر، ص ٣٣٧.

(5) انظر وصية القس سكولارو عام ١١١٤ عند بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ١٠٠٥. ترك القس لدير سالفاتورى فى مسينا ثلاثمائة مخطوط يونانى و«صوراً جميلة جداً مغطاه بالذهب». ويلزم أن نذكر أنه كان يسافر فى رحلات إلى اليونان ويعتاد الشراء من تجار تلك البلاد.

الغالية. وكانت سواعد الذين جدّدوا تاورمينا وأولئك الذين استحقوا شهرة عريضة فى رامتّا على أهبة الاستعداد للقتال وسد ثغرات أسوارهم، وكلهم تصميم على الدفاع عن أنفسهم وقتل المسلمين، ولكنهم لم يكترثوا، كما أعتقد، بالصور ولا بالكتب ولا حتى بأبجدية الهجاء: وقد أحسنوا صنعاً. وحينما تغلبت فى النهاية قوة جيوش بنى كلب رضى المسيحيون بالمكافآت المتواضعة التى كانت تمنحها العبودية. ولما انتظمت الإدارة العامة لدى المسلمين وقمعت نزعة الجند إلى السلب وشجعت التجارة مع البر الإيطالى وازدهرت المناطق الغربية من الجزيرة ووفد السادة للإقامة فى منطقة الشرق، انتعشت صنائع السكان المسيحيين. وعندما تطورت إلى حد ما إمكاناتهم وتعدادهم إرتقوا إلى درجة تحضر اخوانهم فى كلابريا. ومن يريد أن يعرف سمات مسيحيى وادى ديمونى فى هذا العصر، عليه أن يقرأ عند مالاتيرًا حكاية أولئك الذين تقدموا عام ألف وواحد وستين إلى روچيرو فى أول أكبر غارة غامر بها فى الأرض. كان الكل يمده بالمؤن والهبات الأخرى فى سعادة، ثم توجهوا بعد ذلك فى الحال للاعتذار للمسلمين: قالوا إنهم كانوا مضطـرين لتقديم ذلك حتى ينجوا وممـتلكاتهم من هؤلاء النهابين(1). وعند الجيل الرابع صار أبطال رامتّا، كما يمكن أن نقول الآن، مواطنين شرفاء مسالمين.

وكان ارتباطهم بالدين يبدو عليه الفتور. وبعد عملية إبراهيم بن أحمد تفرّق الإكليروس الصقلى وتشتّت. واستمر فى الحقيقة الأباطرة البيزنطيون، وهم يعلنون قائمة المقار الخاضعة لبطريركهم، استمروا حتى القرن الثالث عشر يدرجون ضمنها مقار صقلية التى كانت معروفة فى القرن الثامن؛ باستثناء بعض الأخطاء فى النسخ، ولكنهم نسـوا أن الجـزيرة قد انتزعهـــا المسلمون

(1) مالاتيرًا، الكتاب الثانى، الفصل الرابع عشر. وانظر أيضاً أماتو، الكتاب الخامس، الفصل الواحد والعشرون.

من الامبراطورية ثم النورمان من المسلمين؛ وأن المقار هدمها المسلمـون، ثم أعادها النورمان بطريقتهم وردّوها إلى بابا روما(1). ولكن تلك القوائم لا تعد شاهداً على الأوضاع المعاصرة، شأنها فى ذلك شأن ما تعنيه بالنسبة لنا اليوم رُتب أساقفة مثل أسقف إراكليا أو أدانا أو أية رتب أخرى يمنحها البابا. ومثالاً لذلك يبدو أن أسقف كتانيا وكبير أساقفة صقلية كانا أسقفين لأسقفيات تقع فى مناطق غير المسيحيين، ولدينا توقيعات لهم على أوراق ترجع للقرن العــاشر والحـــادى عشر(2). وعلى العكس من ذلك يبدو أن ليونى الذى أقام بعد ذلك فى كلابريا وأتى إلى صـــقلية (٩٢٥) بكونه رجـل ســياسة(3) قد باشر مهامه الأسقفية. ومن المؤكد أن باشـرها كذلك نيكوديمو الذى وجده النورمان (١٠٧٢) كبير أساقفة بالرمو(4). وعندمابقى فى الجزيرة كلها أسقف واحد، فى

(1) انظــر الكتـــاب الثـــانى، الفصل الثانى عشر فى المجلد الأول، ص٥٣٨ و٥٣٩، الهامش ٢.

(2) فى نهاية القرن التاسع يبدو أنه كان هناك أيضاً أساقفة على مناطق غير مسيحية مثل أساقفة تشيفالو وأليسا ومسينا وكاتانيا الذين حضروا مجمع القسطنطينية (٨٧٠). هذا ولا أحصى فى القرن العاشر سان بروكوبيو أسقف تاورمينا الذى أستشهد عام ٩٠٢. ولا أتحدث عن أسقف كاميرينو فى منطقة لى ماركى (٩٦٣ ـ ٩٦٧)، والذى يفترض آخرون أنها كامرينا فى صـــقلية. وليـــونى أســـقف كاتانيا وجد له توقيع فى أحد الأوامر الصـــادرة من بطـريرك القسطنطينـــية عام ٩٩٥، وورد ذكرها عند بيرو، *Disquisitio de Patriarca Siciliæ*، § السابع، رقم ٥. وأومبرتو، راهب فى لورينا، مذكور بلقب كبير أساقفة صقلية فى مجمع روما عام ١٠٤٩، وبخصوصه انظر بيرو؛ ص ٥١ والمصادر التى ذكرها مارتورانا فى *Notizie Storiche dei Saraceni Siciliani* المجلد الثانى، ص ٢١٧، الهامشان ١٣٣ و١٣٤.

(3) انظر الكتاب الثالث، الفصل الثامن، ص ١٧٩ من هذا المجلد. ولن أتحدث عن الأسقف إبّوليتو حيث لا نعلم عن زمنه شيئاً محدداً.

(4) انظر المصادر المستشهد بها سابقاً فى ص ٤٠٨، هامش ٢. ولم يعتد النورمان بكبير الأساقفة اليونانى أكثر من إمام مسجد؛ ومن المؤكد أنهم لم يمنحوه لقباً لم يكن له. ولم يعترف بلاط روما بهذا اللقب بالنسبة لنيكوديمو وكبار الأساقفة النورمان فحسب، ولكنه قام بتنصيب أومبرتو بطريقته.

القرن العاشر، فإنه من المعقول أن يتغير لقبه(1) ومقره، وأن يستقر بالعاصمة بالقرب من بلاط الأمراء ليحافظ بشكل فعال على حقوق رعيته الروحية والمادية، ذلك مثلما تغير مقر بطريرك الاسكندرية اليعقوبى ورئيس أساقفة سيليوتشا النسطورى، حيث انتقل أولهما إلى القاهرة والآخر إلى بغداد. ولما جعل المسلمون من بالرمو عاصمة، أصبحوا أصحاب فضل فى إقرار مكانة الكنيسة بوصفها مطرانية، وهذا من عجائب القدر، حيث لم تسمح بذلك روما أو القسطنطينية كما يبدو؛ ولم يكن أحد يحلم بذلك قبل القرن العاشر، ولكنه أصبح واقعاً لا يحتمل الشك فى منتصف القرن الحادى عشر. ومن الواضح أن تحمل مسئوليتها من اختاره المؤمنون وأقرّه الأمراء: راعياً لولاية تضم ست عشرة أبروشية تابعة لأساقفة ورؤساء أساقفة، وراعياً لمدينة كانت الثانية بعد القسطنطينية وبغداد فقط.

وعندما ننتقل إلى الاكليروس الأقل رتبة، يكفى القول بأن الأديرة التى كانت تحتوى على كل شئ وتزدهر جداً بعد القديس جريجوريو، صارت الآن شبه مهدمة. اختفى دير القديس فيليبو دارچيرا التابع للنظام الباسيلى، نحو عام تسعمائة وستين، عندما انتقلت جماعات المسلمين إلى وادى ديمونى(2). ووجد النورمان فى وادى مازارا دير سانتا ماريا فى ڤيكارى يبتهل لنصرة المسيحيين

(1) انظر الكتاب الثالث، الفصل الحادى عشر، ص ٢١٤ من هذا المجلد.

(2) إن سان لوقا دى ديمونا وسان ڤيتالى دى كاسترونوڤو اللذين سنتناول حياتهما الآن أخذا مسوح الرهبنة فى دير سان فيليبو دارچيرا وماتا فى كلابريا، الأول فى عام ٩٩٣ والآخر كما يفترض، فى عام ٩٩٤. ونرى فى سيرة القديس ڤيتالى أنه توجه فى شبابه مع رهبان آخرين من دير سان فيليبو إلى روما، وأنه حينما عاد بعد عامين إلى صقلية عاش متوحداً فوق جبل إتنا أمام ديره القديم. وكان سان لوقا دى ديمونا قد خرج من الدير نفسه عام ٩٥٩ أو قبل ذلك بقليل. ولكن يبدو أن سبب رحيل كليهما هو إخلاء الدير، والذى يتوافق تقريباً مع أحداث وادى ديمونى التى ذكرناها فى الفصل الثالث من هذا الكتاب، ص ٢٦١ وما بعدها من المجلد.

ويمتلك قليلاً من الخدم والحيوانات والأراضى، ولكنه مهمَل ومعتم(1). وعثروا على كثير من أطلال الأديرة فى وادى ديمونى(2)، فلدينا ما يؤكد بقاء اثنين منها فقط قائمين: أحدهما دير سانت انجلو دى ليزيكو، بالقرب من برولو، والذى سارع رهبانه لدى الكونت روچيرو ليؤكد ملكيتهم للجبال والتلال والمياه والأراضى والعقارات التى يقولون إنهم كانوا يمتلكونها خلال حكم السراسنة المعتدين(3)؛ والآخر دير سان فيليبو فى ديمونا الذى أكد أحد رهبانه الذين عاشوا حتى عام ألف ومائة وخمسة أنه تعرض فى هذا المكان المقدس لاعتداءات غير المسيحيين(4). وما فقد غير القليل أو ربما لم يفقد شيئاً من الوثائق الخاصة بذلك، التى عمل الحرص الكنسى على حفظها وتجديدها: ومن هنا يمكننا أن نستخلص أنه تبقى فى منتصف القرن الحادى عشر

(1) وهذه تبدو لى قيمة النص ἀδηλωθεῖσαν (μονην), . وثيقة عام ١٠٩٨ نشرها نيكولو بوشيمى بترجمة إيطالية فى جريدة بالرمو الكنسية التى تحمل اسم *Biblioteca Sacra*، المجلد الأول، ص ٢١٢ وما بعدها. ومارتورانا فى أحد ردوده على بوشيمى والمأخوذة من *Giornale di Scienze ec. per la Sicilia*، ص ٣٩، حاول دون جدوى أن يهدم النص الذى يحتوى على هذه الوثيقة. ويقول فيه الكونت روچيرو بوضوح أنه أثبت (ἐπέχυρω) الملكيات. الدير كان موجوداً إذن ولم يحيا على العطايا قبل الغزو النورماندى.

(2) لا يلزم ذكر جميع الوثائق النورماندية التى تؤكد هذا بطرق مختلفة. ومنها وثيقة لعام ١٠٩٣ عند بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ١٠١٦، تثبت أنه لم يبق سوى الكنيسة فقط فى دير سان ميكيلى أركانجلو فى ترايينا.

(3) وثيقة من عام ١١٤٤ وفيها يشير الملك روچيرو إلى مرسوم أصدره أبوه، عند بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ١٠٢١. ويحاول مارتورانا فى الرد المذكور أن يشكك فى النص؛ ولكن لا يمكن أن يمحو جملة: *tenebant et possidebant tempore impiorum Saracenorum* كما ترجمها لاسكارى ويمكن الثقة به وإن لم نعرف الأصل اليونانى.

(4) وصية جريجوريو الموعوظ للعماد فى دير سان فيليب دى ديمونا. والنص اليونانى مع وثائق الدير الأخرى قام بنشره بوشيمى، المرجع المذكور، من ص ٣٨١ إلى ٣٨٨، وبدقة أكثر عند مارتورانا، المرجع المذكور من ص ٦٠ إلى ٦٤ مع ترجمة إيطالية جديدة قام بها مونسينيور كرسپى، وهو عالم صقلى قدير فى الدراسات الهيللينية، توفى منذ فترة وجيزة.

المسلمون فى وطن ديودور الصقلى واحتلوا ممتلكات سان فيليبو. وبعد أن حدثت معجزة صغيرة على يده بالطريق فى تراتشينا وعاد من روما إلى حياة التوحد بالقرب من سانسفيرينا فى كلابريا، انتقل القديس ڤيتالى إلى صقلية، وعاش على الأعشاب البرية اثنى عشر عاماً كاملة وحيداً فى جبل إتنا أمام ديره القديم. ولما استأنف فى النهاية مسيرته فى البر الإيطالى، غيّر إقامته ثمانى أو تسع مرات بين كلابريا وبازيليكاتا، ثم تقابل بأرمنتو مع القديس لوقا دى ديمونا الذى كان صيته ذائعاً فى تلك النواحى، وبعد أن استدعى من صقلية أحد أبناء إخوته ويدعى إيليا، أسّس ديراً فى رابولا، حيث توفى، كما يسود الاعتقاد، فى التاسع من مارس عام تسعمائة وأربعة وتسعين. ومن بين المعجزات التى تنسب له فى حياته وبعد مماته تجدد ملاحظة معجزة دير سانت أدريانو، حيث انقض عليه مسلمو صقلية وفَرّ الرهبان فيما عدا القديس ڤيتالى الذى تقدم نحوه أحد السراسنة وكان مغتاظاً لعدم عثوره على أموال أو حيوانات فتأهب لقطع رأس القديس، وإذ بهذا الأخير يرسم علامة الصليب فنزلت صاعقة لتنتزع السيف من يد الرجل البربرى وتطرحه أرضاً بين الحياة والموت، إلا أن القديس عمل على إفاقته. وبعد ثلاثين عاماً من وفاته سرق رهبان تورى(1) رفات القديس ڤيتالى من رهبان رابولا، وحملها أسقف تورى إلى المدينة حتى تحميها من مسلمى صقلية القساة الذين كانوا يعودون لتخريب بازيليكاتا. ومن سيرة القديس هذه والتى كتبها أحد اليونانيين المعاصرين لدينا الترجمة اللاتينية الوحيدة التى أمر بإعدادها فى نهاية القرن الثانى عشر روبرتو أسقف تريكاريكو، ويمكن للنقد أن يستبعد منها الأحداث التى تتخطى قوانين الطبيعة فقط(2).

---

(1) مقر قديم لأسقفية تريكاريكو.

(2) عند جايتانى *Vitæ Sanctorum Siculorum*، المجلد الثانى، ص ٨٦، وعند البولاندستين، ٩ مارس، ص ٩٦. وفضلاً عن عام الترجمة فإن التحديدات الزمنية

والشئ نفسه يقال عن حياة القديس لوقا دا ديمونا، والتى أملاها أحد تلاميذه على نحو من البساطة جعلت المعجزات تحدث من تلقاء نفسها وكشفت عن عمل رجل من هذا العالم، رجل فطن، دؤوب، نشيط وطموح ولكن لأهداف نبيلة. ويقال كالعادة إنه ولد فى أسرة عريقة النبالة، من چوڤانى وثدبيبا، ودخل دير سان فيليبو دارچيرا، وانتقل من هناك إلى ريچو ليتعلم على يد متوحد مبجل، يدعى إيليا، تعاليم الآباء القديسين: ويواصل كاتب سيرة القديس أنه كان يتمتم بالكاد صلاة القداس ولكن تعليم إيليا ونعمة اختصته بها السماء، فتحا مداركه لكل العلوم حتى أسرار أدق المسائل الفلسفية. وتنبأ فى جلاء أن السراسنة سيحضرون من جديد فى المستقبل، وأنهم وسيلة الانتقام الإلهية من كلابريا؛ وهنا خرج من مغارته وراح يعظ الخطاة، وواصل مسيرته حتى نويا حيث أقام ستة أعوام فى إحدى الكنائس. ولما ضجر من شهرته الشعبية انصرف إلى سواحل أجرى ليشيد دير سان چوليانو، وتجمعت له بعض الضياع إحساناً من المؤمنين، وتمكن من أن يخفى، ولا أعلم كيف، نفرا يدعى لاندولفو، وكان أحد الجيران الملاّك، وكان يحقد على ما لدى الرهبان من رخاء؛ ولما كان يسعى للشهرة، التى كان يظهر دائماً هربه منها، راح يطرد الأرواح الشريرة، ويساعد الفقراء، ويعالج المرضى بدهانات وأدوية، كما يقول كاتب السيرة، حتى يخفى وراءها قـوة المعجزة. إلى أن نزل فى عصـر الإمبراطور

الوحيدة هى المعاصرة مع القديس لوقا دى ديمونا ولقب كاتابانو دى كلابريا الذى يتردد فى الرواية، واسم دير أرمنتو، المعروف أنه تأسس فى النصف الثانى من القرن العاشر. وذكر موت *septimo idus martii feria sexta* حمل البولاندستيين إلى ذكر عام ٩٩٤. وانظر أيضاً دى ميو، *Annali di Napoli*، المجلد السادس، عام ٩٩٤. وأسماء الأماكن فى كلابريا حيث يتردد أن القديس ڤيتالى أقام فى حياة الوحدة بها بعد عودته من صقلية هى ليبوراكو بالقرب من كسّانو، وبيترا دى روزيتو، وربّاكو بجوار سان كويريكو، وميزانيلّى وأرمنتو وسانت أدريانو بالقرب من بازيديا، وصومعة بجوار تورى وأخيراً رابولا.

نيشيفورو أحد **القساة** من جبال الألب وراح ينهب المدن اليونانية فى إيطاليا(1)، فلجأ القديس لوقا ورهبانه، ومنهم كاتب السيرة، إلى أحد الحصون القريبة. ولما شعر بالخجل من الإقامة فى دار العلمانيين رأى بين صخور أرمنتو موقعاً يمكن أن يتحصن فيه دون عناء، وشيد عليه ديراً آخر صار بمثابة حصن لجماعة تتبع نظام باسيليوس فى الرهبنة، ولأديرة كثيرة أقل حجماً وللصومعات المنتشرة فى المنطقة، والتى أسس أغلبها القديس لوقا وعمل فى بنائها بساعده، واعترفت به أباً لرهبانها وكان حقاً مرشداً لها. ففى ذات مرة حضر مسلمو صقلية للقيام بأعمال التخريب وكانوا قد عسكروا فى السهل عند كنيسة صغيرة وأهانوها وأغاروا على أماكن حولها وأخذوا حشداً كبيراً من الأسرى وقيدوهم بالأغلال؛ ولما لمحهم القديس لوقا من أعلى الحصن أخذ يرتل المزامير، وبدأ يستعرض الوضع وهو واقف بباب الدير، فسلّح الرهبان الأشداء وترك الضعفاء فى الحامية: وقاد وفى يده الصليب مجموعة الرهبان تجاه الأعداء الذين تشتتوا وألقوا أسلحتهم إذ فوجئوا بالهجوم عليهم ورأوا القديس الذى ظهر لهم ممتطياً الجواد الأبيض الأسطورى الذى يشع نوراً. ولكن هذا لا يقلل من شجاعة الفرقة. وبالروح نفسها أخذ يتجول طبيباً وأباً روحياً يرعى رهبان الجماعة حينما تفشى فيها وباء رهيب. وعندما حضرت لزيارته إحدى أخواته من صقلية وهى أم قديسين آخرين هما أنطونيو وتيودورو، وكانت تدعى كاترينا. أسست بالقرب من أرمنتو ديراً للراهبات. وحين وصل القديس لوقا إلى ذروة الشهرة فى الرهبنة توفى فى الثالث عشر من أكتوبر عام تسعمائة وثلاثة وتسعين، ولم يكن هرِماً، إذا صح أن القديس سابا الذى كان يرأسه فى دير سان فيليبو دارچرا هو الذى أودعه فى

---

(1) أوتونى الأول، كما لاحظ جيداً جايتانى والبولاندستيون. ولكنه يرجع إلى عام ٩٦٨ أو ٩٦٩ فى الغارات التى أشرنا إليها فى الفصل السادس من هذا الكتاب، ص ٢١٥ من المجلد.

القبر. ولا توجد إشارة إلى القديس سابا ولا إلى ابنى أخت لوقا فى مواضع أخرى، ولا نعلم كيف استحقوا تسميتهم بالقديسين(1).

وبالمثل لمع فى البر الإيطالى نجم القديس فيلاريتو الذى أشرنا إليه فى حرب مانياتشى وقدعرفناه من كتابات أحد يونانيى كالابريا. وُلد من أصل يونانى ربما فى ترابنا(2)، وأرسل إلى المدرسة لدى أحد الكهنة، وحصّل من الدراسات قسطاً بدا له كافياً، كما يقول كاتب السيرة: كان شاباً زاهداً، وديعاً، يواظب على الصلاة بالكنيسة، ويساعد فى أعمال مزارع أبويه الصغيرة ورأى تحرير مسيحيى صقلية وتدهورهم السريع. ونظراً لانتقال عائلته إلى ريچو ومنها إلى سينوبولى واشتراكه مع والده فى العمل لدى الآخرين فى الحقول، فإن متاعب الحياة والابتعاد عن الوطن كانت تهز تلك الروح الرقيقة الشاجنة. ولما كان يأمل فى السلام الداخلى فى الدير ولا يقدر على مغادرة أبيه وأمه، حيث كان ابنهما الوحيد؛ تقدم إليهما بعد حيرة طويلة وارتمى راكعاً وأفصح لهما عن مقصده؛ ولما وافقا على رغبته، بكى وقبل أيدى والديه وأقدامها. وفى سن الخامسة والعشرين نذر نفسه فى دير أولينا الواقع بين سيمينارا وبالمى، وهذا الدير أسسه القديس إيليا دى كاسترو چوڤانى(3)، الذى كان فيما بعد يواظب على قراءة سيرة حياته والتأمل فيها؛ ولكن طباعه وظروف الحياة ما كانت تحمله

---

(1) *Vita di San Luca di Demona*، ترجمة عن النص اليونانى الذى يبدو أنه فقد، فى كتاب جايتانى، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٩٦، وفى كتاب البولاندستيين. ١٣ أكتوبر (المجلد السادس) ص ٣٣٢. هذه الطبعة الثانية والأخيرة توضحها ملاحظات علمية. والقديس إيليا دى ريچو معلم سان لوقا الأول، كان على حد قول البولاندستيين سبليوت الذى كان يقيم فى مليكوكّا، عند سيمينارا، المرجع المذكور، ص ٣٣٣ § ٥. ولخطأ مطبعى فى كتاب جايتانى ذكرت سيرة القديس هذه بتاريخ ١٣ سبتمبر، بينما نقرا فيها *tertio idus octobris*، سنة ٩٩٣ ميلادية، ٦٤٩٣ طبقاً للتقويم السكندرى.

(2) انظر الفصل السابق ص ٣٩٨.

(3) انظر الكتاب الثانى، الفصل الثانى عشر، ص ٥٦٦ من المجلد الأول.

على محاكاة مُبَشِّر القرن التاسع الثورى. وفى اجتماع الرهبان - كما يقول الراوى - تم كساءه فى احتفال مهيب بالأسلحة الرمزية وهى رداء الرهبان وهو درع المحبة والثوب وهو درع الإيمان والقلنصوة وهى خوذة الرجاء والزنّار وهو كابح الشهوات؛ وأمسك بالصليب كما يمسك بعصا الراعى. ولما تغير اسمه من فيليبو إلى فيلاريتو وقبّل الجميع قبلة الأخوة عهدوا إليه برعاية قطعان الدير. وهى حياة قاسية لمن كان معتاداً على شئ من الرغد وحصل على قدر من التعليم(1). ومع هذا تقبل الأمر فى سعادة؛ وكان مرآة للطاعة الرهبانية، وللرحمة وللسلوك الطيب، ولم يصنع أبداً معجزات: إلا أنه بعد عامين من وفاته كان النور ينبعث من مدفنه فجذب إليه مريديه، ثم المرضى وبدأت تظهر حالات شفاء إعجازية. وتوفى فيلاريتو نحو عام ألف وسبعين وكان يبلغ من العمر خمسين عاماً. كان ضئيل الحجم، نحيفاً، بيضاوى الوجه، داكن البشرة، شاحباً، له عينان زرقاوان ولحية خفيفة، بطيئاً فى الكلام. على هذا النحو يرسم صورته الراهب نيلو الذى يكرر نفسه أحياناً، وأحياناً أخرى يقول إنه يغض الطرف عن تفاصيل سمعه يرويها عن الأمور الخاصة والعامة فى فترة شبابه. وهى روايات بريئة ألصق بها الكاتب تعبيرات بلاغية لا هى بالقبيحة ولا بالجميلة، وإنما هى تعاطف فى التعبير وليس هذياناً، ومن اليسير فصل المكَوّن عن الآخر. وتبقى من كل هذا تلك الوثيقة التاريخية الجيدة التى احتجنا وسوف نحتاج كذلك للاستشهاد بها(2).

(1) ويتعجب كاتب سيرة القديس متسائلاً: وفى تلك الوحدة أين كان الفراش الناعم، والحجرة النظيفة، والبساط، والحصائر، والحمامات، وجماعات الأصدقاء، والخبز الراقى، والأسماك، والزيت، والتوابل، والفواكة، والخمر، وأين كانت قراءة العهد القديم والجديد؟ ويبدو لى أنه يود أن يشير بالأحرى إلى التناقض مع حياة بعض احبار كلابريا وليس مع حياة سان فيلاريتو نفسه فى شبابه.

(2) *Vita di San Filareto*، فى كتاب جايتانى، *Vitæ Sanctorum Siculorum*، المجلد الثانى، ص ١١٢ وما بعدها؛ وعند البولاندستيين، ٦ أبريل (المجلد الأول) ص ٦٠٥ وما بعدها، ترجمة لنص يونانى يبدو أنه فُقد.

وعلى هذا النحو فإن ملامح إبّوليتو وبراسيناكيو السمراء، وجهد لوقا دى ديمونا وڤيتالى دا كاسترونوفو الرهبانى، وحياة التسليم لله التى عاشها فيلاريتو تتوافق مع الأطوار الرئيسة الثلاث للرأى العام لدى مسيحيى صقلية منذ بداية القرن العاشر وحتى منتصف القرن الحادى عشر. أما عن سير القديسين الأخرى فى هذه الفترة، فإن سيرة القديسة مارينا غير أصيلة(1) على حد قول البولاندستيين أنفسهم. ورواية سيرة القديس چوڤانى زيريستا لا تستقيم مع النقد: بها مواقف قصصية كثيرة نسجت على مفارقات تاريخية(2). ورواية مغامرات القديس سيميونى لا تقل عن ذلك وليست أقل غرابة رغم أنها مقاربة للحقيقة ومأخوذ بعضها من مصادر جيدة. ولد القديس فى سيراكوزا فى النصف الثانى من القرن العاشر لأب بيزنطى وأم من كلابريا، ومات فى ترڤرى عام ألف وأربعة وثلاثين. أقام فى صقلية حتى السابعة من عمره عندما انتقل أبوه إلى القسطنطينية لأداء واجب عسكرى، كما تقول الرواية؛ ولكنه يبدو أنه كان جندياً أسر فى حرب مانويلى فوكا، وتم تحريره بفدية. ومن المحتمل أن التحدث بالعربية التى تعلمها الصبى فى صقلية قد دفعه بعد إتمام دراساته فى القسطنطينية

(1) انظر جايتانى، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ١٠٩، والذى تجرع الرواية، والبولانديستيين، ١٧ يوليو (المجلد الرابع) ص ٢٨٨.

(2) عند جايتانى، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ١٠٧؛ وعند البولانديستيين ٢٤ فبراير (المجلد الثالث) ص ٤٧٩: والأول يذكر موته عام ١٠٥٤، والآخرون يذكرون عام ١١٢٩. وهو ابن كونت من كلابريا قُتل فى غارات مسلمى صقلية، وولد فى بالرمو من أم سيقت إلى هناك أمة وتزوجها أحد المسلمين؛ وتوجه إلى كلابريا كى يعتمد وليعثر على كنوز الوالد المخبأة؛ وارتدى مسوح الرهبان على يد سان نيلو (الذى مات عام ٩٩٨)، وصنع فى حياته كثيراً من المعجزات، وعند مماته عالج روچيرو جويسكاردو، حفيد روبرتو من قرحة أصابته، فمنح للدير عطايا وهبات كثيرة. وروچيرو جويسكاردو هذا الذى لا يعرفه التاريخ وهذه القفزة الزمنية من نهاية القرن العاشر إلى نهاية القرن الحادى عشر يتوافقان تماماً مع المغامرات القصصية التى أشرنا إليها هنا.

إلى الذهاب إلى القدس: وهنا أثارت أعمال آباء الصحراء ومآثرهم حماسه، فأراد أحياناً أن يعيش راهباً فى دير وأحياناً أخرى متوحداً فى بيت لحم والأردن وسيناء فى مغارة من مغارات البحر الأحمر؛ ثم أرسلته جماعة سيناء ليأخذ العطايا الضخمة التى اعتاد أن يقدمها لهم ريكّاردو كونت نورماندیا. ولهذا حضر إلى روين، حيث وجد أن ريكّاردو قد مات (١٠٢٦) وخليفته رجل مقتِّر فانتقل إلى تريفيرى، ولما عمل فى خدمة كبير الأساقفة كشف لأولئك الألمان الصالحين عن نموذج حياة التوبة الشرقية، فحبس نفسه وحيداً فى برج بورتا نيجرا القديم، وهو ملتقى الأرواح الشريرة. وكان يهزم بصلواته هجومها المتواصل لسنوات عديدة ليلاً ونهاراً. وذلك أمر مفهوم. ولكن بعد حدوث فيضان تسبب فى إخلاء البلاد هرع العامة وفى أيديها الحجارة تطالب بموت الراهب ساحر البرج، ولم يهتز لها سيميونى بأكثر مما كان يهتز للأرواح الشريرة: وواصل تلاوة الصلاة إلى أن هدأ القساوسة من اندفاع ثورة العامة. وبعد وفاته تبارى القساوسة والعامة فى نسب المعجزات له. ومن المؤكد أنه مع ما قيل عمّا كان يفعله إزاء خطوب الأراضى المقدسة ومع ما قيل عن أسلوب حياته الغريب فى نورماندیا وألمانيا فإن سيميونى دا سيراكوزا كان من بين كثيرين نفخوا فى نار الحملة الصليبية(1).

ونرى مما سبق قوله أن المسيحية قد انكمشت وفترت فى صقلية تحت حكم المسلمين؛ ولكن لم تغب أبداً عنها(2) العقيدة ولا طقوس

---

(1) بناء على أمر كبير أساقفة تريفرى، كتبت سيرة حياة القديس سيميونى دا سيراكوزا بيد إبروين، كبير رهبان دير سان مارتينو وكان يعمل مع سيميونى فى البرج وحضر وفاته. انظر جايتانى، *Vitæ Sanctorum Siculorum*، المجلد الثانى، ص ١٠١؛ وانظر من الأفضل فى البولاندستيين، ١ يونيو، ص ٧٨ وما بعدها. انظر المقابل فى *Cronica di Sigeberto*، عام ١٠١٦، فى بيرتز، *Scriptores*، المجلد السابع، ص ٣٥٥.

(2) لنبدأ من المسيحيين الذين كانوا يبكون أسرى سيراكوزا (٨٧٨) فى شوارع بالرمو، الكتاب الثانى، الفصل التاسع، ص ٤٠٨ من المجلد الأول، ولننتقل خطوة بخطوة فى

العبادة. ويشهد بذلك أحد المؤلفين العرب فى القرن الحادى عشر حين قال بالتحديد «اعتنق الإسلام السواد الأعظم من السكان»(1). وإذا كان أوربانو الثانى يشكو فى رسالته عام ألف وثلاثة وتسعين من خبو الدين فى الجزيرة لمدة ثلاثة قرون، فإنه لم يكن يعنى سوى الحالة البائسة التى كانت تعيشها كنيسة صقلية وضآلة عدد المؤمنين، وإن اعتبر أن هذا هو حال التابعين للطقس اليونانى أيضاً(2). ويبدو أنه لا يقوم على أى أساس ذلك الافتراض الذى يرى أن مسيحيى صقلية عند الغزو النورماندى كانوا هم الذين قدموا فى عصر منياتشى، إذ أن هذا الأخير قد أحضر جنوداً إلى هناك وليس مستوطنين، والجنود، كما قلنا، سرعان ما انتقلوا إلى البر الإيطالى(3).

القرن العاشر إلى اتفاقات الحسن فى ريجو، وإلى حرب تاورمينا ورامتّا، وإلى سكرتير أبى القاسم المسيحى، الكتاب الرابع، الفصل الثانى والثالث والسادس، ص ٢٥٣ و٢٦٣ و٣٢٥ من هذا المجلد؛ ولنصل فى هذا الفصل إلى أحداث القرن الحادى عشر، وسنرى أن المسيحية استمرت على الدوام.

ويتبنى هذا الرأى جميع كتاب الشئون الكنسية فى صقلية تقريباً. كما يمكن أن نرى مونچيتورى فى *Opuscoli d'Autori Siciliani*، المجلد السابع، ص ١١٩ وما بعدها. وعبّر دى جريجوريو عن الرأى نفسه فى *Considerazioni su la Storia di Sicilia*، الكتاب الأول، الفصل الأول.

وعبّر مارتورانا مؤخراً عن الرأى المخالف لذلك فى *Notizie Storiche dei Saraceni Siciliani*، المجلد الثانى من ص ٤٣ إلى ٧٥. ورد عليه الكاهن نيكولو بوشيمى فى *Biblioteca Sacra per la Sicilia* (بالرمو ١٨٣٢)، الجزء الأول، ص ١٩٥ وما بعدها، و٣٧٣ وما بعدها؛ وعقب هو عليه فى عدة مقالات فى *Giornale di Scienze e lettere per la Sicilia* عام ١٨٣٤، وجمعت هذه المقالات بعد ذلك فى جزء صغير، ص ١٧ وما بعدها، و١٣٣ وما بعدها. لقد استشهدت هنا ببعض الوثائق المنسوبة لهذا الطرف أو ذاك، ومن الطبيعى أن وضعت فى الاعتبار الأسباب المؤيدة والمعارضة، ولكن لا يمكننى دراستها هنا دراسة تفصيلية.

(1) فى معجم البلدان لياقوت، *Biblioteca-arabo-sicula*، النص، ص ١١٧.

(2) فى بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ٦١٧، فى أخبار كنيسة سيراكوزا. والتعليق لا يوجد فقط فى الأحداث التى عرضناها، ولكن أيضاً فى وثيقة للملك روچيرو بتاريخ ٦٦٤٢ (١١٣٤)، والتى يشهد فيها على حث أبيه له على تحرير صقلية وسكانها المسيحيين من بنى هاجر، عند بيرّو، ص ٩٧٥.

(3) افترض هذا الافتراض مارتورانا فى *Notizie storiche*، المجلد الثانى، من ص

وفى المقابل فإن حرية العبادة يجب أن تفهم داخل الحدود المعمول بها عامة فى الدول الإسلامية(1)؛ فقد كانت تمارس دون اضطهاد أو قسوة غير معتادة، فليس هناك أى دليل على غير ذلك فى صقلية من بداية حكم المسلمين إلى نهايته. ولكن يلزم أن يحوم الشك، حول ما أكدته رواية حديثه مشبعة بالأخطاء، عن أن أحد أمراء المسلمين فى الجزيرة وافق للمسيحيين بأن يقيموا صلاة القداس على الملأ وأن يحملوا الافخارستيا للمحتضرين(2). ويجب أن يستبعد تماماً ما قيل عن تأسيس جماعة فى كنيسة سان ميكيلى بدير ناوباكتيتس فى بالرمو عام ألف وثمانية وأربعين، كانت تنظم مواكب دينية شهرية وتحتفل بأعياد سنوية وتقيم جنازات لإخوتهم الموتى. ووثيقة تجديد تلك اللوائح القديمة، المحفوظة فى محفوظات كنيسة بالاتينا فى بالرمو، لا تشير إلى المدينة ولا إلى اسم المكان الذى ينتمى بالضرورة(3) إلى بالرمو، ولا إلى أى أراضٍ أخرى فى صقلية. بل على العكس فإن الصلوات التى كانت

---

٦٨ إلى ٧٣؛ ولا أدرى هل ساقه إليه رامبولدى الذى تصور قيام هدنة لمدة ثلاث سنوات بين المسلمين وبيزنطيى صقلية بعد رحيل مانياتشى. وانظر رد مارتورانا ص ١٦ فى الهامش. لقد وقع مارتورانا فى خطأ عندما اعتقد أن تسمية اليونانيين المتكررة بكثرة فى صقلية فى القرن الحادى عشر والثانى عشر، لا يقصد بها الصقليين الذين يتكلمون اللغة اليونانية، ولكنها تشير بالضرورة إلى أناس أتوا حديثاً من الأقاليم البيزنطية.

(1) انظر الكتاب الثانى، الفصل الثانى عشر، ص ٣٥٠ وما بعدها فى المجلد الأول.

(2) هذه الرواية التى كانت فى شكل رسالة كتبها كورّادو، رئيس دير سانتا كاترينا الدومينكانى فى بالرمو، لها تاريخ يتوافق مع عام ١٢٩٠. انظر فى كاروزو *Bibliotheca Historica regni Siciliae*، المجلد الأول، ص ٤٧، ذلك الموجز السئ للأحداث من عام ١٠٢٧ إلى ١٢٨٢، والذى لا نعلم كل مصادره، ولعل بعضها ترجمة غير صحيحة تماماً من اللغة العربية. وفضلاً عن الأخطاء الجسيمة فى ذكر الأحداث والأسماء يلاحظ فى هذا الموجز مفارقة زمنية مقدارها قرن من الزمان وذلك فى تاريخ غارة الأسبانى ميمون بن غانية على صقلية والتى ذكرت فى عام ١٠٢٧ بدلاً من القرن الثانى عشر. على أية حال، حتى إن بدا التاريخ مُبدلاً من جراء أخطاء التأليف أو زيف نسخ مقصود، فلا يمكن أن نعطى أية مصداقية لنص الراهب كورّادو.

(3) چيريو.

ترفع من أجل «الأباطرة الأرثوذكس وقداسة البطريرك والمطران» تبين أن البلاد كانت خاضعة للإمبراطورية البيزنطية. وربما تخص بارى أو مدينة أخرى من مدن إيطاليا الجنوبية، ففى حروب الملك روچيرو تمسك أحد القادة من محبى الكتب النادرة بأهمية مخطوطة على الرق كانت تظهر فى بدايتها صورة بيزنطية للسيدة العذراء على خلفية من الذهب(1).

---

(1) نشر دى چوڤانى الترجمة اللاتينية لهذه الوثيقة، *Codex Siciliae diplomaticus*، رقم ٢٩٨، ص ٣٤٧، والنص اليونانى نشره مورسو فى *Palermo antico*، ص ٣٢١، وجاروفالو فى *Tabularium... capellae collegiatoe... in regio panormitano palatio*، ص ١ وما بعدها؛ واعتقد الجميع أنها جمعية أخوة فى بالرمو، وكان أكثرهم اعتقاداً بذلك مورسو، الذى بنى رؤيته على الافتراض الغريب الذى أشرنا إليه فى الفصل الخامس من الكتاب الثالث، ص ٣٠٣ من هذا المجلد فى الهامش.

ولكن تلك الصلوات من أجل البطريرك والأباطرة (βασιλεῶν) لا تتناسب مع هيئة معنوية موجودة فى بالرمو فى القرن الحادى عشر والثانى عشر. ومارتورانا فى *Notizie ec.*، المجلد الثانى، ص ٢١٩، رأى ضرورة نسب تأسيس الجمعية إلى اليونانيين البيزنطيين الذى افترض احتلالهم لبالرمو فى حرب مانياتشى، وشكك أيضاً فى أصالة الوثيقة. أما مورتلارو ففى نقده اللاذع لجاروفالو ساند هذا التشكيك، *Opere*، المجلد الثانى، ص ٦٧ وما يليها.

ولا يبدو لى أن هناك ما يدعو للاعتقاد بعدم أصالة الرق، ولكنى أرى أن جماعة ناوباكتيتس لم تقم أبداً فى بالرمو. أولاً لأن أسماء الإخوة المذكورين، وأغلبهم يونانيين، جعلتنى أتخيل وجودها فى إحدى مدن وجزر اليونان التى اقتحمها نورمانديو صقلية، ولكن باستشارة م. هاسى فإنه لاحظ بين هذه الأسماء ماله صيغة إيطالية وأن اسم روچيرو نانانينا يدعونا إلى التفكير فى بوليا. ولكنى أدين لمرجعيه المعلم بالطريق الذى انتهجه مع النص. وأضيف أن كلمة أباطرة فى الجمع تجعلنا نعتقد فى تجديد اللوائح بينما كان يتربع أكثر من واحد على عرش القسطنطينية، وكان ذلك بعد عام ١٠٤٨، تاريخ الوثيقة الأولى، وقد يرجع الأمر إلى مُلك قسطنين دوكا (١٠٦٠ ـ ٦٧)، الذى اشرك أبناءه معاً، أو أبنائه والأم (١٠٦٨)؛ وهذا بالفعل قبل احتلال روبرتو جويسكاردو لبارى.

الفصل الثانى عشر

ونأتى الآن لفترة من أكثر الفترات تعتيماً فى هذا التاريخ. فبعد اعتلاء الأمير يوسف الحكم يتغير أسلوب الحوليات العربية الصقلية، وتقل مصادرها، ورغم ذلك تستمر فى رواية الأخبار حتى احتلال المعز(1). ولما مر المسلمون فى صمت على حرب منياتشى فإننا نستخلص جُلَّ أخبارها من أعدائهم. ولكن فى الأعوام العشرين التى

(1) يذكر ابن الأثير الأحداث فى تسلسل زمنى حتى تسليح البيزنطيين عام ٤١٦ (الفصل التاسع من هذا الكتاب، ص ٣٧٥ من هذا المجلد)؛ ثم يقفز إلى عام ٤٨٤ حيث جمع فى فصل واحد كل الأحداث، من تنازل يوسف عن العرش عام ٣٨٨ (٩٩٨) وحتى غزو النورمان (١٠٩١)، ويقل فى هذا الفصل ذكر التواريخ والتفاصيل من عهد يوسف إلى احتلال المعز (١٠٣٧) وتنعدم تماماً من تلك الفترة وحتى استدعاء النورمان (١٠٦٠). والآن فى نهاية القرن العاشر بالضبط، أى فى عصر يوسف، تصل أخبار ابن رقيق (المقدمة، ص ٣٧ فى المجلد الأول). وربما ملأ ابن رشيق فراغ الأعوام الأربعين الأولى من القرن الحادى عشر، المرجع نفسه. واللمحات عن النصف الثانى تبدو مستقاة من أبى الصلت أمية أو من ابن شدّاد (المقدمة، ص ٣٩)، اللذين عندما كتبا فى القرن الثانى عشر حينما تراجع الحكم الإسلامى فى صقلية، إما أنهما لم يعلما أو أنهما لم يودا رواية كل التفاصيل.

ويتأكد هذا المفهوم عند قراءة أبى الفدا والنويرى وابن خلدون حيث نرى النقص نفسه بوضوح عندهم، هذا إذا كانوا لم ينقلوا أو يلخصوا دائماً ابن الأثير، وتوافر لديهم أصل بعض المصادر. ويغير أبو الفدا قليلاً تقسيم المادة. فهو يذكر فى دفعة واحدة فى عام ٣٣٦ كل تاريخ أمراء بنى كلب فى صقلية الذى نقله من أحد المؤرخين ومن المؤكد أنه ابن شداد: وهو فصل أضافه بعد النسخة أو الطبعة الأولى حيث إنه مكتوب بخط يد أبى الفدا نفسه فى حواشى مخطوطة باريس، الملحقات العربية، ٧٥٠. ثم فى عام ٤٨٤ يكتب فصلاً موجزاً، كما يبدو، عن ابن الأثير، حيث يكرر بعض وقائع الفصل الذى كتبه عام ٣٣٦، نظراً لأنه لم ينتبه لمحوها عندما أضاف فقرة ابن شداد. والنويرى وابن خلدون إذ قسما التاريخ العام حسب فترات الحكم وليس حسب السنين، كتبا فصولاً خاصة بأمور صقلية، ولكنهم وضعا أحداث ابن الأثير نفسها، بتفاصيل متباينة، وتوقفا أيضاً فى الفترة التى أشرنا إليها. ويبدو أنهم لم يكونوا جميعهم على علم بتاريخ صقلية المفصل الذى كتبه ابن القطاع وأبو على الحسن (المقدمة ص ٣٧، رقم ١، الخامس).

مرت بين إبعاد أتباع المعز وهزيمة ابن ثمنة أخذت تتقطع روابط الأحداث؛ حيث نجد مجرد إشارة للفوضى التى حلت فى صقلية. ثم رواية مطولة عن إهانة ميمونة التى عجلت بالكارثة الأخيرة. ورغم أن الأخبار الببليوغرافية عن رجال الآداب تتوفر بغزارة فى تلك الفترة إلا أنها تلقى قليلاً من الضوء على التاريخ السياسى. وعلى ذلك فمن اللازم أن نستعين بالافتراضات وأن نلجأ كثيراً لصيغة الشك غير المفضلة فى التاريخ، والتى تجنبها المعلمون القدماء فى حسم، حباً فى المهنة.

بعد أن انتهى الأكحل ظلت صقلية تخضع لأوامر عبدالله بن المعز، واقتحمها فى ذات الوقت منياتشى. وليس هناك شك فى أن المعز أرسل إليها من أفريقيا كل ما أوتى من قوات لكى يدافع عن مكاسبه الجديدة. كانت حشود من البربر، صديقة وغير صديقة للزيريين، قد تمت غوايتها بقليل من المال وكثير من الآمال؛ وقطاع طرق دون نظام، من أولئك الذين شوهدوا بعد عشرة أعوام عندما هاجمهم عرب ما وراء النيل فى ديارهم وأخذوا يفرون ثلاثين ألفاً فى مواجهة ثلاثة آلاف فى أول معركة لهم(1). ولم يأتوا بأحسن من ذلك فى يوم ترواينا حيث اختلطوا بعرب صقلية الذين خرجوا مضطرين عندما اشتموا رائحة الهيمنة الإفريقية. إن هروب عبدالله الغريب من الجانب نحو المرفأ، وعبوره بالسفينة إلى بالرمو، يبين أن الجيش فضلاً عن أنه كان غير منظم وغير مطيع فقد كان مصدر تهديد لقائده التعس. ومع تجاوز ذلك فإن عبد الله لِما كان له من عدم خبرة، كان يتخذ أقصر الطرق نحو العاصمة، أَملاً فى أن يجمع الرجال بعد مسيرة ثلاثة أو أربعة أيام، بين

(1) فى عام ١٠٥٢. انظر ابن خلدون، *Histoire des Berbères*، ترجمة م. دى سلان، المجلد الأول، ص ٣٤ و٣٥، وابن الأثير، المخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٨١ الوجه الثانى و٨٢ الوجه الأول، والتى تصف الأحداث بتفصيل مسهب.

القلاع والأماكن الطبيعية الحصينة.

ومما هو مؤكد أنه بعد هزيمة ترابنا انطلقت المنازعات بين الجنود الصقليين وبين المواطنين فى بالرمو وأماكن أخرى فى وادى مازارا، وتذكر الحوليات العربية هذه المنازعات بعد موت الأكحل دون تحديد الزمان والمكان والسبب المباشر لها(1)، ولكنها تشير إلى جزع شعب يعيش لحظات الدمار. وراح مسلمو صقلية من خصوم المعز ومؤيديه يتشاجرون، ويتبادلون توجيه اللوم: «أردتم أن يدخل الغرباء دياركم، لله الأمر! نسأله حسن العاقبة: ها هى ثمرة أعمالكم!»(2). ولما ندم هؤلاء وأولئك اتحدوا ضد عبدالله. ووصل الأمر إلى القتال فى بالرمو مع الحامية أو مع بعض الفرق المخلصة التى عادت من ترابنا: ولما فقد ابن المعز ثمانمائة رجل(3) فى المعركة، قفز مع الباقين على سـفينة ونجا بنفســه إلى إفريقيا. ونصّب الثائرون، الحسن الملقب بصمصام أو صمصام الدولــة أميراً عليهم وهـــو أخـــو الأكحل(4)، وربما كان هو ذاك بعينه الذى كان قد ثار قبل خمسة أعوام، مع الصقليين، ضد أخيه.

---

(1) حيث إننا علمنا بالتأكيد من المؤلفين المسيحيين أن الذى هزم فى ترابنا هو عبدالله بن المعز، فإن حركة التمرد التى طردته حدثت بالضرورة بعد المعركة، وليس تو مقتل الأكحل.

(2) أكاد أترجم حرفياً عن ابن الأثير حيث نقرأ «بالله إنها لنهاية أعمالكم، إلخ» وهى كلمة تجعلنا نستنتج وجود حالة حديثة وخطيرة.

(3) يذكر بعض المؤلفين عدد ثلاثمائة، ولكنه اختلاف نسخ، حيث أنه يسهل خلط هاتين الكلمتين العربيتين اللتين تعنيان هذين العددين. ولا أعلم أيهما أصوب.

(4) قارن بين: ابن الأثير، عام ٤٨٤، المخطوطة C، المجلد الخامس، الورقة ١٠٩ الوجه الأول؛ وأبو الفدا *Annales Moslemici*، العام نفسه، المجلد الثالث، ص ٢٧٤ وما بعدها؛ والنويرى فى دى جريجـــوريو، المرجـــع المذكـــور، ص ٢٣؛ وابن خـــلدون *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٨١؛ وابن أبى دينار، المخطوطة، الورقة ٣٧ الوجه الثانى وما بعدها. وهذا الأخير هو الوحيد الذى يضيف لفظ الدولة، تكملة للقب صمصام، ويبدو لى أنه أكثر صواباً.

وفى قفزات زمنية تواصل الحوليات العربية روايتها بعد ارتقاء صمصام، وتذكر أن صقلية اهتزت بعنف؛ حين أمسك بزمام القيادة فيها رجـــال من هنـــــا وهناك، قليلو الشأن!(1). كان القائد عبدالله بن منكوت يهيمن على ترابانى ومارسالا ومازارا وشكّا والسهول الغربية كافة؛ وسيطر القائد على بن نعمة، الملقب بابن حوّاش، على جرجنتى وكاستروجوڤانى وكاسترونوڤو بدوائرها(2). أما الساحل الشمالى والشرقى، اللذان كانا، آخر ما تركه البيزنطيون،

---

(1) قارن بين: ابن الأثير وأبى الفدا وابن خلدون، فى المواضع المذكورة، وهم ينقلون مع بعض البدائل نصاً واحداً. ولا يشير النويرى، فى الموضع المذكور، إلى الرجال قليلى الشأن. وعندما نقل مثل الآخرين لعله أغفل تلك الكلمات لأنها بدت له متناقضة مع الواقعة الموجودة فى النص نفسه أو فى مواضع أخرى والتى ذكرها هو فقط؛ أى وجود حكومة الشيوخ فى بالرمو. ويقول أبو الفدا فى نهاية فصل حول بنى كلب، نقله من ابن شداد، إن **الخوارج** أى المتمردين استحوذوا على صقلية.

(2) قارن بين: ابن الأثير وأبى الفدا وابن خلدون والنويرى، المواضع المذكورة. ويضيف الثلاثة الأوائل ابن ثمنة إلى قائمة الملوك الصغار، أما النويرى وهو أكثرهم اجتهاداً فى أخبار تلك الفترة، فيقول إن ابن ثمنة ظهر بعد ذلك: وهذا يتوافق بصورة أفضل مع الوقائع الأخرى.

ويبدو أن ابن منكوت من سلالة عربية. وهذا الاسم الذى يقرأ فى مخطوطة واحدة للنويرى مختلفاً أى متكوت لا يمكن أن يكون رجلاً آخر غير ابن منكود الذى أطلق اسمه بالفعل على إحدى قلاع وادى مازارا، ذكرها الإدريسى، فى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ١١٩ فى الترجمة اللاتينية. ومن المؤكد أنه ولد فى عائلة القائد أبو محمد الحسن بن عمر بن منكود، الشاعر الصقلى الذى ذكره عماد الدين فى **الخريدة** ومن المحتمل أنه كان سلفاً له، مخطوطة باريس، *Ancien Fonds*، ١٣٧٥، ورقة ٤٣ الوجه الأول. والقائد عبدالله بن منكوت الذى ينتمى إلى القبيلة نفسها وربما إلى العائلة ذاتها، نراه فى بلاط تميم، الأمير الزيرى فى المهدية. عام ٤٨١ (١٠٨٨ ـ ٩) فى ابن الأثير، المخطوطة C، المجلد الخامس، الورقة ١٠٦ الوجه الثانى، مع بديل لنطق الاسم وهو مذكور فى **البيان**، المجلد الأول، ص ٣١٠ فى النص العربى. ومع بديل للنطق وهو متكود ومدكور نجد الاسم نفسه فى أفريقية فى القرن الثالث عشر عند ابن خلدون *Histoire des Berbè res*، ترجمة م. دى سلان، المجلد الثانى، ص ١٠٣ و٢٢٢. والبدائل سابقة الذكر خلقها الناسخون ولا تتفق مع بعضها. والتبديل بين منكوت ومنكود يمكن أن ينشأ من الصوت المشابه جداً لهذين الحرفين الأخيرين فى نطق العرب. وفى النهاية يلزم أن أذكر أن هذا اللفظ أو ذاك له معنى فى اللغة العربية.

فيبدو أنهما لقيا مصير بالرمو نفسه(1)، إلا أن القائد ابن مكلاتى احتل كتانيا بعد ذلك ببضع سنوات(2). وحُكمت العاصمة باسم صمصام، ثم طُرد منها، وتولى الشيوخ، أى وجهاء الجماعة، زمام الدولة(3). وكانت هذه هى أولى فترات الفوضى التى بدأت بطرد عبدالله بن

وفيما يخص ابن حوّاش *Hawwasci* (والحروف الثلاث الأخيرة يتطابق نطقها مع حرفى *Ch* فى الفرنسية، و*Sh* فى الإنجليزية) فإن هذا الاسم يقرأ أيضاً حواس وچواس، وأعتقد أنها أخطاء فى النسخ. حــوّاشى قد يعنى «المثير للشغب والديماجوجى»، وهو اسم يتلاءم تماماً مع ما كان يقــوله ابن ثمنة لدى النورمان «خادمك الثـــائر» (ليونى دوستيا، الكتاب الثالث، الفصـــل ٤٥)؛ كان رجـــلاً قيل فيه إنه: *esmut lo peuple et lo chacerent de la cite et se fist amiral* (أماتو، الكتاب الخامس، الفصل الثامن).

وأخيراً يلزم أن أذكر أننا نقرأ، فى ابن خلدون، عبدالله بن حوّاشى سيد مازارا وترابانى، ولا نرى اسم على بن نعمة كما أنه لا يتكلم عن كاستروچوڤانى وچرچنتى. ومن المحتمل أن يرجع هذا إلى تخطى سطر فى النقل على هذا النحو: «كان فى مازارا وترابانى عبدالله بن منكوت وفى كاستروچوڤانى على بن نعمة الذى يكنى بابن حوّاشى، إلخ».

(1) عند هجوم النورمان عام ١٠٦٢، جاء أسطول بالرمو لنجدة مسينا. وفى موضعه المناسب سنتناول الحديث عن أسطول أمير صقلية الذى تواجد عام ٤٤٥ (١٠٥٣ ـ ٤) فى سوسة الثائرة على الزيريين.

(2) نجد فى مخطوطتى النويرى اسم كلابى ومكلابى، ولكن الصيغة الصحيحة ذكرها ابن خلدون وهى مكلاتى، التى تختلف عن البديل الأخير فى وضع النقط بحرف واحد، وتختلف عن الأولى فى هذا وفى عقدة صغيرة ترسم حرف (الميم)، التى يسهل عدم الانتباه له للسرعة فى النسخ. ومن ناحية أخرى فإن ابن أو بن مكلاتى يقابل *Benneclerus* الوارد فى مالاتيرّا (الكتاب الثانى، الفصل الثانى والثالث) والذى ربما كتبه *Benmecletus*.

وفى **خريدة** عماد الدين، مخطوطة باريس، *Ancien Fonds*، ١٣٧٥، ورقة ٣٦ الوجه الثانى، لدينا ثلاثة أبيات شعر رثائى للشاعر الصقلى القائد أبى الفتوح بن القائد بدير أو (بُدَير) سند الدولة، بن مكلاتى كبير أمناء السلطان. وحيث أنه ورد ذكره فى الفصل المأخوذ من ابن القطاع، العلاّمة والعالم اللغوى الصقلى الذى مات فى بداية القرن الثانى عشر، فإن بديراً أو ربما ابنه كان سيد كتانيا. وسلطانها الذى أعطى له لقب حاجب وكنية «سند الدولة» يبدو أنه كان صمصام الذى كان يحتفظ بالبلاط ويعطى الألقاب وهو فى حالته البائسة تلك. على أية حال فإن مكلاتة كانت قبيلة من البربر، وربما فرع من كتامة، كما نقرأ فى ابن خلدون *Histoire des Berbères*، ترجمة م. دى سلان، المجلد الأول، ص ١٧٢ و٢٢٧ و٢٩٤ والمجلد الثانى، ص ٢٣٧.

(3) النويرى، الموضع المذكور. ويسكت الآخرون عن هذه الواقعة المهمة.

المعز عام أربعمائة وواحد وثلاثين (٢٢ سبتمبر ١٠٣٩ إلى ٩ سبتمبر ١٠٤٠) وانتهت بخلع صمصام، كما يبدو، فى عام أربعمائة وأربعة وأربعين (٢ مايو ١٠٥٢ إلى ٢١ أبريل ١٠٥٣) الذى تحدد به إحدى الكتابات الاخبارية نهاية أسرة بنى كلب فى صقلية(1).

ويُروى أنه فى الفترة نفسها، ولا نعلم فى أى عام بالضبط، بعد أن اقتحم البيزنطيون مالطة، وكان الضغط شديداً على المسلمين حتى إن عدوهم كان يطالبهم بكل ممتلكاتهم وبالنساء؛ فاجتمعوا معاً ولمسوا أن تعداد العبيد يفوق عدد الرجال الأحرار؛ فأخرجوا آخر أوراقهم. عرضوا على العبيد العتق وإشراكهم فى تقسيم الممتلكات إذا أقبلوا على التسلح مع سادتهم فإما أن ينتصروا معاً وينعموا بالحرية أو الموت. ولما قبل العبيد العرض، هاجم هؤلاء وأولئك فى حجفل ضخم البيزنطيين فهزموهم وطردوهم من الجزيرة: وبعد الانتصار تحقق الاصلاح الموعود؛ وصار شعب مالطة الجديد يعيش وئاماً جميلاً، جعل من هذه الجماعة الصغيرة قوة عظيمــة لم يجرؤ المســيحيون على الهجـــوم عليها أبداً بعد ذلك. هكذا كتب أحد المعاصرين الذى يمكن أن نصدق منه هذا المثال من حسن التدبير دون قبول كل التفاصيل التى ذكرها. ومن المؤكد أن العدو كان يتمثل فى فرقة انطلقت من جيش منياتشى. وبدأت العملية تأخذ الشكل الجماعى عندما ضيق البيزنطيون الحصار على المدينة بعد احتلالهم ريف مالطة، أو بالأحرى بدأت

---

(1) حاجى خليفة، مؤلف حديث جداً، وهو الوحيد الذى يذكر هذا التاريخ فى **تقويم التواريخ**، طبعة القسطنطينية، ص ٦٠. ومع ذلك فهو يتواءم تماماً مع منتصف فترة العقدين تلك التى تركها كاتبو الحوليات فى طى الكتمان. ويضاف إلى هذا أن ابن الأثير وأبا الفدا والنويرى الذين لم يذكروا تاريخ اختيار صمصام أو استبعاده، يذكرون بالتحديد عام ٤٤٤ (١٠٥٢ ـ ٥٣) لأول مرور للنورمان مع ابن ثمنة، والذى حدث بعد تسعة أعوام (١٠٦١). ويبدو إذن أن الأخبار التى قرأوها قد خلطت بين سقوط الكلبيين واستدعاء النورمان. ويبتعد ابن خلدون عن أية شكوك ويذكر أن صمصاماً طُرد من بالرمو ثم قُتل فى عام ٤٣١ (١٠٣٩ ـ ٤٠).

بإحدى مؤامرات المسلمين الذين خضعوا قبل عام ألف وأربعين والذين ثاروا بعد ذلك بقليل اقتداءاً بصقلية(1).

وبينما أعطى طرد البيزنطيين دفعة للوضع الاجتماعى الجائر وغير المستقر الذى ظهر مع الفتح الإسلامى، ولكن تم تداركه فى الجزيرة الصغيرة بالإصلاح عملاً بالأعراف، ففى الجزيرة الكبرى كانت عناصر الاختلاف أكثر تعقيداً وتنوعاً بحسب اختلاف المناطق، كما أن الحرب الأهلية زادت من حدتها، ولما لم تتمكن الأطراف من الاتفاق فيما بينها قسمت البلاد إلى عدة دويلات. وكلما كان البيزنطيون يخلون مكاناً كان المسلمون يحلون مكانهم فى عجالة. فهنا احتلت الجماهير دون توجيه ضربة واحدة تلك القلعة التى حصنها العدو ثم غادرها بعد ذلك، وهناك هجمت على رجال حامية صغيرة وأعملت فيها القتل، وفى ذلك المكان الآخر أسرعت زمرة من البربر الهاربين من جيش المعز، أو سرب من جند صقلية يحمل راية صمصام أو لا يحملها. على هذا النحو يجب أن نتصور استعادة الجزء الأعظم من الجزيرة، التى اعتقد المسلمون انجازها بفضل قوتهم، ولكنها كانت بسبب بلاهة البلاط البيزنطى الذى زج بمنياتشى فى السجن، كما كانت بسبب عقل أردوينو وسيف الجماعات الإيطالية والنورماندية التى كانت تكسر الفرق اليونانية التى تخطت الفارو، فرقة تلو الأخرى. ولما كانت أواصر الصلة والعلاقة بين العاصمة والأقاليم قد مزقها الاحتلال البيزنطى، والروابط بين المسلمين القدماء والجدد، أو بين النبلاء والعامة، قطعتها حيل الأكحل وتبديل الجند وتغييرهم طوال ست سنوات

(1) **آثار البلدان** للقزوينى، النص العربى، ص ٣٨٣. يقول الكاتب الذى عاش فى القرن الثالث عشر إن الحادثة وقعت عام ٤٤٠ (من ١٥ يونيو ١٠٤٨ إلى ٣ يونيو ١٠٤٩). وكاتب الأخبار الذى نقل عنه الكلام ولم يذكر اسمه، كان من المؤكد معاصراً، لأنه عاش قبل احتلال النورمان عام ١٠٩١. وربما كان أبو على الحسن، الذى ألف تاريخ صقلية، واستشهد به القزوينى فى مواضع أخرى.

متصلة(1)، لجأت العامة إلى حمل السلاح، وعدت نفسها فاتحة لحسابها الخاص؛ كما أن وجود فرق البربر الحرة وغضب الصقليين والأفارقة الذى كان حتمياً بعد اهتزاز الهيمنة الزيرية وذلك التفكك الاجتماعى وتلك السلطة الملكية التى تم تنصيبها خلال إحدى حركات الثورة دون قوات أو دخول خاصة بها أبعدت عن الأكالبة أى سبيل لإعادة ترتيب الشئون العامة. وبددت هزيمة صمصام أو بالتحديد هزيمة الجيش تحت أسوار مسينا(2) أية آمال متبقية. والأمير الذى اعتقد البيزنطيون أنه قتل، ولسوء حظه لم يقتل، فقد حينئذ حقه الوحيد فى إعطاء الأوامر فى الثورات. وأى أمل منه أو مهابة له؟ لقد تفرقت جماعات المشتتين فى جميع فجاج الجزيرة: ولاذ كل بداره أو دار غيره، فلم تكن هناك قوة كبرى ترده. هذا ما كانت تعنيه فى طياتها الحوليات العربية التى ذكرنا ما بها من خلاصة.

وكما هو الحال فى الطبيعة فإن أية فوضى غريبة هى فى حد ذاتها منظمة طبقاً لقوانين المادة، لذا ففى فوران كل تلك الأجناس التى دفعت بها أحداث أخرى إلى صقلية ظهرت عدة تجمعات مختلفة: أقامت كل منها دولة؛ وفى كل منها يتكشف تشابه العناصر التى توافرت لنشأتها. فدولة الوسط وكانت عاصمتها كاستروجوفانى كانت أراض زراعية صارت للمسلمين منذ زمن بعيد، وهكذا تقلصت فيها هيئة النبلاء الحربية وتبدد نظام أتباع الإقطاع المسيحيين وتزايد العامة من السلالة القديمة؛ أى طائفة الصقليين كما كان يطلق عليها فى بداية الحرب الأهلية. ومن هنا كانت السيادة لمن أطلقت عليهم الأخبار رجال متواضعى القدر حتى جاء سيداً عليهم: ابن حوّاش «الديماجوجى»، وهو عبد،

(1) فى البداية على يد الأكحل، وبعد ذلك بفعل طرفى الحرب الأهلية وأخيراً من قبل عبدالله بن المعز. ولا يذكر ذلك كتاب الحوليات، ولكن لا يمكن الشك فيه.
(2) راجع الفصل العاشر من هذا الكتاب، ص ٤٠٤ و٤٠٥.

أو عبد من العامة عُتق(1). وتمكنت هذه الدولة من التغلب بقوتها على كل دولة أخرى فى الجزيرة، كما سنرى فى أحداث أربعة عقود تالية. وابن منكوت الذى وضعته الحوليات على رأس قائمة الرجال قليلى القدر قاد فى أقصى الغرب بلداً يطل على البحر كان مقراً عربياً قديماً ولذا كان به مواطنون كثيرون من أصل إسلامى. وهنا كان السكان يتباينون بين الطائفتين الإفريقية والصقلية، أو إذا أردنا القول بين الأصول النبيلة والعامة: ومن هنا كان الاختلاف ضئيلا عن مواطنى بالرمو، ثم تلاشت بعد قليل دولة ابن منكوت هذا الذى اجتذبته بالرمو أو كاستروچوفانى. كانت بالرمو قائمة بذاتها. وكان الساحل الشرقى الذى يقطن معظمه مسيحيون تابعون للإقطاع، خاضعاً لصمصام وبعد ذلك خضع لكبير النبلاء(2)، وسنرى الغلبة للنبلاء فى أعظم مدن تلك النواحى(3) أما ثانى المدن وهى كتانيا، فقد أمسك بزمامها قائد من البربر وهو ابن مكلاتى، ولكنها خضعت بعد ذلك لسيد كل المنطقة الشرقية. وفى الحقيقة فإن ابن مكلاتى بكل ألقابه تلك من «سند الدولة» إلى كبير أمناء بلاط السلطان يشابه حاكم ولاية عند صمصام(4). كان محارباً مغامراً، سواء فى مستعمرات البربر القديمة، أم منشقاً على جيش المعز، ثم زج بنفسه فى أحداث الشغب فى صقلية، ونال رضا البلاط، وقد حاول، حال غرق البلاط، أن يتشبث بأقرب لوح يجده. وهكذا تتقسم هذه الجماعات إلى ثلاثة أقسام: النبلاء العسكريون، وسكان الأقاليم، ومواطنو العاصمة.

ونظراً لأننا تكلمنا بما فيه الكفاية عن القسم الأول والثانى(5)،

(1) وتعنى حرفياً «ابن الديماحوجى». والاستشهاد فى ص ٤٢٠، هامش ٢.
(2) راجع الفصل الخامس عشر من هذا الكتاب.
(3) فى سيراكوزا، كما نستشف من قصائد ابن حمديس.
(4) راجع الهامش رقم ٢ ص ٤٣٢.
(5) راجع الفصل التاسع من هذا الكتاب، ص ٣٨٣ من المجلد.

يتبقى لنا أن نتناول بالبحث والتحقيق أحوال مجتمع بالرمو. كانت السيادة فيه للنبلاء كما لاحظنا(1)، يتبعهم منذ القدم وفى خضوع الشعب وعامة الفلاحين بحمايتهم لامتيازات أصحاب الأراضى. ولما زاد الشعب في عدده وإمكاناته وإدراكه، ضجر مما كانت تستبيحه الأرستقراطية، فهتف لأول أمير من بنى كلب كان يكبح جماحها: والجماعة، التى اختفي منها النبلاء المبعدون ليحل محلهم فقهاء العامة، كانت تسعى، كما حدث من قبل فى جماعة القيروان، إلى نظام الخلفاء الأوائل تحت قيادة أمير منتخب، وهو ذلك الطريق الوسط من الحرية الذى حادت عنه السلالة العربية فى فترة وجيزة، ولم تتمكن أبداً من استعادته. ولما وصل الخلاف بين عامة الشعب والنبلاء إلى مداه، ولما غير الأكحل قاعدة الإمارة من الشعب إلى النبلاء، بدأ التحزب بالعاصمة، حيث توافر بها العنصران، وتغلب جانب الشعب حيث كان هو الأقوى: ويبرهن على ذلك تلك الفرق العسكرية التى استدعاها الأمير، وذلك الحصار الذى فُرض عليه فى الخالصة، وهو ما يعنى ثورة المدينة الكبيرة على القلعة التى غرسها الفاطميون في قلبها. وأطاعت بالرمو ابن المعز دفاعاً عن الدولة ضد البيزنطيين، ثم طردته عندما أيقنت أنه يجيد القمع وليس الدفاع، واستعادت إمارة بنى كلب، طوق النجاة الوحيد فى تلك العاصفة. ويبدو أن جماعة بالرمو تابعت الطريق المستقيم، بينما انغمست الجماعات الأخرى غرب سالسو فى الفوضى: بين فلاحى ومواطنى المدن الصغرى، حيث كان الغضب عادةً أكثر حدة، والعامة أكثر سفهاً، والمصالح العامة أقل وضوحاً للرؤية. وبصفة خاصة فإن القانون الذى يشتمل على كل فكر سياسى لدى المسلمين(2)، ربما كان متبعاً فى غير دقة، أما السلالة الصقلية

(1) راجع الكتاب الثالث، الفصل السابع والعاشر، ص ١٥٢ وما يليها، وص ٢٤٨ وما يليها، من هذا المجلد.
(2) يجب أن نستثنى بعض المدن المطلة على البحر مثل مازارا ومارسالا وترابانى التى

التى اختلطت فى أضيق نطاق مع السلالة العربية فلابد أنها كانت تبدى لها مزيداً من العداء.

ولا نعلم أية حادثة كانت وراء طرد صمصام من بالرمو. ولكن صقلية الوسطى كانت قد ضاعت، والمنطقة الشرقية ربما كانت خاضعة خضوعاً اسمياً، و«سيف الدولة ذلك»، لم يكن رجل دولة أو رجل حرب، وغالى فى رغبته فى القيام بدور الملك فى بالرمو، أو لعله بدا عائقاً غير مفيد للجماعة. وقالوا له، حينئذ، أن ينصرف فى أمان الله، وأرادوا أن يجربوا طريق الجمهورية؛ حتي وإن نصبوا وعزلوا، بين الأكالبة والجمهورية، أميراً حكم لسنوات قليلة أو شهوراً، وهو عبد الرحمن بن لؤلؤ، الملقب بشيخ الدولة والذى فر هارباً إلى مصر(2). وسنرى فى الفصل الأخير كيف أن العاصمة فى رغبتها الحميمة لإعادة تشكيل الدولة قد ساندت أو قبلت ملكاً جديداً من سلالة النبلاء؛ وكانت نهايته أسوأ من أسلافه.

نظراً لقربها من أفريقيا وقِدَم مستوطناتها وخاصةً مازارا، كانت تحفظ نظماً سياسية واتجاهات شبيهة بالموجودة فى بالرمو. ومن المؤكد أن القانون لم يهمل فى مازارا حيث خرج أشهر فقهاء العصر.

(2) عماد الدين فى **الخريدة**، مخطوطة باريس، *A. F.*، الورقة ١٣٣ الوجه الأول، يذكره بين الشعراء المصريين ويرى أيضاً أنه يجب أن يحصى ضمن الشعراء الصقليين. ولقب صاحب صقلية الذى يطلقه عليه يحملنى على الافتراض الذى أذكره فى النص. ومن الممكن افتراض أن تكون قد سقطت كلمة بعد صاحب، ولتكن شرطة، على سبيل المثال، وفى هذه الحالة سيكون الأصوب هو مدير شرطة صقلية.

الفصل الثالث عشر

كانت صقلية تبدو فى الظاهر أحسن حالاً رغم تدهور النظم العامة على نحو كبير: فكانت بها كثرة من المدن الكبيرة، والحصون القوية، والآثار القيمة، وأعمال الزراعة والصناعة والتجارة، وألوان من الترف والعلوم والآداب. ونظراً لازدهار هذه الجوانب الحضارية خلال حكم أسرة بنى كلب التى شجعتها بشكل أو بآخر، فإننا سنعرض لها فى هذا الفصل والفصل التالى فى تتبع لتاريخ الآداب حتى نهاية حرب النورمان، وسنشير أيضاً إلى العلماء الذين لم يجدوا وطناً لهم تحت السيطرة المسيحية وأرادوا الاحتفاظ بصورته خالصة نقيةٍ فى البلاد التى لجأوا إليها، فتوجهوا للتجوال فى أسبانيا وأفريقيا ومصر والشرق فى النصف الأول من القرن الثانى عشر. وسنذكر معهم أولئك القلائل الذين لدينا أخبار عنهم دون تاريخ مؤكد. وسوف نخصص الكتاب السادس للفقهاء المسلمين، من البلاد أو الأجانب، الذين عُرفوا فى صقلية خلال حكم النورمان، ولآخرين ممن حازوا شهرة خارج الجزيرة بعد منتصف القرن الثانى عشر.

وبين عام تسعمائة وثلاثة وسبعين وعام ألف وأربعة وخمسين من التقويم الميلادى، وبين نشاط التاجر ابن حوقل الذى كان يسجل العجائب والرذائل فى بعض نُزُل بالرمو، وجهد الإدريسى سليل الأمراء الذى خط وصف الجزيرة تحت بصر الملك روچيرو، عاش فى صقلية علاّمتان تركا لنا لمحات جغرافية. وكان كلاهما مؤرخاً أو كاتباً لأخبار البلاد، كان أولهما نحو عام ألف وخمسين واسمه أبو على الحسن، والآخر فى نهاية القرن وهو فقيه اللغة البارز، ابن القطاع: وكانت فى حوزة كليهما مذكرات أو أخبار قديمة. ولمع أيضاً

فى القرن الحادى عشر عالم الجغافيا الأسبانى البكرى الذى نجد له لمحتين عن صقلية لدى أحد شارحى النصوص(1). ونحن ندين بشذرات أبى على وابن القطاع للعلاّمة ياقوت الذى نشر عام ألف ومائتين وثمانية وعشرين **معجم البلدان** أى المعجم الجغرافى، ويبدو أنه قد أخذ عنهما جُلَّ الأخبار التى ذكرها عن صقلية(2). ويكشف المعجم عن بضعة أسماء مضاعفة وسقطات أخرى لا يمكن تحاشيها فى مثل هذه المؤلفات الكبيرة، وهى أخطاء ليست بالخطورة التى تقلل من مصداقية العمل.

وعلى حد قول القاضى أبى الفضل الذى استشهد به أبو على، فقد كان فى صقلية ثمانى عشرة مدينة وأكثر من ثلاثمائة وعشرين قلعة(3)، ويشهد ابن القطاع أنه قرأ فيما سجله أحد الكتاب مجهولى

---

(1) شارح النصوص هو ابن شباط. ومســتخلصات البكرى منشـــورة فى كتابى *Biblioteca Arabo-Sicula*، ص ٢٠٩ وما بعدها من النص، وطبقاً لمخطوطة م. ألفونس روسّو.

(2) مؤلَّف ياقوت هذا هو مجموعة الأخبار الرئيسة فى الجغرافيا الوصفية التى تبقت لنا عن بلاد المسلمين فى العصور الوسطى. راجع المعلومات التى يقدمها م. رينو، *Géographie d'Aboul-Feda*، المقدمـة، ص ١٢٩ وما بعدها. ويتوافر الآن منه العديد من المخطوطات فى أوربا ونأمل فى طبعة جيدة للمعجم فى القريب العاجل. وأستخلص تاريخ النشر من مخطوطة المتحف البريطانى، ١٦،٦٤٩، *Prolegomeni*، ورقة ٣ الوجه الأول.

والمقالات التى كتبتها عن صقلية وأراضيها ومدنها فى كتاب *Bibloteca* المذكور، من ص ١٠٥ إلى ص ١٢٦ من النص مأخوذة من مخطوطتى أوكسفورد والمتحف البريطانى فقط. وتجد الأسماء ذاتها فى ملخص **المعجم** المعنون **مراصد الاطلاع**، الذى نشره مؤخراً فى ليدن الأستاذ يوينبول *Iuynboll*. وقمت بذكرها فى مؤلفى *Bibloteca* من ص ١٢٧ إلى ١٣٢ . وربما لم يعلم ياقوت بكتاب الإدريسى، ومن المؤكد أنه لم يرجع إليه عندما كتب عن صقلية: والخبر الوحيد الذى يتفق إلى حد ما مع ما يذكره الإدريسى، هو ما ورد عن كاتانيا والذى سنتناوله فيما بعد. وفضلاً عن الأسماء الواردة فى النص يستشهد ياقوت فى مادتين بابن هراوى وأبى الحسن على بن باديس. وأخيراً فإن الأبيات التى نقلها من إحدى قصائد الهجاء لابن قلاقس الذى حضر إلى صقلية فى عصر جوليلمو الصالح قد زودته باسم جغرافى واحد وهو أوليڤيرى، دون أية أخبار ذات شأن. وسنتكلم عن ابن قلاقس فى الكتاب السادس.

(3) **المعجم** فى *Biblioteca Arabo-Sicula*، النص، ص ١١٥ .

الاسم أن الجزيرة كان بها ثلاث وعشرون مدينة وثلاثة عشر حصناً(1)، وما لا يحصى من ضياع(2). إن هذين الخبرين يرجعان كلاهما إلى النصف الثانى من القرن العاشر أو إلى النصف الأول من القرن الحادى عشر ولا يهم هذا التباين فى مسميات مدينة، وحصن، أو قلعة المتداولة بصورة غير محددة وعفوية لدى العرب، كما نستخدم نحن أسماء مدينة وأراض أو قرية. فاختلاف عدد المدن لا يدلل إذن على تغير الأوضاع، ولكن على اختلاف عصر العلماء الذين كتبوا عنها. وفيما يتعلق بالقلاع التى ذكرها الكاتب الأول فهى تماثل تقريباً ما نطلق عليه اليوم بلديات؛ لأنه مع وقوع الحروب الأجنبية والحروب الأهلية آنذاك كان السكان يفضلون الأماكن الحصينة والجبلية، ومن دعتهم الحاجة للعمل فى السهول بالزراعة أو التجارة كان لهم بعض الحصون فى أعالى الجبال يلجأون إليها(3). إذن فغالبية قلاع أبى الفضل كانت هى الحصون العلوية لسكان القرى والمزارع، التى لم يستطع الكاتب الذى اســتشهد به ابن القطاع أن يحصيها. ويتطـابق اليوم عدد البلديات مع ما ذكره أبو الفضل تقريباً. ولن يكون عسيراً إحصاء الضواحى الريفية التى تناقصت تدريجياً منذ قيام النظام الإقطاعى وحتى إلغائه، ومنذ الغزو النورماندى حتى

---

(1) الموضع المذكور: وها هى فقرة ياقوت: «لقد رأيت بخط يد ابن القطاع على غلاف **تاريخ صقلية** هذه الكلمات: أجد فى بعض نسخ **سيرة صقلية** فى ملحوظة الهامش، أن فى هذه الجزيرة ثلاث وعشرين مدينة، إلخ». وكلمة **سيرة** تعنى «ترجمة حياة، أخبار» ولا نعلم ما إذا كان استخدامها هنا بمعناها العام أم أنها عنوان خاص بالكتاب.

(2) ضياع تعنى بالضبط «مزارع من أملاك الدولة» وتعنى عامة مزرعة، وأملاك زراعية. وكما كان لكل مزرعة سكانها أو المزارعين بها، فإن هذا الاسم كان يمتد ليشمل المساكن المتواضعة سواء كانت كثيرة أم قليلة، ولكن معناه قد يقصد به تجمع مساكن مزرعة أو قرية أو حتى البلدة.

(3) كان هذا الوضع عاماً فى أوربا فى العصور الوسطى. ولكنه فى صقلية، نظراً للمؤسسات فيها وشكل الأرض الطبيعى لازال قائماً حتى اليوم. وخارج نطاق بعض المناطق التى تقدمت فيها الزراعة بشكل فائق فإن السكان مع ضيق أفقهم وفقرهم لم يتوفر لديهم الحماس الكافى لدفعهم إلى النزول من قممهم إلى الأراضى ليزرعوها، وإلى الطرق المسلوكة.

برلمان عام ألف وثمانمائة واثنى عشر(1).

وأسماء المدن التى وردت فى المعجم والتى نتصور دون أن نبتعد كثيراً عن الحقيقة أنها مأخوذة من أبى على وابن القطاع(2)، هى حسب الترتيب الأبجدى كالتالى: أديرنو(3)، ألقامو، بويو(4)، بونيفاتو(5)،

---

(1) عدد البلديات الحالية يبلغ ٣٥٢، بداية من بالرمو وانتهاءً بسان كارلو التى تضم أقل من ٣٠٠ نسمة. وطبقاً لأبى على ففى القرن الحادى عشر كان عدد المدن والقلاع لا يقل عن ٣٤٠، وسأشرح فى الكتاب السادس الملحوظة التى أشير إليها هنا بخصوص قلة عدد القرى.

(2) ابن حوقل، الذى نقل مؤلف **المعجم** فقرات عديدة منه، ربما لا يتكلم عن مدينة أخرى غير بالرمو.

(3) **المعجم ومراصد** يذكران ادس » ن » ت *Ads n t* التى يجب قراءتها أوترانتو. ولكن بدلاً من الظن فى خطأ انتقال تلك المدينة إلى صقلية، يبدو لى أنه يجب استبدال حرف التاء الأخير بحرف الواو وقراءتها أدسرنو *Adserno*.

(4) يذكر **المعجم** فى استشهاد بأبى على أن *el-Biaw* كانت «مدينة» هامة فى النتوء الغربى، فى «أقل أماكن الجزيرة زراعة وخصوبة». وعلى ذلك فهى بلاريب ليليبيو التى أطلق عليها العرب الاسم الحالى بوبيو *Boeo* بعد أن استبدلوا المقطعين الأولين بأداة التعريف العربية. ولما كان اسم مرسى على «مارسالا» متداولاً فى أحداث عام ١٠٤٠ التاريخية، كما ذكرنا فى الفصل السابق ص ٤٢٠ من هذا المجلد، فيمكننا الظن بأنه كان لتلك المدينة إسمان فى النصف الأول من القرن، الاسم الجديد وهو ميناء على والقديم وقد تغير إلى *Boeo*، أو أنه تواجدت أرضان، أخذت إحداهما تنمو وتزدهر وأخذت الأخرى فى التدهور والاضمحلال.

(5) وكان يسمى على هذا النحو الجبل الذى يشرف على ألكامو، والذى يؤكد الفازيلو، فى العشرية الأولى، الكتاب السابع، الفصل الرابع أن ألكامو القديمة قد نشأت عليه، ثم نُقلت إلى موقعها الحالى عام ١٣٣٢ بناءً على أمر فدريجو دأراجونا. ومن المحتمل أيضاً أنها كانت دائماً فى مقرها الحالى. ويطلق عليها الإدريسى (١١٥٤) «منزل» أى محطة، ويطلق عليها ابن جُبير (١١٨٤) بلدة أى أراضى: مما يبرهن على أنها لم تكن حصناً فى القرن الثانى عشر. ومن ناحية أخرى فإنه يطلق على الحصن الواقع فوق الجبـــل اسم بونيفاتو، وفى القرن الثانى عشر كان قريباً من هذا المكان قرية بالاسم ذاته، ومســاحتها ٦٠٠ سُلم كمـــا نكتشف فى إحدى وثائق عام ١١٨٢ التى نشرها ديل جوديتشه فى *Descrizione del Tempio di Morreale*، حاشية، ص ١٤. وبناءً على هذا ليس هناك داعى لافتراض أن ياقوت يذكر اسمين مختلفين لذات المدينة كما لو كـــانت مدينتـــين. وبمراجعـــة الوثائـــق التى ذكرهـــا فـــازيـــلو وداميـــكو فى *Dizionario topografico* وبالبحث عن وثائق أخرى وبدراسة أطلال بونيفاتو والأسوار القديمة الموجودة بألكامو الحالية دراسة أثرية سيمكن حل العقدة.

كارينى(1)، كاستروچوڤانى، كاتانيا(2)، تشفالو، كورليونى، ديمونا(3)، چيلسو(4)، الخالصـــة(5)، مارســالا، مازارا، مسينا(6)، ميلاتســو(7)، مينيـــو، پالرمـــو، پارتينيكـــو، پاتّى، شـكّا، ســكوبلّو(8)، سيراكوزا،

---

(1) هى فى النص *K» r» b» na* ـ ك ر ب نا. ولا أشك فى ضرورة إضافة نقطة إلى حرف الباء العربية وقراءة الكلمة كارينا *Karina*.

(2) نقرأ فى مقالتين فى النص اسم قطانه وقطانيه *Katána, Katánia*، وكلتاهما للدلالة على مدينة، ومن الجائز أن الخبرين وردا من مصادر مختلفة.

(3) لا يذكرها الإدريسى؛ ووثائق القرن الثانى عشر لا تتكلم عنها باعتبارها مدينة موجودة، مما يعد ذريعة أخرى لافتراض أن ياقوت قد أخذ هذا الاسم عن أبى على أو ابن القطاع. انظر الكتاب الثانى، الفصل الثانى عشر، ص ٤٦٨ وما بعدها من الجزء الأول.

(4) يذكر المعجم اسم، چالسوه، بينما تذكر وثيقة عربية ولاتينية لعام ١١٨٢ فى كنيسة موريالى جاليسو باللغة العربية و*Jalcii* (بصيغة الإضافة) فى اللغة اللاتينية: ومن الجائز أن قام بنسخها أحد رجال الدين الفرنسيين الذين حضروا إلى مقر أسقفية بالرمو آنذاك. ويبدو أن الاسم الحقيقى هو الاسم الإيطالى «چيلسو» *Gelso* الذى يطلق مع ذلك على تلك المزرعة. وفى القرن الثانى عشر تم ذكرها بين القرى، كما نرى فى الوثيقة المذكورة. ولم الدهشة إذن إذا وجدت فى القرن الحادى عشر، وكما يقول ياقوت «مدينة داخل صلقية»؟. ويوافق موقعها شمال كورليونى.

(5) كانت فى القرن العاشر قلعة أو مدينة مختلفة عن بالرمو ومتاخمة لها كما يذكر ابن حوقل فى ص ٣٠٠ من هذا المجلد. وكان عرب أفريقيا يميزون مدن المهدية وزويلة والقيروان والمنصورية التى تزيد أو تقل فى بعدها عن بالرمو والخالصة فى القرن العاشر. وكان التمييز منطقياً سواء لأهمية السكان أم لسهولة العيش فى إحداها عندما يحتل الأعداء الأخرى. وعلى حد قول أبو الحسن بن باديس يذكر ياقوت أنه فى عصره، كانت الخالصة حياً من أحياء مدينة بالرمو.

(6) فى مقال **المعجم** نفسه أطلق على مسينا اسم بليدة أولاً ثم مدينة بعد ذلك. وورد هذا الاسم الآخر فى كتاب نُسب زيفاً إلى بطليموس، أما الاسم الأول فلا يوجد استشهاد به. فهل كان يقصد العصور التى بدت فيها مسينا شبه مهجورة؟ انظر الكتاب الثانى، الفصل العاشر، ص ٤٨٧ من الجزء الأول.

(7) وردت **ميلاس** *Milás* فى **المعجم** بمثابة قرية، وفى **مراصد** على أنها مدينة. ونقرؤها أيضاً ملاس *Milas* «قلعة حصينة على الساحل»، وقد تكون ميلى الحالية على مضيق مسينا، أو أن هناك تبديل فى كتابة حروف اسمها مثل قطانه وقطانيه.

(8) هى اليوم اسم مكان لصيد سمك التونة فى خليج كاستلامارى. وتذكرها إحدى وثائق عام ١٠٩٨ لدى بيرّو *Sicilia Sacra*، ص ٢٩٤، باعتبارها أراض آهلة بالسكان، وأطلقت عليها قرية وثيقتان لعام ١١٧٠ و١٢٥١، ذكرهما داميكو فى *Dizionario Topografito*، فى مادتى تشيتاريا وسكوبلّوم. وتشيتاريا مدينة قديمة حسبما ذكر بطليموس، وربما أطلق عليها هذا الاسم نظراً لصيد سمك التونة الذى كان معتاداً فيها

وترابانى(1)، ويبلغ عددها أربعاً وعشرين مدينة، وإذا حُذفت ازدواجية اسم مارسالا التى أطلق عليها أبو على بُويو Boeo، سيكون عدد هذه المدن بالفعل هو العدد نفسه الذى ذكره ابن القطاع(2). وتحت اسم بلد يذكر ياقوت كاميراتا وترمينى وچرچنتى، التى تدهورت بكل تأكيد فى القرن العاشر بعد حركات التمرد. ويطلق اسم بلدة (أرض) على تشينيزى وتوزا ومَسكالى، ويطلق اسم بليدة على ڤيلانوفا(3)، وقلعة على تاورمينا وتريبولى وآتشى وبلّوت (كلتابللوتّا)، ويطلق اسم قرية على ميلى(4) وچاتّينى(5) وسمِينتارا(6)، وضـــياع (مزارع أو ريف)على كِركود(7)، ودون تصنيف محدد يذكر

كما هو اليوم. وكانت سكوبلّو مستوطنة للجيبللين اللومبارد الذين فروا إلى صقلية، والذين منحهم بعد ذلك الإمبراطور فيديرجو الثانى مدينة كورليونى.

(1) وردت ترابانى فى خطأ بيّن مرتين بكتابات مختلفة، وفى المرة الأولى ذكرت اطرابنيش *Itrabanisc* على أنها بلدة (أرض).

(2) لاحظ الاختلاف الكبير مع جغرافية الإدريسى، والتى تطلق اسم مدينة فقط على كل من: كاستروچوڤانى، كتانيا، چرچنتى، مارسالا، مازارا، مسينا، نوتو، بالرمو، رانداتسو، سيراكوزا. ونلاحظ جيداً أنه قد تخلل تلك الفترة الغزو النورماندى وهجرة الإيطاليين.

(3) يبدو أن **بيلانّوبا**، وطن الشاعر الصقلى البلنوبى، قد تهدمت تماماً قبل الغزو النورماندى؛ لأننا لا نعثر عليها فى العديد من الوثائق منذ نهاية القرن الحادى عشر ولاحقاً. ولقد ازدهرت بيلانوبى فى منتصف ذلك القرن، كما سنذكر فيما بعد.

(4) انظر الهامش ٧ فى الصفحة السابقة.

(5) كانت چاتين *Giattin* وطن أحد فقهاء المسلمين كما ذكر ياقوت. وتذكر وثيقة عربية لاتينية لعام ١١٨٢ الاسم العربى چتينا واللاتينى *Jatina*.

(6) *S» m» nt á r* وطن فقيه آخر طبقاً لياقوت. سامانتيريا كانت مزرعة لكنيسة روما فى صقلية طبقاً لإحدى رسائل القديس جريجوريو، الكتاب السابع، الرسالة ٦٢ عند بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ٣٢.

(7) **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ١٢٤ فى النص، مع الاختلاف عن مخطوطة أوكسفورد فى إضافات ص ٤١ من المقدمة. ويكتبها ياقوت كركور، والتى صوبتها طبقاً لابن خلدون، *Histoire des Berbè res*، الترجمة، المجلد الأول، ص ٢٧٤. ويقول نص المعجم: «كِركور إحدى قرى صفاقس فى صقلية». ويمكن فهمها على أنها قرية آهلة برجال من صفاقس أو من الأصوب أن نقول من قرى صفاقس وأخرى فى صقلية».

أوليڤيرى وكارونيا(1). ولكن تجدر الإشارة إلى أن الأراضى الصغرى لا يرد اسمها فى المعجم لأهميتها؛ وإنما لأنها كانت ترد فى تاريخ آداب العرب الذى رأى المؤلف تناوله فى ذلك المعجم الجغرافى الضخم.

إن الأراضى الصغرى والقرى التى نقرؤها عند الإدريسى وكتاب عرب آخرين فى القرن الثانى عشر، وفى الوثائق حتى القرن الخامس عشر يبلغ عددها تسعمائة على وجه التقريب، وإذا كان جزء منها قد أسسه المستوطنون المسيحيون فى القرن الثانى عشر، نتصور أن جزءاً مساوياً لها قد تهدم فى حـرب النورمان، وعليـه يمكننا افتراض وجود العدد نفسه قبل الغزو(2). والأسماء ذات الأصل العربى أو البربرى إما أنها عربية خالصة(3) أو تتميز بأنها مشتقة من أسماء السلالات(4) أو بكلمات دخلت فى الأسماء المركبة مثل: عين، وغار، وراس، ومنزل، ورحل، وقلعة، وبرج(5): وهى تشير تقريباً إلى التجمعات السكانية الجديدة التى أنشأها جزء من المستوطنين العرب والبربر خلال حكم المسلمين، بينما الجزء الآخر راح يقيم فى القرى والحصون والمدن التى كانت قائمة بالفعل، ومن هنا لم تفقد

---

(1) يضيف ياقوت فضلاً عن هذا فى مادة «سردينيا» أنه طبقاً لآخرين كان اسم مدينة فى صقلية، ويذكر صقلب أنها كانت أحد أحياء بالرمو، وفى خطأ واضح يضع تارانتو فى صقلية.

(2) جمعت فى صبر ومثابرة أسماء القرى من قاموس داميكو الطوبوغرافى عند بيرّو، ومن ڤيلابيانكا فى *Sicilia Nobile*، ومن وثائق كنائس بالرمو ومورّيالى، ومن وثائق *Commenda della Magione*، ومن أخبار دى جريجوريو فى ملحقه لكتّاب العصر الأرجونى، ووثائق أخرى منشورة هنا وهناك. وأعدّ لإضافتها إلى حاشية **المكتبة العربية ـ الصقلية**.

(3) ومنها على سبيل المثال جودرانو (غدران، مستنقع)، وبيضا (البيضاء)، *Abdelali* (**عبد العلى**، اسم علم)، و*Zeyet* (**زيد**، اسم علم)، *Chadra* و*Cadara* (**خضراء**).

(4) انظر الكتاب الثالث، الفصل الأول، ص ٣٤ وما بعدها من هذا المجلد.

(5) «نبع، مغارة، رأس، منزل، محط، قلعة، برج». وكلمة رحل تدخل فى مائة وسبعة من أسماء الأماكن فى صقلية. وتدخل كلمة **قلعة** فى عشرين اسم، بينما كلمة منزل فى ثمانى عشرة.

أسماءها القديمة(1). وعدد الأسماء الجديدة دون إحصاء أسماء الأنهار والجبال والمرافئ والرؤوس غير المأهولة، ومن بينها كثير من الأسماء ذات الأصول العربية(2)، يقدر بثلاثمائة وثمانية وعشرين، مئتان وتسعة منها فى وادى مازارا، ومائة فى وادى نوتو، وتسعة عشر فى وادى ديمونى. إن هذه الأرقام، إذا وضعنا فى الاعتبار مساحة كل وادٍ(3) على حدة. تؤكد ما رواه التاريخ عن أن المسلمين احتلوا كل

---

(1) من بين أسماء الأربع وعشرين مدينة المشار إليها سابقاً هناك أربع فقط من أصل عربى هى ألكامو والخالصة ومارسالا وشَكّا.

(2) على سبيل المثال **وادى موسى** (نهر موسى) *Simeto*، و*Dittaino* (وادى الطين، النهر الطينى)، *Chrysas* الذى عرفه القدماء، ومرسى **الشجرة**، لسان تشيرشا بالقرب من باكينو، و*Rasigelbi* (**راس الكلب** أو جلب) بالقرب من تشيفالو، **وعيون عباس**، الثلاث عيون بالقرب من سيلينونت، **وراس البلاط** (رأس البلاط أو حجر الرصف) رأس جرانيتولا، إلخ.

(3) وهذه المساحة طبقاً لآخر المعلومات الجغرافية هى ٤٠٢٥ ميل مربع بمقياس صقلية لأقاليم بالرمو وترابانى وچرچنتى وكالتانيستّا والتى تعادل تقريباً مساحة وادى مازارا؛ و٢٢٢٠ لأقاليم كتانيا ونوتو والتى تعادل مساحة وادى نوتو؛ و١١٨٠ لإقليم مسينا الذى يدخل فى نطاق وادى ديمونى القديم. وتوسع هذا الوادى بعد القرن الثالث عشر جنوباً حتى كتانيا وغرباً إلى ما وراء حدود تشيفالو. إذن فنسب أبعاد مساحات الأودية الثلاث هى: ٠،٥٢، ٠،٣١، ٠،١٧، والثلاثمائة وثمانية وعشرين مكاناً عربياً كانت نسبتها فى الأودية كالتالى: ٠،٦٤، ٠،٣٠، ٠،٠٦. والسكان موزعون حالياً (١٨٥٣) على النحو التالى:

وادى مازارا...	بالرمو..........	٥٤١،٣٢٦
	چرچنتى	٢٥٠،٧٩٥
	ترابانى	٢٠٢،٢٧٩
	كالتانستّا	١٨٥،٥٣١
		١،١٧٩،٩٣١
وادى نوتو...	كاتانيا	٤١١،٨٣٢
	نوتو	٢٥٤،٥٩٣
		٦٦٦،٤٢٥
وادى ديمونى...	مسينا	٣٨٤،٦٦٤
	المجموع	٢،٢٣١،٠٢٠

وعليه فنسبة السكان اليوم تقدر بـ ٠،٥٢، ٠،٣٠، ٠،١٨.

وادى مازارا ووضعوا بعض الحاميات فى وادىديمونى. ويثبت وجود المستوطنات الكبيرة المنتشرة فى وادى نوتو(1) ما أشار إليه كتاب الأخبار.

ولم يرد وصف لمدينة فيما عدا وصف بالرمو لابن حوقل، وإن كان يمكن جمع بعض التفاصيل عن ذلك من هنا وهناك. ونعلم من البكرى، ولكن قبل حرب النورمان، أن سيراكوزا كانت مدينة عظيمة تحتل شبه الجزيرة التى تتصل بالساحل عبر برزخ صغير بين الميناءين الكبير والصغير اللذين كانت تتوسطهما قناة يتم عبورها من خلال جسر، وأنها كانت محاطة بسور ثلاثى الجدار، من ناحية البرزخ على ما أعتقد، وأن الميناء الكبير كان محط رسو السفن(2) فى الشتاء. وفى القرن الثانى عشر يروى ابن هراوى أنه ظلت فى المناطق الشرقية فى كتانيا مقابر زهاء ثلاثين من شهداء المسلمين(3)، استشهدوا هناك فى القرن الأول من الهجرة، وأن مدفن أسد بن الفرات فاتح صقلية يقع بين كتانيا وكاستروچوڤانى. وفى مصدر آخر، يبدو أنه أقدم، نجد كتانيا يطلق عليها كذلك مدينة الفيل، حيث يوجد بها تمثال من الحجر يصور هذا الحيوان، وأن بها روائع من آثار العصور الماضية وكنائس أرضياتها من الرخام الأبيض والأسود(4).

---

(1) راجع الفصل الحادى عشر من الكتاب الثالث، والفصلين الثالث والحادى عشر من هذا الكتاب، ص ٢١٣ وما بعدها، و٢٦٤ و٤٠٩ وما بعدها من هذا المجلد.

(2) عن ابن شباط فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٢١١ و٢١٢ من النص.

(3) **المعجم** فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، إضافات للنص، ص ٤٠ فى المقدمة. والهراوى هذا يبدو أنه هو ذاته على بن أبى بكر، وكان من الموصل وأطلق عليه الهراوى باعتباره نازحاً من هرات: وعاش فى صقلية بعد عام ١١٧٥. ويشك ياقوت فى ذلك الخبر الخاص بمقابر **التابعين**، أو جيل المسلمين بعد جيل صحابة محمد (عليه السلام).

(4) من ياقوت **معجم**... **ومراصد**... **فى المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ١٢٣ و١٣١. ورد الخبر السابق مرتبطاً باسم قطانيه والحالى باسم قطانه، وهما تسميتان تعرف المؤلف على كنههما. ولا يذكر من أين استقى هذا الخبر الثانى، الذى لم يؤخذ بالتأكيد عن الإدريسى. ويلاحظ هذا المؤلف الاسم المزدوج لمدينة الفيل، والذى يرجع إلى تمثال من الحجر «وُضع قديماً فى مبنى منيف، ونُقل حالياً داخل المدينة إلى كنيسة

وعلى حد قول أبى على كانت تشيفالو مدينة قوية تشرف عليها قلعة ترتفع على صخرة عالية فوق الشاطئ(1)، وكاستروچوڤانى، إحدى روائع القرن، كانت مدينة عظيمة على قمة جبل يتوسط الجزيرة، وكانت بها ينابيع غزيرة وأراض تزرع بالمحاصيل الحقلية والبساتين، محاطة كلها بأسوار ترتفع بأبراجها فى السماء(2). ولم يغفل ياقوت النابه ملاحظة الوضع الفلكى للمدن الثلاث الرئيسية، بالرمو ومسينا وسيراكوزا طبقاً **لكتاب الملهمة**(3) الذى نُسب إلى بطليموس، بينما ألفه أحد علماء الفلك العرب أو السريان، الذى ربما كان يقرأ الطالع، ولكنه مثل المعاصرين له، كان يخطئ خطوط الطول والعرض(4).

الرهبان» (البينيديكتيين). وبدلاً من الكنائس المرصعة أرضها بالرخام يتكلم الإدريسى عن **الجوامع** والمساجد والنهر المتقطع (أمينانو) والميناء الحيوى وتفاصيل أخرى أغفلها ياقوت. وحول تمثال الفيل من الحمم البركانية، راجع الكتاب الأول، الفصل التاسع، ص ٢٩٠ من المجلد الأول.

(1) **معجم .. ومراصد .. فى المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ١١١و١٢٨من النص.

(2) **المعجم**، المرجع المذكور، ص ١١٦ و١٢٣ و١٣٠. ولا يذكر ياقوت هنا أبا على، ولكن يبدو أنه يأخذ الأخبار عنه. ويضيف أن الكتـــابة الصحيحة هى قصـر. يانة، *Kasr-ianih* وأن الجزء الثانى اسم رومى (لاتينى أو يونانى) لأحد الرجال. وكان قد حدث بالفعل التحول الذى ذكرته فى الكتاب الثانى، ص ٣٤٧ من المجلد الأول.

(3) راجع رينو، *Géographie d'Aboulfeda*، ص ١٣٢.

(4) **المعجم** فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ١١٢ و١١٧ و١٢٦ من النص. ويبدو أن خطوط الطول مأخوذة من «قبة العرين» على طريقة بعض الجغرافيين العرب القدامى، وقارن بخصـوصها رينو، المرجع المذكـور، ص ١٤٠ وما بعدها، وسـيدلّوت، *Mémoire sur les systèmes géographiques des Grecs et des Arabes*، باريس، ١٨٤٢. ويذكر بطليموس غير الأصيل أن بالرمو تقع على خط الطول ٤٠° وخط العرض٣٥°، وبرجها العذراء، وتقع دار مُلكها على بعد ١٠ درجات من برج الحمل... إلخ؛ وأن مسينا تقع على خط الطول ٣٩° وعلى خط العرض ٣٨° ٤٠′، وبرجها القوس، ودار الحياة تقع على ٢٧ ٩ْ من ذلك البرج؛ وأن سيراكوزا على خط الطول ٣٩° ١٨′ وخط عرض ٣٩°، وبرجها رجل الأسد، ودار الحياة على بعد ١٣° من السرطان، ودار المُلك على الدرجة نفسها من برج الحمل ... إلخ. ووصلت أخطـاء العـرب حول موقع بالرمو الجغرافى حتى عصر أبى الفدا، كما نرى فى كتابه *Géographie*، ترجمة م. رينو المجلد الثانى،

ونجد فى هذه الفترة أخباراً أكثر قيمة عن بركان إتنا الذى لم يحسن علماء ظواهر الكون العرب الأوائل معرفته. وعندما كتب المسعودى فى بغداد فى النصف الأول من القرن العاشر أغفل جبل صقلية الشامخ، أو خلطه بجزيرة ڤولكانو، وروى فيما يشبه القص الخرافى أنه فى حالة ثورة البركان تخرج أشكال قريبة الشبه بالبشر، دون رؤوس، وأن لهيبه يضئ الأرض والبحر لأبعد من مائة فرسخ(1)، ولم يكن على دراية جيدة بما يخلفه البركان سوى حجر الكدّان المستخدم فى صقل الرق وألواح الكتابة وحكّ الأقدام فى الحمامات(2). ولكن أبا على الحسن رأى هذه المواقع وربما شاهد إحدى ثورات البركان. وكتب يقول: «إن جبل النار الشــاهق يشرف على البحر بين كتانيا ومسكالى، وليس ببعيد عن تاورمينا: ومحيط قاعدته مسيرة ثلاثة أيام؛ تتوافر فيه الأشـجار المثمرة بكثرة، وغابات كثيفـة الأشجار والجزء الأعظم

ص ٢٧٣ وما بعدها، حيث ذكر أنها على خط الطـول ٣٥° من جزيرة *Ferro* وخط العرض ٣٦° ١٠′ أو ٣٦° ٣٠′. إلا أن أبا الحسـن على، وهو عـالم فـلك مغـربى، ذكر بطـريقة أصــوب خط الطــول على بعد ٣٧° ٣٠′، بينمـا زاد خطـؤه فى تحديد خط العـرض حين ذكر ٤٥° ٢٠′، عند سيديلّوت *Instruments astronomiques des Arabes*، المجلد الثانى، ص ٢٠٤.

وحتى نفهم لغة **كتاب الملهمة** أقول لمن ليس له دراية بالتجيم أن الموقع كان يحدد بناءً على الأبراج. وما يظهر منها قبالة المكان يكون طالعها الأساسى، أو **الطالع** كما يردد العرب. ودار الحياة والملك أو المصائر الأخرى فهى تتوافق مع نقاط دائرة الأبراج المقسمة إلى اثنى عشر نقطة متساوية تبدأ من **الطالع**. وفى إحدى مخطوطات علم التنجيم بعنوان **كتاب النجوم**، مكتبة باريس، *Ancien Fonds*، ١١٤٦، الوقة ١٣ الوجه الأول، نجد أن دار الحياة تقع بالضبط فى البرج، وأن دار المُلك تقع فى القسم الرابع من ناحية اليسار، وهو ما لا يتفق مع نظام بطليموس، غير الأصيل. والمسميات أيضاً متباينة بشكل ملحوظ، ومجال الأنظمة كان فى الحقيقة واسعاً أمام المنجمين.

(1) ثلاثمائة ميل.

(2) **مروج الذهب والتنبيه فى المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ١و٢. ويضيف المسعودى إلى الروايات الأخرى أن بورفيريو مؤلف *Isagoge* هلك فى بركان إتنا.

منها من أشجار القصطل والرّسخ والصنوبر والأرْز[1]، ويكسو الجليد قمته حتى فى فصل الصيف، وتلتف الغيوم حوله؛ ولكن الجليد يغطيه بالكامل فى الشتاء من قمته إلى قاعدته. وتنتشر حوله مبان عديدة وأطلال مهيبة من العهود الغابرة، وآثار تكشف عن كثرة السكان الذين أقاموا فيها، حيث يروى أن تورا ملك تاورمينا القديم[2] قد جهّز معسكراً يضم ستين ألف محارب. وبأعلى الجبل تنفتح شقوق[3] يخرج منها الحمم والدخان، وأحياناً عندما تسيل كتل النـــار فى أى من جوانبـــه تحرق كل ما تجده فى طريقهـا، ثم تخـــرج مواد صلبة، مثل الحديد، وحينئذ يطلق عليها أخباث[4]، حيث لا يوجد اليوم فيها زرع ولا ضرع[5]. وفى عصر أبى على كثـــرت ثورات البركان فى الســـاحل الشرقى؛ حيث يذكر أنه فى بعض الســـنوات كانت كتل النار تنزل مثل السيل إلى البحـــر وكثيراً ما كانت تلمع حتى إنه فى ليـــال عديدة فى تاورمينا وأراض أخرى لم تضأ المصابيح وكان يمكن التنقل فى تلك البلدان وكأنه

---

(1) يذكر النص لفظة أرزن، *Arzen*، التى تعرفها المعاجم العربية فى غير تحديد بأنها شجرة ذات أخشاب متينة لصنع العصى، ولكنها بالقطع شجرة الأرز. ولا يذكر السنديان بين أنواع الأشجار الأخرى.

(2) يبدو أنها شـــــــخصية خرافية. يطلق الإدريسى لفظ طور على جبل تاورمينا وهـــو معـــروف بقدســـيته مما يذكرنا بالاشـــتقاق غير الأصـــيل فى لفظ πόλιν Ταύρου καὶ μενύας، والذى طالمـــا تندر به كبير الأساقفة تيوفانى شيراميو.

(3) عندما نقل القزوينى هذه الفقرة كما هى فى **المعجم** أضاف كلمة «كبريتية» التى ربما تعبر عن رأيه هو وليس رأى أبى على.

(4) هى جمع خبث، أى بقايا المعادن المنصهرة. ولم تبق هذه الكلمة فى لهجة صقلية التى تطلق على الحمم المتحجرة *"Sciara"*، وأراها جميلة وعذبة تلك الكلمة العربية شَعْراء، والتى تعنى بالضبط «كثيفة الشعر» والاسم منها يعنى «مكاناً تكسوه النباتات» و«غابة».

(5) فى **المعجم**، ص ١١٨ و١١٩ من **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص العربى. وفقرة أبى على نفسها نقلها القزوينى فى **عجائب المخلوقات**، ص ١٦٦، وفى **آثار البلاد**، ص ١٤٣ وما بعدها فى النصين اللذين نشرهما وستنفلد.

النهار[1]. هكذا كان يقول وهو من ولد أو أقام فى صقلية. وعندما استعرض أحد مسيحيى كلابريا فى ذاك الزمان عجائب صقلية فإنه لا يصف ثورة بركان إتنا، وإنما دفع إلى تصور حدوث ثورات حديثه له حيث ذكر أن فلاسفة كثيرين من العصور القديمة ومن معاصرية قد دققوا فى البحث عن أصل تلك النار دون أى طائل من البحث سوى زيادة الهواجس وإعطاء الدليل على جهل الآنام[2]. والبكرى المعاصر له والأجنبى يتكلم فقط عن البركان فى جزيرتين صغيرتين متجاورتين من جهة الشمال وهما من المؤكد سترومبولى وڤولكانو: وهما معجزة من معجزات الطبيعة، فعندما تسكن الرياح الجنوبية يدوى ضجيج مرعب مثـــل الرعد[3]. وكتب آخرون عن نار إتنا الدائمة التى لا يجرؤ إنســـان على الاقتراب منها، وأضافوا فى دهشة أن الكتـــل الملتهبة عندما تنتزع من مكانها تنطفئ فى الحـــال[4]. وثورات البركان نفسه التى رآها أبو على، أو ربما غيرها وقعت فيما بعد، رآها العالم الصـــقلى الجليل أبو القاســـم بن الحاكم، الذى لجأ إلى بغداد، حيث روى ربمـــا فى عام ألف ومائة واثنين وعشرين[5] للرحـــالة أبى حامد الغرناطى وقال إن نار إتنـــا تضئ أحياناً مسافة عشرة فراسخ حولها، مما لا يستوجب اشعال المشاعل ولا المصابيح فى القرى أو طرق الريف. وواصل حديثه بأنه ترتفع

---

(1) يذكر ياقوت والقزوينى هذه الواقعة فى نهاية استشهادهما بأبى على، وبعد كلمات «يقال إن به (فى الإتنا) مناجم للذهب، ومن هنا كان الروم يطلقون عليه جبل الذهب». ولما كانت كلمة «يقال» يمكن أن تعوق الاستشهاد، كان العرب يعبرون فى العادة بلفظ «يخلص إلى» ولكنهم كانوا ينسونه أحياناً.

(2) حياة القديس فيلاريتو عند جايتانى، *Sanctorum Siculorum*، المجلد الثانى، ص ١١٣، وعند البولاندستيين، المجلد الأول، أبريل، ص ٦٠٧.

(3) عند ابن شباط، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٢١٠.

(4) **المعجم**، المرجع المذكور، ص ١١٦. ولا يستشهد المؤلف بأحد فى هذا الموضع. وانظر أيضاً القزوينى، **عجائب**، ص ١٦٦ وما بعدها، **وآثار**، ص ١٤٣ وما بعدها.

(5) تواجد أبو حامد ذلك العام فى بغداد، راجع رينو *Geographie d'Aboulfeda*، المقدمة، ص ١١٢.

عالياً بين ألسنة اللهب كتل من النار، تشبه بالات القطن، تتفتت وتسقط على الأرض وتصير أحجاراً بيضاء، أو تسقط فى البحر فتصير أحجاراً مسامية سوداء، وكلا النوعين خفيف الوزن يطفو على سطح الماء. ويواصل رواية معجزاته: والحصى والرمال عندما تلمسها تلك النار، تحترق مثل قطع القطن المندوف، وتصير غباراً أسود مثل الكحل، ولكن الأعشاب والثياب لا تشتعل بالحمم التى تأتى فقط على الحجارة والحيوانات كما هو مذكور عن نار جهنم(1). كما أكد أحد مُدَّعى العلم من الإخباريين فى صقلية للرحالة الهراوى بعد عام ألف ومائة وثلاثة وسبعين أن طائراً رصاصى اللون له هيئة السمان كان يعتاد التحليق فوق نار الإتنا ثم يغطس فيها وأنه السمندر على وجه التحديد؛ ولكنى لم أر سوى أحجار الكدّان الخفيفة السوداء، هكذا أضاف الهراوى(2). ونستخلص الكثير من العرب حول التاريخ الطبيعى لبركان إتنا: ولم أرغب فى استبعاد تفاصيله الدقيقة ولا أقاصيصه، ووصلت مع الهراوى إلى ثورات البركان حتى النصف الثانى من القرن الثانى عشر والتى ذكرها الكتاب اللاتين. وجدير بالملاحظة أن الإدريسى عندما تكلم عن جبل النار لم يتحدث عن ثورات البركان، مع أنه وصف ظواهر سترومبولى وڤولكانو بالتفصيل. وهذا يبدو لى دليلاً على فترة خمول طويلة شهدها بركان إتنا فى النصف الأول من القرن الثانى عشر بعد فورات القرن الحادى عشر القائمة إلى هنا على افتراضات ضعيفة(3)، والآن دللت على حدوثها شهادة أبى على

(1) **تحفة الألباب** للغرناطى، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٧٤ و٧٥.

(2) **كتاب الإشارات** للهراوى، المرجع المذكور، وانظر الترجمة الإنجليزية للأستاذ صمويل لى، فى حواشى *Ibn-Batuta's Travels*، لندن١٨٢٩، ص ٦. حضر الهراوى إلى صقلية عام ١١٧٣ وتوفى فى حلب عـــام ١٢١٥. انظـــر رينـــو *Géographie d'Aboulfeda*، المقدمة، ص ١٢٧ وما بعدها.

(3) انظر فى هذه الفترة *La Storia Critica delle eruzioni dell'Etna* للكاهن چوزيب أليسى.

وأبى القاسم بن الحاكم.

ومن بركان إتنا ننتقل إلى المنتجات المعدنية فى صقلية التى ذكر منها المسعودى اليشب وعده علاجاً لآلام البطن، إن وضع عليها من الخارج، ولا أعلم كيف رآه أيضاً أساساً للمرجان(1). ويبدو أن ياقوت تكلم أيضاً عن اليشب وافترض وجود جبال منه فى صقلية(2): وهذه مبالغة وليست أكذوبة. فمن جبل إتنا كان يستخرج ملح النشادر، تلك السلعة التجارية الرائجة مع أسبانيا وبلدان أخرى(3). وتكلمنا آنفاً عن الكدّان الذى استخدمه العرب فى مجال العناية بالأقدام والكتابة(4)، واعتقد البكرى أن من كدّان صقلية شُيدت عقود المسرح الرومانى فى سوسة(5). وفى قائمة الثروات المعدنية بالمونجيبللو، أى جبل إتنا يذكر أبو علي الذهب الذى ناقش وجوده فى مناجم على المعروفة، أى فى البيريت، ولا أدرى لأى سبب خاطئ تصور أن بركان إتنا اكتسب اسمه فى لغة الروم من الذهب الذى يحتويه فى باطنه(6). ومع ذلك فقد ذكر البعض أنه يستخرج من الجزيرة كل معدن آخر يدخل فى الاستخدام العام مثل الفضة والنحاس والحديد والرصاص والزئبق(7). ويتحدث

(1) **التنبيه** فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٢.

(2) وصل الاسم مشوهاً فى كل المخطوطات. وتبدو لى أن القراءة الجيدة هى *iascf* (فى الفرنسية *yachf*) وهو نطق بديل للفظة *iascb* يشب التى يستخدمها المسعودى. وكما هو واضح لنا فهذه الكلمة وتلك هى الكلمة اللاتينية *jaspis*، وهى من أصل سامى، وحولها الفرنسيون إلى *jaspe*. وينقل العرب حرف پ *P* الذى لا يوجد فى أبجديتهم بحرف ف *F* وب *B*. ويعلم الجميع حجم وكم ونوعية اليشب وخاصة عقيق صقلية. وكان القدماء يسهبون الروايات الخالية حول الآثار الطبية للعقيق، بما يقارب ما قاله المسعودى.

(3) **المعجم** فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ١١٨.

(4) راجع ص ٤٤٨.

(5) *Notices et Extraits des Mss*، المجلد الثانى عشر، ص ٤٦٥.

(6) **المعجم**، المرجع المذكور، ص ١١٦ و١١٨. ويبدو أن اشتقاق الكلمة مختلط مع Πλοῦτος التى كانت تعنى فى زمن الوثنية، كما فى عصرنا، إله الذهب والنار.

(7) **المعجم**، المرجع المذكور، ص ١١٦ و١١٨. ويجب أيضاً ذكر منجم الحديد بالقرب من بالرمو والذى أشار إليه ابن حوقل.

مؤلف سيرة القديس فيلاريتو عن الملح البلورى اللامع الموجود فى صقلية(1). وذكر العرب المعاصرون الكحل والشّبه والزاج(2). أما الكبريت والنفط المستخدمان آنذاك فى أسلحة الحرب واللذان لم يجهلهما مسلمو صقلية فى القرن الحادى عشر(3) فيبدو أنهما لم يستخرجا من الجزيرة إلا فى نهاية القرن الثانى عشر(4).

إن وفرة مياه الينابيع أو الأنهار التى أشار إليها ياقوت بشكل عام(5) يبدو أنها حقاً أكبر من الحالية، إذا نظرنا إلى وصف الإدريسى المفصل لها فى عام ألف ومائة وأربعة وخمسين، وإلى الأنهار التى قال عنها صالحة للملاحة لمراكب التجارة الكبيرة، والتى لم تعد الآن صالحة لهذا(6). وعلى هذا النحو بدأ تدمير غابات الأشجار فى القرن الثانى عشر وحتى أيامنا هذه(7)؛ ولا أعتقد أنه بدأ على يد العرب حيث أن الزارع الحكيم يحترم الغابات، بينما الأحمق والجائع يقطعها. ويزودنا أبو على بأخبار محددة حول المنطقتين الغنيتين بغابات الأشجار وهما بطبيعة الحال المنطقتان الرئيستان فى

---

(1) عند جايتانى *Sanctorum Siculorum*، المجلد الثانى، ص ١١٣، وعند البولاندستيين، المجلد الأول، أبريل، ص ٦٠٧.

(2) **المعجم**، المرجع المذكور، ص ١١٨.

(3) يتكلم ابن حمديس فى إحدى قصائده التى نشرتها فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٥٦٥، ويصف قذائف اللهب التى أطلقتها سفن سيراكوزا فى إحدى العمليات ضد المسيحيين.

(4) لم يرد ذكر لهما فى ياقوت أو الإدريسى. وأول من ذكرهما هو ابن شباط فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٢١٠، وليس فى مستلات البكرى ولكن ابن غلنده.

(5) **المعجم**، المرجع المذكور، ص ١١٥.

(6) أنهار لينتينى وراجوزا ومازارا.

(7) تذكر وثائق القرن الحادى عشر والثانى عشر غابات وأشجار دمرت الآن. مثل غابة جبال ليناريو بالقرب من مسينا وأحراش أدرانو بين برتسى وبيڤونا، إلخ. ويفقد الإتنا كثيراً من غاباته منذ قرن وإلى الآن. وكان جبل بليجرينو فى بالرمو مكتظاً بغابات الأشجار حتى القرن الخامس عشر. ويذكر الإدريسى بِنِيت *Bineta* أى غابة صنوبر غرب بوكّيرى، إلخ.

الجزيرة: أى جبل إتنا وسلسلة جبال الأبنين. ولقد أشرنا آنفاً إلى المنطقة الأولى. ويؤكد أبو علي بخصوص الثانية أن الجبال الشاهقة والأودية الشاسعة أعلى تشيفالو كانت مكتظة بكل أنواع الأخشاب اللازمة لبناء السفن(1). ويثنى الراهب نيلو على أشجار الأرز فى صقلية، وعلى أشجار السرو والصنوبر المستقيمة والهائلة التى تستخدم أغصانها فى المشاعل(2).

ويأتى بعد ذلك نتاج الحدائق والحقول والمراعى الوفير الذى أثنى عليه البكرى(3)، والفواكه على اختلاف ألوانها ومذاقها، التى لا تنقص صيفاً ولا شتاءً كما كتب ياقوت ربما نقلا عن أبى على(4)، والمحاصيل التى كانت تغطى أرجاء الجزيرة كافة حسبما كتب ابن حوقل(5)، والزعفران الذى كان ينبت من تلقاء نفسه(6)، والقطن والكتان اللذان يزرعان فى چِتّينى(7) وأماكن أخرى، ويبدو أن القطن قد جُلب من أفريقيا(8)، والخضروات التى بدت لابن حوقل فائقة الوفرة(9). ولا يشير أى من الكتاب العرب إلى أشجار الزيتون، التى يسود الاعتقاد بأنها تزايدت فى صقلية فى ذاك العصر؛ لأن الفلاحين اعتادوا اطلاق صفة ساراتشينيه أى سراسنية على الشجرة

---

(1) **المعجم**، المرجع المذكور، ص ١١١.

(2) *Vita di San Filareto*، الموضع المذكور.

(3) فقرة ذكرها ابن شباط، **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٢١٠.

(4) **المعجم**، المرجع المذكور، ص ١١٦.

(5) انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب، ص ٣٠٠ من هذا المجلد، وفقرة أخرى لابن حوقل منقولة فى **المعجم**، المرجع المذكور، ص ١١٩، حيث نقرأ «وغالبية أراضى صقلية صالحة للزراعة».

(6) **المعجم**، المرجع المذكور، ص ١١٦. يقول النص: «وتنتج أراضى صقلية الزعفران». ولعله يجب نسب مجمل تلك الفقرة لأبى على.

(7) **المعجم**، المرجع المذكور، ص ١١٠.

(8) يتكلم ابن حوقل عن القطن المزروع فى قرطاجنة ومسيلا. فى **وصف إفريقيا** ترجمة م. دى سلان، فى *Journal Asiatique*، المجموعة الثالثة، المجلد الثالث عشر.

(9) انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب، ص ٣٠٣ و٣١١.

إذا قوى أصلها وإذا تميز جذعها وأغصانها بجمال المنظر. وربما اقترب الفلاحون فى ذلك من الحقيقة، وأما الآخرون فهم بعيدون عنها. وترجع زراعة أشجار الزيتون فى صقلية إلى القرن الخامس قبل الميلاد، ولم تُهجر فيها أبداً، ولكنها تدهورت مثل زراعات أخرى كثيرة خلال حكم الرومان، ولم تزدهر مرة أخرى إلا خلال حكم العرب؛ لأننا نعلم أن إفريقيا كانت تبيع الزيت إلى صقلية فى القرن التاسع والحادى عشر والثانى عشر(1). وأكثر من ذلك يبدو لى أن الجزيرة تدين للمسلمين بزراعة البرتقال وموالح أخرى أصبحت الآن سلعة رائجة فى التجارة(2)، ويرجع لهم الفضل فى زراعة قصب السكر(3)، ونخيل البلح(4) والتوت، أو على الأقل صناعة الحرير(5). وعلى

(1) راجع الكتاب الأول، الفصل التاسع، ص ٢٨٠ من المجلد الأول، هامش ٢؛ والكتاب الثانى، الفصل العاشر من المجلد نفسه ص ٤٧٥. ويشهد بكرى على القرن الحادى عشر؛ والوثائق على القرن الثانى عشر.

(2) الأشعار العربية فى مدح الملك روچيرو، والتى سنعالجها فى موضعها، تصف زراعة الموالح فى القصر الملكى فى فاڤارا أو ماريدولشى بالقرب من بالرمو. وهناك وثيقة ترجع إلى عام ١٠٩٤ عند بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ٧٧٠، تتحدث عن *Via de Arangeriis* عند باتّى. ومن ناحية أخرى فمن المعلوم أن أنواعاً عديدة من البرتقال أتت من الهند إلى الشام ومصر بعد بداية القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى. انظر ملاحظة م. دى ساسى على عبد اللطيف *Relation de l'Egypte*، ص ١١٧. ومن الجائز أن جُلبت أشجار البرتقال والليمون فى تلك الفترة ذاتها من سورية ومصر إلى صقلية وأسبانيا وبلدان أخرى فى غرب حوض البحر المتوسط.

(3) ولكن طبقاً لابن حوقل كان قصب السكر يزرع فى القرن العاشر فى إفريقيا (ترجمة م. دى سلان، *Journal Asiatique*، المجموعة الثالثة، المجلد الثالث عشر) وطبقاً لابن العوام كانت زراعته معروفة جداً فى أسبانيا فى القرن الحادى عشر؛ وتشير وثيقة ترجع لعام ١١٧٦ إلى إحدى عصّارات قصب السكر فى بالرمو، وليس هناك شك فى أن هذه الصناعة بدأت فى صقلية فى القرن الحادى عشر أو حتى العاشر.

(4) فى إحدى وثائق عام ١٢٤٩ عند مونچيتورى، *Monumenta Sacrœ domus Mansionis...*، الفصل الرابع، ورد ذكر زراعة نخيل البلح فى سان چوڤانى دى ليبروزى خارج بالرمو بجوار إحدى مزارع الزيتون. وكان قطع النخيل على يد جيش د. آنچو الذى حاصر بالرمو فى القرن الرابع عشر.

(5) يطلق الإدريسى اسم نهر التوت على النهر الذى يطلق عليه أرينا، جنوب مازارا، كما يشير إلى وفرة الحرير المنتج فى سان ماركو فى وادى ديمونى.

العكس من ذلك إذا كانت زراعات العنب لم تقتلع فى كل مكان، وإذ تغنى الشعراء العرب فى صقلية بنبيذ البلاد فى حرارة تذكّرنا بأشعار أناكريونت، فإن زراعة الكروم قد خُفضت خلال حكم المسلمين، ثم عادت تزدهر شيئاً فشيئاً خلال قرنين، حتى إن صقلية كانت تجلب النبيذ من نابولى زهاء نهاية القرن الثالث عشر(1).

وعلى حد قول أحد المؤلفين المسيحيين فإن فصائل الخيول فى صقلية التى ذكرها العرب فى القرن الحادى عشر(2)، كانت تتوافر فيها جياد الحرب، سريعة الحركة، والخيول ذات الهيئة الرائعة والألوان المتنوعة(3)، كما أن الجبال امتلأت بالبغال(4) القوية المستخدمة فى حمل الأثقال وجرها(5)، وبالحمير(6) والثيران وقطعان هائلة من الأغنام(7)، كما استمرت تربية النحل كما كانت قديماً. وكان صيد الأسماك وفيراً فى الموانى، كما يكتب الراهب نيلو، كما كانت الأصداف والقواقع التى تفرز اللون الأرجوانى متوافرة(8). وكان صيد الطيور(9) موفوراً فى الجبال والغابات التى لم تكن تفتقر إلى الحيوانات المفترسة التى تفيد فى بث خشية الله فى

(1) هذا ما يمكن ملاحظته فى وثيقتين ترجعان لعام ١٢٨٤، وفى أخبار إسكلوت، الفصل مائة وعشرة وقد أشرت لها فى كتاب *Guerra del Vespro Siciliano*، طبعة فلورنسا، ١٨٥١، الفصل العاشر ص ٢٠٩.

(2) **المعجم** فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ١١٦.

(3) *Vita di San Filareto*، عند جايتانى *Sanctorum Siculorum*، المجلد الثانى، ص ١١٣ ولدى البولانديستيين، المجلد الأول، أبريل، ص ٦٠٧.

(4) **المعجم**، الموضع المذكور.

(5) *Vita di San Filareto*، الموضع المذكور. وردت الترجمة اللاتينية للأب فيوريتو *ad vehicula trahenda aplissimi*، ولما لم يتوفر لنا النص اليونانى، فلسنا على يقين ما إذا الأمر يتعلق بعربات يجرها حيوان أم نقالات.

(6) **المعجم**، الموضع المذكور.

(7) **المعجم** و*Vita di San Filareto*، الموضعان المذكوران. ولنتذكر أيضاً القطعان الكبيرة التى كانت للأمير يوسف، الفصل الثامن من هذا الكتاب، ص ٣٦٢ من المجلد.

(8) *Vita di San Filareto*، الموضع المذكور.

(9) **المعجم**، *Vita di San Filareto*، الموضعان المذكوران.

النفوس البسيطة، كما يعتقد الراهب(1)، ومن المؤكد أنه يقصد بها الذئاب. وقد أعتاد العرب على حيوانات أخرى يخيفون بها الصغار، ذكروا أن من بين فضائل صقلية أنه لا يوجد بها أسود أو فهود أو ضباع أو ثعابين كبيرة، وأضافوا، من عندهم، أنه لا توجد أفاعى ولا عقارب(2).

وخصوبة البلاد لا تعود فقط إلى طبيعتها، كما سأذكر فى تناولى لفترات أخرى من التاريخ؛ فقد ساندها جهد السكان بقوة، ذلك الجهد الذى ألقى عليه بعض الضوء «**كتاب الزراعة**» لابن العوام، وهو أسبانى عاش فى منتصف القرن الحادى عشر ومؤلف بارع فى تعاليم حرف ضاربة فى القدم وربما منذ عصر النبطيين، والتى أضاف عليها ملاحظاته حول الأعمال الزراعية فى أسبانيا. ونعلم منه أن الطريقة المثلى لزراعة الخضر وخاصة البصل والشمام كانت تسمى الطريقة الصقلية؛ والوصف الدقيق الذى يذكره عنها يتطابق بالفعل مع ما يزال متبعاً فى صقلية(3). والكلمات العربية الخاصة بزراعة الخضر التى ظلت فى لهجة صقلية لا تفسح أى مجال للشك حول العصر الذى تأصلت فيه هذه الزراعات ومثيلاتها(4). وإحدى الأزهار، الورديه(5)، كان يطلق عليها فى

---

(1) *Vita di San Filareto*، الموضع المذكور.

(2) **المعجم**، المرجع المذكور، من ص ١١٦ إلى ١١٨. والأفاعى والعقارب نادره جداً فى صقلية وأقل فتكاً من مثيلاتها فى إفريقية ومصر والشرق.

(3) *Libro de Agricultura, su autor... ebn elAwam Sevillano*، ترجمة أسبانية لبانكويرى مع النص العربى، مدريد، ١٨٠٢، المجلد الثانى، ص ١٩٣ و٢٣١. ويعد نوعاً من الشمام يطلق عليه فى العربية نفاج، وأعتقد أنه ذلك الذى يطلق عليه فى صقلية شمام المائدة أو شمام الشتاء.

(4) *"Nuara"* (فى اللغة العربية نوار طبقاً لابن العوام، المجلد الثانى، ص ٢١٣) وتطلق على مكان تجميع الشمام والقرع والبطيخ، و*"Valtali"* (وفى اللغة العربية بليل) تطلق على قناة رى الحدائق: و*"gebbia"* (وفى العربية جابية) تطلق على خزان كبير لحفظ المياه لرى البساتين، إلخ.

(5) الزهرة الورديه التى يطلقون عليهـــا صـــقلية هى *Pelargonium radula roseum* حسب علماء النباتات.

أسبانيا فى عصر ابن العوام الزهرة الصقلية، حيث يبدو أنها جُلبت من صقلية(1). وعلى ذلك انتقلت إلى أسبانيا تركيبة الموسترده بعسل النحل والخردل التى وصفها ابن بصال(2). بالتفصيل الدقيق. ولكن ما فاقت الأعمال كلها كانت زراعة القطن فى الأراضى الجدباء التى نسبها ابن فصّال، الذى استشهد به ابن العوام، إلى الصقليين وقال: إن سواحل أسبانيا قلدتها بنجاح(3). ويذكر مبحث عربى آخر فى الزراعة أن الصقليين كانوا يعزقون الأرض عشر مرات لزراعة القطن(4). وظلت هذه الشجرة ذات الفائدة فى صقلية خلال القرن الثانى عشر(5)، وحتى منتصف القرن الثالث عشر(6)، ولكنها انتقلت مع العرب فى نهاية القرن الرابع عشر إلى مالطة وسترومبولى وبنتلاريا(7)، ويبدو أنها بدأت منذ قليل تعود من جديد فى سواحل باكينو وعلى شواطئ نهر سيميتو.

وفيما يخص الصـــناعة هنـــاك ذكر للنسيج الثمين، وهو من الحـــرير بكل تأكيد، والمعـــروف بالصـــقلى، وعُثر على الكثير منه بين كنـــوز عَبْدَة، بنت الخليفـــة الفـــاطمى المعـــز، والتى توفيت فى مصر فى نهـــاية القـــرن العاشر أو بدايات القـــرن الحـــادى عشر

---

(1) ابن العوّام، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٢٩٦.

(2) ابن العوّام، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٤١٨.

(3) ابن العوّام، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ١٠٤.

(4) **كتاب الفلاحة**، لأبى عبدالله محمد بن حســين، الذى استشــهد به م. شـربونو فى إحدى المـذكرات حول *Culture arabe au moyen- âge* فى *Annales de la Colonisation algérienne*، يونيو ١٨٥٤.

(5) تنص وثيقة ترجع لعام ١١٤٠ بمنح كنيسة كاتانيا *"Duas terras ad bombacea"* فى دى جروسيّس، *Decacordum*، المجلد الأول، ص ٧٧. ويذكر الإدريسى أن القطن كان يزرع بوفرة فى بارتينيكو.

(6) ابن سعيد، **كتاب البادى**، فى المكتبة العربية - الصقلية، النص، ص ١٣٧، و**مختصر الجغرافيا**، المرجع المذكور، ص ١٣٤، مع التصحيح فى صفحة ٤٣ من المقدمة حيث أن المنطقة المقصودة هى بنتلاريا.

(7) فازيلّو، العشرية الأولى، الكتاب الأول، الفصل الأول.

تقريباً(1). وعما إذا كانت صناعة الحرير قد بدأت فى صقلية قبل ذاك العصر، فهذا ما تؤكده سيرة الرجل التقى، أبى الحسن الحريرى(2)، ويشار فيها إلى قلعة الطرزى، وهى قلعة مهجورة اليوم وتقع بالقرب من كورليونى(3)، علاوة على الطراز الملكى فى بالرمو، وهو من آثار الصناعة العربية فى القرن الثانى عشر، وسنتكلم عنه فيما بعد، فى موضعه. وكذلك بعض اللمحات عن التجـارة نظـراً لقلة اكتراث الكتـاب بها أو لضـيـاع ما كتبوه. وعلاوة على تصدير ملح النشادر الذى أشرنا إليه من لحظات(4)، نعلم باستيراد الزيت من صفاقس(5)، وإبحار السفن إبحاراً متكرراً من صقلية إلى المهدية وسوسة(6). وتشهد لنا اتفاقات الحسن بن على عام تسعمائة واثنين وخمسين(7) على أهمية التجارة

---

(1) أبو المحاسن، **تاريخ مصر**، مخطوطة باريس،*Ancien Fonds*، ٦٦٠، الورقة ١٠٣ الوجه الأول، عندما ذكر **رشيدة وعبدة** بنتا المعز واللتين ولدتا قبل عام ٩٧٢ وتوفيتا خلال ملك الحاكم (٩٩٦-١٠٢١) يقول إن الأولى تركت ما قيمته ١،٧٠٠،٠٠٠دينار من ألبسة من مختلف الأنواع وعطوراً، بينما تركت الثانية مكيالاً من الزمرد وقناطير عديدة من الفضة إلخ، وثلاثة آلاف شِقة صقلية (أو شَقة). وهذه الكلمة تعنى قطعة قماش لثوب، ولا نعلم إذا كانت اسم عامَ أم تسمية خاصة بهذا النوع من النسيج. وإذا كنا نشتم فى تلك الأرقام عبق حكايات ألف ليلة وليلة فإن كاتب الأخبار الذى وقع بين يدى أبى المحاسن لم يخترع شكل ذلك القماش. وقد أشرنا من ناحية أخرى إلى الرفاهية والبذخ فى حياة الزيريين فى إفريقيا: فثروات عائلات الملوك آنذاك تكون أحياناً حقيقة واقعة جداً ولها ملامح الخرافة.

(2) راجع الفصل الحادى عشر من الكتاب الثالث، ص ٢٣٠ من هذا المجلد.

(3) يطلق عليه فى اللغة الدارجة كالادرازى. وطرازى معناها صانع الطراز، أو الدار الملكية للثياب الحـريرية المطـرزة. وحول أخبـار قلعة الطرازى انظر هامشاً فى كتاب العـلامة م. فرانسيسـك ميشـيل، *Recherches sur les étoffes de soie au moyen- âge*، باريس، ١٨٥٢، المجلد الأول، ص ٧٧، الذى نقلت إليه هذا الخبر وفى المقابل سأنتزع منه المئات المبعثرة فى القصائد الفرنسية القديمة والتى ستفيد فى إلقاء الضوء على هذه الصناعة الصقلية فى القرن الثانى عشر والثالث عشر.

(4) راجع ص ٤٥٣.

(5) البكرى، *Notices et Extraites des Mss.*، المجلد الثانى عشر، ص ٤٦٢.

(6) المرجع المذكور، ص ٤٨٠ و٤٨٨.

(7) راجع الفصل الثانى من هذا الكتاب، ص ٢٥٣ وما بعدها.

بين الجزيرة وريچو، وعادت العلاقات التجارية بين سواحل البر الإيطالى المطلة على البحر التيرانى والمسلمين على صقلية بفائدة كبيرة. وإذا تركنا من هذه المناطق ما يقع منها شمال نهر التيبر، فإن ابن حوقل يؤكد تلك الفائدة بالنسبة لنابولى وسالرنو وأمالفى(1)، كما يؤكد اسم قيطونة العرب المزدوج الذى احتفظ باسم برومونتوريو تشرتشيو حتى عصر الإدريسى، وهو اسم أطلقوه على إحدى المدن فى الأطراف الجنوبية من سردينيا(2)، وعلى المدينة المسماه كذلك كاتونه والمواجهة لمسينا(3). وأكبر دليل على نمو التجارة أنه فى سالرنو وربما أيضاً فى نابولى وأمالفى كانت تزيف عملة صقلية الذهبية لدواعى التجارة وليس للغش(4)، كما هو الحال حتى فى عصرنا الحالى حيث تصك العملة الأسبانية بتمامها وكمالها فى بلدان أخرى.

وإذا أمعنا التفكير فى عبقرية العرب فى شتى المجالات وفيما هو مشترك من قوانين وعادات وتقاليد، وسلالات أيضاً اتسم بها الذين كانوا يسيطرون على غرب حوض البحر المتوسط، لا يساورنا أى ريب فى أن صقلية شاركت فى فنون أسبانيا والسواحل الأفريقية ورفاهيتها، كما أنها مرت بأحداث سياسية وشاهدت ازدهاراً فى الآداب وكذلك فى مجال الآثار أيضاً. وقد هلكت فى حرب النورمان كل آثار المسلمين تقريباً، ورغم ذلك ليس هناك أدنى شك فى روعتها وبهائها، حيث امتدح مؤلف سيرة القديس فيلاريتو

---

(1) ذكرت نص هذه الفقرة فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ١٠.

(2) الإدريسى، *Géographie*. ترجمة م. چوبرت، المجلد الثانى، ص ٢٦٦ و٢٦٩. وفى هذا الموضع الأخير لا أدرى لماذا فضل چوبرت *Fàlána* بمثابة بديل.

(3) قيتون فى اللهجة العربية بسورية ومصر تعنى مخزن المهملات أو مخزن. وهى من أصل يونانى **Κοιτών** انتقلت من معنـــاها الأساسى سرير إلى حجرة ونزل، وعند يونانيى العصور الوسطى كان معناها خزانة الملابس ومرسى السفن: ونرى هذه المعانى فى الطبعة الجديدة من *Thesaurus* إنريكو إيتيان.

(4) راجع نهاية هذا الفصل.

دور العباده وبنايات فخمة أخرى فى المدن الكبرى بصقلية(1)، وبعد أن أعمل فيها الكونت روچيرو بالحديد والنار لمدة ثلاثين عاماً كتب بأسى فى إحدى وثائق عام ألف وتسعين عن أطلال مدن وقلاع السراسنة الهائلة، وأطلال قصورهم المشيدة بإتقان جدير بالإعجاب والمجهزة بكل وسائل الرفاهية ومتع الحياة(2) علاوة على وسائل الراحة. وسنعالج فى الكتاب السادس فن العمارة العربية تحت حكم النورمان، الذى ندين له بكل الآثار التى بقيت فى صقلية من العصر الوسيط، والتى خرجت إلى النور منذ وقت قليل. وأتكلم عن اثنين أو ثلاثة منها، حيث نجد خط النسخ المكتوب فى نقوش زخرفية على جدران قصر كوبا يحمـل اسـم الملك جـوليلمو الثـانى وتاريخ عام ألف ومـائة وثمـانين(3). وحمـامات تشيفالا وقصـر زيزا يبدو إنهما أكثر قدماً لفخـامة الكتـابة الكوفية التى كانت تزينهما من قبل(4)، أما قصر وحمام ماريدولشى، ورغم أنه لا توجد بهما كتابات، فيبدوان معاصران؛ ولما كان تحديد عصرهما غير مؤكد، حيث أجريت عليهما الإصلاحات فى زمن لاحق، وقام النورمان بتجميل قصر زيزا كذلك، فلا يمكننا أن نقطع برأى حول الفن العربى فى صـقلية فى القـرن الحــادى عشر. وسـوف أقتصر على الإشارة إلى أن خطوط المنظور فى المكعب المسـتطيل والقوس المدبب الذى عرفت به عصـور النورمـان نجدها فى أطر الكتــابات العربية

(1) عند جايتانى *Sanctorum Siculorum*، المجلد الثانى، ص ١١٣، وعند البولانديستيين، المجلد الأول، أبريل، ص ٦٠٧.

(2) فى بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ٨٤٢.

(3) نشرت هذه الكتابات فى *Revue Archéologique* فى باريس عام ١٨٥١، ص ٦٦٩ وما بعدها. ويرى بعض علماء بالرمو الحفاظ على أن يكون قصر كوبا أقدم من هذا بقرن أو قرنين، على افتراض أن الكتابات أحدث من بناء القصر ذاته. ولكنهم لم يلتفتوا إلى أن الكتابات ليست محفورة على ألواح من الحجارة، ولكنها محفورة فى محيط الجدران ذاتها دون آثار لأية تعديلات.

(4) چيرو دوپرانچى، *Essai sur l'architecture arabe*، باريس ١٨٤١، اللوحة ١٣، رقم ٣ و٤.

فى صـقلية خــلال الحـكم الإسلامى. فهنا نجد مستطيلاً يعلوه رأس مدبب فيما يشـبه غطـاء رأس الأساقفة(1)؛ وهناك بداخل المستطيل قوس مقسم إلى ثلاث حنيات حسب الشـكل المعروف بالموريسك(2).

ويحدث دائماً أن تفلت من غضبة الحروب المدمرة أو الاضطهادات بعض الآثار ضئيلة الحجم، لإهمال الأيدى المخربة أو كللها، أو لنزوة أو هوى أحدهم: وهكذا تبقت فى صقلية نقوش عربية عديدة، كتبت خلال حـكم المسـلمين، بالإضافة إلى تلك التى ترجع إلى العصر النورماندى والتى سنتناولها فى مكانها الملائم. ومهمـا كانت النقوش التى نشرها دى جريجوريو غير واضحة المعـالم، وأنه لم تتح لى فرصـة رؤية أشكال أفضل للكتابات التى لم تنشر فإنه يمكننى رغم ذلك أن أتناول الكتابات المنقوشة على الحجـر وخطوطها التى تمثل فى أشـكالها الهندسـية وزخارفها كل فنون الخط لدى المسـلمين(3). وقد وجدنا من المناسب أن نشير من قبـل إلى كتابات برج بَيِّش فى بالرمو(4) وحصن ترمينى(5)، وأولاهما مفقـودة إلا أنه تم تصـوّر الخطوط الرئيسة لبعض نصوصـها؛ ومعـالم الأخرى فى حـالة رديئة جداً، وأخشى الآن أن تكون قد سـاءت حالتها: وكلتاهما من القرن العاشر. ويبدو لى أنه يجب أن ننسب إلى ذات العصر تلك الأسطورة المنقوشة فى مبنى حمامات تشيفالا القديم، التى تآكلت منذ زمن

(1) فى أحد أعمـدة كاتدرائية بالرمـــو، فى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ١٣٧.

(2) وفى شاهدى قبر فى دى جريجوريو، المرجع السابق، ص ١٤٦ و١٥٢.

(3) هناك استثناء لوجود صور رجال وحيوانات فى بعض الآثار، مثل أسود الهامبرا، إلخ. ولكننا لا نرى أى مثال لذلك فى صقلية. وتنتمى الفسيفساء التى تصور الحيوانات فى صالة زيزا فى بالرمو إلى عصر النورمان.

(4) انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب، ص ٣٠٧ وما بعدها من المجلد.

(5) انظر الفصل الرابع ن هذا الكتاب، ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

طويل، واليوم يقولون لى إنها تلاشت تماماً(1). أما الكتابات التى احتفظت برونقها فهى نصوص قرآنية محفورة على أعمدة صغيرة من الرخام انتزعت من المساجد وأدخلت فى تشييد الكنائس، أو نقوش شواهد أضرحة أُخذت من المقابر وأودعت المتاحف أو الديار. والكتابة بالخط الكوفى الواضحة والرصينة وقليلة الزخارف والخالية تماماً من التكلف الذى كان ظاهراً فى برج بَيّش (2)، تظهر أيضـــاً فى شـــاهدى قبرين فى متحف ڤيرونا(3) وفى شاهدين آخرين فى بيت كالزولا فى بوتسوولى(4)، وفى ثلاثة شواهد بلا

---

(1) أتى دى جريجوريو فى *Rerum Arabicarum*، ص ١٨٨، أتى برسم لها نفذه بالطريقة المعتادة فى عصره، ثم صغّره، واعترف بأنه لم يتمكن إلا من قراءة بعض المقاطع فيه، وأنا أيضاً أجد صعوبة فى ذلك. وانظر، علاوة على هذا، هامش الصفحة السابقة. إن رسم بعض الحروف التى نراها فى عمل چيرو دى برانچى، ...*Essai*، يظهر جمال الحروف وعدم اكتراث من خطها فى البداية. والصديق سافيريو كافلاّرى الذى أخبرنى منذ بضع سنوات بتلف الحروف، أعاد رسمها مرة أخرى ولم نتمكن حتى الآن من العثور على هذا الرسم.

(2) تجدر التذكرة بأن أفضل رسم هو الذى نشره فازيلّو.

(3) أخذها من بالرمو ونقلها إلى ڤيرونا الكونت أنيبالى مافِّى، نائب ملك صقلية. ونشر شبيونى مافِى الكتابات فى **متحف ڤيرونا**، ص ١٨٧، ثم نشرها دى جريجوريو فى *Rerum Arabicarum*، من ص ١٤٦ إلى ١٤٩. واختص ج. س أسّمانى وتيتشسن بتفسيرها. وكانت تشتمل على صيغ معتادة وآيات من القرآن، وأسماء أعلام: ويبدو لى أن أحدها يجب أن نقرأه إبراهيم بن خلف ديباچى (بدلاً من إبراهيمى بن خلف الديناجى)، المتوفى عام ٤٦٤ (١٠٧٢)، والآخر هو عبد الحميد بن عبد الرحمن بن شعيب، المتوفى عام ٤٧٠ (١٠٧٨). وطبقاً **للب اللباب** للسيوطى فإن اسم الديباچى يعنى «صانع الحرير»، وكان أيضاً اسماً متوارثاً فى سلالة الخليفة عثمان بن عفان.

(4) عند دى جريجوريو، المرجع المذكور، ص ١٤٤ و١٥٢، والذى أخذ التفسير عن التفاسير المنشورة لكبير الرهبان دى لونجورو وعن أدريانو رولان. والشاهد الأول يذكر اسم الشيخ والفقيه النابغة أحمد بن سعد بن مالك (بن عبد؟) العزيز الفقير إلى (معونة) الله (*non Gubernatoris Jurisperiti sapientis Ahmedis filii Saad ben el Malek potentissimi qui pauperis inslar est erga dominum suum*). المتوفى عام ٤١٣ (١٠٢٣): ويذكر الثانى محمد بن أبى سعادة (وليس ابن سعد) المتوفى عام ٤٤٤ (١٥٠٢ وليس عام ٤٧١، أى ١٠٧٩). وهذه الكتابات التى لم ترسم بشكل جيد ولم تنقل بحروف عربية واضحة فساء تفسيرها، إما أنها انتزعت من صقلية أو ريچو، أو تثبت إقامة ـ ووفاة ـ اثنين من مسلمى صقلية، أو إفريقيا أو اسبانيا، وفى

تاريخ(1) فى مارسالا وسيراكوزا ومسينا، وفى شاهد متحف دانييلى فى كازرتا(2)، وعلى قطعة رخام صغيرة فى بيت عمانويل فى ترابانى(3)، وأخرى فى متحف مسينا(4): وأشكال هذه الحروف متنوعة جداً، ورغم ذلك تنتمى جميعها إلى النوع الذى ذكرته، ولا تختلف عن طراز الآثار المشابهة المنتشرة من قرطبة إلى بغداد. ونرى فى صـــقلية، كما فى أى بلد إسلامى آخر فى هذا العصر ذاته، نرى ذلك الخـط يختلط بخطوط متعرجة غريبـــة وهو الخط الكوفى المزخرف والذى تتداخل فيه الزخرفة حتى أطلق عليه مجازا الكتابة القرمطية. وشاهد قبر أمة الرحمن الذى عثر عليه فى بالرمو منذ بضـعة ســـنوات يعد نموذجاً رائعاً لهذا الأسلوب فى الكتابة دون تزيُّد فى الزخرف، ولكن التـــاريخ غير مقروء على الشاهد وإن كان بالنظر إليه يبدو من القرن العاشر أو الحادى عشر(5). كما تنتمى أيضاً للعصر الإسلامى

ضواحى نابولى حيث كانا قد توجها إلى هناك، الأول منها لقضاء بعض المسائل العامة أو هارباً، والثانى لدواعى التجارة.

(1) فى كتاب دى جريجوريو، ص ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦: والشاهدان الأولان لا يمكن تفسيرهما دون رسمهما بشكل أدق. ولم يوفق دى جريجوريو فى فك رموز السطر الثانى من الشاهد الأخير، ولم يصوبه جيداً فراهن *Frahen*، *Antiquité s Mohammed*، المجلد الأول، ص ١٥، ويجب قراءته على هذا النحو: (الله الحى) «القيوم»، وبعد ذلك نص قرآنى، ﴿السورة ٣٢، الآية ٢١﴾، (لكم) «فى رسول الله، أسوة حسنة». هذا قبر أبى بكر....

(2) فى كتاب دى جريجوريو، ص ١٧١، الذى أخطأ فى كل شئ، فيما عدا صيغة واحدة والتاريخ. ويجب أن نقرأ الكتابة على هذا النحو: ..... (صلى) الله على النبى محمد وآله ..... (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل) الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل .... (الله يضاعف) من يشاء: والله واسع عليم ﴿السورة الثانية، آية ٢٦٣﴾(الآية ٢٦٠ ـ المترجم) ..... (قبر) ..... ابن حسين، ربيع (؟)، فارسى ..... توفى .... سنة ٤١٧ (١٠٢٦).

(3) فى كتاب دى جريجوريو، ص ١٤١. والكلام الذى أساء نقله دى جريجوريو هو «وماتوفيقى إلا بالله» نص قرآنى، ﴿السورة ١١، الآية ٩٠﴾ (الآية ٨٧ ـ المترجم).

(4) نشرها لانتشى، *Trattato delle simboliche rappresentanze*، المجلد الثانى، ص ٢٥.

(5) أرسل لى السيدان أجوستينو جالّو وسافيريو كافلاّرى عام ١٨٥٣ نسخة رسم بهذا النقش الذى كان موضوعاً بمثابة إطار إحدى النوافذ. ولأنه غير منشور يبدو لى من

الكتابات القرآنية الموجودة فى كنيستى العذارى وسان فرانشيسكو داسيزى فى بالرمو(1)، وفى دير الفرنشسكان فى ترابانى(2)، وهى كتابات زخرفية إلى حد ما، ولكنها ذات أحرف بديعة الشكل؛ وهناك كتابات أخرى متآكلة وخالية من الزخارف والرونق على أحد أعمدة الرواق الجنوبى بكاتدرائية بالرمو(3). ونجد على أحد أحجار الأضرحة فى مازارا كتابة جميلة بخط النسخ أخذت حروفها شكلها الأثرى الجليل، وخلت من الزخارف وضبطت بعلامات التشكيل، ولكن جزءاً منها متآكل إن لم يكن العيب فى النسخة المطبوعة التى بمتناول يدى(4). ونقوش شاهد الضريح المبتورة المحفوظة فى مكتبة بلدية بالرمو، والتى كانت على قبر أبى الحسن على المتوفى عام ثلاثمائة

المناسب أن أذكر نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على محمد وآله». «كل نفس ذائقة الموت وإنما تُوفون أجوركم يوم القيامة فمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متــــاع الغرور» ﴿الســـورة ٣، الآية ١٨٢﴾ (الآية ١٨٤ ـ المترجــم). هذا قبر أمـــة الرحمن (أى أمة الله) بنت محمد بن فـــاس، المتوفاه غرة ......».

(1) فى دى جريجوريو، المرجع المذكور، ص ١٣٨ و١٤٠.

(2) المرجع المذكور، ص ١٤١. أساء دى جريجوريو قراءة الجملة الأخيرة ولاأظن أن لانتشى أحسن تصحيحها فى *Trattato delle simboliche rappresentanze*، باريس ١٨٤٥، المجلد الثانى، ص٢٤، اللوحة الخامسة عشر. ويبدو لى أنه يجب قراءتها **ثقتى الله**.

(3) عند دى جريجوريو، المرجع المذكور، ص ١٣١. لا يمكن استيضاح الكتابة على النحاس التى نشرها عنه دى جريجوريو بتفسير من قبل يتشسن. ولكن لا يوجد بها من المؤكد أى مقطع من الآية ٥٥ (يلزم تصحيحها ٥٢) من السورة السابعة التى ظن الأستاذ روستوك أنه يقرؤها.

(4) أرسلها لى من باريس عام ١٨٤٤ الأمير جراناتلّى. والجانب الصالح للقراءة يقع على يمين من ينظر إلى شاهد القبر. والسطران الأول والثانى منه صيغ معتادة، والثالث جزء من السورة رقم ٣٨، آية ٦٧، والرابع يقول: «.... قبر القاضى خضر...» والخامس والسادس من الصعب قراءتهما، وفى السابع « ... إلى الرفيق الأعلى (توفى) يوم الجمعة الخامس ...» وفى السطر الأخير «أربعة وتسعين و....» وينقص القرن الذى ربما يكون الرابع أو الخامس الهجرى (١٠٠٣ أو ١١٠٠). وعلى يمين ويسار الشاهد سطران عموديان على شكل إطار لم أتمكن من قراءتهما.

وتسعة وخمسين هجرية(1) مكتوبة بخط نسخ غير منمّق وببعض علامات التشكيل وأخطاء فى النحو.

وأخيراً أشير إلى عملات مسلمى صقلية، التى لا توجد عنها دراسة وافية، ولا يمكننى محاولة ذلك، كما أن المقام هنا ليس مقام دراسة مفصلة لها(2). ولذا سوف اقتصر على النتائج التى استخلصتها من كتالوج مورتلاّرو المعد بعناية وأضيف بعض المعلومات الأخرى التى نشرت فيما بعد، وكذا العملات الموجودة فى متحف باريس التى لم تنشر من قبل. فمن عصر بنى الأغلب الذى لم يعرف وفرة من المسكوكات تبقى القليل من عملات صقلية(3). بينما

---

(1) لدى دى جريجوريو، المرجع المذكور، ص ١٥٤. وقراءة ـ وتفسير ـ تشيسن اللذان أوردهما دى جريجوريو بهما كثير من النواقص، وتخطآن أيضاً التاريخ وإن كان واضحاً جداً. وها هى قراءتى لهذه الكتابة مع وضع الكلمات الممكن استكمالها بين الأقواس والإشارة بالنقاط إلى الكلمات الناقصة: «(بسم الله) الرحمن الرحيم (وصلى الله، إلخ)» «(قل هو نبؤٌ عظيم، أنتم عنه مـ)عرضون» ﴿السورة ٣٨ آية ٦٧ و٦٨﴾. هذا قبر الشيخ .... القائد القدير أبو حسن على ..... بن .... العادل، والمغفور له المرحوم أبو فضل .... (بن الـ)........ والمغفور له المرحوم عبد الله بن محـ(ـمد) ....(بن) ...... المغفور له المرحومِ على بن طاهر ..... (رحِمه) الله. والذى توفى ليلة الخميس، الخامس من شهر .... (ودُفن؟) يوم الجمعة عام ثلاثمائة وتسعة وخمسين (٩٦٩ ـ ٩٧٠) ...... «(توفى على شهادة ألا إله) إلا الله وأن محمداً رسول الله». والخطأ الذى لاحظته فى النص هو رفع الاسم أبو بدلاً من حالة الجر حسبما يقتضيه الوضع.

(2) تذكر التنبيه المشار إليه فى المقدمة، ص ١٨ و٢٥.

(3) راجع الكتاب الأول، الفصل الثالث والخامس والسادس، والكتاب الثانى، الفصل الأول، ص ٣٥٠، ٣٥١، الفصل الخامس ص ٣٦٢، ٣٨٤ هامش واحد من المجلد الأول، وص ٨ و٩ من هذا المجلد. ويضاف ما يلى:

- عملة من الذهب، عام ٢٦٨ (٨٨١ ـ ٨٨٢)، ١،٠٥ جرام فى متحف باريس. وفى نهاية الكتابة على ظهر العملة يبدو لى أنه يمكن قراءة كلمة رُبيع. قارن هذه مع نظيرها التى نشرها كاستليونى وذكرها مورتلاّرى فى *Opere*، المجلد الثالث، ص ٣٥٢، رقم ٩.
- عملة من الذهب، عام ٢٩٥ (٩٠٧ ـ ٩٠٨) ٤،٢٥ جرام، فى متحف باريس باسم قاتل ابيه أبى مضر زيادة الله.

ولا نقرأ فى هذه العملات اسم صقلية، ولكن العلماء يرون أنها صقلية من طريقة صنعها. وعملات بنى الأغلب الأخرى يذكرها مورتلاّرو فى كتابه *Opere*، المجلد الثالث، ص ٣٤٣ وما بعدها، من رقم ١ إلى رقم ١٢.

توفر العديد منها من العهد الفاطمى، لدرجة أن هناك مسكوكات لكل الخلفاء الذين حكموا صقلية فعلياً أو اسمياً، من عصر عبيد الله مؤسس الأسرة حتى عصر أبى تميم المستنصر بالله، أو بمعنى أصح حتى عام أربعمائة وخمسة وأربعين هجرية بعد سقوط حكم بنى كلب(1): وهى تقرب من مئة عملة أغلبها من الذهب، واثنتان فقط من الفضة، وعملات عديدة من الزجاج بألوان متنوعة يبدو أنها كانت متداولة بدلاً من العملات النحاسية(2). وكتابات هذه النقود بالخط الكوفى عباراتها

---

(1) راجع الكتالوج فى مؤلفات مورتلارّو، المجلد الثالث، ص ٣٥٧ وما بعدها، من رقم ١٣ إلى ٨٩. والأخيرة هنا كتب عليها اسم البلد والتاريخ وهو ٤٣٩ (١٠٤٧ ـ ١٠٤٨). ويضاف إلى السبع وسبعين قطعة معدنية القطع التالية:

- عملة من الذهب، عام ٣٤٣ (٩٥٤ ـ ٩٥٥) ١،٠٥*ko* جرام فى متحف باريس.
- عملة من الذهب «عام ٣٤٤ (٩٥٥ ـ ٩٥٦) ١،٠٥ جرام فى متحف باريس.
- الشئ نفسه ١،٠٥ جرام فى متحف باريس، دون تاريخ وباسم الخليفة المعز.
- الشئ نفسه ١،٠٥ جرام فى متحف باريس، دون تاريخ وباسم الخليفة المعز.
- الشئ نفسه ١،٠٥ جرام فى متحف باريس، دون تاريخ وباسم الخليفة المعز.
- عملة من الذهب عام ٣٩٦ (١٠٠٥ ـ ١٠٠٦) وحددها م. سوريت بربع دينار. *M. Soret, lettere a S. E. etc de Fraehn, Saint-Petersbourg, 1851, P. 50, no 121.*
- عملة من الذهب، عام ٤١٤ (١٠٢٣ ـ ١٠٢٤، أو ٤٢٤) ١،٠٠ جرام فى متحف باريس.
- عملة من الذهب، عام ٤٢١ (١٠٣٠) ١،٠٠ جرام فى متحف باريس.
- عملة من الذهب، عام ٤٢٢ (١٠٣١) ١،٠٠ جرام فى متحف باريس.
- عملة من الذهب، عام ٤٢٣ (١٠٣١ ـ ١٠٣٢) ١،٠٠ جرام فى متحف باريس.
- ثمانى أخر دون اسم ولا تاريخ ١،٠٠ جرام فى متحف باريس.
- عملة من الذهب عام ٤٢٢ ذُكرت على أنها *Triens* تريس عند م. سوريت، ص ٥٠، رقم ١٢٢.
- عملة من الذهب، عام ٤٣٧ (١٠٤٥ ـ ١٠٤٦) ذُكرت على أنها *Triens* تريس عند م. سوريت، ص ٥١، رقم ١٢٤.
- عملة من الذهب، عام ٤٤٥ (١٠٥٣ ـ ١٠٥٤) ذُكرت على أنها *Triens* تريس عند م. سوريت، ص ٥١، رقم ١٢٥.

(2) أكد مورتيلارّو، المجلد المذكور، ص ١٧٦ وما بعدها، وص ٣٣٩ و٣٤٠، فى استشهاده بتشيسن على تداول الزجاج المدموغ ويبدو لى أنه أصاب الحقيقة. ويلاحظ أيضاً عن حق النقص المطلق لعملات عربية مسكوكة من النحاس فى صقلية، واظن انه لا يمكن الرد عليه بالعملـــــة التى ذكرها أمير سان چـــورج ســـبينلّى فى كتابه *Monete cufiche dei principi Longobardi... ec* ص ٣١، رقم ١٣٠. أولاً لأنه ليس

فاطمية والعديد منها به التاريخ واسم صقلية. وعندما أجريت الدراسة على العملات الذهبية وجد أنها من سبيكة جيدة. ووزن كل منها يزيد أو يقل قليلاً عن جرام واحد بما قدره ربع دينار أموى وعباسى وفاطمى: وهى من المؤكد ذلك الرُبيع الذى نقرأ عنه فى المذكرات العربية الصقلية فى القرن العاشر والثانى عشر(1). والرُبيع عملة صغيرة وسهلة التداول مثل الخمس فرنكات الذهبية الحالية، وقد كان سكها خلال حكم النورمان بكتابات عربية، ويطلق عليها تارى فى إحدى الوثائق اليونانية، وتارينى فى الوقائع والكتابات اللاتينية لذاك العصر(2).

وفضلاً عن أن المعاملات التجارية للمسلمين فى صقلية حافظت على الرُبيع فى الجزيرة خلال حكم النورمان، فإنها أجبرت نابولى

بها تاريخ العام ولا مكان السك، وثانياً لأنه تحوم الشكوك حول عبارة **امير المؤمنين** التى ظن المؤلف أنه تمكن من اكتشافها. ويبقى أن نعثر على البلد والعصر اللذان سُكت فيهما هذه العملة وغيرها من العملات النحاسية وهى من المؤكد إسلامية وذكرها أمير سان چورج فى اللوحة الرابعة.

(1) وجدت فى مخطوطات عديدة. وهذه الكلمة مكتوبة دون حركات. والحركة الأولى يجب أن تقرأ بالضمة كما فى صفة (تمييز) أجزاء العدد، أى الوحدة « من بين أربع أجزاء» (فى دينار واحد) هى بالفعل الكلمة اللاتينية *quaterni*. وسبق أن أشرت لهذا النوع من عملات صقلية فى الفصل السابع من هذا الكتاب، ص ٣٣٩ من المجلد. والمصادر التى اعتمدت عليها حسب الترتيب الزمنى:

أولاً، ابن حوقل، **الجغرافيا**، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ١١، القرن العاشر؛ ثانياً، ابن خلكان فى الموضع الذى استشهدت به فى الفصل الثامن، ص ٣٢٤، والذى نقل كلمات ابن رشيق الذى عاش فى القرن الحادى عشر، ولكنه نقل واقعة من القرن العاشـــر، ثالثاً، ابن جبير، الاســـتشهاد ذاته، القرن الثـــانى عشر؛ رابعاً، وثيقـــة عربيـــة فى صـــقلية ترجع لعام ١١٩٠، عنـــد دى جريجـــوريو، *De supputandis apud arabes temporibus*، ص ٤٠ و٤٢. ويبلغ وزن ثلاثين ديناراً من الذهب من العصر الأموى والعباسى وزنتها فى متحف باريس أربعة جرامات على الأكثر. وعشرة دينارات فاطمية من مصر أعطت نفس الوزن: وأثقلها يزن ٤،٣٥ جرام وأخفها ٣،٤٥ جرام.

(2) سنتناول ذلك بالتفصيل فى الكتاب السادس.

وسالرنو وأمالفى على تداولها منذ بدايات القرن العاشر، وعلى سكها فى دورها وإعطائها الأولوية على أية عملة أخرى. وتذكر وثائق نابولى اللاتينية فى ذلك العصر البيع بالصولد البيزنطى وفى الأغلب الأعم بالتارى(1)، الذى كان الأربع منه تساوى صولداً بيزنطياً، وكانت له قيمة الدينار العربى نفسها. وتكشف الوثائق ذاتها عن أن الصولدات البيزنطية أخذت تقل أو اختفت تماماً فى منتصف القرن وإن عدت دائماً عملة قانونية، وأن التارى(2) ظل العملة الذهبية الوحيدة المتداولة تقريباً. ومن ناحية أخرى تكشف لنا متاحف مملكة نابولى أرباعاً من الذهب بشكل مثيلاتها فى صقلية ووزنها، وباسم الخليفة الفاطمى المعز (٩٥٣ - ٩٧٥)؛ إلا أنه يظهر تدخل اليد الأجنبية على الخط الكوفى الأقل أصالة وعلى السبيكة الأقل جودة، وتظهر بوضوح أحياناً إضافة اسم «سالرنو» وحروف لاتينية أخرى وسط الشكل العربى الذى يدمغها: حتى إنه تم دمغ الصليب بين صيغ الفاطميين المعتادة، أو كتبوا على وجه العملة اسم چيزولفو أمير

(1) ومفردها فى الوثائق المذكورة هو *Tare*.

(2) *Regii Neapolitani Archivii Monumenta*، نابولى، ١٨٤٥ وما بعدها. ويشار إلى *Tari* لأول مرة فى إحدى وثائق جاييتا التى ترجع لعام ٩٠٩، المجلد الأول، الجزء الأول، ص ٩، انظر بها هامش الناشرين العلمى. ثم إن الأسعار فى العقود الخاصة الموقعة فى نابولى حتى عام ألف كانت تدفع فى الغالب بـ *Tari* الذهب. وفى الوثيقة ٢٤٠ لعام ٩٩٦ من نابولى، المجلد الثانى، ص ١٤٣، نقرأ بها *"auri solidos XIII de tari ana quadtuor tari per unoquoque solidos"* وتكرر ذكر هذه النسبة، مع شئ من الأخطاء النحوية فى الوثيقتين رقم ٢٣٣، عام ٩٩٣، ص ١٢٩، ورقم ٢٥٥ لعام ٩٧٧ وما بعده، ص ١٧٨. راجع أيضاً وثيقة عام ١٠٧٦ فى أرشيف كافا الذى ذكره م. هويارد - بريهول فى *Recherches sur les Monuments et l'histoire des Normands etc. dans l'Italie Méridionale, publiées par les soins de M.le duc de Luynes* ص ١٦٦، حيث ترد الإشارة إلى صولدات الذهب، التى كانت تقدر قيمة كل منها بأربعة *Tari* من عملة أمالفى.

سالرنو (١٠٥٢ - ١٠٧٥) وعلى الظهر اسم المعز المتوفى قبل ذلك بقرن من الزمان(1). وأظن أنه لا ريب فى أن عملة التارى المذكورة بوثائق نابولى كانت بالفعل رُبيعات صقلية، والنسخ التى تضاهيها بشكل أو بآخر فى إيطاليا الجنوبية. وكلمة تارى المجهولة فيما وراء جريليانو والمجهولة فى الولايات البيزنطية الأخرى تقترب حركاتها ووقعها من لفظ درهم الذي ينطقه العرب فى عجالة «تريهم»(2) وفى الجمع يقولونها تَراهِم أو تراهيم أو تراهى، بإضفام الحرف الساكن الأخير من الكلمة وتركيز النبر على الياء. وحورتها ألسن الإيطاليين إلى *Tari* تارى. وهذا ليس افتراضاً، حيث يذكر التارى بمثابة تسمية لوزن يتطابق دون شك مع الدرهم الذى كتبه علماء صقلية *Tari-peso* تارى - بيزو أى تارى - وزن، ولكنى أعتقد أن عامة الشعب كانوا ينطقونه ترابيّزو *Trappeso* حيث حملت المقطع الأول باللفظ العربى الدارج(3).

(1) *Monete cufiche battute dai principi longobardi ec, interpretate... dal principe di San Giorgio Domenico Spinelli.* دومينيكو سبينلى. فى مقدمة العلامة السيد ميكيلى تافورى، ص ٢٢ وما بعدها ترد إشارة إلى السبيكة الأقل من السبيكة الصقلية؛ وفى أحد الهوامش ص ٢٢٧ يُشار إلى تباين الحروف. والعملات المعدنية التى نتكلم عنها هى الثلاثون الأوائل فى المجموعة. ويتراوح وزنها بين ١٨ و٢٣ حبة مستخدمة فى نابولى، أى من ٠،٨٠ إلى جرام واحد. ويجب إضافة أنه مع قبول النتائج العامة التى أوردها العلماء الناشرون، فلست على اتفاق معهم فى كل التفاصيل. وعلى سبيل المثال، يبدو لى أن كثيراً من الكتابات لم تُنقل جيداً؛ ولا أرى على الإطلاق ما يثبت ترتيبها التاريخى، حتى تنسب هذه العملات إلى أمراء سالرنو؛ أوما يثبت أنها سكت جميعها فى سالرنو. ربما كان بينها ما سك فى أمالفى، ومن الجائز أن العملة رقم ٢٧ قد سُكّت فى نابولى.

(2) حرف الدال فى اللغة العربية صوت مشترك بين الدال والتاء، وعند نقله إلى اللاتينية أو اليونانية نُقل دوماً تاء: على سبيل المثال دار الصناعة *"Tarsianatus"* التى حورناها إلى *"arzana"* و*"arsenale"* ونطقها «أرتسانا» و«أرسينال».

(3) الدرهم وزن، وهو جزء من أجزاء الأوقية، يختلف من بلد لآخر وكَان استخدامه مقصوراً على الفضة. من وزنه من الفضة نشأت تسمية النقد الذى كان متداولاً منذ عهد محمد، وظلت العملة الوحيدة نصاباً، أى قانونياً، يقدر على أساسها العُشر مقابل الدم... إلخ أما الدرهم، العملة المتداولة فعلياً، فكان مختلفاً.

وهكذا أخذ أهل نابولى وصقلية فى العصور الوسطى من العرب كلمة درخمة، التى أخذها العرب بدورهم عن البيزنطيين وحوّروها إلى درهم.

والآن فقيمة الرُبيع ثلاثة دراهم نصاب؛ حيث أن الدينار كانت تقدر قيمته باثنتى عشر. وكان عرب صقلية يطلقون بطبيعة الحال فى التجارة على تلك العملة الذهبية «ثلاث درهم» أى ثلاثة دراهم وصارت فى التداول تقال **تراهِم** فى الجمع. ولفظة تارى *Tari*، التى دخلت بهذه الطريقة لدى الإيطاليين فى نابولى وبعد ذلك إلى النورمانديين والإيطاليين فى صقلية، ظلت اسماً لعملة من الذهب، ومن ناحية أخرى احتفظ النورمان وهم يتبعون نظام العرب، بالدرهم عملة والدرهم أيضاً أو **التارى** وزن فضة. ومن هنا نشأت الكلمة *Tari-peso* تارى - بيزو، أو ترابيزو. وعندما اختفى التارى الذهب مع السلالة النورماندية، تبقى لفظ *Tari*، تارى، مسمى لوزن أو عملة من الفضة. وتوصل علماء القرن الماضى بعد كثير من الأخطاء والبحث إلى التمييز بين تارى الوثائق القديمة وتارى التى فى متناول أيديهم والتى كانت تقدر قيمتها تقريباً بربع الأوائل، ولهذا أطلقوا عليها تارى الذهب. وأظن أن الكونت العالم كاستليونى جانبه الصواب عندما أنكر مثل هذا الأصل اللغوى لكلمة *Tari*.

الفصل الرابع عشر

لما وصلت شعوب المسلمين إلى اكتشاف كَم الدروب التى سلكتها النفس البشرية فى أزمنة الحضارة القديمة، أخذوا يختبرونها هنا وهناك فى حماس الشباب وفى الكثير منها تركوا المسيحيين المعاصرين وراءهم وأضافوا أحياناً اكتشافاتهم، إلى تراث القدماء؛ وهو الأمر الذى لم يحدث آنذاك فى الأمم المسيحية؛ وتفوقوا فى ممارسة نشاطين تتسم بهما طبيعة مجتمعهم. أى فن الكلمة شعراً كانت أم نثراً، وهو فخر العرب القديم، الذى غيّر مساره فى الإسلام وابتعد عن الجمال الشكلى، ليمتد إلى البحث الدقيق فى مجال النحو والصرف وعلم المفردات ونظم الشعر وهى مجالات اشتركت فيها شعوب البلاد التى تم فتحها: حتى إنه تمت فى الأمة الإسلامية كلها دراسة فقه اللغة كما لم يحدث أبداً أيام اليونانيين أو اللاتين؛ ولو إن ربات الشعر يتوجن من بذل جهداً أكثر، لكان العرب هم الأجدر فى ذلك بلا منازع. ومن القرآن نتج ذلك العلم الذى يمزج بين علم الكلام والشريعة، ولما كان بمثابة الخبز اليومى للمسلمين، فلم يكن من الغريب أن يجذب كل العقول المهيأة لمثل هذه التأملات والطامحة إلى التكريم والدولة. إن علم فقه اللغة والعلوم القرآنية، نظراً لجذورها العميقة، حيث إن العلم الأول ترجع أصوله إلى السلالة العربية، وعلوم القرآن متأصلة فى المجتمع الإسلامى، قد شغلت الساحة كلها، بعد أن عززها ودعمها من علوم الغرب علما الميتافيزيقا والجدل؛ وظلت هذه العلوم باقية بعد تدهور أحوال العرب سياسياً واجتماعياً؛ ومازالت قائمة حتى أيامنا هذه حيثما يحكم الإسلام، من نهر الجانج وحتى مضيق جبل طارق. غير أن العلوم القديمة، كما أسماها العرب، والتى نقلوها عن اليونانيين،

وجدت ما يعوقها فى تشدد الجنس السامى الذى كان من سمات الشعب الحاكم، الذى عشق هذه العلوم فى نشوة الكسب الجديد، ثم مالبث أن تراجع مرتاعاً، من ذلك الطريق الذى ظن أنه سوف يحمله إلى جهنم. ولما صارت الغلبة لشعوب أكثر خشونة، كالأتراك فى الشرق، والبربر فى الغرب، وتدفق المسيحيون من كل جهة على الإمبراطورية الإسلامية، تأججت المشاعر الدينية، وأُنكر عصر هارون الرشيد وأخذت تلك العلوم المشكوك فيها تختفى علماً تلو الآخر فى الظلام الذى أخذ يخيم على العالم الإسلامى.

لذا فإن علوم أرسطو وإقليدس وأبوقراط التى كانت قد أُحييت فيما قبل، لم تجد عدداً من المهتمين بها إبان الحضارة العربية فقط، ولكن ما ان أستبعدت من أرض الإسلام، حتى تلاشت ذكرى البحث فيها بدءاً من القرن الرابع عشر فصاعداً. ومع ذلك فقد اجتهد كاتبو السير فى اقتفاء أثر أسماء وأحداث خاصة بنحاة وخطباء وعلماء المعاجم ومفسرين للقرآن، وعلماء الحديث والسنة، وفقهاء وعلماء كلام وتصوف من مختلف الطرق، وتوصلوا إلى اكتشاف الكثير من الأسماء التى لم تنتبه إليها أبحاث السابقين لهم؛ إلا أنهم مروا مرور الكرام على العلوم الأخرى. وبالمثل كفوا عن نسخ كتب هذه العلوم. لقد أردت التركيز على هذا التفاوت فى تاريخ الآداب والسببين اللذين أديا إلى هذا التفاوت، حتى لا يبدو ذلك نقصاً يختص به عرب صقلية. فهم حفنة من الرجال عنوا بالثقافة الفكرية لبضعة قرون ونصف القرن، ثم صاروا تحت النير وهم يجنون ثمار جهدهم، وصاروا مطاردين ومشردين طوال قرن آخر: وما نتعجب له أن بقى منهم بعض النصوص والمذكرات الأدبية، نتيجة محبة من استضاف بمنزله أولئك اللاجئين. أما فى البلاد التى ظلت إسلامية، فإن حب الأوطان أو حب التظاهر بالأمجاد الذى يتأجج فى عصور التدهور، قد دفع هذه البلاد إلى جمع كل ذكريات وأخبار المواطنين اللامعين يدفعهم إلى ذلك الوازع الدينى. كما تهيأت الفرصة أمام المستوطنين

الأسبان، وعددهم يفوق كثيراً مستوطنى صقلية، وبلغوا التحضر بعد ثلاثة قرون، وتهيأت لهم فرصة أربعة قرون أخرى لإنجاز ذلك العمل المهم قبل رحيلهم عن أوربا.

والكاتب العربى الوحيد الذى أراد أن يكتب تاريخ الفلاسفة والرياضيين والأطباء، لم يذكر من الصقليين سوى واحد من القرن الثانى عشر وثلاثة من العصور القديمة وهم أرشميدس وأمبيدوكلى وكوراتشى(1)، وقدم عنهم معلومات قليلة التضارب بشكل غير متوقع فى مثل هذه الأخبار المتواترة؛ ولكن ذلك لا يدخل فى إطار موضوعنا. ومن ناحية أخرى، تم أيضاً تكريس الجهود للعلوم الرياضية فى صقلية تحت السيادة العربية، حتى وإن تجاهل ذلك زوزينى فى عهد فدريجو الثانى وابن خلكان فى الجيل التالى له. وتشهد على ذلك آثار العهد النورماندى، والتى سوف نتحدث عنها فى موضعها؛ وكذلك بعض الإشارات المباشرة من القرن الحادى عشر. ويذكر المقريزى فى طبوغرافية مصر، فى معرض حديثه عن المرصد الذى أقامه بالقاهرة راعى العلماء الأفضل عام خمسمائة وثلاثة عشر (١١١٩ - ١١٢٠)، وأزاله الخليفة الآمر بعد ست سنوات، يذكر من بين علماء الفلك الذين تم استدعاؤهم ودفع مرتباتهم،

---

(1) **تاريخ الحكماء**. قد قمت فى الكتاب الثالث، الفصل الخامس، ص ١٠٤ من المجلد، بالإشارة إلى المقال عن امبيدوكليه. وقد تم نشر النص الذى يحوى كل مختارات زوزينى فى **المكتبة العربية - الصقلية** ص ٦١٢، وما يليها. وفى الترجمة لأرشميدس، يُنسب إلى مواطن سيراكوزا الكبير تخطيط السدود والجسور التى ساعدت على زراعة مساحة كبيرة من وادى النيل خلال الفيضانات التى أشار إليها القدماء (انظر هارلز، *Bibliotheca Græca*، المجلد الرابع، ص ١٧٢)؛ كما ينسبون إليه أعمالاً أخرى أصيلة أو منسوبة إليه، وأعتقد أنه من بين الأعمال الأخيرة، «حديث عن الساعات المائية ذات الرنين» التى أخطأ كازيرى واعتقد أنها البندول (*Bibliotheca Arabico-Hispana*، المجلد الأول، ص ٣٨٣). وعن كوراتشى تُذكر النادرة التى حدثت مع التلميذ الذى لم ينقل اسمه نقلاً صوتياً وإنما يترجمه إلى غراب *Ghorab*، (*Carbo*, **Κόραξ**)، ويضيف أنه كان يونانياً من جزيرة صقلية. ويقال عن أرشميدس وامبيدوكليه أنهما يونانيان بلا أدنى شك.

مهندس المساحة الصقلى أبا محمد عبد الكريم(1)، الذى كان لاجئاً على ما يبدو بعد الاحتلال النورماندى. ومن بين المنتخب من شعر الصقليين ذكر ابن القطاع أبياتاً لأبى حفص عمر بن الحسن بن القونى، مع إشارة عن حياته وقد أثنى عليه مهندساً وفلكياً. ويتضح من اللقب الذى أضافه إليه وهو «كاتب»، أى أمين سر، أن عمر هذا كان يقوم بعمل عمومى وربما كان فى أمانة الدولة. وإن كانت أبيات الحب التى ذكرها تبدو هندسية أكثر من اللازم، فهناك مقطع رثائى قد يقال عنه إن مَن كتبه رواقى رومانى وليس عربياً مؤمناً: ففكره يتسم بالإزدراء والترفع دون دافع دينى؛ وشكله بسيط وجاد، وإن لم يخل الأمر من لعب لفظى فى كلمتين أدخلهما الشاعر فى البيت الأخير(2). وبالمثل يذكر ابن القطاع الأمين أبا عبد الله محمد بن الحسن بن الكيرانى(3)، وهو فلكى، وعالم رياضيات وشاعر(4).

ولا يمكن إثبات أو نفى ما إذا كان يتم تطبيق علمى الرياضة والفلك على الدراسات الطبوغرافية فى صقلية. وفى الحقيقة، نرى

---

(1) **كتاب المواعظ**، طبعة بولاق، الجزء ١، ص ١٢٧ وفى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٦٦٩، وتُقرأ ترجمة هذا الجزء التى قام بها م. كوسان دى برسيڤال فى *Notices et Extraits des Mss,* الجزء الثامن، ص ٣٣ وما يليها.

(2) جزء مختار من **الدرة الخطيرة** لابن القطاع، تم دمجه فى **الخريدة** لعماد الدين، **المكتبة العربية الصقلية**، النص، ص ٥٩٦. ونقرأ الأبيات فى مخطوطات **الخريدة**، باريس، *Ancien Fonds*، ١٣٧٥، ورقة ٤٣ الوجه الثانى، والمتحف البريطانى، *Rich* ٧٥٩٣، ورقة ٣٣ الوجه الأول. وها هى الأبيات الثلاثة التى استشهد بها من المرثية، التى لا ندرى لأى شخص كُتِبَت.

للموت ما يُولَدُ ، لا للحياة ... وإنما المرءُ رهين الوفاه
كأنما ينشَرُ (من) عمره ... حتى إذا الموت أتاه طواه
من ترِم أيدى الدهر لا تُخطه ... والدهر لا يخطىء من قدر ماه

(3) أو قرنى. وكلاهما اسم قبيلة؛ والاسم الثانى هو اسم عرقى أيضاً، نسبة إلى قرية قرب بغداد.

(4) **المكتبة العربية - الصقلية**، النص، ص ٣٩٥.

تصحيحاً صائباً لموقع الجزيرة بالنسبة لأفريقيا. وفى القرن العاشر كان ابن حوقل يظن أن صقلية تقع فى مواجهة باجه وطبرقه ومرسى الخرز (لاكاللى)؛ أى أنه دفع بها درجتين فى اتجاه الغرب(1). أما ابن يونس، فلكى القاهرة الشهير، ففى نهاية القرن العاشر، وقع فى خطأ عكسى إذ جذب الجزيرة عشر درجات شرقى تونس(2). غير أننا نقرأ فى ياقوت خبراً مجهول المصدر ويبدو أنه ينبغى نسبه إلى مصادر صقلية من القرن الحادى عشر، والخبر يضع إقليبية القديمة الواقعة عند رأس بونة بين الأراضى الأفريقية شديدة القرب من صقلية، ويضيف أن المسافة بين إقليبية القديمة والجزيرة تبلغ مائة وأربعين ميلاً، أى يومين من الإبحار مع رياح مواتية، ومن ناحية أخرى يشير الخبر إلى أن مسافة مضيق الفارو تبلغ ميلين، هناك حيث يتزايد اقتراب الجزيرة من شبه الجزيرة(3). وبناءً على ما تقدم أرى أن التصحيح المذكور أعلاه يجب نسبه إلى الملاحين الصقليين والأفريقيين وليس إلى الفلكيين، خاصة أن الخطأ المتعلق بخطوط الطول لم يكن بالإمكان أن يتعرف عليه الباحث بمفرده، دون مرصد

---

(1) **المعجم**، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ١١٩. هذه الفقرة التى حفظها لنا ياقوت، غير موجودة مثل كثيرات غيرها، فى مخطوطات ابن حوقل الموجودة لدينا فى أوربا. وتؤكد خريطة الاصطخرى هذا الأمر بشكل قاطع.

(2) انظر جدول خطوط الطول والعرض الذى نشره ليليويل فى أطلس *Géographie du moyen-âge*، بروكسل، ١٨٥٠. وابن يونس، فى بيان المواقع الجغرافية (ص ٤) يسجل ما يلى:

صقلية (ربما فى بالرمو)	طول ٣٩°	عرض ٣٩°
تونس	طول ٢٩°	عرض ٣٢°
القيروان	طول ٣١°	عرض ٣١° ٤٠َ
طرابلس أفريقيا	طول ٤٠° ٤٠َ	عرض ٣٣

(3) **المعجم**، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ١١٥ من النص، حيث يُطلق على المضيق اسم فارو.

مزود بتلك الأجهزة والمعدات الضخمة التى كان العرب هم أول من صنعوها. ونحن نجهل فى أى زمن عاش من تخيل الجزيرة مثلثاً متساوى الأضـلاع، تبعد كل رأس من رؤوسه عن الأخـرى مسيرة سبعة أيام(1). ولعل ابن حوقل قد أخذ بالمعلومات التى كانت سائدة فى البلاد واقترب من الصواب حينما شبه صقلية بمثلث متساوى الضلعين تتجه زاويته الحادة من ناحية الغرب(2)، وتُقطع قاعدته فى أربعة أيام، وكل ضلع من ضلعيه فى سبعة(3). أما بكرى فصورها مثلثاً مختلف الأضلاع يتسع جداً عند قاعدته، إذ يبلغ طولها مائة وسبعة وخمسين ميلاً، وطول الضلع الأكبر مائة وسبعة وسبعون ميلاً ومحيط المثلث خمسمائة ميل(4). وقدّر آخرون المحيط بمسيرة خمسة عشر يوماً(5). وفى نهاية الأمر كان هناك قياس يبدو رسمياً ويعود إلى القرن الحادى عشر، ويقدر بإحدى عشرة مرحلة أو إن جاز التعبير محطـة، للمسـافة من ترابانى إلى مسـينا، ومسيرة

---

(1) المرجع المذكور، ص ١١٤.

(2) ابن حوقل، المرجع المذكور، ص ١١٩، وهذه الفقرة، توجد فى **المعجم** فحسب. لعل ابن حوقل لم يكن يعرف الخرائط الإغريقية التى أعاد العرب رسمها بعد المأمون، حيث كان العمل الجغرافى الذى أزاده وصححه من خلال ملاحظاته ينتمى إلى الاصطخرى. ولدينا منه المخطوط الذى قام العلامة مويللر بنشر صورة طبق الأصل منه بعنوان *Liber Climatum*. جوثة، ١٨٣٩، فى العدد الرابع، وهناك، فى ص ٣٩، نجد أكثر ما يمكن أن نتصوره من بدائية فى رسم البحر المتوسط: ما يشبه شطراً من ابريق يمثل عنقه مضيق جبل طارق وفى جوفه ثلاث كرات تمثل جزر صقلية وكريت وقبرص. وتقترب دائرة صقلية من المنحنى الذى يعنى سـاحل أفريقيـا، عند نقطة مكـتوب عليها «طبـرقة» ويوجـد أيضاً هذا الرسـم مصغـراً إلى النـصف فى أطلس *Géographie du moyen-âge*، للعلامة ليليويل، الرسم الثالث. ونجد رسماً آخر أكثر غرابة، فى ص ٢٥ من طبعة جوثة، يدفع بصقلية نحو الشرق فى اتجاه طرابلس.

(3) *Journal Asiatque*، المجموعة الرابعة، المجلد الخامس (١٨٤٥)، ص ٩١، و*Archivio Storico Italiano*، حاشية ١٦، ص ٢١.

(4) إحـدى الفقـرات التى ذكـرها ابن شـباط، ويُقرأ نصـها فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٢١٠.

(5) **المعجم**، المرجع المذكور، ص ١١٤.

ثلاثة أيام لعرض الجزيرة(1)؛ ومن هنا يغلب الظن أنه لم تكن هناك علامات للمراحل فى الساحل الشرقى، وأن المسافات كانت تقدر بقدر المستطاع بواسطة المسافرين ونتيجة لذلك درس علماء صقلية الجغرافية الوصفية أكثر من الجغرافية الحسابية الخاصة بالأرض التى نشأوا عليها.

وألف الشـيخ أبو سـعيد بن إبراهيم، الملقب، بالمغـربى والصقلى، كتاباً فى علم المداواة وتوجد منه نسختان، واحدة فى أكسفورد والأخرى فى باريس. وتحمل النسـخة الأولى عنوان: **المعين على الشـفاء من العلل والشكاوى**(2)، وعنـوان الثـانية: **تقويم**(3) **الأدوية المفردة** وهما عمل واحد، ويبدو لى أن مخطوط

---

(1) المرجع المذكور، ص ١١٥. **المرحلة**، هى تلك المسافة من الطريق التى يمكن قطعها دون توقف، وهى مقياس المسافات عند العرب، فى غير تحديد دقيق وتختلف تبعاً للأماكن. والإدريسى فى وصف الجزيرة، **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٤٨ من النص، يقدر **المرحلة** الخفيفة بنحو ١٨ ميلاً. وهكذا، فإن الإحدى عشر مرحلة من مسينا وحتى ترابانى وفقاً للميل الصقلى فى زمن الإدريسى الذى يعادل الميل الرومانى والميل المعمول به حالياً فى صقلية،قد تقارب ١٩٨ ميلاً. ولكن إن قدرنا قياس المرحلة بعشرين ميلاً، فربما نقترب من القياس الصحيح، ذلك لأن مقاييس مسافات بريد صقلية لعام ١٨٣٩، كانت تحدد بمقدار ١٧٢ ميلاً يقطعها الحصان من مسينا إلى بالرمو عن طريق مارينى أو ٦٨ ميلاً من بالرمو وحتى ترابانى عبر طريق المركبات وهو بالضرورة أكثر طولاً. وحسبما يذكر الإدريسى نفسه، فإن مسيرة يوم، وهى تختلف عن المرحلة، كانت تتراوح بين ٢٤ و٣٦ ميلاً، و٣٠ ميلاً فى المتوسط. ويعادل الميل الحالى فى صقلية ١٤٨٧ متراً؛ أما الميل الرومانى فيقدر بحوالى ١٤٨١ أو ١٤٧٥.

(2) كتالوج بودليانا، رقم ٥٦٤، (مارس ١٧٣)، مخطوط عام ١٠٣٤ هجرية (١٦٢٤ - ١٦٢٥). اللفظ الذى ترجمته إلى «المعين» يعنى بالضبط «ما يساعد على الفلاح». ولفظ "*acciacchi*" الذى استخدمته، هو نقل صوتى وترجمة أيضاً للفظ الوارد بالنص العـربى، وهـو فى صـيغة جمـع معرّف «الشكاوى *as-sciakawa*». حتى خلت لفظ *acciacco* الإيطالى مأخوذاً عنه.

(3) نقلت أيضاً لفظ تقويم العربى نقلاً صوتياً إلى *Tacuino*، ويعنى بالعربية تحديد القيمة، أو تسجيل دقيق وبالتالى كتيب ملاحظات. وهذا المخطوط، وهو حديث أيضاً ولكن دون تاريخ، مسجل فى مكتبة باريس، *Ancien Fonds*، ومن المؤكد أنه لدى تجليده الجديد، قبل ثلاثين عاماً، فقد العنوان الذى نقرأه فى الفهرس المطبوع فى ورقة كتبها بخط يده عسكرى المارونى: «تقويم الأدوية المفردة». واسم الكاتب مكتوب

بوديليانا هو الصيغة الأولى لهذا العمل وأن مخطوطة باريس هى النسخة الثانية المصححة والمبسطة. وباعتبار أن هناك رغبة فى مواءمة الأدوية مع خصائص الأفراد والأمراض، وأنه حتى ذلك الوقت كانت المؤلفات الطبية تحوى أسماء الأدوية أو الأمراض، فقد أراد الكاتب هنا أن يجمع بين هذه وتلك، تحت عينى القارئ حتى يقدم العون والتذكرة للطبيب. لذلك أعد جزءاً يضم جداول شاملة، يذكر فى خطوطها الأفقية اسم كل دواء فضلاً عن فوائده واستخداماته، حسب تقسيمات الخطوط الرأسية. أو الأعمدة إن جاز القول. وهو يصنف الأمراض إلى أربعة فئات: أمراض الرأس وأمراض الجهاز التنفسى، وأمراض الجهاز الهضمى وأمراض الجسم بكامله، ثم يضع فى الخط الأفقى اسم العلة الاصطلاحى. ويتناول الكاتب بالحديث الأدوية المفردة فحسب ويرتبها وفق الترتيب الأبجدى القديم(1)، والذى اتبعه الأطباء والرياضيون العرب على الدوام. وتعرض المقدمة فى إيجاز علمى مبادئ الطب العامة(2).

بطريقة تختلف عن الكتابة بمخطوطة أكسفورد: إبراهيم بن أبى سعيد المغربى العليج، ولكن ربما ورد اسمه: ابن إبراهيم وصقلى بدلاً من عليج كما قرأ عسكرى. ومن جهة أخرى، فالمخطوطان لا يطابق أحدهما الآخر مثل طبعة أولى وطبعة ثانية مصححة فحسب، وإنما انتشرت الطبعة الثانية تحت عنوان «المعين فى الأدوية المفردة» حيث إن حاجى خليفة، طبعة فلوجل، الجزء ٤، ص ١٨٢، رقمى ١٣ و١٤٥، يعطى هذا العنوان بالضبط لكتاب يجهل كاتبه، ويبدأ بنفس كلمات مخطوط باريس. ونقرأ بداية المقدمة فضلاً عن البدائل الواردة بالمخطوطين فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٦٩٤، وما يليها، من النص.

(1) *Abbicci* أو بالأحرى الأبجدية اليونانية (α, ϐ, γ, δ,) التى كانت أساس الترتيب القديم عند العرب، حيث أخذوا منها بالفعل طريقة الترقيم بالحروف.

(2) ها هى محتويات الأعمدة الرأسية فى مخطوطة باريس:١ـ اسم الدواء. ٢ـ نوعيته (إذا كانت نباتية إلخ). ٣ـ أنواع مختلفة. ٤ـ أى نوع ينبغى اختياره. ٥ـ طبيعته (إن كان حاراً أو بارداً أو جافاً إلخ). ٦ـ مفعوله. ٧ـ إرشادات خاصة بأمراض الرأس. ٨ـ إرشادات خاصة بالجهاز التنفسى. ٩ـ إرشادات خاصة بالجهاز الهضمى. ١٠ـ إرشادات عامة عن الجسم. ١١ـ طريقة أستعمال الدواء. ١٢ـ الجرعات. ١٣ـ الآثار الضارة. ١٤ـ كيفية الوقاية منها. ١٥ـ البدائل. ١٦ـ رقم مطرد. والأعمدة رقم ٧، ٨، ٩، ١٠ أعرض بكثير من الأعمدة الأخرى وفى مخطوطة باريس تشغل الستة عشر عموداً صفحتى

وهو كتاب ميسر ومفيد، ولغته الفنية، وما به من تقسيمات، ونظريات وطرق يونانية مما وردت الإشارة إليها فى المقدمة تتفق جميعها مع مجمل العلوم الطبية التى كان العرب يعرفونها فى القرن الحادى عشر، كما نرى فى مؤلف ابن سينا الشهير. ومقارنة هذا المؤلف مع **القانون** *Canone* تحملنا إلى الاعتقاد بأن الصقلى أبا سعيد كان معاصراً أو سابقاً لابن سينا (٩٨٠ ـ ١٠٣٧) حيث يؤكد أن ما من أحد قبله قام بصياغة جداول تقرن الأدوية بالأمراض وهو الأمر الذى نجده بالضبط فى كتاب **القانون** الثانى *(1)*. وعن سيرة أبى سعيد لم يتبق لدينا أية كتابات. ومع ذلك فلا سبيل إلى الشك فى أن يكون هناك إدعاء أو عدم أمانة علمية، عندما قام بتصنيف الأمراض بطريقة مختلفة عن تلك التى وضعها ابن سينا، ولكنه أعد جدولاً أصغر بكثير من الأدوية المفردة وضم إليه رغم ذلك أدوية غير مذكورة فى كتاب **القانون**، كما أن ترتيب ذات الأسماء جاء مختلفاً. فإن كانت هناك محاكاة، فربما كان ابن سينا هو الذى حاكى أبا سعيد أو أن كليهما قد نهلا من مصدر واحد. ونقلا فى طريقة عرض المادة الطبية التنسيق الذى عُرِف به العرب، دون أن يعرف أحدهما أعمال الآخر وهما يقيمان فى منطقتين شديدتى البعد. غير إن الكتيب الذى خصصه الصقلى للعلل والأدوية قد حجبه المبحث العام الذى كتبه الفارسى الذى نُسِبت إليه فيما بعد أمجاد العلم الذى قام بتمسيق

الكتاب المفتوح وبكل عمود خمس مفردات أى خمس تقسيمات أفقية. والمخطوطة التى تنتهى عند الورقة ١٢٢ الوجه الأول، تنتهى بصفحة بيضاء، إذ تنقص الخاتمة وربما بعض فقراتها الأخيرة.

(1) انظر كتاب ابن سينا فى نسخته الفاخرة المكتوبة فى روما سنة ١٥٩٣ بحروف آل ميديتشى ص ١٢٤ وما يليها ويورد ابن سينا ٨٠٠ دواء أما أبو سعيد فيعرض ٥٤٥. وكلاهما يتبع فى ذلك الترتيب الأبجدى، ولكن يختلف الترتيب الثانوى تحت كل حرف بداية. ومن ناحية أخرى، فقد كتب ابن سينا هذا الفصل على هيئة جداول، مثلما فعل أبو سعيد، حتى وإن كانت الإشارات التى تضمنتها الأعمدة فى طبعة روما قد كتبت بشكل متواصل للإفادة من الحيز.

جوانبه وعرضها، كما حدث مع بطليموس وابن رشد وغيرهما من العلماء القدامى والمحدثين.

واستحق الصقلى أحمد بن عبد السلام من شرف العلم أكثر مما استحقه أبو سعيد، وهو شريف ينحدر من عشيرة على وكاتب مبحث فى الطب محتفظ به فى ليدن عنوانه: **كتاب الأطباء فى الأمراض من الفرق إلى القدم**(1). وإذ يقتصر أحمد على ذكر الأدوية المفردة، لأن الأدوية المركبة حسبما يقول كانت نتائج تجربتها غير مؤكدة، فهو يشير فى إيجاز إلى أنواع العلاج المناسبة لكل تشخيص، وهو مع ذلك لا يغفل المعتقدات الشعبية ويقابلها بتعاليم المعلمين اليونانيين والعرب وفى كثير من الأحيان بتجاربه الخاصة. وهو يقسم العمل إلى عشرين فصلاً؛ وأجد كتاب الأطباء ثرياً بالملاحظات وقد كُتب من واقع المعلومات التجريبية التى ترتكز على النظريات الطبية وهو الطريق الوحيد السليم فى هذا الفن، وذلك بعد أن تصفحت بعض فصوله وخاصة الجزء الخاص بداء الكلب.

غير أنه لا يمكن تقييم ذلك العمل تقييماً كاملاً ما لم يُدرس تاريخ الطب عند العرب بصورة أفضل، وإن لم يتعمق علماء الطب فى دراسة هذا العمل الذى يبدو منذ الوهلة الأولى عظيم القيمة. وقد ألف أحمد

(1) مخطوطة مكتبة ليدن العامة، لعام ٨٩٩ هجرية، (١٤٩٣) رقم ٤١، مسجلة فى فهرس عام ١٧١٦، رقم ٧٢٧، ص ٤٤٠. لم يعد هناك وجود فى المخطـوطة للعنوان العربى الذى نقرأه فى الفهـرس ولقد قمت بنشـره مشـفوعاً بالمقدمة وبيان الفصول فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٦٩٧ من النص، وها هو بيان الفصول: ١- أدوية مفردة نافعة ضد آلام الرأس؛ ٢- ..... ضد أمراض العيون ٣- ...... أمراض الآذان؛ ٤- ...... أمراض الأنف ٥- ..... أمراض الفم ٦- ..... أمراض الحلق والعنق ٧- .... أمراض الكبد والمعدة، ٨- ..... أمراض الأمعاء ومطهراتها؛ ٩- ...... أمراض المقعدة والأورام التى تنشأ بها، ١٠- ..... أمراض الكلى، ١١- ..... أمراض المثانة؛ ١٢- ..... أعضاء الذكورة ١٣- .... أمراض الرحم ١٤- .... أمراض المفاصل ١٥- ..... الجروح ١٦- ..... الأورام والبثور ١٧- ..... أمراض الرئة ١٨- .... الحميّات والملاريا ١٩- ..... السموم وعضة الحيوانات ٢٠- .... مواد مفيدة لصحة الانسان العامة.

مؤلفاً آخر، ربما يدور حول الصحة وعنوانه: **حفظ الصحة**، وينقسم إلى ثمانين فصلاً وأهداه إلى أحدهم ويُدعى أبو فارس عبد العزيز بن أحمد، وما نعرفه عن هذا العمل نستقيه من حاجى خليفة وأن كاتبه يُسمى بالصقلى والتونسى(1). ولا نعثر على أية نبذة عنه فى سير الأطباء العرب؛ حتى إنه علينا أن نصنفه بين أطباء وجدوا فى عصر غير محدد بالضبط، حيث لا يتوافر لدينا بصيص من نور يمكن أن يقودنا إلى آخر هجرات مسلمى صقلية، تحت حكم الإمبراطور فدريكو الثانى(2). ولقد عاش بالتأكيد تحت الحكم الإسلامى أبو عبد الله محمد بن حسن بن التازى، وهو شاعر وأديب ذو شهرة عريضة فى صقلية، ويدعوه ابن القطاع الطبيب دون أن يضيف عنه شيئاً آخر(3). وسوف نعاود الحديث عنه بين الشعراء، بكل التقريظ والتقريع الذى قيل فيه. ومن جهة أخرى، فإن هذا العدد القليل من الأطباء، الذين وصلت إلينا أخبارهم عن طريق الصدفة، لا يعنى أن ذلك العلم كان مُهْمَلاً فى صقلية.

وبالمثل ندرت المذكرات عن الفلسفة القديمـة، التى أسمـاها العرب باسمهـا الإغريقى الأصلى: وكانوا يسمون علمىّ ما وراء الطبيعة والمنطق الدينى بعد أن طوعوهما بما يتناسب مع طريقتهم علم الكلام أى «إعمال الفكر». إن الفلاسفة، وكانوا مضطهدين فى حياتهم ومنسيين بعد مماتهم، لا يطفون على السطح فى تاريخ الأدب

(1) حاجى خليفة، *Dizionario Bibliografico*، طبعة فلوجل، المجلد ٥، ص ٧٥، رقم ١٠٠٥٧.

(2) راعى الأدباء والعلماء الذى يذكره حاجى خليفة لا نجده بين أمراء أفريقيا أو أسبانيا، ولكن ذلك اللقب وذلك الاسم كانا شائعين فى سلالة الحفصيين بتونس التى ظهرت فى أوائل القرن الثالث عشر. لذا يمكن أن يكون واحداً من بين رجال تلك الأسرة الذين لم يتولوا الحكم ولا تركوا ذكراً لهم فى الحوليات السياسية.

(3) عماد الدين، **الخريدة**، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٥٨٩، من النص. ولما كان لهذا الخبر وجود فى مختارات ابن القطاع، فهذا يعنى أن الشاعر كان سابقاً لبداية القرن الثانى عشر.

عند العرب، ما لم يتخذوا ثوباً آخر أكثر خفة: مثل الشعر أو فقه اللغة. وهكذا وجدنا فى تراجم علماء اللغة عند السيوطى، شخصاً يُدعى سعيد بن فتحون بن مكرم القرطبى، من أهل توجيب اللامعين، وهو نحوى فقيه فى اللغة وكتب مبحثين فى نظم الشعر، كما عنى بالفلسفة أيضاً، كما يقول السيوطى. وكان معاصراً للوزير الرهيب ابن أبى عامر، الملقب بالمنصور، راعى الآداب، ومضطهد العلوم القديمة؛ فهو الذى أشعل النار فى كتب الفلسفة والفلك فى مكتبة قرطبة. ولما كان سعيد قد اتهم بالتشكك أو بالتمرد، وربما لم تكن هناك تهمة سوى أنه ولد من سلالة ذات نفوذ ومهابة، فقد استدعاه المنصور للمثول أمامه وحقق معه بشدة وأمر بسجنه. ثم تركوه يمضى إلى المنفى فاختار صقلية حيث قضى البقية الباقية من حياته، فى نهاية القرن العاشر أو بدايات القرن الحادى عشر(1).

وتعد قراءة القرآن العلم المقدس الرئيسى عند العرب، وهو علم يشتمل على التفسير، ويخرج بنتائج مهمة شرعية وتعليمية وأخلاقية. وقد أُملى القرآن عندما كان من يعرف الكتابة من العرب يعدون على الأصابع؛ وما كان أحد ينتبه إلى قواعد اللغة أو إلى صحة الكتابة ثم جاء بعد ذلك عثمان واستبعد من النسخة الأصلية المواضع غير الصحيحة، والعبارات غير المألوفة فى لهجة أهل قريش، غير أنه لم يتمكن من كتابة النص المقدس بحروف تفوق فى كمالها حروف العرب. أى أنهم قاموا بكتابة الحروف الساكنة(2) بكاملها، أما عن

(1) السيوطى، **طبقات اللغويين**، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٦٧٤. ظل المنصور متولياً منصب كبير الوزراء أو بالأحرى صولجان أسبانيا من عام ٩٧٦ وحتى عام ١٠٠١.

(2) من المعروف أن حروفاً ساكنة كثيرة لا تحدد إلا من خلال النقاط التى توضح فوق أو تحت الحروف، وأن طريقة الكتابة الزخرفية التى كانت تسمى بالخط الكوفى لا تستخدم النقاط مما كان يجعلها أحياناً غير واضحة. غير أن خط النسخ، بنقاطه فوق أو تحت الحروف كان يستخدم منذ القرن الأول الهجرى، كما تبرهن على ذلك آثار عديدة؛ وليس هناك احتمال وقوع لبس بشأن الحروف الساكنة فى نسخ القرآن.

أصوات الحركة فقد كتبوا تلك الحروف التى يشددها النبر وليس جميعها: ومنها كانت ضرورة استيضاح ألفاظ كثيرة لا يمكن تمييزها دون علامات الضبط، وتوضيح المعانى حسب الإعراب عند القراءة(1). لذا فالنص حينما كُتب بعلامات تشبه ما نعرفه اليوم بحروف الاختزال ما كانت العين تستطيع أن تدرك إيقاعه. فكان من الضرورى الإلتجاء إلى الرواية الشفهية وقواعد النحو. لذا كان هناك المقرئون، ومعلمو قراءة القرآن، والدراسات البحثية وأيضاً القصائد التعليمية، ومدارس القراءات السبع الرئيسة وعدد آخر من المدارس الفرعية، والتدقيق الذى أولاه العرب لهذا العلم الجديد؛ ووصل الأمر إلى كتابة القرآن بحروف وعلامات تضبط ايقاعه وألفاظه: فكانت هناك حروف ونقاط وخطوط صغيرة وعلامات خطت بألوان مختلفة حول الحروف العربية السوداء القديمة بنص عثمان، وحددوا الوقفات، وتموجات الصوت، ووظيفة الألف والحروف التى يمكن إضغامها أو استبدالها بأخرى وغير ذلك.

وكان من بين أبرز قراء القرآن فى عصره عبد الرحمن بن أبى بكر بن عتيق بن خلف من سيراكوزا، وكان يُقال له ابن الفحّام. وقد ولد عام أربعمائة وأربعة وخمسين (١٠٦٢)، وأغلب الظن أنه خرج عندما أُخذت سيراكوزا عام أربعمائة وثمانية وثمانين (١٠٩٥)، وتوفى عام خمسمائة وستة عشر (١١٢٢ ـ ١١٢٣). وقد راح يبحث فى الشرق عن العلماء من كبار المقرئين ومارس القراءة مع الكثيرين من مصر، وأقام، ولعله علّم فى الأسكندرية، حيث أنه دُعِىَ الشيخ السكندرى.

(1) وهذه تحددها علامات الشكل والحروف الساكنة. ومع ذلك لم تكتب آنذاك حروف ساكنة كثيرة تحددها الصيغة النحوية، ويدلل على ذلك نسخ القرآن القديمة. انظر إلى أعمال م. دى ساسى، *Notices et Extraits des Mss,* المجلد ٨، ص ٢٩٠ وما يليها، وص ٣٥٥ وما يليها، والمجلد ٩، ص ٧٦ وما يليها. وتطول قائمة النماذج القديمة، وأوائل نسخ القرآن، كما يُلاحظ ذلك من خلال الأجزاء المسجلة على الورق والتى توجد فى مكتبة باريس، الملحقات العربية.

وقام بتأليف كتاب **التجديد لبغية المريد فى القراءات السبع والدرة النفيسة**: كما هى عادة الكتاب العرب أن يضعوا عناوين مجازية ورنانة حتى تبدو متفردة. ونذكر له كذلك شرحاً من شروحه عن **مقدمة بابشادس فى النحو**: هذا لأنه كان أيضاً نحوياً وقاضياً وشاعراً. ولدينا، مما تبقى من كتاباته، بعض من أشعاره، وهى رشيقة فى لغتها وأسلوبها، وصورها مدروسة بعناية، هذا إن لم يكن جامعها قد اختص باختياره الأجزاء المتكلفة كى يقدمها نموذجاً(1). ويتميز غزل ابن الفحام بالنعومة وبرقة مشاعر متفردة(2). وقد أملته فطنته لتنكر الحظ له، قصيدة لاذعة ضد عصره، ولكن سهامه تنفد حتى عصرنا(3).

ولمع فى هذا العلم نفسه، أبو طاهر إسماعيل بن خلف بن سعيد بن عمران وقد ألف دراسة فى تسعة أجزاء عن الصيغ

(1) قارن بين: عماد الدين، **الخريدة**، جزء مأخوذ عن ابن القطاع، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٥٩٨؛ الذهبى، **انباء النحاة**، المرجع المذكور، ص ٦٤٥، وحاجى خليفة، طبعة فلوجل، الجزء ٢، ص ٢٠٩، رقم ٢٤٧٢، الجزء ٦، ص ٣٦، رقم ١٢،٦٣٢ وص ٧٠ رقم ١٢،٧٥٢، حيث ذُكر الاسم بشكل مختلف، ولكن من الواضح أنه الشخص نفسه.

فى **الخريدة**، نجد اثنى عشر بيت شعر لهذا الكاتب. والأبيات الأربعة الأولى منها مستخلصة من رثائية مجهولة الموضوع، إلا أننا نقرأ فيها:

وبيداء قفر ذات آل كأنما ... هو البحر إلا أنه غيرُ آسن

ترى ظعنهم فيها غداة تحمّلوا ... طوافى فوق الآل مثل السفائن

مخطوطة باريس، *Ancien Fonds*، ١٣٧٥، الورقة ٤٩، ومخطوطة المتحف البريطانى، الورقة ٣٧.

(2) أسارقة اللحظ الخفىّ مخافة ... عليه من الواشين والرُقباء

وأجهد أن أشكو إليه صبابتى ... فيمنعني من ذاك فرط حيائى

وإني وإن أضحى ضنينا بوده ... لأمنحه ودى وحسن صفائى

مخطوطات سبق ذكرها

(3) لا تبغِ من أهل الزمان تناصفا ... والغدر من شيم الزمان وأهله

واذا أردت دوام ود مصاحب ... فاغضض جفونك جاهدا عن فعله

مخطوطات سبق ذكرها.

النحوية(1) فى القرآن، كما ألف موجزاً عنوانه، **لمحة عن القراءة**: وفيها قارن بين **طرق القراءة السبع**، وكتبه باختصار يسهل حفظه فى الذاكرة، ميسور لطلبة المدارس، ووافٍ أيضاً للفقهاء. وقد ذاع صيت الكتاب فى أيام ابن خلكان، وقام الكثيرون بالتعقيب عليه وظل يحظى بالتكريم حتى القرن السابع عشر، حينما امتدحه حاجى خليفة. كما لخص إسماعيل علاوة على ذلك عملاً فى علم الكلام على ما أظن وعنوانه **الموضوع**، من تأليف الفارسى. واعتبر من بين أهم الأدباء فى عصره. واستناداً إلى رأى الأسبانى ابن بشكوال، جعل ابن خلكان موطنه سرقسطة؛ ويذكره السيوطى مقترناً باسمى الصقلى والأسبانى، بينما يستخدم حاجى خليفة هذا الاسم مرة والآخر مرة أخرى. وبالنسبة للجميع كان إسماعيل **انصارياً**، أى نازحاً من المدينة، وقد توفى عام أربعمائة وخمسة وخمسين (١٠٦٣)، فى أسبانيا، على ما أعتقد، حيث لجأ إليها، بعد أن ترك صقلية إبان سقوط الكلبيين، أو فى زمن قريب لذلك(2).

وعاش فى الجيل التالى، وربما خرج من صقلية حال فتحها، أبو عمرو عثمان بن على بن عمر من سيراكوزا، وكان تلميذاً لابن الفحام فى القراءة وتلميذاً لمعلمين كبار آخرين فى الحديث والسنة، وكان رجلاً واسع العلم، حسب رأى العلامة سيلفى الذى عمل معه، وقدألف أعمالاً كثيرة فى القراءة، والنحو ونظم الشعر، وكان فضلاً

(1) **الإعراب**، وهو تغيير يلحق أواخر الألفاظ على ما هو مبين بقواعد النحو.

(2) قارن بين: السيوطى، **طبقات اللغويين**، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٦٧٣، ٦٧٤؛ وحاجى خليفة، طبعة فلوجل، المجلد ١، ص ٣٥٦، رقم ٩٢٦، والجزء ٤، ص ٢٨٤، رقم ٨٣٩٨؛ وابن خلكان، طبعة وستنفيلد. من الملاحظ أن ابن بشكوال، طبقاً لمخطوطة *Société Asiatique* بباريس، وهو الوحيد الذى تمكنت من الإطلاع عليه، لا يقول إنه من ساراجوتسا، وإنما أسبانى فحسب؛ كما لا يذكر أن أصله من المدينة. فقد يوجد إذن اثنان باسم إسماعيل بن خلف أحدهما أسبانى والآخر صقلى.

عن ذلك لغوياً وشاعراً، وكانت له مدرسة فى قراءة القرآن فى جامع عَمْرُو(1) بالقاهرة القديمة، نحو منتصف القرن الثانى عشر(2). ولا نعلم بالتحديد فى أى عصر كان أبو عبد الله محمد بن حيون، الصقلى، الذى كتب، على حد قول كازيرى، حاشية فى تفسير معانى القرآن، وتوجد منها مخطوطة فى الإيسكوريالى(3). ثم يأتى بعد ذلك المقرؤون الذين لم يتركوا كتابات ومن بين هؤلاء نذكر خلوف بن عبد الله البرقى، الذى كان يُقيم فى صقلية فى منتصف القرن الخامس الهجرى، وكان عالماً فى قسمى النحو أى الإعراب والبناء، وذا إلمام بالعلوم الفلسفية والأخلاقية، كما كان شاعراً جيداً وفق شهادة الذهبى(4). وكان أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الغنى مقرئاً وداعية أخلاقياً؛ ومن المقرئين أيضاً أبو بكر عتيق بن عبدالله بن رحمون الخولانى نسبة إلى قبيلته، التى اجتازت فى سوريا وأسبانيا فى الفتوحات العربية الأولى، وأبو الحسن على بن عبد الجبار بن الودّانى، ويظهر من اسمه أنه من أصل أفريقى. وكان ثلاثتهم شعراء،

---

(1) هكذا يسميه الأوروبيون. ونطقه الصحيح عَمْرو.

(2) قارن بين: الذهبى، **انباء النحاة**، **المكتبة العربية - الصقلية**، النص، فى ص ٦٤٧، والسيوطى، **طبقات اللغويين**، المرجع المذكور، ص ٦٧٦. إستناداً إلى السيوطى، قمت بتصحيح الاسم الذى نقرأه فى الذهبى عمر بن على، إلخ. احسب عمره بناءً على عمر معلمه ابن الفحام الذى سبق أن أشدنا به، وعمر عالم الحديث والسنة سيلفى المشهور المتوفى سنة ١١٨٠ والذى، حسب قول الذهبى، تعرف على عمر بن على فى القاهرة القديمة.

(3) كازيرى، *Biblicteca Arabico-Hispana*، المجلد ١، ص ٥٠١، ومنقول عن دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٢٣٧. غير أن كازيرى لا يذكر اسم الكاتب أو عنوان الكتاب باللغة العربية. ويقول إنه من أصل صقلى ومولود فى سبته، حيث قرأ بالتأكيد صقلى وصبتى، مما قد يعنى «صقلى استقر فى سبته» أو العكس. ويؤسفنى أن الصعوبات التى وجدتها فى الإيسكوريالى وفى ظروفى قد حالت دون ذهابى لدراسة هذه المخطوطة، مثلما فعلت مع كل أعمال عرب صقلية.

(4) المرجع المذكور، ص ٦٤٤.

وعاشوا فى القرن العاشر أو الحادى عشر، وأبيات شعرهم القليلة التى نقلها عماد الدين أجدها سلسة فى تراكيبها، وتؤكد عدم استقرار أحوال البشر، والسلوى فى الشدائد والكروب، وهى موضوعات محببة عند المسلمين(1). وفى النصف الأول من القرن الحادى عشر، حظى بشهرة واسعة المقرئ الصقلى أبو بكر بن نبت العروق، حتى إن شاباً أسبانياً مجتهداً، استحق فيما بعد القيام بمهام عظيمة فى وطنه، توقف فى صقلية وهو فى طريق عودته من مكة ومن مصر حيث أتم دراسته، ليستأنف دراسة قراءة القرآن مع أبى بكر هذا، ودراسة القانون مع عبد الحق بن هارون(2) وفى النهاية يُذكر من بين المقرئين، النحوى واللغوى والشاعر أبو بكر محمد بن عبد الله الذى لا أجد غضاضة فى ذكر أنه أتى من أفريقية إلى صقلية(3)، وانتهى به الحال إلى الجنـون، ذلك إستناداً إلى ما يروونه عنه. وفى حياته التى اتبع فيها نهجاً أخلاقياً صارماً ونوعاً من العبادة الصارمة، حدث أن اختال بفتى كان ابن أحد قادة الجزيرة أو حكامها؛ ولما لم يجرؤ على أن يميط اللثام عن الفكرة السيئة التى راودته، وبعد أن أضناه الألم،أصبح جلداً على عظم؛ وإذ كان الدم يتدفق من كبده، الذى يعتبره

---

(1) عماد الدين، **الخريدة**، مختارات من **الدرة** لابن القطاع فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٥٩٧، ٥٩٢. ولدينا للشاعر الأول بيتان من الشعر أُخذا من مرثية وهجائية فى بيتين أخرين، أما الشاعر الثانى فلدينا له بيتان فقط، وكذلك الحال بالنسبة للشاعر الثالث. وها هى الهجائية التى نظمها «عتيق»، فى **الخريدة** مخطوطة باريس، ورقة ٤٦ الوجه الثانى والمتحف البريطانى، ورقة ٣٥ الوجه الثانى.

لا تخشى فى بلدة ضياعا ... حيث حياة فثمّ رزقُ

قد ضمن الله للبرايا ... رزقهم فالعناء حمقُ

(2) ابن بشكوال، المرجع المذكور تحت مادة: خلف بن إبراهيم بن خلف، وكنيته ابن حصّار، وقد ولد عام ٤٢٧ وتوفى عام ٥١١ (١٠٣٦ - ١١١٧).

(3) على الرغم من أن المرجعين اللذين تناولا سيرته، يسميانه صقلياً، فإن عماد الدين يصنفة ضمن شعراء أفريقية، دون أن يفسر السبب.

العرب موطن المشاعر، فقد أضر بصدره وأودى بحياته، كما يكتب الذهبى، قبل الأوان. وإن أردنا أن ننهج تفكيراً آخر غير فكر العرب، فيجوز القول إن الهزال أضر بعقله الأمر الذى يحدث فى العادة وباعتباره رجلاً يقظ الضمير، فقد تخيل أنه اقترف ذلك الإثم الذى كان بريئاً منه. ولم يشفع له اعترافه الذى ضمنه فى أبيات شعر رائعة راقية، جديرة بموضوع أقل قتامة، والتى تبدأ بالشك فى أن يكون قد خرج عن طوره وتنتهى بتعجله الموت(1).

إن أحاديث نبى الإسلام وأعماله، التى رواها المعاصرون بحماس كبير، وكتبها اللاحقون، هى، كما نعلم جميعاً، المصدر الثانى للتعاليم الإسلامية فى المدارس السُنية غير أن مجموعة الأحاديث الواسعة، لم تتم دائماً كتابتها حسب صياغتها الأصلية، فهى لا تحمل إلى ما يسميه المسلمون الشرائع الإلهية، لذا يقبل الفقهاء بعضها، حسب تقديرهم، ويرفضون البعض الآخر، ويتناولونها بالنقد والدراسة سواء فيما يتعلق بصحتها أم بتفسير الكلمات القديمة والعبارات التى يصعب فهمها. وهى دراسة واسعة أوجدت مدارس متعددة ودعت المهتمين بالحديث إلى التجوال هنا وهناك، حيثما وجد فقيه معروف أو من استقى العلم منه. وتشكل أحاديث الرسول وأفعاله دستوراً فى

(1) قارن بين: عماد الدين، **الخريدة**، جزء مختار من **الدرة** لابن القطاع، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٦٠٤ من النص، والذهبى، **أنباء النحاة**، المرجع المذكور، ص ٦٤٧. والكتاب الأول يذكر اسم محمد بن أبى بكر، والثانى اسم أبى بكر محمد بن عبدالله؛ غير أن سبب الموت الإفتراضى، وقد رواه كل منهما بشئ من الاختلاف، لا يدع مجالاً للشك فى أنه الشخص نفسه ونقرأ الأبيات الشعرية، وهى سبعة، فى **الخريدة**. يقول المجنون التعس إنه كان يذرف دمعاً ودماً معاً، ويختتم على النحو التالى:

ياويح إنى قد جـــرحت وما دروا	أنى بأســـــياف الجفون جريح
كبدى على صدرى جرت فإلى متى	أغدو أعذب فى الهـــوى وأروح

مخطوطة باريس، ورقة ١٣٢، الوجه الأول، ومخطوطة المتحف البريطانى، ورقة ١٠٠ الوجه الأول.

القانون العام والمدنى والجنائى، والنظام الدينى؛ وكانت هذه الأحاديث والأفعال تصدر واحدة تلو الأخرى بناءً على مواقف كثيرة لم ترد بالقرآن: ومن هنا فالسنة هى أساس ضرورى، بل جزء لا يتجزأ من فقه القانون(1). وإذا وافقنا على رأى العالم ياقوت، لنُسِبَ واحد من أقدم فقهاء السُنة إلى كلابريا وهو أبو العباس: كان أبو العباس تلميذ أبى اسحق الحضرمى، ومعلم أبى داود سليمان الذى كتب **السنن**، وهو ملخص على قدر كبير من الأهمية. غير أن أبا داود توفى عام ثمانمائة وثمانية وثمانين من التقويم الميلادى، لذا فمن المفترض أن يكون أبو عباس القلورى قد عمل فى صفوف المسلمين الأولى، التى هاجمت البر الإيطالى (٨٤٢) من أفريقيا أو صقلية أو كريت. وحيث إن افتراض ياقوت لا يستقيم إلا فيما يتعلق بتماثل الاسم العرقى، دون أن يقدم أية معلومات من سيرته، فسوف نتوقف عند هذه اللمحة(2).

وعلاوة على علماء الشريعة الذين كانوا فى البداية يدرسون الأحاديث والسُنة وأسلوب تحقيقها، فإن فقهاء عديدين بالجزيرة انكبوا على دراستها تفصيلياً. فمنذ الأعوام الأولى من القرن العاشر أو قبل ذلك بقليل، رحل الصقلى أبو بكر محمد بن إبراهيم بن موسى، من قبيلة تميم، ومر بالعراق حتى يتعمق فى هذه الدراسة التى كانت تزدهر حينئذ فى عاصمة الدولة العباسية وفى المدن الهامة القريبة منها. وله مؤلفات كثيرة لا نعرف عناوينها، كما قام بالتدريس فى واسط؛ وكان من بين تلاميذه بعض علماء

(1) انظر الدراسة القيمة الخاصة بمدرسة الإمام مالك والتى قام بها م. ڤانسون، وعنوانها *Etudes sur la loi musulmane*، باريس، ١٨٤٢، فى العدد الثامن.

(2) **معجم البلدان** فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ١٢٣، والإضافات ص ٤٠ من المقدمة. ولا أعرف على أى أساس يريد ياقوت أن يقرأ اسم «كلابريا» بالعربية *Killawria* قلورية.

السُنة البارزين. وأقبل إلى جانب علمه الغزير على نهج التصوف الذى بدأ يظهر آنذاك بين العلماء المسلمين، وتردد على مدارس جنيد ونورى؛ وهى مراكز صوفية؛ وانضم إلى الطائفة(1) وذاع فيها اسمه(2). وبعد أن خرج من العراق يبدو أنه أقام فى مصر، بدلاً من أن يعود إلى صقلية(3).

ولا نعرف فى أى عصر كان القاضى أبو حسن على بن مفرج، مؤلف كتاب عنوانه **اجتهادات الصقلى فى الحديث والسُنة** وفى القرن الخامس عشر جاء ذكره عند البقاعى بين النصوص، التى اعتاد الرجوع إليها(4). كما ظهر اسم عتيقين صقليين، وكانا بالتأكيد من العبيد المسيحيين الذين تم بيعهم فى بلاد أخرى، وقد عرفا فى قرطبة ببحثهما فى الحديث والسُنة وكان ذلك فى النصف الثانى من القرن العاشر: وأولهما يدعى دراج، وكان رجل تقوى، غزير العلم، ونفى بسبب شكوك ذات طابع سياسى وتوفى فى الشرق، بعد أن ذهب للحج(5)؛ وثانيهما اسمه رائق، وقد درس الأحاديث والسُنة فى

---

(1) المقريزى، **المقفى**، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٦٦٢، وهو لا يذكر تاريخاً؛ وإنما يشير إليه اسماً جنيد ونورى، وقد ذكرهما جامى فى سير الصوفيين. وأبو القاسم جنيد من بغداد، وكان يعد فى وقته صاحب الرؤى الأول فى العراق، وكان بكل تأكيد ذا بصيرة ثاقبة وحكمة وتوفى عام ٢٩٧، ٢٩٨ أو ٢٩٩ (٩٠٩ ـ ٩١١)؛ وأبو حسين أحمد بن محمد نورى، والذى كان يعد الثانى بعد جنيد فحسب، وقد توفى قبله بأعوام قليلة. انظر سيرة جنيد، وقد ترجمها الفارسى چامى نزولاً على طلب م. دى ساسى، *Notices et Extraits des Mss,* المجلد ١٢، من ص ٤٢٦ إلى ص ٤٢٩ والهوامش المقابلة.

(2) يبدو أنه أبو بكر الصقلى نفسه الذى أدرجه چامى فى القائمة، المرجع المذكور، ص ٤٠٩. من ناحية أخرى لم ينس المقريزى أن يلقبه بالصوفى فى اللمحة عن سيرته.

(3) لأن المقريزى يدعوه مصرياً وصقلياً. ولعله من المحتمل أن يكون قد وُلِد فى مصر ثم جاء إلى صقلية.

(4) حاجى خليفة، طبعة فلوجل، المجلد ٤، ص ٤٧٤، عدد ٩٢٧١.

(5) ابن بشكوال، المرجع المذكور، تحت اسم: دراج. ونستخلص الفترة الزمنية التى عاشها من العصر الذى كان فيه أحد معلميه فى أسبانيا، واسمه أبو جعفر بن عون الله، الذى ذهب إلى الحج عام ٣٤٢ (٩٥٣).

الشرق وقام بتدريسها بعد ذلك فى أسبانيا(1). كما انكب على دراسة الشريعة والسُنة. وكان يعرف بعلمه الغزير فى بداية القرن الحادى عشر، الأمير أبو محمد عمَّار بن المنصور، وهو من سلالة الكلبيين فى صقلية ومن فرع قريب من الاثنين اللذين ملكا زمام الحكم. وتعبر مقتطفات شعره عن شموخ النبلاء فى القتال الذى لا يخفف منه العمل المضنى فى الشريعة، كما تكشف لنا كيف أن مؤلفها كان يبحر بأشرعته المنشورة بين الضغائن والمكايد التى كانت تتوالى على بالرمو(2).

ونحو عام ألف وثلاثين، ظهر فى أسبانيا أبو فضل عباس بن عمرو، وهو صقلى تعلم من قاسم بن ثابت السرقسطى تفسير الألفاظ والصيغ غير المستخدمة الواردة فى الأحاديث وقام بتعليمها لأسبان آخرين؛ إذ يبدو أنه استقر هناك(3). وفى الجيل التالى، درس

---

(1) ابن بشكوال، المرجع المذكور، وتحت هذا الاسم. وقد توفى أحد تلاميذ رائق، ويدعى سعيد بن يوسف من كالاتايود، عام ٣٩٥ (١٠٠٤).

(2) عماد الدين، **الخريدة**، مستخلص من **الدرة**، لابن القطاع فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، نص، ص ٥٩٥. وكان لقب أمير يمنح على سبيل التكريم لكل من ينحدر من عائلات أمراء. وأرى أنه من المستحسن ترجمة كل ما لدينا من مضمون أبياته الشعرية، والتى لا نجد عنها أية إشارة فى كتب الأخبار وهى تواكب بطبيعة الحال الفترة بين تنحى يوسف عام ٩٩٨، وسقوط حكم الأسرة. ﴿قمنا بنقل الأبيات بدلا من معانيها (المترجم).﴾

تقول: لقد رأيتُ رجال نجد ... وما أبصرتَ مثلك من يمان

ألفتَ وقائع الغمرات حتى ... كأنك والوقائع توأمان

وتقتحم الحروب رخىّ بال ... كأنك من ردها فى أمان

إلى كم ذا الهجوم على المنايا ... وكم هذا التعرض للطعان

فقلت لها: سمعت بكل شىء ... ولم أسمع بكلبى جبان

وكتب هذا التعنيف لأحد أبناء عمومته:

ظننتك سيفا أنتضيك على العدى ... وما خلتُ أنى أنتضيك على نفسى

وجئتك أبغى رفعة وكرامة ... فأمسيت مقهورا بقربك فى حبس

(3) حميدى، **جذوة المقتبس**، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٥٧٨. والكاتب، الذى ولد عام ١٠٢٩ وتوفى عام ١٠٩٧، قام بنقل بيتى شعر لأحمد بن أبى مكى، وردا عن لسان عباس بن عمرو، على النحو التالى: ١ـ أبو محمد على؛ ٢ـ القاضى ابن صُفَّار؛ ٣ـ عباس بن عمرو؛ ٤ـ ثابت من ساراجوتسا، إلخ. ولكن يبدو أن إقامة ذلك الصقلى فى أسبانيا يجب نسبها إلى الثلاثين سنة الأولى من القرن.

أبو بكر محمد بن سابق، ربما خلال الحج، الحديث فى مكة على يد كثير من الفقهاء، تميزت من بينهم كريمة ابنة أحمد مروازى؛ وبدلاً من أن يعود إلى صقلية حيث لم يعد هناك مكان إلا للحروب والمذابح، فتح مدرسة فى غرناطة، ولكنه لما شعر هناك أيضاً بعدم الاستقرار، انتقل إلى مصر؛ وتوفى فيها فى شهر يناير من عام ألف ومائة. وترك فى غرناطة فراغاً، وشهرة واسعة لفقهه(1). ونذكر أيضاً من بين علماء الحديث والسُنة الممتازين السمنطرى، وابن مكى وابن عبد البر وابن القطاع، وسوف نتحدث عن أولهم عند الحديث عن الصوفيين، وعن الآخرين بين فقهاء اللغة، أما المزارى فهو أرفعهم شأناً.

ويرجع هذا الاسم إلى المدينة التى ولد بها، كما يدعى التميمى نسبة إلى قبيلته، واسمه أبو عبد الله محمد بن على بن عمر بن محمد(2)؛ ويكتب عنه ابن خلكان أنه عالم فى الشريعة مالكى، وأنه مرجع شامل فى شرح نصوص الأحاديث وتحقيقها(3). وتحظى شروحه للحديث بشهرة واسعة فى المدارس الإسلامية ويتضمنها كتابه بعنوان **المُعلِم بفوائد مسلم**(4). كما كتب أيضاً إيضاح

(1) ابن بشكوال، **الصلات**، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٥٧٨. لم يذكر كاتب السيرة الأسباب التى أثنته عن العودة إلى صقلية وعن البقاء فى غرناطة ولكنها من افتراضى أنا.

(2) يذكر المقريزى اسم أبى عبد الله محمد بن مُسلّم (ويضيف آخرون، مُسْلم) ابن محمد، القريشى. ومن بين الكتاب الآخرين الذين يتحدثون عنه، يتبع حاجى خليفة الاسم الذى ذكره ابن خلكان، أما السيوطى فيتبع الاسم الذى سجله المقريزى، بينما يسميه الباقون المزارى، أو أبا عبد الله محمد المزارى.

(3) ورد فى نص ابن خلكان: «ذكر الأحاديث والكلام». والكلام، كما أشرنا فى موضع أخر، كان «الفلسفة المدرسية» أى المنهج الذى تتبعه المدارس اللاهوتية. لذا ابتعدت عن ترجمة م. دى سلان *"The Manner in which he lectured on that subject"*.

(4) هنا أيضاً تراءى لى أن لفظ علوم *"dottrine"* يترجم بصورة أكثر دقة نص كلمة فوائد بالمقارنة بالترجمة الإنجليزية الحرفية *"good passages"*. ويشير كل من ابن خلكان والمقريزى إلى هذا المؤلف؛ كما يذكره حاجى خليفة، طبعة فلوجل، المجلد ٢، ص ٥٤٥، رقم ٣٩٠٨.

المحصول فى برهان الأصول(1) وكذلك تفسير كتاب بعنوان **النهج القويم** وكلاهما مؤلف عن علم الكلام(2)؛ ومن مؤلفاته أيضاً شرح لكتاب الإمام مالك وعنوانه **الموطأ**(3)؛ وأربعة أجزاء عن تعاليم القاضى عبد الوهاب(4)؛ فضلاً عن أعمال أخرى علمية وأدبية(5): ولكنه كان أيضاً عالماً فى فروع مختلفة من العلوم التطبيقية أو النظرية(6)، وحتى فى الطب. نقرأ فى تفسير مالكى كيف أن العامة كانت تلجأ لاستشارة المزارى بوصفه طبيباً مثلما كانت تلجأ إليه عالم شريعة، منذ ذلك الحين الذى عكف فيه بشغف على تلك الدراسة، يعينه على ذلك طبيب يهودى كان يعايره وهو يداويه من مرض خطير أصابه، وكان يقول له: «ها هو فقيه الإسلام العظيم تحت رحمة يهودى مسكين، إن تركه يموت قدَّم صنيعاً جليلاً لدينه وتسبب فى خسارة فادحة للمسلمين»(7). وكان بحق علامة لامعاً فى الشريعة لدى كل معاصريه فى كل أنحاء شمال أفريقيا؛ ويُحكى أن النبى ظهر له فى حلم، وحثه على الكتابة، ويقول عنه اللاحقون إنه آخر المشرعين المجتهدين؛ وقد وضع خليل بن اسحق،

(1) ابن خلكان والمقريزى، الذى يتحدث فى يقين عن موضوع لاهوتى.

(2) المقريزى.

(3) ياقوت، فى **المشترك**، طبعة وستنفيلد، تحت مادة «مازارا».

(4) حاشية لكاتب غير معروف لحاجى خليفة، فى طبعة فلوجل، المجلد ٦، ص ٦٥٠، رقم ٩٣.

(5) الأدب، كما يقول العرب فى كلمة واحدة. ويعتبر كتاب *l'Encyclopedie des Gens du monde* كتاب أدب عند العرب. وهى كلمة تحوى فى طياتها معنى التربية السليمة.

(6) يقول عنه ابن خلكان متفنن، أى عالم فى فروع عديدة من فروع المعرفة؛ ويضيف الفقيه فى علم الكلام المتحمس ابن المعلم، مخطوط باريس، الملحقات العربية، ٢٠٠، ورقة ١٠٠ الوجه الثانى: «وتفوق فى علم الكلام والتأمل».

(7) الخريشى، شرح موجز خليل بن أسحق، مخطوط باريس، الملحقات العربية، ٤٠٥، ورقة ٥ الوجه الثانى. ينبغى علىَّ أن أنبه إلى أن قصة مماثلة، مع اختلاف بسيط، وافانى بها العالم النابه سليمان كردى التونسى، الذى عرفته فى باريس، وكان يتذكر جيداً حدث دفن المزارى فى مناستير، وهو الحدث الذى استخلصه، على ما أرى، من ابن خلكان.

مؤلف كتاب الأحكام الغامض الذى يطبق الآن فى أفريقيا، وضع المزارى والصقلى ابن يونس بين الأربعة مصادر الرئيسة التى يرجع إليها بعد المدونة(1). ولقد انتهج المزارى فى علم الكلام منهج الأشعرية(2)، أو لنسميه المنهج المدرسى، الذى اعتاد الاستعانة بالفلسفة وبالتفسيرات للدفاع عن الإيمان القويم ضد الضربات العنيفة التى اعتاد المنشقون والعقلانيون توجيهها باستخدام الأسلحة نفسها. ولقد أقام المزارى فى القاهرة القديمة، وفى الاسكندرية وفى المهدية بعد أن ترك صقلية، على ما يبدو، إبان الفتح النورماندى ثم أقام فى الإسكندرية من جديد، حيث كان يدرّس الأحاديث والسُنة(3). ويروى أنه فى مدينة المهدية. بعد عام ألف بقليل، علّم مبادئ العلم لمحمد بن تومرت، الذى سمى بعد ذلك بالمهدى: وكان شبيهاً لسڤونارولا من البربر، وقد أسس دولة الموحدين:(4) ونظراً لصلته بمدعى النبوة وعلمه الذى عرف به وعبقريته وأيضاً نقاء سريرته، عُدَّ المزارى من بين أولياء الإسلام

(1) الخريشى؛ الموضع المذكور. انظر أيضاً ترجمة الخليل، *Précis de jurisprudence musulmane etc.*، ترجمة م. بيرون، المجلد ١، ص ٥، وتعقيب المترجم فى ص ٥١١. ولقد قمنا بالإشارة إلى المدونة فى الكتاب الثالث، الفصل ١١، ص ٢٢٢ من هذا المجلد.

(2) المقريزى.

(3) يذكر المقريزى أسماء منها اسم أحمد بن إبراهيم الرازى، وكان معلمه فى القاهرة القديمة، وأسماء عدة تلاميذ للمزارى فى الإسكندرية.

(4) الزركشى، **تاريخ الموحدين**، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٥٢٢. واستخلص تاريخ إقامته فى المهدية من تاريخ انتقال الشاب ابن تومرت إلى تلك المدينة، أى فى نهاية القرن الخامس الهجرى. انظر ابن خلدون، *Histoire des Berbères,*، ترجمة م. دى سلان، الجزء ٢، ص ١٦٣، و**القرطاس**، ترجمة الأستاذ تورنبرج، وعنوانها *Annales Regum Mauritaniœ*، الجزء ٢، ص ١٥٠. وقد بدا ابن تومرت أشعرياً أكثر من معلمه المزارى؛ إذ أن المعلم كان فقيهاً ومهذباً كريماً؛ وكان التلميذ يحطم الأدوات الموسيقية، وينهر السيدات النبيلات عبر الطريق، ويختلق المعجزات؛ وأثار فى السلالة البربرية ثورة من أهم الثورات التى شهدتها.

الصالحين. وقد توفى فى المهدية عن ثلاثة وثمانين عاماً قمرياً، واختلفت الأقوال حول يوم وفاته، فمن يقول فى الرابع ومن يقول فى العشرين من شهر أكتوبر من عام ألف ومائة وواحد وأربعين(1) ودُفِنَ إما فى مرناق بالقرب من تونس(2)، أو فى مناستير(3)؛ وهذا التباين حول تفاصيل سيرته، إنما يبرهن على شهرة هذا الرجل الواسعة، بقدر مديح الكتاب له(4). ولقد نشأت حكاية ذاعت عن صلاحه وترددت فى أفريقيا فى القرن الخامس عشر وجعلت منه رجلاً عاش

(1) يقول ابن خلكان إن بعضهم يؤرخون وفاة المزارى بيوم ١٨ ربيع الأول من عام ٥٣٦ هجرية، وآخرون يرون أنه توفى يوم الأثنين ٢ ربيع الأول. وهذا اليوم من أيام الأسبوع لا يتفق مع تقويمنا. فتبعاً للحساب المدنى، فبداية شهر ربيع الأول من ذلك العام كان يوم سبت، وبالحساب الفلكى فالجمعة هى بداية الشهر؛ وهو الأمر الذى يؤكد صحة الأدلة التى تبرهن على أن المسلمين فى العصر الوسيط كانوا لا يحسبون الشهور اعتماداً على التقويم، وإنما على الشهادة الشرعية لمن رأى هلال الشهر أولاً.
يذكر **البيان**، النص، المجلد ١، ص ٣٢٢، أن وفاة المزارى كانت عام ٥٣٦؛ والمقريزى يحددها فى عام ٥٣٠، بينما نجد عام ٥٣٦ عند القرشى، الموضع المذكور.

(2) قرية تبعد ثمانية أميال، عن تونس.

(3) وهى شبه جزيرة تقع عند أقصى جنوب خليج الحمامات، ليس ببعيد عن مدينة المهدية. ولما كان من المعلوم أن المزارى توفى فى المهدية، وأن مدافن هذه المدينة كانت توجد فى مناستير فلا يساورنى الشك إذا ما قرأتها هكذا بدلاً من *Menasciin*، مناشين وهو اسم المكان المذكور فى طبعة وستنفيلد باعتباره موضع دفن هذا العالم الشهير.

(4) قارن بين: ابن خلكان، *Biographical Dictionary*، ترجمة م. دى سلان، الجزء ٣، ص ٤، والنص، الجزء ١، ص ٦٨١، وفى طبعة وستنفيلد، الجزء ٧، ص ١٢، سيرة رقم ٦٢٨؛ والمقريزى، **المقفى**، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٦٦٧، ٦٦٨؛ والسيوطى فى النبذة عن حياة عبد الكريم بن يحيى بن عثمان، **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٦٧٦؛ والزركشى، وحاجى خليفة وابن المعلم، المواضع المذكورة. ولقد وصل كتاب ابن المعلم إلى يدى بعد نشر **المكتبة العربية ـ الصقلية**، وكان قد كتبه بين عامى ٧٠٢ و٧٠٨ هجرية (١٣٠٢ ـ ١٣٠٨)، فى دمشق: وهو جدل أشعرى غاضب رفع فيه المتشددون إلى السماء، وأطلقت الدعوة إلى سيف الأمراءِ ضد كل من يختلف قيد أنملة عن معتقداتهم. وعنوان كتاب ابن المعلم هو **نجم الهُدى ورجم البغى**. ويتعين علىَّ فى النهاية أن أنبه إلى أنه ربما كان هناك كاتبان معاصران ولدا كلاهما فى مازارا وسميا باسم محمد؛ أى ابن على وابن مُسَلِم؛ فلم يقتصر المقريزى على أن ينسب اسم الأب إلى المزارى الذى تحدث عنه وإنما نسب إليه أيضاً اسم قبيلة آخر، وقال عنه

ثلاثمائة وثلاثة عشر عاماً(1).

وبالنظر إلى العلاقة الوثيقة بين الحديث والسُنة والفقه، ندرك كيف أن الفقه الذى بدأ فى خطوات ثابتة فى صقلية فى النصف الأول من القرن العاشر(2)، قد أحرز تقدماً خلال القرن الحادى عشر.

وفيما بين هذين القرنين إذ لا نعرف العام بالتحديد، ولد فى مدينة بالرمو، أبو بكر محمد بن عبد الله بن يونس، وكان فقيهاً أمير مدرسة مالكية، ونال تكريماً وتبجيلاً يقارب ما كان للمزارى، وذكرهما الخليل معاً، كما سبق وقلنا، وكان يُكنى بالصقلى كما كان معروفاً أيضاً ببسالته ومواقفه الشجاعة فى الجهاد، أى فى حرب منياتشى على وجه الاحتمال. وتوفى ابن يونس فى العشرين من ربيع الأول من عام أربعمائة وواحد وخمسين (٥ مايو ١٠٥٩)(3) وذاع صيت تلميذه عالم الشريعة المالكى الصقلى أبو محمد عبد الحق بن هارون، بفضل مؤلفاته وتلاميذه الأسبان البارزين، أمثال خلف بن إبراهيم، المدعو ابن حصَّار، وسليمان بن يحيى بن عثمان بن أبى دنيا القرطبى؛ وقد

أنه توفى فى شعبان عام ٥٣٠ (مايو ١١٣٦)؛ وكلها تفاصيل تختلف عن تلك التى نقرأها عند ابن خلكان وعند الكتاب الآخرين الذين ذكرناهم سلفاً، وربما خلط المقريزى بين المزارى عالم الأحاديث والسُنة الذى أقام فى الإسكندرية والمزارى الذى تمتع بشهرة أكبر وتوفى فى أفريقيا.

(1) الزركشى، الموضع المذكور.

(2) انظر الفصل ١١ من الكتاب ٣، ص ٢٢٧، وما يليها.

(3) القرشى، الموضع المذكور، وهو يضيف أنه استناداً إلى أقوال آخرين فقد توفى ابن يونس فى اليوم نفسه من شهر ربيع الثانى، أى بعد ٢٩ يوماً ويحتمل أن يكون هو الشيخ الصقلى الذى نجده فى الكتاب المالكى القديم، مجهول المؤلف، وعنوانه **شرح الأحكام**، مخطوط باريس، *Ancien Fonds*، ٤٨٠، ورقة ٨٥ الوجه الثانى؛ والصقلى الذى ذكره الأجهورى فى الشرح الآخر على الخليل، مخطوط باريس، الملحقات العربية، ٣٩٧، الجزء ١، ورقة ٣٩٠ الوجه الأول. وكان ذكر لقب صقلى يشير دوماً إلى محمد بن يونس، وذلك وفقاً لقائمة وضعت على رأس تعليق أحمد الزرقانى على كتاب الخليل، مخطوط باريس، الملحقات العربية، ٤٠٢، ورقة ١ الوجه الأول.

التقى به تلميذه الأول فى صقلية(1)، كما قلنا قبل ذلك، والثانى فى مكة، فى رحلة حج، ثم تبعه إلى مصر، حيث استمر تلميذاً له(2). كتب عبد الحق **تهذيب المطالب** وهو مبحث فى مسائل شرعية(3)؛ **والنكت** وهو كتاب معارف أو فقه لغة، ظل واسع الانتشار حتى القرن الرابع عشر(4). وقد تعلم منه ثابت الصقلى علم الشريعة وهو فى وطنه؛ ولكنه بعد ذلك لاذ بأسبانيا، وهناك درَّس الشريعة فى النصف الثانى من القرن(5).

وفضلاً عن فقهاء الشريعة ابن الفحاّم وعمار بن منصور، والمزارى وابن مكى الذين ذكرناهم فيما تقدم، فإن أبا بكر محمد بن حسن بن على الربعى من چرچنتى، كان يدرّس الشريعة المالكية فى صقلية، ثم بعد ذلك فى أفريقية وفى الإسكندرية، وحظى بمكانة رفيعة لما يتمتع به من علم وفضيلة؛ وتوفى عام خمسمائة وسبعة وثلاثين (١١٤٢ ـ ١١٤٣)(6). ولعل أحدهم ويدعى على بن عثمان بن حسين الربعى، الصقلى، ينتسب إلى العائلة نفسها، وإذ كان يزاول تجارته فى قرطبة،

---

(1) انظر الهامش ص ٤٨٨ ـ ٤٨٩.

(2) ابن بشكوال، المرجع المذكور، فى مادة سليمان بن يحيى، والذى كان يدّرس القانون المالكى عام ٤٧٨ (١٠٨٥) فى قرطبة بعد عودته إليها. وأعتقد أن عبد الحق كان تلميذ ابن يونس، لأن **شرح الأحكام**، استند إليه فى ذكر حكم من أحكام ابن يونس، الموضع المذكور.

(3) حاجى خليفة، طبعة فلوجل، المجلد ٢، ص ٤٧٩، رقم ٣٧٨٥.

(4) المَقَّرى، *Analectes sur l'histoire ec. d'Espagne*، النص العربى، المجلد ١، ص ٩١٧. ويعد كتاب **نكت واقوال** من بين العشرين كتاباً التى نالت شهرة واسعة وقد أشار إليها فى خمسة أبيات شعرية الأديب الأسبانى ابن جابر، الذى توفى فى حلب عام ٧٨٠ (١٣٧٨)، ويورد المَقَّرى العناوين الكاملة لهذه الكتب.

(5) ابن بشكوال، المرجع المذكور، عند مادة: ثابت، صقلى.

(6) المقريزى، **المقفى**، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٦٦٤. والربعى اسم عرقى ويرجع إلى عائلات تنتمى إلى أصول عربية عديدة مثل: نزار، أزد، تميم، كلب، إلخ. ونجد فى مختارات دى جريجوريو، ص ١٧١، كتابة على شاهد قبر شخص يُدعى ربعى، توفى عام ١٠٢٦.

جلب إليها كتاب ابن حاتم الذرى، ويحمل عنوان: **اللمع فى أصول الفقه**، وقد استقى منه العلم عالم الشريعة الأسبانى أبو على الغسانى(1). أما عن الفقيه الصقلى أبى عبد الله محمد بن عبد الله فقد انتقل إلى غرناطة بعد الفتح النورماندى، وألقى بها دروساً عن كتاب **التبصرة فى الفقه** لمؤلفه أبى حسن لخمى، وتوفى هناك عام خمسمائة وثمانية عشر (١١٢٤)(2). وقد دُعى مُظَفر الصقلى أو الصقلبى، لأنه غالباً ما تختلط الكلمتان فى الكتابة العربية، وكلف عام أربعمائة وأربعة (١٠١٣ ـ ١٠١٤) بمهام قاضى مصر والقاهرة والمحتسب وكان هذا المنصب الأخير يتطلب دراسة علم القانون(3). وشغل أحمد بن قاسم الصقلى منصب قاضى القضاة بمصر، ويذكره عماد الدين باسم العادل، وهو ينقل أبيات الشعر التى نظمها فى الأفضل (١٠٩٣ ـ ١١٢١). وربما لا يغفر جمال تلك الأبيات بعض أساليب المداهنة بها، لو لم يكن ذلك من عادات الشرق أو لمودة حميمة بينهما(4). ولا نعرف بالتحديد الفترة الزمنية التى ينتمى إليها

---

(1) ابن بشكوال، المرجع المذكور، تحت اسم على بن عثمان، وعنوان الكتاب هو: **لمع فى اصل الفقه**. وربما يتعين قراءة اسم مؤلفه العرقى «الذربى» وقد يُعْنِى به «من أهل اذربيچان». وقد يتصادف أن يكون على هو الشخص نفسه الذى يحتوى متحف دانيال على الكتابة الخاصة بشاهد قبره كما ذكرنا فى الهامش السابق؛ حيث تسبق كلمة الربعى كلمات أخرى ناقصة، فيما عدا المقطع، وهو النهاية ان، المؤكدة لاسم الأب وهو عثمان. وعلى ضوء هذا الافتراض، فقد يرجع التردد على أسبانيا إلى الخمسة والعشرين عاماً الأولى من القرن الحادى عشر، ويبدو محتملاً أن يكون التاجر صاحب العلم قد أنهى أيام حياته فى نابولى أو فى سالرنو.

(2) ابن بشكوال، المرجع المذكور، فى مادة هذا الاسم. وعنوان العمل هو **التبصرة فى الفقه**؛ ولا يذكر حاجى خليفة هذا الكتاب أو سابقه.

(3) المقريزى، يستشهد به ساسى، *Chrestomathie Arabe*، مجلد ١، ص ١٩٦. وبشأن وظيفة محتسب، انظر ص ١١، الكتاب الثالث، الفصل الأول.

(4) **الخريدة**، لعماد الدين، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٦٠٤. ذات يوم، دخل القاضى غرفة كبير الوزراء الأفضل، فرأى أمامه محبرة من العاج مطعمة بالمرجان، فارتجل هذه الأبيات:

أبو محمد حسن بن على بن جعد، وكان فقيه عصره، وقد أعطى اسمه إلى كتاب بعنوان **الأقساط الجعدية حسب مذهب الإمام مالك**(1)؛ ويفهم أنها أنصبة فى تقسيم الميراث، وهو فرع مهم من فروع الشريعة الإسلامية. ويتعين علينا أن نضيف إلى فقهاء الشريعة القطانى، «النحوى الدقيق»، وسوف نتحدث عنه بين فقهاء اللغة؛ وكذلك أبا عمر عثمان بن حجاج وكان من شاكة فى صقلية، واستقر بالإسكندرية، وتوفى عام خمسمائة وأربعة وأربعين (١١٤٩)؛ وكان يُعد من معلمى عالم السُنة الشهير سيلفى الأصفهانى، وترك عدة كتب حسب المذهب المالكى(2). وألف الأديب الأفريقى ابن رشيق الذى هاجر إلى صقلية فى منتصف القرن الحادى عشر، تفسيراً تناول **الموطأ** للإمام مالك(3). وفى ذات الوقت قدم السمنطرى كتبا فى الشريعة، وسوف ننتقل إلى الحديث عن الطائفة الجديدة من الأولياء الصالحين التى بدأت تتكاثر فى الإسلام.

كان أبو بكر عتيق بن على بن داود من قرية سمنطره فى صقلية(4)؛ وربما كان من سلالة مزارعى الأراضى التى كان يملكها

ألين لداوود الحديدُ بقدرة ... يقدوه فى السرد كيف يريد
ولان لك المرجان وهو حجارة ... على أنه صعب المرام شديد

ومرة أخرى، لما أمر أفضل بشق قناة حتى قرية القرافة بالقرب من القاهرة، تقدم القاضى الذى كان يملك هناك منزلاً وبستاناً، وطلب منه الماء لمنزله. وذلك فى شكل سبعة أبيات شعر يصف فيها أشجار بستانه التى كساها الحزن ويختم أبياته قائلاً:

«عند سماع أنين السواقى على القناة، يقول الشجر فى لوعة العاشق:

أرى ماءً وبى عطش شديد ... ولكن لا سبيل إلى الورود

وله أبيات غزل أخرى قليلة.

(1) حاجى خليفة، طبعة فلوجل، مجلد ٤، ص ٣٩٨، عدد ٨٩٨٧. يدعى ابن جعد شيخ، أى فقيه، وإمام، أى أمير، وهو تكريم كان يبدأ من رؤساء المدرسة نزولاً إلى الفقهاء ذوى الشهرة الأقل.

(2) **المعجم** فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ١١٤.

(3) حاجى خليفة، طبعة فلوجل، مجلد ٦، رقم ١٣،٤٣٧، ص ٢٦٥.

(4) انظر الفصل ١٢ من هذا الكتاب، ص ٤٤٤، هامش رقم ٦.

سان جريجوريو فى وقت من الأوقات، وكان نشطاً لا يكل بدنه أو ذهنه. ويكتب ابن القطاع أنه كان من بين أولئك الأولياء الصقليين الذين كانوا مرجعاً فى الشريعة(1)؛ كما كان من نُساك الجزيرة المعروفون بالعلم: عاش مترفعاً عن الاهتمامات الدنيوية، وانشغل بكل جوارحه بالحياة الأخرى. وقد رحل إلى الحجاز للحج؛ ثم جال بأقاليم كثيرة مثل اليمن، وسوريا، وفارس، وخراسان؛ وهناك دأب على مصاحبة خدام الله، من علماء السُنَّة والنُساك؛ وجمع أقوالهم وأخبارهم وصاغها فى أسلوب جميل. كما كتب أخبار رحلاته وثمرة أحاديثه مع هؤلاء العلماء الأجانب بأسلوب المعاجم؛ وله كذلك مؤلفات مختلفة فى الشريعة والسُنة تمتاز بقيمتها العالية فى ترتيبها ووضوحها؛ وألف أيضاً مبحثاً عظيماً، لا يضارعه مبحث آخر فى جمال الأسلوب، ويتناول الكمال الروحى(2)، وقدوة الرجال الفضلاء. هذا هو رأى ابن القطاع فيه(3). وكانت آخر أعماله التى ذكرها هو كتاب: **دليل المقاصدين (عن الكمال الروحى)**، ويتكون من عشرة أجزاء(4). وقد نظم السمنطرى قصيدة شعرية عن حياة التصوف فى الإسلام، ومن واقع ما لدينا من أبيات قليلة منها، تبدو إلى يومنا هذا تعبيراً سامياً لما يدور بعقل يستتكر ما بعصره من خسة وقساوة، ويتوق إلى شكل من أشكال العدالة والسمو، يرسم الانسان ملامحه فى ضميره ويبرز ألوانه على

---

(1) مجتهد، كما قيل فى موضع آخر، تعنى «فقيه يستخلص بالقياس والمنطق مسلّمات جديدة أو نتائج خاصة بأحكام الشريعة».

(2) اترجم على هذا النحو لفظ «رقائق» وهو جمع «رقيقة» ومعناها الحرفى «لطائف». والمعنى الفنى هو: «فضيلة العقل، والبحث والسلوك التى ترقى بالانسان حتى ليقرب من الله».

(3) يذكره ياقوت، فى **المعجم**، تحت مادة سمنطر، انظر فى **المكتبة العربية - الصقلية**، النص، ص ١١٣، ١١٤. وفضلاً عن ابن القطاع، يرجع مؤلف المعجم إلى شخص يُدعى محب الدين بن النجار يستند بدوره إلى أبى حسن القدسى.

(4) المعجم، الموضع المذكور.

صفحة اللامنتهى(1). وتوفى هذا العالم فى الواحد والعشرين من ربيع الثانى من عام أربعمائة وأربعة وستين (١٥ يناير ١٠٧٢)(2). وكان أبو الحسن على بن حمزة معاصراً للسمنطرى، ويبدو أن كليهما خرجا إبان سقوط حكم الكلبيين، ولقد ذهب إلى أسبانيا قبل عام أربعمائة وأربعين (١٠٤٨)، كما يقول الحُميدى الذى عرفه وأصغى إليه؛ وكان صوفياً، وعالماً فى الكلام(3)، فقيهاً فى كل فروع علم الكلام وعلوم أخرى(4)؛ وكان تلميذاً للكاتب الآخر الشافعى، أبى طاهر محمد بن على البغدادى(5).

لم يكتف الصوفيون بإنكار الأشياء الدنيوية، بل سعوا إلى تدمير كل ماله صلة بالواقع، وإلى إخماد الحس، والتركيز على إدراك الإنسان لكينونته، ومواصلة الغوص فى أعماقها درجة بعد درجة حتى يشعر وكأنه لمس الذات الإلهية فى جوهر نفسه، واتحد بها، وانتزع

---

(1) فتن أقبلت وقـــوم غفـــول ... وزمـــان على الأنام يصـــول

ركـدت فيـــه لا تريـد زوالا ... عم فيهـا الفســـاد والتضليل

أيها الخائن الذى شـــأنه الإثم ... وكسب الحـــرام ماذا تقـول

بعت دار الخلود بالثمن النجس ... بدنيـــــا عمـــا قريب تزول.

انظر نص أكسفورد فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٣٦ من المقدمة. (هذه ترجمة للمعانى)

(2) **المعجم**، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ١١٤.

(3) يكتب كـاتب السـيرة أنه كـان يتكلم، ومعنـاها الحـرفى هـو «كان يفكر» غيـر أن المعنى الخـاص بهـذا المجـال هـو «كان يفـكر طـبقاً لمبادئ مدرسـة الكلام، كمـا يسميـها العـرب، وهى قريبـة الشـبه بعلم اللاهـوت النظـرى عنـدنا». انظـر رنـان، *Averroë s et l'Averroïsme*، ص ٧٩ - ٨٠.

(4) يضيف حُميدى أنه «كان يبحث فى العلوم أيضاً»: مما يعنى أنه كان يتناول علوماً أخرى غير علم الكلام، أى القانون أو علم الرياضة أو الفلسفة.

(5) نقرأ اللمحة القصيرة عن سيرته فى **جذوة المقتبس** للحُميدى، مخطوطة بودليانا، فقرة، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٥٧٨. ابن بشكوال، مخطوطة الجمعية الآسيوية بباريس، عند اسم على بن حمزة، يقوم بنقل اللمحة التى كتبها الحُميدى.

من على عينيه الحُجب التى تخفى العلم والمستقبل. وقد تصلح هذه الفكرة المتسلطة موضوعاً جيداً للدراسة النفسية والمرضيّة إن توصلنا إلى فصل التهيؤات وتمييزها عن الشعوذة وعن لغتها الرمزية التى اختلطت بها فى كل زمان ومكان. ويبدو أن جماعة الصوفيين أخذت اسمها ونمت أشكالها نحو منتصف القرن التاسع، حينما انتشرت طرقها الكثيرة فى الإسلام، عندما لاذ المتعبدون بالصوفية الهندية هرباً من الفلسفة الإغريقية، ولعل فرعاً برهمانيا أو بوذياً، كان يعيش منذ القدم فى بلاد فارس، ثم طُعم به نسك الصحابة فأثمر هذه الثمرة. والاسم مشتق من الصوف، لأن المتصوفة كانوا يرتدون الصوف وفقاً لعادة المسلمين الأوائل؛ وعندما تحولت الجماعة إلى ما يشبه النظام الدينى، كان رئيسها يستقبل عضوها الجديد بوضع **الخرقة** على كتفيه، وهى خرقة أو رداء من الصوف. ولقد استمرت حتى اليوم جماعة الصوفيين جنباً إلى جنب مع الجماعات الشعبية، مثل الدراويش وغيرهم ممن لجأوا إلى محاكاة أكثر مظاهر الطائفة غرابة. كانت الصوفية فى الأصل عبارة عن ملتقى شريف لنفوس يغلب عليها الاستياء من الاضطراب السياسى فى الخلافة، وعقول حائرة ولعلها كانت أيضاً عقولاً صحيحة، اهتز إيمانها، ورأت أنها سوف تكون أسوأ حالاً إن غَيّرت دينها أو بقيت دون دين. وكثيراً ما ألقى المترددون أو المتشككون بأنفسهم فى مثل هذه الظلال النسكية ليتحاشوا المتدينين. وبالفعل، كان الأصوليون الحرَفيون يسمونهم كلهم كافرين،دون تمييز فئة عن أخرى، وقد أطلق الغزالى، عالم الكلام والتصوف المتشدد، حكماً يقضى بأن قتل صوفى أجدر من إنقاذ عشرة رجال من الموت(1).

(1) انظر مقدمة م. دى ساسى الجميلة لخلاصة سير الصوفيين من جامى، والتى قدم نصها الفارسى والترجمة الفرنسية، وأضاف إليهما النص العربى وترجمة احد فصول مقدمة ابن خلدون، *Notices et Extraits des Mss*، مجلد ١٢، ص ٢٨٧، وما بعدها.

وإذا دققنا النظر فى الفترة الزمنية التى عاش فيها الصوفى أبو بكر محمد(1)، والذى خلفه على بن حمزة والسمنطرى(2)، فإننا سوف نرى أن نسك المسلمين الأول والذى استمر فى صقلية حتى منتصف القرن العاشر(3)، لم يلبث أن اتخذ شكل النسك الجديد. وبدأ ينتشر بين عامة الشعب بعد أن كان منحصراً فى طبقة العلماء والفقهاء، وانتشرت مشاهد المسرحية الدينية فى النصف الأول من القرن الحادى عشر، إذ صورها ابن التازى من خلال أبيات، هذا مضمونها:

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه ... ولا بكـاؤك إن غنى المغنـونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب ولا ... تغاش كأن قد صـرت مجنـونا
بل التصوف أن تصفو بلا كدر ... وتتبع الحـق والقرآن والدين

ويبدو أن ابن خلدون منحاز جداً للتعاليم الصوفية، التى يُرجع أصولها إلى الصحابة؛ ويجتهد فى شرح التجلى الصوفى بازدواجية مصدر إدراك الانسان أى الانفعالات الخارجية و الاستعدادات الداخلية التى كما يبدو له، لا تعتمد على تلك، *مثل الفرح، والحزن إلخ.*

ويذكر م. دى ساسى التشابه بين الصوفية وبين بعض الطوائف الهندية، واحتمالية أن يكون المسلمون قد عرفوا هذه الطوائف فى بلاد فارس. ويعتقد أن أول من اتصف بالصوفى كان أبو هاشم، قرب منتصف القرن الثانى للهجرة والقرن الثامن الميلادى؛ غير أن التعاليم نفسها نمت فى وقت لاحق، وربما تأسس النظام فى القرن العاشر، وبدأ نظام تلبيس الخرقة فى نهاية القرن الحادى عشر على ما يبدو. وحجتى على ذلك فى المبحث الصـوفى لصدر الدين القـنوى الذى توفى عام ٦٧٣ (١٢٧٤)، مخطوطة باريس، *Ancien Fonds*، ٤٢٦، حيث أن الثوب الصوفى، جاءه عبر تتابع تسعة رؤساء، بدءاً من محمد شيلى، الذى لم تكن تذكر كلمة تلبيس هذه من قبله، وإنما «تضامن وتعليم»؛ وكان ذلك يرجع إلى على. إن جامى الذى عاش فى القرن ١٥، كان يرجع التلبيس إلى علىّ ذاته: ومن الطبيعى أنه مع مرور الوقت ازدادت الادعاءات فى الطائفة.

(1) انظر ص ٤٩١.

(2) إن العنوان وهو **دليل المقاصدين** يظهر طابعه الصوفى، حيث أن «القصد»، فى لغة الطائفة، يشير إلى البحث عن الكمال الروحى، وإلى الروح الإلهية التى ينبغى الإهتداء إليها فى اغوار النفس.

(3) انظر الكتاب ٣، الفصل ١١، ص ٢٣٥ وما بعدها من هذا المجلد.

وأن ترى خائفاً لله ذا ندم على ذنوبك طول الدهر محزونا(1).

ومن بين النساك الزاهدين الذين لم يقعوا فريسة هذه التهيؤات، نذكر أبا القاسم بن الحاكم، وهو فقيه كبير، كما يقولون، وكان يعيش فى النصف الأول من القرن الثانى عشر فى بغداد فى دار الخليفة، إذ لم يعد بلاطاً بعد(2). أما محمد بن سابق وعبد الرحمن بن عبد الغنى، وقد ذكرناهما سلفاً، فكان أولهما عالماً فى علم الكلام، والآخر كاتباً أخلاقياً(3). وأما موسى بن عبد الله الكوفى، وهو من سلالة على، فكان عالماً فى علم الكلام وشاعراً وصاحب معارف كثيرة، فقد وقع اختياره نحو منتصف القرن الحادى عشر على صقلية حتى تكون مقراً له؛ ومنها انتقل إلى محاربة المسيحيين فى أسبانيا؛ وقُتِلَ فى النهاية فى أفريقيا (١٠٩١)(4). وقد ترك أبو محمد عبد الرحمن بن محمد الصقلى مبحثاً فى علم الكلام، لا نعلم تاريخه، إلا أن المخطوطة الوحيدة الموجودة فى أوربا تم نسخها فى أنطاكية عام ستمائة وتسعة وأربعين هجرية (١٢٥١). والمبحث يتبع منهج المدرسة الكلامية الأصولية، وينقسم إلى أربعة فصول: علم كلام طبيعى، وعلم كلام إسلامى، طبيعة إبليس وقوته، وأوضاع الانسان وواجباته فى المجتمع(5). وأرى فى المبحث وضوحاً وجلاء

(1) **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٥٩٠ من النص، وهى أبيات مأخوذة من **الخريدة** لعماد الدين، الذى أخذها بدوره عن ابن القطاع. ويُعَد ابن التازى هذا من أوائل الذين أشار إليهم ابن القطاع فى مجموعته المختارة.

(2) أبو حامد، الغرناطى، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، النص، ص ٧٤، والواقدى المنتحل، المرجع المذكور، ص ١٩٩. وُجِدَ أبو حامد فى بغداد عام ١١٢٢، كما أشرنا فى الكتاب الأول، الفصل الرابع، ص ١٦٢ من المجلد الأول.

(3) ص ٤٨٨ و٤٩٤.

(4) ابن بشكوال، مخطوطة الجمعية الآسيوية،باريس، تحت اسم: موسى.

(5) مخطوطة ليدن، رقم ٣٦٦ من الفهرس العربى القديم. وقد قمت بنشر المقدمة فى **المكتبة العربية - الصقلية**، النص، ص ٦٩٨، ٦٩٩.

وترتيباً ونظاماً؛ ونهجاً منطقياً بالقدر الذى كان مستطاعاً فى ذلك الحين. والفصل الذى يتناول إبليس فى تفصيل أكثر مما اعتادت عليه المدارس الكلامية الإسلامية، يبدو لى أنه مرتبط بتلك الفكرة التى تسلطت على المتدينين الصقليين والأفارقة نحو أواخر القرن التاسع أو بداية القرن العاشر(1).

فى الوقت ذاته، ومع تقدم الولاء الأعمى للصوفية، لوحظ فى صقلية، كما فى كل الأقاليم الإسلامية الأخرى، ولع جديد بالأدب، وخاصة دراسات فقه اللغة، حسب مفهوم كل واحد لها حتى القرن الثامن عشر؛ تلك الدراسات التى لم تعمل فى الشرق على بعث أولئك الشعراء العرب القدامى ولا ذلك الأسلوب الحى البليغ المختصر الذى تميز به الصحابة؛ وما انتجت إلا أعمال متوسطة على المستوى العام، وأسلوب براق رنان متموج نال إعجاب العلماء فى كتابات الحريرى على مدى ثمانية قرون، واستمر على مدى تسعة أو عشرة قرون يغلف فكر هذه الشعوب وكثيراً ما كان يأخذ مكانه. ولكن عصر التكلف فى جمال الأسلوب لم يخل عند العرب من مميزات قيمة، كما هو الحال أيضاً بالنسبة للقرن السابع عشر والتاسع عشر فى أوربا. والمسلمون الصقليون مثلهم مثل الأسبان والأفريقيين والمصريين والسوريين ما كان باستطاعتهم الوصول إلى مستوى أعلى؛ ولكنهم بلغوا هذا المستوى فى القرن الحادى عشر، ولم يقلوا فى ذلك عن الأسبان؛ بل لعلهم تفوقوا على الأقاليم الأخرى المذكورة، التى لا تبتسم الطبيعة عندهم مثل هذه الابتسامة الحلوة، والتى لم تكن سلالاتها القديمة، من الساميين والأقباط والبربر، معدنا سهل التطويع والصقل.

وبعد ابن خراسان، النحوى الصقلى الذى عاش فى النصف الأول

(1) الكتاب الثالث، الفصل الحادى عشر، ص ٢٣٦ من هذا المجلد.

من القرن العاشر(1)؛ ظهر على الساحة نحوى آخر اسمه حسن بن على، ذهب إلى الحج ثم توفى بمكة، فى نهاية عام ثلاثمائة وواحد وتسعين (نوفمبر ١٠٠١)، وترك ذكرى مشرفة له فى مدارس الشرق(2). وقبل ذلك بما يقرب من نصف قرن من الزمان، جاء موسى بن أصبغ مرادى القرطبى للإقامة فى صقلية، عند عودته من رحلة فى الشرق: وكان لغوياً ونحوياً ويقولون أيضاً شاعراً أنيقاً؛ غير أنه من خلال ثمانية آلاف بيت شعرى قام بتوضيح وشرح المبتدا(3)، وربما كان يقصد بهذا الاسم أصول العالم الأولى، وقصص الأنبياء لأبى حذيفة القريشى(4). وعند بداية القرن الحادى عشر، عاش اللاجئ الأسبانى سعيد بن فتحون فى صقلية، وقد ذكرناه فيما تقدم وكان لغوياً كما ألف مبحثاً فى نظم الشعر(5).

ولقد دفعت الحروب الأهلية فى أسبانيا أبا العلا سعيد الموصلى إلى الانتقال إلى صقلية، وكان قد مارس ببراعة دراسات فقه اللغة وعلومها فى بغداد، وهو شاعر جيد، حاذق، حاضر البديهـــة، حلو الحديث، ولكنه مجـــامل، ممالق، متحايل، مبذر وشريب خمـر؛ ولما ذهب إلى أسـبانيا بحثاً عن الحظ تحسنت أحواله فى كنف المنصور (٩٩٠)، وبعد أن توفى المنصور جاء ليرى ما إذا كان الكلبيون فى صـــقلية ينصرون العلـــوم والآداب

(1) انظر الكتاب الثالث، الفصل الحادى عشر، ص ٢٣١ من هذا المجلد.

(2) السيوطى، **طبقات اللغوين** فى **المكتبية العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٦٧٤. وأترك أسماء معلمى وتلاميذ حسن بن على هذا، وقد ذكرهم كاتب السيرة.

(3) المرجع المذكور، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٦٧٨. ويكتب كاتب الترجمة بوضوح المبتدا.

(4) يوجد هذا المؤلَّف فى أكسفورد، فى المخطوطات العربية، رقم ٨٤١. الفهرس، المجلد الأول، ص ١٨٢. انظر أيضاً داربيلو، *Bibliotheque Orientale*، فى مادة مبتدا.

(5) انظر الاستشهاد فى ص ٤٨٤.

كما عرف عنهم، وتوفى عام أربعمائة وسبعة عشر (١٠٢٦) أو أربعمائة وتسعة عشر(1). وعاش فى العصر نفسه الصقلى أبو يعقوب يوسف بن أحمد بن الدباغ، وكان شاعراً قديراً، وصاحب أبيات شعر تعليمية فى النحو، وتفوق حسبما يرى ابن القطاع، على كل معاصريه فيما يمكن أن نسميه اليوم دراسة تاريخ الأدب(2)، كما يرجع إلى منتصف القرن الحادى عشر كل من خلوف بن عبد الله البرقى، وكان يقيم فى صقلية، وكان مقرئاً للقرآن، وفقيهاً فى فرعى النحو(3)، كما كان يتحلى بتعدد معارفه وبنظمه للشعر(4)؛ وأيضاً أبو الحسن على بن عبد الرحمن الصقلى، الذى كان معلماً فى النحو، كما يبدو، فى سوسة(5)؛ وأبو حفص عمر بن حسن وكان نحوياً له شأن، ولغوياً وشاعراً(6).

وما حدث أن تطعيم غصن عربى فى أصل صقلى كان أكثر تلقائية مما تمثل فى شخص أبى عبد الله محمد بن أبى فرج بن فرج بن أبى القاسم، القطانى، وكان يلقب «بالنحوى الدقيق». ولد فى

(1) راجع ابن خلكان، وترجمة م. دى سلان الإنجليزية، المجلد ١، ص ٦٣٢؛ والذهبى، **انباء النحاة**؛ الصفدى **الوافى فى الوفيات**؛ والسيوطى، **طبقات اللغويين** فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٦٤٤، ٦٥٩، ٦٧٥.

(2) راجع الذهبى، **انباء النحاة**، والسيوطى، المرجع المذكور فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٦٤٨، ٦٧٨. ويطلق عليه السيوطى اسم ابن الدباغ. يقول ابن القطاع، الذى استشهد به السيوطى: «ذاك كان يتابع بعناية كبيرة كتب القدماء، ويتحرى كل ما هو دفين من أخبار الكتاب».

(3) انظر ص ٤٨٧، هامش ٢.

(4) انظر الاستشهاد فى ص ٤٨٨.

(5) السيوطى، **طبقات اللغويين**، فى ترجمة عمر بن يعيش من سوسة، **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٦٧٨. كان عمر، وهو تلميذ الصقلى، يلقى بدوره دروساً عام ٤٩٨ (١١٠٤)؛ وأنا أسترشد بهذا التاريخ. ففى الوقت ذاته عرف بالشرق شاعر صقلى يحمل الاسم نفسه، وسوف نتحدث عنه فيما بعد.

(6) الذهبى، **انباء النحاة**، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٦٤٦. قد يكون هو الأمين ابن كونى نفسه، الذى كان له الاسم نفسه، والكنية نفسها وكذلك لقب الأسرة. انظر ص ٤٧٦.

صقلية عام أربعمائة وسبعة وعشرين (١٠٣٥ ـ ١٠٣٦) وأتم فيها كل دراساته وتسلح من رأسه وحتى إخمص قدميه فى الشريعة على مذهب الإمام ابن مالك، وفى النحو، واللغة ومختلف العلوم؛ وكان يعد مرجعاً كبيراً فى الشريعة والنحو، غير أنه بسبب إصراره على التركيز على أخطاء هذا وذاك، عاداه الجميع وسدوا الطريق أمامه(1) ويبدو أنه ترك صقلية إبان سقوط بالرمو، وذهب إلى بغداد فى خراسان، وإلى جزنة؛ ومن هناك انتقل إلى الهند، مقتفياً أثر الفاتحين الأتراك: وفى كل مكان كان يسخر من هفوات العلماء ويشعل المعارك. وحدث ذات يوم أنه دخل مدرسة علم الكلام(2)، أعتقد فى مارو فى خراسان، وكان يعلّم بها محمد بن منصور السمعانى؛ فما أن بدأ يملى الدرس حتى قاطعة النحوى الدقيق قائلاً: «ليس كما تقولون؛ ينبغى أن يُكتب كذا وكذا». فقال السمعانى لتلاميذه: «صححوا حسب قوله، فهو أكثر علماً منى» فأطاع التلاميذ. وبعد لحظات قليلة التفت الصقلى إلى السمعانى قائلاً: «ياسيدى، لقد أخطأت، وما من خطأ فيما كنت تمليه» فأجابه الآخر فى هدوء: «ليرجع إذن إلى ما كان عليه» وبعد أن انتهى الدرس، والتقى السمعانى بمفرده بأصدقائه استأنف قائلاً: «كان المغربى(3) يتحدانى ليفرغ ما فى جعبته، كما فعل مع الآخرين؛ ولكنى أضعت عليه الفرصة؛ وها هو قد حكم على نفسه بنفسه». وقد توفى القطانى فى أصـــفهان، عام خمســـمائة واثنى عشر (١١١٨ـ ٩). وكان قد تعلم الشـــريعة على يد الصـــقلى الشهير محمد بن

(1) أترك الأذى الذى ألحقوه به دون تحديد. فقد ورد بالنص أن «هتفوا ضده، فلم يفلح».

(2) الأول منهما، لأن السمعانى الأب والابن، وكلاهما كاتبـان معـروفان، كانا يقيمان فى مِرْو. انظر رينو، مقدمة *Géographie d'Aboulfeda*، ص ١١٠؛ ودارببيلو، *Bibliothèque Orientale*، فى موضع: سمعانى. وأفترض أنها مدرسة علم الكلام لأن السيوطى فى معرض روايته يستخدم **لفظ الكلام**.

(3) أى: «من سكان الغرب»: أفريقية، وصقلية وأسبانيا.

يونس، والنحو على يد على الحيولى، وكان صقلياً أو مقيماً بالجزيرة(1).

لما كان القطانى فى مقتبل العمر، كان قد توفى فى صقلية فقيه فى اللغة ذو قدر كبير فى ذلك الوقت، اسمه أبو على حسن بن رشيق. وُلِد عام ألف فى مسيلا بأفريقية، من أب معتوق من أصل يونانى أو إيطالى قديم(2)؛ وقد علمه والده حرفته وهى صياغة الذهب كما أرسله إلى المدرسة؛ ونظراً لاستعداده الكبير للشعر والآداب، سمح له وهو فى الخامسة عشر من عمره، بالذهاب إلى القيروان، مركز المعارف العربية القديم. وهناك حصّل ابن رشيق العلم ونال الشهرة وحاز الطبقـــة الإجتمـــاعية. وقد أدخلته إحدى القصائد فى مدح المعز بن باديس فى خدمة الأمير(3)؛ ثم أعتُبِرَ بعد ذلك من بين شـــعراء البلاط(4)، وكُلف بأمانة ديوان الحرب(5). وإلى أن بلغ الشيخوخة، عاش حيـــاة رغدة بالبلاط، بين دراساته، وبين الصداقات والعداوات الأدبية وبعض التصرفات السيئة، كما يكشف لنا الصقلى أبو عبد الله بن سفّار، العالم الفاضل، الذى إذ تواجد بالقيروان، غمرته السعادة، لارتباطه بابن رشيق فى صداقة حميمة،

(1) السيوطى، **طبقات اللغويين**، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٦٧٣.

(2) كان رومياً.

(3) يضيف كل من ابن خلكان والذهبى أن آخرين قالوا عنه إنه وُلِد فى المهدية. وكان يدعى أيضاً الأزدى، نسبة إلى قبيلة أزد التى أنحدر منها سيد والده الذى أعطاه ذلك الاسم لحمايته بعد أن تحرر، وسُمِّىَ أيضاً بالقيروانى نسبة إلى المدينة التى أقام بها.

(4) ابن الأبار، **حلة السيرة**، مخطوطة الجمعية الآسيوية، باريس، ورقة ١٠٨ الوجه الثانى.

(5) البلنوبى **الديوان**. فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٦٨١. وبيتا الشعر اللذان كتبهما ابن رشيق أغلب الظن فى صقلية، ويشهدان على هذا الأمر وكذلك على اعتزاز المعتوقين فى بلاط المسلمين بأنفسهم.

وقد كنتُ كاتبـــا جيش الأميـ ـر ومُجرى الأمـــور على رسمها
وها أنا تاجرُ ســـوقِ المـــ ـسال وسوقُ المحالِ كفى باسمها.

ووجد نفسه يؤدى دور الشخصية الثالثة فى مسرحية غريبة(1).

ولكن وقت فتح عرب ما وراء النيل، عندما اضطر المعز إلى أن يتحصن فى المهدية (١٠٥٧) وكان الشاعر يلازمه هناك(2)، فإن سوء الحظ، كما يحدث أحياناً، أشعل الخلاف بين الصديقين القديمين. كان أسطولاً مسيحياً، ربما من بيزا أو من جنوة، قد اقترب ليلاً من المهدية، وبينما كان الأمير منهمكاً عند مطلع الفجر فى تدبير مواجهة الخطر، وكان يقرأ الرسائل على ضوء مصباح، دخل ابن رشيق الحجرة، وأخذ يعرض عليه قصيدة يقول مطلعها: «تشجع ولا تعتمن أفكارك المحن: فأمام سلطانك تنحنى الرقاب» فقاطعه المعز قائلاً: «وكيف أتشجع وأنت تعرقل خطاى، أهكذا تساعدنى؟ أما تلتزم الصمت الآن!» ومزق القصيدة وحرقها بنار المصباح. وعلى الفور خرج ابن رشيق من عنده وأبحر إلى صقلية(3)، إذ كان له

---

(1) يذكر شهاب الدين عمرى هذه النادرة فى ثلاث أو أربع صفحات، مشيراً إلى أنه يختصرها من نص ابن بسام. وقمت أنا بنشرها فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٦٥١ ـ ٦٥٢، بعد أن استبعدت كثيراً من التأوهات الغرامية، إن جاز التعبير، شعراً ونثراً. ويؤكد ابن سفار كاتب القصة أنه فى الحقيقة لم يكن هناك ما يسئ. ولايبرئ ذلك ابن رشيق، وإنما الرأى العام الذى كان يدين، كما هو واضح، تلك البذاءات.

(2) ابن خلكان وشهاب الدين عمرى. إن التاريخ الذى اغفلاه نقرأه فى ابن خلدون، *Histoires des Berbères*، ترجمة م. دى سلان، المجلد ٢، ص ٢١ ـ ٢٢، وبمزيد من الدقة، عند ابن الأثير، المخطوطة C، مجلد ٥، ورقة ٨١ الوجه الثانى، وما يليها، تحت عام ٤٤٢؛ وهو يذكر أن نهب القيروان وقع فى شهر رمضان من عام ٤٤٩ (نوفمبر ١٠٥٧)، بعد رحيل المعز بقليل.

(3) ابن بسام، جزء أدرجه شهاب الدين عمرى فى **مسالك الأبصار**، **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٦٥٠ ـ ٦٥١. ويذكر النص وهو فى قالب نثر مقفى، وهو مسهب إسهاباً لا معنى له: ما معناه: «لم يمض من الوقت الكثير حتى جاء أسطول من الروم، وفى الفجر بدا البحر تغطية آكام تنذر بالأهوال وتلال محملة بالموت المحقق إلخ»؛ غير أن النص لم يضف شيئاً عن النصر، ولم يشر بالتحديد إلى الأمة التى وضعت آكامها على سطح البحر. فمنذ زمن بعيد لم يظهر البيزنطيون فى الجزء الغربى من حوض البحر المتوسط. وعلى النقيض من ذلك، أغار أسطول بيزا عام ١٠٣٤ على بونا وقرطاجنة، وفى النصف الثانى من القرن حاربوا بالرمو؛ ثم المهدية بالتعاون مع أسطول جنوة إلخ.

أصدقاء بها؛ إذ نعلم أنه كان يعرف شاعرين صقليين كانا يراسلانه، وبقيت لنا الأبيات التى كتبها لأحدهما لدى وصوله إلى مازارا والرد عليها(1)، ورحب به كبار السادة ووفقوا بينه وبين ابن شرف شاعر القيروان وبلاط المعز ولكنه كان عدوه اللدود؛ ولما كان قد لاذ بصقلية قبله، فقد شرع على الفور فى تشويه صورته(2). غير أن حسن الضيافة فى صقلية لم يصرف ابن رشيق عن سبب مجيئه إليها وهو الاتجار فى سفينة للمعتضد، أمير أشبيلية العبادى بل كان دافعا لكى يكون بجوار سيده، لذا رجاه أن ينقله معه إلى بلاطه، وقد وعده الأمير بذلك ثم تخلى عنه. وظل ابن رشيق لسنوات عدة يترجح بين السفر إلى أسبانيا أم لا، إلى أن توفى فى مازارا نحو عام ألف وسبعين(3).

إن إقامته وسط ضجيج أسلحة المسيحيين لم تفد فى إثراء كتاباته، كما لم تنفع فى أى شئ أخر سوى أنها تركت لنا بعضاً من نوادر بلاط الكلبيين القديم، إلى جانب بصيص من ضوء على الثقافة المعاصرة. وإذ لا أتوقف عند مؤلفات ابن رشيق المفقودة، فى فقه القانون(4)، وفى اللغة(5)،

---

(1) عماد الدين، **الخريدة**، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٥٩١. واسم أحدهما: أبو حسن على بن إبراهيم بن ودانى، واسم الثانى أبو عبد الله محمد بن على بن الصباغ، أمين السر. ونقرأ الأبيات الثلاثة فى مخطوطة باريس، ورقة ٣٥ الوجه الأول، وتبدو أنها من نظم ماچى أو زاپى.

(2) ابن بسام، المرجع المذكور، ص ٦٥١.

(3) قارن بين: ابن خلكان، *Dizionario Biografico*، ترجمة م. دى سلان إلى الإنجليزية، مجلد ١، ص ٣٨٤؛ والذهبى **انباء النحاة**، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٦٤٤؛ وشهاب الدين العمرى، المرجع المذكور، ص ٦٤٩ إلى ٦٥٣. يشير المصدران الأولان، إلى روايات وأخبار أخرى أقل دقة تنسب موت ابن رشيق إلى عام ٤٥٠ أو ٤٥٦. انظر أيضاً **البيان**. طبعة دوزى، النص، جزء ١، ص ٣٠٧. وقد حكم عباد بن محمد وكنيته المعتضد بالله، من عام ٤٣٣ وحتى ٤٦١ (١٠٤١ ـ ١٠٦٩).

(4) انظر ما تقدم فى ص ٥٠١.

(5) **خيوط الذهب** شذرات، لابن خلكان وحاجى خليفة، المرجع المذكور، مجلد ٤، ص ٥٠٩ رقم ٩٣٩٤، **والجديد فى اللغة**؛ ابن خلكان؛ الموضع المذكور.

وتاريخ الأدب(1)، وفى تدوين أحداث مهمة فى التاريخ(2)، فضلاً عن مدونة تسجل أخبار القيروان(3)؛ وإذ أغض الطرف عن شعره السلس، المفعم بالحيوية والذى يتسم أحياناً بالإباحية(4)، فسوف أشير مع ذلك إلى مبحث فى فن النظم عنوانه **العمود**، وفيه يُنظر إلى الدافع المحرك للفن حسب النهج نفسه الذى تعلمناه من كبار المعلمين اليونانيين، وفيه يشار إلى بعض تعاليمهم(5). ولذا أرى أن هذا العمل قد أتمه ابن رشيق فى صقلية على هدى ذلك القليل من الآداب الإغريقيـــة التى بقيت بهـــا؛ وبعد ذلك كتب مجهول صقلى موجزاً لهذا العمل وأسماه *Preparamenti* (6).

---

(1) **النمط**، حاجى خليفة، المرجع المذكور، مجلد ١، ص ٤٦٨، رقم ١٣٩٢. وقد ذكره أيضاً ابن خلكان فى الترجمة المذكورة، وفى موضع آخر يتعلق بنادرة الأمير الكلبى يوسف التى ذكرناها فى الفصل ٧، من هذا الكتاب، ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩ من المجلد. انظر أيضاً المقرى، **تاريخ اسبانيا**، النص العربى، مجلد ١، ص ٩٠٤ **ومسالك الأبصار**، مخطوطة باريس، ورقة ٧٧ الوجه الأول.

(2) حاجى خليفة، **ميزان الأعمال**، المرجع المذكور، مجلد ٦، ص ٢٨٥، رقم ١٣،٤٩٧.

(3) حاجى خليفة، *Dizionario Biografico*، طبعة فلوجل، مجلد ٢، ص ١٤٢، رقم ٢٢٨٥.

(4) كثيراً ما تحوى المختارات أو التراجم، إلخ، أبيات شعر من نظم ابن رشيق. والكثير منها نجده فى **ديوان** البلنوبى، ويبدو أنه تم جمعها فى صقلية، كما سنقول بعد قليل عندما نتناول ذلك الشاعر بالحديث. والأبيات التى أنوه عنها قرأتها فى ذلك الكتاب، وكلماتها رديئة تماماً مثل موضوعها.

(5) لدينا مخطوطتان لهذا العمل الذى يذكره ابن خلكان، المرجع نفسه، وحاجى خليفة، طبعة فلوجل، مجلد ٤، ص ٢٦٣، رقم ٨٣٣٨، والمخطوطتان فى أوربا، إحداهما فى ليدن (٢٢ جوليوس، فهرس دوزى، مجلد ١، ص ١٢١، رقم ٢٣٧، والأخرى فى المتحف البريطانى، (رقم ٩٦٦١، فهرس ٢٣٩ E). ولقد تصفحت مخطوطة لندن. فى البداية، لأننى لم أر رقم الورقة، يقول ابن رشيق إن الدافع الشعرى عند اليونانيين القدماء، كان مبنياً كله على «الأهداف المعنوية أو المادية؛ إذ لم يفكر اليونانيون أبداً فيما يمثل أساس فخر الشعراء العرب»؛ ويقصد بذلك الملح والتورية، والاستعارات المسهبة إلخ. إنى لم أترجم ترجمة حرفية، لأننى لست متأكداً من قراءة بعض الألفاظ. كما أن جزءاً من المخطوطة مكتوب بخط أفريقى حديث وردئ للغاية والجزء الآخر بخط نسخ جميل يعود إلى عام ٦٤٤ للهجرة.

(6) حاجى خليفة، الموضع المذكور.

ويتضح لنا مصدر ابن رشيق من بيتين من شعره، يحث بهما، كما يبدو لى، أحد ولاة الجزيرة على اتباع مشورة العلماء، ويذكر فيهما اسم أثينا ويلحق به اسم صقلية، من خلال اشتقاق لغوى حسبما كان مألوفاً لدى عرب البلاد(1).

وأرى أن الاشتقاق الزائف للاسم، الذى يعتمد على مفردتين يونانيتين تعنيان التين والزيتون والذى تكرر عند رواة أخبار صقلية اللاتينيين فى القرن الثالث عشر(2) قد كتبه لأول مرة، أحد اللغويين

---

(1) ذكر ابن شباط هذين البيتين، فى معرض حديثه عن أصل لفظ صقلية الذى افترضه، وذكرهما السيوطى أيضاً، فى ترجمة الصقلى ابن عبد البر، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٢١٢ و٦٧٢.

«أخت العـدينة فى اسـم لا يشـاركها ... فـيه سـواها من البـلدان والتـمس

وعـظَّم الله معـنى لفظـهـا قسـما ... قلّد إذا شئت أهـل العلم أو فقـس

ويضيف السيوطى أن عبارة «عظّم الله ...» يشار بها إلى تلك الآية القرآنية ﴿سورة ٩٥، آية ١﴾، «والتين والزيتون» حيث تنفرد هاتان الشجرتان بالذكر من بين كل النباتات، حسب رأى بعض المفسرين، ويقول بعضهم الآخر إن الشجرة الأولى تشير إلى القدس، بينما تشير الثانية إلى دمشق.

أما فيما يتعلق باسم العدينة، فأعتقد أن المقصود بها أثينا. حقاً إن العلماء العرب اعتادوا كتابة هذا الاسم بطريقة أخرى؛ وحقاً أن الحرف الأول من اللفظ موضوع بحثنا، وهو حرف العين، حرف سامى صرف، ولا يستخدمه العرب فى العادة فى كتابة الأسماء الأجنبية. إلا أن الجغرافية العربية لا تقدم لنا اسماً آخر يمكن أن يكون مناسباً للموضوع؛ واسم أثينا مناسب تماماً، وهو الاسم الذى أطلق تكريماً لمنيرفا التى حملت معها الزيتون، ومن ثم فاسم الشجرة، باليونانية، يقال أيضاً **Αθηναΐς**.

كما ينبغى أن أنبه هنا إلى أننى اتبعت التفسير القيم الذى عرضه الأستاذ فليشر عند ترجمتى لبيتى الشعر، كما اتبعت أيضاً تصويبه لنص **المكتبة العربية ـ الصقلية** ص ٢١٢. ولكن لم يكن الحال كذلك عند قراءة «مدينة» التى اقترحها بدلاً من عدينا، ذلك لأننى رأيت أن الظروف التى صورها الشاعر لا تتواءم بحال مع يثرب القديمة، التى يطلق عليها مدينة النبى.

(2) *Græce Sicalea quod latine est ficum et olivam*، هذه الجملة نقرؤها فى *Anonymi Chronicon Siculum*، عند دى جريجوريو، *Biblioteca Aragonese*، المجلد الثانى، ص ١٢١، وفى *Bartolomeo de Neocastro*، المرجع المذكور، ١، ١١٥. واشتقاق **Σικελία** من **συκῆ** و **ἐλαία**، لا نعثر عليه لدى الكتاب اليونانيين ولا حتى فى العصور المتأخرة. ويظهر جهلاً كبيراً ليس بالتاريخ وحسب بل باللغة أيضاً، ذلك الخلط بين حروف υ و ή و ε حيث تتشابه أصواتها فى أذن من لم يطلع عليها فى الكتب. ولكن يمكن الظن بأن كان هناك بعض المعتوقين الصقليين الذين تعلموا منذ طفولتهم اليونانية العامية ولم يتعمقوا فى دراسة أية آداب أخرى سوى العربية.

العرب، عاش حتى عام ألف وثمانية وخمسين وتتلمذ على يديه ابن القطاع. واسمه أبو بكر محمد بن على بن حسن بن عبد البر، من قبيلة تميم: كان قد رحل عن صقلية طلباً للعلم فدرس الحديث والنحو وعلم المعاجم، وأقام فى الشرق، ربما فى بغداد؛ وحين عودته إلى الوطن حمل معه معجم الجوهرى الشهير، فقربه وأكرمه ابن منكود حاكم مازارا فى ذلك الوقت، وكان أميراً قوى المروءة على حد قول كاتب السيرة(1). ويبدو لى غير صحيح ما قيل عن أن ابن عبد البر قد استمد من ابن رشيق ذلك الاشتقاق الزائف والمعرفة التى كان يتطلبها. كان العرب قد أسهموا منذ قرن مضى فى ترجمة أعمال اليونان العلمية، وبعد ذلك تنبهوا إلى ما تبقى من آثارها القديمة وجمعوا بعض قصص المستوطنات اليونانية ـ الصقلية(2)، كما عاشوا مع يونانيى صقلية، متفاوتى المعارف. هناك إذن أسباب تدفعنا للاعتقاد بأن مسلمى الجزيرة شرعوا فى النصف الأول من القرن الحادى عشر فى بعض الدراسات حول الأدب اليونانى، ولعلها كانت دراسات بدائية ولكنها هيأت الكتاب العرب لاكتشاف ميادين أخرى مثل العلوم الفلسفية وعلوم الحساب التى كانت موضع اهتمام أيام المأمون. وكانت صقلية أكثر الأراضى خصوبة لهذه التجربة. إلا أن العلوم كانت أيسر من الآداب فى الانتقال من جنس لآخر؛ وكانت قوة العرب آخذه فى الانحسار فى كل مكان؛ وكانت مستوطنة صقلية على وشك

(1) قارن بين: ابن شباط والذهبى والسيوطى فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٢١٢، ٦٤٨، و٦٧١، ٦٧٢. ويذكر الأخير منهم بخصوص هذا الاشتقاق المذكور فقرة لابن عبد البر، ولا نعلم من أى كتاب، منقولة عن ابن دحية، وهو مؤلف أسبانى (١١٥٣-١٢٣٥) فى روايات الشعراء المغارية التى تحمل عنوان المطرب ويسند أولهم الاشتقاق إلى تثقيف اللسان لابن القطاع الذى استمده من معلمه ابن عبد البر. واسم ابن منكوت الذى ورد ذكره لدى الذهبى فقط، كتب منكود، وراجع بخصوصه الفصل الثانى عشر من هذا الكتاب، ص ٤٣٢ من المجلد.

(2) انظر الكتاب الثالث، الفصل الحادى عشر والثالث عشر من هذا الكتاب، ص ٢٢٦ و٤٥٠ من المجلد.

أن تقع تحت السيطرة الأجنبية.

ولقب ابن القطاع (ابن قاطع الحجارة) أُطلق على عائلة من أصل مضرى من تميم، من فرع سعد بن زيد مونات، ويبدو أن هذه العائلة نزحت إلى صقلية من سنتارم فى البرتغال فى النصف الثانى من القرن العاشر تقريباً(1). وقد عاش جعفر بن على الذى ينتسب إلى هؤلاء القوم، وكان لغوياً واسع العلم، واشتهر بأسلوب الرسائل، ونال الثناء والإكبار لسمو لغته ورقة ذوقه فى الشعر، عاش حتى عام ألف وثمانية وخمسين(2) ربما فى إحدى القرى التى تبعد أميالاً قليلة عن بالرمو(3). وكما يقول كتاب التراجم فإن على بن جعفر ابنه، كان ابناً لامعاً، من أب لامع، ولقب أيضاً بابن القطاع، وقد ولد فى العاشر من صفر عام أربعمائة وثلاثة وثلاثين هجرية (٨ أكتوبر ١٠٤١)، وتتلمذ فى الأدب والحديث على يد ابن عبد البر وأوائل العلماء فى البلاد، كما صاغ الشعر فى الثالثة عشرة من عمره وأخذ يزداد علماً وشهرة

(1) مادة قطاع غير الواردة فى المعاجم، نعثر عليها فى تتمة البكرى بمعنى قاطع الكبريت فى صقلية، وذكر هذه الفقرة ابن شباط، **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٢١٠. وألفيتها أيضاً بمعنى «قاطع الحجارة» فى إحدى الروايات المسيحية، مخطوطة عربية فى باريس *Ancien Fonds*، ٦٦، ورقة ١٧٥ الوجه الأول.
ويستهل ابن خلكان سيرة على بن جعفر بن القطاع بشجرة أنساب ترتبط بالأغالبة وتصل حتى الأجداد الأوائل لقبيلة تميم. ويقول إنه كتبها على هذا النحو فى مسودة كتابه، **معجم التراجم** ولا يتذكر من أين أقتبسها، ولكن عينيه وقعتا على شجرة أنساب أخرى بخط يد ابن القطاع ذاته ولا يندرج فيها الأغالبة. ونستند بطبيعة الحال إلى هذه الشجرة التى تقول: أبو القاسم على بن جعفر بن على بن محمد بن عبد الله بن حسين، الشنترانى، سعيد، ومن هنا نرى تعاقب أربعة أجيال بين المهاجر من سنتارم والمولود فى صقلية عام ١٠٤١. وطبقاً لهذا يجدر تصحيح الخبر الوارد فى المقدمة، المجلد الأول، ص ٣٧ رقم ١.

(2) الذهبى، **أنباء النحاة** فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٦٤٣.

(3) **قصر سعد**. انظر رحلة ابن جبير فى *Journal Asiatique*، المجموعة الرابعة، المجلد السابع (١٨٤٦)، ص ٤٢. ويقوم الافتراض على تطابق اسم القبيلة والقرية. ومن ناحية أخرى فإذ لُقب ابن القطاع بالصقلى فهذا دليل على أنه كان من مواطنى العاصمة.

إلى أن هاجر إلى مصر بعد انتكاسه آخر رايات المسلمين فى صقلية: وفى مصر نال كل أشكال التكريم، بل حسبوه مرجعاً عظيماً فى الأدب، وكانوا يقسمون بأقواله. واختاره الوزير الأفضل المعروف بالمروءة والبر مع الوافدين من صقلية معلماً لأبنائه(1) وتفاخر كاتبو سيرته بأنهم كانوا أصدقاءه أو تلاميذه(2): وتعلم العرب فى مصر على يديه ودرسوا معجم الجوهرى بفضل شرحه، رغم أنف بعض المدّعين الذين كانوا يتهمونه بعدم اعتماده على النص الأصلى، ولكن على نسخة تحتوى على أجزاء منتحلة(3): ويبدو أنه كان تشهيراً حيث أن ابن القطاع كان قد درس هذا الكتاب على يد ابن عبد البر فى صقلية. ولما مات فى شهر صفر عام خمسمائة وخمسة عشر (أبريل ومايو ١١٢١) فى القاهرة القديمة(4)، دفنوه بجوار

(1) قارن بين: عماد الدين وابن خلكان والذهبى والسيوطى.

(2) كل من الذهبى فى سيرة نصرون بن فتوح بن حسين خرزى، والسيوطى فى سيرة إسماعيل بن على بن مكشار، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٦٤٨ و٦٧٤، يذكران أن هذين النحويين كانا رفيقين لابن القطاع، ويقال أن الثانى ذاعت شهرته بفضل الأديب الصقلى. ويذكر السيوطى فى تراجم أسد بن على بن معمر، حسينى، أنه تتلمذ فى الحديث على يد ابن القطاع، والشئ نفسه فى سيرة على بن عبد الجبار بن عبدون، اللغوى والأثرى الكبير، **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٦٧٣، ٦٧٧.

(3) السيوطى، الموضع المذكور، وكان أى كتاب يقرأ فى مدرسة عامة بتصريح من مؤلفه أو من ينيبه عنه، وهكذا أيضاً فيما بعد. وبخصوص معجم الجوهرى روج أدباء مصر حينئذ أن ابن القطاع، عندما رآه غير معروف وتلح البلاد فى الطلب عليه، قد ابتدع سلسلة التصاريح. ومن هنا ذهبوا إلى أنه رجل ذو ضمير «متساهل جداً» فى هذا الشأن وكذلك نحى السيوطى هذا المنحى وهذا ما يفسر الاتهام «بالتسيب فى الاسناد» الذى نقرأه فى شكل تلميح عند ابن خلكان. وكان معجم الجوهرى قد نُشر فى نيسابور بخراسان عام ٣٩٠ (١٠٠٠)، وتوفى المؤلف عام ٣٩٣ أو ٣٩٨.

(4) وردت سيرة على بن القطاع عند: ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ترجمة م. دى سلان إلى الإنجليزية، المجلد الثانى، ص ٢٦٥ و٢٦٦، والذهبى، **انباء النحاة**، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٦٤٦، والسيوطى، **طبقات اللغويين** المرجع المذكور، ص ٦٧٦. كما يشير إليها إشارة عابرة عماد الدين فى **الخريدة**، المرجع المذكور، ص ٥٨٩، ويضيف أنه عرف فى مصر أحدهم عرفه فى حياته، وأنه عثر على لوح مكتوب بخط يده عام ٥٠٩. راجع أيضاً أبا الفدا فى *Annales Moslemici*، عام ٥١٥، المجلد الثالث، ص ٤٦٢.

الإمام الشافعى(1).

ومثلما تفوق ابن القطاع بين الأدباء العرب فى صقلية، كان أيضاً أكثرهم كتابة عن شؤون وطنه؛ فقد كتب نصاً فى تاريخ صقلية، فُقد بعد ذلك(2)، ونشر هنا وهناك لمحات من تراجم ومن معلومات جغرافية وفى مختلف المعارف عن البلاد(3)، كما جمع مختارات من الشعر الصقلى بعنوان **الدرة الخطيرة فى المختار من شعر شعراء الجزيرة**: ويتبقى لنا منها الفقرات التى حازت إعجاب عماد الدين الأصفهانى، وتضم أشعاراً لثلاثة وأربعين شاعراً(4) من بين مائة وسبعين كان ابن القطاع(5) قد اختارها، ويبدو أنه كتب سيرة كل واحد منهم حيث ضم بينهم أيضاً سيرته الذاتيه(6). وطبقت شهرة الأعمال اللغوية وتاريخ الآداب الآفاق فى المشرق وأسبانيا. وعلى حد قول ابن خلكان انتزع **كتاب الأفعال** المرتبة الأولى من كتاب الأسبانى ابن قوطية(7)؛ وكتاب **صناعة الأسماء والأفعال والمصادر**، بمعنى

(1) السيوطى، المرجع المذكور، ص ٦٧٧.

(2) حاجى خليفة، **المعجم البيبلوغرافى**، طبعة فلوجل، المجلد الثانى، ص ١٣٥، رقم ٢٢٤٣، والسيوطى، المرجع المذكور، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٦٧٧. ويبدو أن المخطوط وقع بين يدى ياقوت. راجع **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ١١٥.

(3) راجع ص ٤٤١ فى الفصل السابق وص٥٠١ ـ ٥٠٢ فى هذا الفصل. ويبدو أن ابن القطاع قد أورد كتابة جميع أسماء الأماكن فى الجزيرة. وفضلاً عن اسم صقلية المذكور آنفاً، هناك اسم قصيره *(Pantellaria)* فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ١٢٤.

(4) **الخريدة**، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، الفصل ٦٣ § ٣، ص ٥٨٩ ـ ٥٩٨.

(5) حاجى خليفة، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ١٣٥، رقم ٢٢٤٣. ويشير إليه المؤلف نفسه فى المجلد الثالث، ص ٢٠٣، رقم ٤٩٣٥، وابن خلكان والسيوطى، الموضعان المذكوران.

(6) ينقل المقرى فى *Analectes sur l'histoire d'Espagne*، المجلد الأول، ص ٦٣٤ فى النص العربى، فقرة للمؤرخ ابن سعيد الذى حين ذكر ترجمته الذاتية تذرع بمثال ثلاث كتاب بينهم ابن القطاع.

(7) ابن خلكان والسيوطى، الموضعان المذكوران، وحاجى خليفة، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٣٧٣، رقم ١٠٢٥. وتبدو مخطوطة الاسكوريال رقم ٥٧٣ نسخة من هذا العمل ترجم كازيرى عنوانه إلى *"Liber Verberom tripartitum que"* ولعل الأمر يتعلق «بالأفعال الثلاثية»، وهنا يؤكد أن ابن

أنه أعطى إطاراً عاماً للصيغ النحوية، امتدحه أيضاً ابن خلكان، ولعل المؤلف أضاف عليه ما يقرب من مئة صيغة وجدها متناثرة فى المعاجم ولدى الكتاب، ويبدو أن هذا الكتاب كان آخر أعمال(1) المؤلف. وفى المعاجم خلف لنا تعليقاً على الجوهرى(2)، **وتثقيف اللسان**(3)، **وكتاب السيف**، وهو معجم للأسماء والصفات التى يسندها العرب لذلك السلاح(4)، وكتاب **الترحال والتجوال**، وهو مرتب أيضاً ترتيباً أبجدياً ويبدو أنه قائمة بالأفعال التى تعنى هذا أو ذاك(5)، **وكتاب صيغ التعجب**(6).

القطاع كان *Domicilio Cordubensis*. ولما تحدث كازيرى بعد ذلك عن كتاب نظم الشعر الذى سنتناوله حالاً، روج أنه *Origine siculus patria Hispalensis*، وأخطأ أيضاً نقل الاسم. ومن هنا جاء اسم ابن القطاع وابن القطاع عند دى جريجوريو فى *Rerum Arabicarum* ص ٢٣٩. ولم يقع كازيرى فى أى لبس فى التمييز بين الأب والابن، ولكنه كتب نفس الاسم بحروف مختلفة. ونظراً لأننى لم أطلع على المخطوطتين فلا أدرى ما إذا كان بهما ما يبعث على إفتراض إقامة ابن القطاع فى قرطبة وأشبيلية، وليس مستحيلاً أن يكون قد ذهب إلى أسبانيا قبل مصر. ولكن كازيرى اعتاد منتهى التساهل فى نسب كتاب إلى أسبانيا، ليست لهم بها أية صلة.

(1) ذكره ابن خلكان والسيوطى. وكان هذا العمل فى متناول يد حاجى خليفة؛ حيث ينقل عنه أولى كلماته كما هى عادته. وينقل أيضاً فقرة من المقدمة يذكر فيها ابن القطاع الثلاثمائة وثمانى شكل من أشكال الأسماء، بين أسماء وصفات ذكرها النحوى الشهير سيبويه، كما ذكر إضافات آخرين وإضافاته هو فى النهاية. وعن المصادر، أو المصادر المستخدمة أسماءً كما نقول فى لغتنا **الذهاب والعمل**، فكان لها ست وثلاثين صيغة زادها ابن القطاع إلى مائة. وأتم هذه الدراسة فى رجب عام ٥١٣. حاجى خليفة، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ١٤٦، رقم ٣١.

(2) السيوطى، الموضع المذكور، وحاجى خليفة، المصدر المذكور، المجلد الرابع، ص ٩٤، رقم ٧٧١٤.

(3) حاجى خليفة، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ١٩٠، رقم ٢٤٢٩. بيد أنه فى **المعجم البيبليوغرافى**، النص العربى طبعة وستنفيلد، ص ١٢٦، يسند النواوى هذا العمل إلى صقلى آخر هو أبو حفص عمر بن خلف بن مكى. كما يذكره ابن شباط عند الحديث عن صقلية دون أن يشير إلى اسم المؤلف، **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٢١٢.

(4) حاجى خليفة، المرجع المذكور، المجلد الخامس، ص ١٠٢، رقم ١٠٢٠٧.

(5) المرجع المذكور، المجلد الخامس، ص ١٥١، رقم ١٠٤٩٢.

(6) المرجع المذكور، المجلد الخامس، ص ٤٤، رقم ٩٨٥٣.

وكتب مبحثين فى نظم الشعر(1)، وتعليقاً على شعر المتنبى(2). ويبدو الموجز الذى يحمل عنوان **كتاب القصار** معجم لتراجم طائفة من الكتاب(3)؛ كما يعد دراسة فى تاريخ الأدب كتاب **مختارات لأفاضل العصر**(4)، وكتاب **لمح المُلَح** مختارات من الشعراء الأسبان(5). ومكانة هذه الأعمال لدى العلماء المسلمين تظهر فى تقريظ ابن خلكان الذى أطلق عليه «أمير الآداب وحجة فى أمور اللغة»، كما تشهد بها الأخبار التى كثيراً ما ينقلها عنه ابن خلكان نفسه، وعماد الدين، وياقوت والمؤرخ ابن سعيد والموسوعى شهاب الدين عمرى والفيروزبادى فى

---

(1) أحدهما بعنوان: **الشافى فى القوافى**، ونجده عند حاجى خليفة، المرجع المذكور، المجلد الرابع، ص ٧، رقم ٧٣٨٤. والآخر موجود فى الأسكوريال بعنوان: *Eloquente prosodia in compendio che (tutto) abbraccia*. **المجمل الشامل فى العروض**، انظر كازيرى **المكتبة العربية - الصقلية**، المجلد الأول، ص ٨٢، مدونة ٣٢٩.

(2) فهرست المخطوطات العربية فى المتحف البريطانى، الجزء الثانى، ص ٢٨١، رقم ٥٩٧.

(3) حاجى خليفة، المرجع المذكور، المجلد الخامس، ص ١٣٦، رقم ١٠٣٩٥. ويترجم الناشر العالم *"Liber de Palatiis eorum nominibus et naturæ descriptione, alphabetice dispositus"* مفترضاً وجود خطأ فى الضمير **هم** الذى تكرر مرتين فى النص، والذى لا يطلق إلا على الأشخاص، كما حسب قصار جمعا «لقصر» وهى جمع غير مألوف وإن كان جائزاً. وعلاوة على ذلك يبدو لى أن وصف القصور دون الإشارة إلى بلادها عمل بعيد عن اهتمامات ابن القطاع. ولكنى أميل إلى الظن فى قراءته **هم** حيث أجد هذا الضمير فى مخطوطة باريس، كما أعتبر قصار جمعا «لقصير، مختصر، قليل الموهبة، ناقص» كما نقرأ فى قاموس منينسكى. ولذا يمكن اعتباره معجم تراجم «صغار الكتاب» حسبما نسميهم. كما أود أن أنبه إلى أنه فى أغلب الأحيان يكون من المستحيل ترجمة عناوين الكتب العربية ترجمة دقيقة عندما لا نعلم موضوعها أو لا نجد بين أيدينا الكتاب كاملاً لكى نفهم تلك الألغاز.

(4) حاجى خليفة، المرجع المذكور، المجلد الرابع، ص ١٤٥، رقم ٧٩٠١، والمجلد السادس ص ١٠٩، رقم ١٢٨٦٧. ويذكره أيضاً مؤلف **مسالك الأبصار**، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، النص، ص ٦٥٦. وبدى لى من الأفضل أن أذكر الكلمة الأولى بمعناها الأصلى مُلَح. ويستخدمها العرب تقريباً مثلنا بمعناها المجازى «الدرر الأدبية والتعبيرات الحاذقة» إلخ.

(5) ابن خلكان، الموضع المذكور، والمجلد الثالث، ص ١٩٠ فى الترجمة الإنجليزية نفسها. وينسب حاجى خليفة العمل بالعنوان على هذا النحو إلى آخر، بينما لا يورد إشارة إليه فى ترجمة ابن القطاع الأخرى.

القاموس(1) وغيرهم من كتاب التراجم الآخرين. ونلمس فى الحقيقة من هذه الفقرات أن ابن القطاع كان لغوياً دقيقاً مدققاً، وكاتباً أنيقاً، أرفع مما كان يسمح به عصره. إلا أنه كان شاعراً متواضعاً ويبدو لنا هذا من الأجزاء التى تبقت لنا من القصائد الكثيرة التى قالها؛ ومع هذا فهو يرسم أحياناً الصورة الشعرية ببساطة عذبة(2) حين ينأى عن الخصومات والإيماءات. وإذا نظرنا إلى تعليمه أكثر من أعماله الأدبية، سوف يظهر لنا أنه بدأ بدراسة الآداب اليونانية الأولى. ويبدو أنه يستتكر هنا نمط القصيدة العربية(3) ويفصح هناك عن تقديره لروعة أعمال العالم القديم(4).

وبرز فى مختلف فروع فقه اللغـــة علماء سبق أن ذكرناهم مثـــل: ابن الكونى اللغـــوى(5)، وأبو بكر محمد النحـــوى واللغـــوى(6)، وابن التازى النحوى وكاتب الرسائل والشاعر(7)،

---

(1) انظر القاموس العربى لفريتاج، المجلد الثالث، ص ١٧٠.

(2) يؤكد ابن خلكان فى الموضع المذكور أن ابن القطاع خلف أشعاراً كثيرة ويذكر ثلاث فقرات منها، ولا نعثر على أى منها فى الأجزاء التى حفظها لنا عماد الدين فى **الخريدة**، مخطوطة باريس، *Ancien Fonds*، ١٣٧٥، من الورقة ٢٠ الوجه الثانى إلى الورقة ٢٢ الوجه الأول، وفى مخطوطة المتحف البريطانى *Rich 7593*. ويذكر السيوطى فى **طبقات اللغويين**، عند نهاية ترجمة ابن القطاع ١٣ بيتاً آخر نقلتها من مخطوطة الأستاذ يون لى، ولكن هذه الأبيات غير موجودة فى مخطوطة باريس. ولدينا فى **الخريدة** أول أبيات إحدى قصائده فى مدح الأفضل، وشذرات من خمس قصائد أخرى.

(3) أظن أن الثـلاثة أبيـات التى نقلها ابن خلكـان تلمـح إلى هذا، المـرجع المـذكور، *"Consume not this life ec."* فى الترجمة الإنجليزية لـ م. دى سلان، المجلد الثانى، ص ٢٦٦.

(4) من **الخريدة**، مخطوطة باريس المذكورة، الورقة ٢١ الوجه الثانى. («يتماثل مع عصرنا عصر الأقدمين الذين ولوا، عصر تباهى بألوان وملامح لا يستهان بها وتحسبنه صندوقاً من ذهب، ملؤه ياقوت منثور غير منظوم»). ولنفهم الكناية جيداً يلزم أن نعرف أن الكلمتين اللتين ترجمتهما «منثور» و«منظوم» ترميان أيضاً إلى النثر والشعر.

(5) الاستشهاد فى ص ٤٧٦.

(6) انظر ص ٤٨٩ و٤٩٠.

(7) الذهبى، **أنباء النحاة**، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٦٤٧. وانظر له الاستشهاد الآخر هنا آنفاً فى ص ٤٨٣.

وابن الفحام صاحب تعليق على المقدمات النحوية لابن ببشاد(1)، وعمر أو عثمان بن على من سيراكوزا تلميذ ابن الفحام ومؤلف كتب فى اللغة والنحو ونظم الشعر، وكان أستاذاً فى القاهرة القديمة ومعلماً لعالم اللغة المصرى عبد الله بن براء(2). ويذكر الذهبى ودون إشارة إلى العصر الذى ينتمى إليه طاهر بن محمد بن القبانى، وهو صقلى من قبيلة تغلب، لُقّب بالوزير، وهو أكبر علماء عصره فى اللغة العربية وبلاغتها وفن كتابة النثر ونظم الشعر، وكان الأدباء من كل البلدان يجلونه ويقصدونه ليتعلموا منه ويجدونه بحراً من العلم(3): ولكن لم يتبق عنه أثر آخر سوى تلك الأربعة سطور التى ذكرها كاتب سيرته، واثنان خصصهما لابنه على الشاعر والعالم فى اللغة وفى روايات العرب القديمة وفى كل دراسة ذات صلة بالآداب(4). وهناك أيضاً أسماء بارزة مثل يعقوب بن على الرنيدى عالم اللغة والشاعر(5)، وأبو محمد الملقب بدميعه، وهو نحوى وشاعر وتربوى ضليع(6)، وأبو عبد الله محمد بن سدس النحوى وكاتب النثر والقوافى(7)، وأبو الفضل على بن حسن بن حبيب اللغوى الكبير والشاعر الجيد(8)، وعبد الله بن أبى مالك مصيب من قبيلة قيس، قمة أعلام اللغة وعلى حد قول الصـفدى وُلد موهوباً فى الشـــعر وأكثر من هذا عـــالماً فى النثر ونظم الشعر(9)، وأبو حسن على بن محمد من كركودة

---

(1) الموضع نفسه ٤٨٦.

(2) الموضع نفسه ٤٨٨. ذكر الذهـبى اسم عـمر بالنسب والظروف نفسها فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٦٤٧؛ أما المقريزى والسيوطى فيذكران اسم عثمان، ص ٦٦٣ و٦٧٦.

(3) الذهبى، المرجع المذكور، ص ٦٤٥.

(4) المرجع نفسه، ص ٦٤٦.

(5) المرجع نفسه، ص ٦٤٨.

(6) الموضع نفسه؛ والسيوطى ص ٦٧٣ عند ذكر ياقوت.

(7) الذهبى، المرجع المذكور، ص ٦٤٧.

(8) المرجع نفسه، ص ٦٤٦؛ والسيوطى ص ٦٧٧. وقد صوبت الاسم طبقاً للسيوطى.

(9) السيوطى، ص ٦٧٥.

العالم(1)، وعلى بن عبد الله الجاتينى(2)، وكلهم صقليون ومن فترات غير معروفة. وبرز بين كثير من المعلقين على شعر المتنبى فى القرن الحادى عشر أو الثانى عشر ابن فُريچه وأبو حسن بن أبى عبد الرحمن وكلاهما صقليان(3).

وعندما ننتقل من التعليم والنقد إلى الأثر الحقيقى للفن نجد أبا حفص عمر بن خلف بن مكى عالماً لغوياً وخطيباً معاً، وقد سبقت الإشارة إليه مع علماء السُنة والشريعة(4). وكان قد فر إلى أفريقيا حين تبددت أية آمال له فى النجاة بعد انتصارات النورمان المتوالية وربما أيضاً اجتياح بالرمو، وفى تونس(5) حصل آنذاك على منصب قاض. وينسب البعض إلى ابن مكى كتاب **تثقيف اللسان** الذى ينسبه آخرون إلى ابن القطاع(6)، ويمكن الظن بأنهما عملان بنفس العنوان، وأن ابن القطاع قد حاكاه ليتبارى مع ذلك اللغوى القدير الذى يقول عنه «إن كل لسان فى كل مكان يتغنى بعظمته وإنه لم يتنازل لابن نباتة

(1) **المعجم**، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ١٢٤.

(2) **المعجم**، المرجع المذكور، ص ١١٠.

(3) نلاحظ فى أحد دواوين المتنبى المنسوخ عام ١١٨٤ من التقويم الميلادى أسماء المعلقين فى الحاشية، وبينهم ابن فُرجة الصقلى (*Mines de L'Orient*، المجلد الرابع، ص ١١٢). وفى إحدى نسخ ذلك الديوان بحواش مشابهة فى المتحف البريطانى (فهرست الشرق، الجزء الثانى، ص ٢٨١ رقم ٥٩٧) ورد من بين أسماء المعلقين أبو حسن الصيقلى (الأصح الصقلى) وابن فُريچه دون إضافة اسم الصقلى. وكتب هذا الأخير عملين دفاعاً عن المتنبى: جناية ابن جنى، والانتصار على أبى الفتح. وأبو حسن عبد الرحمن قد يكون هو ذاته المذكور فى ص ٥٠٩ باسم على.

(4) ص ٤٩٤ و٤٩٩.

(5) ابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ترجمة م. دى فرچيه، ص ١٨٣.

(6) انظر ص ٥٢٠. **تثقيف اللسان** لابن مكى، ذكره النواوى فى معجم **التراجم**، النص العربى، ص ١٢٦، بخصوص بدائل اسم العَلَم بين أبراهام وإبراهيم، إلخ. ونسب ابن خلكان الكتاب لابن مكى، ترجمة م. دى سلان، المجلد الأول، ص ٤٣٥، وكذلك السيوطى، وباختلاف بسيط عن هذا حاجى خليفة أيضاً، طبعة فلوجل، المجلد الثالث ص ٦٠٤، رقم ٧١٨٩.

عن قدره فى البلاغة، وإنه ترك نماذج من الشعر»(1). بل إن الذهبى يضعه فى مرتبة أعلى من شيشرون العرب، ويضرب به مثلاً نادراً من نوعه إذ يضيف أنه كان معتاداً على إلقاء خطبة جديدة من فوق المنبر كل يوم جمعة(2). ولكن فقرات شعر ابن مكى تصطبغ كثيراً بالوعظ والخطابة؛ إذ تصور فقط رذائل الطبيعة البشرية، وتدعو إلى الاعتزال والأنانية، ولا تصدر عن إلهام شاعرى(3)، ومن هنا يساورنى الظن فى أنه قالها فى معرض وعظه.

ويتناقض مع تشدد ابن مكى الصوفى، ما نجده من عفوية الفوارس الكرام فى شعر هاشم، أمين السر: ويتناوب هذان الاتجاهان مع تباين ضئيل بينهما، عند الشعراء العرب فى صقلية. وعلى حد قول ابن القطاع كان أبو القاسم هاشم بن يونس كاتباً مرموقاً للرسائل والمُلَح والروايات والمقامات(4): ذلك الجنس الأدبى، الذى اشتهر به الحريرى. وبعد أن ضاعت كتابات هاشم النثرية ومعظم أشعاره تبقت لنا عدة مقطوعات من بيتين أو ثلاثة تكفى مع ذلك للدلالة

(1) **الخريدة**، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٥٩٧. ولا يكتفى عماد الدين بذكر ابن القطاع فقط، بل يبدو أنه ينقل عنه هذه الفقرة من النثر المنظوم. وذاعت شهرة عبد الرحيم بن محمد بن نباته فى بلاد ما بين النهرين فى النصف الثانى من القرن العاشر. ويذكر العرب الأسقف قس وابن نباته مثلما نذكر نحن اسمى شيشرون وديموستنيس: وبعيداً عن التباين بين الخطابة العربية واليونانية واللاتينية فإن ابن نباته كان فى الحقيقة خطيباً عظيماً جداً. ويبدو لى هذا من خطبه التى تتبعتها فى مخطوطة مكتبة باريس، *Ancien Fonds*، ٤٥١. انظر ترجمة ابن نباته فى ابن خلكان، الترجمة الإنجليزية، م. دى سلان، المجلد الأول، ص ٣٩٦.

(2) الذهبى، **أنباء النحاة**، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٦٤٦ و٦٤٧. ويضاف إلى لمحات الترجمة عند الذهبى وفى **الخريدة**، ما يذكره السيوطى، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٦٧٧.

(3) فى **الخريدة**، مخطوطة باريس، *Ancien Fonds*، ١٣٧٥، ورقة ٤٥ الوجه الأول وما بعدها، وفيها اثنى عشر مقطوعة شعرية لابن مكى، كونت رأيي على أساسها.

(4) **الخريدة**، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٥٩٥. ترجمت كلمة روايات إلى "*racconti*". وأحسب أنه كانت بالفعل سائدة لدى العرب فى القرن الحادى عشر كتابة روايات نثرية من الخيال، أطلق عليها روايات مثلها مثل روايات الأحداث الحقيقية.

على أنه كان تابعاً لمدرسة العرب الكلاسيكية فى الشعر. ونستشف منها أيضاً لحظة بسالة فى الحرب الأهلية: فعندما رأى الشاعر قومه مرتبكين ولا يفكرون واجه بمفرده عدواً متجبراً وهو أبا نصر، ووجه بعد ذلك اللوم لقومه الجاحدين. وفى مواضع أخرى يشير إلى مغامراته العاطفية مدعياً أنه ذات ليلة ساحرة مثل الشعر الأسود، رحل إلى ملتقى، وحيداً تماماً، بعد أن تجرد من سيف كبير الأمناء، القاطع، وسهم الكاتب، الروديني، ومن أشياء أخرى باردة[1]. وسبق أن ذكرنا اسم ابن التازى، كاتب الرسائل الذى نال الثناء[2]. وندرج فى قائمة كتاب النثر الكتبة، أو لنقل كُتّاب الديوان العمومى، الذى كان يتطلب معرفة أدبية غير عادية لدى العرب كى يصيغوا تلك المراسيم المحشوه بالنثر المقفى، التى تنفرد أحياناً بشكلها وأحياناً أخرى، تتكلف فى اللغة والأسلوب لدرجة أنها تبدو نتاج شعب آخر ومن عصر آخر لاختلافها عن الكتابات التاريخية أو العلمية. ومن الواضح أنه ارتفع مقام الكاتب أبى صواب من كاستروجوفانى الذى أشار إليه ياقوت فى الأخبار الجغرافية عن تلك المدينة[3]، وأبى الحسن على بن أبى اسحاق إبراهيم بن الودانى الذى رأس أحد الدواوين العامة فى صقلية[4]. ومن بين شعراء ابن القطاع سمى كاتباً كلا من أبى على أحمد بن محمد بن القاف[5]، وأبى على بن حسين بن خالد[6]، وأبى

---

(1) **الخريدة**، المخطوطة المذكورة، ورقة ٤٠ الوجه الثانى وما بعدها. وعددها تسع فى إحدى القصائد وأحد عشر فى أخرى، مقطعة إلى بيتين أو ثلاثة أبيات، ثم مقطوعة من سبعة أبيات قصيرة، وأبيات هجاء عمل على نقشها على خنجر.

(2) راجع فيما سبق ص ٤٨٣ و٥٠٥.

(3) **معجم البلدان**، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، تصويبات وإضافات تلى المقدمة، ص ٤٣.

(4) ياقوت **المشترك**، طبعة وستنفيلد فى مادة **ودان**؛ **الخريدة**، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٥٩١.

(5) **الخريدة**، مقتطفات من **الدرة** لابن القطاع، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٥٩٢.

(6) الموضع نفسه.

بكر محمد بن سهل الملقب برزيق[1]، وأبى عبد الله محمد بن على بن الصباغ صاحب ابن رشيق[2]، وأبى فذ محمد بن حسين بن كركودى وهو كاتب غزير الإنتاج فى الشعر والنثر[3]، وابن قرنى عالم الفلك والحساب[4]، وعبد الجبار بن عبد الرحمن بن سيرين[5]، وابن كونى اللغوى والمساح وعالم الفلك[6]، وأبى حفص عمر بن عبد الله[7]، والقاضى أبى عبد الله محمد بن قاسم من قبيلة لخم[8]، وأبى عبد الله محمد بن العطار[9]، وأبى حسن على بن حسن بن الطوبى كاتب النثر الرفيع والشاعر[10].

ومن بين العديد من النوابغ الذين عظموا شأن صقلية الإسلامية توجه القليلون إلى الاهتمام بالتاريخ. والوقائع التاريخية الوحيدة التى تبقت لنا حقاً محررة بالفعل بالعربية، ولكن التفكير فيها كان بأسلوب لغة أخرى؛ كتبها أحد المسيحيين أو أبناء أحد مسيحيى بالرمو عاش فى منتصف القرن العاشر، وربما كان قريباً من أمراء بنى كلب: لأن التواريخ حسب تقويم القسطنطنية والأسلوب الضعيف واللغة الركيكة، والتراكيب العامية والتحفظ فى المشاعر الدينية والحذر الذى تتسم به أساليب كتاب البلاط والإيجاز فى *الاستهلال* (٨٢٧) والبراعة فى الخاتمة (٩٦٤) كلها ملامح تكشف *لنا* عن أحوال المؤلف دون اسمه[11]. وقد فقد تاريخ صقلية

---

(1) الموضع نفسه.

(2) المرجع المذكور، ص ٥٩١.

(3) **الخريدة**، إلخ، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٥٩٥.

(4) الموضع نفسه، راجع هذا الفصل ص ٤٧٦.

(5) المرجع المذكور، ص ٥٩٥.

(6) المرجع المذكور، ص ٥٩٦. راجع هذا الفصل، الموضع المذكور.

(7) المرجع المذكور، ص ٥٩٨.

(8) الموضع نفسه.

(9) الموضع نفسه.

(10) المرجع المذكور، ص ٥٩٠.

(11) *Cronica di Cambridge*. انظر المقدمة فى الجزء الأول، ص ٤٧، رقم ٧، والفصل العاشر من الكتاب الثالث، ص ٢١٠ من هذا المجلد.

لابن القطاع(1) بينما تداولت أيدى بضعة علماء حتى القرن الثالث عشر كتاب التاريخ الذى كتبه الفقيه أبو على حسن بن يحيى ، ولدينا منه أجزاء توضح الملامح الجغرافية(2)، حتى إنه يبدو أن أحداث مالطة خلال حرب منياتشى قد انتزعت من هذا الكتاب؛ ومن هنا قد ينتسب المؤلف إلى منتصف القرن الحادى عشر(3): وينبغى القول إنه صقلى نسبة إلى مولده أو إقامته وإلى الموضوع الذى اختاره ودقة الأخبار المحلية التى أوردها. ولا نستدل على عصر أو وطن أبى زيد الجمرى البربرى الأصل وصاحب تاريخٍ آخر لصقلية(4). كما انكب على بن طاهر الذى سبق ذكره على تاريخ العرب القديم، الذى لولاه لما أمكن فهم شعرائهم الكلاسيكين فهما جيداً(5). وكتب ابن حمديس الذى كان من سيراكوزا **تاريخ الجزيرة**(6).

وعندما نأتى إلى الشعراء فإن عددهم وخشية الرتابة يصرفانا عن تناول كل واحد منهم على حدة، باستثناء الكبار منهم أو من يكشف شعرهم عن أحوال وعادات البلاد. وسنتناول أولاً من تمرس فى صياغة

(1) ص ٥١٩.

(2) راجع التفاصيل فى الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب، ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠ وما بعدها.

(3) الفصل الثانى عشر من هذا الكتاب، ص ٤٣٣. والقزوينى الذى يذكر هذه الواقعة دون أى استشهاد عليها يستند فى موضع آخر (**عجائب المخلوقات**، طبعة وستنفيلد، النص، ص ١٦٦) إلى **تاريخ صقلية** لأبى على حسن بن يحيى، ويبدو أنه لم يكن يعرف كتاب تاريخ آخر. بل يمكن الظن بأن هاتين الفقرتين مستمدتان بأكملهما من ياقوت الذى كثيراً ما يستشهد بذلك التاريخ فى **معجم البلدان**، **المكتبة العربية. الصقلية**، ص ١٠٩، ١١١، ١١٥، ١١٨. ولا توجد فى الحقيقة فى نسخ **المعجم** الثلاث المعروفة لى مادة مالطة، ولكن ربما وقع بصر القزوينى عليها فى نسخ أخرى أفضل.

وقد يبدو للوهلة الأولى أن أبا على حسن يمكن أن يكون هو ذاته ابن رشيق، الذى كان له نفس الاسمان الأولان. ولكن يدحض هذا الزعم لقب العائلة وهو ابن يحيى، وصفته كفقيه، ثم شهرة ابن رشيق ذاتها. فلا أحد يشير إلى تاريخ صقلية بين أعماله المشهورة جداً. وإذا كان أبو على حسن بن يحيى كما يبدو هو راوى واقعة مالطة فقد كتب فى الفترة من عام ١٠٤٩ إلى عام ١٠٩١، كما ذكرت فى موضعه.

(4) حاجى خليفة، طبعة فلوجل، المجلد الثانى، ص ١٣٥، رقم ٢٢٤٣.

(5) انظر هنا ص ٥٢٣.

(6) حاجى خليفة، طبعة فلوجل، المجلد الثانى، ص ١٢٤ رقم ٢١٩٦.

الشعر الذى تميز به العرب وهو القصيدة، وتقوم على قافية واحدة، حيث ينظم الشاعر مفاخره، أو مفاخر قومه أو ولى نعمته وقد يستطرد إلى الغزل والمناجاة، والوصف الذى يصور حياة الفارس المغامر فى ترحاله تماماً كما تعكس مادة ملاحمنا بدايات الحركات القومية. ولم تولِّد مركزية الخلافة غير الراسخة الملحمة لديهم، حين لم يكن هناك شعب عربى خالص بمعنى الكلمة. بينما تواءمت قصيدة ما قبل الإسلام، بمضمونها وشكلها، مع ما كان يتأجج فى صدور الدول الإسلامية التى انتشرت فى القرن العاشر والحادى عشر، وكانت تُلقى فى بالرمو فى بلاط يوسف (٩٩٠ ـ ٩٩٨)، ينشدها الشعراء الأفارقة(1).

وتميز الجيل التالى فى صقلية بالعديد من شعراء القصائد، ويأتى فى المقام الأول، نظراً لسنه وعلو قدره الفنى، أبو الحسن على بن الحسن ابن الطوبى(2) الذى استحق الثناء كذلك لكتاباته النثرية البليغة كما سبق أن أشرنا(3). جاب ابن الطوبى فى الشرق فى أوائل القرن الحادى عشر، وعنى بأمور سياسية وانخرط فيها(4) وربما عمل بالشئون الإدراية أيضاً وكان علماً فى بلاط المعز بن باديس(5) الذى مدحه فى إحدى قصائده(6). وتذكرنا قصائده الأخرى، خاصة أشعار الغزل، بعبق يكاد يضاهى عبق الشعر اليونانى والإيطالى، حيث تتضمن لحظات من الهوى

(1) الفصل السابع من هذا الكتاب، ص ٣٣٨ وما بعدها من المجلد.

(2) اسم مشتق من قلعة طوب فى شمال أفريقية، التى يرجع إليها أصل أبيه أو أحد أجداده. واسم المكان هذا موجود فى **رياض النفوس**، ص ١٩١ فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، وأيضاً فى **لب اللباب** للسيوطى، طبعة ليدن.

(3) ص ٥٢٧.

(4) فى إشارة عماد الدين التى ربما أخذها عن ابن القطاع ورد فى مديحه صفة «سند السلاطين».

(5) الموضع المذكور.

(6) **الخريدة**، مخطوطة باريس، *Ancien Fonds*، ١٣٧٥، ورقة ٣٠ الوجه الأول.

والصـــورة التلقائية الحية التى لا تبدو من إلهام ربات الشعر العربى(1). واعتاد أن يتغنى بالشباب وبالنساء والخمر والنجوم والزهور، وأن ينعى الملذات المفقودة فى سنى النضج دون أن ينتقل أبداً إلى الإسفاف المنفر الذى تميز به غيره من الشعراء العرب، حيث إن رقة أحد أشعاره اللاذعة جعلته يبدو من زمان أوراتسيو أو چوڤينالى تعكس بالتأكيد سخرية بالرذيلة وليس اعترافاً بها(2). وموضوعات شعر ابن الطوبى، وأسلوبه وحتى بعض أفكاره وكلماته نلمحها فى شعر ابن حمديس الذى اتخذه؛ بكل تأكيد، نموذجاً له ثم تقدم عليه.

ولمع فى تلك الفترة أو بعد ذلك بعشر سنوات الكاتب ابن الصباغ صديق ابن رشيق، وربما كان من بالرمو ووطيد الصلة بالمعز بن باديس، وكان من المؤكد من الجمـــاعة الصقلية فى ثورة الأكحل؛ إذ نجـده يمدح فضـــائل قومه فى مواجهـــة البيزنطيين والكلبيين(3)

---

(1) **الخريدة**، المخطوطة المذكورة، ورقة ٣٠ الوجه الثانى.

ما أحسب السحر غير معناهـــا — والعنبر الجـــــون غير ريّاها
إنا جهلنــــــــا ديارهـــا فبـدا — من عرفها مـا بـه عرفناها (إلخ)
الموت أولى مثنى قضيت بهـــا — نحبى فمحيــــــاى فى محياها
وأغبط الماء حين ترشـــــــفه — إذ كان دونى مُقبِّـــلاً فاهـــا.

(2) نظراً لأننا لا نتمكن من إغفال الاتهامات الموجهة للمجتمع الذى نبحث فى تاريخه فقد نشرت فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٥٩٠ قصيدة الهجاء هذه، وأجدنى هنا مضطراً لترجمتها. ولكن لا يمكن الجزم بأن ابن الطوبى قد كتبها فى صقلية بدلاً من الشرق أو أفريقيا. «وبهذه الأبيات وصف (أحدهم) بارعاً فى صنعته:

وأحـــــور مـائل النظـــرات عنّى — دسست إليــــه من يسعى وسيطاً
فجـــــاء به على مهل وســــــتر — كما يســــــتدرج اللهب السّليطا

(3) راجع هنا ص ٥٢٧. وها هى معانى الأبيات التى نجدها فى **الخريدة** والمأخوذة ربما من إحدى القصائد، التى نقلت نصها فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٥٩١.

قومى الذين إذا السنابك أنشــأت — دون السحاب سحائباً من عثير
برقت صوارمهم وأمطرت الطُلى — علقـــــاً كثرثار الحبا المتفجر
الواترين فلا يقـــــــاد وتيرهم — والفــــــاتكين بحمير وبقيصر
والمــــانعين حمــــــاهم أن يُرتَعَى — والحاســــــمين لكل داء يعترى

بأشعار رصينة، تنطوى أحياناً على المبالغة. وقصائد أبو الفضل مشرف بن راشد فى الغزل راقية تفيض بالنغم وله ثلاث أو أربع قصائد ومؤلفات أخرى، وهو أيضاً لا تعوزه رصانة الكلمة ولا سمو الأفكار حين يتناول الحرب الأهلية، وربما بدايات حرب النورمان، وينشد وحدة صقلية تحت حكم رئيس واحد(1).

وبعد ذلك بقليل أنشد النحوى الصقلى أبو الحسن على بن عبد الرحمن بن أبى البشر قصيدة فى مدح ناصر الدولة بن حمدان، قائد

وكما نعلم جميعاً فإن حمير هو الجد الأكبر لسلالة اليمن التى ينتمى إليها بنو كلب. وقوم الشاعر هم جماعته أو مواطنيه. وأحسبه بالرمو حيث لُقب تحديداً بالصقلى ولأن ابن رشيق عندما نزل بمازارا كتب له رسالة قصـيرة من الشـعر موجـودة فى **الخريدة**، مخطــوطة باريس، *Ancien Fonds* ١٣٧٥، ورقة ٣٤ الوجه الثانى.

(1) **الخريدة** فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٥٩٣ و٥٩٤. وبعد استهلال إحدى القصائد التى ذكرها عماد الدين، وهو استهلال بديع، أترجم فقط الأبيات التى تشير إلى أحداث سياسية. يقول الشاعر بعد أن تخيل، بحكم الضرورة، رحلة قامت بها إحدى الفاتنات (وهل هى ميمونة؟) وصلت بعدها إلى التل حيث كان حارسها الأشم فارساً بالغ الحسن، يكمل كلامه قائلاً:

وأحور مكحـــول المدامـــع عاقنى — عن الصـــبر فاستولت عليه مهالكُ
رعى الله أكناف الجزيرة إن رعى — ســــوائمها عَضْبُ الغرارين باتك
يشيد أعاديه الحصونَ منيفـــةً — وهـــل منع الإفشين ما شاد بابك
وإنى لآتى الحق فيما أقولـــــه — وما أنا فيمـــــا يعلم الله فاتكُ
شهدتُ لقد حاز العُلا بيمينـــــه — غداة تصـــدَّاه الردَى وهو ضاحك
ليوث وغى أذكت خلال ضلوعها — لهيبـــــــأ أنارته لهنَّ الحسائكُ

وهنا ينتهى بطريقة غير مناسبة الجزء الموجود من القصيدة التى نذكرها لنرى الطباق البلاغى فى هذا البيت الذى يصف الموتى فى المعركة كما يقول عماد الدين.

فأقصاهمُ رضوانُ عن روح جنة — وأدناهمُ من نفحة النار مالك

ولا يلزم التنبيه بأن هذين الأخيرين هما ملكا العدالة الإلهية فى عقيدة المسلمين. وبابك المذكور فى البيت الثالث هو المتمرد على الجماعة الذى أشرت إليه فى الكتاب الثالث، الفصل الخامس، ص ١١٧ـ ١١٨ من هذا المجلد، وأفشين هو القائد التركى الذى هزمه. ولفظ «سوائمها» يبدو لى اللفظ الوحيد الذى يمكن أن يحل محل كلمة فى النص لا تفى بمعنى (**المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ٥٩٣، هامش ٨) وهى قد تتوائم مع سيد كاستروچوڤانى. وأخيراً فإن المحاربين الذين سقطوا بين يدى رضوان ومالك قد يقصد بهم المسيحيون.

مصر بل صاحب خليف(1)، كما قال قصيدة أخرى فى مدح الوزير ابن مدبر(2)، وبدت أولاهما تحفة أدبية فى تقدير الملك المنصور وهو أمير عالم، عاش فى القرن التالى(3). وهناك أيضاً أبو الحسن على بن عبد الرحمن الكاتب والنحوى والملقب بالبلنوبى نسبة إلى وطنه، وبالأنصارى نسبة إلى عشيرته(4)، الذى رحل عن صقلية فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر ولجأ إلى القاهرة حيث ماتت أمه فنعاها برثاء مفعم بالعاطفة والصور الشعرية. وله علاوة على هذا مؤلفات وجيزة وخمس قصائد، اثنتان منها فى مدح أسرة بنى موقفى، ولا نعلم ما إذا كانت أسرة صقلية أم من مصر(5)، وكان أحد أبنائها راعياً للبلنوبى: وأبيات القصيدة أبياتاً متواضعة تغلب عليها الصنعة(6). ولم يجاوز هذا المستوى فى

---

(1) **أخبار الملوك** لمالك منصور، أمير حماة فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٦١٢ و٦١٣. ويذكر النويرى اسم هذا الشاعر بالكامل. ونصر الدولة المذكور هنا هو ثانى حكام آل حمدان الذى حمل هذا اللقب، وعندما أضطر للقيام بعمل قائد الجيوش فى مصر جدد فى القاهرة نموذجى أمير الأمراء فى بغداد والمنصور فى قرطبة، وقُتِل فى النهاية فى عام ٤٦٥ (١٠٧٢).

(2) النويرى، **تاريخ مصر**، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، الموضع المذكور، فى الهامش. أنضم ابن مدبر إلى البلاط عام ٤٥٣، (١٠٦١). وتوافق الاسم والزمان يدفعنى إلى افتراض أن الشاعر قد يكون النحوى الذى تكلم عنه السيوطى وذكر أنه معلم عمر بن يعيش، المصرى الذى ألقى بدوره دروساً فى الإسكندرية عام ٤٩٨ (١١٠٤). **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٦٧٨.

(3) **أخبار الملوك**، الموضع المذكور.

(4) أى من عرب المدينة.

(5) الموقفى تعنى وافد من موقف، إحدى ضواحى البصرة. وأولى القصيدتين اللتين تذكران هذه العائلة تمدح نفراً يدعى محمد (الورقة ٢ الوجه الأول) والثانية تمتدح آخر يدعى أبو الفرج (الورقة ١٠، الوجه الأول) وربما كان الشخص الأول نفسه. وأستند إلى نسخة مخطوطة الأسكوريال التى أهداها لى كونت سيراكوزا.

(6) من بين العلماء العرب، يشير ياقوت فقط إلى البلنوبى، فى **المعجم**، **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ١٠٨، فى مادة بلنوبا، وناشر المئتين وستة وثلاثين بيتاً لهذا الشاعر والموجودة فى مدونة الاسكوريال، ٤٥٥ فى فهرست كازيرى،

الشعر اللغوى إبن القطاع، الذى سبق أن أشرنا إليه(1). أما مجبر بن محمد بن مجبر فلعلّه ارتحل عن صقلية فى صباه إلى مصر حيث درس بها وأقام فيها، وحاز تقدير النقاد العرب، وهو صاحب عدة قصائد أهدى إحداها إلى القائد أبى عبد الله الملقب بالمأمون، ولا أحسبه أحد ملوك دويلات صقلية. وتكشف لنا أبيات أخرى له، يهجو فيها أحد الشعراء المعدمين أو البخلاء، عن إعانة الخمسة دينارات التى كان البلاط الفاطمى يقدمها شهرياً لرجال الأدب. وتوفى هذا الشاعر قبل منتصف القرن الثانى عشر(2):

وقرأ هذا الناشر لقب العائلة وهو البلبونى وظن أن الأبيات مكتوبة فى مدح أمراء صقليين وخاصة فى ابن حمود. انظر دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٢٣٧، والملاحظة المدونة فى صدر مدونة الاسكوريال الذى نشرته فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٦٨٠ حيث ورد الاسم المذكور، بكل علامات الكتابة، بلنوبى. وهنا نقرأ أيضاً أن الفقيه أبا محمد عبد الله بن يحيى بن حمود الحازمى كان قد ألقى عام ٥١٣ (١١١٩) على الناشر أبيات البلنوبى تلك التى سمعها منه شخصياً، كما ألقى عليه عدة قطع من شعر ابن رشيق وشعراء آخرين غير صقليين. وابن حمود هذا لم يكن من عائلة العلويين التى حكمت بهذا الاسم فى أسبانيا وأتى فرع منها إلى صقلية، ولكنه كان من قبيلة حازمة التى كانت تنتمى إلى قبيلة نهد، ولذا فهى من سلالة قحطان. وها هى معانى بعض أبيات المرثية المذكورة:

يا أكرم الأمهات الطاهرات لقد   أودعت قلبى غليلا دونه النار

بينى وبينك بعد المشرقين على   قرب المزار، وما شطت بك الدار

(طاب ثراك، وأدامت رطبه سحب محملة بأمطار،

وإذ هى تنثر قطر بكائها، تبتسم هنا أجمل الأزهار.

«قولوا: هذى ماتت مسلمة، ولازمتها أذكار العشاء والأسحار،

«توقف عند الجامع الأقدم وسر للشمال ولا تنحنى ليسار).

(بتصرف ـ المترجم).

ذكر المقريزى الجامع الأقدم فى القرافة بجوار القاهرة فى كتاب **وصف مصر**، النص العربى، وطبع مؤخراً فى بولاق، المجلد الثانى، ص ٤٤٥، حيث يتناول جبانه القرافة والأصل اللغوى لتسمية الأقدم غير مؤكد، إلخ.

(1) ص ٥٢٢.

(2) **الخريدة**، فصل الشعراء المصريين فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٦٠٥

وربما كان آخر الصقليين الذين اعتمدوا على كرم الفاطميين وإعانتهم بعد الفتح.

وفى أسبانيا كانت الأثنى عشرة أسرة المتبارية فى جذب الانتباه إلى البلاط تعرض استضافة أكثر كرماً للشعراء حتى تؤكد أنها حاكمة بالفعل، وكان أفضلها الأشراف العرب المعتادون على اعتبار الشعر ترفاً وعلى احتساب الجود القيمة الحضارية الوحيدة. وفى أشبيلية توطدت علاقات دولة بنى عباد أكثر من أى دولة أسبانية أخرى بصقلية عن طريق تبادل التجارة وتذوق الآداب: وحدث بالفعل فى عصر المعتضد (١٠٤١ ـ ١٠٦٨) أن لجأ إلى الجزيرة الشاعر أبو حفص عمر بن حسن وكان من أسرة أسبانية نبيلة وصديقاً للأمير، ثم خاف منه بعد ذلك واضطهده؛ ولما عاد أخيراً إلى وطنه أمر المعتضد بقتله(1). ولكن حين خلف الطاغية العبوس ابنُه المعتمد الذى كان أشماً فى الحرب وإدارة البلاط، وذا حس مرهف بالشعر، صار بلاط أشبيلية ملاذاً لشعراء صقلية ومنهم أبى العرب وابن حمديس.

وأبو العرب مصعب بن محمد بن أبى الفرات، وهو قرشى من سلالة الزبير، ولد فى صقلية عام أربعمائة وثلاثة وعشرين (١٠٣٣)،

وما بعدها. وطبقاً لعماد الدين توفى هذا الشاعر قبل عام ٥٤٤ (١١٤٩ ـ ١١٥٠)، ومن هنا لا يستقيم زعم أن القائد المأمون كان أحد ملوك دويلات صقلية الذين كانوا يلقبون بالقائد كما سبق أن ذكرنا. وأيا من كان فقد نشرت فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، كل الجزء المتوفر من هذه القصيدة الذى حفظه لنا عماد الدين. وكذلك نقرأ فى الموضع نفسه وفى المقدمة ص ٧٧ الأبيات التى تهجو الشاعر مسلم حين لم يقنع بالخمسة دينارات فطلب أجراً إضافياً مقابل شعره وازادوا له نصف دينار فى الشهر. ويذكر عماد الدين ما يقرب من مائة بيت شعر، من أشعار مجبر.

(1) **مسالك الأبصار** فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٦٥٤ و٦٥٥.

كان شاعراً عظيماً ذائع الصيت، وعندما احتل النورمان بالرمو، ودفعه الضيق بنير الاحتلال أو شدة الفاقة إلى الرحيل، قال إن الوطن هو الذى هجره وليس العكس(1). وعرض عليه المعتمد اللجوء إلى أشبيلية، وكان الشاعر يتردد فى قراره إذ كان يخشى مخاطر السفر، وقد أحس الشيخوخة وهو فى سن الأربعين، وكان المعتمد قد أرسل له خمسمائة دينار لنفقات الرحلة: وعندما رآه يصل البلاط بعد عام أو أقل بقليل (٤٦٥، ١٠٧٢ ـ ٧٣)، أحسن استقباله وداوم فى سخائه عليه بالدينارات، وشمله بمودته(2) ورد الشاعر ذلك الجميل بشعره؛ كما يبدو أنه قد حارب فى إحدى العمليات التى قام بها ولى نعمته(3). وعاش أبو العرب بعد زوال بلاط آل عباد

---

(1) جزء من قصيدة ذكرها عماد الدين فى **الخريدة**، **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٦٠٩. والأبيات الثلاثة الأولى والبيت السابع والتى ذكرها التيجانى أيضاً نقرأها عند دوزى فى *Historia Abbadidarum*، المجلد الثانى، ص ١٤٦؛ ويمكن أن نرى ترجمة هذه الأبيات التى قام بها الأستاذ الناشر. أما الأبيات الأخرى فهى:

فيا نفسُ لا تستصحبى الهون إنه　　وإن خدعت أسبابه شَرُّ صاحب
ويا وطنى إنْ بنْتَ عنِّى فإننى　　سَأوطن أوكار العتاق النجائب
إذا كان أصلى من تراب فكلها　　بلادى وكل العالمين أقاربى
وما ضاق عنى فى البسيط جانب　　وإن جل إلا اعتضْتُ منه بجانب
إذ كنتَ ذاهَمٍّ ذا عزيمة　　فما غائبٌ نال النجاحَ بغائب

(2) يروى ابن بسام أنه بينما كانً المعتمد يجلس ذات يوم مع صحبةَ من حاشيته ووصل بين يديه ثقلاً من النقود الفضية فإذ به يهب منها كيسين لأبى العرب الذى صاح عندما رأى أمام الأمير عدة تماثيل من العنبر ومن بينها تمثال على هيئة جمل مرصع بالأحجار الكريمة، فقال أبو العرب: «ما يحمل هذه، حفظكم الله، إلا جمل». فابتسم المعتمد وأهداه التمثال الصغير: وهنا ارتجل الشاعر أبياتاً فى شكره. من **مسالك الأبصار**، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٦٥٦، ومن التيجانى فى *Historia Abbadidarum* لدوزى، الموضع المذكور.

(3) فضلاً عن الأبيات التى يرد فيها على دعوة المعتمد، والواردة فى سيرة أبى العرب ففى **الخريدة**، مخطوطة باريس، *Ancien Fonds*، ١٣٧٦، الورقة ٣٣ الوجه الأول،

زهاء العشرين عاماً إذ لدينا أخبار عنه حتى عام خمسمائة وسبعة (١١١٣ ـ ١١١٤). كان يرتجل الشعر، وشاعراً ذائع الشهرة وعربياً أكثر من أى عربى آخر فى إتقان اللغة وجودتها كما يقول ابن بسام حين يتفكه بكنيته؛ كما امتدحه شهاب الدين عمرى حين اندفع يكتب نثراً موزوناً، ووصفه بزعيم كل شعراء عصره وقومه ومعلمهم(1). وفى الحقيقة فإن قصائد أبى العرب ومؤلفاته الأخرى والتى لا تنقصنا فقرات منها تشهد برونق اللغة والأسلوب وأناقتهما، وبأصالته العربية فى الإلهام الشعرى، مع ما يتخللها أحياناً من بساطة امتدحناها، آنفاً، فى شعر ابن الطوبى.

ولد عبد الجبار بن محمد بن حمديس فى سيراكوزا عام (١٠٥٦) فى أسرة نبيلة من قبيلة أزد، لُقبت بحمديس نسبة إلى شيخها الحميرى الذى تمرد عـــام (٨٠٢) على إبراهيم بن الأغلب فى إفريقيـــا(2). أقبل ابن حمديس الذى شب وسط ضجيج أسلحة

والملحقات العربية ١٤١١، الورقة ٨ الوجه الأول والثانى، ورد ذكر فقرات من قصيدتين أخرتين تبدو أولاهما موجهة إلى المعتمد بينما الثانية موجهة له بكل تأكيد. وفيها يشير إلى إحدى عملياته التى شارك فيها الشاعر فى أرض الأعداء حيث يقول:

«ليـــالى ترضينا الليالى كأنهـــا   إليهـــا بإهداء المنى تتردد» إلخ.

(1) تستخلص سيرة أبى العرب من: عماد الدين، **الخريدة** فى **المكتبة العربية - الصقلية**، النص، ص ٦٠٨؛ وابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ترجمة م. دى سلان الإنجليزية، المجلد الثانى، ٢٧٧ فى حياة على بن عبد الغنى الحصرى؛ وشهاب الدين عمرى، **مسالك الأبصار** فى **المكتبة العربية - الصقلية**، النص، ص ٦٥٥ وما بعدها. كما يشير إليه الملك المنصور، المرجع المذكور، ص ٦١٣. ويتحدث حاجى خليفة عن ديوان شعره فى طبعة فلوجل، المجلد الثالث، ص ٣١٤، رقم ٥٦٧٨. ولا أعثر لدى أى مؤلف على عنوان العمل الذى كتبه فى فن الشعر الذى أراد شهاب الدين عمرى فيما يبدو الإشارة إليه.

(2) ابن خلدون *Histoire de l'Afrique* إلخ، ترجمة م. دى فرجيه، ص ٨٧ و٨٨، واستشهاد النويرى، الموضع نفسه، هامش ٩٦. وعلى حد قول النويرى ينحدر حمديس هذا من قبيلة كنده والتى قد تكون ذات قرابة مع قبيلة أزد، وكلتاهما من اليمن اي من سلالة قحطان. وأظن أن ابن حمديس وُلد عام ٤٤٧ (١٠٥٥ ـ ٥٦) حيث أنه عندما توفى عام ٥٢٧ (١١٣٢ ـ ٣٣) كان يبلغ من العمر حوالى ثمانين عاماً، كما نقرأ فى ديوانه **المكتبة العربية - الصقلية**، النص، ص ٥٧٣، الأبيـــات التالية التى تعكس

النورمان وهم يجتاحون وادى نوتو، على الاهتمام بالمعارك والشهوات ومجالس اللهو وشرب الخمر أكثر مما أقبل على تحصيل العلم، حتى صادفته واقعة اعتركها ثم اجتاز عنها وأظن أنها كانت مغامرة عاطفية فى أحد البيوتات النبيلة، أرغمته على الفرار(1) إلى

إلى حد ما حس الشيخوخة:

«ولى عصا من طريق الأمّ أحْمَدُهـا   لها أقّدمُ فى تأخيـــرها قدمى

كأنها وهى فى كفى أهُشّ بهـــا   على ثمـــانين عاماً لا على غنمى

(راجع القرآن، ﴿السورة ٢٠، الآية ١٩﴾)

كأنى قوس رام وهى لى وتــــر   أرمى عليهـــا رمى الشيب والهرم.

(1) نعثر على إيماءات إلى تلك الواقعة فى قصيدتين، ذكرت أولاهما فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٥٥٢ وما يليها، وتبدأ القصيدة على هذا النحو:

«نفا همٌّ شيبى سرورَ الشـــباب   لقد أظلم الشيبُ لمّـــا أضـاء

قضيت لظلّ الصبا بالـــــزوا   ل لمـــا تحـــول عنى وفـــاء

....

وريح خفيـــفة روح النســـيـ   ـم أطلت بليلاً وهبت رُخـــاء

سرت وحياها شقيق الحيـــاة   على ميّت الأرض تبكى السمــاء

فمن صوت رعد يسوق الســحاب   كمـــا يسمع الفحل شولاً رغاء

وتشـــعل فى جانبيهـــا البروق   بريق الســـيوف تهز انتضاء

فبتّ من الليل فى ظلمـــــة   فيـــا غرّة الصبح هاتى الضياء

....

ولى بينها (صقلية) مهجة صـــبّة   تزودت فى الجســـم منها ذماء

ديار تمشت إليهـــا الخطـــوب   كمـــا تتمشى الذئاب الضراء

صحبت بها فى الغياض الأسـود   وزرت بهـــا فى الكناس الظباء

وراءك يا بحـــر لى جنـــــة   لبست النعيـــم بهـــا لا الشـقاء

إذا أنا حاولت منها صـــــباحاً   تعرضت من دونهـــا لى مســاء

فلـــو أننى كنت أعطـــى المنى   إذا منـــع البحـــر منها اللقاء

ركبت الهلال به زورقـــــــاً   إلى أن أعـــانق فيهـــا ذُكـــاء

(واضطر المؤلف أن يرجم بنوع من الحرية التشبيهات الغريبة التى تشير إليها كلمات البيت الأخير). وكتب ابن حمديس القصيدة الأخرى رداً على أحد الأصدقاء يبدو أنه خاطبه بعد عدة سنوات من هروبه ليصالحه على العائلة ذات النفوذ، ليعود إلى صقلية حيث كان المســـلمون، كما يبدو لى، يسعون إلى القيام بحركة. وأدت صعوبة استخلاص مغزى منطقى من بعض أبيـــات هذه القصيدة الطويلة إلى أن انصرفت

أفريقيا عام أربعمائة وواحد وسبعين (١٠٧٨ ـ ١٠٧٩). ولكن ازدراءه لتصرفات القبائل العربية التى انطلقت من مصر على شمال أفريقيا(1) وإعجابه بصيت المعتمد بن عباد، دفعاه إلى التوجه إلى بلاط أشبيلية، حيث تم استقباله والترحاب به وإكرامه(2). وفى ملتقى أوائل الشعراء المعاصرين فى الغرب ذاك لمعت شخصية ابن حمديس الفذة، ولم يفسَد فى البلاط حسه الصادق الجرئ الملئ بحب أبيه وصقلية والأصدقاء والمجد والنساء وكل مفاتن الطبيعة والفن. ولازم الأمير فى ميادين المعارك، محارباً كما كان فيما قبل وظل يفخر بذلك فى شعره. وفى معركة تالاڤيرا (١٠٨٦) عندما سقط من فوق جواده خلال المصادمات الأولى التى كانت الغلبة فيها للمسيحيين واصل المعركة فى بسالة وخرج بدرعه ممزقاً من الطعنات النافذة يشعر بالقلق على ولده أكثر من نفسه، وكان الشاب

عن نشرها فى مجموعة النصوص. بيد أننا نرى فيها بجلاء سبب هروبه، ويبدو أن العائلة المعادية كانت تدعى بنى حسان. وأبى الشاعر الذى كان قد نضج وتوطدت أقدامه فى بلاط المعتمد أن يعود حينئذ إلى صقلية الخاضعة للنورمان، ولكنه يعفو عن الجميع وينهى القصيدة قائلاً:

ويا حبذا الأحياء منهم وحبذا — مفاصل منهم فى القبور وأوصال
ويا حبذا ما بينهم طول نومة — تنبهنى منها إلى الحشر أهوال

(1) انظر وصفه لهؤلاء العرب ومقارنتهم بعرب صقلية فى إحدى القصائد التى يستهلها بقوله (يرعون فى ورقة بيضاء ثمارها دماء (أجر المرتزقة) فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٥٦١ وما بعدها).

(2) ابن خلكان. وأطلق صاحب **أخبار الملوك** على ابن حمديس ذا الوزارتين، وهو لقب كان من المعتاد إطلاقه على وزير ذى سلطة مدنية وعسكرية: ولكن هذا اللقب يبدو لى إشارة إلى مهارة ابن حمديس فى الشعر والحرب. ومن بين القصائد الكثيرة المهداة للمعتمد هناك قصيدة يختتمها بفيض من الامتنان وهو يتذكر الأهل والوطن:

وما سددت سبيلى عن لقائهم — لكن جعلت صفادى عنهم الصفدا
وحسن برا إذا فاضت حلاوته — على فـؤادى من حر الأسى بردا

وقد ذكرت فقرة من هذه القصيدة فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٥٥٤. وانظر القصائد الأخرى فى مدح المعتمد وابنه رشيد والتى ذكرت فقراتها فى المجموعة نفسها، ص ٥٦٧ و٥٦٩ و٥٧٠.

يقاتل عن قـرب فى بســالة عظيمة(1). لكن عندما عـاد المرابطون أعداءً إلى أسبانيا، وجُرِّد المعتمد من الملك ومن كل شئ وهلك له ولدان أمام عينيه وساقوه إلى أغمات (١٠٩١) مع بناته مقيداً بالأغلال، رحل ابن حمديس إلى أفريقيا وذهب لزيارته فى السجن: وهناك ذرفا دموعاً صادقة وتبادلا أبياتاً متواضعة(2). وحين عاد الشاعر الصقلى إلى المهدية(3) وعلم بعد ذلك بقليل بوفاة المعتمد (١٠٩٥)، أقام عدة سنوات فى بلاط الزيريين وخلّف قصيدة طويلة فى وصف قصر من قصور المنصور أمير الحمادية فى باجه وألد أعداء المرابطين(4)، كما ترك قصيدتين فى حياة(5) يحيى بن تميم أمير المهدية(6)، ومرثية فى موته (١١١٦)، وترك أيضاً قصائد فى مدح على بن يحيى (١١١٦ ـ ٢١) وحسن بن على

---

(1) **ديوان** ابن حمديس فى المرجع المذكور، ص ٥٦٩. عندما عاد الشاعر إلى أشبيلية قال هذه الأبيات فى ابنه الذى يدعى أبو هاشم. وأظن أنها تخص تالافيرا حيث يذكر النص على سبيل الكناية «المعركة».

«أبا هاشم هشـمتنى الشـفار — فلله صـبرى لذاك الأوار
ذكرت شـخيصك مـا بينها — فلم يدعنى حبّه للفـرار».

(2) وهذه الأبيات التى أشار إليها العديد من كتاب الحوليات وكتاب السير نجدها عند دوزى *Historia Abbadidarum*، المجلد الأول، ص ٢٤٦، والمجلد الثانى ص ٤٤. ووردت أبيات أخرى فى ديوان ابن حمديس ووردت الإشارة إليها فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٥٧١.

(3) النويرى، *Storia di Beni Abbad*، عند دوزى، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ١٣٨، وفى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٤٥٩.

(4) المقـرى *Analectes sur L'histoire etc. d'Espagne*، النص العـربى، المجـلد الأول، ص ٣٢١ وما يليهـا، يذكر فى ثلاث قطع ٤٨ بيتاً من هذه القصيدة. تولى منصـور بن ناصـر بن الناس الحـكم من عـام ١٠٨٨ إلى ١١٠٤ فى الدولة الحمـادية، التى كانت تفـوق فى مسـاحة أراضيها وتعداد قواتهـا مملكة الزيريين فى المهدية. راجـع ابن خلدون، *Histoire des Berbères*، ترجمة م. دى سلان، المجلد الثانى، ص ٥١ وما بعدها حيث يشير إلى قصور منيفة بناها المنصور ووالده فى بوجيا.

(5) **ديوان** ابن حمديس. والفقرات نقرؤها فى المرجع المذكور، ص ٥٧٢.

(6) ابن الأثير، عام ٥٠٩، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٢٨٠.

(١١٢١ ـ ١١٤٨)، اللذين تعاقبا اعتلاء ذلك العرش(1). وسجل تاريخ الجزيرة(2).

وبعد أن أنهكه المشيب والحظ العاثر حتى كان يشبه نفسه بنسر لم يعد يحلق ويطعمه أبناؤه فى منقاره(3)، وبعد أن فقد نور عينيه توفى فى رمضان عام خمسمائة وسبعة وعشرين (يوليو ١١٣٣)، فى مايوركا كما يقول بعضهم، بينما يقول آخرون فى باجه، ودُفن بجوار الشاعر الأسبانى ابن اللبانه الذى كان يتبارى معه فى نعم المعتمد فى أشبيلية وفى السجن(4).

وابن حمديس موهبة فذة فى الإلمام بالمشاعر وتصويرها، وفى إضفاء الألوان على صورها التى نراها متناثرة بغزارة فى ألفين وخمسمائة بيت: وهى لوحات تصور الأشياء الملموسة والأحداث والعواطف والعادات. وسننحى منها جانباً مالا يخص صقلية: وهى الخاصة بأمجاد المعتمد وقصوره وبساتينها، أو تلك المتعلقة بأمير

---

(1) يوجد منها أجزاء فى **الخريدة**، ويمكن قراءتها فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ٦٠٨.

(2) حاجى خليفة، طبعة فلوجل، المجلد الثانى، ص ١٢٤، رقم ٢١٩٦.

(3) **الديوان**، المرجـــع المذكور، ص ٥٧٢ و٥٧٣. وذكر ابن حمديس لجامع **الديوان** أنه قرأ فى كتب تاريخ الطبيعـة عن عاطفة أبناء النسور هذه التى لم يلاحظها عند أى حيوان آخر.

(4) أخبار ابن حمديس، يرجع فيها إلى: ابن خلدون، *Biographical Dictionary*، ترجمـة م. دى سـلان، المجـلد الثـانى، ص ١٦٠ وما بعدها، وعمـاد الدين فى **الخريدة**، **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٦٠٧ وما يليهـا، ومالك مانو، **طبقات الشعراء**، المرجـــع المذكور، ص ٦١٢، وشهاب الدين عمرى، **مسالك الأبصار**، المرجـــع المذكور، ص ٦٣٣ وما يليهـا؛ كما أنه يرجع لها بصـفة خـاصة فى الفقرات، التى استهل بها مختلف أشـعار **ديوان** ابن حمديس، جـــامع **الديوان** المجهول الذى عرفه شخصياً وتحدث إليه كما نستشف من إحدى التعليقات فى المرجع المذكور، ص ٥٧٣. وتبدأ المقتطفات من ص ٥٤٧. **والديوان** لا يشتمل أيضاً على كل القصائد حيث تنقصه قصيدة قصر المنصور المذكورة آنفاً، وقصائد أخرى نقرأ مقاطع منها فى **الخريدة**، وعند ابن الأثير والنويرى، إلخ.

بوجا ووقائع الأدب فى أشبيلية، ووفاة إحدى زوجاته وغرق أخرى فى رحلة أســبانيا وإفريقية، ورحلات الصـيد فى إفريقية ووصف الحيوانات والثمار والأزهار(1)، ومرايا القطران(2)، ومصابيح كُحُول الخمر(3) ووحشية قطاع الطريق فيما وراء نهر النيل الذين كان يقارنهم بعرب صقلية وقد تحضّروا. أولئك فتيان صدق كزهر النجوم(4)، اعتاد أن يبحث معهم فى الشباب عن نكهة المسك فى أفضل خمر معتق(5) من كروم سيراكوزا. «وراهبة أغلقت ديرها، فكنا مع الليل زوارها؛ طرحت بميزانها درهمى، فأجرت من الدن دينارها؛ خطبنا بنات لها أربعا(6)، ليتفرع اللهو أبكارها؛ من اللائى أعصـــار زهر النجـــوم، تكاد تطاول أعمارها؛ تفرس فى شمه طيبها، مجيد الفراســـة فاختارها؛ فتى دارس الخمر حتى درى، عصير الخمور وأعصـــارها؛ يعدّ

---

(1) مثل الزرافة والجواد والعقرب والبرتقال وزهر شقائق النعمان والشمعدانات إلخ. جزء من هذا الوصف الذى لم يشتمل عليه ديوان ابن حمديس ذكره النويرى فى أحد مجلدات *Enciclopedia*، مخطوطة ليدن، رقم ٢٧٣، وورد منه أحياناً أجزاء فى العديد من المجموعات الموسوعية، على سبيل المثال فى **جامع الفنون** لأحمد حرانى، وهو مؤلف من القرن الثالث عشر، مخطوطة باريس، *Ancien Fonds*، ٣٦٧، ورقة ١٨ الوجه الثانى وورقة ٣٩ الوجه الأول.

(2) (وعند اتقاد مرايا قطران ترى حمرة النار تسرى على ذلك السواد)، عند شهاب الدين عمرى فى **مسالك الأبصار**، المجـــلد السابع عشـر، مخطـوطة باريس، *Ancien Fonds*، ١٣٧٢، ورقة ٧٦ الوجه الثانى.

(3) تبدأ القصيدة التى قالها فى يحيى بن تميم، أمير المهدية بهذا البيت:
«أو ميض البرق فى الليل البهيم، أم أياة الشمس فى كأس النديم» **الديوان**، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٥٧٢.

(4) لا أضيف شيئاً من عندى فى تفسير هذه المقطوعة ومقطوعات أخرى لابن حمديس. سأترجم بكل أمانة ولكنى سأوجز وأقدم وأؤخر فى حرص حتى أحافظ قدر الإمكان على صفته الأصلية. (فضل المترجم نقل النص الأصلى).

(5) لايزال يستخدم هذا اللفظ الخادع فى صقلية، ومن يدرى إذا ما كان قد دخل مع العرب؟ وربما أشتق من هذا التعبير المجازى كلمات مثل العنب المسكى والنبيذ المستخلص من العنب المسكى.

(6) دنان جمع دن وهو إناء ينتهى بطرف مدبب.

لمـــا شئت من قهـوة، سنيها ويعرف خمــارها؛ وعدنا إلى هالة أطلعت، على قصب البان أقمارها؛ وقصب من الشمع مصفرة، تريك من النار أنوارها؛ كأن لها عمد صففت، تقل الدياجى على هامها؛ يرى ملك اللهو فيها الهموم، تثور فيقتل ثوّارها؛ وقد سكتت حركات الأسى، قيان تحرك أوتارها؛ فهذى تعانق لى عودها، وتلك تقبل مزمارها؛ وراقصة لقطت رجلها، حساب يد نقرت طارها؛ وساقية تدير بياقوته درة، فتغمس فى مائها نارها؛ وساقية زررت كفها، على عنق الظبى(1) أزرارها؛ ذكرت صقلية والأسى، يهيج فى النفس تذكارها؛ ومنزلة للتصابى خلت، وكان بنو الظرف عمارها؛ فإن كنت أخرجت من جنة، فإنى أحدث أخبارها؛ ولولا ملوحة ماء البكا، حسبت دموعى أنهارها؛ ضحكت ابن عشرين من صبوة، بكيت ابن ستين من أوزارها؛ فلا تعظمن لديك الذنوب، فمازال ربك غفارها».(2).

وأنشــد ابن حمديس فى موضــع آخـر: ونحن بنو الثغر الذين ثغورهم، إذا عبست حرب لهم تتبسّم؛ ومن حلب الأوداج يغذى فطيمنا، بحجرٍ من الهيجاء ساعة يفطم؛ يضاعف إن عُدّ الفوارس عَدُّنا، كأن الشــجاع الفرد فينــا عَرمرم؛ نؤخر للإقدام فى كل ساقة، تأخر ما يلقى الحتوف تقدَّم؛ فإن كان للحرب العوان معوَّل، علينا فما كل الكواكب ترجم؛ وتنسج يوم الرّوع من نسج جرونا، علينا ملاء بالقشاعم ترقم؛ فمن كل مقدام على

---

(1) أى قربة من جلد الغزال تستخدم لحمل الماء.

(2) **الديوان**، فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، النص، ص ٥٤٨ وما بعدها. هذه القصيدة تبدأ بهذه الأبيات:

«قضت فى الصبا النفس أوطارها ... وأبلغهـــــا الشيب إنذارها
وما غرس الدهر فى تربـــــة ... غراســـــا ولم يجن أثمارها
نعم وأحيلت قداح الهـــــوى ... عليهـــــا فقسمن أعشارها
فأفنيت فى الحرب آلاتهـــــا ... وأعددت للســـلم أوزارها إلخ».

أعوجية(3)، بكراتها طير الملاحم تلجم؛ وطائرة بالدمر ملء عنانها، لها الفضل فى شأو البروق مسلّم؛ رمينا عداة الله فى عقر دارهم، إذا وضعت فى ساحل الروم صَيْلم؛ ومنسوبة للحرب منشأة لنا، طوائر بالآساد فى الماء عُوم؛ وترسل نفطاً يركب الماء محرقاً، كمهل به تشوى الوجوه جهنم؛ مدائن تغزو للعلوج مدائناً، فتفتح قسراً بالسيوف وتغنم؛ ومحتذى قميص الحرير ملابساً، إذا نكل الأبطال فى الحرب أقدمُ؛ صبرنا لهم صبر الكرام ولم يسغ، لنا الشهد إلا بعد ما ساغ علقم؛ فغادر أفواهاً بهم هبر ضربنا، بواحدها من مرهفات تُثلم؛ وإن بأيدينا الحديد لناطق(1)، إذا ما غدا فى غيرها، وهو أبكم؛ أمن آرق بالدار أومض بارق، كطايش كف بالبنان يسلم؛ يرى من عيون ساهرات مدامعاً، وكحلها(2) بالنور والليل مظلم؛ ألم بساقى عبرة حدّ قفرة، بمبسم حرف كلما بُلّ يلطم؛ فياعجباً من زورة زار طيفها، جفوناً من التهويم فيها توهم؛ أحن إلى أرضى التى فى ترابها، مفاصل من أهلى تلين وأعظم؛ وقد صفرت كفاى من ريق الصبا، ومنى ملآن بذكر الصبا فم(3).

وتحت سماء أسبانيا الجميلة وفى أقاليم أفريقيا الشمالية المعتدلة لم ينس شــاعر ســيراكوزا بلده أبداً «بلد أعارته الحمامة طوقها، وكساه حلة ريشـه الطاووس(4)، وكأن هاتيك الشقائق قهوة(5)،

---

(3) سلالة من الجياد مشهورة فى قصائد العرب القديمة. راجع ملاحظة م. دى سلان فى *Journal Asiatique*، المجموعة الثالثة، المجلد الخامس (١٨٣٨)، ص ٤٦٧، ٤٧٧.

(1) يستخدم ابن حمديس الصورة نفسها فى مواضع أخرى. وكما يعلم الجميع يقول عرب أفريقيا الحاليين عن القتال «ليتحدث البارود».

(2) الكحل أو مسحوق آخر أسود تزين به السيدات الشرقيات (ويوجد الآن أيضاً فى أوربا) أطراف الرموش وحواف العيون.

(3) **ديوان** ابن حمديس فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٥٦٣ وما بعدها.

(4) **مسالك الأبصار** فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ١٥١.

(5) **ديوان** ابن حمديس، المرجع السابق، ص ٥٥٣، ومن القصيدة التى ذكرناها من برهة، ص ٥٣٧، هامش ١.

وكأن ســـاحات الديار كؤوس(1)». ولكن هذا الإحســاس العالى الذى جعل مظاهر الطبيعة فى صـــقلية تبدو له أكثر بهاءً احتجزه عن العودة إلى صقلية حتى لا يراها أسيرة، ولم يُمْل عليه صياغة أبيات من اللوم ولكن أبياتاً تجيش بالحسرة على الواقع، وهو أول واجبات المواطن تجاه الوطن. وكان يتذكر فى أسى وهو يكرر ويمدح بمختلف الطرق فضائل المحاربين(2) زوال فضيلة القتال(3) فى الوطن. وقال فى سن متقدم:

ولو أن أرضى حرة لأتيتهـــا   بعزم يعد الســـير ضربة لازب
ولكن أرضى كيف لى بفكاكهـــا   من الأسر فى أيدى العلوج الغواصب
أحين تغانى أهلها طوع فتنـــة   يضرم فيها نـــاره كل حاطب
ولم يرحم الأرحام منهم أقارب   تروى ســـيوفاً من نجيع أقارب
وكان لهم جذب الأصابع لم يك   رواجب منهـا حانيات رواجب(4).

إلى أى رقى فى الشـــعر وصل ابن حمديس! لقد تغنى بالحب بمشاعر عذبة وكان شعره يتسم بالرقة والفن والتدفق فى الإلهام فى أى موضوع يلمسه. وإذا كانت المغالاة الشرقية فى الصور البلاغية

---

(1) **الديوان** نفسه، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٥٦٢.

(2) فى القصيدة التى سأذكر منها هذه الأبيات يعاود بعد ذم الشعب مديح المحاربين:

حماة إذا أبصرتهم فى كريهـــة   رضيت من الآســـاد عن كل غاصب
تخب بهم قب يُطيل صـــهيلها   بأرض أعاديهم نيـــاح النوادب
إذا سكتوا فى غمرة الموت أنطقوا   على البيض بيض المرهفات القواضب
له حمله عن فتكتين انفراجهـــا   كفتكك من وجهين شـــاه الملاعب
يموتون موت العِزّ فى حومة الوغى   إذا مات أهـــل الجبن بين الكواعب
حشوا من عجاجات الجهاد وسائداً   تعـدّ لهم فى الدّفن تحت المنـاكب.

وكانت هذه عادة المحاربين الصالحين.

(3) **الديوان** فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٥٥٤.

(4) حرفياً «مفاصل الأصابع»، إلخ، المرجع السابق، ص ٥٥٨. هذه القصيدة الطويلة التى كتبها كما يبدو فى أفريقيا حيث يشكو من أحد الأمراء الزيريين تبدأ فى ص ٥٥٤ بالبيت التالى:

«تدرعت صـــبرى جنة للنوائب،   فإن لم تســـالم يا زمان فحارب».

والطباق والجناس وعيوب الأدب العربى الجذرية قد صرفتنا عن ضمه إلى أعظم الشعراء، فإن النقاد فى وطنه إعتبروه كذلك(1)، وشعره فى الغرب أقل ترديداً بقليل من شعر أمرئ القيس والمتنبى. أما الناقد أبو الصلت أميه الذى اتهمه بالانتحال فقد أطلق عليه اللص العظيم الذى اعتاد تجميل الأفكار المنتحلة(2).

أقام ابنه محمد فى أفريقيا أو فى أسبانيا، وكان شاعراً أكثر من والده على حد قول ابن بشرون، ولكن المقتطفات الموجزة التى يذكرها تذهب بنا إلى حكم مخالف لذلك(3). وسليمان بن محمد دا ترابانى الوافد من المهدية أو التى استقر بها منفياً بعد عام أربعمائة وأربعين (١٠٤٨) والمثقف الماجن رحل إلى أفريقيا ومنها إلى أسبانيا حيث استقر فى بلاط صغار الأمراء وحازت قصائده الإعجاب وبقى اسمه اسماً معروفاً(4)، بينما كان أكثر رونقاً الشاعر أبو سعيد عثمان بن عتيق الصقلى، ربما من بالرمو مثل أى شاعر آخر لا نعرف على وجه التحديد موطن ميلاده، وقد توجه أثناء الغزو النورماندى إلى أسبانيا مباشرة، إلى بلاط منافس المعتمد فى رعاية الآداب والعطـاء لرجـــاله (١٠٥٤ - ١٠٩١) وهـــو أميـر ألمرية المعتصم من سلالة بنى صُمادة(5). كما عاش فى النصف الثانى من

---

(1) ابن بسام وعماد الدين وشهاب الدين عمرى ومالك منصور، إلخ، المواضع المذكورة.

(2) **الخريدة**، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٦٠٨.

(3) **الخريدة**، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٦٠٨. وقد وضعه المؤلف على قدم المساواة مع الأب بين الشعراء الأسبان؛ وابن بشرون من وسط بلاد المغرب، أى من الجزائر تقريباً.

(4) ياقوت فى **المعجم**، وحميدى فى **جذوة**، وابن القطاع فى **الدرة**، وشهاب الدين عمرى فى مسالك، مقتطفات فى **المكتبة العربية - الصقلية**، النص، ص ١٢٢، ٥٧٧، ٥٩٤ و٦٥٥. وينقل ابن بشكوال، مخطوطة الجمعية الآسيوية فى باريس، الإشارة الى حميدى.

(5) **الخـريدة**، عن ابن القطـــاع فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٥٩٧. إحـدى القصـــائد موجهه إلى المعتـــصم وبخصـــوصها انظـــر دوزى، *Recherches sur l'histoire d'Espagne*، المجلد الأول، ص ١١٦.

القرن الحادى عشر شعراء القصائد وكتاب البلاط: الكاتب هاشم بن يونس وابن كونى وعمر بن عبد الله الذين تحدثنا عنهم سابقاً(1) وآخر يدعى على بن عبد الله بن الشامى(2).

أما ابن التازى• المنصرف إلى العلوم والآداب(3) والألمعى ذو المزاج الحاد والمتشدد على الرذائل بينما هو نفسه منغمس فى العادات السيئة فيجب أن نضعه بين أوائل شعراء الهجاء العرب لحيوية أفكاره وقوة أسلوبه وعدم تكلفه وعذوبته وأناقة شعره(4). ويتبقى لنا من شعره بعد إحصاء ابن قطاع وعماد الدين ثمانين مقطوعة شعرية بين وصفية وغزلية ماجنة إن جاز هذا التعبير، وهجائية، ونبسط القول لهذه الأخيرة فقط. إن أبرز هذه المقطوعات وأكثرها ألمعية تلك التى تتناول المتصوفيين(5)، وأخرى تهجو فى كياسة كبار السن الذين يخضبون شعرهم(6)، والوجوه ذات اللحى الكثيفة الخشنة(7) والمنشدين الباعثين على الملل(8) وكانوا

---

(1) راجع ما سبق فى ص ٥٢٥ و٥٢٧.

(2) **الخريدة**، عن ابن القطاع، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٥٩٦.

• جميع الأبيات فى الأغراض المختلفة التي ينسبها المؤلف لابن التازي تنسبها المصادر العربية لابن الطوبي الصقلي (محمد بن الحسن أبو عبد الله). المترجم.

(3) راجع ص ٥٢٢ فى هذا الفصل.

(4) عماد الدين، **الخريدة**، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٥٣٩. يمدح أبياته لأنها «ذات استرسال حسن صيغت بذوق رفيع»، راجع أيضاً الذهبى، **أنباء النحاة**، المرجع المذكور، ص ٦٤٧. والأبيات التى تبلغ حوالى مائتين موجودة فى **الخريدة**.

(5) انظر ص ٥٠٥ من هذا الفصل.

(6) **الخريدة**، مخطوطة باريس، *Ancien Fonds*، ١٣٧٥، ورقة ٢٤ الوجه الثانى، وفى مواضع أخرى.

(7) الموضع نفسه، والورقة ٢٥ الوجه الثانى. وبخصوص هذين الملتحين كان أحدهما يدعى جعفر بن محمد والآخر حمدون، وهما اسمان لا نجد لهما أثراً فى ذاكرة العصر، وقال فى الثانى «لحية حمدون دثار له، تكنه من شدة البرد؛ كأنه إذا غاب فى وسطها، قطيفة لفت على قرد».

(8) المرجع السابق، الورقة ٢٤ الوجه الأول، و٢٦ الوجه الأول إلخ. وتتضمن مالا يقل عن ثمانية، إحداها فى المديح. وفى الورقة ٢٦ الوجه الثانى مديح لإحدى الراقصات.

من سخريات العصر. أما آفات الطبيعة البشرية الأزلية فقد هجا منها بعبارات لاذعة البخيل(1) والثرثار(2) والمتهور(3)، ولم يغفل الأمراض الجسدية(4): ففى غضب مزق بأنيابه ما استطاع الوصول إليه، ووصل إلى حد أطلق فيه على البشرية جنس الأفاعى والكلاب(5). أما رزيق بن سهل، المذكور سلفاً، فقد تناول هذا الموضوع باعتدال وشاعرية محدودة فى الأبيات القليلة التى تبقت لنا منه(6).

ويستحق الكلبيون إشارة خاصة قبل أن نكمل قائمة الشعراء الأقل شأناً؛ لأنهم إن لم يثروا إلى حد كبير دائرة الشعراء الصقليين، فإنهم

---

(1) **الخريدة**، مخطوطة باريس، *Ancien Fonds*، ١٣٧٥، ورقة ٢٦ الوجه الأول.

أتيته زائراً أحدثه … ولست فى ماله بذى طمع
فظن أنى أتيت اسأله … فكاد يقضى من شدة الجزع

(2) **الخريدة**، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، النص، ص ٥٩٠.

يقرب قوله لك كل شىء … وتطلبه فتبصره بعيدا
فما يرجو الصديق الوعد منه … ولا يخشى العدو له وعيدا

(3) **الخريدة**، المخطوطة المذكورة، الورقة ٢٩ الوجه الأول.

صبرت على سوء أخلاقه … زمانا أقدّر أن يصلحا
فلما تزوّج قاطعته … لأنى تخوفت أن ينطحا

(4) فى أحد المصابين بالجدرى، وفى صاحبى أنفاس كريهه الرائحة، المرجع المذكور، الورقة ٢٧ الوجه الأول و٢٨ الوجه الأول.

(5) المرجع المذكور، ورقة ٢٤ الوجه الثانى:

يا لائمى فى انتزاعى … عن الورى وانقطاعى
لا استطيع على ان … أكون بين الأفاعى

وفى ورقة ٢٩ الوجه الأول:

إذا سبك إنسان … فدعه يكفك الرب
ولا تنبح على الكلب … اذا ما ينبح الكلب

(6) **الخريدة**، مستلة من ابن القطاع، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٥٩٢. وها هى الأبيات التى نقرؤها فى المخطوطة، ورقة ٣٧ الوجه الثانى: («أخلاق وعادات البشر تتنوع كسمات الماء التى تعرفها؛

منها الزلالُ العَذْبُ إنْ ذُقْته … يوما ومنها الأجِنُّ الأكْدَرُ
فالخير فيهم ثمد آجن … ولا شرّ فيهم حصرم يزخر

قد شجعوا وساعدوا من كان يتطلع إليها. ويُذكر للأمير أحمد (٩٥٣ - ٩٦٩) بيتان متواضعان يشكو فيهما عدم اكتراث النساء بأى شئ حين يتقدم بهن العمر: وهى شكوى غريبة من أمير مسلم(1). وتغنى عبد الرحمن بن حسن بالحب فى شكل أكثر بهجة، ولُقب بالأمير نسبة لشرف العائلة، ومستخلص الدولة للمهام التى كان يتولاها فى البلاط الفاطمى فى مصر(2)، وأبو القاسم محمد بن نزار، الملقب هو الآخر بالأمير والمعاصر لأحمد، وبعد ذلك صار رئيساً للشرطة فى مصر، يشهد لنا على غطرسة قومه العنيدة حتى فى وجه الأمير(3). وكان الأمير جعفر بن يوسف يرتجل الشعر ببضعة أبيات قليلة الشأن ويداعب الشعراء مداعبات غليظة(4). أما جعفر الآخر الملقب بثقة الدولة وابن الأكحل فكان يعتذر شعراً عن الوعــود التى لم يف بها لسوء حظه(5). كما سبق أن تحدثنا عن العالم الجرئ عمار وعن شعره(6). وكان أبو القاسم عبد الله بن سلمان من بنى كلب يفخر فى أبيات متواضعة بحب الفضيلة والدفاع عنها ويئن أناته الماجنة، ويشهد على العصر الذى عاشه قائلا

---

(1) **مسالك الأبصار**، مستلة، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ١٥٤.

(2) **الخريدة**، مستلة من ابن القطاع فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٥٩٢. ونظراً لأن ابن القطاع قد وضعه مباشرة قبل أبى محمد قاسم بن نزار فيبدو أنه من بنى كلب الذين خرجوا من صقلية مع أحمد كما لاحظنا فى الفصل الرابع من هذا الكتاب.

(3) **الخريدة**، مستلة ابن القطاع، المرجع المذكور، ص ٥٩٢. وفى المخطوطة توجد هذه الأبيات:

إنِّى متى يجفــو الحبيــــ ـــب وصــلت جفــــوته ببينْ

ومنعتُ عينى أن تـــــرا ه ولو رأتـــــه فقــأتُ عينى

وجعلتُه بفعـــــــاله فى العين مثــــل قــذاة عين

ووضعتُه دون الحضيــــ ـــض لَوَانَّهُ فى الفــرقدين

وقطعتُه لو كان يشـــ ـــبه أحمد ابن أبى الحســـين

(4) راجع الفصلين السابع والثامن من هذا الكتاب، ص ٣٤١ و٣٥٨ من المجلد.

(5) انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب و**الخريدة**، مستلة ابن القطاع فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٥٩٦. وقد سمى بالأمير. ولقب ثقة الدولة قد يكون نفس اللقب الذى حمله جده يوسف.

(6) راجع فى هذا الفصل ص ٤٩٣.

إنه كان محاطاً بأعداء يتظاهرون بتبجيله(1). أما جعفر بن الطيب فقد تقدم على أى شاعر كلبى آخر فى إجادة الشعر الغنائى الرصين، وكان يتبادل الرسائل مع ابن القطاع وامتدحه فى المختارات الأدبية الصقلية، وهو جدير بهذا المديح وتشهد بذلك مقطوعتان فى إحدى القصائد وبضعة أبيات أخرى من نوع شعر بتراركا(2). وعندما انهار حكم أسرة بنى كلب طمحت الطوائف التى اقتسمت غنائمها إلى أمجاد أدبية لا يمكن أن نوافقهم عليها: وأذكر القائد أبا محمد بن عمر بن منكوت(3)، والقائد أبا الفتوح، ابن القائد بدير مكلاتى كبير أمناء البلاط والملقب بسند الدولة وصاحب المزاج السوداوى(4). كما صاغ الشعر أيضاً ابن لؤلؤ المدعو ربما على سبيل الخطأ أمير صقلية(5). فى ذلك الوقت أيضاً لم يحتقر الفن رئيس للشرطة يدعى أبو الفضل أحمد بن على القرشى(6)، ولا القضاة أبو الفضل حسن بن إبراهيم بن شامى

---

(1) من **مسالك الأبصار** فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ١٥٤ و١٥٥.

(2) **الخريدة**، مستلة من ابن القطاع، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٥٩٨. وها هى أبيات ثلاثة نجدها فى مخطوطة باريس، ورقة ٤٨ الوجه الثانى.

لقد بليتُ بشىء لستُ أعرفه مولىً يجور على ضعفى وأنصفه

مازال يطمعنى لفظ له خنثُ يمنّ بالوعد سراً ثم يخلفه

ياربى زدنى غراماً فى محبتِه ودع فؤادىَ بالأشواق يتلفه

(3) **الخريدة**، مستلة من ابن القطاع، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٥٩٦. لقد احتفظت هذه العائلة بالسيادة على مازارا ولكن لا نعلم إن كان الحسن ممن حكموها، أم إذا كان هو نفسه ابن منكوت الذى تحدثنا عنه فى هذا الفصل ص ٥١٦.

(4) المرجع المذكور، ص ٥٩٢. راجع الفصل الثانى عشر من الكتاب الحالى ص ٤٣٣. وأبياته فى **الخريدة**، المخطوطة، الورقة ٣٧ الوجه الأول، (معانيها) على النحو التالى:

ليس فى الدنيـــا ســـرورُ إنمـــا الدنيـــا همـــومُ

وإذا كـــان ســـرورُ فقليــــلُ لا يـــدومُ

تركهـــا أفضـــلُ منهـــا ذا بهـــذا لا يقـــوم

(5) راجع الفصل الثانى عشر من هذا الكتاب، ص ٤٣٩ من هذا المجلد

(6) **الخريدة**، مستلة ابن القطاع، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٥٩٥.

من قبيلة كنانة(1) وأبو عبد الله محمد بن قاسم بن زيد من قبيلة لخم(2)، وأحمد بن قاسم المذكور سلفاً(3).

ولأن صياغة الشعر ونظمه تسير بسهولة حين لا يتم الاكتراث بالمضمون إذ أن اللغة الكلاسيكية ذات الجرس فى الأذن تساعد على هذا النظم فإن كل الشعراء المسلمين الذين لم يولدوا فى عائلات من العامة فى ذلك الوقت قد نشأوا هذه النشأة الأدبية، وكان الذوق والجو العام يساعدان على ذلك، كما حدث لدينا فى زمن الأركاديا. ومن الذين تناولوا موضوعات أخلاقية ولم يبرزوا فى جمال الصيغة يمكننا أن نلاحظ ما يميزهم، أى كيف كانوا يدركون فلسفة الحياة العملية: فالبعض يتغنى بالخمر والراقصات وحيـــاة اللهو مثل أبو بكر محمد بن على بن عبد الجبـار الكمونى(4) فى إفريقية، وأبو على بن حسين بن خالد، الكاتب(5)، وأبو عباس محمد بن القاف(6)، والبعض الآخر متزمت زاهد منصرف إلى حيـاة الآخرة عن الحيـــاة الدنيا مثل أبو حفص عمر بن محمد بن السطبرق، الصالح المعروف(7) وأبو الكريم أحمد بن إبراهيم الودانى(8)، والمذكورون سلفاً أبو على أحمد بن محمد بن القاف الكاتب(9)، وابن مكى(10)، وعبد الرحمن بن

(1) الموضع نفسه.
(2) المرجع المذكور، ص ٥٩٨.
(3) فى هذا الفصل ص ٥٠٠.
(4) **الخريدة**، ص ٥٩٧.
(5) المرجع المذكور، ص ٥٩٢.
(6) الموضع نفسه.
(7) المرجع المذكور، ص ٥٩٧.
(8) المرجع المذكور، ص ٥٩١.
(9) المرجع المذكور، ص ٥٩٢. هذا وسابقه يتميزان بالوقار الأنيق فى الأبيات القليلة التى لدينا منهما. وأحمد، كما هو واضح للجميع، شقيق أبو عباس بن محمد المذكور قبل قليل.
(10) ص ٥٢٤.

عبد الغنى(1)، وعتيق(2)، والسيراكوزى ابن الفحام(3)، وعلى الودانى(4). ولدينا لآخرين مقطوعات وصفية ليس لها شأن، ومرثيات ومقولات لاذعة نلمس فيها القليل أو لا نلمس شيئاً. وصاغ أبو محمد عبد العزيز بن حاكم بن عمر من قبيلة معفر اليمنية بضعة أبيات عن الأجسام السمائية(5). أما أبو الفتح أحمد بن على الشامى فقد مدحه مؤلف المختارات الأدبية الصقلية الذى سأله بضعة أبيات يضمها إلى المجموعة(6)؛ فى حين كان الفقر يصر على ملاحقة رزيق بن عبد الله، وذات مرة بعد أن وهبته إحدى الشـخصيات العظيمة كيساً من الذهب وعاد إلى بيته سـعيداً للغاية، وجد أن لصـاً قد سرق ما فيه فتفجر ألمه فى أبيـات من الشـعر(7). كما قال ابن القطـاع بأن الكاتب ابن الكركودى شـاعر عظيم القدر، ولكنى لم أتبين ذلك فى شعره(8). ويمكن أن نضيف إلى القائمة: أبا حسن الصقلى(9) وعبد العزيز البلنوبى شـقيق على(10)، وأبا عبد الله محمـد بن العطـار(11) الكاتب، وعبد الوهاب بن عبد الله بن مبارك(12) وأبا الحسن بن عبد الله من طرابلس أو من ترابانى(13)، وأبا محمد عبد الله بن مخلوف

(1) ص ٤٨٨.
(2) الموضع نفسه.
(3) ص ٤٨٥.
(4) ص ٤٨٨.
(5) **الخريدة**، المرجع المذكور، ص ٥٩١.
(6) **الخريدة**، المرجع المذكور، ص ٥٩٨.
(7) المرجع المذكور، ص ٥٩٧.
(8) المصدر السابق، ص ٥٩٥.
(9) قد يكون البلنوبى أو أبا حسن، ولدينا له خمسة أبيات فقط دون أية إشارة لسيرته فى موسوعة النويرى، مخطوطة ليدن ٢٧٣، ص ٧٤٧ و٧٤٩.
(10) ياقوت، **المعجم**، مستلة فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ١٠٨.
(11) **الخريدة**، مستلة من ابن القطاع فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٥٩٨.
(12) الموضع نفسه.
(13) المصدر السابق، ص ٥٩٧.

المتلعثم(1) والكاتب ابن سرعين(2) الذين خلفوا لنا أبياتاً قليلة أو لم يتركوا شيئاً يذكر. وفى سبيلنا ونحن نعالج دراسات أخرى شعرنا بالحاجة إلى ذكر بعض الشعراء وتحدثنا عن المحاسن التى تنسب إلى شعرهم وهم كل من خلوف البرقى(3) وابن عبد البر(4) وجعفر ابن القطاع(5) ودميعة(6) ويعـقوب رُنيدى(7) وعلى بن حسـن بن حبـيب(8)، وابن سدس(9) وطاهر الرقبانى(10) وابنه على(11)، وعثمان بن على السيراكوزى(12)، وعلى بن ودانى(13)، وعبد الله بن مصيب(14) وابن القرنى(15) وأبو بكر محمد(16).

مما سـلف عرضـه يمكننا أن نستخلص أن الشعر عاود ازدهاره فى صـقلية بعد ثلاثة عشـر قرناً، وإن لم يضاه بهاؤه شعر عصـر تيوكريتس وستيسيكورس فقد أفرز ما كانت تسـمح به دائرة الشعر العربية. ولا يمكن أن يبدو لنا نحن الإيطاليين، بل لكل الأوربيين الذين شبّوا على مبادئ المدرسة الإغريقية، مقاماً هانئاً قاعة أودين* الأثيرية، ولا خيمة البدو حيث كان التبارى فى الكنايات

(1) الموضع نفسه.
(2) المرجع السابق، ص ٥٩٥.
(3) ص ٤٨٨ فى هذا الفصل.
(4) ص ٥١٦ فى هذا الفصل.
(5) ص ٥١٧ فى هذا الفصل.
(6) ص ٥٢٣ فى هذا الفصل.
(7) الموضع نفسه.
(8) الموضع نفسه.
(9) الموضع نفسه.
(10) ص ٥٢٣.
(11) ص ٥٢٣.
(12) ص ٤٨٨ و٥٢٣ فى هذا الفصل.
(13) ص ٤٨٨ فى هذا الفصل.
(14) ص ٥٢٣ فى هذا الفصل.
(15) ص ٥٢٧ فى هذا الفصل.
(16) ص ٥٢٢ فى هذا الفصل.
* إله الحرب والشعر عند الجرمان (المترجم).

الجريئة والوصف فوق الوصف والتقابل اللانهائى فى الأفكار والطباق فى المفردات، والتشبيهات الغريبة المصطنعة واللغة الممحصة المتكلفة أو الميتة المندثرة ولغة البدو الرحل التى لم تعد تناسب أفكار الجماعات الإسلامية فى أوربا، ولكن احترام وتقديس القديم كان يبعث على استخدامها. ولكن لأول وهلة قد تعشى أنظارنا كل تلك البهرجة والجواهر الزجاجية التى كان يزين بها الشعراء العرب فى صقلية أشعارهم مثل باقى شعراء عصرهم الذين يتحدثون لغتهم: هناك العيون الفتاكة والرموش القاطعة مثل السيوف، والوجنات الملتهبة التى ينبت عليها ريحان اللحى، أو الوجنات الوردية، وهناك من أطلق عليها الوجنات الياقوتية التى تلدغها عقارب الشعر الأسود الملتف فى حلقات، وأغصان البان التى(1) تعلوها البدور، بمعنى الشباب اليقظ والوجه الصبوح اللامع، والشعر الأبيض الذى ينشر الظلام، وصور لا نهائية تسير على نفس الوتيرة تغنى بها ابن حمديس وابن الطوبى وأبو العرب وابن التازى والبلنوبى أيضاً. لكن يجب أن نضع فى الاعتبار أن دلالة الإبداع المختلفة فى اللغات تنأى بالمذاق اللاذع الذى تخلفه الصور والتعبيرات المجازية فى لغة عن الأخرى: الأمر الذى نلاحظه بين اللغات ذات الأصل الواحد التى نتكلمها فى أوربا، علاوة على اللغات الهندأوربية والسامية. وإذا توغلنا فى الأعمـاق نكتشف غالباً أفكاراً بسيطة سامية، ولغة تلقائية فى التعبير عن المشاعر، وألواناً حقيقية، وتصويراً دقيقاً، وجمالاً غير متكلف، ويمكننا القول إنه إذا ارتدت ربات الشعر العربى السمراوات طرزنا فقد يرتقين إلى الجمال. وأرى أنه فى الحكم على شعراء صقلية العرب، من الفقرات التى عرضناها، ومن الأعمال الكاملة التى آمل أن تعرض يوماً ما فى إيطاليا، يجب أن ننظر إلى الأفكار والمفاهيم أكثر من الشكل الذى تعرض به، وأن نقبل، وهذا

(1) *Salix Ægyptiaca*.

حق، آراء النقاد العرب الخاصة بالصياغة والتى أشرت إليها فى مقامها المناسب. وربما كان كتاب التراجم وأصحاب المختارات الأدبية الذين حفظوا لنا مقطوعات من الشعراء العرب الصقليين قد غبنوهم ومنعوا عنهم تقريظنا الذى يستحقونه، بأن نقلوا فقط الأبيات التى قد ننحيها نحن جانباً وتغاضوا عن تلك التى قد نختارها ونفضلها(1) لأنها غير ذات قيمة بالنسبة لهم.

وأخيراً نود أن نشير إلى المغنيين الذين كانوا غالباً ينشدون أبيات الشعر على العود: وهى عادة أخذها العرب عن الفرس وأدانها المسلمون الصالحون وتجنبوها عندما كانت تقام لهم، أما الأغنياء والعظماء فكانوا غالباً ما يدعون مع فرقة العازفين المغنيات والراقصات. إن المتعة الهائلة التى نهل منها مسلمو صقلية وما عانوا منه نستشفه فى شعرهم حيث تغلب عليه الصور الفنية التى تبدد أفكار الأسى وأحاسيسه وتدفع إلى الابتهاج؛ ولم يستنكف الشعراء مديح الموسيقيين وفى بعض الأحيان هجاءهم: وقد هجا ابن التازى أحدهم قائلاً:

ومُغنٍّ نحن منـــــه بين أقســـــام وكُربهْ
يضرب العـــــودَ لكن ضربُه يوجب ضَرْبَه(2).

وتسجل وقائع بنى عباد فى فزع لا يخلو من الخرافات موقف الموسيقى الصقلى، وهكذا كانوا يدعونه، الذى كان يحصل على مُرتب من المعتضد. وعندما سيطر على هذا الأخير خاطر متواصل بأنه مشرف على الموت وبانهيار حكم أسرته أراد أن يتفاءل بالأبيات

(1) هذا ما نعتقده مسبقاً. ويؤكد ذلك **ديوان** ابن حمديس الذى وصلنا كاملاً، وقد اختار منه عماد الدين وابن خلكان وشهاب الدين عمرى بعض الفقرات البديعة وفقرات عديدة متواضعة، وتركوا أفضلها بما يتناقض مع ذوقنا دائماً.

(2) **الخريدة**، مستلات من ابن القطاع، فى مخطوطة باريس، *Ancien Fonds*، ١٣٧٥، ورقة ٢٧ الوجه الثانى، وهجائيات لاذعة أخرى لابن التازى من الورقة ٢٤ الوجه الأول، وأخرى لمشرف بن راشد، الورقة ٣٩ الوجه الأول، ووصف إحدى جلسات اللهو لابن حمديس، مذكورة فى ص ٥٤١.

التى تنشد له دون تدبير، فأمر بحضور الموسيقى الصقلى وقربه منه وشرفه وداعبه وسأله أن يغنى، وألقى على الصقلى خمسة أبيات استهلالها على هذا النحو «نقضى الليالى ونعلم أنها تقضى علينا»، وبالفعل بعد خمسة أيام بالضبط واتت الأمير المنية(1).

وعند إضافة الأسماء التى استعرضناها فى هذا الفصل إلى تلك التى ذكرناها فى الفصل الحادى عشر من الكتاب الثالث سيكون لدينا (باستثناء تكرار بعض الأسماء التى لم يتسن لنا توضيحها) حوالى مائة وعشرون مسلماً فى صقلية وحوالى اثنى عشر أجنبياً أقاموا فى الجزيرة برزوا فى العلوم والآداب حتى نهاية الحكم الإسلامى. ويعد هذا الإطار الذى كُتب فى غالبيته دون معرفة أعمالهم وإنما على أساس الإشارات التى ذكرها فقط المؤلفون العرب، يعد من المؤكد مبتوراً وغير كامل، وسيلقى أيضاً بالظلال على ثقافة صقلية فى تلك العصور، والتى حامت حولها الافتراضات بدلاً من معرفتها عندما تهيأت لإعداد هذه الدراسة الشاقة. وعندما نصل فى الكتاب السادس إلى العلماء والأدباء الذين ظلوا حتى عصر فدريكو سأحاول البحث عن الدور الذى يجب أن ننسبه إلى المسلمين فى نهضة الدراسات الإيطالية.

(1) ابن الأبّار، فى كتاب دوزى، *Historia Abbadidarum*، المجلد الثانى، ص ٦٢، ومستلة من **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٣٢٩.

الفصل الخامس عشر

رأينا أن مصادر الثراء والنهضة كانت عديدة، فقد تم ارساء القواعد الاجتماعية وانتبهت العقول إلى العلوم وكل أنواع الآداب، ولم يتنكر أحد من الرجال لقيم الجنس العربى أو اليونانى أو الإيطالى، ولم يجهل أى منهم فنون القتال أو أدواته فى تلك العصور. وكانت العادات بين حميدة وسيئة: فنجد من ناحية الحسد والبخل وكراهية البعض ومغالاة البعض الآخر فى العادات السيئة، ولكنها عادات يدينها الكل، ومن ناحية أخرى هناك بر الأبناء والوفاء للصداقة والسخاء والنفوس الذكية الكريمة وضياء الحب الذى كان يسطع حتى داخل أسوار الحريم، وعلى هذا تبدو النقائص الحقيقية للمجتمع الإسلامى فى صقلية اثنتان: العنف والريبة. كما أن شأن العقيدة الإسلامية لم يقل بالتأكيد فى صقلية إذ لم تكن هناك أية مدارس للشك ولم يُسمع عن انقسام دينى أو عن طوائف الخوارج أو تشيع لآل على: بل كان هناك شباب مقبل على الدنيا يحتسى الخمر ويستمتع بالغناء والموسيقى والرقص ثم يتوب عن ذلك؛ وكان هناك عدد أكبر من الصالحين يمارسون بحزم الشعائر الدينية ويدعون إليها وإلى حياة الزهد إلى حد الانقطاع عن الدنيا الخاص بالصوفية. وأنانية المنعَّمين والزهاد، وهو ما لا مفر منه فى بعض الأديان، تعد أحد مظاهر وليس أسباب الانحطاط الذى كان يهلك صقلية مثل أى مستوطنة عربية أخرى دون استثناء ويُمثل السبب فى انهيار أواصر الدولة؛ حيث إن قوى المجتمع لم تجتمع معاً حباً فى الوطن أو إذعانا لأمر القيادة، ولكن انشغلت كل منها بأمورها. ذكرنا آنفاً كيف أن إمبراطورية العرب قد ولدت وهى تحتضن بذرة الموت المبكر: بسبب مسلك الفاتحين وعدم اندماج الشعوب المهزومة اندماجاً تاماً،

وجمود القوانين والتشريعات، والحاجة إلى حكم الفرد وضعفه، والمرتزقة الأجانب وتنظيم الجند تنظيماً أرستقراطياً وتشّوش ديمقراطية إدارة الجماعة والتعصب للنسب: أى حالة من الفوضى العامة فى شكل وحدة دينية وسياسية. من هنا تفسخت الخلافة، وتفتت أجزاؤها؛ وفى القرن الحادى عشر، أخذت هذه الأجزاء الصغيرة تتطاحن؛ ومع هذا لم تتوان قوة الانصار عن التأثير فى ذرات الغبـار هذه وفى إعادة تركيبهـا. بانقسام صقلية بين جماعة بالرمو، بين ابن حواش وابن مكلاتى وابن منكوت، استمرت فى شقاقها حتى أكتمل الفتح النورماندى بعدما تدهورت أحوال المؤسسات لاختلاف الأجناس. وفى شرق صقلية كانت هناك شعوب مسيحية خاضعة لأشراف العرب، وفى الوسط كان العامة الصقليون الذين اعتنقوا الإسلام، وفى الغرب كان هناك مواطنو الأراضى الواسعة، وتغلغل بين كل هؤلاء بقايا البربر من هجرات لا أعرف لها عدداً، ولاجئون عرب من أفريقية وأسبانيا. وكانوا بالفعل اليد التى رمز إليها ابن حمديس التى لم تستطع فى ساعة الخطر القبض على السيوف.

ويضاف إلى التحريض على الشقاق طموح المعز بن باديس والهزيمة العاجلة التى أتت عليه، والضربة المضادة التى كان لها بالضرورة أثرها فى صقلية. ففى منتصف القرن الحادى عشر تماماً ارتحل إلى مملكة تونس - كما تسمى اليوم - العرب الذين هجروا أفريقيا الشمالية ثم أعادوا إعمارها، حيث كانت سلالة أوائل الفاتحين قد صارت هزيلة ومنهكة. وسبب ذلك النزوح أن المعز لما أنكر سلطة الخلافة الفاطمية، اعترف بخلفاء بغداد ونادى باسمهم، وعندئذ أراد الوزير يزورى الذى كان يتولى مقاليد الأمور فى القاهرة ولم يتمكن من استعادة الإقليم بالقتال، أن يغرقه بقطاع الطرق: فقام

بتحريض قبيلتى الهلالية وسليم البدويتين، وكانوا ضيوفاً مزعجين فى صعيد مصر، ووزع على كل واحد منهم عباءة وديناراً من الذهب ونقلهم إلى غرب النيل (١٠٥١). وأنجزوا المهمة خلال ستة أعوام، فدفعوا بالمعز إلى أقصى سواحل البحر على صخور المهدية الحصينة، حيث كان يسيطر بشكل غير مؤكد على بعض مدن الساحل بفضل الأسطول والعبيد المرتزقة(1). فى هذه الحرب نهب العرب القيروان (نوفمبر ١٠٥٧) ففر مواطنوها إلى أقصى غرب أفريقية، وبعضهم إلى أسبانيا والبعض الآخر إلى صقلية(2). ولما تهاوت على هذا النحو أقدار المعز رأينا الجيش الذى عمل تحت إمرته فى بداية الحرب الأهلية يحط فى صقلية ثم ينقلب عليه (١٠٤٠)، ولا يبدو لى غريباً أن هذا الجيش استأنف اتصالاته، بعد أن تحصن فى كاستروچوڤانى وچرچنتى مع ابن حواش. ولكن بعد طرد صمصام من بالرمو ووفاته يبدو أن جماعة بالرمو والجماعات الكبرى الأخرى التى ارتابت فى هذه الاتصالات قد انضمت إلى جانب الأشراف ضد على بن حواش. ولما كانت عاصفة جديدة تهب على صقلية(3) فقد ظهر فجأة أمير طائفة يدعى

---

(1) قارن بين: ابن الأثير، المخطوطة C، المجلد الخامس، وقائع أعوام ٤٣٥، ٤٤٢، ٤٤٨، ٤٥٣، ٤٥٥؛ وأبى الفدا نفس الأعوام؛ **والبيان**، النص، المجلد الأول، ص ٢٨٨ وما بعدها؛ وابن خلدون، *Histoire des Berbères*، ترجمة م. دى سلان، المجلد الأول، ص ٣١ وما بعدها، والمجلد الثانى ص ٢١؛ والتيجانى فى *Journal Asiatique*، أغسطس ١٨٥٢، من ص ٨٤ إلى ٩٦؛ وليونى الأفريقى عند *Ramusio, Navigatione et Viaggi*، المجلد الأول، الورقة ٣ الوجهين الأول والثانى، طبعة ڤينيسيا ١٥٦٣.

(2) المراكشى، *The history of the Almohades*، النص العربى، إصدار الأستاذ دوزى، ص ٢٥٩.

(3) يقول النويرى، فى كتاب دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٢٤، إن صقلية من جديد «هاجت مثل أمواج البحر». وأعتقد أن دى جريجوريو قد صوب النص وترجمه *"et solemnis precatio pro eo fiebat in insula"* مشيراً إلى ابن حواس. ولكن النص واضح وبلا أخطاء.

محمد بن إبراهيم بن الثمنة، وهو من الشخصيات البارزة ذات النفوذ، إذا قرأنا قراءة صحيحة قول ابن خلدون(1)، فهو لم يولد بالتأكيد فى عائلة من العامة(2)، وصار سيداً على سيراكوزا ولا يعلم أحد متى وكيف، وما إذا كانت هى موطنه أم لا. وبعد أن هجم على ابن المكلاتى قائد كتانيا الذى كان متزوجاً من ميمونة شقيقة على بن حواس، قهره وسلبه حياته ودولته وامرأته؛ وبعد انقضاء عدتها طلب يدها من أخيها وتزوجها. وهكذا يتضح أن سيد كاستروچوڤانى لم يكن بمقدوره مساعدة صهره وحليفه بالتأكيد، ولا أن يتأبى بأخته عن القاتل. وفى الوقت ذاته زال كل أثر لبنى منكوت سادة الطرف الغربى من الجزيرة. وخضع الجزء الأكبر من الجزيرة لابن الثمنة الذى جرؤ على اتخاذ لقب أحد خلفاء بغداد(3) القادر بالله، وألقيت الخطب له فى بالرمو(4). وصحيح أن الجماعة قد منحته سيادة اسمية فى العاصمة، إلا أنها عاونته علاوة على ذلك فى الهجوم على كتانيا

---

(1) *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٨١ من ترجمة م. دى ڤرچيه. وفيه نقرأ *"L'un des principaux chefs des habitants les plus turbulents de la Ville"* والكلمة التى كتبتها بخط مائل قد تكون ترجمة مقبولة لكلمة **اوغار** كما صحح م. دى ڤرچيه نص المخطوطة الوحيدة والمتواضعة التى كانت فى متناول يده. وفيها نقرأ **ارغاد** التى قد تعنى «رجالا يعيشون فى هناء»، ولكنها لا تتوافق مع كلمة «كبار القوم» التى تسبقها. ولكن إحدى مخطوطات تونس تذكر **اجواد** «النبلاء» والتى أخذت بها فى **المكتبة العربية ـ الصقلية**، ص ٤٨٤. وفضلاً عن هذا فإن قراءات المخطوطة ونص م. دى ڤرچيه قد تحوى كلمات قديمة مهجورة أو مستجدة، وعلى النقيض من ذلك ما ذكرته مخطوطة تونس من كلمة شائعة الاستخدام، وتعنى بالضبط مع الكلمة السابقة عليها «رؤساء النبلاء».

(2) انظر فقرة ليونى دأوستيا التى ذكرتها فى الفصل الثانى عشر من هذا الكتاب، ص ٤٣٢ فى الهامش.

(3) حكم أو ظل على العرش من عام ٩٩١ إلى عام ١٠٣١.

(4) ابن خلدون والنويرى.

وبعض المدن الساحلية الأخرى بالأسطول الذى لم يكن ليجهز إلا فى بالرمو. وتهيأت على هذا النحو قاعدة لقيادة الحرب إذا ما تعرّضت صقلية لأى هجوم. وأظن أن هذه الأحداث قد وقعت عام ١٠٥٣ من التقويم الميلادى حين كان المعز فى مأزق حقيقى، عندما أرسل فى عام ٤٤٥ هجرية (١٠٥٣ ـ ١٠٥٤) أسطوله لإخماد تمرد سوسه عليه فوجد فى تلك البحار أسطول صاحب صقلية وخشى عداءه فاستدار عائداً(1). وتسمية صاحب تتوافق مع ابن الثمنة وكذلك عداء بيت الزيريين له.

استمر قدر المستطاع الوفاق بين رئيسى الطائفتين، وكان أحدهما منتصراً لا يخشى أى تهديد من الخارج، والآخر خاضعاً ذليلاً، وتوجه كلاهما للإفادة من القوة المحايدة آنذاك، ألا وهى الجماعات. وهيأت صلات القرابة والمصاهرة الفرصة لإشعال العداء. كانت ميمونة امرأة متعجرفة ذات بديهة حاضرة وسليطة اللسان اعتادت الشجار مع زوجها الذى كان يحبها وما كانت هى تحبه، وربما كان الزوج يعاير بنت الحواش بميولها الغوغائية. وذات ليلة لعبت الخمر برأس ابن الثمنة فراح يخوض فى الشجار مع زوجته، وهوى إلى أقذع السباب وكالت له ميمونة الشتائم، وراح الثمل الهائج، وكأنه قرأ شطط كاليجولا ونيرون، يأمر بقطع شرايين ذراعيها. لكن ابنا لها يدعى إبراهيم أسعفها فى الحال فاستدعى الأطباء وأوقفوا نزيف الدم، ولما عادابن الثمنة إلى رشده فى اليوم التالى راح يعتذر لها عما ارتكبه ثملا، وتظاهرت ميمونة بالصفح عنه. وبعد فترة هدوء طلبت منه السماح

(1) التيجانى، الترجمة، المرجع المذكور، ص ١٠٩؛ والنص فى **المكتبة العربية الصقلية**، ص ٣٧٧ ـ ٣٧٨.

لها بزيارة ذويها فصرح لها، إما لعدم ارتيابه فى شئ أو لعدم اكتراثه بالأمر أو لأنه كان يبحث عن مبرر لإثارة مشاجرة مع ابن حواش، وبعثها مع حراسة شرف وهدايا قيمة إلى كاستروچوڤانى. عندئذ روت ميمونة ما حدث لأخيها فأقسم لها ألا يردها إلى السيد المتوحش. وهنا راح ابن الثمنة يطالبه بحقوقه بوصفه زوجاً وملكاً، ويهدد بالوعيد من كان يظنه تابعاً من العامة: ولكن ابن حواش لم يتخل عن رفضه، فجيش كلاهما الجيوش.

تحرك ابن الثمنة لحصار كاستروچوڤانى، وخرج خصمه لملاقاته وقطّع جيش العدو إرباً كما تقول الحوليات وطارده حتى مشارف كتانيا مع إعمال كثير من القتل فيه. ولا نعلم إذا ما كانت كل صقلية من كاتانيا وبعض المدن الأخرى وأيضاً بالرمو قد خضعت بالطاعة للمنتصر قبل الهزيمة أو بعدها. وهنا ندرك أن مواطنى العاصمة والمدن الكبرى التى كثيراً ما حسمت النزاع بين الطرفين بتحزبها إلى هذا الطرف تارة وإلى ذلك تارة أخرى قد قاموا بهذه الثورة لصالح ابن حواش. وفى الحقيقة لما انقشع الخوف من جيوش المعز كان على كبير الأشراف أن يشدد قبضته على كل المواطنين وكذلك على الجانب الصقلى وأن يسعى لانتزاع السيادة من مناطق الجزيرة التى لم يمارس فيها إلا سيادة إسمية. ومن هنا فإن الطرف الثالث، كما قد يطلق عليه الآن، طرحه أرضاً مثل الأكحل وابن المعز والصمصام. وحين وصل ابن الثمنة إلى درجة الاختناق تذكر أن المسيحيين موجودون فى صقلية وكلابريا. ومن المؤكد أنه كانت قد جرت اتصالات بين هؤلاء وأولئك منذ أن ظهرت ترفرف فى مسينا على الساحل الآخر للمضيق رايات النورمان المنتصرين. وانضم السيد المسلم خائناً لعشيرته ودينه إلى مؤامرات من أراد التحرر من النير:

فأسرع إلى ميليتو وعرض صقلية على الكونت روچيرو على الأمل المعتاد بأن يفتحها ذلك المسيحى ليهبها له(1).

---

(1) قارن بين: ابن الأثير، عام ٤٨٤، فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٢٧٥ ٢٧٦ من النص، وأبى الفدا، *Annales Moslemici*، المجلد الثالث، ص ٢٧٤ وما بعدها، وقائع عام ٤٨٤، وابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ترجمة م. دى ڤرچيه، ص ١٨١ وما بعدها، والنويرى، فى كتاب دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٢٣ - ٢٤؛ وابن أبى دينار، *Storia d'Africa* فى **المكتبة العربية - الصقلية**، النص، ص ٥٣٣، والذين يكررون نفس الرواية بتفاصيل قد تزيد أو تقل. انظر أيضاً أماتو *L'Ystoire de li Normant*، الكتاب الخامس، الفصل الثامن؛ و*Anonymi Chronicon-Siculum*، لدى كاروزو، *Biblioteca Sicula*، ص ٨٣٦؛ والترجمة الفرنسية فى نفس جزء أماتو، ص ٢٧٨؛ ومالاتيرا، الكتاب الثانى، الفصل الثالث؛ وليونى دوستيا، الكتاب الثالث، الفصل ٤٥؛ ومنهم من يقول أن ابن الثمنة طردته بالرمو ومن يقول طرده صهر ابن الحواش الذى قتله؛ ومنهم فقط ندرك أن ابن الحواش قد تم الاعتراف به أميراً فى بالرمو. والأسماء محورة ورغم هذا يمكن التعرف عليها. ابن الثمنة كتب على هذا النحو *Bettumenus, Vulthuminus, Vultimino, Benthumen,* إلخ، وابن مكلاتى مكتوب *Belcamedus, Bercanen, Benneclerus*، وفى إحدى روايات كاروزو، المرجع السابق، ص ١٧٩، *Be=emeclerus*؛ وحدث أكبر تحريف فى اسم ابن الحواس فهو *Belchaoth* و*Belchus* إلخ. ويبقى دائماً من كلمة ابن حرف ب ويلتصق به حرف اللام من أداة التعريف التى تليه، وهى بالضبط أيضاً أول حرف ساكن من اسم العائلة والباقى يختفى.
يجب أن أضيف أن ابن الچوزى، وهو مؤلف من القرن الثالث عشر، قد ذكر فى جدية رواية منافية للواقع ولم يستمدها بالتأكيد من أى من الحوليات الإسلامية، ولكن من بعض الروايات الشفهية أو مجموعات النوادر. كتب أن الفرنجة غزوا صقلية عام ٤٦٣ (١٠٧٠ - ١٠٧١) بعد أن دعاهم ابن بأبأ حاكم الجزيرة لخوفه من خليفة مصر الذى كان يطالبه بالجزية ولم يتمكن من دفعها. نقرؤها فى مرآة الزمان فى **المكتبة العربية - الصقلية**، ص ٣٢٦.

الفهرست

ملخص فصول المجلد الثانى

الكتاب الثالث

الفصل الأول

صفحة

Scanned with CamScanner

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الكتاب الرابع

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

صفحة

الفصل الحادى عشر

الفصل الثانى عشر

صفحة

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

نهاية المجلد الثانى

